الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الإسكندر
Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثالث

أقاصي الأرض
THE ENDS OF THE EARTH



فاليريو ماسيمو مانفريدي
VALERIO MASSIMO MANFREDI

الإسكندر

Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثالث

أقاصي الأرض

THE ENDS OF THE EARTH

الإسكندر
Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الثالث

أقاصي الأرض
THE ENDS OF THE EARTH

تأليف

فاليريو ماسيمو مانفريدي

Valerio Massimo Manfredi

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة كتاب
Alexandros, Vol 3: Le Sabbie di Amon
by Valerio Massimo Manfredi
Alexander: The Ends Of The Earth
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Arnoldo Mondadori Editore S.p.A., Milano
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0135-7

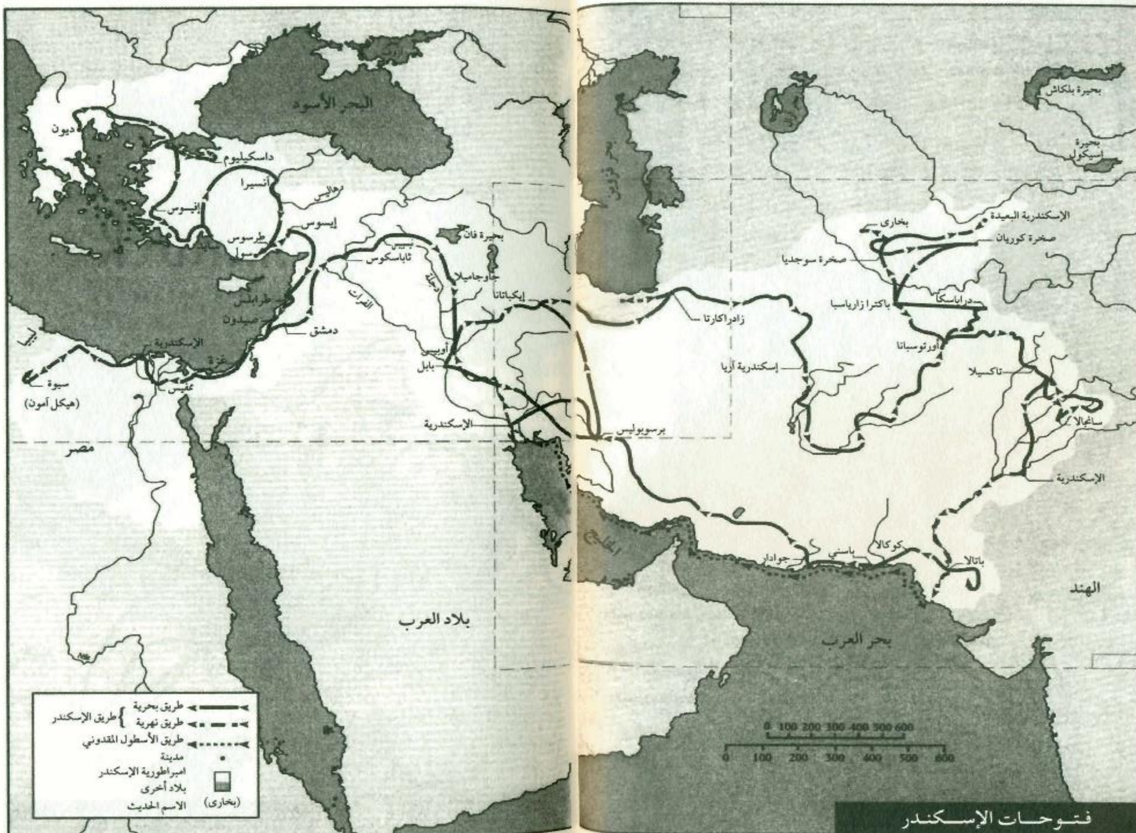
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

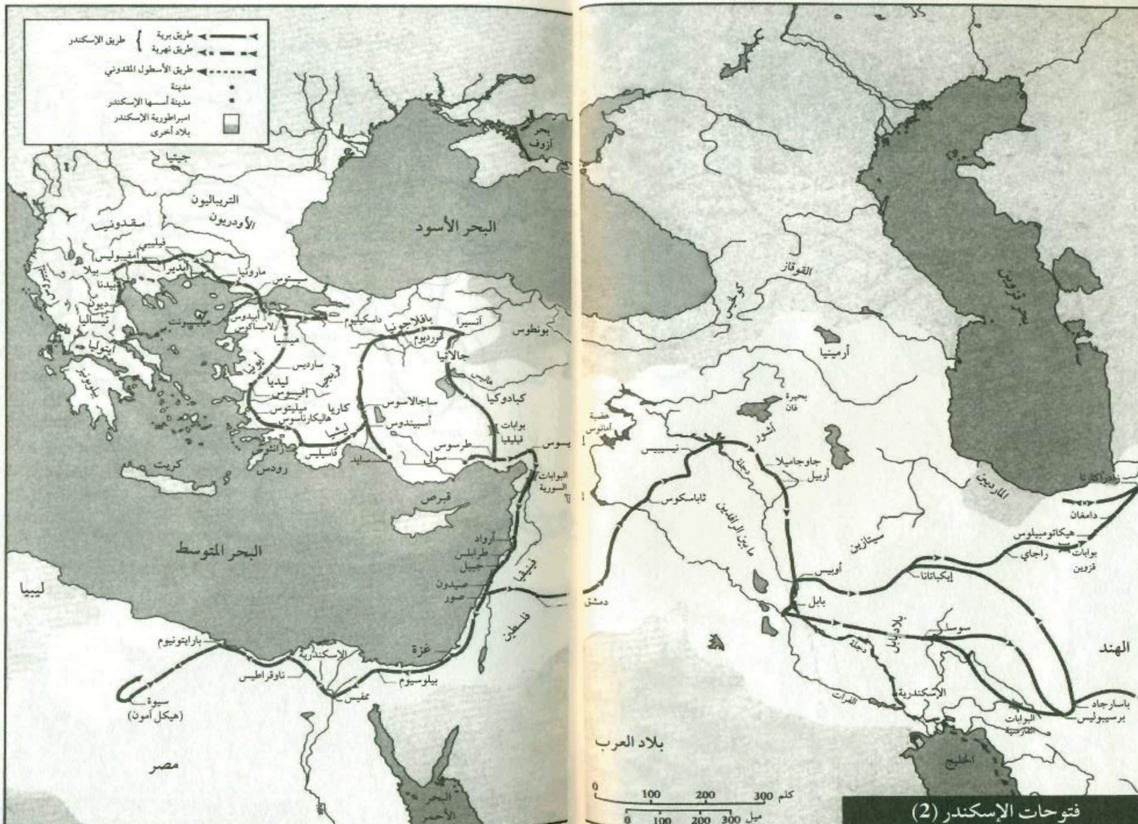
التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (9611+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

إلى كريستين



فتوحات الإسكندر
البحر الأسود
ديون
داسكيليوم
أنسيرا
إفيسوس
طرسوس
إيسوس
ثاباسكوس
طرابلس
صيدون
دمشق
الإسكندرية
غزة
ممفيس
سيوة
(هيكل آمون)
مصر
الفرات
بحيرة فان
جاوجاميلا
إيكباتانا
أوبيس
بابل
الإسكندرية
بلاد العرب
برسوبوليس
زادراكارتا
إسكندرية أريا
باكترا زارياسبا
دراباسكا
أورتوسبانا
صخرة سوجديا
بخارى
الإسكندرية البعيدة
صخرة كوريان
بحيرة بلكاش
بحيرة إسيكول
تاكسيلا
سانجالا
الإسكندرية
الهند
باتالا
كوكالا
باسني
جوادار
الخليج
بحر العرب
طريق بحرية
طريق نهرية
طريق الإسكندر
طريق الأسطول المقدوني
مدينة
امبراطورية الإسكندر
بلاد أخرى
الاسم الحديث
(بخارى)
0 100 200 300 400 500 600
0 100 200 300 400 500 600



فتوحات الإسكندر (2)



اليونان القديمة

1

انطلق الملك مجدداً عبر الصحراء، لكنّه اتبع هذه المرّة طريقاً مختلفة تـصل مباشـرةً بين واحة آمون وضفتي نهر النيل بالقرب من ممفيس. امتطى صهوة جواده البني المائل إلى اللون الأحمر، بينما أخذ بوسيفالاس يجري بمحاذاته من دون عنان أو سرج. فلقد أدرك الإسكندر أن الرحلة ستسـتغرق وقتاً طويلاً، ولذلك أراد أن يريح جواده قدر الإمكان كي يوفّر قوته وحيويته.

اسـتغرق الـزحف ثلاثة أسابيع تحت أشعة الشمس الحارقة، لـذلك عـانى الجـنود الكثير قبل أن يظهر أمامهم الخط الضيّق من الأشجار الخضراء التي تحيط بضفتي النيل الخصبتين. بدا الإسكندر غير مكتـرثٍ بالإجهـاد، والجوع، والعطش، إذ كان غارقاً في أفكاره وذكرياته.

حـاول رفاقه عدم قطع أحلام يقظته، لأنهم أدركوا أنه يرغب في أن يكـون وحيداً وسط مساحات الصحراء اللامتناهية، وأنه يريد أن يكون بمفرده مع أحلامه المقلقة المتعلقة بالخلود، ومع طموحاته. صعُب علـيهم الاقتـراب مـن الملك إلا عند حلول المساء. إذ كان بعضهم يدخلـون خيمـته في بعض الأحيان كي يتحدثوا إليه، ويسلّوه، فيما تساعده ليبتين على الاغتسال.

فاجـأه بطليموس ذات يوم بسؤالٍ أراد أن يطرحه عليه منذ زمنٍ طويل: "ماذا قال لك زيوس آمون؟".

ردّ الإسكندر: "قال لي كلمة /بني".

تناول بطليموس الإسفنجة التي وقعت من يد ليبتين وناولها إياها.

"وماذا سألتَه؟".

"سألته إن كان قد بقي أحد من قتلة والدي على قيد الحياة؟".

لم يقل بطليموس أيّ شيء، بل انتظر حتى خرج الملك من حوض الاستحمام، فوضع منشفةً من الكتان النظيف على كتفيه، ثم بدأ بتجفيفه. استدار الإسكندر، فنظر صديقه إلى عينيه بثبات وسأله: "إذاً، هل ما زلت تحب والدك فيليب الآن وقد أصبحتَ ابناً لآمون؟".

تنهّد الإسكندر وقال: "لو لم تكن هنا أمامي في هذه اللحظة لكنت افترضت أن كاليستين هو الذي طرح هذا السؤال، أو كلايتوس الأسود... أعطِني سيفك". نظر إليه بطليموس بدهشة، ولكنه لم يجرؤ على الرد، بل استل سيفه من غمده، وقدّمه إلى الملك، وما لبث الإسكندر أن أخذ السلاح منه، وجرح ذراعه بحد السيف المعدني، فسال الدم غزيراً.

"ما هذا يا بطليموس، إذا لم يكن دماً؟".

"إنه دم بالفعل".

"تماماً، لأنه ليس اليعصور الذي يُقال إنه يجري في عروق **آمون**". وتابع مستشهداً بقول لهوميروس: "لذلك حاوِل أن تفهمني يا صديقي. فإذا كنتَ تحبني، فإنني أريدك أن تضع حدّاً لهذه الأقوال التي لا أساس لها من الصحة".

فهمَ بطليموس، واعتذر إليه لأنه تكلّم بهذه الطريقة، بينما راحت ليبتين تغسل ذراع الملك بالشراب قبل أن تضع ضمادة حول جرحه.

لاحظ الإسكندر أن صديقه آسفٌ بالفعل، فدعاه إلى البقاء كي يتناول العشاء معه، بالرغم من عدم وجود الكثير من الطعام. إذ كان هناك فقط خبز يابس، وبعض التمر، وبعض شراب التمر الذي يتميز بالحدة.

سأل بطليموس: "ماذا سنفعل الآن؟".

"أعتزم العودة إلى صور".

"وماذا بعد ذلك؟".

"لا أعرف. أعتقد أن أنتيباتر سيرسل إليّ من يخبرني بما يحصل في اليونان، كما أن مخبرينا سيعلموننا بما يعتزم داريوس أن يفعله. سأؤجل القرار إلى أن تصلنا الأخبار".

"أعلم أن إيومينيس قد أبلغك بعض الأخبار المحزنة المتعلقة بصهرك إسكندر إيبيروس".

"أجل، لقد فعل ذلك. إن شقيقتي بمفردها الآن، وهي غارقة في الحزن، وكذلك والدتي لأنها تحب شقيقها كثيراً".

"لكنني متأكد من أن الحزن الأكبر من نصيبك. أليس كذلك؟".

"أجل. أعتقد أنك محق".

"ما الذي قرّب بينكما، عدا عن روابط القربى الأسرية التي جمعتكما؟".

"تشاركنا حلماً عظيماً. والآن، أصبح تحقيق الحلم بكامله يقع على عاتقي. سنغزو إيطاليا معاً يا بطليموس في يومٍ من الأيام، وسنقضي على البرابرة الذين قتلوه".

سكب بعض الشراب لصديقه ثم قال: "أتود سماع بعض أبيات الشعر؟ لقد دعوت تيسالوس كي يسلّيني".

"أحب ذلك حقاً. لكن، أي الأشعار اخترت؟".

"اخترتُ أعمالاً لمجموعةٍ من الشعراء. إن هذه الرمال اللامتناهية التي تحيط بنا تذكّرني بمساحة البحر العظيمة، كما يجعلني كل هذا الجفاف أتوق إليه".

مـــا إن انتهت ليبتين من رفع الأطباق عن الطاولتين الصغيرتين، حـــتى دخل الممثّل الذي ارتدى ثياب التمثيل، ووضع بعض مساحيق التجميل على وجهه. إذ كحّل عينيه، وخطّط فمه بالصباغ الأحمر كي يوحي بتعبيرٍ يدل على المرارة، أي أنه استخدم ما يماثل أقنعة مسرحيات التـــراجيديا. داعـــب تيسالوس بعض أوتار قيثارته التي أصدرت أنغاماً حزينة:

أيها النسيم، نسيم البحر،
الذي يهبّ فوق السفن السريعة، والجياد التي تجتاز المحيط،
والذي يحرّك الأمواج المتلاطمة!
أين ستحملني الآن، يا رفيقي الحزين؟"(*)

أصـــغى الإســـكندر إلى أبيات الشعر التي ينشدها الممثل وسط صمت الليل المخيّم. وبدا مفتوناً بذلك الصوت القادر على التعبير عن كـــل المـــشاعر الإنـــسانية وعـــن كل العواطف، والقادر على تقليد الأصوات؛ حتى صوت صفير الريح وقصف الرعد.

مكثا حتى ساعة متأخرة من الليل وهما يستمعان إلى صوت ذلك الممـــثل الـــذي يحاول التعبير عن شتى أنواع المشاعر، والذي تمكّن من النحـــيب كالنـــساء الـــثكالى، ومن السمو فخراً عندما قلّد أصوات الأبطال. وعندما انتهى، عانقه الإسكندر وقال له والعَبرات تملأ عينيه: "شكراً لك. لقد استحضرتَ الأحلام التي سأبصرها هذه الليلة. اذهب الآن كي تستريح، لأن مسيرةً طويلة تنتظرنا غداً".

أمّـــا بطلـــيموس فمكـــث قليلاً كي يتناول بعض الشراب مع الإسكندر.

(*) يوريبيديس، هيكابا (الأسطر 444-445) ترجمة إي. بـــي. كولردج (1938)

سأله فجأة: "ألا تفكّر في بيلا أبداً؟ ألا تفكّر في والدتك ووالدك، وفي تلك الأيام التي كنا فيها أولاداً، وكنا نركض فوق تلال مقدونيا؟ ألا تفكر في مياه أنهرنا وبحيراتنا المتلألئة".

فكّـــر الإسكندر في السؤال للحظة قبل أن يجيب: "إنني أفكر في تلـــك الأمور كثيراً، ولكن باعتبارها بعيدة. إن حياتنا مضغوطة بحيث تبدو كل ساعة وكأنها سنة".

"إذاً، يعني ذلك أننا سنهرم قبل أواننا. أليس كذلك؟".

"الاحتمال وارد. إن المشعل الذي يضيء الغرفة أكثر هو المشعل الـــذي ينطفـــئ قبل غيره، لكن كل الموجودين سيتذكّرون كم كان ضوؤه جميلاً في ذروة اشتعاله".

جـــرّ بـــاب الخيمة جانباً، ورافق بطليموس إلى الخارج. كانت السماء فوق الصحراء مليئة بمجموعات لا تعد ولا تُحصى من النجوم، وما لبث الرجلان أن نظرا إلى الأعلى كي يشاهداها.

"لعل ذلك هو مصير النجوم التي تلمع أكثر من غيرها في السماء. طابت ليلتك، نم هانئاً يا صديقي".

فـــردّ بطليموس وهو يتحرك نحو خيمته الواقعة في طرف المخيّم: "وأنت أيضاً".

بعد مسيرة خمسة أيام، وصل الجيش إلى ضفتي نهر النيل في ممفيس حـــيث كان بارمينيون ونيرخوس في انتظاره. رأى الإسكندر بارسين مجـــدداً في تلـــك اللـــيلة. كانت تمكث في بناء فخم كان يعود لأحد الفـــراعنة في مـــا مضى، وخُصص طابقاه العلويان لها. في ذلك اليوم، جلـــبت الرياح الشمالية الانتعاش معها، كما حركّت الستائر الكتانية الزرقاء التي كانت كأجنحة الفراشات خفة ودقة.

انتظرته بارسين جالسةً على مقعدٍ ذي ذراعين مزخرفتين بنقوش

ذهبـــية لامعة. وكانت ترتدي رداءً خفيفاً ذا طراز أيوني، فيما انسدل شعرها الأسود الذي تتخلله خصلات بنفسجية على كتفيها. وبدا أنها استخدمت مقداراً قليلاً من مساحيق التجميل على الطريقة المصرية.

تمـــازج ضـــوء القمر مع أضواء المشاعل المخبأة وراء فواصل من المرمر في جوٍّ عابقٍ بعطور العنبر والصبار. وانعكست هذه الأضواء على أوعـــية الأونـــيكس المليئة بالمياه، والتي كانت أزهار اللوتس وتويجات الأزهار تطفو على سطحها. تناهت إلى الأسماع من خلال فروع العاج والطيور المنـــزلقة موسيقى النايات والقيثارات الهادئة واللطيفة. كانت الجـــدران بكاملها مزينة بصورٍ مصرية قديمة تمثّل خادمات يرقصن على أنغـــام العود والدف أمام الملك والملكة الجالسَين على عرشيهما. أما في الزاوية، فكان هناك سرير كبير مزود بستارة زرقاء تحملها أربعة أعمدة خشبية مزينة بأحرف على شكل أزهار اللوتس.

دخـــل الإســـكندر الغرفة، ونظر إلى بارسين بلهفة. كانت عيناه ممتلئـــتين بضوء الصحراء المبهر، أما أذناه فكانت تتردد فيهما الكلمات الـــتي سمعها في هيكل آمون، فيما بدا جسده وكأنه محاط بهالةٍ وضّاءة. كانـــت خصلات شعره الذهبية منسدلة على كتفيه، بينما حمل صدره مشدود العضلات ندوباً كثيرة، أما عيناه فقد تغيّر لونهما، فيما برزت مـــن يديه النحيلتين والقويتين العروق الزرقاء. لم يستر جسده العاري ســـوى بعباءة قصيرة فضفاضة، مثبتة فوق كتفه اليسرى بمشبكٍ فضي قـــديم كان قد ورثه منذ زمن عن سلالة الأرغاديين، كما وضع عصابة ذهبية حول جبهته.

وقفت بارسين، وما لبثت أن شعرت بأنها مشوشة الأفكار تحت أنظاره. جذبها نحو ذراعيه، وقبّل شفتيها الممتلئتين والرطبتين مثل ثمرتي تمر. قالت: "إسكندر...".

شعر الملك فجأة ببرودة اجتاحت جسمها، بينما تصلّبت أطرافها تحت يديه. انتشر جوٌّ من التهديد في أنحاء الغرفة، الأمر الذي حرّك فيه إحساس المقاتل؛ وهو الإحساس الذي يُنذر بالخطر. استدار بسرعة كي يـواجه الخطر الوشيك فلاحظ جسماً يركض نحوه ويهاجمه من ناحية الـرأس. رأى يـداً ترتفع وهي تلوّح بخنجر، كما سمع صرخة شديدة وشرسـة تـرددت أصداؤها في أنحاء غرفة السرير، وما لبث أن سمع صوت بكاء بارسين الحزين والمتألم.

تمكّن الإسكندر بسرعة من تثبيت المعتدي على الأرض، ولوى له ذراعـه ممـا أجـبره علـى التخلي عن سلاحه بسرعة. كان بإمكان الإسـكندر أن يقتل المعتدي على الفور وفي مكانه، وذلك باستخدام حامـل مـشعل ثقيلٍ أمسكه بشكل فطري، لكنه عرف هوية الشاب الذي يبلغ الخامسة عشرة من عمره، وكان إتيوكل الابن الأكبر لممنون وبارسـين. قـاوم ذلك الشاب، واستدار مثل شبل أسد صغير وقع في مصيدة، وراح يصرخ بكل أنواع الشتائم والإهانات، كما أخذ يعضّ ويخدش بعد أن صار أعزل من السلاح.

دخـل الحـراس مسرعين، وذلك بعد أن سمعوا أصوات العراك، وأمسكوا بالمعتدي. فهم الضابط المسؤول فوراً حقيقة ما جرى فصرخ قـائلاً: "إنّهـا محاولة لاغتيال الملك! خذوه إلى الأسفل، وعذّبوه قبل إعدامه".

لكن بارسين ارتمت على قدمي الإسكندر وهي تبكي: "أنقِذه يا سيدي. أنقذ حياة ابني. أتوسّل إليك!".

نظـر إتـيوكل نحوها بازدراء واضح على وجهه، ثم التفت نحو الإسـكندر وقال: "إن أفضل شيء تُقدم عليه هو أن تأمر بقتلي، لأنني سـأحاول قـتلك مرةً بعد مرة... سأفعل ذلك ألف مرة حتى أنجح في

الانتقام لأبـــي ولشرفه". كان لا يزال يرتعش بسبب الإثارة والانفعال الـــناتجين عن الشجار، وكذلك بسبب نار الكراهية التي كانت تضطرم في قلبه. أشار الملك إلى الحراس طالباً إليهم المغادرة.

ردّ الضابط معترضاً: "لكن، يا مولاي...".

قـــال الإسكندر: "اخرج! ألا ترى أنه مجرد ولدٍ صغير؟". أطاع الـــرجل أمر الملك. فالتفت الإسكندر نحو إتيوكل مجدداً وقال له: "إن شرف والدك لم يمسّ قطّ، لأنه مات بسبب مرض مستعصٍ".

قـــال الولد صارخاً: "ليس ذلك بصحيح، لأنك أمرتَ بتسميمه. إنك رجلٌ مفتقد إلى أي حسٍّ بالشرف!".

تحرّك الإسكندر مقترباً من الولد، وقال له بصوت حازم: "لطالما أُعجبت بوالدك واعتبرته الوحيد الذي يستحق أن يكون خصماً لي، وكـــنت أحلم بمبارزته في يومٍ من الأيام، لذلك يستحيل أن أفكّر في تـــسميمه. إنـــني أواجه أعدائي وجهاً لوجه بالسيف والرمح؛ وذلك عـــندما أقـــرر أن أتعامل معهم. أما بالنسبة إلى والدتك فقد جعلتني ضـــحيةً لهـــا لأنني أفكّر فيها في كل لحظة من لحظات صحوي. إنني أتعذّب من جراء تفكيري فيها، والحب الذي أشعر به تجاهها يسيطر علـــيّ، كمـــا أنه لا يُقاوَم ولا يُقهر، ولا يعرف المرء كيفية تجنبه أو الفرار منه، مثلما لا يستطيع الرجل تجنّب الشمس، والمطر، والولادة، والموت".

راحـــت بارســـين تنتحب في إحدى زوايا السرير، وقد خبأت وجهها بين يديها.

سأل الملك: "ألا تريد أن تقول شيئاً لوالدتك؟".

"لم تعـــد والدتي منذ اللحظة التي وضعتَ فيها يدك عليها. إنها لا شـــيء بالنـــسبة إليّ. اقتلني. إنني أريدك أن تقتلني، لأن في ذلك خيراً

لكمـــا. أما إذا لم تفعل ذلك، فإنني سأقتلكما وسأقدم دماء جسديكما إلى روح والدي، وذلك كي يرتاح حيث هو".

التفت الإسكندر نحو بارسين قائلاً: "ماذا تريدين منّي أن أفعل؟".

جفّفـــت بارسين دموعها، واستعادت شيئاً من هدوئها: "أتوسل إليك أن تدعه يذهب في سبيله. أعطِه حصاناً ومؤناً ودعه يذهب. هل ستفعل ذلك من أجلي؟".

قـــال الـــولد مجدداً: "إنني أحذّرك، إذا تركتني أذهب في سبيلي، فسأقـــصد الملك العظيم، وسأطلب منه أن يعطيني درعاً وسيفاً، وذلك كي أحارب مع جيشه ضدك".

أجاب الإسكندر: "إذا أردت ذلك، فلك ما تريده". نادى الملك الحـــراس، وأصدر الأمر بأن يُعطى الصبـــي حصاناً ومؤناً قبل إطلاق سراحه.

عـــندها، تـــوجّه إتـــيوكل نحو الباب ساعياً إلى إخفاء عواطفه المتأججة التي سيطرت عليه بينما كانت والدته تناديه. لم يتوقف لحظة واحدة، بل أدار ظهره إليها، وعبر عتبة الباب قبل أن ينطلق نحو الممر.

نادته بارسين مجدداً: "انتظر، أرجوك!". وتوجهت إلى صندوقها، وما لبثت أن أخذت منه سلاحاً لامعاً مع غمده، ثم اندفعت نحو الممر وناولته إلى ابنها: "إنه سيف والدك".

تـــناول الشاب السيف، وقرّبه من صدره، فيما انهمرت الدموع سخية من عينيه، وتركت آثارها على خدّيه.

قالـــت بارسين بصوت مرتعش: "وداعاً يا ولدي. ليحمِك أهورا مازدا، كما أطلب من أسياد والدك أن تحميك بدورها".

عَبَـــرَ إتيوكل الممر راكضاً، ثم نـــزل الدرج حتى وصل إلى باحة القـــصر حـــيث وضع الحراس عنان حصانٍ في يديه. لكنه رأى شبح

شخصٍ يظهر من باب جانبـــي صغير، وذلك في اللحظة ذاتها التي كان يستعد فيها لامتطاء الحصان. كان ذلك شقيقه فرآت.

"أتوسّـــل إليك خذني معك. لا أريد أن أبقى هنا سجيناً عند هذا الــيوناني". تردّد إتيوكل بينما تابع شقيقه التوسل إليه: "خذني معك. أتوســـل إليك. أتوسل إليك! إنني لا أزن كثيراً، ويستطيع هذا الحصان أن يحملنا نحن الاثنين إلى أن نعثر على حصان آخر".

ردّ إتـــيوكل: "لا أستطيع. إنك صغير جداً، ثم... يجب أن يبقى أحدنا مع والدتي. وداعاً يا فرآت. سنرى بعضنا مجدداً ما إن تنتهي هذه الحـــرب، وعندها سأحررك". وبعد ذلك، عانق شقيقه الأصغر الذي ملأت الدموع عينيه عناقاً طويلاً، ثم ما لبث أن امتطى صهوة حصانه، واختفى بعيداً.

شاهدت بارسين هذا المنظر من نافذة غرفة نومها، وشعرت بأنّها تكـــاد تـــذوي عند رؤيتها ابنها ذي الخمسة عشر ربيعاً وهو يسرع بحصانه، ويختفي في ظلمة الليل كي يواجه المجهول بمفرده. بكت بشدة، وراحت تفكّر في المصير المرير الذي يُمكن أن ينتظر البشر. سبق لها أن شـــعرت قبل وقت قصير أنها واحدة من أسياد جبل الأولمب التي رسمها الفـــنانون اليونانيون العظام. لكنها الآن ستشعر بغبطة كبيرة لو كانت مكان أتعس عبدٍ من العبيد.

2

أمر الإسكندر ببناء جسرين عائمين كي يستطيع جيشه العبور إلى ضفّة نهر النيل الشرقية. وهناك، التقى بعض الجنود والضباط الذين كان قد تركهم كي يحرسوا المنطقة. تأكد الإسكندر من أنهم تصرفوا بطريقة مناسبة، ثم ثبّتهم في مناصبهم، ووزع الصلاحيات بينهم؛ بحيث لا تكون السلطة في هذه البلاد التي تُعتبر من أغنى البلاد محصورةً بين يدي رجلٍ واحد.

رحّبت به مصر لدى عودته من هيكل آمون، وأغدق عليه رجالها أوسمة الشرف، كما توجوه فرعوناً. لكن القدر شاء أن تتخلّل هذه الأيام المليئة بالمجد بعض الأحداث المحزنة. إذ لم يستطع الإسكندر إلا أن يرى يأس بارسين ماثلاً أمام عينيه كل يوم. لكن مأساةً أكبر كانت في طريقها إليه من دون إبطاء. كان لدى بارمينيون ابنان آخران غير فيلوتاس. وهما نيكانور الذي كان ضابطاً في سرية فرسان الهيتايروي، وهكتور الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، وكان والده يحبه كثيراً. كان الشاب الأصغر سناً مأخوذاً بمنظر الجيش الذي يعبر النيل، ولذلك استقلّ قارباً مصرياً مصنوعاً من شجر البردي كي يستمتع بالمنظر من منتصف النهر. ودفعت حماسة الشباب هكتور إلى ارتداء درعٍ ثقيلة، كما ارتدى عباءة مبهرجة جداً. ووقف فخوراً بنفسه، ومنتصب القامة في الجزء الخلفي من القارب وذلك كي يتمكن الجميع من الإعجاب به.

فجأة، اصطدم القارب بشيءٍ ما، ولعله كان أحد أفراس النهر الذي أحب أن يطفو على سطح المياه في تلك اللحظة، وكاد القارب

أن ينقلب. عندها، فَقَدَ هكتور توازنه ووقع في الماء، واختفى على الفور. إذ إن ثقل درعه وعباءته المبللة دفعاه نحو الأسفل.

لم يتأخر المجذفون في القارب عن الغطس، وهو ما فعله بعض الشبان المقدونيين كذلك، ونيكانور شقيق هكتور أيضاً. واجه هؤلاء تيار النهر، وفكوك التماسيح التي كانت متواجدة بكثرة في المكان، لكن جهودهم ذهبت هباءً. في تلك الأثناء، كان بارمينيون واقفاً على الضفة الشرقية وهو يراقب العبور المنظم للجيش، لكنه نظر إلى النهر يائساً عندما عرف المأساة.

وصلت هذه الأخبار إلى الإسكندر بعد وقت قصير، فأسرع إلى إعطاء البحارة الفينيقيين والقبارصة أوامره كي يحاولوا استعادة جثة الشاب على الأقل. لكن كل تلك الجهود كانت من دون جدوى. في ذلك المساء بالذات، وبعد ساعات وساعات من البحث اليائس الذي شارك فيه الإسكندر شخصياً، توجه هذا الأخير إلى خيمة القائد العجوز المثقل بالحزن.

سأل الإسكندر فيلوتاس الذي كان واقفاً خارج الخيمة، وكأنه يحرس عزلة والده: "كيف هو؟". فهزّ صديقه رأسه بأسى.

كان بارمينيون جالساً بسكون على الأرض وسط الظلمة، وكان شعر رأسه الأشيب يوحي بالغم. شعر الإسكندر بوهنٍ في ركبتيه، وكان حزيناً جداً بسبب ما أصاب هذا الرجل الشجاع والمخلص الذي أقلقه مرات عديدة في الماضي بنصائحه كي يكون حذراً، بالإضافة إلى مراتٍ كثيرة ذكّره فيها بمدى عظمة والده فيليب. بدا بارمينيون مثل جذع سنديانة عتيقة، سبق لها أن قاومت على مرّ السنين الكثير من العواصف والأعاصير، ولكنها ما لبثت أن أصيبت بصاعقة.

بـــدأ الإسكندر بالكلام بصوتٍ مرتعشٍ قليلاً: "إنها حقاً أصعب زيارة أقوم بها أيها القائد. فصدري مثقل بالحزن". تطلع نحو بارمينيون فتذكّـــر أغنية اعتاد أن يغنيها عندما كان صغيراً كلما كان يراه قادماً كـــي يحضر مجلس الحرب الذي كان يعقده والده. كان أشيب الشعر حتى في تلك الأعوام البعيدة:

انطلق الجندي العجوز المسكين إلى الحرب
ووقع على الأرض، وقع على الأرض!

هبّ بارمينيون واقفاً على الفور ما إن سمع صوت الملك، فقال له بصوت مرتعش: "شكراً لك على مجيئك يا مولاي".

"بذلنا كل ما في وسعنا أيها القائد كي نستعيد جثة ابنك. كنت سأســبغ عليه أعلى درجات الشرف. كنت... كنت سأفعل أي شيء فقط لو...".

أجاب بارمينيون: "أعرف. يفيد المثل أن الأبناء يدفنون آباءهم في غير أوقات الحرب، بينما في أوقات الحرب يقوم الآباء بدفن أولادهم. لكنني كنت آمل على الدوام لو أتجنب هذا الأمر المحزن. وتمنيت دائماً أن يكـــون أول ســـهم، أو أول ضربة سيفٍ، من نصيبـــي أنا. لكن، وبدلاً من ذلك...".

قال الإسكندر: "إنها خسارة رهيبة أيها القائد". وكانت عيناه قد اعتادتا في هذه الأثناء على العتمة المنتشرة داخل الخيمة فاستطاع أن يميّز ملامـــح بارمينيون، ويلاحظ الألم الشديد الذي لا بد من أنه يشعر به. بـــدا وكأنـــه كبر عشر سنين في غضون لحظات. فلقد احمرّت عيناه، وتجعّـــد جلـــده الجاف، بينما كان شعره أشعث. لم يسبق له أن رأى بارمينيون بمثل هذه الحالة، حتى في أشرس المعارك.

قال بارمينيون: "لو أنه سقط... لو أنه سقط في ساحة المعركة وهو يقاتل ملوحاً بسيفه، فعندها كان موته سيحمل معنى بالنسبة إليّ، لأننا جنودٌ في النهاية. لكن، أن يموت بهذه الطريقة... وفي هذه المياه الموحلة، وأن تقطعه تلك الوحوش إرباً إرباً وتلتهمه!". وغطّى وجهه بيديه، وما لبث أن أجهش ببكاء طويل وكئيب يقطّع نياط القلب بالفعل.

لم يتمكن الإسكندر من العثور على كلمات إزاء كل هذه المعاناة، ولكنه استطاع أن يتمتم: "أنا آسف... أنا آسفٌ". غادر الملك بعد أن ودّع فيلوتاس بنظرةٍ مليئة بالألم. أما نيكانور، الشقيق الآخر فقد وصل في تلك اللحظة بالذات، وقد بان عليه الحزن الشديد والتعب، وبدا مبللاً من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، فيما غطّاه الوحل.

في اليوم التالي، أمر الملك ببناء نصب تذكاري تخليداً لذكرى ذلك الشاب، وشارك بنفسه في شعائر جنازته. اصطف جميع الجنود هاتفين باسم هكتور عشر مرات، وذلك كي لا تضيع ذكراه، لكن هذه المرة كانت مختلفة عن المرات التي كانوا يصرخون فيها بأسماء رفاقهم الذين سقطوا في ساحات المعارك في جبال تراقيا وإيليريا وسط القمم المكللة بالثلوج، وتحت قبة السماء الياقوتية. ففي هذا الجو الكئيب، ابتلع الصمت اسم هكتور على الفور بالقرب من المياه الموحلة.

*

في تلك الأمسية بالذات، عاد الملك لزيارة بارسين، فوجدها ممددةً على سريرها وهي تبكي. أخبرته خادمتها أنها بالكاد تناولت طعاماً طيلة اليوم.

قـــال لها الإسكندر: "لا أريدك أن تيأسي هكذا، لن يحدث أي شيء لابنك، لأنني أرسلت رجُلَين كي يتبعاه ويتأكدا من أنه بخير".

عـــندها، نهضت بارسين، وجلست على حافة السرير، وقالت: "شـــكراً لك لأنك خففت عني كثيراً... بالرغم من أن العار سيبقى. فلقد انتهى ولداي من محاكمتي وأصدرا حكمهما عليّ".

أجـــاب الإسكندر: "أنتِ مخطئة في هذا. أتعرفين ماذا قال ابنك لشقيقه الأصغر عند مغادرته؟ أخبرني الحراس عما دار بينهما. قال له: *يجب عليك أن تبقى مع والدتنا*. وهذا يعني أنه يحبك، وأنه فعل ما فعله لأنـــه يشعر أن هذا هو واجبه بالضبط. يتعيّن عليك أن تكوني فخورة به".

جفّفت بارسين دموعها: "أنا آسفة على كلّ ما حدث. أردت أن أكـــون مـــصدر بهجة لك، وأردت أن أكون بالقرب منك في لحظات انتصارك. لكن، ها أنا عاجزة عن فعل أي شيء غير البكاء".

ردّ الإسكندر: "أرى دموعاً تليها دموع أخرى. فها هو بارمينيون قد فقد ابنه الأصغر. إن الجيش بأكمله في حالة حدادٍ الآن، ولم أستطع فعـــل أي شـــيء كي أحول دون حدوث ما حصلَ. ولم تنفعني صلتي بآمـــون. أرجوك الآن أن تجلسي وتأكلي معي. يتعيّن علينا أن نتعاون لنستعيد تلك السعادة التي تحسدنا عليها الأقدار، ولذلك فهي تحاول أن تحرمنا إيّاها".

*

تلقى القائد نيرخوس الأوامر للإبحار نحو فينيقيا، بينما يعود الجيش براً عبر الطريق التي تمتد بين البحر والصحراء. وما إن وصل الجيش إلى غـــزة، حتى هرع أحد الجنود إلى الإسكندر حاملاً معه بعض الأخبار الـــسيئة من صيدون. وقال بعد أن ترجل عن جواده من دون أن ينتظر

حـــتى الـــتقاط أنفاسه: "مولاي، أقدم السامريون على تعذيب القائد أندروماخوس، حاكمك في سوريا".

غضب الإسكندر الذي أثقلته الأحزان، وسأله: "ومن هم هؤلاء السامريون؟ ألا يعرفون شيئاً عن الإسكندر؟".

أجـــاب لايسيماخوس: "بل لعلهم يعرفون، ولكنهم لا يكترثون. أو ربما يعتقدون أنهم يستطيعون المخاطرة بإغضابك".

أجاب الملك: "في هذه الحالة، يتعيّن علينا أن نعلّمهم شيئاً جديداً عـــن الإســـكندر". أعطى الملك أوامره بمعاودة الزحف مجدداً، فتقدم الجـــيش مـــن دون توقف، وما لبث أن تابع الزحف شرقاً نحو المناطق الداخلـــية. استعد الفرسان التريباليون والأغريانيون المسلحون تسليحاً خفـــيفاً، وبمشاركة فرقة الطليعة، للمعركة استعداداً تاماً. وكان الملك يقـــود هذه الفرقة شخصياً يرافقه أصدقاؤه، بينما ظل المشاة المسلحون تـــسليحاً ثقـــيلاً، وقوات الاحتياط من الهيتايروي عند الساحل بقيادة بارمينيون.

ومـــع حلـــول المساء وصل الجنود ولم يكن وصولهم متوقعاً على الإطـــلاق. وفي واقـــع الأمر، كان السامريون من الرعاة، لذلك كانوا منتـــشرين على التلال مع قطعانهم التي تملأ المراعي. أُحرقت كل القرى علـــى مدى ثلاثة أيام بما في ذلك عاصمتهم التي سوّيت أرضاً، والتي لم تكن في الواقع أكثر من قرية كبيرة محاطة بالأسوار. أما هيكلهم الذي كـــان عبارة عن معبد متواضع لم يضمّ أي تمثال أو صورة من أي نوع كان، فلم يلبث أن تحوّل إلى كومة من رماد.

استمرت هذه الأعمال حتى مساء اليوم الثالث. عندها، قرّر الملك إقامـــة مخيّم لرجاله المنتشرين في الجبال، وأن ينتظر حتى اليوم التالي قبل الـــشروع برحلة العودة إلى الساحل. وضع الإسكندر حراسةً مضاعفة

عند كل مفارق الطرقات المحيطة بالمنطقة، وذلك من أجل تجنّب الهجمات المفاجئة، وكذلك أُوقِدت النيران من أجل إضاءة مراكز الحرس، فمرّت الليلة بسلام. وقبل انبلاج خيوط الفجر الأولى، قام أحد الضباط المكلفين بآخر نوبة حراسة، وهو تيسالي من لاريسا، ويدعى يوريالوس، بإيقاظ الملك قائلاً: "مولاي، تعالَ. هناك شيء يجب أن تراه".

سأل الإسكندر ما إن هبّ واقفاً على قدميه: "وما هو؟".

"هناك مجموعة من الناس قادمة من جهة الجنوب. يبدو أنها بعثة ما".

"بعثة؟ ومن أين جاءوا؟".

"لا أعرف".

فقال إيومينيس الذي كان مستيقظاً منذ بعض الوقت، وقام بجولة تفتيشية: "هناك مدينة واحدة في ذلك الاتجاه؛ إنها القدس".

"وما هي مدينة القدس هذه؟".

"إنها عاصمة مملكة صغيرة من دون ملك. تجثم هذه المملكة على قمة جبل، كما أنها محاطة بالمنحدرات".

وصلت المجموعة إلى أول مركز حراسة، بينما كان إيومينيس لا يزال يتكلم، فطلبت الإذن بالمرور.

قال الإسكندر آمراً: "دعوهم يأتون. سأستقبلهم قرب خيمتي". وغطى كتفيه بعباءته، وجلس على مقعده الميداني.

في هذه الأثناء، تقدم أحد أعضاء الوفد، والذي كان يتكلم اللغة الإغريقية، وتبادل كلماتٍ قليلة مع يوريالوس سائلاً إياه ما إذا كان ذلك الشاب الجالس قرب خيمته، والذي يضع عباءة حمراء على كتفيه هو الملك الإسكندر. وحين جاء الرد إيجاباً، تقدم الرجل إلى الأمام

بينما تبعه سائر أعضاء الوفد. بدا على الفور أنه كان أهمّ شخصية بين أفراد مجموعته. كان رجلاً كبيراً في السن، معتدل الطول، ذا لحية طويلة ومـــشذبة جـــيداً. وكان يعتمر قبعة ويرتدي صدرية مزينة باثني عشر حجـــراً مـــن مختلف الألوان. كان هذا الرجل هو أول من تحدث إلى الإســـكندر بلغـــته، وإن كان صوته أجش، ولهجته قريبة من اللهجة الفينيقية".

جـــاءت كلمات المترجم على الشكل التالي: "ليحرسك الله أيها الملك العظيم".

جرت محادثة بين الرجل والملك عن طريق المترجم، وكان محورها شكر الملك على تدميره مدينة السامريين التي كانت بنظره مدينة كافرة.

أنهـــى الرجل العجوز شكره الإسكندر، وطلب الإذن للانصراف من حضرة الملك.

وحين أذن له الملك، استدار وعاد من حيث أتى.

3

تقدّم الجيش في زحفه عبر الجزء الأخير من فلسطين، وما لبث أن دخـــل فينيقيا. عانى الجنود كثيراً نتيجة الألم الذي أحسّوا به بعد موت هكتور الشاب، واعتبروا موته بمثابة نذير شؤم. وعندما وصل الملك إلى صور، قدّم – لهذا السبب – أضحية إلى ملكارت، وذلك في محاولة منه لإزالة ذلك الإحساس بالكآبة عن طريق طقسٍ ديني رصين.

كانـــت مظاهر الدمار الذي حلّ بالمدينة في العام السابق لا تزال ظاهـــرةً في أنحائهـــا، ومع ذلك عادت مؤشرات الحياة للظهور مجدداً. فلقـــد عمـــل السكان الناجون، بجهدٍ كبير، على إعادة تعمير منازلهم، وعلى نقل موادّ البناء من البر بواسطة قوارهم. وركّز قسمٌ من السكان علـــى صيد الأسماك، بينما انشغل القسم الآخر في المشاغل التي كانت تُنـــتج الـــصباغ الأرجواني الأغلى ثمناً والأكثر شهرةً في العالم، والذي كانوا يستخرجونه من الأصداف. وكان قد جاء مستوطنون جدد من قبرص وصيدون من أجل إعادة استيطان المدينة القديمة، وسرعان ما بدأ ذلك الإحساس بالعزلة يتلاشى تدريجياً مع تقدّم الأعمال، ومع اجتماع شمل العائلات، بينما استعادت الحياة اليومية زخمها المعتاد.

اســـتقبل الإسكندر في صور وفوداً عديدة زارته من مختلف مدن الـــيونان ومن مختلف الجزر. وحمل له بعضها رسائل من القائد أنتيباتر أبقـــته على علمٍ بأنشطة تجنيد الرجال في الجيش، والتي كانت تجري في الأقالـــيم الشمالية. كما تلقى الإسكندر رسالةً من والدته، وهي رسالة تركت في نفسه انطباعاً عميقاً:

من أوليمبيا إلى الإسكندر، ابني الحبيب، تحياتي!
سمعت أخبار زيارتك هيكل زيوس الذي يقع وسط رمال الصحراء، وعلمت بما حدث معك هناك، فغمرني سيلٌ من المشاعر العميقة. تذكرت المرة الأولى التي أحسست فيها أنك تتحرك في بطني. وكان ذلك في اليوم الذي استشرت فيه الضالع في هيكل زيوس في دودونا، إيبيروس، وهو البلد الذي ولدتُ فيه.
هبّت في ذلك اليوم رياح مفاجئة جلبت معها رمال الصحراء إلى الهيكل. حينها أخبرني الكهنة أن قدرك العظيم سيتحقق عندما تصل إلى الهيكل الكبير الآخر؛ وهو الهيكل الذي يقع وسط رمال صحراء ليبيا. لا أعتقد يا بني أن فيليب هو والدك. إذ أظنّ أنّك من نسل آمون. أيمكنك أن تفسّر انتصاراتك المدوية بغير هذه الطريقة؟ وكيف تفسر تراجع مياه البحر من أمامك، والأمطار العجائبية التي هطلت على رمال الصحراء الحارقة؟
ركّز أفكارك على آمون، وانسَ أمر فيليب. إن الدماء التي تجري في عروقك ليست دماءه.

أدرك الإسكندر أن والدته على علمٍ بكل تفاصيل حملته، وأنها تسعى إلى تنفيذ خطّتها المفصّلة التي وضعتها بنفسها. فلقد خطّطت أوليمبيا لمحو الماضي كلياً، وذلك كي تفسح في المجال أمام الإسكندر ليكون مختلفاً كلياً عن ذلك الرجل الذي تصوره فيليب، ومعلّمه أرسطو. ولم تكن ترغب في أيّ ذكر لفيليب لدى تحقيق الإسكندر انتصاراته. وضع الإسكندر الرسالة على الطاولة في اللحظة التي دخل فيها إيومينيس حاملاً معه أوراقاً تنتظر القراءة والتوقيع.

سأل الأمين العام عندما لاحظ مظاهر الصدمة التي ارتسمت على وجه الملك: "أهي أخبار سيئة؟".

"كلا. ففي واقع الأمر، يتعيّن عليّ أن أشعر بالسعادة لأنّ والدتي كذلك تخبرني بأنني على صلة بزيوس آمون".

"لكنك لا تبدو أمامي رجلاً سعيداً".

"وهل ستكون سعيداً لو كنتَ مكاني؟".

"أنت تعرف جيداً أنه لا توجد طريقة أخرى لحكم مصر، ولقبول كهنة ممفيس بك، غير أن تكون ابناً لآمون ومن ثمّ فرعوناً. يُضاف إلى ذلك أن الإغريق الذين يعيشون في ليبيا يقدمون مراسم التبجيل إلى آمون بصفته زيوس، بالإضافة إلى جميع القادمين من ناوكراتيس وسيرينيا. وكذلك لن يتأخر الأمر بسكان الإسكندرية حتى يفعلوا الأمر ذاته، ما إن تمتلئ المدينة بالسكان. إن ذلك أمرٌ محتّم. لأنك إذا أصبحتَ ابناً لآمون، فإن الناس سيعترفون بك ابناً لزيوس".

ناوله الإسكندر الرسالة التي تلقاها من أوليمبيا حتى قبل أن يُنهي كلامه. فقال له إيومينيس بعد أن أنهى قراءة الرسالة: "إن الملكة الوالدة تحاول مساعدتك كي تعتاد على وضعك الجديد".

"إنك مخطئ. لأن تفكير والدتي يتأرجح دائماً بين الحلم والواقع. وهي تقوم في بعض الأحيان باستبدال الحلم بالواقع، وكذلك الواقع بالحلم. يُضاف إلى ذلك..."، وتوقف عند هذه النقطة، وكأنه تردّد بشأن كشفه أحد الأسرار، ثم تابع: "... يُضاف إلى ذلك أن والدتي تمتلك القدرة على إضفاء الواقعية على أحلامها، وتقوم بعد ذلك بإقناع الآخرين بها".

قال إيومينيس: "لم أفهم قصدك".

"أتتذكر ذلك اليوم الذي هربتُ فيه من بيلا، أي ذلك اليوم الذي أراد فيه والدي أن يقتلني؟".

"أتذكر بالطبع، لأنني كنت هناك".

"هـــربت مع والدتي وقصدنا إيبيروس. وتوقفنا كي ننام في غابةٍ مليئة بأشجار السنديان، وتبعد نحو ثلاثين ستاديا إلى الغرب من بيرويا. وفي منتـــصف الليل، رأيتها فجأة تنهض وتمشي وسط الظلمة. سارت وكأنهـــا كانت تطوف فوق الأرض، وتوجهت إلى مكانٍ تتواجد فيه صـــورة ديونيـــسيوس التي تغطيها أوراق أشجار اللبلاب. رأيتها هناك مثلما أراك الآن. استدعت ثعباناً ضخماً من تحت الأرض، وسرعان ما رأيـــتها وهي تخاطب مجموعة من الساطير والنساء المنتميات إلى طائفة ديونيسيوس، ثم عزفت على نايها وكانت في حالة نورانية تامة...".

نظـــر إلـــيه إيومينيس وهو يشعر بالقلق، وعجز عن تصديق ما تسمعه أذناه: "يُحتمل أنك حلمت بهذا الأمر كله".

"لـــيس هناك أدنى احتمال بحصول ذلك. شعرت فجأة بيدٍ على كتفـــي، وكانـــت هي. هل فهمت؟ لكنني كنت قد رأيتها قبل لحظةٍ واحدة فقط وهي تعزف على الناي، بينما يلتفّ ثعبان عملاق حولها. كنت هناك، أي أنني لم أكن مستلقياً فوق سريري البديل. عدنا معاً إلى مخيمنا ومشينا مسافة على الطريق. قل لي، كيف تفسّر كل هذا؟".

"لا أعـــرف، لكـــنني أعـــرف أن هناك أشخاصاً يسيرون خلال نـــومهم. ويقولون كذلك إن هناك أشخاصاً يتركون أجسادهم خلال نومهم ويسافرون لمسافاتٍ بعيدة ثم يظهرون أمام أناسٍ آخرين. هذا ما يُدعـــى ***إيكستاسيس*** (السفر عبر الفضاء). إن أوليمبيا بالتأكيد ليست امرأة عادية".

"ما من شكٍ في ذلك. يعاني أنتيباتر صعوباتٍ متزايدة كي يُبقيها ضمن حدود المنطق. تريد والدتي أن تحكم، وأن تمارس السلطة، لذلك، فـــإن مـــنعها من القيام بذلك ليس أمراً سهلاً. إنني أتساءل عن رأي أرسطو في هذه المسألة".

"يمكـــنك أن تعـــرف رأيه بسهولة. إذ إن الأمر لا يتطلب سوى سؤال كاليستين".

"يغضبني كاليستين في بعض الأحيان".

"إن هذا أمر واضح، ولا بد من أن هذه الحقيقة تؤلمه".

"لكنه لا يفعل شيئاً كي يوقف تصرفاته هذه".

"ليس ذلك هو ما يجري بالضبط. إنّ لدى كاليستين مبادئه، كما أن خاله علّمه عدم تقديم تنازلات في هذا الاتجاه. أعني أنه يتعيّن عليك أن تفهمه...". غيّر إيومينيس موضوع الحديث عند هذه النقطة، فقال: "ما هي خططك للمستقبل القريب؟".

"أريد تنظيم مسابقات مسرحية ورياضية".

"مسابقات... ومسرحيات؟".

"هذا صحيح".

"لكن، لماذا؟".

"لأن الرجال يحتاجون إلى نوعٍ من التسلية".

"يحتاج الرجال إلى أن يشهروا سيوفهم مجدداً. لم يقاتل الجنود منذ ما يزيد على السنة، وإذا تمكّن الفُرس من اللحاق بنا في الوقت الحاضر، فإنني غير واثقٍ من أننا...".

"لـــن يظهر الفرس أمامنا في الوقت الحاضر لأن داريوس مشغول الآن بجمع أكبر جيش ممكن كي يُلحِق بنا الهزيمة".

"هـــل ستسمح له بأن يفعل ذلك بكل بساطة؟ وهل تفضّل أن تنظم مـــسرحيات وألعاباً رياضية؟". وهزّ الأمين العام رأسه وكأنه يتحدث عن جنون مطلق، لكن الإسكندر نهض، ووضع يده على كتفه.

"اسمعني جيداً. لا نستطيع في الوقت الحاضر أن ننظّم حملة مضنية تهـــدف إلى تـــدمير مـــدن وقلاع الإمبراطورية الفارسية الواحدة تلو

الأخرى. رأيتَ بنفسك كم كلّفنا احتلال ميليتوس وهاليكارناسوس، وصور...".

"أجل، ولكن...".

"لذلك أرغب في إعطاء داريوس كل الوقت الذي يحتاج إليه من أجل تجنيد ما يستطيع تجنيده من جنود، وسأهزمه بعد ذلك، أي أنني سأحسم الأمور في المواجهة النهائية".

"لكن... يُحتمل أن نخسر".

حدّق إليه الإسكندر بتركيز وكأن صديقه قد نطق بسخافةٍ ما. "نخسر؟ إن هذا غير ممكن".

نظر إيومينيس إلى الأسفل بعدما أدرك أن رسالة أوليمبيا قد أقنعت الإسكندر بأمرٍ سبق له أن اقتنع به في لاوعيه، وهو أنه لا يُقهر. إن هذا الاعتقاد الذي يوحي بالفعل بوجود نوعٍ من التبجيل ليس مهماً بالنظر إلى الأوضاع. ولكن، هل يشارك الجيش ورفاق الإسكندر ملكهم اعتقاده وتصميمه؟ وماذا سيحدث عندما يجدون أنفسهم في أحد السهول مترامية الأطراف، وهم يواجهون أكبر جيشٍ جُمع في كل الأزمنة؟".

سأله الإسكندر: "فيمَ تفكر؟".

"لا أفكر في شيء. ولكن، خطر في ذهني مقطع من ***مسيرة الآلاف العشرة***. جاء في هذا المقطع...".

قال الملك مقاطعاً: "أعرف. أعرف ما تفكر فيه". بدأ الملك يقول: "حل وقت الظهيرة، ولم يظهر أي أثرٍ للعدو. لكنّ عاصفةً رملية شديدة هبّت عند العصر، وبدت مثل سحابة بيضاء، فغطت السهل بأكمله ولمسافة طويلة. تمكنوا بعد فترة قصيرة من رؤية لمعان الأسلحة المعدنية والرماح. وفجأة، تمكنوا من رؤية صفوف الجنود...".

"كانت معركة كوناكزا. وكان جيش الملك العظيم الذي لا يعد ولا يُحصى يظهر مثل شبحٍ وسط غبار الصحراء... ربح الإغريق المعركة بالرغم من ذلك. لكنهم لو هاجموا الوسط فوراً بدلاً من مهاجمة ميسرة جيش العدو، لكانوا تمكنوا من قتل الملك الفارسي وقهروا إمبراطوريته بأكملها. لكن، ها أنت الآن يا صديقي تكتفي بتنظيم ألعابٍ رياضية وبعض المسرحيات...".

هزّ إيومينيس رأسه مجدداً، وتوجّه نحو الباب.

أوقفه الإسكندر عند عتبة الباب وقال له: "هناك أمرٌ أخير. تأكد من اختيارك الأعمال التي تناسب صوت تيسالوس وطريقة أدائه، مثل أوديب ريكس على سبيل المثال، وبعد ذلك...".

أراد الأمين العام أن يريح باله: "لا تقلق. أنت تعرف مقدرتي في هذه الأمور".

"إيومينيس؟".

"نعم".

"كيف هي حال القائد؟".

"أتعني بارمينيون؟ لا بد من أنه يعاني كثيراً. لكنه لا يدعنا نلاحظ ذلك".

"أتعتقد أنه سيكون جاهزاً عندما تحين اللحظة المناسبة؟".

أجاب إيومينيس قبل مغادرته: "أعتقد ذلك. وأعتقد أنه لا يوجد رجال كثيرون من هذا الطراز".

*

احتفل الإسكندر بافتتاح الألعاب الرياضية والمسابقات المسرحية بطريقة فخمة. فدعا كل أصدقائه وأبرز ضباطه إلى المأدبة. حضر الجميع باستثناء بارمينيون الذي أرسل خطاباً مع أحد الجنود كي يعتذر

عـــن الحـــضور: "من بارمينيون إلى الملك الإسكندر. تحياتي! أرجو أن تعذرني على عدم حضور المأدبة. فأنا أشعر بتوعك، كما أن حضوري لا يشرّف طاولتك".

اتضح على الفور أن هذه المأدبة ستكون مناسبة لتبادل الأحاديث، لأنـــه لـــن يـــتواجد فيها راقصون، كما خفّف الإسكندر ذاته تركيز الـــشراب عندما أضاف أربعة أجزاء من الماء إلى الإناء، وذلك بصفته *رئـــيس الحفـــل*. كان من الواضح كذلك أنه يريد مناقشة موضوعات فلـــسفيّة وأدبيّة بدلاً من التباحث في أمور الحرب، وذلك لأنه خصّص المقعدين المجاورين لمقعده لبارسين وتيسالوس. اصطحب كاليستين معه عـــدداً من الفلاسفة السفسطائيين الذين كانوا من ضمن وفدٍ قدم من أثينا. كان هيفاستيون، وإيومينيس، وسلوقس قريبين من الملك وبصحبة رفـــيقاهم، وبدا أن بعضهن غريبات أكثر من الأخريات. بينما جلس عدد من الأصدقاء الآخرين في القسم الآخر من القاعة.

بـــدأ الطقـــس يسوء في الخارج، بالرغم من أن الصيف كان في منتـــصفه، فتجمعت غيوم سوداء محملة بالمطر فوق المدينة. كان الطهاة يقدّمـــون الحصص الأولى من الطعام، والتي كانت عبارة عن أجزاء من لحـــم الحملان المشوية، والفاصولياء الخضراء، عندما دوّى في الأجواء قـــصف رعـــد شديد، وهو ما جعل جدران القاعة تهتز؛ الأمر الذي تسبّب بحدوث تموّجٍ في أكواب الشراب.

نظـــر كـــل الحاضـــرين بصمت إلى وجوه بعضهم بعضاً بضع لحظات، بينما بدأ الرعد والبرق يسلكان مساراً مختلفاً نحو سفوح جبل لبنان. عاود الطهاة تقديم قطع اللحم مجدداً، لكن كاليستين التفت نحو الإســـكندر بابتسامة ساخرة وهازلة، وسأله: "بما أنك ابن زيوس، ألا تستطيع أن تقول لنا شيئاً عما حدث؟".

أطرق الملك مفكراً للحظة، فظنّ عددٌ من الضيوف الموجودين في الغرفة أنه على وشك أن ينفجر في نوبة من الغضب. وبدا كاليستين ذاته، فجأة، نادماً على دعابته هذه. لاحظ سلوقس أن المؤرخ قد شحُب لونه فهمس في أذن بطليموس: "إنه خائف جداً هذه المرة".

لكن الإسكندر رفع رأسه كي يرى الجميع وجهه الذي تعلوه الابتسامة، ولم يكن غاضباً البتة: "كلا، لن أقدم على شيء كهذا لأنني لا أريد إخافة ضيوفي".

شرع جميع الحاضرين بالضحك، ومرّت العاصفة على الأقل في ذلك الوقت.

4

سار إتيوكل على صهوة جواده أياماً عديدة، لم يذق خلالها طعم السنوم سوى لساعات قليلة كل ليلة بالقرب من جواده. كان يستفيق عـدة مرات مرعوباً من صرخات الحيوانات، وعواء بنات آوى. قلق الشاب من أن يضلّ طريقه، أو من احتمال تعرضه للهجوم وسرقة جـواده ومـؤنه منه. أما خوفه الأكبر فكان من احتمال إقدام قطاع الطـرقات على أسـره وبيعه عبداً في أحد الأمكنة البعيدة بحيث لن يستطيع أحـد إيجاده أو تحريره مجدداً. ولم يكن الفتى قد تعرّض طيلة حـياته لقلـقٍ مـن هذا النوع، ولم يضطر يوماً إلى مواجهة الأخطار وحـده، لكـن وجود سيف والده معه رفع من معنوياته. جعلته بنيته المتيـنة بالنـسبة إلى عمره يشعر بأنه رجل بالغ أكثر مما هو في حقيقة الأمر.

لم يكـن يعـرف مطلقاً أن سلامته تعتمد على الرجلين اللذين يتبعانه، واللذين أرسلهما عدوّه الذي يكرهه، وهو الرجل الذي جلب العار لوالده وقهر والدته جسداً وروحاً.

سار كل شيء على ما يرام بينما كان إتيوكل يعبر المناطق الآهلة بالسكان في فلسطين وسوريا حيث كان من السهل نسبياً على مرافقيه التخفي، أو الاختلاط مع القوافل التي كانت تنتقل من قرية إلى أخرى حاملـة معها سلعاً مختلفة. لكنّ رجلَي الهيتايروي اللذين يتبعانه اضطرا إلى مناقـشة الأمـور، واتخاذ قرارٍ عندما وصلا إلى الصحراء مترامية الأطـراف. كانا جنديين مقدونيين من الحرس الملكي، ومن بين أشجع

جنود الإسكندر وأكثرهم ذكاء، وكانا يعرفان قائدهما جيداً، ويدركان أنهما إذا أخفقا في مهمتهما، وحدث أي مكروه لهذا الشاب، فلن يسامحهما الملك أبداً.

قال أحدهما: "إذا أبقيناه تحت المراقبة في هذه الصحراء فسيرانا، لأنه لا يوجد أيّ مكان نستطيع الاختباء فيه. أما إذا ابتعدنا عنه فسنخاطر بإمكانية فقدان أثره".

ردّ رفيقه: "لا نمتلك خياراً آخر في هذه المسألة. يتعيّن على أحدنا أن يتقدم منه، وأن يحوز على ثقته. لا توجد أمامنا طريقة أخرى لحمايته".

وضع الجنديان خطة للعمل وفقاً لها. انطلق الشاب مجدداً فجر اليوم التالي في رحلته، لكنه بدا متعباً بعد أن أمضى الليل نصف مستيقظ، وما لبث أن رأى من بعيد رجلاً وحيداً على صهوة جواده يتقدّم في الاتجاه الذي يقصده. توقف الشاب، وراح يتساءل عما إذا كان من الأفضل له أن يقترب بجواده من ذلك المسافر الوحيد فيكسب بذلك رفقةً لما تبقى له من رحلته.

وبعد أن فكّر قليلاً، قرّر أن الاقتراب ليس بتلك الفكرة الصائبة. خاصة وأنه سيضطر إلى مواجهة ظروف أصعب بكثير في المستقبل القريب. استجمع الشاب شجاعته، ونخس جواده بقدميه، وانطلق عبر تلك الطريق المهجورة، وسرعان ما بدأ الرجل بالاقتراب منه. تغلب إتيوكل على خجله، وتحدث إليه بالفارسية: "ليحمك أهورا مازدا أيها الغريب. أيّ جهة تقصد؟".

أدرك الرجل أن ذلك الشاب سيفهم لغته، فخاطبه بالإغريقية: "أنا لا أتكلم لغتك يا بني، لكنني صائغ ذهب من جزيرة كريت، وأنا في طريقي إلى بابل كي أعمل في قصر الملك العظيم".

تنفس إتيوكل الصعداء وقال: "وأنا أيضاً في طريقي إلى بابل. آمل ألاّ تمانع إذا ترافقنا".

"كلا، على الإطلاق، بل سأسرّ بذلك كثيراً. لأن سفري وحيداً في هذه الطرقات المهجورة يرعبني".

"ولماذا تسافر وحيداً؟ ألم يكن من الأفضل لك أن تنضم إلى إحدى القوافل؟".

"أنت على حق، لكنني سمعت قصصاً عديدة عن التجار الذين يسيرون مع القوافل... وسمعت أنهم يزيدون مداخيلهم عن طريق بيع المسافرين الوحيدين الذين يلتقونهم في الطرقات كعبيد، وذلك عندما تسنح لهم الظروف بذلك، لذلك قلت في نفسي إنه من الأفضل أن أكون وحيداً، بدلاً من أن أكون برفقة أناسٍ سيّئين. أستطيع، على الأقل، أن أتطلع إلى الأفق، كما توجد علامات واضحة على الطريق، لذلك لا يصعب على المرء أن يعرف الاتجاه الذي يسير فيه. إن كل ما عليك فعله هو أن تحافظ على المسير باتجاه مشرق الشمس، وسرعان ما ستصل في نهاية المطاف إلى ضفاف نهر الفرات. تسهل الأمور عند تلك النقطة، لأن كل ما يحتاج إليه المرء هو قارب جيد، وهذا هو كل شيء. يمكنك أن تسترخي إلى أن تصل إلى بابل. لكنك تبدو صغيراً جداً على السّفر بمفردك. أليس لديك والدان أو أشقاء؟".

لم يردّ إتيوكل، وكان كل ما سمعه في تلك اللحظات هو وقع حوافر الحصانين على الطريق الصحراوية، وتحت السماء الفارغة. تكلّم الرجل مجدداً: "آسف. ما كان يجدر بي أن أتطفل على أمورك الشخصية".

راح إتيوكل يحدّق إلى الأفق المنبسط مثل بحرٍ ساكن، ثم قال: "أتعتقد أن الوقت سيطول قبل أن نصل إلى الفرات؟".

أجاب الرجل: "كلا. وإذا حافظنا على وتيرة السير هذه، فلا بد من أن نصل عند مساء الغد".

سار الرجلان حتى المساء، ثم نصبا خيمة عند أحد المنحدرات. بقي إتيوكل مستيقظاً إلى أقصى مدة ممكنة، وذلك كي يراقب رفيقه الجديد، لكن الإجهاد نال منه في نهاية الأمر فاستسلم لنومٍ عميق. عندها، نهض الرجل من رقاده، وسار في الاتجاه الذي سلكه مع رفيقه الجديد. تابع السير إلى أن تمكن من تمييز خيالَي جواد ورجلٍ مستلقٍ إلى جانبه. كان كل شيء يسير حسب الخطة المرسومة، ولذلك عاد إلى خيمته، واستلقى على الأرض مجدّداً، وخلد إلى النوم.

استيقظ الشاب في الصباح فلاحظ أن الرجل قد وضع أمامه حفنة من ثمار التمر مع خبز يابسٍ بالإضافة إلى كوب ماء ملأه من كيس الماء المعلّق في عباءته. تناولا الطعام بسكون ثم انطلقا مجدداً تحت أشعة الشمس الحارقة، ووسط الهواء الراكد والساكن.

تبيّن لهما عند حلول وقت الظهيرة أن الحصانين منهكان جداً، لذلك ترجّلا وتابعا طريقهما سيراً على الأقدام بعد أن قادا الحصانين وهما يمسكان بلجاميهما.

وصلا إلى نهر الفرات في وقتٍ متأخرٍ من ذلك المساء، وعرفا أنهما وصلا إليه لدى سماعهما صوت مياهه، وذلك قبل أن يريا بالفعل المياه المتلألئة تحت ضوء القمر. لاحظا وجود مكانٍ تندفع فيه المياه فوق طبقة ضحلة من الحصى، وهو الأمر الذي أنتج شريطاً من الزبد يمتد من ضفةٍ إلى أخرى. كان ذلك المعبر مناسباً. اقترب الجندي من المكان، وسار بحصانه ببطء حتى وصل إلى وسط النهر، وهو يختبر متانة المعبر، وما لبث أن قفل راجعاً.

قال بعد أن التفت نحو إتيوكل: "إن المعبر آمن. يمكنك أن تعبر إذا أردت".

سأله الصبـــي: "ماذا تعني؟ ألن تأتي بدورك؟".

هزّ الجندي رأسه قائلاً: "كلا، لقد انتهت مهمتي، ويتعيّن عليّ أن أعود الآن".

ازداد ذهول الشاب وقال: "انتهت مهمّتك؟".

"هــذا صحيح. أمَرَنا الإسكندر أن نرافقك حتى الحدود، وذلك كــي نضمن عدم تعرضّك إلى أيّ حادث. كان أحد رفاقي يتبعنا من البعيد".

طأطــأ إتــيوكل رأســه، وقــد شعر بالإهانة بسبب ما قام به الإسكندر. ثم قال للجندي: "عد إلى سيّدك، وقل له إن هذا لن يمنعني من قتله إذا التقيته ذات يوم في ميدان المعركة". قال ذلك وقاد حصانه فوق المعبر.

جلــس الجــندي منتصباً فوق صهوة حصانه وهو يراقب الشاب الــذي عَبَر إلى الضفة الأخرى قبل أن ينطلق عبر السهل نحو الأراضي الفارســية. بعد ذلك، استدار الجندي، وذهب لملاقاة رفيقه الذي كان يــسير خلفه. كان ضوء القمر ساطعاً فأضاء كل شيء. لكن، لم يكن هناك أثر يدل على وجود رفيقه. وفي اليوم التالي، لم يظهر أي أثرٍ يدل عليه، وكذلك في اليوم الذي يليه. وبدا أن الصحراء قد ابتلعته.

5

قـــال الإســـكندر عندما دخل غرفة بارسين: "عَبَر ابنك إتيوكل الحدود إلى بلاد فارس. لكنّ أحد الرجلين اللذين أرسلتهما كي يتبعاه لم يعد بعد".

ردّت بارسين: "أنا آسفة. أعرف كم أنت قريبٌ من رجالك".

"إنهـــم مـــثل أولادي، لكنه الثمن الذي دفعته لقاء راحة بالك. كيف حال ابنك الأصغر؟".

"إنـــه يلازمـــني على الدوام، وهو يحبّني، ولعله يفهمني. تساعد الطبـــيعة علـــى حماية الصغار، لكنهم سرعان ما ينسون، لأن النسيان أسهل بالنسبة إليهم".

"وأنتِ؟ كيف حالك؟".

"إنـــني ممتـــنة لكـــل ما فعلته من أجلي. لكن حياتي لم تعد كما كانـــت. إن الأم لا يمكنها أن تكون حبيبة حقيقية، لأن قلبها ينجذب على الدوام في اتجاه يعاكس مشاعرها الأخرى".

"أتحاولين أن تقولي لي إنك لم تعودي راغبة في رؤيتي؟".

أخفـــضت بارسين رأسها بعد أن شعرت ببعض الكدر، وقالت: "أرجـــوك لا تصعّب الأمور عليّ. تعرف جيداً أنني أحب أن أراك كل يـــوم، وفي كل لحظة. وتعرف كذلك أن بعدك عني، وبرود مشاعرك تجاهي يؤذيانني كثيراً. أرجو أن تمنحني بعض الوقت كي أتعافى، وكي أكوّن لذكرياتي ملاذاً صغيراً في قلبـــي. وبعد ذلك... سأعرف كيف أحبّك كما ترغب".

نهضت، واقتربت منه، وغمَرَته بجمالها وعطرها. أحاط الإسكندر وجهها بيديه وقبّلها.

"لا تيأسي. سترين ابنك مجدداً، ولعلنا سنتمكّن في مستقبل ليس ببعيد من العيش معاً بسلامٍ". ثم عانقها قبل أن يغادر المكان.

التقـــى ســـلوقس علـــى الدرج. وكان هذا الأخير يبحث عنه. "وصلت سفينة من قبل القائد أنتيباتر، وهي تحمل رسالة مستعجلة منه. إليك الرسالة".

فتح الإسكندر الرسالة، وقرأ فيها:

من أنتيباتر الوصي علىٍ عرش المملكة، إلى الإسكندر. تحياتي! جمع الإسبارطيون جيشاً، وبدأوا بالزحف باتجاه حامياتنا وحلفائنا في جـــزر البيلوبونيز، لكنهم لا يزالون بمفردهم في هذا الوقت. أعـــتقد أنه من المهم جداً بالنسبة إلينا أن يظلّوا من دون حلفاء. افعـــل مـــا تراه مناسباً كي تضمن عدم تغيّر الوضع، وهكذا لن أحـــتاج إلى طلب المساعدة. إن والدتك وشقيقتك بخير، ولعله ينبغـــي لـــك أن تعثـــر على زوجٍ آخر لكليوباترا. أعلمك أن سيسين، ذلك الرجل المصري الذي طلبتَ إليّ أن أتحرّى عنه، قد أصبح خادماً لوالدتك موثوقاً به بعد مقتل والدك.

اعتنِ بنفسك.

قال سلوقس: "آمل أن يكون ذلك الرجل العجوز قد بعث إليك أخباراً حسنة".

"ليس تماماً. يتحرك الإسبارطيون الآن، ويحضّرون لهجومٍ ضدنا. يتعيّن علينا أن نذكّر الأثينيين بالتزاماتهم. متى يحين موعد اجتماعي مع وفد حكومتهم".

"إنه هذا المساء. سبق لهم أن سلّموا إيومينيس رسالةً يطالبون فيها بعودة السجناء الأثينيين الذين أُسروا في غرانيكوس".

"إنهم لا يضيعون وقتاً. لكنني أخشى أنني سأخيّب ظنهم. هل هناك أي شيء آخر؟".

"يشرف طبيبك فيليب على زوجة داريوس خلال فترة حملها. لكنه قلقٌ جداً، وطلب إليّ أن أُعلمك بالوضع".

"حسناً. قل للأثينيين إنني سأستقبلهم بعد انتهاء العروض المسرحية. واطلب من بارسين أن تقصد الملكة في جناحها. فيحتمل أن تتمكن من تقديم مساعدة معينة".

وما إن أنهى الإسكندر كلامه، حتّى نزل الدرج، والتقى فيليب الذي كان يغادر غرفته للتّو، ورأى خادمين يتبعانه وهما يحملان أدوية من كل الأنواع.

سأل الإسكندر: "كيف هي حال الملكة".

"حالتها مستقرة، لكنها في وضعٍ حرجٍ جداً".

"وما هي مشكلتها؟".

"استدار الجنين، بحسب فهمي للحالة، لذلك فهي عاجزة عن وضعه".

تابع الإسكندر طريقه برفقة فيليب، وتوجّها إلى المبنى الذي تسكن فيه زوجات داريوس مع جواريهن.

"ألا تستطيع أن تفعل شيئاً؟".

"يُحتمل أنني أستطيع فعل شيء. لكنني أخشى أنها لن تسمح لرجلٍ بأن يفحصها. إنني أحاول تدريب قابلتها، لكنني لست متأكداً من أنها مفيدة. إذ تنتمي تلك المرأة إلى قبيلة الملكة ذاتها، ولكن يبدو لي أنها خبيرة بالشعوذة أكثر مما هي خبيرة بالطب".

"انتظر قليلاً. ستأتي بارسين، وربما ستنجح في إقناعها".

بدا أنّ فيليب يشك في ذلك، لكنه قال: "آمل ذلك".

وصــل الإسكندر وفيليب إلى المبنى الذي خصّص كي يكون مقر زوجــات الملك. ولاحظا أن بارسين قد سبقتهما إليه، وأنها تنتظرهما أمــام الــباب. استقبلهم أحد المخصيين وتقدّمهم إلى الباحة الداخلية، وتناهى إلى أسماعهم صوت أنينٍ مكتوم.

قــال فيليب: "حتى إنها لا تبكي عندما تشعر بآلام المخاض، لأن أنَفَتها تمنعها من ذلك".

أشــار إلــيهم المخصي بكل احترام أن يتبعوه إلى الطابق العلوي حيث التقوا القابلة وهي تغادر الغرفة في تلك اللحظة بالذات.

قــال الطبــيب لبارســين: "أرجوك، ترجِمي لي. يتعيّن عليّ أن أقــنعها، أتفهمــين؟". أومأت بارسين، ودخلت جناح الملكة. في هذا الوقت، قاد المخصي الإسكندر إلى عتبة باب آخر، وما لبث أن قرعه.

فتحت امرأة فارسية ترتدي ملابس أنيقة الباب، ورافقتهما إلى غرفة الانــتظار، وتــوجهت بهمــا بعــد ذلــك إلى غرفة كانت تجلس فيها سيــسيغامبيس، الملكة الأم. كانت الملكة جاثية على ركبتيها قرب النافذة فــوق لفافة من ورق البردى. احتوت اللفافة على كتابات كثيرة، وكانت الملكة الأم تهمس بتعويذة معينة. أشار المخصي إلى الإسكندر وشرح له أنها تقــوم بــواجب ديني. عندها، وقف الملك بكل احترام قرب الباب، لكن سيــسيغامبيس أدركت وجوده على الفور، فوقفت بسرعة واقتربت منه، وحيّــته بالفارســية بكــل حرارة. بدا الاهتمام والتوتر، وحتى الألم على وجهها بكل وضوح، لكن من دون وجود أي علامة تنمّ عن القلق.

قــال المتــرجم: "إن الملكــة الأم تحييك، وهي ترجوك أن تقبل ضيافتها".

"اشــكرها بالنيابة عني، وقل لها إنني لا أنوي أن أزعجها. أتيت فقــط كــي أحاول تقديم المساعدة إلى زوجة داريوس التي تمرّ بوقتٍ

عصيبٍ الآن". نظر الإسكندر إلى عينيها مباشرة، وتابع كلامه: "يقول طبيبي إنه يستطيع المساعدة إذا تمكّنت زوجة داريوس من التغلب على خجلها ووافقت على أن يفحصها".

فكّرت سيسيغامبيس بعمق، وما لبثت أن نظرت إلى عينَي الإسكندر بوجهٍ يفيض بالتأثر الذي شعرت به، وشعر كلاهما بمدى عمق مشاعرهما، ومدى بعد هذه المشاعر عن لغة المترجم. في تلك اللحظة، قطع الأنين المكتوم الصادر عن الملكة التي توشك أن تصبح أماً حبل الصمت، وكان من الواضح أنها تحاول مواجهة محنتها بمفردها بكل كبرياء. جفلت الملكة الوالدة لدى سماعها ذلك الصوت، وما لبثت عيناها أن فاضتا بالدموع.

"أشك في أن يكون طبيبك قادراً على المساعدة، حتى لو سمحت له بفحصها".

"لكن لماذا، أيتها الوالدة العظيمة؟ طبيبي ذو خبرة واسعة..."، غير أنه امتنع عن متابعة كلامه حين أدرك من التعابير التي ارتسمت على وجهها أن أفكارها كانت في مكانٍ آخر.

قالت سيسيغامبيس: "في واقعِ الأمر، أعتقد أن زوجة ابني لا ترغب في أن تلد".

"لم أفهم أيتها الوالدة العظيمة. يعتقد طبيبي فيليب أنه يُحتمل أن يكون الطفل في وضع غير صحيح وغير مناسب للولادة و...".

فاضت دمعتان ببطء فوق خدّي الملكة الوالدة، كما ظهرت علامات التقدم في السن والألم على وجهها، وما لبثت الكلمات أن انسابت من فمها بتأنٍّ، وكأنها كانت تستعد للنطق بحكمٍ ما: "لا تريد زوجة ابني أن تلد سجيناً، ولا يستطيع أي طبيب أن يغيّر قرارها. إنها تحتفظ بالطفل في داخلها، وذلك كي تتمكن من الموت معه".

ظهرت الحيرة الحقيقية على وجه الإسكندر، وعجز عن الكلام، فأخفض رأسه.

تابعت سيسيغامبيس كلامها بصوتٍ متهدج يفيض بالعاطفة: "ليست تلك غلطتك يا بني. فلقد جاءت بك الأقدار كي تدمر إمبراطورية أنشأها سيروس. إنك مثل الرياح التي تهب بقسوة فوق سطح الأرض. وبعد مرورها، لا يعود شيء إلى ما كان عليه من قبل. لكن الرجال يبقون متعلقين بذكرياتهم مثلما يتمسك النمل بأوراق العشب التي تعصف بها الرياح".

سُمعت في تلك اللحظة صرخة أعلى، تبعتها أصوات النواح.

قالت سيسيغامبيس: "انتهى الأمر. مات آخر ملك الملوك قبل أن يولد". وبعد قليل، دخلت خادمتان، ووضعتا نقاباً أسود اللون على وجه الملكة وكتفيها، وذلك كي تتمكن من التّعبير عن حزنها من دون أن يراها أحد.

أحبّ الإسكندر أن يقول شيئاً، لكنها بدت أمامه كتمثالٍ فلم يجرؤ على الكلام. لذا، أخفض رأسه، ثم غادر الغرفة ومرّ عبر الرواق وهو يسمع أصوات بكاء نساء داريوس ونواحهن.

أما فيليب فخرج من غرفة الانتظار التابعة للملكة الراحلة مصدوماً وشاحب اللون.

*

في اليوم التالي، أعطى الإسكندر الأوامر لتنظيم مراسم الجنازة، وأمر أن تُدفن الملكة بطريقة تليق بها، وأن تنال التكريم الذي يُناسب مركزها، وأمر كذلك بأن تُقام رابية ترابية كبيرة فوق مكان دفنها جرياً على عادة قبيلتها الأصلية. وعند وضعها تحت التراب، عجز الملك عن كبح دموعه، وهو يفكّر في جمالها ورقّتها، وفي طفلها الذي لم يرَ النور.

في ذلك المساء بالذات، هرب المخصي وسار بحصانه أياماً عدة حتى وصل إلى أول المراكز الفارسية التي تقع بالقرب من نهر دجلة. وهناك، طلب أن يؤخذ إلى معسكر الملك داريوس الذي كان في الجانب الآخر من النهر. رافقه عدد من الفرسان الميديين عبر الصحراء مسافة عشرة فراسخ، وعند غروب شمس اليوم التالي كان يقف في حضرة الملك العظيم.

كان داريوس يعقد اجتماعاً مع قادته، وكان يرتدي سروالاً كتانيّاً خشناً، وسترة مصنوعة من جلد غزال؛ وهي ملابس بسيطة يرتديها الجنود عادة. أمّا الشيء الوحيد الذي كان يشير إلى مركزه الملكي فكان ذلك التاج الثقيل الذي وضعه فوق رأسه، والخنجر المصنوع من الذهب الخالص، و***الأكيناكي*** اللامع الذي يتدلى إلى جانبه.

رمى المخصي نفسه على الأرض، وعفّر جبهته بالتراب، وراح يقص على الملك ما حدث في صور وسط نشيجه، وروى له ما جرى مع الملكة، وأخبره عن ألمها، وموتها، وجنازتها، ولم ينسَ ذكر الدموع التي ذرفها الإسكندر.

بدا داريوس مصدوماً بهذه الأخبار، وأمر المخصي بأن يتبعه إلى القسم الداخلي من الخيمة الملكية.

"سامِحني أيها الملك العظيم لأنني حملت إليك هذه الأخبار المحزنة. سامِحني...". ومضى المخصي بالاعتذار هكذا من خلال دموعه.

فقال له داريوس كي يخفّف عنه: "لا تبك لأنك قمتَ بواجبك، وأنا ممتن لك على ذلك. هل عانت زوجتي كثيراً؟".

"تعذّبت كثيراً يا صاحب الجلالة. لكنها تعذّبت بكبرياء وقوة تتناسبان مع كونها ملكة فارسية".

نظر داريوس حوله من دون أن يقول أي شيء. ولكن، اتضح من التغضنات العميقة على جبهته، ومن شرود نظرته أن قلبه وعقله مليئان بعاطفتين متناقضتين.

سأله بعد برهةٍ من الصمت: "هل أنت متأكد من أن الإسكندر بكى بالفعل؟".

"أجل. كنت قريباً منه بما يكفي كي أرى الدموع التي تسيل على خدّيه".

تنهد داريوس، وجلس متثاقلاً على صندوق، وقال: "لكن ذلك يعني... يعني أن شيئاً ما كان يجري بينهما. تنزل الدموع عندما يفقد المرء شخصاً عزيزاً عليه".

"يا صاحب الجلالة، إنني لا أعتقد...".

"يُحتمل أن يكون الطفل طفله...".

قال المخصي معترضاً: "كلا، كلا!".

صاح داريوس: "اصمت! هل تتجرأ على معارضتي؟".

جثا المخصي على ركبتيه، وراح يرتعش ويبكي مجدداً، ثم قال: "يا صاحب الجلالة، أتوسل إليك دعني أتكلم!".

"قلتَ لي الكثير، فما الذي تبقّى عندك كي تضيفه الآن؟".

"لم يلمس الإسكندر زوجتك قطّ، ولم يزرها من دون أن يطلب الإذن، وكان ذلك يحصل بحضور جواريها. وأظهر الإسكندر الاحترام ذاته، إن لم يكن أكثر، تجاه والدتك".

"هل أنت تكذب عليّ؟".

"أنا لا أكذب عليك أبداً أيها الملك العظيم. إن كل ما أخبرتك إياه هو الحقيقة بعينها. أقسم بأهورا مازدا".

تمـــتم داريوس: "أهورا مازدا...". ووقف بعد ذلك، وتقدم نحو بـــاب الخيمة، وسحب السّتارة جانباً، ثمّ نظر إلى السماء. كانت القبّة الـــسماوية فوق الصحراء تعجّ بالنجوم، بينما امتدت مجرّة درب التبانة من أفق إلى آخر بضوئها الشفّاف. كان المعسكر مليئاً بآلاف المشاعل الصغيرة المنتشرة في أرجائه. راح يتمتم: "أهورا مازدا، اجعلني منتصراً، ودعني أحافظ على مملكة أسلافي. إنني أعد بأنني إذا انتصرت، فسأعامل خـــصمي بكل رأفة واحترام، لأنه لو لم تضعنا الحرب في هذا الموقف لكنت طلبت، ومن كل قلبـــي، أن نكون صديقين ودودين".

غادر المخصي الخيمة كي يترك الملك بمفرده مع أفكاره. لكنه ما إن فعـــل ذلـــك حـــتى سمع ضجيجاً صادراً عن أحد مداخل المعسكر فـــتوقف في مكانـــه. رأى جماعةً من الفرسان الأشوريين يقتربون منه، ولاحـــظ أنهم يرافقون شاباً في غاية الوسامة. ولدى مروره أمامه خيّل إلـــيه أنّه يعرفه. مشى المخصي وراء الجماعة خطواتٍ عدة، وهو غير مـــصدق مـــا يـــراه. في هذا الوقت، وصل الموكب الصغير إلى الخيمة الملكـــيةً. وعـــندما انعكس نور أحد المشاعل المضاءة أمام المدخل على وجه الصبـــي تأكّدت ظنونه. كان ذاك الشاب إتيوكل، ابن ممنون!

6

كـــان أداء تيسالوس في أوديب ريكس مثالياً، وعندما وصل إلى المشهد الذي يقتلع فيه البطل عينيه بدبوس مشبك عباءته، رأى الجمهور خطين من الدماء ينـــزلان من قناع الممثل. عندها، تصاعدت أصوات تحسّر طويلة من الجمهور الذي اصطف على الشرفات، بينما تناهى إلى أسماعهم التفجع الإيقاعي لأوديب ذاته من المسرح.

صـــفّق الإســـكندر الذي كان يجلس على مقعد الشرف طويلاً وبحماسة. وبعد ذلك مباشرة، أدّى آلسيستيس. انفعل الجمهور بدرجة أكـــبر في ذروة المـــسرحية. وحرص إيومينيس على أن يقوم دياديس بتـــصميم آلات المسرح، وهو المهندس ذاته الذي بنى أبراج الهجوم التي تسببت بتدمير أسوار صور.

همـــس الأمين العام في أذن الإسكندر: "قلت لك إنه سيبلي بلاءً حسناً. انظر إلى الجمهور كيف يتفاعل مع هذا الأداء".

"قمـــتَ بعمـــلٍ رائع. تأكد من تسلّم الجميع جوائزهم، وعلى الأخص ذلك المهندس الذي صمّم الآلات. لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا".

"يعود الفضل في ذلك إلى رعاة هذه المسابقات، مثل ملك قبرص الـــذي لم يوفـــر أي مبلغ في تمويل التجهيزات و... هناك أمرٌ أخير. وردت أخـــبارٌ جديدة من الجبهة الفارسية. سأعلمك بكل شيء هذا المـــساء بعد انتهاء العروض". وغادر بعد ذلك كي ينظّم حفل توزيع الجوائز.

انسحب الحكام الذين كان من بينهم بعض الضيوف الأثينيين الذين عُيّنوا من باب اللياقة، إلى غرفة اجتماعات، وذلك للتشاور قبل التوصل إلى قرارهم. خصّص الحكّام الجائزة الأولى لأفضل التجهيزات المسرحية لآلسيستيس، بينما كانت جائزة أفضل ممثل من نصيب أثينودوروس بسبب قيامه بدور ملكة آرغوس مستخدماً قناع امرأة، وصوتاً ذا طبقة عالية.

شعر الملك ببعض الإحباط، لكنه سعى إلى إخفاء هذه الحقيقة، وصفّق للفائز من باب اللياقة.

قال إيومينيس: "لا تحنق بسبب ما جرى، فلقد أعطوه الجائزة من أجل صوته العذب".

همس بطليموس في أذن سلوقس: "إن كنت أعرف الإسكندر جيداً، فإن ما جرى على خشبة المسرح الآن لن يساعد الوفد عند تقديمه التماسات الحكومة الأثينية هذا المساء".

"كلا. لكن حتى من دون قرارهم هذا، فإن أملهم كان ضئيلاً في واقع الأمر، لأن ملك إسبارطة آجيس يقوم بمهاجمة حامياتنا. ولذلك أرى أنه من الأفضل أن نقضي على أي أملٍ قد يدغدغ الأثينيين".

فهم سلوقس الوضع جيداً عندما حانت لحظة لقاء الملك الموفدين الأثينيين، وأصغى بعناية إلى طلباتهم.

بدأ رئيس الوفد الذي كان ذا خبرة سنوات عدة في المجلس التمثيلي الكلام: "كانت مدينتنا موالية لكم، كما دعمناك خلال حملتك على أيونيا، وقمنا بتنظيف البحر من القراصنة كي نضمن بقاء مواصلاتك مع مقدونيا مفتوحة. ولأجل كل ذلك، إننا نطلب إليك أن تطلق سراح الأسرى الأثينيين الذين وقعوا في أيديكم خلال معركة غرانيكوس. فعائلات الأسرى تتلهف لاستقبالهم مجدداً، كما تستعد

المديـــنة للترحيب بهم. نحن نسلّم بأن هؤلاء قد تصرفوا برعونة، لكنهم فعلوا ذلك بنيّةٍ طيبة، فدفعوا ثمن خطأهم غالياً".

تـــبادل الملـــك نظـــراتٍ سريعة مع سلوقس وبطليموس، ثم ردّ بالقـــول: "أرغب من كل قلبـــي في أن ألبـــي طلبكم هذا. لكن، لم يحِـــن الوقت المناسب بعد لوضع الماضي جانباً. سأطلق سراح خمسمئة رجـــل عن طريق القرعة، أو مَن تختارونهم أنتم. أما الآخرون فسيبقون سجناء عندي لبعض الوقت".

لم يحـــاول رئـــيس الوفد الأثيني المجادلة في هذه المسألة، لأنه كان يعـــرف طبـــيعة الإسكندر تمام المعرفة، ولذلك ابتلع ريقه بمرارة خلال مغادرته الغرفة. كان يعرف أن الملك لا يتراجع أبداً عن قراراته، وعلى الأخص تلك المتعلقة بالسياسة والاستراتيجية.

مـــا إن غـــادر أعضاء الوفد حتى هبّ كل أعضاء المجلس واقفين وغادروا بدورهم، في ما عدا إيومينيس.

سأله الإسكندر: "حسناً، إذاً؟ ما هي الأخبار التي ذكرتها لي؟".

"ستعرفها كلها بعد وقت قصير. هناك شخصٌ يطلب رؤيتك".

فـــتح إيومينيس باباً جانبياً، وأدخل منه شخصاً غريباً إلى الغرفة. كانـــت لحـــية الرجل مشذبة بإتقان، ومن الواضح أنها مصبوغة باللون الأسود. أمّا شعره فكان مسرّحاً بترتيب. وكان يرتدي ملابس سورية مبهرجة. ووجد الإسكندر صعوبة في التعرّف إليه.

"أنت إيمولبوس من سولوي! لكن، ماذا حدث لك؟".

قـــال الـــرجل: "لقـــد غيّرت هويتي، لذلك فإن اسمي الآن هو بعلادجـــار. وأنـــا أتحرك الآن ضمن المجتمعات السورية حيث أتمتع بـــسمعة طيـــبة بـــصفتي ضالعاً ومشعوذاً. لكن، كيف ينبغي لي أن أخاطـــب سيداً شاباً هو سيّد النيل والفرات، والذي تهتزّ كل مناطق

آسـيا خـوفاً من مجرّد ذكر اسمه؟ ثم لديّ سؤال آخر، هل الكلب موجود هنا؟".

أجاب إيومينيس: "كلا، الكلب ليس هنا. هل أنت ضالع أعمى؟".

سأل الإسكندر: "إذاً، ما هي الأخبار التي جلبتها لي؟".

نفض إيمولبوس الغبار عن كرسيٍّ بطرف عباءته، ثم جلس بعد أن دُعـي للجلوس. بدأ الرجل كلامه: "أعتقد هذه المرة أنني جلبت لك معلـومات لم تـستلم مثيلاً لها من قبل. يتلخص الوضع على الشكل الـتالي: يجمع الملك العظيم جيشاً كبيراً هو على وجه التأكيد أكبر من ذلـك الذي واجهتَه في إيسوس. يُضاف إلى ذلك أنه يخطّط لاستخدام العربات المصممة حديثاً والمزودة بآلاتٍ قاطعة، وهي أجهزة رهيبة مليئة بـشفرات قاطعة مثل السيوف. سيتواجد معسكره الرئيس إلى الشمال مـن بابـل، وهو سينتظر كي يعرف الاتجاه الذي ستسلكه. وعندها سيختار موقع المعركة. سيكون موقع المعركة وسط سهلٍ فسيحٍ حيث يـستطيع أن يستفيد من تفوّقه العددي إلى أقصى حدٍّ، وحيث تستطيع عرباته التحرك بكل حرية. إنه واثقٌ جداً من أن النصر سيكون حليفه".

"وما الذي جعله يغيّر رأيه بهذه السرعة؟".

"الجمود الذي تظهره. إذ إنّ عدم تحرّكك من الساحل أقنعه بأنّ لديـه الـوقت الكافي كي يجمع كل الجنود الذين يحتاج إليهم لإلحاق الهزيمة بك".

التفت الإسكندر إلى إيومينيس قائلاً: "أرأيت؟ لقد كنتُ مصيباً. إنها الطريقة الوحيدة للتوصل إلى حلٍّ حاسم. سأنتصر، وستكون آسيا بأكملها لي".

التفت إيومينيس مجدداً نحو إيمولبوس: "ألديك فكرة عن المكان الذي اختاره داريوس لمقاتلتنا؟ هل هو في جهة الشمال؟ أم في جهة الجنوب؟".

"لا أعرف. لكنّ هناك شيئاً واحداً أعرفه. سينتظرك الملك العظيم في أيِّ طريق مفتوحة ومنبسطة أمامك".

فكّر الإسكندر بصمت قليلاً بينما كان إيمولبوس يراقب خلسةً، ثم قال: "سنبدأ بالتحرك في بداية الخريف، وسنعبر نهر الفرات عند ثابساكوس. انتظِرنا هناك، فربما ستحمل إلينا أخباراً جديدة".

غادر المخبر وسط سلسلةٍ من الحركات المصطنعة، لكن إيومينيس بقي كي يتحدث إلى الملك.

"إذا عبرتَ النهر عند ثابساكوس فإن ذلك يعني أنك تريد التحرك مع نهر الفرات جنوباً، أي كما فعل *العشرة آلاف* الذين تحدث عنهم زينوفون... هل أنا محقّ؟".

"يُحتمل ذلك. لكن، لا شيء مؤكد حتى الآن، لأنني سأتخذ قراري عندما أقف على ضفّة النهر اليسرى. أما الآن، فأنا أريد أن تستمر الألعاب الرياضية. أريد أن يستمتع الرجال، وأن يجدوا نوعاً من التسلية، لأنهم لن يجدوا وقتاً لهذه التسلية بعد ذلك. فسنكون تحت ضغط شديد أشهراً عدّة، وربما لسنوات. مَن سيمثلنا في الملاكمة؟".

"ليوناتوس".

"بالطبع، ومن سيمثّلنا في المصارعة؟".

"ليوناتوس".

"فهمت. أرجوك، ابحث عن هيفاستيون، ثم أرسله إليّ".

غادر إيومينيس، وبدأ عملية البحث عن صديق الملك. فوجده يتدرب على المصارعة مع ليوناتوس. رآه يسقط مرات عدة قبل أن يتمكن من الاستحواذ على انتباهه. انتظر حتى سقط هيفاستيون على الأرض للمرة الثالثة ثم قال: "يريد الإسكندر أن يراك. أسرِع".

سأل ليوناتوس: "أيريد أن يراني أنا أيضاً؟".

"كــــلا، لا يريد رؤيتك. ابقَ هنا وتابِع تمارينك لأنني لن أحسدك أبداً إذا لم تتمكن من هزيمة الشخص الأثيني الذي سيتحداك".

قـــال ليوناتوس شيئاً كي يعبّر عن تذمره، بينما أشار إلى جندي آخر كي يتقدم نحوه. اغتسل هيفاستيون على وجه السرعة، ومثل أمام الإسكندر وشعره مليء بالرمال.

"هل أرسلت في طلبـــي؟".

"أجـــل. أريد تكليفك بمهمة خاصة. اختر بنفسك وحدتين من فـــرقة الطليعة إذا أردت، وفريقين من بحاري الفينيقيين البحريين. خذ نيرخوس معك، وتوجهوا إلى ثابساكوس الواقعة عند نهر الفرات. أمن له التغطية خلال بنائه جسرين عائمين، فسنعبر النهر من هناك".

"كم لدينا من الوقت؟".

"لـــديكم شهرٌ واحد على الأكثر. سأوافيكم إلى هناك مع سائر الجيش".

"إذاً، أخيراً سنتحرك".

"أجـــل، سنبدأ تحركنا. ودّع البحر يا هيفاستيون، لأنك لن ترى المياه المالحة إلى أن نصل إلى شواطئ المحيط الذي لا نهاية له".

7

استغرق الأمر أربعة أيام لتجميع الفرسان والنجارين وموادّ البناء. أشرف نيرخوس على تفكيك السفينتين، وعلى ترقيم الألواح وتحميلها على عربات تجرها البغال، وهكذا استعدت القافلة الطويلة لمغادرة الساحل. توجّه هيفاستيون في الليلة التي سبقت مغادرته إلى خيمة الإسكندر ليودّعه. وعندما عاد، رأى ظلّين لشخصين يسيران خلف خيمته قبل أن يقتربا منه بحذر.

كان على وشك أن يستلّ سيفه عندما همس صوتٌ مألوفٌ لديه: "نحن هنا".

سأل هيفاستيون إيومينيس: "هل تعبتما من العيش؟".

"ضع ذلك السيف جانباً لأننا يجب أن نتكلم".

ألقى هيفاستيون نظرةً حذرةً على الشخص الآخر، فتعرّف إلى وجه إيمولبوس من سولوي. قال ضاحكاً: "حسناً، لم أتخيّل مطلقاً أن أرى الرجل الذي أنقذ نفسه من قصبةٍ فارسية وهو يترك وراءه جيشاً بكامله".

رد المخبر على الفور: "انتبه مما تقوله أيها الشاب، وأصغِ إليّ كي تنقذ حياتك وحياة المحيطين بك".

أدخلهما هيفاستيون إلى خيمته وهو مندهش من هذه السرية، ثم سكب بعض الشراب في كوبين. ارتشف إيومينيس رشفة من الشراب، ثم بدأ بالكلام: "لم يُخبر إيمولبوس الإسكندر بكل شيء".

"لا أعرف السبب، لكنني تخيّلت هذا بطريقةٍ ما".

"لقد فعل الشيء الصائب! يريد الإسكندر خفض قرونه والهجوم مثل ثور من دون أن يحسب حساباً لقواته، أو لقوات العدو".

"هذا هو السنهج الصائب، وهو ما مكّننا من الانتصار في غرانيكوس وإيسوس".

"كانت قوانا في غرانيكوس متماثلة بطريقة أو بأخرى، أما في إيسوس فقد نجونا بمساعدة الحظ. إننا نتحدث هنا عن نحو مليون رجل. أتفهم هذا؟ مليون رجل. إنهم بالمئات ولا حصر لهم. أيمكنك أن تعدّهم؟ لا أتصوّر أنك تستطيع ذلك. لقد أحصيتُ عددهم بنفسي على كل حال. وإذا افترضنا أنهم يقفون بستة صفوف فهم سيحيطون بنا من جهة اليمين ومن جهة الشمال على عمق يزيد على ثلاثة ستاديا. وماذا بشأن تلك العربات ذات المحاور المسنّنة؟ كيف سيردّ رجالنا عندما يجدون أنفسهم في مواجهة تلك الآلات المرعبة؟".

"وأين موقعي في كل هذا؟".

قال إيمولبوس: "سأقول لك على الفور. سيرسل الملك العظيم حامية بقيادة مازايوس، مرزبان بابل، إلى معبر ثابساكوس. إن مازايوس هو اليد اليمنى للملك، وهو ثعلبٌ عجوز يعرف كل زاوية من زوايا البلاد الواقعة بين هذا المكان ومصب نهر السند، كما يعمل لديه آلاف عدة من المرتزقة اليونانيين، وكلهم متمرسون بأمور القتال، وهم من نوع الرجال الذين يستطيعون أن يبصقوا دماً عندما يضطرون إلى ذلك. أتعرف أمراً آخر؟ لا يجد مازايوس صعوبة في التواصل مع هؤلاء الشبان لأنه يتكلم اللغة اليونانية بطريقة أفضل مما تتكلمها أنت".

"لم أفهم حتى الآن ما ترمي إليه".

"قلق مازايوس كثيراً منذ بعض الوقت، بسبب اعتقاده أن إمبراطورية سيروس العظيم وداريوس قد وصلت إلى مرحلة الزوال".

"إن هذا لمصلحتنا، وماذا بعد؟".

"وبمـــا أنّ الرجل الذي سرّب إليّ هذه المعلومات قريبٌ جداً من مازايـــوس، فيمكنـــنا أن نتفهم ذلك الرجل العجوز. هل أدركتَ ما أعنيه؟".

"نعم ولا".

قال إيومينيس: "تحدّث إليه إذا كانت لديك فرصة للاجتماع به. سيعرفه نيرخوس لأنه رآه مرة في قبرص".

"سأحاول. وماذا بعد؟".

"هـــناك احتمال بأننا قد نخسر معركتنا ضد مليون رجل، ولذلك سنستفيد كثيراً من بعض المساعدة".

"أتريدني أن أقنعه بخيانة داريوس".

قال إيمولبوس: "شيء من هذا القبيل".

"سأتحدث إلى الإسكندر في هذا الشأن".

قال إيومينيس: "هل فقدت رشدك؟".

"لن يحدث شيء بغير هذه الطريقة".

هزّ إيمولبوس رأسه: "يا للشبان الحمقى الذين لا يريدون الإصغاء إلى الذين يعرفون أكثر منهم... إذاً، افعل ما تريده. اذهب كي يفتحوا لك رأسك". خرج المخبر، وما لبث إيومينيس أن تبعه، لكن الإسكندر ســـبقهما كي ينـــزّه بيريتاس على الشاطئ. وما إن رآهما الكلب حتى بـــدأ بالنباح على الفور. نظر إيومينيس أولاً إلى بيريتاس، ثم إلى المخبر قبل أن يسأله: "مِمّ صُنع شعرك المستعار؟".

*

استـــتغرق جـــيش هيفاستيون سبعة أيام كي يصل إلى ضفتي نهر الفـــرات عند ثابساكوس، وهي مدينة تعجّ بالتجار والمسافرين والماشية

والسلع من مختلف الأنواع. ازدهرت ثابساكوس لأنها نقطة العبور الوحيدة على النهر.

ترجع أصول هذه المدينة إلى الفينيقيين، بالرغم من تواجدها في الداخل، كما أن اسمها يعني بالفعل "معبراً"، أو "ممراً". لا يوجد أي شيء جذّاب بشكلٍ خاص في هذه المدينة من الناحية الجمالية. فليس فيها نُصُب تذكارية أو هياكل، أو حتى ساحات، أو أروقة معمدة، أو تماثيل... ومع ذلك، تُعتبر هذه المدينة مبهجة. وذلك بفضل أنشطة الناس وحركتهم فيها. فالتجار ينادون على سلعهم، أما بائعات الهوى فيتجمعن وهن يحملن أغراضهن، ويرافقن سائقي البغال والجِمال الذين يعملون على طول ضفتَي النهر العظيم. واللغة التي يتحدث بها الناس في ثابساكوس خليط غريب من الأشورية، والفينيقية، والآرامية مع استخدام بعض الكلمات اليونانية بين الحين والآخر.

أكمل هيفاستيون أول جولة استكشافية له في المدينة، فأدرك على الفور استحالة عبور النهر في ذلك الوقت، فقد بدأ المطر بالهطول في الجبال، وامتلأت ضفتا النهر بالمياه. كانت الطريقة الوحيدة للعبور تكمن في بناء جسر، وهكذا بدأ النجارون الفينيقيون بالعمل تحت إمرة نيرخوس. كانت جميع الألواح تحمل علامات حمراء تشير إلى أحرفٍ من الأبجدية الفينيقية وذلك من أجل تحديد طريقة وصلها ببعضها.

بدأ الجنود بتجميع الجسر عندما صارت المراكب جاهزة، وأحضر البحارة دعائم الجسر الخشبية ووضعوها في أماكنها، ثم ثبتوها في قاع النهر، وربطوا كل دعامة بإحكام مع الدعامة التي تليها، ثم وضعوا عليها الألواح الخشبية وبعد ذلك رفعوا الحاجز. ما إن انتهى العمل حتى ظهر جنود مازايوس، الذين كانوا خليطاً من الفرسان الأشوريين والعرب بالإضافة إلى المشاة اليونانيين المسلحين تسليحاً ثقيلاً. بدأ

هــؤلاء علــى الفور بأعمال معرقلة، وأمطروا وسط النهر بأسهمهم الملتهــبة، كمـــا دفعوا قوارب محمّلة بالزيت المشتعل إلى وسط النهر، فصارت كرات من اللهب تضرب منشآت نيرخوس وتحرقها.

مــرت الأيــام هكذا من دون تسجيل أي تقدم، واقتربت لحظة وصــول جــيش الإسكندر بجياده البالغ عددها عشرة آلاف، وعرباته البالغ عددها ألفين والمليئة بكل أنواع المؤن والعتاد، والجاهزة لعبور نهر الفرات. كره هيفاستيون فكرة كونه متأخراً عن الموعد، ولذلك تحدث إلى نيرخوس علّهما يتوصلان إلى حلٍّ ما. وفي إحدى الليالي، بينما كان هيفاستيون ونيرخوس جالسين على ضفة النهر، وهما يتناقشان حول ما يُمكــن عملــه، ربّت نيرخوس فجأة على ظهر هيفاستيون وقال له: "انظر".

"إلامَ أنظر؟".

"انظر إلى ذلك الرجل".

نظــر هيفاستيون إلى الضفة الأخرى، إلى حيث أشار نيرخوس، فــرأى رجــلاً يجلس وحيداً على صهوة جواده، وكان يحمل مشعلاً مضاءً.

"ومن عساه يكون؟".

"لا يهمّ. ما يهمّ هو أنّه يريد التحدث إلينا".

"وماذا عسانا نفعل؟".

"أعــتقد أنــه يتعيّن عليك أن تذهب إلى هناك. خذ قارباً، واعبر بنفسك إلى الضفة الأخرى، واستمع إلى ما سيقوله. سأحاول تغطيتك من هنا إذا استدعى الأمر ذلك".

وافــق هيفاستيون، وعبر النهر إلى الضفة الأخرى، ووقف هناك أمام ذلك الفارس الغامض.

بادره الفارس بلغة يونانية ممتازة: "تحياتي!".

أجابه هيفاستيون: "تحياتي لك أيضاً. من أنت؟".

"اسمي نابونايد".

"وماذا تريد مني؟".

"لا أريد شيئاً. سندمر جسركم غداً. لكنني أريد أن أعطيك هذا الغـــرض قبل بدء المعركة الأخيرة، وأريدك أن تسلّمه إلى بعلادجار إذا التقيته".

راح هيفاســـتيون يفكّر بسرّه في أنه يعني إيمولبوس من سولوي. ونظر في تلك الأثناء إلى ذلك التمثال الطيني الصغير الذي يمسكه الرجل في يده، وهو التمثال الذي تزين قاعدته شخصيات على شكل وتد.

"لماذا؟".

"لقـــد شـــفاني ذات مـــرة من مرضٍ قاتل، ووعدته حينها بأنني سأكافئه بغرضٍ أغرمت به كثيراً. هذا هو".

راح هيفاســـتيون يفكّـــر في كيفية إعطاء المصداقية لذلك الرجل الذي اعتبره آخر النصابين.

ردّ علـــيه: "حسناً. سأعطيه إياه. ألديك شيء آخر ترغب في أن تبلغني إياه؟".

قـــال ذلك الشخص الغريب: "كلا". وابتعد الرجل على صهوة جـــواده وهـــو يمسك بالمشعل في يده. فعاد هيفاستيون إلى حيث كان نيرخوس ينتظره فوق الدعامة الأخيرة التي بقيت سليمة.

ســـأل نيرخـــوس هيفاستيون ما إن رآه يقترب من مكان رسو القارب: "أتعرف هوية ذلك الرجل".

"كلا... لماذا؟".

"إنه مازايوس، مرزبان بابل، هذا إن لم أكن مخطئاً".

"بحق هرقل! لكن، ماذا...".

"ماذا قال لك؟".

"قـــال لي إنـــه سيمزقنا إرباً إرباً، وقال إنه مدين لبعلادجار، أو إيمولـــبوس مـــن ســـولوي. وطلب مني أن أعطيه هذا...". ثمّ عرض هيفاستيون التمثال على نيرخوس.

"يعني ذلك أنه رجلٌ يحترم التزاماته. أما بالنسبة إلى تقطيعه لنا إرباً إرباً، فإنّ لديّ فكرةً بهذا الشأن، وفي غضون يومين سأقدّم إليه مفاجأة لطيفة".

"وما هي تلك الفكرة؟".

"أمـــرت بـــأن تُـــنقل كل الدعائم التي لم تُجمَع بعد إلى أعلى النهر".

"أتعني كل الدعائم التي نمتلكها".

"بالـــضبط. أريد أن تُجمع هذه الدعائم في الغابة حيث لن يرانا أحد، وسنقوم بتحميلها بالاستعانة بثلاثمئة فارس. وبعد ذلك، سننقلها إلى أعلـــى النهر كي نهاجم معسكر مازايوس في منتصف الليل، حيث ســـنُطلق العنان للجحيم. وما إن يصبح الفرسان على الضفة الأخرى حتى تعوم الدعائم نـــزولاً مع تيار المياه، وسيقوم النجارون التابعون لنا بتجمـــيعها معـــاً. وفي هذه المرحلة، ستعبر النهر مع رجالك من فرقة الطليعة لتقديم الدعم. سنربح هذه المعركة، وهم سيخسرونها، وهكذا، سيُـــصبح معـــبر ثابساكوس تحت سيطرتنا. وستنتهي اللعبة عند هذا الحد".

حـــدّق إليه هيفاستيون عن قرب، وراح يفكر في أن هذا الرجل القـــادم مـــن كريت ذا الشعر الأجعد والبشرة الداكنة يعرف بالتأكيد كيفية التعامل مع القوارب. سأله: "ومتى سنبدأ؟".

ردّ نيرخـــوس: "لقد بدأنا بالفعل، فما إن تأتي الفكرة حتى يصبح من غير المجدي تضييع الوقت. انطلق بعض رجالي بالفعل للعمل كفريقٍ متقدم".

8

بعـــد مرور يومين، وُضعت مناورة نيرخوس موضع التنفيذ وذلك بعـــد منتصف الليل بقليل. نُقل الفرسان إلى الضفة اليسرى من النهر، وســـرعان ما بدأوا يتقدمون جنوباً، فيما وقف عدد قليل من البحارة فـــوق الـــدعائم التي أصبحت فارغة الآن ليمنحوا الفرسان وقتاً كافياً للهجوم قبل إطلاق هذه الدعائم مع تيار المياه المتجهة جنوباً.

وعـــندما اقتـــرب الفرسان من المعسكر، تمكن البحارة من سماع صيحات الفُرس الذين تعرضوا لهجوم من قبل المقدونيين. وعلى الفور، أعطـــى نيرخوس أوامره من أجل بدء عملية التجميع، فصفّت الدعائم الواحدة تلو الأخرى، ثم رُبطت بإحكام. وتمكن نيرخوس من الوصول إلى الضفة اليسرى، ومن ربط آخر الدعائم بينما كانت المعركة محتدمة في معسكر الأعداء.

لاقـــى الفرسان المهاجِمون صعوبات جمة، لكن هيفاستيون الذي كان على رأس فرقة الطليعة، عَبَر الجسر بسرعة على صهوة جواده من أجـــل مساعدة رجاله المتعبين. احتدمت المعركة مجدداً، ولكن بشراسة أكـــبر هـــذه المـــرة. كان المرتزقة اليونانيون متمركزين وسط خطوط الفُـــرس، فأبـــدوا مقاومة شرسة لكل الهجمات التي تعرضوا لها، كما تجمعـــوا في تشكيلٍ يتخذ شكل مربع ليحموا بعضهم بعضاً بدروعهم الثقيلة.

فجأة، وبشكلٍ غير متوقع، بدا أن الفرس يستجيبون إلى إشارةٍ ما فبدأوا بالتراجع جنوباً. أما اليونانيون، الذين حوصروا من كل الجهات،

فقــد تُــركوا مــن دون مــساندة مهما كانت، ولذلك اضطروا إلى الاستــسلام. عندها، غرز هيفاستيون العلم الأحمر الذي يحمل النجمة الأركاديــة في وسط معسكر العدو الذي يقع على الضفة اليسرى من الفرات، وسرعان ما ذهب إليه نيرخوس بعد وقتٍ قصير.

سأله: "هل يجري كل شيء على ما يرام".

"أجــل أيها القائد. لكنني أتساءل عن شعورك وأنت تلعب بهذه القوارب الصغيرة، وأنت المعتاد على قيادة أسطول من السفن الكبيرة".

أجــاب نيرخــوس: "يــتعود المرء على كل ما تقع عليه يداه يا هيفاستيون. لكن الأمر المهم هو تحقيق النصر".

أعطى الضباط من مختلف الفرق الأوامر بنصب خيم المعسكر، ثم أرســلوا فــرق اســتطلاع إلى المناطق الريفية المحيطة بالمكان. صعدت إحــدى الفرق إلى قمة تلة صغيرة تتيح لها أن تشاهد بوضوح المناطق الممتدة إلى جنوبها، وما لبث الرجال أن رأوا ألسنة اللهب المتراقصة في الأفق البعيد.

فجأة، صاح قائد الفرقة: "إنه حريق! لنذهب بسرعة ولنلقِ نظرة!".

صاح فارسٌ آخر: "هناك حريق آخر في الأسفل".

وبعــد ذلك، تردد صوت أحد رفاقهم: "وهناك أيضاً! عند ضفة النهر!". كانت ألسنة اللهب منتشرة في كل مكان.

"ما سبب كل هذه الحرائق؟".

نظــر قائدهم إلى الوهج الصّادر عن النيران التي أضاءت في هذا الوقت معظم مساحة السماء، ثم أجاب: "إنهم الفُرس. إنهم يحرقون كل شيء كي لا نعثر على ما يفيدنا خلال زحفنا في أراضيهم. إنهم يريدون أن نمــوت جوعاً وإنهاكاً. دعونا نعود ونتفحص الوضع". نخس القائد جواده واتّجه به نحو الحرائق.

تقدّم الرجال إلى الأمام، وجعلوا النهر إلى يمينهم. ولكن، سرعان مـــا تأكدت مخاوفهم. إذ كانت الحرائق تشتعل في كل قرية من القرى المنتـــشرة في ذلـــك السهل الفسيح المنتشر على طول ضفتي الفرات. كانت بعض القرى مبنية فوق تلال صغيرة، وكان بإمكان الجنود رؤية المـــنازل المشيّدة فيها من الوحل الجاف بوضوح كبير لدى اشتعال النار فيها، وكانت أعمدة الدخان ترتفع عالياً في السماء. كان الرجال فوق صـــهوات أحـــصنتهم يسلكون كل الاتجاهات، وهم يحملون المشاعل والغصون المحترقة، فبدا المنظر رهيباً.

قال القائد آمراً: "دعونا نعود، لأننا رأينا ما يكفي". ثم شدّ عنان حـــصانه واتجـــه نحو المعسكر. وبعد وقت قصير، انضمّ إلى نيرخوس وهيفاستيون وأبلغهما بما حدث، لكن الضوء الناتج عن الحرائق المنتشرة في السهل كان قوياً بما يكفي بحيث كان بالإمكان رؤيته من المعسكر. كان الأفق مناراً باللون الأحمر، فبدا المنظر كما لو أنّ الشمس تغرب.

صاح هيفاستيون: "كانت المحاصيل مخزّنةً في المستودعات، ولذلك لم تـــبقَ حبة حنطة واحدة من ذلك المكان وحتى بابل. يجب أن نُعلم الإسكندر بما حصل على الفور!". ثم نادى أحد المبعوثين وأرسله على الفور باتجاه صور.

*

في هـــذا الوقت، كان رجال الإسكندر قد انتهوا من جمع المؤن والعتاد، كما حضّروا قافلة من العربات التي كانت على أهبة الاستعداد للانطـــلاق نحـــو معبر ثابساكوس. انتشرت أخبار المغادرة الوشيكة في أنحاء المدينة. وكالمعتاد، تأهّب عدد كبير من الناس لمرافقة الجيش، وهم الذين اعتادوا التخييم قرب الجنود خلال توقفهم. تكوّنت هذه الجماعة من التجار الذين يعرضون بإلحاح كل أنواع البضائع، ومن مجموعة من

بائعات الهوى، كما ضمت المجموعة كذلك عدداً من الفتيات المتحدرات من أسرٍ فقيرة، واللواتي تركن منازلهن وأقمن علاقاتٍ طويلة الأمد مع الجنود. كان عدد منهن حوامل، بينما أنجبت أخرياتٌ أطفالاً وُسَماء ذوي بشرة داكنة وعيون زرقاء، أو شعر أشقر.

عند المساء، رست سفينة مقدونية في صور، وأفرغت حمولتها من الأخشاب التي تصلح لصنع مقابض الرماح، بالإضافة إلى صناديق مليئة بالدروع، وقطع غيارٍ لآلات الحرب. فذهب أحد البحارة على الفور إلى المدينة القديمة، وراح يسأل عن مكان إقامة كاليستين.

حمل الرجل كيساً فوق كتفه، وعندما وصل إلى الباب الذي أرشدوه إليه، راح يطرقه بلطف.

فتناهى إلى سمعه صوت كاليستين من الداخل: "من الطارق؟". فطرق الرجل الباب مجدداً من دون أن يجيب، وما لبث المؤرخ أن فتح الباب. رأى كاليستين أمامه رجلاً قوي البنية ذا لحية كثة سوداء، وشعر أشعث. حيّاه الرجل بانحناءة.

"اسمي هيرموقراط، وأنا جندي في حرس أنتيباتر. أرسلني أرسطو".

بدا القلق على محيّا كاليستين، لكنه قال: "ادخل". دخل الرجل ونظر حوله، ثم تحرك بطريقة مترنحة مألوفة لدى الأشخاص الذين أمضوا وقتاً طويلاً في البحر، ثم طلب أن يُسمح له بالجلوس. فقال له كاليستين إن بإمكانه الاستراحة. وضع هيرموقراط الكيس برفقٍ على الطاولة قبل أن يجلس.

قال الرجل وهو يتناول علبةً معدنيةً من الكيس: "طلب مني أرسطو أن أعطيك هذه، وكذلك هذه الرسالة". أخذ المؤرخ الرسالة، وتابع تفحص العلبة باهتمامٍ متزايد.

"لمـــاذا تأخرتَ هكذا؟ كان يجب أن تصل هذه العلبة منذ وقتٍ طويل. لا أعرف إذا كنتُ الآن...".

ثم توقـــف عـــن متابعة كلامه، وبدأ بقراءة الرسالة. كانت من أرســطو بالتأكـــيد، لكـــنها كانت مرمزة ولا تحمل عنواناً. جاء في الرسالة:

يـــسبّب هـــذا الدواء الموت في غضون عشرة أيام. وعوارضه شـــبيهة بتلك التي ترافق مرضاً خطيراً. أتلفه بعد أن تفرغ من اســـتخدامه. وأتلفـــه على كل حال، حتى لو لم تستخدمه. لا تلمسه لأي سببٍ كان، ولا تشمّ رائحته.

قـــال كاليستين وهو يتناول العلبة بحذر: "كان هذا سيكون نافعاً لو جاءت العلبة قبل سنةٍ من الزمن".

"آسف. فلقد واجهت بعض المشاكل في رحلتي. ضربت عاصفة شمالية قوية سفينتي، فانحرفت عن مسارها، ثم غرقت في نهاية الأمر عند الـــساحل الليبـــــي. ســـرت أنا ورفاقي الذين نجوا من تحطم السفينة لأشـــهرٍ، وأكلـــنا الأسماك والسرطانات البحرية حتى وصلنا إلى حدود مصر. وهناك علمت بخبر زحف الملك نحو معبد آمون. تابعنا من هناك سيرنا على الأقدام حتى وصلنا إلى ميناءٍ في الدلتا، وهناك وجدت سفينة جرفتها الرياح الشمالية عن مسارها. قال لي بحّارتها إن السفينة كانت متوجهة إلى صور حيث ينتظرهم الملك وجيشه ورفاقه، وهكذا سمحوا لي بالصعود على متن السفينة".

قـــال كاليـــستين وهو يتناول كيس نقوده: "أنت رجل شجاع ومخلص. اسمح لي أن أكافئك".

أجـــاب هيرموقـــراط: "لا أريد أيّ مكافأة. ولكن، سأقبل منك بعض المال، لأنني لا أمتلك أي نقود كي أعود إلى مقدونيا".

"أترغب في أن تأكل أو تشرب شيئاً؟".

"أرغـــب بسرور في أن أتناول شيئاً من الطعام، لأن الطعام الذي قدموه إلينا في السفينة كان مريعاً جداً".

وضـــع كاليستين العلبة التي تسلّمها في صندوقه الشخصي، وثمّ أقفلـــه بواســـطة مفتاح. وغسل يديه في حوض الغسيل، ثم ما لبث أن وضـــع علـــى الطاولـــة بعض الخبز، والجبن، وبعض السمك المشوي بالإضافة إلى الزيت والملح.

"كيف حال خالي العجوز؟".

قضم الرجل قطعة خبزٍ بعد أن غمسها بالزيت والملح: "إنه بحالٍ جيدة".

"ماذا كان ينوي أن يفعل في آخر مرة رأيته فيها؟".

"كـــان يستعدّ لمغادرة ميبزا متوجهاً نحو آيجيا. لكن الطقس كان يتغيّر نحو الأسوأ".

قـــال كاليستين، وكأنه يتحدث بينه وبين نفسه: "إذاً، ستستمر تحقيقاته".

"ماذا قلت؟".

قـــال كاليستين وهو يهزّ رأسه: "لا شيء... لا شيء". وجلس للحظة وهو يتفحص ضيفه الذي كان يمضغ طعامه، ثم سأل: "هل من أخـــبارٍ جديدة بشأن اغتيال الملك فيليب؟ أعني هل هناك شائعات في مقدونيا؟".

توقـــف هيرموقراط عن تناول الطعام، وابتلع ما كان في فمه، ثم جلس بصمتٍ بعد أن طأطأ رأسه.

طمأنـــه كاليـــستين بالقول: "يمكنك أن تثق بـــي. إن أي شيء تقوله لي لن يتخطى هذه الجدران".

"يقولون إن بوزانياس هو الفاعل، وإنه تصرّف من تلقاء نفسه".

اتــــضح لكاليستين أن الرجل لا يريد أن يتكلم، وفهم كذلك أن السؤال أقلقه بعض الشيء.

"سأعطيك رسالة إلى الخال أرسطو. متى ستُبحر مجدداً؟".

"سأسافر في أول سفينة أجدها".

"جيّد. سأغادر أنا مع الملك غداً. يمكنك أن تبقى في هذا المنــــزل حتى تعثر على سفينة مناسبة".

تناول كاليستين قصبة، وبدأ بالكتابة:

من كاليستين إلى أرسطو، تحياتي!
اليوم فقط، في الثامن والعشرين من شهر بودروميون من السنة الأولى بعــــد الأولمبياد المئة والاثني عشر، تسلمت الشيء الذي طلبت منك إرساله إلى ثيوفراستوس. لم أعد بحاجة إليه، ولذلك ســــأقوم بإتلافه كي لا نخاطر بأمورٍ لا لزوم لها. دعني أعرف في أول فرصة ممكنة إذا كنتَ قد اكتشفتَ أي شيء يتعلق باغتيال الملـــــك فيِليب، لأنّه ليس هناك أحد يريد توضيح هذه المسألة، ولا حـــــتى زيوس آمون. إننا نغادر الآن الشاطئ كي نـــزحف نحو المناطق الداخلية، لذلك لا أعرف إذا كان يتعيّن عليّ توديع البحر للمرة الأخيرة. أتمنى أن تكون بخير.

أضاف بعض الرماد إلى ورقة البردى ثم لفها، وناولها إلى هيرموقراط.

"ســـــأغادر فجر غد، ولذلك سأودعك الآن. أتمنى لك رحلةً جيدة وآمنة، وأرجو أن تُبلغ خاليً أنني أشتاق إلى نصائحه وإلى حكمته كثيراً".

أجاب الرجل: "سأفعل ذلك".

*

في الــــيوم التالي، انطلق الجيش ولحقت به القافلة الملكية التي تضم نـــساء داريوس، والملكة الأم، والجواري مع أولادهن. سافرت بارسين

مع القافلة، وحاولت مساعدة سيسيغامبيس قدر استطاعتها، والتي أصبحت الآن امرأة مسنةً جداً.

التقى مبعوث هيفاستيون الجيش شرق وادي نهر العاصي، أي قبل أن تصل القافلة إلى نهر الفرات. وطلب أن يؤخذ إلى الإسكندر على الفور.

قال المبعوث: "مولاي، لقد انتهينا من بناء الجسر العائم، كما تمكنّا من احتلال الضفة الشرقية للفرات، لكن الفرس أخذوا يحرقون كل القرى الواقعة على الطريق المؤدية إلى بابل".

"هل أنت متأكد؟".

"رأيت ذلك بأم عيني، وكانت الحرائق ممتدّة على مدّ النظر. حتى إن النباتات الجديدة في الحقول قد احترقت. بدا السهل بكامله وكأنه بحرٌ من ألسنة اللهب".

قال الملك: "إذاً، يجب أن ننطلق. إنني متحمسٌ كي أرى ما يحدث". اصطحب الملك سريّتَي فرسان، وانطلق مسرعاً مع رفاقه متوجهاً نحو معبر ثابساكوس.

9

وفي صباح اليوم التالي، وقبل انتصاف النهار، عبر الإسكندر الجسر العائم وتبعه رفاقه، بالإضافة إلى فرسانه. فحضر هيفاستيون ونيرخوس للقاء الملك.

"هل تحدثت إلى مبعوثنا؟".

"أجل. هل الوضع خطيرٌ للغاية فعلاً؟".

أجاب نيرخوس وهو يشير إلى أعمدة الدخان المتصاعد من كل الأمكنة التي تحيط بهم: "يمكنك أن تحكم بنفسك".

"وكيف الوضع شرقاً؟".

"أتعني في ذلك الاتجاه؟ لم يحدث أي شيء هناك حسب علمنا، فليس هناك دمار أو أراضٍ محروقة".

"إذاً، داريوس ينتظرنا عند نهر دجلة. إن هذه الحرائق أبلغ من أيّ رسالة مكتوبة. إن الطريق الجنوبية هي الطريق ذاتها التي سلكها *العشرة آلاف* الذين تحدث عنهم زينوفون قبل سبعين سنة، ولاقوا حينها صعوبات جمة في إيجاد المؤن. أما الآن، ومع تدمير القرى والمحاصيل، فإن الأمر سيكون مستحيلاً تماماً. لا خيار أمامنا سوى سلوك الطريق الأخرى، وهي الطريق التي توصل إلى المعبر عبر دجلة وطريق الملك.

"سينتظرنا داريوس هناك حيث ستدور المعركة الأخيرة. ساعَدَنا الملك بأن نظّف لنا الطريق، وسمح لنا بالتزوّد بالمؤن من القرى الواقعة على سفوح تلال جبال طوروس".

سأل بيرديكاس وهو يتقدم إلى الأمام: "ونحن سنقبل دعوته، أليس كذلك أيها الإسكندر؟".

"أجل يا صديقي. يتعيّن علينا الآن أن نجهّز أنفسنا، لأننا سنستأنف تقدمنا في الغد، وفي غضون ستة أيام سنصل إلى نقطة لقائنا مع أعظم الجيوش في كل الأزمنة".

وقف بارمينيون كي يراقب أعمدة الدخان الأسود المتصاعدة، لكنه لم يقل شيئاً، وما لبث أن تحرّك مبتعداً بصمت.

راقبه بطليموس وهو يبتعد، ثم قال: "لا يبدو القائد متحمساً جداً، أليس كذلك؟".

قال كراتيروس: "إنه يتقدم في السّنّ في هذه الأثناء. يجدر به أن يعود إلى الوطن".

كان فيلوتاس قريباً منهما، وسمع التعليقات، فقال: "ربما يكون والدي قد تقدم في السّنّ، ولكنه يساويكما معاً في القيمة!".

قال سلوقس: "توقف عن هذا. اهدأ. إن كراتيروس يمزح فقط".

"حسناً، يمكنه أن يمزح في أمور أخرى. أما في المرة القادمة...".

أراد هيفاستيون تغيير الموضوع، فقال: "هل رأى أحدكم إيمولبوس من سولوي؟".

أجاب سلوقس: "أعتقد أنه وراءنا مع قافلة النساء. لماذا تسأل، وماذا تريد منه؟".

"لا شيء. أردت فقط أن أسلّمه هدية. سأراكم في وقتٍ قريب". ثمّ امتطى صهوة حصانه، وانطلق إلى حيث نُصبت خيَم النساء. وجد هيفاستيون إيمولبوس جالساً خارج الخيمة المخصّصة له، وكان بصحبته اثنان من المخصيين: كان أحدهما يحرك الهواء بمروحة، بينما انهمك الآخر بتقديم وجبة طعام على طاولة صغيرة جيدة الإعداد.

قال المخبر ما إن رأى هيفاستيون يترجل عن صهوة حصانه: "لا أريد أن أسمع أيّ تلميحات غبيّة عن الأحداث المتعلقة بحبسي".

"لا تقلق، أتيت كي أسلّمك هدية".

"هدية؟".

"أجـــل، إنها هدية من العدوّ. لقد فكّرت في أن أُعلم الإسكندر بـــشأنها. ولكـــنني أعتقد أنني إذا ضغطت عليك قليلاً فقد أتمكن من الحصول على بعض الروايات المثيرة منك".

"اسكت أيها الشاب المتهور، ودعني أعرف عما تتحدث".

ناولـــه هيفاستيون التمثال الصغير، فأسرع إيمولبوس إلى تفحصه بعناية: "أقلت إنه هدية من عدو؟ ومن هو هذا العدو يا ترى؟".

"إنـــه مازايوس مرزبان بابل. إنه شخص نافذ ومهم، إذا لم أكن مخطئاً".

لم يقل إيمولبوس شيئاً بل تابع تفحّصه للتمثال. وفجأة، رفعه فوق رأســـه ورمـــاه بكـــل قوة على حافة طاولته فتحطم التمثال إلى قطع متناثـــرة، وظهرت على الأرض قطعة صغيرة من ورق البردى. كانت لفافة البردى هذه تحمل كتابات بأحرف مسمارية متراصة.

"إنـــه تعامـــلٌ مـــع العدو. لا يبدو أن الأمور تعمل لصالحك يا إيمولبوس".

أعـــاد إيمولبوس لفّ ورقة البردى ونهض واقفاً، وما لبث أن سار نحو معسكر الجيش.

"قف يا هذا! إلى أين تذهب؟".

"أنا أبحث عن شخص قادر على التفكير".

صـــاح هيفاســـتيون: "إذاً، تجـــنّب أن تتعـــرّض مؤخـــرتك للعضّ... فبيريتاس موجود في مكانٍ ما هنا!". لم يكترث المخبر بما قاله

لــه هيفاستيون، لكن يده اليمنى تحركت بطريقة لاشعورية كي يحمي المنطقة المذكورة.

عثــر إيمولبوس على إيومينيس الذي كان منشغلاً بوضع جردة بالتجهيــزات، والأســلحة، والمــواد الأخرى، فأشار إليه بأنه يريد الــتحدث إليه، وسرعان ما ترك إيومينيس السجلات في عهدة أحد مساعديه".

"ما الجديد؟".

"تلقيت رسالةً من مازايوس".

"بحق زيوس إنها من مرزبان بابل!".

"وهو كذلك اليد اليمنى للملك العظيم".

"وماذا يقول في رسالته".

"إنه مستعد... لمساعدتنا في ميدان المعركة شرط أن يعاد تثبيته في مركز حاكم بابل".

"ألديك وسيلة للرد عليه؟".

"أجل".

"إذاً، قل له إننا نوافق على عرضه".

"لكنه سيطلب نوعاً من الضمانة".

"عن أي نوعٍ من الضمانة تتحدث؟".

"لا أعرف... ربما يريد رسالة من الملك".

"يمكنــنا أن نتدبر هذا الأمر. سبق لي في الماضي أن كتبت رسائل بخط الإسكندر وختمتها بختمه. يمكنك أن تحضر إلى خيمتي هذه الليلة، وســأعطيك كــل شيء تطلبه. لكن حباً بزيوس، انــزع هذا الشعر المــستعار، إذا كــنت تريد المحافظة على مؤخرتك سليمة من الأذى. فبيريتاس هنا مع الإسكندر".

نـــــزع إيمولبوس شعره المستعار الذي يُثقل رأسه، ولكن بأسفٍ شـــديد، ووضـــعه في حقيبة، ثم قال: "سبق لي أن تلقيت تحذيراً بهذا الـــشأن. مـــضغ هذا الكلب مسبقاً قبعتي المصنوعة من الفرو. كانت تـــساوي مـــبلغاً محترماً من المال. أما إذا هاجمني هذه المرة، فسأرمي له الحقيبة بأكملها".

سار مبتعداً، وبعد قليل لم يعد يظهر منه سوى رأسه الأصلع الذي كان يلمع تحت أشعة الشمس.

*

في الـــيوم التالي، بدأ الجيش بالتحرك شرقاً. وكانت جبال أرمينيا إلى يـــساره، فـــيما الصحراء إلى يمينه. وتمكّن الضباط الذين يقودون الزحف من تجنيد بعض المرشدين المحليين، وذلك بسبب عدم امتلاكهم خـــرائط للمـــنطقة، وعـــدم معرفتهم بالطرقات التي ينبغي للجيش أن يـــسلكها خـــلال عبوره هذه البلاد. وقام الضباط باستخدام أدواتهم الخاصة، ولوحات رسوماتهم المحمولة لرسم خرائط دقيقة قدر الإمكان.

تحـــرّك الجـــيش على ست مراحل، بحيث اشتملت كل مرحلة على خمـــسة فراسخ، وهكذا عبر الجيش الهضاب السورية في غضون يومين، ثم تابـــع المسير في المناطق شبه الصحراوية ذات الحرارة اللاهبة. وكان الجنود يـــرون أحياناً قطعاناً من الحمير البرية، والغزلان، والظباء التي كانت ترعى في بقعٍ متناثرة بين الشجيرات ذات الأشواك. وسمع الجنود، مرات عديدة، زئير أسدٍ يتردد عبر المساحات الفارغة مترامية الأطراف.

راحـــت الأحـــصنة تئن متذمرة من حمولاتها، وبدأت بالرفس، وحاولـــت أن تحـــرّر نفسها. وعلى نحو مفاجئ، استيقظ بيريتاس من نـــومه، وراح ينبح بشراسة بعد أن شمّ رائحة حيوان ما، ثم حاول أن يركض باتجاه تلك الرائحة.

هدّأه الإسكندر بالقول: "على مهلك، على مهلك، أيها المخلوق الطيب. لا وقت لدينا الآن للصيد. هيا إلى النوم الآن... نم الآن". وراح الإسكندر يداعبه، ويحكّ له المنطقة خلف أذنه.

وفي اليوم التالي، رأى الجنود بعض النعامات. حتى إنهم عثروا على بعض أعشاشها التي تحتوي على بيضٍ داخلها. كان بعضها بيض نعام، فيما بعضها الآخر يعود إلى طيور أخرى. أمسكها الطاهي تحت ضوء الشمس فتأكد من أنها طازجة. وبعد ذلك، جمع الطاهي البيض كلّه ليقدّمه عند العشاء في ذلك المساء. فطلب إليه الإسكندر أن يُبقي بعض البيض سليماً، وذلك كي يرسله إلى أرسطو الذي سيضيفه إلى مجموعته.

أمّا هيفاستيون، فكان يبحث عن طيورٍ كي يأكل لحمها الطازج، ولذلك نظّم مجموعةً لصيد النعام، وذهب برفقة ليوناتوس وبيرديكاس، واصطحبوا معهم نحو عشرين جندياً من الجنود الأغريانيين والتريباليين الذين تسلحوا بالأقواس والسهام والرماح. لكنهم سرعان ما أدركوا أن مهمتهم لن تكون سهلة. فلقد كانت هذه الطيور التي تبدو حمقاء للوهلة الأولى تركض بسرعات مذهلة، وكانت تُبقي أجنحتها مشرعةً نحو الأعلى مستخدمةً إياها مثلَ الأشرعة لاستغلال قوة الرياح، وهكذا لم يستطعِ أي جواد اللحاق بها.

وبعد مضيّ الوقت، عاد الصيادون منهكين وبخفي حنين، وهم يشعرون بالإهانة نتيجة إخفاقهم. استقبلهم الإسكندر وهزّ رأسه.

قال هيفاستيون غاضباً: "هيا، هاتِ ما عندك؟".

"لو قرأتم ***مسيرة العشرة آلاف*** مثلما فعلت، لكنتم عرفتم بالضبط كيف يتمكن المرء من اصطياد نعامة. كان زينوفون صياداً ماهراً في أيامه. لا تنسوا هذه الحقيقة".

"وما هي الطريقة التي كان يستخدمها بالضبط؟".

"كــان يصطاد على مراحل. إذ تلاحق إحدى المجموعات الطيور وتــدفعها نحو منطقة معينة، بينما تكون مجموعات متعاقبة من الفرسان في انــتظار هــذه الطيور. تتسلّم المجموعة الثانية المهمة بعد أن تتعب المجمــوعة الأولى، وبعــد ذلك المجموعة الثالثة، وهكذا دواليك إلى أن تــتعب طيور النعام، فتبطئ سيرها. وعندها يقوم الصيادون بتطويقها ويتمكنون من الإمساك بها بكل سهولة".

ردّ هيفاستيون: "سنقوم غداً بمحاولة أخرى".

قــال الإسكندر: "يمكنكم في هذا الوقت أن تعوضوا عن فشلكم في صيدها بتناول بيضها. يبدو أنها رائعة سواء أكانت مقلية أو مشوية، بعد أن يُضاف إليها بعض الملح والزيت".

أضــاف بيرديكــاس: "لا تنسَ الريش كذلك. سيبدو رائعاً فوق خــوذتي. انظر إلى هذه الريشة! هناك الكثير من الريش المبعثر في أنحاء الصحراء، وهذا يعني أن فصل التبديل قد حل".

لم تظهر طيور النعام في اليوم التالي، ولا في اليوم الذي يليه. وبدا الأمر وكأن أحداً قد أنذرها بأن الصيادين قد توصلوا إلى طريقة جديدة لاصطيادها.

انطلــق الجيش في طريقه مجدداً من دون أن يصادف أي إنسان. وفي مــساء الــيوم الخامس، ظهرت قافلتان قادمتان من بلاد العرب، وكانــتا تحمــلان البخور، وخيّمتا على بُعد مسافة كبيرة من الجنود. فطلب أريستاندر من الملك أن يشتري أكبر قدرٍ ممكنٍ من البخور للقيام بمراسم التبرك، وذلك نظراً إلى اقتراب المعركة الحاسمة.

وفي مساء اليوم السادس، قاد الإسكندر بوسيفالاس إلى نهر دجلة كي يشرب من مياهه المتدفقة بسرعة.

10

نـــشر الغسق ظلاله في الأفق، وبدا واضحاً أنه لا يوجد أحد في الجهة المقابلة للنهر. لم يظهر أي إنسانٍ على مدى البصر، كما لم يظهر أي أثرٍ يدل على اشتعال الحرائق، أو علًى تواجد البشر في تلك المنطقة. كان الهواء ساكناً بالكامل، لكن مجموعة من طيور مالك الحزين راحت تتهادى فوق ضفتي النهر بحثاً عن أسماكٍ وضفادع طازجة.

سمـــح الإسكندر لبيريتاس وبوسيفالاس بالشرب، لكنه راح بين الفينة والأخرى يشدّ عنان الجواد كي يمنعه عن ملء معدته كثيراً. جمع الإســـكندر كمـــيةً من المياه في راحتي يديه ورماها على بطن الجواد وقـــوائمه كـــي يُنعشه قليلاً. ولم يطل الأمر قبل أن تتوقف كل سرايا الفرسان عند المعبر، وقاد كل فارس مطيّته كي تشرب من مياه النهر.

قـــال سلوقس عندما اقترب ونظر إلى الجهة الأخرى: "لا أفهم ما يجري".

أضـــاف لايسيماخوس وهو ينـــزع خوذته، ويفكّ درع صدره: "ظننت أنهم سيصطفّون على الضفة الأخرى مستعدّين لقتالنا".

نـــزع بطليموس خوذته بدوره، وملأها من مياه النهر، ثم راح يُفرغ محتوياتها على رأسه مستمتعاً بالمياه الباردة وقال: "آه! يا للروعة!".

صـــاح لـــيوناتوس بينما كان يستعد لملء خوذته كي يرمي المياه المتجمعة فيها على بطليموس، "حسناً... بما أنك أحببت ذلك كثيراً... إذاً، خذ!". لكنه توقف فجأة وقال: "توقفوا! توقفوا! ها قد أتى السيّد الأمين العام. أريد أن ينتظر الجميع إشارتي. هل اتفقنا؟".

اقتـــرب إيومينـــيس في تلـــك اللحظة بالذات بملابسه العسكرية الكاملة، بينما كانت خوذته مزينةً بريش النعام.

بـــدأ إيومينيس كلامه: "اسمعني جيداً أيها الإسكندر. لقد وصلتني أخبار تفيد أن...".

ولم يـــتمكن مـــن إنهاء جملته لأن ليوناتوس بدأ بالصياح بأعلى صـــوته: "كمـــين! كمين!". وأسرع جميع الحاضرين برمي ما تحتويه خوذاتهم من المياه عليه، وهكذا تبلّل من قمة رأسه حتى أخمص قدميه.

قال الإسكندر وهو يحاول جاهداً أن يخفي ابتسامته: "أنا آسف يا حضرة الأمين العام، لكن ذلك كان كميناً فاجأنا جميعاً إلى درجة أنني لم أتمكن من منعه".

كان إيومينيس مبللاً بالكامل، وبدا ريش قبعته بحالةٍ مزرية. تذمر الأمين العام بكدرٍ وهو ينـــزع خوذته ويتأمل ما بقي فيها من ريش، ثم قـــال: "يا لها من دعابة محبّبة من قِبَل مجموعةٍ من الحمقى، والمشردين، والأغبياء...".

سعى الإسكندر إلى تهدئته قليلاً فقال: "يتعيّن عليك أن تسامحهم أيها الأمين العام. إنهم مجموعة من الفتيان. لكن، كنت على وشك أن تقول لي شيئاً، أليس كذلك؟".

قـــال إيومينـــيس: "الأمر ليس مهماً جداً. سأُخبرك إياه في وقتٍ لاحق".

"هـــيا إيومينيس. لا تحقد هكذا. سألقاك في خيمتي. وسأراكم أنتم أيـــضاً يا أصدقائي. هيفاستيون، انطلِق واجمع فرقة استطلاعٍ وأرسلها إلى الجهة الأخرى. أريد أن أعرف مكان تواجدهم قبل حلول موعد العشاء".

وانطلق الإسكندر متبوعاً ببيريتاس إلى حيث كان رجاله ينصبون الخيمة الملكية، وهم كانوا يطرقون على الأوتاد بالمطارق.

ذات المحـــاور المـــسننة. أمر **الملك العظيم** بملء كل الحفر، وبإزالة كل الأحجار بحيث تتمكن العربات من بلوغ أقصى سرعاتها".

"إن مـــا تقـــوله ممكنٌ جداً، لكن لم يزعج تقدمَنا أحدٌ، ولم نجد صعوبة في الحصول على المؤن في القرى، وها نحن الآن على وشك أن نعبر دجلة بسهولة".

"لكــــن، لا تنسَ أن تيّار المياه قويّ، ولا شك في أن الأمطار قد هطلت في الجبال مما يجعل السّير صعباً".

في هـــذه اللحظة، وصل الأصدقاء الآخرون، وكان نيرخوس من ضمنهم.

قال ليوناتوس ما إن دخل: "أرى أن السيد الأمين العام قد أصبح في حالة لائقة مجدداً. يا لهذا التحوّل، وهو الذي كان منذ لحظاتٍ قليلة مثل الجرذ الغريق!".

قال الإسكندر: "كفى! اجلس. لدينا أمور مهمة تنتظر المناقشة". جلـــس الجميع، حتى إن بيريتاس اتخذ مركزه عند قدمي الملك، وراح يمضغ له نعليه مثلما تعود أن يفعل منذ أن كان جرواً.

"يـــبدو أن الملـــك العظيم ينتظرنا فوق أرضٍ مستويةٍ، وهي تبعد مسيرة يومٍ عن هذا المكان".

صـــاح بيرديكـــاس: "جـــيّد! إذاً، هيا بنا، لا أحب أن يملّ من الانتظار".

"إن الأخبار التي وصلتنا عن طريق إيمولبوس من سولوي قد عرفها مـــن مـــصادر فارســـية، لذلك لا نستبعد أن تكون هذه مجرد مصيدة نُصبت لنا".

علّق ليوناتوس بأسى: "أنت على حق! دعونا لا ننسى إيسوس".

"كاد ذلك اللعين يبيعنا كي يُنقذ نفسه!".

أسكته بيرديكاس بالقول: "توقف عن الحديث في هذا الموضوع. إنــني أتــساءل مــاذا كنتَ ستفعل لو كنتَ مكانه؟ ثم ما هي دوافع إيمولبوس حتى يخوننا؟ إنني أثق به".

قال الإسكندر: "وأنا أيضاً. لكن ذلك لا يعني أننا مضطرون إلى تصديق المعلومات. يُحتمل أن تكون هذه المعلومات قد أُرسلت بهدف جذبنا إلى حليف أعمى".

ســكب لايسيماخوس بعض الشراب في أكواب رفاقه، وسأل: "إذاً، ماذا تنوي أن تفعل؟".

"ســيخبرنا هيفاســتيون هــذه الليلة إذا كانوا بعيدين عن النهر بالفعــل. سنعبر النهر غداً، وسنتقدم باتجاه جيش العدو. وبعد أن نسير مسافة فرسخين أو ثلاثة سنرسل فرقة من جنود الاستطلاع كي تعرف حقــيقة الوضع. سنعقد مجلس حرب في تلك المرحلة؛ أي قبل أن نشنّ هجومنا".

سأل بطليموس: "وماذا بشأن العربات ذات المحاور القاطعة؟".

"ســنعطلها، ثم سندفع بكل شيء نحو الوسط، أي كما فعلنا في إيسوس".

أبــدى نيرخوس رأيه باختصار: "نحن سنربح، وهم سيخسرون. ستكون آسيا كلها تحت سيطرتنا".

قــال سلوقس: "كم يسهل التلفظ بهذا الكلام. لكن، حاوِل أن تتــصور كــيف ســتكون الأمور عندما يُطلقون العربات عبر ذلك الــسهل. تخيّل الغبار، وضجيج العجلات، والمحاور القاطعة التي تلمع تحت ضوء الشمس خلال دورانها بأقصى سرعة. أعتقد أنهم سيسعون إلى الــتغلب على وحداتنا الموجودة في الوسط بينما يهاجم الفرسان جناحَي جيشنا".

قال الإسكندر: "إن سلوقس على حق. ولكن، لا فائدة من وضع خطة المعركة الآن قبل أن نعرف المعطيات، أما بالنسبة إلى العربات، فإننا سنطبق بالضبط ما فعله **العشرة آلاف** في كوناكزا. أتتذكرون؟ فتح المشاة المسلحون تسليحاً ثقيلاً ممرات تستطيع العربات المرور من خلالها من دون أن تتسبب بأيّ أضرار، وما لبث رماة السهام أن استداروا وهاجموا السائقين، وراكبي المركبات من الخلف. لكنني قلقٌ جداً من الغبار، فإذا لم تهب الرياح، وبدأت المعركة، فستتكون طبقة كثيفة من الغبار، والتي ستمنعنا من رؤية ما وراء أنوفنا. وعندها، سنضطر إلى استخدام الأبواق كي تبقى فرقنا على اتصالٍ في ما بينها. لكن، دعونا نأكل ونستمتع الآن، فلا سبب يدعونا للقلق بهذه الطريقة. فلقد انتصرنا على الدوام، وسنفعل ذلك هذه المرة أيضاً".

سأل ليوناتوس بقلقٍ ظاهر: "أتعتقد حقاً أنه سيتواجد مليون رجل بانتظارنا هناك؟ لا أستطيع أن أتخيّل هذا! أتدركون معنى أن يكون هناك مليون رجل؟".

قال إيومينيس: "سأقول لك. يعني ذلك أنه يتعيّن على كل واحدٍ منا أن يقتل عشرين رجلاً منهم كي نربح. ومع ذلك، سيبقى لديهم بعض الرجال".

قال الإسكندر: "لا أصدّق ذلك. إن إطعام مليون رجل أمرٌ مستحيلٌ تقريباً، هذا إذا لم نذكر كميات المياه اللازمة للأحصنة وما إلى ذلك. أعتقد... أعتقد أنه سيتواجد نحو نصف ذلك العدد تقريباً، أي ما يزيد قليلاً على العدد الذي واجهناه في إيسوس. سننتظر على كل حال، كما سبق أن قلتُ لكم، وسنرى كيف ستكون الأمور عندما نواجه العدو مباشرة".

بدأ الخدم بتقديم الطعام، وكان الإسكندر قد استضاف بعض الرفقة الممتعين الذين أتوا من اليونان حديثاً، وذلك لتسلية أصدقائه قليلاً. وكانت من بينهم فتاة أثينية ذات جمالٍ فاتنٍ بالفعل، وشعرٍ داكن وعينين متوهجتين.

صاح الإسكندر ما إن ظهرت الفتاة: "انظروا! أليست رائعة؟ اسمها تايس، وقد انتُخبت هذه السنة ***كاليبيجيا*** **(ملكة جمال)**".

قال ليوناتوس ضاحكاً: "إنها تملك أروع جسمٍ في المدينة بأكملها. لكن، أتعتقدون أننا نملك فرصة رؤيته؟".

قالت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة خبيثة: "يأتي كل شيء في حينه أيها الشاب المثير".

التفت ليوناتوس إلى إيومينيس، بينما ارتسمت نظرة مرتبكة على وجهه: "لم يسبق لأي امرأة أن نادتني *بالشاب المثير*. لا أدري إذا كنت سأعتبر ذلك إطراء أم إهانة".

أجاب إيومينيس: "لا تهدر طاقتك كثيراً في هذا التفكير، لأنك ستؤذي نفسك. وعلى كل حال، إن وصفها لك *بالشاب المثير* لا يبدو سيّئاً بالنسبة إليّ. أعتقد أنك أصبتَ الهدف".

وبعد قليل، دخلت فتيات أخريات، وجميعهن من الفتيات الجذابات، واستلقينَ قرب الرجال، بينما انهمك الخدم بتقديم العشاء. قرّر بطليموس بصفته صاحب الحفل أن الشراب يجب أن يخفّف بنسبة واحد إلى واحد، وهو قرار لقي موافقةً عامة من الحاضرين.

انتهى الجميع من تناول الطعام، وشعروا بالمرح، فبدأت تايس بالرقص. تناولت الفتاة ناياً عن إحدى الطاولات بشكلٍ مفاجئ، وبدأت بالعزف على الآلة بشكل يتناسق مع رقصها، وبدا أن الموسيقى تغلّف جسدها الذي استمر في الدوران والتموّج بسرعة أكبر من ذي

قــبل، ثم توقّــف مع سلسلةٍ لا نهاية لها من النغمات الحادة والعالية. عــندها، جثمت تايس على الأرض، وكأنها حيوان شرس على وشك الانقــضاض علــى فريسته، تقطعت أنفاسها والتمع جسدها من فرط التعرق، ثم عاودت العزف مجدداً. وتجاوز عزفها الخيمة حتى وصل إلى نهايــة المعسكر، وكذلك إلى أسماع الحراس الذين كانوا يقفون بسكون في نــوبة حراســتهم. وتــرافقت أحلى النغمات مع حركاتها الناعمة واللطيفة والمتموّجة، وراحت تُصدر إيماءات وإشارات.

توقــف الــرجال عن الضحك والمزاح، وبدا الملك أيضاً مأخوذاً بحــركاتها التي تسارعت مع وقع الموسيقى، حتى اكتسبت إيقاعاً معيناً واستمراريةً أكثر إلى أن وصلت إلى ذروتها. بدت تلك المساحة الصغيرة في الخيمة ممتلئة بالكامل بحضور تايس الذي تعزّز بعطر بشرتها، ولمعان شعرها المتألق. بدا الأمر وكأن رقصاتها قد أطلقت عند الرجال طاقةً لا تقــاوم. تذكر الإسكندر في لحظة خاطفة لحظةً أخرى في حياته. تذكّر نغمــات الناي التي عزفتها والدته أوليمبيا في عمق غابة يوردايا، والتي تــرافقت مــع رقصات طقوسية أدّتها في منتصف الليل، وهي رقصات الديونيسيوسية.

ســقطت تــايس على الأرض مجهدةً ومتقطعة الأنفاس. وكانت عيون الجميع تلتهمها، وعينا كل واحد منهم تعبّران عن دافعٍ لا يقاوم. ولكن، لم يجرؤ أحد على التقدم، لأنهم انتظروا أن يقوم الملك باستخدام امتــيازه. كــسر صــهيل أحد الأحصنة، وأصوات حوافره المتقدمة، الصمت والتوتر المخيّمين على المكان. وسرعان ما اندفع هيفاستيون إلى داخــل الخيمة. كانت تغطيه طبقة من الغبار والعرق، وقال وهو يحاول جاهداً التنفّس بشكل جيّد: "جيش داريوس على بعد مسيرة نصف يوم من هذا المكان، وهناك مئات الآلاف منهم. تشتعل نيرانهم في الليل مثل

أنجـــمٍ في السماء، ويتردّد نفير أبواقهم الحربـــي من طرف السهل إلى طرفه الآخر".

وقـــف الإسكندر، ونظر حوله وكأنه يستيقظ من حلم، وقال: "اذهـــبوا الآن وارتاحوا. سنعبر النهر في الغد حيث سنعقد مجلساً حربياً عند مغيب الشمس، وعلى مرأى من الجيش الفارسي".

11

كـــان نهر دجلة يجري بسرعةٍ كبيرة حتى عند المعبر، وكان المشاة أول مـــن حاولوا العبور، لكنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم في مأزق، لأن المـــاء غمرهم حتى صدورهم بعد أن وصلوا إلى وسط النهر تماماً. كما أن دروعهم سببت لهم المشاكل. فإذا أبقوها في الماء أصبحت ثقيلة الـــوزن، وانفصلت عن باقي أسلحتهم. أما إذا رفعوها عالياً في الهواء، فكانوا يفقدون توازنهم، ويجرفهم التيار مع دروعهم.

لـــذا، أمر بارمينيون بربط حبلين بين ضفتَي النهر، ووقف وسط النهـــر صفّان مزدوجان من الجنود مع التيار من دون دروعهم، وذلك كي يسيروا عبر النهر، ويلتقطوا أولئك الرجال الذين يسقطون في المياه وينجرفون مع التيار. وأمر القائد أن يعبر سائر المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً عبر الممر الآمن الذي يوفره هذا الحاجز البشري. وكان الفرسان آخـــر من عبر النهر، ثم تبعتهم العربات المحملة بالمؤن، والسلع، والنساء والأولاد. كانـــت بـــشائر المساء قد حلّت عندما بدأت أولى الآلات الحـــربية تظهـــر أمام مواقع العدو، لكن أطراف هذه الآلات كانت لا تـــزال على ضفة نهر دجلة، واستغرق الأمر ما تبقى من ذلك اليوم كي تنضمّ إلى بقية الجيش.

عقـــد الملـــك مجلساً حربياً كما كان مخطّطاً، وذلك بعد غروب الـــشمس مباشرة. وكان الجيشان قريبين جداً من بعضهما حيث تمكن الحـــراس المقدونـــيون المتمركزون في السهل من سماع نداءات الحراس الفُرس.

حلّ الظلام، وحان وقت نوبة الحراسة الأولى. أُنيرت خيمة الإسكندر بالمشاعل، ووصل الرفاق مع كبار القادة: كيونيوس، وسيمياس، وميليجر، وبوليبيرشون، وتقدمهم بارمينيون وكلايتوس الأسود. حيّا الجميع الملك، وقبّلوه على خدّه، ثم تحلّقوا معاً حول طاولةٍ سبق للضباط أن رسموا فوقها خريطة لميدان المعركة. تمثلت مجموعات المشاة وسرايا الفرسان ببيادق ذات ألوانٍ مختلفة أُخذت من مجموعات ألعاب الملك.

بدأ الإسكندر الكلام: "سيرسل داريوس - على وجه التأكيد تقريباً - عرباته الحربية كي يهاجمنا. تقضي خطتهم أن يتغلبوا على صفوف جنودنا، وأن يبعثروا صفوف الفالانج، لكننا سنتقدم بخطٍّ مائل نحو خطّ الأعداء الأمامي، والذي لا بدّ من أنه سيكون كثيفاً بسبب تفوقهم العددي الكاسح. سنحاول بعد ذلك أن نتحرك إلى الجهة الأخرى من الميدان، وهي الجهة التي مهّدها الملك العظيم لعرباته الهجومية. أريدكم أن تعطوا الرجال إشارة كي يُحدثوا أكبر قدرٍ ممكن من الضجيج ما إن تروهم يتحركون، وأن تطلبوا إليهم أن يقرعوا بسيوفهم على دروعهم، وكذلك أن يصرخوا من أجل إخافة الجياد. أما عندما يصبحون ضمن مرمى أسلحتكم، فسيتعيّن على رماة السهام والقاذفين التصويب على سائقي العربات من أجل تعطيل حركتها. سيتكفل هذا بالقضاء على عدد كبيرٍ منهم، لكن العربات التي ستستمر في الحركة، يمكن أن تسبّب الكثير من الدمار. وعندها، سيقوم قادة السرايا بالإشارة إلى رجالهم لفتح ثغرات في خطوطهم القتالية؛ وذلك باستخدام الأبواق. أريدكم أن تسمحوا لهذه المركبات بالمرور بينكم قبل مهاجمتها من الخلف.

عندما نوقف هجوم المركبات سيتقدم جنود الفالانج نحو الوسط، وسيتقدمهم المشاة المسلحون تسليحاً ثقيلاً والهيتايروي، بالإضافة إلى

جنود الهجوم الأغريانيين والتراقيين، وسأقوم أنا بقيادة فرقة الطليعة عبر خطوط داريوس. يتعيّن علينا أن نكسر ميسرتهم ونعزلها بالكامل. وبعد ذلـــك، ســـنلتقي في الوســـط كي ندفع بداريوس وفرقة الخالدين نحو الفالانج. أما الكتائب التي يقودها كراتيروس وبيرديكاس فسيتعيّن عليها مقاومـــة الصدمة، وتنفيذ هجوم معاكس. سيبقى القائد بارمينيون مع جـــنود الاحتـــياط أســـفل ميسرة جيشنا بالإضافة إلى ثلاث كتائب من البيزيتايـــروي، والفرســـان التيساليين، وسيكونون مستعدين لتنفيذ الضربة الأخـــيرة. أما ميمنة صفوفنا فستتألف من حلفائنا اليونانيين والمرتزقة، وهي الـــتي سيقوم الأسود بتنسيق عملها، وستكون مهمتها التعامل مع مناورات التطويق التي ستقوم بها ميسرة الفُرس، وذلك من أجل إعطاء فرقة الطليعة الوقت الكافي كي تضرب وسط خطوط العدو. ألديكم أسئلة؟".

قال سلوقس: "لديّ سؤال واحد. لماذا وافقنا على القتال في أرضٍ اختارها أعداؤنا؟".

بـــدا الإســـكندر متـــردداً بشأن اضطراره إلى الإجابة عن ذلك الـــسؤال. لكنه تحرّك مقترباً من سلوقس، وحدّق إلى عينيه، وقال له: "أتعلم كم عدد الحصون المنتشرة في أنحاء إمبراطورية داريوس، أعني من هـــذا المكـــان وحتى جبال باروبامسيوس؟ ألديك أي فكرة عن عدد الممـــرات المحصنة، وعن عدد المعاقل والمدن المسوّرة التي يمتلكونها؟ فإذا اخترنا مكاناً غير هذا، فإن ذلك يعني أن يشيخ المرء من دون فائدة في مـــشروعٍ يتـــسم بالعنف، وسنخسر كل قواتنا بموتٍ بطيء، وسنحرم أمتـــنا مـــن شريان حياتها، ونجردها من شبابها، أي أننا سنحكم عليها بفترة من الانحطاط المؤكد. كان داريوس حاذقاً جداً في استدراجي إلى هـــذا المكان. لكنني تعبت من هذه اللعبة، وهو لا يدرك أنني أتيت إلى هذا المكان بملء إرادتي، وأنني سأهزمه في نهاية الأمر".

ظــلّ سلوقس ينظر إلى عيني الإسكندر، ثمّ وجّه إليه سؤالاً ثانياً: "وبماذا تهزمه؟".

أجــاب الإسكندر: "سترى بنفسك فجر غد. أما الآن، فلم يعد لــديّ ما أقوله. اذهبوا كي ترتاحوا، لأنني أريدكم أن تقاتلوا يوم غد حتى آخر قطرة دم في عروقكم، وحتى تستنفدوا طاقاتكم. ليكن الحظ إلى جانبكم".

حــيّوه جميعاً، وتحرّكوا مبتعدين. ورافقهم الإسكندر حتى الباب. ومــا إن غادر الجميع حتى توجه نحو بوسيفالاس كي يُطعمه ويسقيه. ومــا إن أدخــل الجــواد أنفه في الكيس المليء بالشوفان، حتى تكلّم الإســكندر وراح يمسّد له عرفه، وقال له: "يا بوسيفالاس الرائع، ويا صديقي المخلص... أعدك بأن المعركة التي ستخوضها يوم غد ستكون الأخــيرة. أمــا بعد غد، فلن تظهر إلا في الاستعراضات، وستحملني عــندما ندخل منتصرين إلى بعض المدن، أو عندما نتنــزه بمفردنا أنت وأنــا في تلال ميديا، أو بمحاذاة ضفتي دجلة، أو آراكس. لكن يتعيّن علــيك أولاً أن تقــودني إلى النصر في الغد يا بوسيفالاس. أريدك أن تحملــني بسرعة تفوق سرعة الرياح، وأسرع من سهام الفُرس، لأن لا شيء سيقف في طريق سرعتك".

رفع الحيوان رأسه بعنفوان، وصهل قليلاً محركاً عرفه.

"هــل فهمت يا بوسيفالاس؟ ستسحق بحوافرك الفرسان الميديين والكايسانيين، والهيراكانيين والخوارزميين، وستقذف نيراناً من منخريك مــثل مخلــوق خيالي، وستقود كل الجياد بحماسة شديدة في هجومها الشرس، كما أنّ جياد فرقة الطليعة الخمسمئة ستهزّ الأرض خلفك".

راح الجواد يخدش الأرض بحافره، ثم وقف على قائمتيه الخلفيتين بــشكلٍ مفاجــئ، وراح يصهل وكأنه يواجه تحدياً ما. بعد ذلك، بدا

وكأنـــه هدأ قليلاً، وحرّك كِمامَتَه نحو صدر سيده منتظراً أن يداعبه. كـــان يحـــاول أن يقول إنه مستعد، وإنه لا يوجد شيء في هذا العالم يستطيع أن يوقف تقدمه.

قـــبّله الإســـكندر، وغـــادر المكـــان، وتحرّك مبتعداً نحو خيمة سيـــسيغامبيس، الملكة الأم، وهي الخيمة التي نُصبت تحت مجموعة من أشجار الجمّيز عند طرف المعسكر. أعلن الإسكندر عن قدومه بواسطة أحـــد المخصيّين الذي تقدمه إلى داخل خيمتها، فاستقبلته وهي جالسة على عرشها.

انتظر الإسكندر حتى تعطيه الإذن بالجلوس كما جرت العادة في بلاط الملك، ثم بدأ بالكلام:

"أيـــتها الـــوالدة العظيمة. أتيت كي أخبرك بأننا على وشك أن نـــواجه داريوس في معركة حاسمة، وأكاد أجزم بأنها المعركة الأخيرة. ســـيبقى واحـــد منا فقط حياً عند غروب شمس يوم غد، وسأفعل كل شيء كي أضمن بأن النصر حليفي".

أجابت سيسيغامبيس: "أعرف ذلك".

"يُحتمل أن يعني ذلك أن ابنك سيموت".

أومأت الملكة برأسها بحزن ظاهر.

"أو سأكون أنا من يموت".

نظـــرت سيسيغامبيس إليه بعينيها اللتين فاضتا بالدموع وتنهدت، ثم قالت: "سيكون يوماً حزيناً على كل حال، وكيفما تقلبت الأمور، وكـــيفما كانـــت نـــتائج هذه المعركة. فإذا انتصرتَ فسأخسر ابني وبلادي. أما إذا خسرتَ، أو قُتلت، فسأخسر عندها إنساناً تعلّمت أن أحبه. عامَلتَني وكأنني أمّك، كما احترمتَ كل أفراد أسرتي، وهو الأمر الـــذي لم يكن ليفعله أيّ فاتحٍ آخر. بنيّ، لقد كسبتَ بسموّ أخلاقك،

"كلا، لكن...".

"دعيني أراه".

تقدمته ليبتين إلى حيث يتناول الطعام، وعرضت عليه طبقاً وُضع فوق الطاولة الملكية. ابتسم الإسكندر وهزّ رأسه: "إنه دجّ(*) مشوي". لمسه بعد ذلك وأضاف: "ما زال ساخناً. أين هو الرجل؟".

"لقد ذهب، لكنه ترك لك هذه". وعرضت عليه لفافة صغيرة من ورق البردى. فتحها الإسكندر وقرأها بسرعة، ثم غادر على الفور، ونادى حامل دروعه قائلاً له: "جهّزوا لي الجواد السارماشي، وبسرعة ".

ركـــض حامل الدروع نحو الحظيرة، وعاد على الفور مصطحباً الجـــواد الملجـــوم والجاهز. امتطى الملك صهوة الجواد، وانطلق مسرعاً بشكلٍ لم يستطع معه الحراس إدراك ما يحصل. وكان الملك قد اختفى في ليل الصحراء قبل أن يتمكنوا من تحضير أنفسهم للحاق به.

(*) نوع من الطيور يدعى أيضاً السمنة.

12

وصـــل الإسكندر إلى قريةٍ صغيرة تتألف من بضعة منازل مشيّدة بأحجـــارٍ مـــن الطين والقار. تقع هذه القرية في منتصف المسافة بين معسكره والنهر الذي عبروه في ذلك الصباح بالذات. توجّه الإسكندر نحـــو البئـــر الموجودة وسط مجموعةٍ من أشجار النخيل، ثم ترجّل عن صهوة جواده وانتظر.

لم يتأخـــر القمـــر عـــن الظهور من وراء سلسلة من التلال المنخفـــضة والتي تعتبر بمثابة حدود للجزء الشرقي من السّهل. نشر القمـــر أنـــواره على الشجيرات النابتة التي تحيط بالقرية مثل خاتمٍ ذهبـــــي، وما لبث أن نشر هذه الأنوار فوق الصحراء التي تمتد إلى ما وراء المنطقة المزروعة والضيقة التي تنتشر في كل الاتجاهات. ترك الإسكندر جواده كي يرعى الأعشاب المتناثرة والتي تنبت هنا وهناك بـــين أشجار النخيل. وانتظر تحت ظلال أشجار النخيل حتى شاهد خـــيالاً يتمايل في طريقه التي كانت أوسع قليلاً من ممرٌ ضيّق، وهي الـــتي تبدأ من جهة الجنوب. كان إيمولبوس من سولوي يتقدم على ظهر جمل.

لاحـــظ الإســـكندر مدى اضطراب المخبر فقال له: "يمكنك أن تترجل. تركتُ بيريتاس ورائي في المعسكر".

بـــدأ المخبر الكلام: "تحياتي أيها الملك العظيم، وسيّد آسيا..."، كـــان وقت الإسكندر ضيّقاً، فقاطعه بالقول: "هل تمكنت من معرفة معلوماتٍ جديدة منذ أن كتبتَ تلك الرسالة؟".

"يتعـــيّن عليّ أن أقول لك الحقيقة. كنت أعلم أن مازايوس كان واهمـــاً جداً، وكان متأكداً من أن النهاية قريبة بالنسبة إلى إمبراطورية سيروس العظيم. وسبق لي أن طلبت إلى هيفاستيون أن يجلبه إلى جانبنا إذا صـــدف أن قابلـــه عـــند معبر نهر الفرات في ثابساكوس. ولكنّ هيفاستيون رفض أن يفعل ذلك، ولعله شعر أن محاولة دفع الخصم إلى الخيانة تصرّف يتسم بالعار".

"إنني أمتلك الموقف ذاته".

"دعنا نقول إنه يتخذ الموقف الذي تراه مناسباً".

"حسناً، إذا كنتَ تفضّل هذا".

"حسناً. لكن سيدة الحظ انحازت إلى جهتنا. يبدو أن لديها نقطة ضـــعف تجاهك يا مليكي. يُحتمل أنك ستستصعب تصديق فكرة أن هيفاستيون كان - لكن من دون علمه - بالفعل صلة الوصل بيننا وبين مازايوس. أعطاه ذلك الفارسي تمثالاً صغيراً، وطلب إليه أن يعطيني إياه كهدية. أعطاني هيفاستيون التمثال عندما كنت قرب ثابساكوس بينما كـــنت أقـــوم ببعض الأعمال. وكان قد كتب بالأحرف البربرية التي نُقـــشت على القاعدة العبارة التالية: *اكسر هذا التمثال الصغير*، وهو الأمـــر الذي نفذته على الفور. فوجدت رسالة من مازايوس، وسرعان مـــا كلّفت أحد المبعوثين بنقلها إليك عندما كنتَ تقترب مع جيشك مـــن المعبر عند نهر دجلة. ومع ذلك، أردت أن أحضر شخصياً إلى هنا كي أتأكد من أن الرسالة قد وصلتك".

"أجل، لقد وصلت. رأيت ذلك الدجّ المشوي الذي أرسلته".

"كانـــت تلك فكرة جيدة. ألا تعتقد ذلك؟ اصطاد رجالي عدداً محتـــرماً مـــنها هذا الصباح بواسطة شباكهم، لذلك خطر في بالي أن أعطيك كلمة سري بهذه الطريقة المبتكرة".

"لقد نجحتَ بالتأكيد".

"إذاً، ماذا قال لك ذلك المبعوث بالضبط؟".

"يعرض علينا مازايوس مساعدته في ميدان المعركة، لكنه يطلب في المقابل أن نثبته في مركز مرزبان بابل. وقال إنه سيكون في ميمنة جيش داريوس. وهكذا سأتمكّن من تخفيف عدد الجنود في جناحي الأيسر من أجل تركيز كل قواتي على الجهة الأخرى، حيث نواجه خطر الإحاطة بنا. هل هذا صحيح؟".

"هذا صحيح تماماً. ألا تعتقد أنه عرضٌ صادق؟".

"وهل تثق بخائن؟".

"أجل، هذا إذا كانت عروض ذلك الخائن تعمل لصالح الجانبين، ويبدو لي أن هذه هي الحال مع هذا العرض. إن مازايوس متأكد من أن داريوس لن يتمكن من إلحاق الهزيمة بك، وهو يعتقد أنك ستخرج منتصراً، ولذلك يقدم إليك أمراً مقابل حصوله على أمرٍ آخر. إنك تمتلك الورقة الرابحة، وهو ما يعتمد عليه هو الآخر".

"تصوّر للحظة أنه يكذب علينا. فأنا إن كنت سأصدقه فهذا يعني أنني سأترك ميسرة الجيش من دون حماية، وذلك من أجل تعزيز الجناح الأيمن، وذلك على ضوء احتمال تنفيذ مناورة حصارٍ من قِبل الفرسان الفرس. سيقود مازايوس، بدلاً من ذلك، هجوماً على ميسرة جيشي وسيضربني من الخلف، بينما أكون أنا على وشك تنفيذ هجوم مع رفاقي من فرقة الطليعة. وعندها، ستحصل كارثة، وستكون نهايتنا".

"هذا صحيح. لكن، إذا لم تخاطر بقبول عرض مازايوس، فقد تخسر على كل حال، لأن أعداد جيشهم تفوق بكثير أعداد جيشك.

يُـــضاف إلى ذلك أنك قبلت خوض المعركة على أرضٍ من اختيارهم. إنه مأزقٌ حقيقي".

"لكنني سأعود إلى خيمتي وسأنام نوماً هنيئاً".

ســـعى إيمولبوس إلى تفحّص ملامح الإسكندر، وذلك على ضوء القمـــر الذي لم يعد كافياً في هذا الوقت، لكنه لم يتمكن من رؤية أي شـــيء يُمكـــنه أن يـــشير إلى نوايا الملك الحقيقية. سأله: "بِمَ أجيب مازايـــوس هذه الليلة؟ إنني أتخفى، كما ترى، بزيّ تاجر، وسرعان ما سأكون معه كي أعطيه جوابك".

أمسك الإسكندر عنان جواده، ثم قفز فوق صهوته. وقال ما إن تجهّز للانطلاق: "قل له إنني أقبل عرضه".

أوقفه إيمولبوس قائلاً: "انتظر! هناك أمر أخير أود أن أخبرك إياه. ابن بارسين في معسكر داريوس، وهو ينوي المشاركة في المعركة يوم غد".

جلـــس الإسكندر ساكناً هنيهة فوق صهوة جواده، وبدا وكأن هـــذا الخبر قد أصابه بالشلل، ثم صحا فجأة ونخس الجواد كي يتقدم، وسرعان ما اختفى وسط سحابةٍ من الغبار. هزّ إيمولبوس رأسه، وفكّر للحظة في المحادثة التي دارت بينه وبين الإسكندر، ثم جعل جمله المتردد يجـــثو وصعد على ظهره، وقال له شيئاً، فأسرع الحيوان إلى رفع الجزء الخلفـــي منه أولاً، وهو الأمر الذي كاد أن يُسقط الرجل إلى الأمام، ثم رفـــع قائمتـــيه الأماميتين بعد ذلك فكاد الرجل أن يهوي إلى الوراء. اســـتعاد الحـــيوان توازنه، وبدأ بالتقدم نحو المعسكر الفارسي مدفوعاً بركلات راكبه.

رأى الإسكندر دوريةً من جنود *الهيتايروي* التابعين للحرس الملكي وهـــي تـــتقدم نحـــوه بسرعةٍ كبيرة بقيادة هيفاستيون. وحين توقفت الدورية سأل الملك: "إلى أين أنتم ذاهبون؟".

قــال هيفاستيون غاضباً: "إلى أين نحن ذاهبون؟ كيف يمكنك أن تــسأل هــذا السؤال؟ خرجنا كي نبحث عنك! انطلقتَ من دون أن تقــول لــنا شــيئاً، ودلفت في ظلمة الليل عبر أراضٍ تعجّ بدوريات الأعــداء. وفعلت هذا عشية وقوع المعركة التي ستقرر مصيرنا. لحسن الحــظ، رآك أحــد الحرس فأبلغ قائده. كدنا نموت من شدّة الخوف عليك و...".

أســكته الإسكندر بإيماءةٍ بسيطة: "كان لديّ أمر اضطررت إلى معالجــته بمفــردي، لكن وجودكم هنا أمرٌ حسن. من هو قائد هذه الفرقة؟".

تقـــدم شاب من أراضي لينسيستس الجبلية وقال: "أنا يا مولاي. اسمي يوفرانور".

"اسمعـــني جيداً يا يوفرانور. أريدك أن تذهب أنت ورجالك إلى قرية تقع على بعد عشرة ستاديا أو نحو ذلك على هذه الطريق. وأريدك أن تتــرك نصف عدد رجالك فيها كحامية، ولتكن بقيادة شخصٍ تثق بـــه. أمّا النصف الباقي فستأخذه إلى ضفّتَي دجلة، وستنتظر هناك حتى تسمع أحدهم ينادي من الجهة الأخرى: *أين هي طريق بابل*؟ وعندها ستجيب بدورك: *ها هي الطريق من هنا*! وبعد ذلك، سترافق الجماعة إلى المعسكر وتودعهم لدى كراتيروس".

"أما من شيء آخر يا مولاي؟".

"لا شـــيء آخر يا يوفرانور. نفّذ هذه الأوامر التي أعطيتك إياها جيداً، لأن سلامة جيشنا تعتمد عليها".

"يمكنك الاعتماد علينا يا مولاي. سنبقى متيقظين، ولن يمر أحد بين المعبر والقرية من دون الحصول على إذنٍ منا. هكذا يجب أن تكون الأمور. أليس كذلك؟".

"هكذا يجب أن تكون بالضبط. اذهب الآن".

سأل هيفاستيون الإسكندر ما إن استدار بجواده في اتجاه المعسكر: "ومَن ننتظر؟".

"سترى في ما بعد. سنعود الآن، لأنه ليس أمامنا الكثير من الوقت قبل انبلاج خيوط الفجر الأولى".

قفلـــوا عائدين إلى المعسكر، لكنهم سلكوا طرقات شتى. توجّه هيفاستيون إلى فرقته، أي فرقة الطليعة. أما الإسكندر فتوجه إلى خيمة بارســـين. تقدمت منه بارسين وقبّلته، ثم قالت له: "سمعت أنك ذهبتَ بمفردك. قلقت عليك كثيراً".

قرّبها الإسكندر منه من دون أن يقول أي شيء.

"ستقود فرسانك في الغد، أليس كذلك؟".

"أجل، سأفعل ذلك".

"لمـــاذا تعـــرّض نفسك لهذا الخطر؟ إذا حصل لك أي مكروه، فسيبقى رجالك من دون قائد".

"يتمتع الملك بامتيازات محددة. لكن، يجب عليه كذلك أن يستعد ليكون أول من يموت في كلٍ مرة يواجه فيه شعبه خطراً داهماً. اسمعيني جـــيداً يا بارسين: على بعد ثمانية أو تسعة ستاديا في ذلك الاتجاه، يقع المعسكر الفارسي حيث يتواجد والدك آرتابازوس و... ولدك كذلك".

فجـــأة، فاضت عينا بارسين بالدموع لكنه تابع كلامه: "إذا أردتِ أن تنضمي إليهما، فسأرتّب مرافقة لكِ ولابنك فرآت كي تصلا إلى أول موقع حراسة فارسي".

سألت بارسين: "هل هذا ما تريده؟".

"كـــلا. أنـــا أريدك أنت، لكنني أدرك أن قلبك ممزق، ولهذا لن تكوني سعيدة أبداً".

مسّدت بارسين وجهه، وشعره ثم قالت له: "إنني امرأتك، لذلك أريد أن أبقى هنا".

"أريـــدك إذا كنتِ امرأتي أن تجعليني أنسى كل شيء عشية هذه المعركة. أحبيني كما لم تحَبـــي أي إنسان من قبل. يُحتمل ألاّ يبقى مني بعد معركة الغد غير حفنة من تراب".

وبعد مرور وقت طويل، قالت له بارسين: "ابقَ معي هنا. أتوسّل إليك".

"لا أستطيع. يتعين على رجالي أن يجدوني غداً في عزلتي التي تسبق ذلـــك الـــتحدي الأكبر. ويتعين على حراس آخر نوبة أن يعرفوا أنهم حرســـوا الملـــك الذي كان بمفرده. وداعاً يا بارسين. إذا متّ غداً في المعـــركة فلا تبكي لأجلي. إن الموت في ميدان القتال امتياز كبير يجنّب صـــاحبه الـــتقدم في السن، والهبوط في مستوى نشاط العقل والجسم، والانطفـــاء البطـــيء والحتمـــي للنور في عينَي المرء. عودي إلى أهلك وولـــدك، وعيشي معهم بسعادة، واعرفي أنكِ تلقيتِ من الحب ما لم تتلقّه امرأة أخرى في هذا العالم".

قبّلته بارسين للمرة الأخيرة قبل أن يختفي من خلال الباب، لكنها لم تستجمع ما يكفي من شجاعتها كي تقول له إنها تحمل طفله.

13

كـــان القائد بارمينيون هو الذي أيقظ الملك بعد أن دخل خيمته بنفسه: "مولاي، حان الوقت". كان مرتدياً دروعه العسكرية الكاملة، ويقف منتصب القامة وصلباً مثل شجرة سنديان، فنظر إليه الإسكندر بالإعجاب ذاته الذي كان يحسّه تجاهه على الدوام. وقف الملك عارياً، وســـرعان مـــا ابتلع ما أعدّته له ليبتين، ثم ساعده خادمان على ارتداء ملابـــسه ودروعه، بينما أحضر خادم آخر خوذته اللامعة التي كانت على شكل رأس أسد فاغرٍ فاه.

بـــدأ القائـــد كلامه: "أيها القائد، سيكون هذا اليوم يوم حيرةٍ عظـــيمة، وخاصة بالنسبة إلى جناحنا الأيسر. لهذا السبب، قررت أن أعطيك قيادة تلك الجهة من خطوطنا. أما الأسود فسيتولى قيادة الجناح الأيمن من جيشنا.

سنتحرك قُدُماً بعد أن نضمّ جناحينا حيث يكادان أن يلامسا جهتَي الجيش؛ حيث يصبح الجيش مثل صقرٍ ينقضّ على فريسته. سنتقدم حتى يقـــرروا إيقافنا بعد إرسال جناحهم الأيمن. بعد ذلك، سأقود الهجوم، وسأشـــق جبهتهم إلى اثنتين. ولكن، بينما أندفع أنا إلى وسط العدو، ستقوم أنت بالالتفاف مع جنودك إلى جهة اليسار. أعرف أنك ستثبت مع رجالك، وأنكم لن تستسلموا لأي سبب كان".

"أنا لن أستسلم يا مولاي".

هزّ الإسكندر رأسه: "إنك تتصرف بطريقة رسمية على الدوام. ومع ذلك، فقد سبق لك أن وضعتني على ركبتك عندما كنت صغيراً".

أومأ بارمينيون: "أنا لن أستسلم يا ولدي حتى الرّمق الأخير".

ما إن غادر الملك حتى رأى أريستاندر وهو يحرق أضحية في وسط المعسكر. تصاعد الدخان ببطء، وراح يتلوى مثل الأفعى محاولاً شق طريقه نحو السماء.

"وماذا تشمل نذورك أيها الضالع؟".

التفت أريستاندر نحوه بحركته المميزة التي تذكّره كثيراً بوالده فيليب، وقال له: "سيكون هذا اليوم أصعب أيام حياتك أيها الإسكندر، ولكنك ستنتصر".

أجاب الملك وهو يتناول عنان بوسيفالاس من سائسه: "أتمنى أن يكون ما قلتَه هو الحقيقة". كان المعسكر يعجّ بالحركة، وكانت الأوامر تتردد في كل مكان، وكانت سرايا الفرسان تأخذ مراكزها، أما فرق المشاة فكانت تصطف في التشكيلات المناسبة للزحف. امتطى الإسكندر صهوة جواده ونخسه حتى وصل به إلى مقدمة فرقة الطليعة التي أنهت اصطفافها بشكلٍ تام. اتخذ هيفاستيون موقعه إلى جانبه، فيما وقف ليوناتوس وراءهما تماماً وقد ارتدى دروعه المعدنية بالكامل، وحمل ساطوره الكبير بيده بكل إحكام، بينما وقف بطليموس إلى جانبه. ووقف وراءهم لايسيماخوس، وسلوقس، وفيلوتاس الذين كانوا يقفون قبل بقية السرية وفرق *الهيتايروي* الأخرى. وكان التراقيون والأغريانيون في الجهة اليسرى يركضون، بينما اصطفّت خلفهم كتائب الفالانج، ثم جنود فرقة الصدم مع قياداتها: كوينوس الذي كان في المقدمة تماماً، ثم بيرديكاس، وميليجر، وسيمياس وبوليبيرشون. وأخيراً، جاء كراتيروس الذي كان على رأس التيساليين. كانت ثماني كتائب من الحلفاء اليونانيين قد بدأت بالزحف، وكان يتبعها خط طويل من جنود المشاة من التراقيين والتريباليين، وكان هذا الخط يمتد إلى الخلف حتى يصل إلى الخيَم والمؤن الملكية.

رفــع الملك يده، فنفخ الجنود في الأبواق إشارة الانطلاق، وبدأ جنود فرقة الطليعة سيرهم وراء الإسكندر الذي قادهم نحو آخر الميدان. بعد ذلك، سُمعت أبواق الحرب، وسرعان ما ظهر جيش الملك العظيم. كـــان جيشاً لا يحدّه البصر، وتتقدمه مئات الأعلام والرايات. كانت الشمس تشرق في تلك اللحظة بالذات، وسط سحابةٍ من الغبار الناتج عن الزحف، فيما ومضت الأسلحة المعدنية فبدت مثلَ ومضات البرق الآتية من أعماق السحابة الداكنة والعاصفة.

رأى لـــيوناتوس صـــفوف الجنود الطويلة، والتي تمتد من جانب المـــيدان وحتى الجانب الآخر، وما لبث أن همس لنفسه: "ما هذا!؟". لكن الملك لم يُظهر أي علامة تدل على اندهاشه من هذا المنظر المهيب، وتابـــع سيره البطيء ممسكاً بعنان جواده قريباً من صدره، بينما قوّس الجواد عنقه اللامع والقوي وراح يصهل ويعضّ لجامه.

بدأ الجيش بأكمله يظهر وراءه، سريةً خلف سرية، وكتيبةً خلف كتيـــبة، على أصوات قرع الطبول الإيقاعية، والأصوات العالية الناتجة عن زحف الجنود، وتلك الأصوات القوية الصادرة عن اصطدام حوافر الأحـــصنة بـــالأرض. انفتحت مساحة الميدان المستوية إلى يسارهم، وكانت تلك آخر ما يفصل الجنود عن الخط الأمامي للجيش الفارسي الذي تابع زحفه العنيد إلى الأمام.

في هذا الوقت، بدأ الإسكندر بالانعطاف نحو اليمين، وذلك كي يـــصل إلى أرض أكثـــر وعـــورة، لكن العدو أدرك هدفه على الفور. وســـرعان ما تعالى في الأجواء مجدداً نفير الأبواق بنغماته المطولة، وما لـــبث جناح الجيش الفارسي الأيسر بأكمله، والذي يتألف حصرياً من اللسكاثيين والباكتريين أن بدأ بتنفيذ مناورة مضادة. أعطى الإسكندر إشارة فأسرع الرماة الأغريانيون الذين كانوا على صهوات جيادهم نحو

العـــدو، وأطلقـــوا لـــدى اقترابهم وابلاً من السهام. بعد ذلك، أرسل الإســـكندر سرية من فرسان الهيتايروي من أجل إبطاء هجوم العدو، بيـــنما استمر هو في زحفه البطيء على رأس فرقة الطليعة، وبدا هادئاً تمامـــاً. لم يـــتمكن غير أولئك الذين قربه من رؤيته وهو يرمش بعينيه بشكلٍ غير منتظم، وذلك بين حينٍ وآخر، بالإضافة إلى رؤيتهم العرق المتصبب من جبهته.

نخـــس جنود الهيتايروي جيادهم، وسرعان ما ملأوا المساحة التي كانت تفصلهم عن موجات الفرسان الآسيويين المتقدمين بسرعة. كان الاصـــطدام رهيباً بالفعل. تدحرجت مئات الجياد على الأرض، وسقط معهـــا مئات الفرسان من الجانبين، وما لبث هؤلاء أن بدأوا قتالاً مميتاً وجهـــاً لوجه بين حوافر الجياد، وذلك بالرغم من الجروح التي أصيبوا بهـــا، ووســـط ذلك الجحيم من الغبار المتطاير، ووسط صهيل الجياد وصياح الجنود الذي أحاط بهم من كل جانب. ارتفعت سحابة كثيفة من الغبار، وغطّت الميدان بأكمله تقريباً، لذلك صعُب على المرء أن يميّز مـــا يجـــري، وما يُمكن أن تكون عليه نتائج أول صدام بين الجيشين. نفدت السهام من بعض الجنود الأغريانيين فما كان منهم إلا أن استلوا ســـكاكينهم ورموا بأنفسهم وسط الجنود المتقاتلين. تحرك هؤلاء بدافعٍ مـــن غضبهم البربري، وانطلقوا في قتالٍ شرس مع فرسان العدو الذين كانوا يظهرون كالأشباح وسط سُحُب الغبار الكثيفة.

تـــرددت أصـــوات الأبـــواق الملحّة من جهة اليسار، وما لبث لـــيوناتوس أن لمس كتف الإسكندر وقال له: "... انظر! إنها العربات! إنها العربات ذات المحاور القاطعة!". لكن الملك لم يكترث له مطلقاً.

تحـــركت مـــن وسط خطوط الفرس الآلات الرهيبة إلى الأمام منطلقةً نحو الجناح الأيسر للمقدونيين. شاهد بيرديكاس هذه الآلات

علـــى الفـــور، فـــبدأ بالـــصياح: "استعدوا يا رجال! انتبهوا الآن! استعدوا!".

في هـــذه الأثناء، ظهرت مجموعة من فرسان العدو التي انطلقت بـــشكل مـــستَعرَض عبر ميدان المعركة. جرّت هذه المجموعة وراءها حـــزمات من أغصان الأشجار، وهو الأمر الذي تسبب بتكوين ستارة من الغبار أمام جناح المقدونيين، وهو ما أخفى العربات عن الأنظار. لم يتمكن المقدونيون من رؤية أي شيء غير لمعان المحاور القاطعة بين الحين والآخر بينما كانت تدور بسرعة رهيبة في مراكز العجلات، أو عندما تقطـــع الهواء في أماكن بروزها من العربات، وشاهدوا كذلك جوانب العربات التي يجرّ الواحدة منها أربعة جياد.

أمر بيرديكاس والقادة الآخرون بنفخ أبواق الإنذار حيث يتمكّن الجنود المشاة الزاحفون من تحضير أنفسهم لإفساح المجال أمام العربات لـــدى ظهورها من بين سحابة الغبار. ولكن، عند ظهور هذه العربات كـــان الجـــنود على بعد أقل من ستاديا واحد، ولذلك لم يتمكن كل الجنود من الاستجابة لإشارات الإنذار المتمثلة بالأعلام المثلثة التي رفعها قـــادة الوحدات. تشكّلت عند بعض النقاط الممرات المطلوبة، فمرت العـــربات من دون أن تحدث أضراراً، لكنها نجحت في الهجوم بزخمها الأقـــصى في الصفوف الوسطى، فحصدت الجنود مثلما يحصد القمح، وتدحـــرجت الـــرؤوس، وقد قُطعت عند الأعناق بينما كانت عيون أصـــحابها لا تـــزال جاحظةً من فرط الدهشة. أصابت قواطع العربات أرجل عددٍ كبير من الجنود فقطعتها بشكلٍ مرعب، كما أصابت الجياد أرجـــل جنود آخرين فداستها بحوافرها، وقطعتها مثلما فعلت المسامير الـــبارزة من أسفل العربات إلى أجزاء متناثرة، لكن الجيش تابع تقدمه خلـــف الإسكندر محافظاً على خط تقدمه المائل. في هذا الوقت، قطع

الجـــيش مـــا يزيد على ثلث المساحة الواسعة التي مهّدها داريوس كي يـــضمن ســـير عرباته وجياده من دون عوائق. فيما تابع الجيش سيره المنتظم على وقع الطبول من دون انقطاع.

انطلـــق بعض جنود الفرقة الثانية من الرماة الأغريانيين مثل البرق نحو العربات فقتلوا سائقيها، بينما لاحق آخرون من الذين كانوا فوق صـــهوات جـــيادهم أولئك الذين تغلغلوا في صفوفهم كي يهاجموهم بالحراب من الخلف. تمكّن الفرسان السكاثيون والباكتريون المسلحون تسليحاً ثقيلاً وكانوا بقيادة بيسوس، وهم الذين كانوا في أكثر النقاط تقدماً في هذا الوقت، من دفع سرايا الهيتايروي إلى الوراء مستفيدين من تفوقهم العددي، وبدأوا بالانتشار نحو أقصى اليمين، وذلك في مناورة واســـعةٍ مـــن قبلهم لفرض حصار، أي حيث كان الحلفاء اليونانيون يتقدمونً. ما إن رأى اليونانيون فرسان البرابرة يتقدمون نحوهم بسرعة كـــبيرة حـــتى صـــاحوا: *آلالاي*! وتقدموا كي يضمّوا صفوفهم إلى بعضها، ويضيقوا المساحات التي تفصل بينهم، وكذلك من أجل تكوين حاجـــزٍ من الدروع والرماح. دفع الإسكندر بوسيفالاس قُدُماً، ولكن بسرعة أكبر وسط هذه الفوضى من صياح الجنود وصهيل الجياد، فكاد يجري فوق السهل. وإلى جانبه سار جندي وهو يحمل علم الأرغاديين بلـــونه الأحمر المتوهج ونجمته الذهبية الملتمعة تحت أشعة الشمس التي كانت قد ارتفعت في كبد السماء.

نفـــخ آخرون أبواقهم، وأتوا من ناحية اليسار، فانطلق الفرسان البارثـــيون، والهيراكانـــيون، والمـــيديون إلى الأمام بكامل زخمهم كي يفـــصلوا كتائب بيرديكاس وميليجر المتقدمة عن الكتائب التي يقودها ســـيمياس وبارمينيون الموجودة في الخلف. كان هؤلاء الفرسان بقيادة مازايوس. اندفعوا بين صفوف المشاة، وانطلقوا مثل مياه نهرٍ جارفة نحو

المعسكر المقدوني. صاح بارمينيون بكراتيروس: "أوقفهم! أطلِق التيساليين في إثرهم!". فأطاع كراتيروس هذا الأمر، وأشار إلى نافخي الأبواق الذين سارعوا إلى نفخ إشارة الهجوم لسريّتي فرسان من التيساليين الذين كانوا يتقدمون إلى الأمام من أقصى اليسار، والذين كانوا آخر جنود الاحتياط. تمكّن التيساليون من عزل قوات مازايوس وشغلوها بمعركةٍ شرسة، في حين أقدم بارمينيون على إرسال وحدةٍ من حاملي الدروع وجنود الصدم بهدف المساندة.

صاح بارمينيون: "إنهم يحاولون تحرير الأسرة المالكة! أوقفوهم مهما كان الثمن!". في هذا الوقت، تحوّل أقصى يسار الجناح الأيمن إلى خليطٍ من المشاة والجياد، وانشغل الجميع في معركةٍ شرسة. حاول كل طرفٍ أن يُنزل أكبر قدرٍ من الخسائر بالطرف الآخر، فقاتل الجنود بشراسةٍ فوق كل شبرٍ من الأرض.

سمع الإسكندر الأصوات اليائسة الصادرة عن الأبواق، لكنه لم يستدر بجنوده، بل نظر إلى حامل العلم وأشار إليه بأن يرفع الراية حتّى يتمكن الجميع من رؤيتها. بعد ذلك، أطلق صرخة الحرب التي كانت من القوة والحدة بحيث اخترقت ضجيج المعركة، وترددت أصداؤها في كل مكان. راح بوسيفالاس يضرب الأرض بحوافره ويصهل، وما لبثت صرخة الملك أن أثارته إلى درجة أنه انطلق في هجومٍ شرس، وراح يضرب الأرض بحوافره البرونزية، ويشخر مثل حيوانٍ بري. أسرع جنود فرقة الطليعة وراءه في هجومٍ قوي. وانطلقت وراءهم خمس سرايا تابعة للهيتايروي وتقدّمت على شكل وتد، وراحت تجتاز المساحة التي تؤدي إلى وسط خطوط الفرس حيث عُزلت هذه المنطقة عن جناحها الأيمن الذي كان منشغلاً بمناورة حصارٍ واسعة.

صــــاح الإســـكندر: "إلى الأمام! إلى الأمام!". واستلّ سيفه من غمـــده، وراح يهـــاجم جنود فرقة الخالدين الذين كانوا يدافعون عن العربة الملكية. حافظ كل الفرسان المقدونيين على مراكزهم إلى جانبه، فقضوا على كل شخصٍ حاول الوقوف في طريقهم. كان بوسيفالاس ثقيلاً جداً وسريعاً جداً بحيث إن أي جندي لمسه ولو لمسةً عرضية كان يُطـــرح أرضـــاً على الفور بفعل زخم الجواد العملاق، وجسمه الذي كانت تحميه قطعٌ من الجلد والبرونـــز. نفّذت فرقة الطليعة بقيادة الملك دورةً في هـــذا الـــوقت، ثم اصطفت لتشكّل جبهةً عريضة من أربعة صـــفوف، وهـــي جبهة أحاطت بها سرايا الهيتايروي من اليمين ومن اليسار. وسرعان ما انطلق الجميع نحو جناحَي الوسط الفارسي وخلفيته مثل سيلٍ حديديّ.

في هـــذا الوقت، بدا المعسكر المقدوني وكأنه سقط تقريباً، وراح فرسان مازايوس من الكيسيين والميديين يسرحون في كل مكان. أشعل هـــؤلاء الـــنيران، ودمـــروا وخربوا كل شيء وقع في طريقهم، بينما انطلقـــت مجمـــوعة أخرى نحو جناح النساء. حارب التيساليون مثل الـــسباع، لكـــنهم بـــدأوا بالتراجع بسبب قلة أعدادهم مقارنة بعدد أعدائهم الهيراكانيين والتجهيزات التي يمتلكونها. لم يتمكّن بارمينيون من تحديـــد سير المعركة، لكنه انطلق يحارب بنفسه بشراسة مستعملاً سيفه ودرعـــه، وكأنـــه رجلٌ في ذروة شبابه. رأى جندياً علًى نحو مفاجئ، فـــصرخ بـــه: "أســـرِع! أسرِع إلى الإسكندر وقل له إننا لا نستطيع الـــصمود... إنـــنا بحاجة إلى مساعدة! الآن! اذهب! أسرع!". انطلق الـــرجل مسرعاً بجواده الذي راح يقفز فوق العربات المقلوبة والرماح المحتـــرقة، ومرّ بجانب المحاربين الذين كانوا منشغلين بالقتال. وصل إلى المـــنطقة الوسطى، والتي كانت لا تزال فارغة نسبياً، ودفع جواده قُدُماً

إلى حيث يستطيع تمييز مكان وجود العلم الأرغادي الذي يلوح وسط المعمعة.

كـــان عدد كبير من المرتزقة اليونانيين يساندون حرس داريوس، وهـــم الـــذين تمكّـــنوا مـــن صدّ الهجوم الذي أتاهم من الخلف ومن الجناحين. لكن، بالرغم من أنهم حاربوا بشجاعة إلا أنهم انهزموا تحت ضغط قوة هجوم جنود الإسكندر. كان هيفاستيون يحارب إلى جانب الملـــك، ويغرز رمحه الضخم المصنوع من الخشب القاسي في جسد كل مـــن صادفه آتياً نحوه على صهوة جواد. أما ليوناتوس فقد لوّح بفأسه الثقيلة التي كانت تقطر دماً، فيما هاجم بطليموس ولايسيماخوس وهما يستعملان سيفيهما، وهكذا تمكّنوا من حماية جناحَي الإسكندر، وصدّا عدداً كبيراً من الهجمات المضادة والمستمرة التي شنّها المرتزقة اليونانيون وجـــنود فـــرقة الخالـــدين. لم يكن أحدٌ مستعداً للتراجع، لأن الجميع اعتـــبروا أن هذه المعركة هي فعلاً فرصتهم الأخيرة لرد الأعداء، وإنقاذ حياتهم وأوطانهم.

اشتبك فرسان الجناح الأيمن الذين كانوا بقيادة بيسوس مع المشاة اليونانـــيين المسلحين تسليحاً ثقيلاً، لكنهم استمروا في شنّ هجوم تلو آخـــر بطـــريقة إيقاعية، وكانت هذه الهجمات مثل أمواج البحر التي تتكـــسر علـــى الـــصخور. أما الفرق التي كانت عند الأطراف فقد واجهـــت، بعد مناورتها حول خطوط الجنود اليونانيين، التراقيين الذين كانوا يدافعون عن الجهة اليمنى من المعسكر، والذي وقع جزء كبير منه في قبضة الأعداء.

أما الجناح الأيمن للمعسكر، فقد كان في حالة يائسة بالفعل. فقد حوصر بارمينيون ورجاله بشكلٍ كاملٍ تقريباً، ولمْ يستطعْ بيرديكاس، وميليجر، وآخرون تقديم أي مساعدة إليهم لأنهم تلقوا الأوامر بالهجوم

برماحهم المخفوضة وسط خط داريوس، بينما حافظ فرسان الملك على ضغطهم من الخلف ومن الجانبين.

وصل مازايوس إلى خيمة الملكة الأم فجثا أمامها متقطع الأنفاس، لكنه قال: "أسرعي أيتها الوالدة العظيمة! يتعيّن عليك أن تتبعيني! انهضي الآن وإلا لن تتحرري، ولن تمسكي بزمام السلطة مجدداً. دعيني أصطحبك إلى ابنك!".

لم تتحرك الملكة بالرغم من ذلك، بل جلست على عرشها ساكنةً وقالت: "لا يمكنني أن أتبعك. إنني لا أستطيع امتطاء حصان بسبب سنّي. اتركني هنا كي أنتظر ما يُمكن أن يتمخض عنه هذا اليوم، وبحسب إرادة أهورا مازدا. اذهب ولا تضيّع وقتك معي! يمكنك أن تأخذ معك محظيات الملك وأولادهن إذا تمكنت من ذلك".

حاول مازايوس معها مرةً أخرى: "أتوسّل إليك، أتوسّل إليك!". لكن، ذهبت كل محاولاته سدًى، ولم تتحرك الملكة قيد أنملة.

في تلك اللحظة، اخترق محارب شاب خيمةً أخرى، وهي الخيمة التي كانت بارسين تنتظر فيها نهاية هذه المعركة المرعبة. نزع خوذته، وأطلق خصلات شعره الذهبية وصاح: "أمي! بسرعة! أتيت كي أحرّرك! بسرعة... دعينا ننطلق! خذي حصاناً واتبعيني! أين أخي؟".

صُدمت بارسين لدى رؤيتها الشاب في خيمتها، وصاحت: "إتيوكل! بني". وركضت نحوه كي تحتضنه، لكن، في هذه اللحظة بالذات وصل جنديان أغريانيان شاهرَين سكينيهما الطويلتين. وكان الجنديان قد تلقيا الأوامر بعدم السماح لأي شخصٍ بلمس امرأة الإسكندر. استلّ إتيوكل سيفه، ووقف في مواجهتهما محاولاً دفعهما إلى الوراء، لكنه كان مجرد ولد، ولم تتمتّع ضرباته بالقوة الكافية. ضرب أحد الأغريانيين ذراعه وما لبث سلاحه أن سقط أرضاً، بينما

همّ الآخر بضربه ضربة مميتة. عندها، ألقت بارسين بنفسها إلى الأمام، وراحت تصيح: "كلا! إنه ابني!". تلقت بارسين بجسدها زخم الضربة بالكامل، ووقعت على الأرض فوراً. فشرع إتيوكل، بالرغم من جرحه، في مهاجمة أحد الجنديين شاهراً خنجره بكل شجاعة، لكن الأغرياني ردّ الضربة بضربة أخرى أشدّ منها دقة. فسقط الولد على جسد أمه الميتة ولفظ آخر أنفاسه فوقها.

في هذا الوقت، أُخرج التيساليون الشجعان من المعسكر، واستعدّ جنود مازايوس للانطلاق نحو وسط ميدان المعركة من أجل مباغتة البيزيتاروي، والمشاة التراقيين من الخلف، وهي الوحدات التي كانت لا تزال تقاتل الفرسان الذين كانوا بقيادة بيسوس. ظنّ هؤلاء أنهم ربحوا المعركة، لكن نفيرَ بوقٍ سرعان ما تردّد على نحوٍ مفاجئ، وما لبثت أن ترددت وراءه صرخات *آلالاي!* التي أطلقها آلاف المحاربين.

في تلك اللحظة، ظهرت عبر الطريق الآتية من النهر، ثلاث سرايا من الفرسان التيساليين والمقدونيين المجندين حديثاً، وهم الذين عبروا النهر خلال الليل. شعر كراتيروس الذي جُرحت ذراعه بإنهاك شديد نتيجة القتال، فما كان منه إلا أن تناول العَلَم ورفعه عالياً ما إن رأى الفرسان، ثم صاح: "إلى هناك أيها الرجال!". وبعد ذلك، أمسك بعنان جوادٍ من دون فارس كان ماراً قربه، وامتطى صهوته وانطلق نحوهم. توزع الرجال على جبهةٍ واسعة، وهم يتقدمون بوضعيةٍ هجومية. أخذ كراتيروس مركزه القيادي على رأسهم، وقادهم ضد الميديين والهيراكانيين، وضد الكيسيين والأشوريين الذين كانوا تحت قيادة مازايوس، وشاغلهم في قتالٍ شرسٍ من جديد.

في هذه الأثناء، بدأ مسار المعركة بالتغيّر، فتحرّك الإسكندر بحذر نحو وسط صفوف العدو، وتمكن من تحديد موقع داريوس فوق عربته

الحربية. فتناول ملك مقدونيا رمحاً من حاملته وسدّده. كان الإسكندر محمـــياً مـــن قِبل رفاقه فرمى الرمح بكل ما أوتي من قوة، لكنه أخطأ داريـــوس بالـــرغم من أنه أصاب سائق العربة فقتله على الفور. بدأت الجـــياد تـــركض نحـــو الطرف الشمالي لميدان المعركة، وعندما تمكّن داريوس من الإمساك بأعنة الجياد استمر في قيادها بسرعة رهيبة مبتعداً عـــن ميدان المعركة. تابعت فرقة الخالدين التي أصبحت من دون قائد بسبب انسحاب الملك، القتال بشراسة عنيدة لأنّ الرجال أدركوا أنه لا نجاة لهم، ولم يبدأوا بالاستسلام إلا في وقتٍ متأخرٍ من ذلك المساء بعد أن شعروا بالإنهاك التام.

انتـــشرت الأنباء بأنّ الملك العظيم قد مات بالفعل، ولذلك فرّت فـــرقٍ عدة أخرى. تلقى بيسوس أخباراً من أحد المبعوثين، أفادت أن داريـــوس قـــد فـــرّ من ميدان المعركة، ولذلك أوقف على الفور كل الهجمات ضد اليونانيين المتواجدين في الجناح الأيسر. وخشيَ بيسوس مـــن سقوط تاج الإمبراطور في أيدي المقدونيين، فانطلق مع الفرسان الـــتابعين له للبحث عن الملك الهارب، ولعله فعل ذلك بهدف حمايته، وذلـــك بالنظـــر إلى مسار الأحداث، أو من أجل لعب دور الشخص الوحيد القوي الذي يقرّر مصير داريوس.

في تلـــك الأثـــناء، اكتشف مازايوس الذي كان قد أوشك على إحـــراز النصر، بأنه عالقٌ بين التعزيزات الجديدة المؤلفة من التيساليين والمقدونـــيين، وبـــين كتائب بيرديكاس وبارمينيون الذي بدأ في هذا الوقت هجماته المضادة من جديد، لذلك فضّل أن يستسلم.

14

سار الإسكندر على صهوة جواده في ما تبقى من المعسكر المقدوني، وتنقّل بين الحرائق والركام، وسط الدخان اللاذع الذي علق في الهواء الكثيف والساكن. بحث عن خيمة بارسين، لكن كل ما سمعه لدى اقترابه منها كان بكاء ولد. كان فرآت ينتحب فوق جثتَي والدته وشقيقه اللذين كانا مستلقيين في عناقهما الأخير.

ترجّل الملك، واقترب من المكان. ثمّ صاح بعد أن امتلأت عيناه بالدموع: "لماذا هذه النهاية المرة لمخلوقَين بريئين؟".

جثا الإسكندر إلى جانب الجثتين الداميتين، وما لبث أن مدّد جثة إتيوكل بأكبر قدرٍ ممكنٍ من العناية، ثمّ غطّى الصبي بعباءته. واقترب بعد ذلك من بارسين، وأزاح خصلات شعرها عن وجهها، ومسّد جبهتها برقّة. كانت عيناها لا تزالان تلمعان بسبب الدموع، وبدا أنهما لا تزالان تحدّقان إلى نقطة بعيدةٍ في السماء تعجز عن الوصول إليها صرخات الغضب، وصيحاتٍ الحقد والرعب. كانت تانّك العينان تبدوان وكأنهما بحثتا طويلاً عن حلمٍ عزيز تلاشى نهائياً.

خيّم صمتٌ وهمي على المعسكر المدمر، وهو الأمر الذي أضاف بعداً آخر من الحزن على بكاء الصبي. التفت الإسكندر نحو الولد الذي كان يبكي وقد غطّى وجهه بيديه، وقال له: "لا تبكِ لأنك ابن ممنون من رودس. تشجّع أيها الصغير، تشجّع".

لكن فرآت استمر في ترديد كلماته وهو يبكي: "لماذا ماتت أمي؟ لماذا مات أخي؟". فعجز أقوى ملكٍ على سطح الأرض عن الإجابة

عن سؤاله هذا. فسأله الإسكندر ببساطة: "من قتل والدتك يا فرآت؟ أخبرني وسأنتقم لموتها. أخبرني، أرجوك".

حـــاول الصبـــي أن يجيب، وأشار إلى مجموعةٍ من الأغريانيين الـــذين كانـــوا يجردون أحد الفرسان الفرس من ممتلكاته الشخصية. ففهِم الإسكندر على الفور ما حصل، وأدرك أن الأوامر التي أصدرها لحمايـــة بارســـين مهمـــا كان الثمن هي التي سببت موتها، وموت إتيوكل.

في تلـــك اللحظة، وصلت جماعة من الحمّالين ترافقها دورية من البيـــزيتاروي لأخذ جثة إتيوكل، ولكن الإسكندر أبعد الحمّالين عندما تقدمـــوا لأخذ بارسين، ورفعها بنفسه بين ذراعيه، وأخذها إلى خيمته الـــتي لم تحرقها النيران. وضعها على سريره، وسرّح لها شعرها، وراح يـــداعب وجنتيها الشاحبتين، وما لبث أن قبّل شفتيها اللتين هجرتهما الحـــياة. وأخـــيراً، أغمض عينيها وهمس لها: "نامي الآن يا حبيبتي". ثم أمسك الإسكندر يد فرآت وخرجا من الخيمة.

عاد الجنود من ميدان المعركة، وراحوا يرددون صيحات النصر في أرجـــاء المعسكر. وُضع الجنود الأسرى ضمن منطقة مسوّرة، وفُصِل اليونانـــيون مـــنهم عـــن البرابـــرة، فوضع كل منهم في جهة. وصل هيفاســـتيون وعانقـــه على الفور، وقال له: "أنا آسف لأجلها ولأجل ابنها. كان يجب تجنّب هذه المأساة. من الواضح أن مازايوس قد أصدر أوامره لاختراق جهتنا اليمنى وتحرير أسرة داريوس، وكاد أن ينجح في تحقيق ذلك لأن بارمينيون كان جريحاً مثل بيرديكاس وكراتيروس، كما أننا تكبدنا خسائر كبيرة في الأرواح".

كانـــت نساء الملك العظيم وأولادهن يُنقلون في تلك اللحظة إلى بقعةٍ أكثر أمناً، حيث نُصبت خيمة جديدة. رأى هيفاستيون كاليستين

مـــع جماعةٍ من الأشخاص، وكان متبوعاً بخدمٍ يحملون صندوقه المليء بأوراق البردى التي تحمل كتاباته، بالإضافة إلى أمتعته الشخصية.

حـــيّاهم الإسكندر بإيماءةٍ منه، والتفت إلى صديقه وسأله: "كم العدد؟".

"إنـــه عدد كبير. يبدو أنه نحو ألفي رجل، إن لم يكن أكثر. لكن الفرس تكبدوا خسائر هائلة. إذ توجد آلاف وآلاف الجثث مبعثرة في السهل، كما قُتل آخرون عندما كنت أتحدث إلى فرساننا".

"ماذا بشأن داريوس؟".

"فـــرّ مع بيسوس، ربما نحو سوسا أو بيرسيبوليس، لست متأكداً. لكننا تمكّنا من أسر مازايوس".

فكّر الإسكندر قليلاً بينه وبين نفسه، ثم سأل: "هل هناك أيّ خبرٍ عن آرتابازوس؟".

"أعـــتقد أنـــي رأيته بين أعيان الفرس الذين أسرناهم، وهو مع مازايوس إذا لم أكن مخطئاً".

"خذني إليه".

"لكـــن الجنود ينتظرون رؤيتك، وهم متشوقون إلى سماع خطبة النصر التي ستلقيها عليهم... حارب الرجال مثل الأسود".

قـــال الإسكندر: "خذني إليه يا هيفاستيون". ثم أشار إلى بارسين وإتـــيوكل قائلاً: "وأريدك أن تصدر أوامرك إلى شخصٍ ما كي يعتني بهما". في هذه اللحظة، كان الحمالون يضعون الابن إلى جانب والدته. التفت بعد ذلك إلى فرآت، وقال له: "تعالَ معي".

جمع إيومينيس قادة الفرس، أي المرزبانات وقادة الجيش، وأقارب الملـــك العظيم في مكانٍ بعيدٍ عن ميدان المعركة ووضعهم داخل الخيمة الكبيرة التي تُستخدم لعقدٍ مجالس الحرب. أعطى الأمين العام أوامره بأن

يهتم جراحو الجيش وأطباؤه بكل من يحتاج إلى عناية طبية، وكذلك أوصى بالاهتمام بمئات الجرحى الذي يصرخون من أماكنهم في ميدان المعركة طالبين المساعدة.

دخل الإسكندر، فانحنى جميع الفرس احتراماً له، لكن بعض الرجال تجاوزوا ذلك واقتربوا منه راكعين بحيث كادت جبهاهم تلامس الأرض، وما لبثوا أن رفعوا أيديهم اليمنى إلى شفاههم كي يبعثوا إليه بقبلة.

سأل الإسكندر إيومينيس: "ما هذا؟".

"إنها عادة فارسية، وهي قبلة مخصصة فقط للإمبراطور بذاته. إننا في اليونان نطلق عليها اسم **بروسكينيسيس**. تعني هذه القبلة أن الرجال يعترفون بك حاكماً شرعياً وملكاً عظيماً، وملك الملوك".

لم يترك الإسكندر في هذه الأثناء يد فرآت، كما أنه بحث عن وجهٍ معينٍ بين الحاضرين. قال بعد ذلك: "يدعى هذا الصبي فرآت، وهو ابن ممنون من رودس وبارسين. سلبته الحرب والديه بالإضافة إلى أخيه إتيوكل". وشاهد في أثناء حديثه هذا عينَي نبيلٍ مسنٌ كان يجلس في آخر صفٌ في الخيمة وهما تفيضان بالدموع، فعرف أن هذا هو الرجل الذي يبحث عنه. بدأ بالكلام مجدداً: "آمل أن يكون جدّه المرزبان آرتابازوس بينكم، وهو آخر فردٍ بقيَ حياً من الأسرة، وآمل أن يعتني بفرآت".

تقدم العجوز وقال بالفارسية: "أنا جدّ هذا الصبي. يمكنك أن توكل إليّ أمر العناية به إذا أردتَ ذلك".

ما إن أنهى المترجم ترجمة كلام الجدّ حتى انحنى الإسكندر نحو فرآت الذي كان يجفّف وجهه بكم عباءته، وقال له: "انظر، جدّك هنا. اذهب إليه".

نظر الصبي إلى الإسكندر بعينين مليئتين بالدموع وراح يتمتم: "شكراً لك". وركض بعد ذلك إلى جدّه العجوز الذي جثا على ركبتيه وضمّه إليه. خيّم الصمت على كل الموجودين، وما لبثوا أن تنحوا جانباً، وفتحوا ممراً بين مكان الإسكندر وآخر الخيمة. كان كل ما يُسمع في تلك اللحظة هو نشيج الصبي، والبكاء الهادئ للمرزبان العجوز. تأثّر الإسكندر كثيراً، فالتفت نحو إيومينيس وقال له: "اتركهما الآن مع أحزانهما، ثم رتّب جنازة بارسين بحسب ما يريده والدها، وقل له إنه سيُعاد تثبيته في منصبه كحاكمٍ بامفيليا. سيحتفظ الرجل بكل امتيازاته وممتلكاته، ويمكنه أن يعلّم الولد بالطريقة التي يراها مناسبة".

جذب شخص آخر انتباهه، وكان محارباً محنكاً لا يزال محتفظاً بدرعه، ولا يزال يحمل آثار المعركة على جسمه ووجهه.

همس إيومينيس في أذنه: "إنه مازايوس". فهمس الإسكندر بدوره شيئاً في أذن إيومينيس قبل أن يغادر المكان.

عاد إلى وسط المعسكر حيث استقبله الجيش بحفاوةٍ بارزة. اصطفّ الجنود في ستة صفوف يرافقهم جميع ضباطهم؛ الفرسان منهم والمشاة. أعطى بارمينيون الأمر، بالرغم من الجروح التي أصيب بها، للجنود بتقديم السلاح، وما لبث الهيتايروي أن رفعوا رماحهم، بينما قدم البيزيتاروي سلاحهم بدورهم فانبعثت منها أصواتها في الوقت ذاته. وقف رفاقه بدورهم لتحيته بكل فخر، وكذلك عرض كراتيروس وبيرديكاس جروحهما التي أصيبوا بها في ميدان المعركة.

امتطى الملك صهوة بوسيفالاس حتى وصل إلى رابيةٍ صغيرة، والتفت من ذلك المنبر الطبيعي نحو جيشه كي يشكر جنوده ويحييهم، وصاح قائلاً: "أيها الرجال!". وعلى الفور، خيّم على المكان سكون

عظـــيم، لم يكسره سوى حسيس النيران التي لا تزال مشتعلةً في ميدان المعـــركة. "أيهـــا الرجال! لقد حلّ المساء تقريباً، ولقد انتصرنا، كما وعدتكم!".

دوّت في الأجـــواء هتافات امتدت من طرف المعسكر إلى طرفه الآخـــر، كمـــا بدأ الجنود ينشدون بإيقاع قوي، وازداد قوة ووضوحاً وسط كل هذا الضجيج الناتج عن رنين الأسلحة، إلى أن وصل صوتهم إلى السماء: "إسكندر! إسكندر! إسكندر!".

"أريد أن أشكر أصدقاءنا التيساليين والفرسان المقدونيين الآخرين الـــذين أتـــوا إليـــنا اليوم، ووصلوا في الوقت المناسب تماماً من أجل المشاركة في القتال وتغيير نتيجته. كنت أنتظركم بلهفة أيها الرجال!". فردّ التيساليون والمقدونيون التابعون للسرايا الجديدة بالهتافات. "أرغب كـــذلك في شـــكر حلفائـــنا اليونانيين الذين صمدوا بثباتٍ في ميمنة الجـــيش. فأنـــا أعرف أن ذلك لم يكن سهلاً!". بدأ اليونانيون بقرع ســـيوفهم على دروعهم. عاد الإسكندر للكلام مجدداً: "إن كل آسيا تحـــت سيطرتنا الآن، بكل كنوزها وعجائبها. إننا قادرون على تحقيق كل الإنجازات، وقادرون على صنع العجائب، ولا توجد حدود نعجز عن عبورها. سأقودكم إلى أطراف الأرض. هل أنتم مستعدون لتتبعوني يا رجال؟".

فـــصاح المشاة والفرسان وهم يرفعون رماحهم ويخفضونها: "نحن مستعدون أيها الملك!".

"إذاً، اسمعـــوني! سندخل بابل الآن، وسترون أكبر المدن وأروعها في العالم، وستتمتعون بالراحة بعد كل هذا الجهد. سننطلق بعد ذلك في زحفنا مجدداً، ولن نتوقف حتى نصل إلى ضفاف آخر نهرٍ في العالم، أي نهر الأقيانوس".

بـــدأ نـــسيم لطيف بالهبوب، لكنه ازداد قوةً حيث كوّنَ غلالة خفيفة من الغبار، وجعل تيجان خوذات المحاربين تهتز قليلاً. بدا أن هذه الـــرياح قادمة من مكانٍ بعيد حاملة معها أصواتاً تكاد تكون منسية. شعر الملك بالحنين إلى الوطن مع قدوم الظلام. وشعر بمدى الحنين الذي أحـــسّ به رجاله نتيجة كلماته، فقال: "أفهمكم، وأعرف أنكم تركتم زوجـــاتكم وأولادكم وتريدون أن تروهم، لكن الملك العظيم لم يُهزم بالكامل بعد، لأنه تراجع إلى أبعد زوايا إمبراطوريته، وهو يأمل أننا لن ننجح في ملاحقته إلى ذلك الحد. لكنه مخطئ! أنا لن أنتقد أي شخصٍ مـــنكم إذا أراد الـــرجوع. ولكن، إذا فضّلتم أن تتابعوا الدرب معي، فسأكون فخوراً بقيادة رجالٍ أمثالكم. سيوزّع إيومينيس ابتداءً من الغد ثلاثة آلاف قطعة فضية على كل واحدٍ منكم، وسيعطيكم أموالاً أكثر عـــندما نقهر عواصم أخرى تحوي كنوزاً عظيمة. سنبقى في بابل لمدة ثلاثـــين يوماً، وهكذا سيتوفر لديكم متسعٌ من الوقت كي تفكّروا في هـــذا الموضوع. سيتلوا إيومينيس لائحة الأسماء كي نعرف من سيعود إلى الوطن، ومَن يريد أن يتبعني في هذه المهمة الجديدة. انصرفوا الآن، وجهّزوا أنفسكم لأننا سنستأنف زحفنا مجدداً يوم غد".

أطلـــق الجـــنود هتافات حماسية طويلة، أما الإسكندر فقد نخس جواده بقدميه، وسار به مجدداً بسرعة من أمام صفوف الجنود. وأشار إلى رفاقـــه، فساروا معه نحو المعسكر الفارسي الذي وُضع تحت مراقبةٍ مـــشددةٍ مـــن قِـــبل رجـــال فـــرقة الطليعة، وفرقةٍ من جنود الصدم الأغريانيين.

بدا الأمر مستحيلاً، لكن الخيمة الملكية كانت أكثر فخامةً وترفاً من تلك التي رآها في إيسوس بالرغم من احتوائها على خدمٍ أقل. عثر الإســـكندر ورفاقـــه على ما يزيد على مئتي تالنت من النقود الذهبية

والفضية، وهي النقود التي كانت تُستخدم من أجل دفع أجور المرتزقة والمجـــندين الجدد في الجيش، أما إيومينيس فقد بدأ على الفور بتحضير الجردة.

دعـــا الملك أصدقاءه للجلوس معه، ثم أمر الخدم بتقديم الطعام، ثم بدأ بالأكل.

تـــأوه ليوناتوس بصوت عال، وقال: "لا أستطيع أن أصدّق ذلك أيها الفتيان، لكنني أعتقد أنه كاد يُقضى علينا اليوم. مرّت فترة اخترقوا فـــيها جهة بارمينيون، بينما بيسوس يهاجم اليونانيين من جهة اليمين، وكنا في الوسط مثل جماعة من البلهاء".

قـــال ســـلوقس: "إذاً، هذه كانت المفاجأة التي أعدها لنا، أي التعزيـــزات التي وصلت من مقدونيا وتيساليا. لكن، كيف عرفتَ أن هـــذه التعزيـــزات ستـــصل في الـــوقت المناسب؟ فلو مضت ساعة أخرى...".

فـــتابع ليوناتوس: "لكان الفُرس قد أحرقونا بالنار، بينما الغربان تـــنهش رؤوســـنا قبل أن تقلع أعيننا. هذا ما تبدأ به الغربان عادة... أتعرفون ذلك؟".

قـــال الإسكندر مقاطعاً إياه: "كفى! ليست لديّ رغبة في المزاح هذه الليلة". وبعد ذلك، التفت إلى سلوقس قائلاً: "تكفل القائد أنتيباتر بكل شيء، وكنت أستلم أخباراً عن التحركات اليومية للتعزيزات بعد أن تحـــرّكنا مـــن صـــور، لـــذلك كنت متأكداً من أنهم سينجحون بالوصـــول. على كلّ حال، سنعرف المزيد من التفاصيل بعد لحظات لأننا نتوقع زواراً".

تناهى إلى أسماعهم صوتٌ من مدخل الخيمة يقول: "لا شيء أكيد أبـــداً يـــا سيدي المتألق. ولو صبّت السماء كميةً أكبر من المطر فوق

الجبال في الليلة الماضية، لكانت تعزيزاتك من التيساليين والمقدونيين قد علقـــت في الجهـــة الأخرى من الفرات بانتظار انحسار تدفق المياه، أو بانتظار أن يقطعكم داريوس إرباً إرباً".

ومـــا إن ميّـــز الإسكندر صاحب الصوت حتى قال: "ادخُل يا إيمولـــبوس. أظن أنك قلت لي إنه يجدر بـــي أن أثق بمازايوس؟ كانت العملـــية التي قام بها من أخطر العمليات على الإطلاق، وكاد أن ينجح في مهاجمتنا من الخلف".

ســـأل إيمولبوس لدى دخوله مصطحباً الرجل الذي رآه في خيمة السجناء: "لماذا لا تسأله؟ إنه هنا بحسب ما أمرتَ به تماماً".

دخـــل المرزبان، وسار مباشرة نحو الإسكندر، وانحنى كثيراً حتى وصـــلت جبهـــته إلى ما فوق الأرض بقليل، وما لبث أن رفع يديه إلى شفتيه، وأطلق قبلةً في الهواء.

قـــال الإســـكندر: "أرى أنـــك تعلن ولاءك لي بصفتي مليكك. ولكن، لو صدّقت وعدك لكانت الكلاب والطيور منشغلة بلعق عظامنا في هذه اللحظة".

وقـــف المـــرزبان وقال بلغةٍ إغريقية سليمة: "أتسمح لي بالرد يا مولاي؟".

"أسمـــح لـــك بالطبع. اجلسا أنتما الاثنان لأن هناك موضوعات عديدة أريدكما أن تشرحاها لي".

15

استمرّ الحديث حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، وفي النهاية، اعترف مازايوس بأنه أراد أن يحترم الوعد الذي قطعه للملك داريوس، والذي يقضي بأن يعيد إليه عائلته، وهذا هو السبب الذي دفعه لشنّ هجومٍ شرسٍ على الجيش المقدوني. وأشار إلى أنه كان في استطاعته أن يشنّ هجوماً أكثر شراسةً على المعسكر المقدوني؛ وهو الهجوم الذي كان يُمكن أن يؤدي إلى نهب المؤن، وحتى إلى القضاء على وحدات الفالانج، التي كانت تزحف نحو وسط الجبهة الفارسية معرضةً ظهور جنودها لسهام الفرس.

سأله الإسكندر: "ولماذا لم تفعل ذلك؟".

قال بارمينيون مقاطعاً: "لأنه لم يستطِع. كنا لا نزال نقاتل، وكان ينبغي لهم أن يبيدونا أولاً".

"هذا ممكن. لكن ذلك سيقودنا إلى نقاشٍ لا نهاية له. يمكنك يا مازايوس الإجابة عن سؤالي".

"إنني بابلي أيها الملك العظيم، ويُعرف البابليون في العالم أجمع بأنهم قادرون على قراءة إشارات حركات النجوم والأبراج. رأى كاهننا نجمك يسطع بتألقٍ أشد من غيره وسط السماء الداكنة، وكان يفوق تألق نجم داريوس بكثير. لا أستطيع أن أقف في وجه الإشارات المكتوبة هناك في الأعلى".

ردّ الإسكندر: "أنا متأكد من أنني أفهم الأسباب التي دفعتك لهذا التصرف يا مازايوس. لكن، يمكنني أن أقول إنك قاتلتَ بشجاعة،

علـــى حدّ علمي، إلى جانب ملكك وأسرته، وهذا هو السبب الذي يدفعني لمكافأتك، وليس بسبب ما قلتَه عن تلك النجوم والأبراج التي يلفهـــا الغمـــوض... ولأجل ذلك سأثبّتك، في مركز مرزبان بابل، وستحظى بدعم الحامية المقدونية التي سأتركها هنا كي تضمن تثبيت سلطتك".

كانـــت هـــذه خطوةً ذكية تهدف إلى تثبيت حاكمٍ محليّ ناجح، ووضـــعه تحت المراقبة المباشرة للسلطات العسكرية المقدونية، والسماح لـــه في الـــوقت ذاتـــه بأن يُظهر نفسه كحاكم شهم. أظهر إيومينيس موافقته بإيماءة من رأسه.

انحنى مازايوس إلى حدٍّ يفوق الانحناءة السابقة وقال: "أيعني ذلك أنني حرٌّ بالعودة إلى بابل؟".

"ســتعود إلى قــصرك أيهـــا المرزبان، والآن إذا أردت، مع كل مرافقيك الشخصيين".

وقـــف مازايوس وأغضى عينيه ثم قال: "لن يدفعني أي شيء من الآن فصاعداً إلى نسيان الولاء الذي أقسمت بشرفي عليه أمامك".

"أشـــكرك يا مازايوس. لكن دعونا نرتاح الآن. كان هذا أصعب يـــومٍ في حياتي، أما في الغد فسنشرف على دفن رفاقنا الذين سقطوا في المعركة".

نهـــض الجميع، وامتطوا صهوات جيادهم مبتعدين نحو المعسكر. لكـــن الإســـكندر أمسك بعنان بوسيفالاس، وبدأ يسير مبتعداً. وبعد قلـــيل، ظهر إيمولبوس من سولوي خلفه، وسأله: "أتمانع إذا تنـــزهت معك قليلاً؟".

"لا، أبداً. فبعد يومٍ كهذا، أعتقد أن المشي هو أفضل شيء يمكننا القيام به للاستمتاع بهدوء هذا المساء".

"سمعتُ ما حدث لبارسين وولدها. إنني آسفٌ فعلاً. قلتُ لك إنه موجود في معسكر داريوس، لأنني خشيتُ أن يُقدم على عملٍ متهور".

بدا وجه الإسكندر شاحباً وسط ضوء القمر، وقد أحاط به شعره الطويل فبدا مثل وجه ولدٍ أكثر من أي وقتٍ مضى، لكنه أجاب: "كل الشبان هكذا. فعل ما كان يعتقد أنه الصواب، ومات مثل بطلٍ في ريعان شبابه، وسنستمر في البكاء لأجله. لكن الإنسان لا يستطيع التأسف بسبب بقائه على قيد الحياة، لأنه ما من أحدٍ يعرف ما قد يجلبه الغد. يُحتمل أن يكون ما ينتظرنا أسوأ من الموت بكثير، مثل الأمراض التي تغيّر أشكالنا، أو التشوّهات المخزية، أو العبودية، أو التعذيب...".

تابع إيمولبوس السير محاولاً الإبقاء على وتيرة سير بوسيفالاس البطيئة بينما كان يتبع سيّده. مسّد الإسكندر عرف الحيوان وقال: "مسكين بوسيفالاس. لم يتسنَّ لنا الوقت كي نغسله ونزيّنه".

"أو ربما لم ترغب، ببساطة، في أن تبتعد ولو للحظةٍ واحدة عن صديقٍ ساعدك على قهر العالم في هذا اليوم".

ردّ الإسكندر موافقاً من دون أن يضيف أي شيء: "هذا صحيح".

في تلك اللحظة بالذات، سمعا أشخاصاً يئنّون بالترافق مع أصوات نايات حزينة، وما لبثا أن شاهدا مصابيحَ تتحرك في السهل في ما يشبه الموكبَ نوعاً ما. فَهِمَ الملك ما يجري، فسار في طريق مختصرة كي يصل إلى آخر الموكب الذي كان يتحرك على شكل دائرةٍ واسعة نحو رابيةٍ صغيرة محاطة بربوةٍ من الأحجار. توقف إيمولبوس وتمتم: "اذهب يا ولدي ورافقها إلى مثواها الأخير". وتحرّك مبتعداً بمشيته المتمايلة نحو المعسكر المقدوني. أما في الجهة الأخرى، وخلف خيمة داريوس، فقد بدأت العقبان، والطيور المفترسة الأخرى، بالنزول كي تشارك في المأدبة التي تمثلت بميدان الموت الفسيح.

وصـــل المـــوكب إلى أعلى التلة، وقام حاملو النعش بوضعه فوق ربوة من الأحجار التي سبق لهم أن حضّروها. كانت تلك الربوة عبارة عـــن أحد *أبراج الصمت*. وضع الرجال أربع مِبخرات على زوايا تلك الربوة الصغيرة، وأطلقت كل واحدة منها سحابة من البخور ذي اللون الأزرق الفـــاتح، ثم غادروا. تحرّك الإسكندر، الذي كان قابعاً بمفرده بهدوء حتى تلك اللحظة، نحو جثة بارسين. كانت الجثة منظفة ومعطرة. لم تتغيّر ملامحها، وبدت عيناها وكأنهما مغمضتان قليلاً، وكانتا توحيان بأنهـــا نائمـــة. ألبسوها ثياباً بيضاء، ووضعوا تاجاً من زهور الصحراء الـــصفراء حـــول رأســـها. وقف الإسكندر أمامها بمفرده فعادت إليه ذكرياته معها وكأنها طوفان من الصور. رآها تبتسم من جديد، وشاهد دمـــوعها كـــذلك، وشعر بقبلاتها الدافئة. بدا له أنه من المستحيل أن ينتهـــي كل شيء، وأن يذوي جمالها الذي فقدَ الحياة الآن لدى موتها. نـــــزع العـــصابة الذهبية عن رأسه ووضعها في يديها، ثم قبّلها للمرة الأخيرة وقال لها: "وداعاً يا حبيبتي، لن أنساكِ أبداً".

تراجعت أصداء المعركة الشرسة، وتراجعت معها ذكريات صوتها الناعم وجمالها الهش، وراء ستائر تلك العزلة التامة، وأدرك أن كل ذلك لم يعد أكثر من ذكريات الآن. أحدثت كل هذه الأمور فراغاً كبيراً في نفـــسه، وأعـــادت إلـــيه خوفاً من العتمة يشبه الخوف الذي يشعر به الأطفـــال. وللحظـــة، غرق في حزن وكآبة لا قرار لهما، وجثا على ركبتيه وبكى. ثم أسند رأسه على الربوة الحجرية ونادى اسمها أكثر من مرة.

بعد ذلك، نهض كي ينظر إليها للمرة الأخيرة، فلاحظ أنّ جمالها لا يـــزال كما هو، وقرّر أنه لن يتقبل أن تنهش الكلاب البرية والطيور المفترسة جسدها. فعاد إلى المعسكر، وأمر إيومينيس بتشييد قبر حجري

لها كي يحمي بقاياها. لم يوافق الإسكندر على استئناف الزحف إلا بعد أن تأكد بنفسه من أن بناء القبر قد اكتمل.

16

زحـــف الجـــيش مجـــدداً بعد أن تم الانتهاء من دفن كل الجنود اليونانيين والمقدونيين الذين سقطوا في المعركة، لأنه لم يتوافر ما يكفي مـــن الحطـــب لبـــناء محارق للجثث. فلقد تسمّم الهواء بفعل الحرارة والـــرطوبة، وبـــسبب ذلك العدد الكبير من جثث الجنود الفرس التي كانت تتحلل في أرجاء السهل. الأمر الذي أدّى إلى إصابة بعض الجنود بحمى من نوعٍ مجهول والتي لم يجدِ أيّ دواء معها.

وصـــل الجـــيش إلى معبر نهر دجلة مجدداً، فعبر الجنود إلى الضفة الغربية من النهر قبل أن يبدأوا بالتحرك نـــزولاً نحو بابل.

أما في المرحلة الرابعة من هذه الرحلة، وبينما كانوا يعبرون منطقةً تدعـــى أديـــابين، تقدم أحد الضباط المرافقين لمازايوس من الإسكندر، وأخـــبره بوجود ظاهرة طبيعية مدهشة ينبغي له رؤيتها، وكانت عبارة عن نبعٍ من النفط!

سأل الملك: "النفط؟".

وتذكّـــر الملك أن أرسطو قد أحرق بعض النفط الذي أُرسل إليه مـــن آسيا عندما كانا في ميبزا، وتذكّر ذلك الدخان الكثيف والرائحة اللاذعـــة الـــتي فاحت منه. كما تذكّر قارب النار الذي أطلقه سكّان صـــور ضدّه في إحدى الليالي، وهو الأمر الذي تسبب باشتعال أبراج الهجوم، وتذكّر أن الجو في اليوم التالي ظلّ مشبعاً بتلك الرائحة القوية. سار الإسكندر وراء الضابط الذي قاده إلى حفرة كانت النيران تشتعل فـــيها باستمرار مطلقةً في الهواء عموداً كثيفاً من الدخان. انتشرت في

ذلــك المكـــان بقعة نفطية سوداء وكبيرة، وبدت مثل مستنقعٍ يطلق انعكاساتٍ غريبة، وتنبعث منه رائحة كريهة. وكان كاليستين قد سبقه إلى المكان، ورآه الإسكندر وهو يأخذ عينة من ذلك السائل مستخدماً إناءً زجاجياً.

"أرغب في إرسال عيّنةٍ من هذا السائل إلى خالي كي يستخدمها في تجاربه".

سأل الإسكندر: "لكن، ما هي طبيعة هذا السائل بالضبط؟".

"حسناً... يصعب علينا تحديد ذلك. إن مذاقه مقرف جداً إلى أبعد حـــدود التـــصوّر، وكذلك رائحته ومظهره. يُحتمل أنه نوع غريب من الـــسوائل الـــتي تفرزها هذه الأرض التي تحرقها أشعة الشمس. ونحن نعلم كذلك أنه سائل قابلٌ للاحتراق، ويولّد كمية كبيرة من الحرارة. انظر!".

في تلـــك اللحظة، كان عدد من الجنود قد تجمّعوا بناءً على أوامر من ضباطهم. راح الجنود يملأون بعض القراب بهذا السائل، كما نشروا خطّين منه على طول الطريق المؤدية إلى المعسكر. وتناول أحد الضباط مشعلاً من يدَي أحد رجاله وأشعل الخطّين، وسرعان ما ارتفع جداران مـــن ألـــسنة اللهب على الفور واتجها نحو المخيّم. فغر كل الحاضرين أفـــواههم من فرط الدهشة. واستمرت هذه المادة الغريبة في الاشتعال على طول المسار، ورافق اشتعالها ستاران كثيفان من الدخان، والحرارة التي لا تُحتمل.

أخـــذ الإسكندر حماماً كي ينظّف جسمه من الرائحة التي علقت في شـــعره. وبيـــنما كانـــت ليبـــتين منشغلة بتنظيفه تحدث الملك إلى هيفاســـتيون وبطليموس وكاليستين، بالإضافة إلى مدلّكٍ جديد وصل حديـــثاً من أثينا ويُدعى أثينوفان، جاء برفقة مساعده الذّي كان صبياً يدعى ستيفانوس.

قال الملك: "يُمكن استخدام هذا النفط كسلاح، وذلك بحسب ما رأيته. تصوروا تأثيره إذا استعملناه ضدّ أعدائنا!".

قال المدلّك الذي كان شاباً حضر سابقاً بعض دروس الفلسفة: "سبق لي أن سمعت أن النفط لا يناسب هذه الاستخدامات. إن نوع النيران التي تنتج عن احتراق هذا السائل غريب تماماً. يعرف الجميع أن النار عنصرٌ أثيري وسماوي ينتقل عبر الهواء ناشراً معه الحرارة والضوء. وبالمقابل، يأتي النفط من الأرض، ولا يحترق إلا بعد أن يحتك بأرضٍ قاحلة تماماً مثل الرمل أو التراب كثير الرطوبة، أي مثل الأرض الموجودة في جنوب بابل. لا يحترق النفط عند وقوعه على مادة معتدلة اللزوجة. ولذلك لا يمكن أن يحترق الإنسان بنارها، ولا شكّ في ذلك".

قال كاليستين معترضاً: "تبدو لي هذه فرضيةً غير مؤكدة. يصعب علينا تطبيق التوصيفات الفكرية على الظواهر الفردية المادية التي تخضع لتأثير عددٍ كبير من المكوّنات غير القابلة للقياس. يُضاف إلى ذلك...".

فردّ أثينوفان عندما خرج الإسكندر من حوض استحمامه، وبدأت ليبتين بتجفيف المياه بمنشفة من الكتان: "إنني متأكد مما أقوله، كما أن مساعدي ستيفانوس سبق له أن سمع معلّمي السفسطائي هيرميبوس وهو يشرح هذه النظرية".

صاح الصبي ولعله أراد بذلك - وبكل بساطة - أن يجذب الانتباه إليه، بالإضافة إلى التزلّف قليلاً إلى الإسكندر بطريقة ما: "إنني مستعد في واقع الأمر لتوضيح هذه النظرية بنفسي، هنا والآن أمامكم جميعاً!".

قال الملك: "لا أعتقد أن الأمر يستحق هذا القدر من الاهتمام، لذلك من الأفضل أن ننساه".

ومـــع ذلك، أصرّ الصبيّ على فكرته، وخاصةً بعد أن دعمه أثينوفان الـــذي تابع الكلام بطلاقة عن نظرياته الفلسفية. لم يُنهِ الرجل كلامه حتى ظهـــر خادم يحمل بعض النفط، وسرعان ما بدأ ستيفانوس الشاب بوضعه على جسمه بكل عناية. فبدا وكأنه يدهن جسمه بزيت الزيتون.

ثم تناول أثينوفان مشعلاً وأعلن: "سأُظهر أمامكم الآن أن النفط لا يحترق في وسطٍ مليء باللزوجة مثل جسم الإنسان". وقرّب الرجل المـــشعل من جلد الصبـــي. وسرعان ما لفّت غلالة من اللهب جسم ستيفانوس بلمح بصر منتجة حرارةً عظيمة. ومسّت صرخات الألم التي أطلقها الصبـــي شغاف قلوب الحاضرين الذين أسرعوا إلى تناول دلاء كانت قربهم، لحسن الحظ، وصبوا المياه الموجودة في حوض الاستحمام على جسم الصبـــي. ومع ذلك، لم تنطفئ النار بسهولة.

اســـتدعى الإسكندر فيليب على الفور، فاعتنى الطبيب بالصبـــي بـــسرعة، ودلّك له المناطق المحترقة من جلده بمراهمَ معيّنة. تطلب الأمر مـــن الطبيب بذل قدرٍ كبيرٍ من الجهد من أجل إنقاذ حياة الصبـــي. وبالـــرغم من ذلك، أصيب ستيفانوس بتشوهاتٍ خطيرة في كلّ أنحاء جسمه، وتدهورت صحّته.

عـــندها، نـــصح كاليستين الجميع بالابتعاد عن هذا السائل ذي الـــرائحة المـــؤذية حتى ينتهي خاله أرسطو من أبحاثه ويكتشف ميزاته الحقيقية. وتابع الجيش رحلته في اليوم التالي.

*

ومـــع تقـــدّم الجيش تحوّل السهل إلى أرضٍ أكثر خصوبة وغنًى. وتـــوزع في هذه المنطقة عددٌ كبيرٌ من الأقنية التي تصل نهر دجلة بنهر الفرات. وتناثرت في هذه الأراضي الريفية قرًى عديدة انشغل فلاحوها بتحضير الأرض للبذار.

وفي كل الأمكنة التي توقف فيها الجيش، كان الفلاحون يقدمون إليه الأصناف التي تختص بها قراهم، وعلى الأخص البلح الناضج الذي كان لذيذاً ومنعشاً. أما شراب البلح فقد كان ثقيلاً على معداهم، وكثيراً ما سبب الصداع للجنود. ولكن، لم يتوافر لهم أي بديل، لأن الشراب العادي، وحتى أفضل أنواعه، لم يتمكن من الصمود في ذلك المناخ، كما أن مياه الشرب كانت رديئة بدورها. أما التمور فكانت ممتازة، وكذلك كانت ثمار الرمان التي تنمو أشجارها في هذه المنطقة بكثرة؛ إذ كانت لذيذة بشكلٍ لا يوصف.

رأى الجنود كذلك مساحات واسعة من الحقول المليئة بالفلاحين الذين كانوا يستخدمون نظام الأقنية ذات مردّات، لكن الإسكندر اعتبر أن هذا النظام غريب بعض الشيء. استفسر كاليستين عن هذا النظام فأخبروه أنه يخلّص الأرض تدريجياً من الملح الذي يتكون على السطح بسبب الحرارة القوية، وهكذا يتم الحفاظ على خصوبة الأرض.

قال بطليموس: "إن ما يفعلونه هنا تقليد صناعي لما يحدث في مصر بطريقة طبيعية لدى فيضان نهر النيل. أعتقد أن هذه ميزة تتصف بها المناطق ذات المناخ شديد الحرارة. أما الأمر المفاجئ هنا، فهو عدم وجود التماسيح في نهر دجلة، وكذلك في نهر الفرات، ولعل هذه الحيوانات لا تستطيع العيش إلا في مياه نهر النيل".

لم يوافق نيرخوس على هذه الفرضية وقال: "أبداً، على الإطلاق. سبق لي أن سمعت قصة رجلٍ من ماساليا كان قد أبحر إلى ما وراء أعمدة هرقل وبمحاذاة الشاطئ الأفريقي حتى وصل إلى مصبّ نهر يُسمّى كريتيس، والذي كان يعج بالتماسيح".

قال الإسكندر متنهداً: "وراء أعمدة هرقل... إن حياة المرء قصيرة جداً حيث لا تسمح له برؤية العالم بأكمله!". فكّر الإسكندر بهذه

اللحظـــة في إســـكندر إيبيروس، وفي موته في هيسبيريا الذي لم يُثأر له بعد.

أشرفت الرحلة على الانتهاء، لكن الزحف أصبح أقرب ما يكون إلى الاستعراض لأن السكان المحليين خرجوا من منازلهم في كل الأماكن الـــتي مرّوا بها، واصطفّوا بمحاذاة الطريق للتصفيق لمليكهم. بعد ذلك، تجـــاوز المشهد كل التوقعات الممكنة ليصل إلى حدّ الأعجوبة. حدث ذلـــك عندما ظهرت أمامهم عند الأفق أسوار، وأبراج، وحدائق هرميّة الشكل في أكثر المدن شهرة في العالم؛ مدينة بابل!

17

كـــان الاســـتقبال الذي لقيه الفاتح الشاب في بابل خيالياً. فقد اصـــطفّ ألـــوف الشباب، من الفتيان والفتيات على حدٍّ سواء، على جـــوانب الطريق المؤدية إلى المدينة، وراحوا يرمون الأزهار أمام جواد الإســـكندر. بدا أن بوابة عشتار المهيبة، والتي يبلغ ارتفاعها مئة قدم، والمكسوة ببلاطٍ لامعٍ يحمل رسومات لتنانين وثيرانٍ مجنحة أكثر إشراقاً مـــع تقدم الملك ورفاقه متبوعين بالجيش بمختلف تشكيلاته مع الجنود والضباط وقد ارتدوا كلهم دروعهم اللامعة.

أما سكان المدينة فقد وقفوا فوق سياجات الأبراج المحيطة بالبوابة وبمحاذاة الأسوار الضخمة، التي كانت متسعة كثيراً حيث تسمح بمرور مركبتين جنباً إلى جنب من النوع الذي تجرّه أربعة جياد. كان السكان متشوقين إلى رؤية الملك الجديد الذي هزم الفرس ثلاث مرات في فترةٍ تقـــل عـــن الـــسنتين، كما أجبر مدينتين محصنتين تحصيناً جيداً على الاستسلام.

حيّا أشراف المدينة الإسكندر ورافقوه كي يقدّم أضحيةً في الهيكل المدرّج الذي يشرف على المساحة المبجّلة الواسعة. صعد الإسكندر مع رفاقه وقادة جيشه، أمام حشدٍ كبير، الدرج الذي يؤدي من شرفةٍ إلى أخرى، ليصل إلى الهيكل الذي يقع فوق القمة.

تمكّـــن الملـــك من ذاك المكان العالي من النظر إلى المشهد الذي انبـــسط أمامه، ومن استيعابه. فقد امتدت بابل أمامه من المكان الذي يقـــف فيه، وظهرت بأسوارها التي لا نهاية لها، وشاهد الحصن المثلث

الـــذي يحمي القصر الملكي، ورأى كذلك القصر الصيفي الذي يقع في الجـــزء الشمالي من المدينة. وأمكنه أن يرى دخان البخور المتصاعد من أكثـــر من ألف هيكلٍ منتشرٍ في المنطقة السكنية الكبيرة. لاحظ الملك الطـــرقات الواســـعة والمستقيمة التي تتقاطع مع بعضها في زوايا قائمة، ورأى الـــشوارع الرئيسة المبلطة بأحجار طينية. كانت كل طريق من هـــذه الطـــرقات تبدأ وتنتهي بإحدى البوابات الخمس والعشرين التي تـــؤدي إلى الأسوار، أما أبوابها العملاقة فقد كانت مطليةً بالبرونـــز، والفضة، والذهب.

كان نهر الفرات يقسم المدينة إلى قسمين، وهو يلمع مثل شريط مـــن الـــذهب يمتد من أحد جوانب الأسوار إلى الجانب الآخر، فيما انتـــشرت الحدائق والأشجار الجميلة على جانبَي النهر، كما أن أسراباً من الطيور ذات الألوان المتعددة كانت تملأ الأشجار.

أمـــا وراء النهـــر، فقـــد كانت القصور الملكية متصلة مع الجزء الغربـــــي مـــن المديـــنة بجسورٍ حجرية ضخمة. كانت هذه القصور واضـــحة للعـــيان لأنها مبلطة ببلاط لامع ذي ألوانٍ متعددة، أما أشعة الـــشمس فقد كانت تعكس صوراً لمخلوقاتٍ مدهشةٍ، ومناظر خيالية، ومشاهد أُخذت من الأساطير القديمة لبلاد ما بين النهرين.

برز في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن القصر الملكي أعظم بناء في المدينة بأكملها، وهو البناءً الذي يُعتبر من أكثر عجائب الدنيا إبهاراً في العالم المعروف، أي *الحدائق المعلقة*.

لقد تجسد المفهوم المعياري للبناء في هذه الحدائق التي شيدت في بقعة أرضٍ مسطحةٍ تماماً، ووسط مناخٍ لا يلائم المتنـــزهات الكبيرة المليـــئة بالأشـــجار. كان كل شيء مصطنعاً، ومصنوعاً بجهدٍ كبير بأيدي أناسٍ ماهرين. شرح الأشراف للإسكندر أن قصة الحدائق تبدأ

في الأصل مع وصول ملكة عيلامية شابة إلى بابل بصفتها عروساً للملك نبوخذنصر. عانت الملكة كثيراً بسبب حنينها إلى وطنها الأم المليء بالجبال المكسوة بالأشجار، وهكذا أعطى الملك أوامره ببناء تلة تكون مكسوة بغابة ظليلة من الأشجار ومزينة بأجمل الأزهار. لهذا السبب بنى المصممون سلسلة من الشرفات الواحدة فوق الأخرى حيث تكون الشرفة الأعلى أقل مساحة من الشرفة التي تحتها. كانت كل شرفةٍ مدعومة بمئات الأعمدة الحجرية والتي غطيت بالإسمنت بكل عناية، وكانت متصلة ببعضها بأقبيةٍ مقوسة. كما احتوت هذه الشرفات الكبيرة على التراب اللازمٍ الذي يسمح للشجيرات الصغيرة والأشجار الكبيرة بتكوين جذورها وأغصانها، وكانت مكسوة بالقار أيضاً. بدأت طيور كثيرة، وحتى الأنواع الليلية منها، بصنع أعشاش لها فوق أغصان الأشجار والأجمات، وكذلك أُحضرت بعض الأنواع الغريبة من هذه الطيور، مثل الطواويس والدرّاج، من القوقاز، وحتى من الهند البعيدة. وعمد المهندسون إلى صنع نوافير صناعية من كل الأنواع مستخدمين آلاتٍ في غاية الإبداع، وكانت هذه الآلات تحمل المياه من نهر الفرات الذي يمر أسفل هذا الصرح العجيب.

بدا الصرح من الخارج مثل تلة مغطاة بكل أنواع الأشجار الخضراء. ولكن، بدت هنا وهناك علامات تشير إلى تدخل الإنسان. فظهرت الشرفات والأسيجة المخبأة وراء النباتات المعرشة والمتسلقة، وكانت كل واحدة منها مليئة بالأزهار والفاكهة.

تأثر الإسكندر بفكرة أن هذا الصرح الذي يُعتبر من عجائب الدنيا كان نتيجة أمرٍ أصدره ملكٌ عظيم من أجل تخفيف الوحشة التي شعرت بها ملكته، وهي امرأة شابة وُلدت في بلاد عيلام المرتفعة والمليئة

بالغابـــات. وفكّـــر في بارسين التي ترقد الآن، وإلى الأبد، تحت برج *صمتها* الذي يقع في صحراء غواجميلا القاحلة.

تمـــتم الملك وهو ينظر حوله: "كم من العجائب تتواجد هنا؟!".

أمـــا أصـــدقاؤه بطلـــيموس، وبيرديكـــاس، وليوناتوس، وفيلوتاس، ولايسيماخوس، وإيومينيس، وسلوقس، وكراتيروس، فقد بدت عليهم أمارات الدهشة بدورهم لدى رؤيتهم مدينة تُعتبر قلب العالم منذ ألف ســنة مضت، ولدى رؤيتهم المساحات الخضراء الواسعة المنتشرة بين المـــنازل؛ وهي المساحات التي تمتلئ بأشجارٍ تحمل كل أنواع الفاكهة. كانت قوارب كثيرة تطوف على سطح النهر برشاقة. وكان عدد كبير مـــن هـــذه القوارب مصنوعاً من رزمٍ من القصب، ويتحرك بواسطة أشـــرعةٍ كبيرة مربعة الشكل. أتت هذه القوارب من منطقة تقع عند مـــصبّ النهر، حيث شيّدت أقدم مدن بلاد ما بين النهرين، مثل أور، وكيش، ولاغاش. وكانت قوارب أخرى مستديرة الشكل وتبدو مثل سلالٍ كبيرة، ومغطاة بجلودٍ مدبوغة، آتيةً من جهة الشمال وهي محملة بفـــواكه البلاد البعيدة. شملت هذه منتجات الفواكه من بساتين أرمينيا الخـــضراء التي تكثر فيها الطيور البرية، وجلود الحيوانات، والأخشاب والأحجار الكريمة الثمينة.

ســـاهمت السماء والمياه والأرض في تكوين هذا العالم المثالي المتناسق داخـــل أسوار المدينة العظيمة، والذي يمتلئ بأبراجٍ بدت كالتاج من بعيد. اســـتمر الإســـكندر في النظـــر حوله بحثاً عن عجيبةٍ أخرى كان قد سمع قصتها منذ طفولته. ففي الواقع، كان معلمه ليونيداس أول من ذكر له بـــرج *بابل*، والذي كان عبارة عن جبلٍ من الأحجار يبلغ ارتفاعه نحو ثلاثمـــئة قـــدم، وعرضـــه عند قاعدته ثلاثمئة قدمٍ أيضاً. قيل يومها إن أشخاصاً ينتمون إلى كل شعوب العالم قد عملوا على تشييده.

أشار الكاهن إلى بقعة مترامية الأطراف كانت مهجورة بالكامل ومغطـــاة بالحشائش، وقال: "هناك وقف إتمينانكي، وهو البرج الذي لامس السماء، والذي دمّره الفرس في فورة غضبهم، أي عندما تمردت المدينة، وكان ذلك في عهد الملك زيركزيس".

قـــال الإسكندر: "إنه الملك ذاته الذي دمّر هياكلنا عندما اجتاح اليونان. أريد أن أُعيد بناء البرج عندما أعود إلى بابل".

في مـــساء ذلـــك الـــيوم، احتفل الملك بإقامة مأدبة فخمة لمئات ومئات الضيوف. قُدّمت في هذه المأدبة أفخر الأطباق وألذّ المشروبات، بالإضافة إلى مشروبات مبهجة أخرى. كما رقصت أجمل نساء الشرق من بلاد الميديين، والقوقازيين، والبابليين، والهيراكانيين، والعبريين.

لم يُحـــرَم الجـــنود الذين ربحوا معارك غرانيكوس، وإيسوس، وغواجميلا، والجنود الذين دمروا ميليتوس، وهاليكارناسوس، وصور، وغـــزة، من أي شيء لمدة ثلاثين يوماً، وفعلوا كل ما يريدونه خلال المـــآدب، وقاموا بأمورٍ خرجت عن إطار المعقول في بعض الأحيان. فقد سمح لهم الإسكندر بذلك لأنّ مغامرة جديدة كانت بانتظارهم، وهـــي مغامرة صعبة سرعان ما ستبدأ في المستقبل القريب، كما أنها تحمـــل صـــعوباتٍ جمّـــة، وتشمل تجارب ومحناً ومعاناة من مختلف الأنواع.

ذات مـــساء، ذهب الإسكندر ليرتاح في *القصر الصيفي*. فقصده بيرديكاس طالباً رؤيته.

كانـــت الـــضمادات لا تزال تحيط بجذعه، وتغطي الجروح التي أصـــيبَ بها في ذلك اليوم المشهود في غواجميلا، كما ظهرت في عينيه تعـــابير غريبة يُحتمل أن تكون الثمالة سببها، أو شعوره بكآبةٍ شديدة تعتصر قلبه.

سأله الملك: "كيف حالك يا بيرديكاس؟".

"إنني بخير أيها الإسكندر".

"طلبتَ أن تتحدث إليّ".

"هذا صحيح".

"وماذا لديك لتقوله لي؟".

"إن شقيقتك، الملكة كليوباترا، أصبحت أرملة منذ نحو سنة من الزمن".

"هذا صحيح مع الأسف".

"إنني أحبها، لقد أحببتها على الدوام".

"أعرف ذلك".

سأله بيرديكاس بشيء من الحرج: "وكيف عرفت؟".

"عرفت، وهذا يكفي".

"جئت كي أطلب يدها".

بقي الإسكندر صامتاً بضع لحظات من الزمن.

في تلك الأثناء، ملأت الدموع عيني بيرديكاس، وكاد يضطرب كلياً، لكنه سأل: "لقد تجرأت كثيراً ولم ألتزم بحدودي، أليس كذلك؟ لكن، لم أكن لأستجمع ما يكفي من الشجاعة كي أطلب يدها من دون أن أثمل أولاً".

"هل شربت كوب *هرقل*؟".

أومأ بيرديكاس: "هذا صحيح".

"لكن الواقع هو...".

شعر بيرديكاس بتوترٍ شديد يثير الشفقة، وسأل منتظراً الرد وهو فاغر فمه: "ماذا تودّ أن تقول؟".

"في الواقع، إن بطليموس قد طلب يد كليوباترا".

"آه".

"وسلوقس كذلك".

"كذلك... لكن، أما من شخصٍ آخر طلب يدها؟".

"مـــا من شخصٍ آخر باستثناء لايسيماخوس، وهيفاستيون و... أنت بالطبع".

"ألا يُحتمل أن يكون بارمينيون قد طلب يدها هو الآخر؟".

"كلا، لم يفعل".

"لا يشكّل ذلك فرقاً، وعلى كل حال لا أمتلك أيّ أمل".

"إذا أردتَ الحقيقة، أعتقد أنك الشخص الوحيد الذي يجدر به أن يطلب كليوباترا للزواج، وذلك لأنها المرأة التي تحبها وليس لأنها شقيقة الإسكندر. لا يكفي ذلك على كل حال، كما أنه لم يمرّ ما يكفي من الـــوقت منذ وفاة إسكندر إيبيروس. سيتعيّن على الرجل الذي يريد أن يتزوجها أن يبرهن عن جدارته بأن يقبل مواجهة أي مخاطرة، وأن يقدم أي تضحية، وأن يتحمّل محناً وآلاماً تعجز، حتى أنت، عن تصورها".

استعاد بيرديكاس ما يكفي من وعيه كي يشعر برغبته في البكاء، لكـــنه أجاب: "لكن، ألم يسبق لي أن واجهتُ كل الأمور التي تحدثتَ عنها لأجلك؟".

"لم تفعـــل شـــيئاً يزيد على ما فعله رفاقك. وعلى كل حال، إنّ أصـــعب جزءٍ من مهمتنا ما زال بانتظارنا يا صديقي. سننطلق مجدداً في غـــضون عشرين يوماً كي نقهر هذه الإمبراطورية، وكي نلاحق داريـــوس إلى أبعـــد المقاطعات. وبعد ذلك، سنعود إلى هذه المدينة. ســـأعرف مـــن هو الأجدر بشقيقتي عندما نعود. اذهب الآن، وجِد لنفسك إحدى الفتيات الجميلات، وهنّ كثيرات. استمتع يا صاحبـــي لأن الحياة قصيرة".

تحـــرّك بيرديكـــاس، وفي طريقه التفت نحو الشرفة الكبيرة المليئة بالأزهـــار، والتي تُشرف على المدينة بأكملها وعلى النهر الذي يلتمع بآلاف الأنوار، كما تطلع نحو السماء التي تعجّ بالنجوم الملتمعة.

18

خصّص الإسكندر خلال إقامته في بابل وقتاً كبيراً لتنظيم المقاطعات والإدارة الجديدة، وكذلك من أجل وضع خطة تحرّكه للسنة التالية. وذات مساء، استدعى كل رفاقه، وجميع أعضاء مجلس الحرب إلى القصر الصيفي حيث كان الجو - الذي يصعب احتماله في هذه المناطق المنخفضة - ألطف قليلاً. وكانت نسمات لطيفة تهب بين وقتٍ وآخر، وعلى الأخص عندما تقترب الشمس من المغيب.

بدأ الملك بالكلام: "أريد أن أطلعكم على خططي. قررت في السنة الأولى من حملتنا احتلال كل المرافئ، وذلك كي أعزل الأسطول الفارسي عن بحارنا، وكي أجعل حصول اجتياحٍ مضاد لأرض مقدونيا أمراً مستحيلاً. سنحتل الآن كل حواضر الإمبراطورية. وهكذا، يبدو جلياً أن حكم داريوس قد أشرف على نهايته، وأن كل ممتلكاته هي الآن في قبضتنا. سنحتل سوسا، وإيكباتانا، وباسارغاديا، وبيرسيبوليس قريباً، وذلك بعد أن أخضعنا بابل. لم يعد أمام داريوس إلا أن يحتمي في المناطق الشرقية البعيدة، لكننا سنلاحقه إلى هناك حتى نلقي القبض عليه.

هناك سبب آخر يدفعنا لاحتلال العواصم، وهو المال. إذ يحتفظ داريوس بخزائن أمواله في العواصم، ولذلك سنتمكن بفضل ثروته من إرسال المساعدات إلى القائد أنتيباتر الذي سيضطر إلى القتال ضد الإسبارطيين في اليونان، والذي سيتعين عليه مواجهة والدتي بشكلٍ يومي. ولعل ذلك هو أصعب جزءٍ في مهمته".

بدأ رفاق الإسكندر بالضحك، وحتى بيريتاس الذي كان معهم، بدأ بالنباح بصوتٍ عالٍ.

"بعد ذلك، سنتمكن من تجنيد المزيد من المرتزقة، وتجهيز المجندين الجدد الذين سينضمون إلينا قريباً. سينطلق القائد بارمينيون شمالاً مع حلفائنا اليونانيين، وسترحف معه ثلاث كتائب من الفالانج، وسرية واحدة من فرسان الهيتايروي، وسيكون مزوداً بالمؤن وآلات الهجوم. وسيصل القائد إلى الطريق الملكية، وسيتقدم عبرها نحو بيرسيبوليس. أما نحن، فسنتحرك مع بقية قواتنا نحو الجبال من أجل احتلال المعابر وتحرير هذه المناطق من آخر الحاميات الفارسية. لا أتوقع أن تكون مهمتنا سهلة لأن الثلج بدأ يتساقط في الجبال. لهذا السبب، أقول لكم استمتعوا ما دمنا هنا. لكنني أريدكم أن تستجمعوا كل قواكم لأن مهمتنا ليست للتسلية".

وما إن غادر الجميع، حتى دخل إيمولبوس من سولوي، فأمسك الإسكندر بيريتاس من رباطه لأنه لاحظ أنه بدأ بالدمدمة.

بدأ إيمولبوس بالكلام: "لقد فعلت كل شيء حسب طلبك يا مولاي. رتبت الأمر مع أحد رجالي كي يذهب إلى سوسا ويتأكد من عدم اختفاء الخزنة الملكية. تبلغ محتويات الخزنة بحسب علمي ثلاثين ألف تالنت من النقود والسبائك، وذلك بالإضافة إلى الأشياء الثمينة التي تزيّن القصر. يدعى ذلك الشاب أريستوزينوس، وهو يعرف ما يتوجب عليه القيام به. وإذا اضطر الرجل إلى التواصل معك في يوم من الأيام، فسيستخدم كلمة السر المعتادة".

فقال الإسكندر وهو يهز رأسه: "الدجّ المشوي. اسمعني جيداً، قد يكون هذا الوقت مناسباً لتغيير كلمة السر السخيفة هذه، لأنه ليس هناك في الوقت الحاضر أخطار داهمة يُمكن أن تبرّر بقاء هذه الكلمة السخيفة".

"تأخــــر الوقت على هذا يا مولاي، لأن أريستوزينوس مضى في طريقه الآن. سنغيّرها في المرة القادمة".

تنهد الإسكندر، وأمسك ببيريتاس كالمعتاد عندما غادر إيمولبوس الذي ما لبث أن اختفى عبر ممرات القصر.

وقبل مغادرة الجيش بوقتٍ قصير، تناول إيومينيس بعض المال من الخزائن الملكية، وتركها بين يدي أحد معاونيه المقدونيين والذي يُدعى هاربالـــوس، وهـــو رجل لم يسبق له أن قاتل في أيّ معركة لأنه كان مـــشلولاً. وفي هـــذه الحملة العسكرية، تمتّع هذا الرجل بسمعة حسنة باعتـــباره خـــبيراً في شؤون الإدارة الاقتصادية. كان الإسكندر يعرف الرجل جيداً لأنه كان يمضي بعض الأوقات في قصر بيلا بالرغم من أنه كان عاجزاً عن المشاركة في التدريبات العسكرية بسبب إعاقته.

قـــال الإسكندر: "يتعيّن عليه أن يقوم بمهمة ناجحة. وأعتقد أنه يتمتّع بالمهارة الكافية".

أجاب إيومينيس: "وأنا أعتقد هذا أيضاً، فلطالما كان شاباً رائعاً".

*

انطلـــق الجـــيش مجدداً في نهاية فصل الصيف، بعد أن تمّ تثبيت مازايـــوس في مركـــزه كمـــرزبان لمدينة بابل، وبعد أن تُركت حامية مقدونـــية كـــي تحمـــيها وتـــضمن أمنها. تقدم الجنود مع مجرى نهر باسيتجريس، وهو أحد روافد نهر دجلة الذي ينحدر من جبال عيلام. كان المنظر في غاية الجمال، فقد انتشرت في الأرجاء مراعٍ خضراء تعجّ بقطعـــان كثيرة من الخراف والأبقار، كما نبتت في هذه الأراضي كل أنـــواع أشجار الفاكهة، بما فيها الدراق رائع المذاق، بقشرته المخملية وعصارته كثيرة السوائل. كما تواجدت في هذه المناطق أيضاً كميات كبيرة من الفاكهة المجففة تحت أشعة الشمس، مثل التين والإجاص.

استغرق زحف الجيش مدّة ستة أيام كي يصل إلى مشارف سوسا. وما لبث الإسكندر أن تذكر ما قاله ضيوفه الفرس الذين كانوا يزورون بيلا قبل سنواتٍ عديدة عندما كان صبياً عن سوسا. إذ تقع المدينة فوق بقعة أرضٍ مستوية، وتظهر سلسلة جبال عيلام خلفها، وهي الجبال التي تكلّلت قممها بالثلوج، أما سفوحها فكانت خضراء بفضل أشجار التنوب. كانت سوسا مدينة كبيرة محاطة بالأسوار والأبراج المزخرفة ببلاطٍ لامع، بينما زُخرفت سياجات أسوارها بدعائم عمودية مطلية بالفضة والذهب.

وما إن بدأ الجيش بالاقتراب، حتى فُتحت البوابات. وما لبثت أن ظهرت فرقة من الفرسان الذين يرتدون ثياباً فاخرةً، وبدا أهم يرافقون أحد الوجهاء الذي وضع تاجاً ناعماً فوق رأسه.

قال إيومينيس للإسكندر: "إنه أبيوليتس بكل تأكيد. إنه مرزبان سوسيانا وهو يرغب في الاستسلام. أخبرني أريستوزينوس ذلك في الليلة الماضية. تشير كل الاحتمالات إلى أن كل الخزنة، أو على الأقل جزءاً كبيراً منها، لا يزال في المدينة".

اقترب المرزبان من الإسكندر، ثم ترجّل عن صهوة حصانه، وانحنى أمام الملك حسب الطريقة الفارسية التقليدية، وذلك تعبيراً عن الولاء، ثم قال: "ترحب بك مدينة سوسا بسلامٍ، وهي تفتح بواباها للرجل الذي اختاره أهورا مازدا خليفةً لسيروس العظيم".

انحنى الإسكندر بكل احترام، ثم أشار إلى المرزبان كي يمشي بالقرب منه.

قال ليوناتوس لسلوقس: "أنا لا أحب هؤلاء البرابرة مطلقاً. إذ لا يمكنك أن تعرف ما الذي يخططون له. إنهم يستسلمون من دون قتال، ويخونون ملكهم، كما أن الإسكندر يثبّتهم في مناصبهم التي كانوا فيها

بينما نظل نحن فوق صهوات جيادنا ليلَ نهارَ. هل سنتمكن من الوصول يوماً إلى الجهة الأخرى من هذه البلاد؟".

ردّ سلوقس بالقول: "إن الإسكندر محقّ. فهو يثبّت الحكام القدامى في مناصبهم كي لا يشعر الناس أن الأجانب يحكمونهم، لكنّ جباة الضرائب والقادة العسكريين مقدونيون. وهذا يعني أن الأمر ليس كما تتصوره. إذاً، أليس من الأفضل أن تجري الأمور على هذا النحو؟ تفتح المدن أبوابها أمامنا، ونتيجة لذلك، لم نضطر إلى تركيب آلات الحصار منذ أن غادرنا الشاطئ. أم أنك تفضّل سفك الدماء، مثلما حدث في هاليكارناسوس وصور؟".

"لا، أبداً، لكن...".

"إذاً، يجدر بك أن تكون مرتاحاً للطريقة التي تجري بها الأمور الآن".

"أجل، لكن... في الواقع، إنني لا أحب أن يقترب هؤلاء البرابرة من الإسكندر كثيراً، أي أن يأكلوا معه ويرافقوه إلى ما هنالك. إنني، وببساطة، غير مرتاحٍ لكل هذه الأمور".

"لا تقلق، لن يحدث أي شي. يعرف الإسكندر ما يفعله تماماً".

كانت مدينة سوسا محاطة بالتلال من الجهات الأربع؛ وهي المدينة المهيبة التي يبلغ عمرها نحو ثلاثة آلاف سنة. وبدا القصر الملكي بارزاً فوق إحدى هذه التلال. أمّا مدخل القصر فكان مشيّداً على طراز الهياكل المهيبة، ويتكوّن من أعمدة حجرية كبيرة، تيجانها على شكل ثيرانٍ مجنحة تدعم السقف. وبعد ذلك، تظهر الردهة المبلطة برخامٍ من كلّ الألوان، وتغطي سجادات كبيرة أرضيتها بشكلٍ جزئي. وكذلك برزت الأعمدة التي تدعم السقف واضحة، وهي أعمدة مصنوعة من خشب الأرز ومطلية باللونين الأحمر والأصفر. دخل الإسكندر ممرّاً،

ثم عبَرَ ردهةً قبل أن يصل إلى الأبادانا، وهي قاعة استقبالٍ كبيرة اجتمع فيها الوجهاء والخصيان والمشرفون على تلك القاعة الكبيرة وقد أخفضوا رؤوسهم حتى كادت تلامس الأرض.

تقدم الملك متبوعاً برفاقه وقادة جيشه نحو عرش أباطرة الإخمينيين وتبوّأ مكانه، ولكنه سرعان ما شعر بالإحراج. فقد كان قصيراً مقارنة بهم إلى درجة أن قدميه لم تصلا إلى الأرض، فتدلتا بطريقة لا تناسب وضعه الملكي. أما ليوناتوس الذي يتصف بسرعة البديهة فقد لاحظ وجود قطعة أثاثٍ مصنوعة من خشب الأرز موجودة قرب العرش، فدفعها نحو الإسكندر ليتمكّن من وضع قدميه عليها وكأنها مقعد، وما لبث أن بدأ بالحديث إلى الحاضرين.

"أيها الأصدقاء، إن ما بدا قبل وقتٍ قصير حلماً مستحيلاً أصبح الآن حقيقة. إننا نسيطر الآن على أعظم حاضرتين في العالم: بابل وسوسا، ولن يمضي وقت طويل قبل أن نحتل العواصم الأخرى كذلك...". قطع صوت بكاء هادئ كلام الإسكندر بعد وقتٍ قصيرٍ من بدايته، فنظر الملك حوله وسط الصمت الشديد الذي خيّم على القاعة الكبيرة، وهو الأمر الذي جعل بكاء أحد الخصيان الذي كان يُسند رأسه إلى أحد الجدران يبدو مسموعاً بوضوحٍ أكبر. تنحّى الجميع لأنهم أدركوا أن الملك يريد أن يراه، وهكذا بقي ذلك المسكين واقفاً بمفرده بعينيه الدامعتين تحت أنظار الإسكندر.

سأله الإسكندر: "لماذا تبكي؟". فغطى الرجل وجهه بيديه بعد أن كفكف دموعه. "هيا تحدث ولا تخشَ شيئاً".

همس ليوناتوس في أذن سلوقس: "يا لهذه المخلوقات المخصية. إنهم ينفجرون بالبكاء لأتفه الأسباب، أي مثلما تفعل الفتيات. لكن يبدو أنهم يتفوّقون على النساء في ذلك".

أجاب سلوقس: "ينتشر الخصيان هنا وهناك. أما هذا، على سبيل المثال، فلا يبدو أنه يحترم أحداً".

قال الإسكندر مصرّاً: "هيا، تكلّم".

تحـــرّك الخصيّ إلى الأمام فأدرك الجميع أنه كان يحدّق إلى المقعد الذي كان تحت قدمي الملك.

بـــدأ الخصيّ بالحديث: "إنني خصيّ، ولهذا، فإنني موالٍ لسيدي أياً يكـــن هذا السيّد. كنتُ موالياً في السابق لمولاي الملك داريوس. والآن أنا موالٍ لك يا مولاي. وبالرغم من كل ذلك، لا أستطيع إلا أن أبكي عندما ألاحظ السرعة التي تتغيّر فيها الأقدار. إن قطعة الأثاث التي تستخدمها كي تـــريح قدمـــيك عليها..."، بدأ الإسكندر يلاحظ هنا سبب بكاء الخصيّ الـــذي تابع كلامه: "كانت مائدة داريوس، وهي الطاولة التي كان يتناول فـــوقها وجـــباته، ولـــذلك كانت شيئاً مهماً بالنسبة إلينا، وتستحق كل الاهتمام. أما الآن، فأنت تستخدمها لتريح قدميك فوقها...".

احمرّ الإسكندر خجلاً، وكان على وشك النهوض بعد أن أدرك بأنه أقدم على عملٍ لا يليق به، ولا يُسامَح عليه، لكن أريستاندر أوقفه وقال له: "لا تحرّك قدميك عن تلك الطاولة. ألم يخطر في بالك أن هذه الحادثة التي وقعت صدفة، في ظاهر الأمر، تحمل مغزًى خاصاً بها؟ أراد القـــدر أن يحـــدث هـــذا الأمـــر كي يعرف الجميع أنهم وضعوا قوة الإمبراطورية الفارسية تحت قدميك".

هكذا بقيت مائدة داريوس حيث هي، أي استمرّ الملك الجديد في إراحة قدميه عليها.

انتهـــى اللقاء، وتفرق الجميع في أنحاء القصر. أما المشرف، وهو خـــصيّ آخر، فقد اصطحب الإسكندر بمفرده إلى جناح الحريم الملكي حـــيث تـــتواجد نـــساء شابات فاتنات. كنّ جميلاتٍ جميعاً ويرتدين

ملابسهن الوطنية. رحبن بالملك وسط القهقهات. كانت بعض النساء سمـــراوات، بينما كانت بشرة الأخريات أكثر بياضاً وكنّ ذوات عيونٍ زرقـــاء. وكانـــت في الغرفة فتاة إثيوبية، التي بدت بالنسبة إلى الملك وكأنهـــا أحـــد التماثيل البرونـــزية التي ينحتها ليسيبوس، وخاصةً مع حركاتها التي تنم عن الكبرياء.

قـــال الخـــصيّ: "إذا أردت أن تمرح معهن، فإنهن سيفعلن ما في وسعهن لأجلك بكل سرور، حتى في هذه الليلة بالذات".

"اشـــكرهنّ بالنيابة عني، وأبلغهنّ بأنني سأعود قريباً كي أستمتع برفقتهن".

وسار بعد ذلك إلى غرفةٍ أخرى في ذلك القصر العظيم، وما لبث أن لاحـــظ فجـــأة أن رفاقه قد اصطفوا جميعاً وهم يحدقون إلى أحد التماثـــيل، فوقف كي يشاهده بدوره. كان نُصُباً برونـــزياً يمثّل شابين يرفعان خنجريهما وكأنهما يستعدان لطعن شخصٍ ما.

قـــال بطليموس شارحاً: "إنهما هارموديوس وأرسطوجيتون. إنه تمـــثال الرجلين اللذين قتلا هيبارخوس، وهو شقيق هيبياس الذي كان صديق الفرس الذي خان القضية الإغريقية. أخذ الملك زيركزيس هذا التمـــثال في أثينا كغنيمة حرب قبل أن يُقدم على إحراق المدينة. بقي التمثال هنا منذ مئة وخمسين عاماً كشاهدٍ على ذلك الإذلال".

قال ليوناتوس: "سمعت أن هذين الشابين لم يقتلا هيبارخوس، في واقع الأمر، من أجل تحرير المدينة من الطاغية، لكنهما فعلا ذلك بدافع الغيرة، لأن هيبارخوس وأرسطوجيتون قد وقعا في حب هارموديوس".

قـــال كاليستين وهو ينظر بإعجاب إلى ذلك التمثال الشهير: "إن ذلـــك لا يغيّـــر شـــيئاً. فلقد تمكّن هذان الرجلان، وبغض النظر عن الأسباب، من إعادة الديمقراطية إلى أثينا".

ساد جوٌّ معين من الحرج عندما نطق كاليستين بهذه الكلمات. فقد تذكّر الجميع خطابات ديموستين الحادة التي دافع فيها عن الديمقراطية في أثينا ضد *الطاغية* فيليب. بدا أن الإسكندر كان ينسى مع مرور كل يوم الثقافة الديمقراطية التي تلقاها على يد أرسطو، وأن رسائل النصح التي أرسلها الفيلسوف لم تؤتِ ثمارها عنده. إذ كانت روح الملك تنجذب بشكلٍ متزايد نحو عظمة الإمبراطورية التي تحيط به في بلاد فارس.

فهم الإسكندر، بطريقة ما، ما كان الجميع يفكرون فيه من دون أن يجرؤ أحد منهم على البوح به، فقال: "ابدأوا بالترتيبات اللازمة لإرسال التمثال إلى أثينا باعتباره هديتي الشخصية إلى تلك المدينة. آمل أن يفهموا أن السيوف المقدونية حققت نتيجةً عجزت عنها آلاف الخطابات التي ألقاها الخطباء، والتي تعجز حتى عن وصفها".

سُمح للملكة الأم سيسيغامبيس، ولمحظيات الملك وأولادهن، بالإقامة مجدداً في الأجنحة التي تركنها قبل وقت طويل. تأثرت جميع النساء عند عودتهن مجدداً إلى هذه الأمكنة المألوفة لديهن، وعبرن العتبات المؤدية إلى غرف نومهن، وبكين فوق وسادات أسرّتهن التي قضين فوقها أوقاتاً ممتعة، والتي أنجبن أولادهن عليها. تغيّرت أمور كثيرة منذ ذلك الحين. بقيت ممرات القصر وقاعاته محتويةً على الأشياء ذاتها، لكن جواً عدائياً وغير مفهوم كان يخيّم في أرجاء القصر، كما أن المستقبل بدا مظلماً ومقلقاً. بدت الملكة الأم وحدها هادئة، وقد انغمست كلياً في صفاء غامض فرضته الحكمة التي تتمتع بها. طلبت أن يكون فرآت، الابن الأصغر لبارسين، تحت رعايتها إذا حصل أي شيء لجده المرزبان آرتابازوس، فاستجاب لطلبها.

اعتاد الإسكندر زيارة جناح الحريم الملكي، وكان يفعل ذلك بمفرده أحياناً، ومع هيفاستيون في أحيان أخرى. وبدأت الشابات يشعرن بالحب تجاه الملك وصديقه.

كان الإسكندر يزور مقر *الملكة الأم* كل يوم، وكان يتحدث إليها لمدة طويلة بمساعدة مترجم. وتحدث إليها مجدداً عشية مغادرة الجيش، أي كما فعل في الليلة التي سبقت معركة غواجميلا. قال لها: "أيتها الوالدة. سأغادر غداً كي ألاحق ابنك إلى أقصى حدود إمبراطوريته. إنني أثق بقدري، وأثق بأن فتوحاتي قد حدثت بمساعدة القدر، ولهذا السبب، فإنني لن أترك مهمتي قبل أن أنهيها، لكنني أعدك بألاّ ألحق أي أذى بداريوس طالما كنت قادراً على ذلك، كما أنني سأحاول أن أنقذ حياته. أجريت ترتيبات مع أفضل الأساتذة كي تتعلمي الإغريقية، لأنني أريد أن أسمع لغتي وهي تنطلق ذات يوم من بين شفتيك من دون تدخل المترجمين في أفكارنا".

نظرت الوالدة الأم إلى عينيه، وتمتمت شيئاً لم يتمكّن المترجم من فهمه، لأنها تكلمت بلغةٍ سريةٍ وغامضة.

19

ذات صباحٍ، وفي وقت مبكرٍ من فصل الخريف، ترددت أصوات الأبواق مصدرة إشارات الانطلاق بينما كانت المدينة غارقة في الظلال. وكانـــت أشعة الشمس الطالعة تلامس قمم جبل عيلام. انقسم الجيش إلى قـــسمين: قـــاد بارمينيون معظم الجنود والعربات التي تحمل آلات الحرب المفكّكة والمؤن، وذلك عبر الطريق الملكية، بينما قاد الإسكندر القـــوات المسلحة تسليحاً خفيفاً، وقوات الصدم والأغريانيين، وسلك هم الطريق الجبلية التي تعبر بلاد عيلام نحو بيرسيبوليس، وهي العاصمة التي أسّسها داريوس الكبير.

تحرّك الإسكندر بتوجيهٍ من المرشدين في الطريق التي بدأت تضيق أكثـــر فأكثـــر بمحاذاة النهر، ثم سار صاعداً نحو المعبر الذي يؤدي إلى المـــرتفعات الـــتي كانـــت تسكنها مجموعات قوية من الرعاة البدائيين والمتوحـــشين، أي الأوكسيانيين. كان هؤلاء اسمياً تحت سيطرة الملك العظيم، إلا أنهم كانوا مستقلين في واقع الأمر. طلب الإسكندر إليهم، بمـــساعدة مترجم، أن يسمحوا له بعبور أراضيهم فأجابوا: "يمكنك أن تعـــبر إذا دفعتَ مالاً، مثلما كان يفعل الملك العظيم على الدوام عندما كان يريد سلوك أقصر طريق بين سوسا وبيرسيبوليس".

ردّ الإســـكندر: "لم يعد الملك العظيم يحكم إمبراطوريته، لذلك، فإن طريقتي تختلف عن طريقته. سأعبر أرضكم سواء أأحببتم ذلك أم لا".

كان منظر الأوكسيانيين مرعباً بشعرهم الأشعث ولباسهم المؤلف من جلود الماعز والخرفان، ورائحتهم النتنة مثل روائح الحيوانات. كان

مـــن الواضح أنه يصعب إرهابهم، كما أنهم لم يكونوا مستعدين لتقديم تـــنازلاتٍ حـــول أي شيء. كانوا يثقون تماماً بطبيعة أراضيهم الوعرة وبأوديـــتها الضيقة، وطرقاتها شديدة الانحدار التي لا يستطيع إلاّ عدد قلـــيل مـــن الناس تسلقها. لم يعرف هؤلاء أن هذا الملك الغريب كان يصطحب معه محاربين أشرس منهم وأشد وحشية وأكثر بدائية، والذين اعـــتادوا اجتياز أراضٍ أكثر وعورة وخطورةً من أراضيهم، وهم رجالٌ قادرون على تحمل البرد والجوع والألم والتعب، رجالٌ يتمتعون بالجرأة والـــشراسة ومتلهفون للقتال، ويطيعون اليد التي تطعمهم طاعةً عمياء؛ وهم الأغريانيون.

جمـــع الإسكندر القادة والمرشدين من سوسا كي يشرحوا مخطط الطريقين الرئيستين اللتين تؤديان إلى جبال الأوكسيانيين. تقرّر في ذلك الاجتماع أن يسير كراتيروس، مع قوات الصدم التي يقودها، في الطريق الأقـــل انحـــداراً بيـــنهما، والتي تتجه مباشرة إلى المعابر التي تؤدي إلى بيرســـيس. أما الإسكندر فسيسير مع جنوده من الأغريانيين، وكتيبتين من حاملي الدروع، في الطريق الأصعب التي تؤدي مباشرة إلى المناطق التي يشغلها المحاربون الأعداء.

انتظـــر كراتيروس إلى أن بدأ الملك بتسلق المنحدر مع جنوده كي يجـــذب انتباه معظم قوات الأوكسيانيين، ثم بدأ بتحركه مستفيداً من الغطاء الكثيف الذي توفره الأشجار، وسار عبر الطريق التي تؤدي إلى المعابر.

بـــدأ الأوكسيانيون بالتصويب على الإسكندر، ورموه بوابلٍ من السهام، وبالأحجار التي قذفوها من القاذفات، وكذلك دحرجوا عليه صـــخوراً كـــبيرة مـــن أعلى المنحدر. لكن الأغريانيين كانوا بمنتهى الرشاقة، واختبأوا وراء كل نتوءٍ توفر لهم، ثم تقدموا إلى الأمام بسرعة

عـــبر أرضٍ مكشوفة، واختبأوا مجدداً وراء جذوع الأشجار والصخور. وعـــندما التحموا في النهاية مع أوائل الأوكسيانيين، هاجموهم بشراسةٍ ووحشية حيث لم يمتلك المدافعون أي فرصة لإيقافهم. فسقط كثيرون مـــنهم علـــى الأرض بعد أن فُتحت أعناقهم، بينما انهار آخرون وهم يمـــسكون بأمعائهم التي خرجت من بين جروح بطونهم الطويلة. كان الأغـــريانيون يقاتلـــون بعنادٍ شديد، وكانوا يوجهون ضرباتهم بهدف القـــتل؛ القتل وحده، وكي يبيدوا أعداءهم تماماً، ولإرهابهم بالجروح التي يرتعب المرء من مجرّد النظر إليها.

وقـــف حاملـــو الدروع بعد الأغريانيين مباشرة، وبعد أن اتخذوا تـــشكيلاتهم المعـــتادة مجدداً. وما لبثوا أن انطلقوا راكضين نحو منازل القـــرى المـــشيدة بالأحجار والطابوق حيث يعيش الأوكسيانيون مع مواشيهم حياة بدائية. أعطى الإسكندر جنوده أوامر تقضي باستخدام الأســـهم الحارقـــة، ومـــا لبـــثت سطوح الأكواخ المشيدة من القشّ والحـــشائش أن تحولت إلى جحيم ملتهب، فانطلقت الحيوانات المرتعبة هاربة بكل الوسائل التي أتيحت لها.

لم يتـــصور الأوكسيانيون مطلقاً إمكانية حصول اجتياحٍ كهذا، فانطلقـــوا نحو المعابر حيث ظنوا أنه بإمكانهم تنظيم دفاعٍ أكثر فعالية، لكن كراتيروس وجنوده من فرقة الصدم كانوا قد سبقوهم إلى احتلال هـــذه المعابر. استقبل وابل من السهام السكان الجبليين فقُتل عدد كبير منهم على الفور.

وحـــين اكتشف الأوكسيانيون أنهم عالقون بين جنود الإسكندر وجنود كراتيروس استسلموا. لكن الملك أنـــزل بهم عقاباً شديداً. أمر الملـــك بترحيلهم من أراضيهم المرتفعة إلى السهل، وهكذا لن يتمكنوا أبداً من إقفال المعبر بين سوسا وبيرسيس.

ما إن سمع الأوكسيانيون من المترجمين بالمصير الذي ينتظرهم حتى جـــثوا أمام قدمي الإسكندر، وتوسلوا إليه باكين، وصارخين من شدة الـــيأس. وشـــاركت النساء والأطفال في ذلك النواح، لكن الإسكندر كـــان مصرّاً على قراره، فقال لهم إنه كان يجدر بهم أن يقبلوا باقتراحه الأساســـي، وإنهـــم بهذه الطريقة سيعرفون بأنه لا يُصدر أبداً تهديدات فارغة، وأنه ما من قوةٍ في العالم تقدر على إيقافه.

اقتـــرح أحد المرشدين من سوسا على الأوكسيانيين أن يتوسلوا إلى الملكـــة الأم سيـــسيغامبيس. فهي الشخص الوحيد الذي قد يمتلك بعض الـــنفوذ لدى ذلك الفاتح المتصلّب. عمل السكان بهذه النصيحة فأرسلوا ســـرًّا اثنين من قادتهم من خلال صفوف المقدونيين. وصل الفارسان بعد أربعـــة أيام، وسلكا الطريق الأكثر سهولة. وما لبث القائدان الأوكسيانيان أن عـــادا برسالةٍ من الملكة الأم مكتوبة باللغة اليونانية، والتي توسلت فيها إلى الإسكندر كي يسمح لهؤلاء المساكين بأن يبقوا في أراضيهم:

من سيسيغامبيس إلى الإسكندر. تحياتي!

جـــاءني ممـــثلان عن السكان الأوكسيانيين، وطلبا إليّ التوسط لـــديك بالنيابة عنهم. أعرف بأنهم أهانوك وسخروا منك، لكن العقـــاب الذي تعتزم إنـــزاله بهم هو الأكثر فظاعة؛ فهو أسوأ مـــن الموت. لا أعتقد أنه يوجد شيء أكثر إيلاماً من أن يُسلخ المرء عن البلاد التي عاش فيها منذ طفولته، وعن المياه التي روت عطشه، وعن الحقول التي وفّرت له غذاءه، وعن منظر الشمس التي تشرق وتغرب من وراء آفاق جبالنا.

ناديتَي قائلاً *يا والدة* مرات عدة، وهو ألطف الأسماء، والاسم الـــذي قُدّر لأوليمبيا فقط أن تحمله، هي التي ولدتك في قصر بـــيلا. إنني أطلب إليك، استناداً إلى ذلك الاسم الذي شرّفتني به، أن تصغي إليّ كما تصغي إلى والدتك. أريدك أن تعفو عن أولئك الناس ولا تسلخهم عن أراضيهم.

تذكّـــر موطـــنك، والحب الذي تركته هناك! لم يفعل أولئك البائسون شيئاً غير الدفاع عن أرضهم وعن منازلهم.
كن رحيماً!

تأثـــر الإسكندر كثيراً بهذه الرسالة التي تمكنت من إطفاء غضبه، فسمح للأوكسيانيين بالبقاء في منازلهم الجبلية، لكنه اشترط عليهم أن يقدمـــوا جـــزيةً سنوية هي عبارة عن خمسمئة حصان، وألفي فرس، بالإضـــافة إلى عـــددٍ آخر من الماشية. قَبِل الأوكسيانيون بهذا الشرط بطـــيب خاطر، لكنهم ظنوا أن هذا الشاب الغاضب ومحاربيه الشرسين لن يعودوا أبداً لتحصيل حصتهم من الماعز والثيران، بالإضافة إلى أنه لم يكن في وسعهم أن يرفضوا طلبه.

وبعد انتهاء الإسكندر من حلّ مشاكله مع الأوكسيانيين، انطلق مجـــدداً إلى أعلى المعابر. كان المعبر طريقاً ضيقة تُعرف باسم البوابات الفارســـية، وهـــو المعبر الذي شيّد فوقه المرزبان آريوبارزانيس جداراً دفاعياً مرتفعاً جداً لا يمكن اختراقه بسبب موقعه الحصين. انطلق الجيش في مـــسيرته قبل انبلاج خيوط الفجر الأولى في صباحٍ شديد البرودة. سار الجيش فوق هضبةٍ معرضةٍ للرياح قارسة البرودة، بينما بدأت أولى رقاقات الثلج بالتساقط من السماء الرمادية.

20

أخذ الوادي المؤدي إلى البوابات الفارسية يضيق شيئاً فشيئاً حيث تحوّل في نهاية الأمر إلى وادٍ صخري ينحدر جانباه انحداراً شديداً. تطلّب الأمر مجهوداً كبيراً للتقدم إلى الأمام عبر الثلج الذي ازداد كثافةً، وفوق صفائح الجليد. حتى إن بعض الجياد والبغال انزلقت فوق الجليد وأصيبت بكسور في قوائمها. استغرق أوائل الجنود اليوم بأكمله للوصول إلى أولى دعائم المنصة المنحدرة التي تؤدي إلى الجدار العظيم الذي يحمي المعبر.

انهمك الإسكندر في تجميع قادة التراقيين والأغريانيين من أجل دراسة الوسائل التي تمكنهم من تسلّق الضفاف المنحدرة، والجدار ذاته تحت جنح الظلام، لكن سلسلة من أصوات الاصطدام المرتفعة هزّتهم جميعاً. فلقد بدأ الجنود الفرس في دحرجة أحجارٍ كبيرة من أعلى الأسوار. تسبّبت هذه الأحجار بانزلاق عدد كبير من الصخور إلى أسفل الوادي.

بدأ الجميع بالصراخ: "ابتعدوا! ابتعدوا!". لكن الصخور كانت تتحرك بسرعة أكبر من سرعة الرجال، ولذلك كانت النتيجة حدوث مجزرة. علِق الإسكندر ذاته بين كومة من الصخور، فجُرح في أماكن متعددة، ولكن لم تُكسر أيّ من عظامه لحسن الحظ. وعلى الفور، أعطى الملك رجاله الأوامر بالانسحاب، لكن جنود الأعداء كانوا قد تناولوا أقواسهم في هذه الأثناء، وبدأوا برمي السهام على الجنود المتمركزين تحتهم من دون أن يخطئوهم، وذلك بالرغم من تساقط الثلج الكثيف، وانخفاض الرؤية الذي بدأ يتزايد.

صـــاح لايـــسيماخوس الـــذي كـــان على رأس جنود الهجوم: "الدروع! ضعوا الدروع فوق رؤوسكم!".

أطـــاع الرجال الأوامر، لكن الفرس بدأوا يركضون على جانبَي ذلك الوادي الضيّق، وهم يطلقون السهام على حرّاس الجزء الخلفي من الجـــيش الـــذين لم تتِح لهم الفرصة بعد كي يدركوا ما يحصل. تمكّنت الظلمة وحدها من وضع حدٍّ للمجزرة. وعندها، جمع الإسكندر جيشه في مـــساحةٍ أوســـع سمحت له بإقامة معسكر، وإن كان قد فعل ذلك بـــصعوبة بالغـــة. شعر الجميع بإحباطٍ شديد، ليس فقط بسبب عدد الإصـــابات المميتة الكبير، وإنما بسبب صرخات الجرحى الذين كانوا عاجزين عن تحمّل الألم الذي يشعرون به والناتج عن قطع أطرافهم التي انـــسلخت بشكلٍ كبير عن أجسامهم، وبسبب الألم الناتج عن العظام المطحونة.

شـــرع فيلـــيب ورفاقه من الجراحين بالعمل على ضوء المشاعل، وخاطوا الجراح، وسحبوا الأسهم ورؤوس الرماح من أجساد المحاربين، وجبّـــروا الكسور، وجعلوا الأطراف ثابتة مستخدمين الأسهم وعصيّ الرماح لأنهم افتقدوا إلى موارد أخرى.

تـــوافد رفـــاق الإسكندر الواحد تلو الآخر إلى خيمة الملك لعقد اجتماعٍ لمجلس الحرب. لم توقَد النيران، ولذلك لم تتواجد جمار تسمح لهـــم بتدفـــئة أنفسهم، لكن المشعل المعلّق في العمود الرئيس للخيمة، والـــذي نـــشر بعـــض الضوء في المكان، ساهم قليلاً في منحهم بعض الـــدفء. كان الجميع مدركين جيداً التغيّر الهائل الذي أظهره الحظ في حـــياتهم في غضون أيام قليلة، وهو تغيّر من الرخاء والترف في قصور بابل وسوسا، إلى الجليد والصعوبات الجمة التي ترافقت مع هذه المهمة اليائسة.

سأل سلوقس: "برأيك كم يبلغ عددهم؟".

أجاب بطليموس: "لا أعرف. أعتقد أنهم آلاف عدة. عندما قرّر آريوبارزانيس السيطرة على المعبر فلا بد من أنه لم يأمل أن يفعل ذلك بجنود قلائل مع أسلحةٍ متواضعة، لذلك توجّب عليه بالتأكيد حشد أعدادٍ كبيرة من جنود الهجوم". في تلك اللحظة، دخل إيومينيس الخيمة بعد أن تحوّل لونه إلى الأزرق بسبب البرد، واصطكّت أسنانه. أما صندوقه الذي حمله فوق كتفه، فكان يحتوي على أوراق البردى وريشة وحبر استخدمها كلها في تدوين يوميات الحملة كل مساء.

سأله الإسكندر: "هل عددتَ خسائرنا؟".

أجاب الأمين العام، وهو يراجع على عجل ورقة من بين الأوراق التي كتبها بسرعة: "إنها كبيرة جداً، وتبلغ ثلاثمئة قتيلٍ ومئة جريحٍ على الأقل".

سأل ليوناتوس: "وماذا سنفعل الآن؟".

أجاب الإسكندر: "لا نستطيع تركهم هناك طعاماً للذئاب. يتعيّن علينا أن نستعيدهم".

قال لايسيماخوس: "لكن ذلك سيكبّدنا خسائر أكبر".

"إذا خرجنا الآن فسنتمكن من التخفي وسط الظلام، أما إذا ذهبنا غداً في وضح النهار، فسيتمكنون من اصطيادنا من قمة الوادي".

قال الملك: "أنا ذاهبٌ الآن. لا أستطيع ترك رجالنا من دون دفن، كما أنكم لستم مضطرين إلى مرافقتي إذا كنتم خائفين".

قال هيفاستيون بعد أن هبّ واقفاً كي يُظهر مدى استعداده لمرافقته: "سآتي معك".

وقال لايسيماخوس بعد أن استفزّه كلام رفيقه: "تعرف جيداً أنها ليست مسألة خوف".

"آه، لا؟ حسناً إذاً، ما المشكلة؟".

"لا فائـــدة مـــن متابعة النقاش لأنه لن يوصلنا إلى شيء. دعونا نحاول أن نفكّر قليلاً في هذه المسألة".

قال إيومينيس: "أنا... أنا أعتقد أنني ربما أمتلك حلاً".

التفت الحاضرون كي ينظروا إلى الأمين العام، بينما هزّ ليوناتوس رأسه، وفكّر في سرّه أن هذا المخلوق اليوناني الصغير يملك حلاً جاهزاً لكل شيء على الدوام.

سأل الإسكندر: "ألديك حلّ؟ وماذا عساه يكون؟".

أجاب إيومينيس: "لحظةً واحدة من فضلكم. سأعود على الفور". ثم غادر الخيمة، وما لبث أن عاد بعد وقتٍ قصير برفقة أحد المرشدين المحليين الذين رافقوهم حتى تلك المرحلة.

قال الأمين العام: "تكلّم بحرية. إن الملك وأصدقاءه سيصغون إليك".

انحنى الرجل للإسكندر ورفاقه، وبدأ بالكلام بلغة يونانية مفهومة إلى حدٍّ معقول، لكن لهجته أشارت إلى أنه قد يكون قبرصياً.

سأله الإسكندر: "من أين أنت؟".

"أنا من ليشيا الواقعة في منطقة باتارا. استُعبدتُ في شبابـــي كي أدفـــع ديناً كان لأحد أصحاب الأراضي من الفرس على والدي. كان اسم ذلك الرجل أرزاكيس، ولقد أخذني معه عندما عاد إلى بلاده، ثم أوكـــل إليّ مهمّة الانتباه إلى ماشيته التي كانت ترعى في هذه المنطقة. ولهذا السبب، أنا أعرف هذه الجبال مثلما أعرف ظاهر يدي".

أمـــسك جمـــيع الحاضرين أنفاسهم عندما أدركوا أن هذا البائس المسكين قد يعتمد عليه مصير جيشٍ بأكمله.

تابع الرجل كلامه: "إذا عدتم إلى ذلك الوادي، فإنكم ستتعرضون للإبـــادة على يد الفرس، وذلك قبل أن تصلوا إلى أسفل ذلك الجدار،

وذلـــك لأن الوحدات الصغيرة وحدها هي التي تستطيع التحرك هناك. ومع ذلك، أعرف طريقاً تبعد مسيرة ساعة عن هذا المكان، وهي طريق تمرّ صعوداً من خلال غابةٍ كثيفة. إنها طريق للماعز في واقع الأمر، أي أن الـــرجال لا يستطيعونَ عبورها إلا في صفٍّ واحد. لكن تكفي أربع أو خمس ساعات للوصول إلى القمة، ولمفاجأة الفرس من الخلف".

قال سلوقس: "يبدو لي أنه لا خيار آخر لدينا، هذا إذا كنا نرغب فعلاً في التحرك إلى الأمام".

قـــال الإسكندر: "أنا أيضاً أعتقد ذلك، لكن تبقى هناك مشكلة. إذا كانـــت الطريق ضيقة، فإننا لن نستطيع إيصال ما يكفي من رجالنا إلى القمـــة كي يواجهوا أي هجومٍ مضاد يقوم به الفرس. سيتعيّن على بعض الجنود أن يشاغلوهم عند الأسوار مباشرة".

قال لايسيماخوس: "سأهتم بهذا الأمر بنفسي".

"كـــلا، لأنك ستأتي معي. أما كراتيروس فهو الذي سيذهب مع الأغريانيين، والتراقيين، بالإضافة إلى كتيبة من جنود الهجوم، وسيحاول أن يُبقي الخسائر في أدنى حدٍّ ممكن. سنقوم بالهجوم في الوقت ذاته، أي أن رجالـــنا سيهاجمون من الأعلى، بينما يهاجم كراتيروس ورجاله من الأسفل. إن هجوماً متناسقاً من هذا النوع لا بد من أن يُلقي الرعب في قلوب الفرس".

قال كراتيروس: "سنحتاج إلى إشارة، لكن كيف يمكن أن تكون هـــذه الإشارة؟ إن الوادي عميق جداً بالنسبة إلى الإشارات الضوئية، كما أن المسافة بين وحداتنا قد تكون كبيرة جداً حيث يستحيل إيصال الصيحات، أو أي شكلٍ من أشكال الضجيج".

فقال الراعي من ليشيا: "هناك طريقة. أعرف مكاناً قرب السور يتـــردد فيه الصدى عبر جدران الوادي، أي أن صوت البوق يصل إلى

مسافة بعيدة. جرّبت ذلك مرات عديدة ببوقي، وذلك كي لا أشعر بالضجر عندما كنت آخذ قطيعي إلى المرعى".

نظر إليه الإسكندر قائلاً: "ما اسمك أيها المواطن القادم من ليشيا؟".

"اعتاد سيدي أن يناديني أوخوس، وهو يعني اللقيط بالفارسية، لكن اسمي الحقيقي هو ريداس".

"اسمع يا ريداس. إذا كان ما أخبرتنا إيّاه حقيقيّاً، وتمكّنت من إيصالنا إلى خلف خطوط الفرس، فسأجعل منك رجلاً ثرياً، وستتمكن من العيش بترفٍ بقية أيامك، وسيكون في وسعك أن تعود إلى مسقط رأسك، وتشتري أفخر منزل يحتوي على الخدم، والنساء، والحيوانات. ستحصل على أي شيء، أيّ شيء تريده".

ردّ الرجل من دون أن يُبعد نظره: "سأفعل ذلك مجاناً يا مولاي. أبقاني الفرس عبداً لهم، وضربوني وعاقبوني آلاف وآلاف المرات من دون سبب. إنني مستعد للانطلاق في أي وقت تشاء".

مدّ ليوناتوس رأسه إلى الخارج قليلاً، وقال: "بدأ تساقط الثلج يخف".

قال الإسكندر: "ممتاز. دعونا نقدّم طعام العشاء الآن، وكذلك بعض الشراب إلى جميع الذين سيخرجون مع كراتيروس. تأكدوا من تقديم المغريات إلى جميع الذين يتطوعون، لأنه ينبغي لهم الانطلاق فوراً بعد الانتهاء من العشاء. أعتقد أن الفرس لن يتصوروا أننا بلغنا حداً من الجنون حتّى نعاود الكرة بهذه السرعة. أما نحن فسنتبع ريداس بعد انتهاء نوبة الحراسة الأولى".

تناول الملك طعامه مع أصدقائه في خيمته، وحصلوا على الحصص ذاتها التي وزّعت على الجنود، وما لبث كل واحدٍ منهم أن انصرف

كـــي يستعد لهذه المهمة الليلية. غادر كراتيروس مع رجاله أولاً، وتبعه الإســـكندر مع معظم جنوده بعد انتهاء نوبة الحراسة الأولى، كما سبق له أن أعلن.

قادهم ريداس إلى بداية الطريق، ثم صعد بهم نحو الممر من خلال غابة كثيفة الأشجار. كان الممر ضيقاً ويصعب العبور فيه، وهو الذي تـــشكّل عبر قرونٍ متعاقبة، نتيجة مرور الرعاة والمسافرين الذين كانوا يبحثون عن طريق مختصرة في رحلتهم نحو بيرسيس. مرّت فترات تعرّج فـــيها المعبر بمحاذاة المنحدرات، ولذلك اضطر الرجال إلى تغطية عيون الأحـــصنة لمنعها من الانـــزلاق بسبب الخوف. كانت الانـــزلاقات تـــسدّ هذا الممر في بعض الأحيان. وفي أحيان أخرى كان يصبح زلقاً بـــسبب الجليد، ولذلك اضطر الرجال إلى الإمساك بأيدي بعضهم، أو إلى ربـــط أنفسهم معاً بالحبال كي لا يسقطوا إلى الأسفل، وينتهي بهم الأمر ممزقين إرباً إرباً فوق الصخور.

تقـــدم المرشـــد إلى الأمام بخطى واثقة، وذلك بالرغم من الظلام المخـــيّم، وكـــان من الواضح أنه يستطيع أن يتحرك بسهولة ولو كان معـــصوب العينين. وفي واقع الأمر، سقط بعض المحاربين في هوّة عميقة حيث كان من المستحيل استعادة جثثهم. سار الإسكندر وراء ريداس، لكـــنه كثيراً ما كان يتوقف كي يساعد أولئك الذين يُجهَدون للمضيّ قـــدماً، كمـــا غامر بحياته أكثر من مرة كي يُنقذ أولئك الجنود الذين كانوا في خطر.

انخفـــضت الحـــرارة أكثر قبل الفجر، وهكذا لاحظ الرجال أن الـــتقدم قد ازداد صعوبة، كما لاحظوا أن أطرافهم متصلبة، إضافة إلى شـــعورهم بالتعب بعد محنة الزحف الليلي الطويل. لكن أشعة الشمس بـــدأت بالتسلّل من خلال الغيوم الكثيفة المتجمعة في الأفق، فتشجعوا

قلـيلاً لأهـم تمكنوا من تمييز الأرض المحيطة بهم، كما أن قلة النباتات حولهم جعلتهم يدركون أهم اقتربوا من القمة.

أخـيراً، وصلوا إلى القمة. وكانت الرياح قد هدأت قليلاً، لذلك أعطـى الإسـكندر الجـنود الذين كانوا في المقدمة أوامره بالبقاء في أماكـنهم إلى أن يصل سائر الجنود. بعد ذلك، انطلق الجنود في زحفٍ صـامتٍ محاولين الاستفادة من الشجيرات الموجودة كي يبقوا خارج مدى رؤية الفرس، وذلك إلى أطول فترة ممكنة.

أشار الدليل بعد ذلك إلى مرتفعٍ في الأرض كان قد برز أمامهم، وهو عبارة عن نتوء صخري يمتد حتى الوادي، ثم قال: "هذا هو المكان الذي تصل فيه ترددات الصوت إلى مسافات بعيدة. ستتمكن في الجهة المقابلـة من هذا النتوء من رؤية السور الحصين الذي يتحكم بالوصول إلى البوابات الفارسية. وصلنا إلى مقصدنا".

تقـدم بطلـيموس إلى الأمام وقال: "أتعتقدون أن كراتيروس قد وصل فعلاً إلى الموقع المتفق عليه؟".

أجـاب الإسـكندر: "بالتأكيد، هذا إذا كان كل شيء قد سار بحـسب الخطـة المرسومة. لكن، حتى لو واجه صعوبة ما، فلا يوجد أمامـنا أيّ خيارٍ آخر. اصطفوا أيها الرجال، ولينفخ أحدكم في البوق لأننا سنهاجم المواقع الفارسية".

أمـر بطليموس جنوده بالتجمع في ثلاثة صفوف. فاصطفت أولاً سـرية من الفرسان، ثم اصطفّ بعدها المشاة المسلحون تسليحاً خفيفاً إلى جانـب رماة السهام وقاذفي الرماح. ووقف بعدهم مباشرة جنود قـوات الـصدم، وحاملو الدروع، تحت قيادة لايسيماخوس. في هذا الوقت، أشار الإسكندر إلى حامل البوق، فاتخذ مركزه فوراً فوق النتوء الـصخري الممـتد حتى الوادي. تردد صوت البوق بحدةٍ تماثل صياح

الديك مخترقاً هواء الفجر الساكن. سُمع الصدى على الفور، وما لبث أن تـــردد مراراً عبر التلال المتواجدة في الوادي حتى تلاشى أخيراً عبر مساحات الثلج مترامية الأطراف، وناصعة البياض.

خـــيّمت فترة من الصمت على الجيش المتجمّع، وبدت ثقيلةً مثل السماء المكفهرة. في تلك الأثناء، أرهف الجميع السمع في انتظار الرد. وعلى نحو مفاجئ، وصل نفير بوق آخر إلى أسماعهم، ثم تبعه نفير آخر، وازدادت قوة الصوت كثيراً بفعل الصدى، وسرعان ما سمعت أصوات المحاربين المندفعين في هجومهم.

صـــاح الإســـكندر: "أطلق كراتيروس الأغريانيين! إلى الأمام يا رجال! دعونا نريهم كيف صمدنا في وجه البرد!".

امتطـــى الإسكندر صهوة جواده وتمركز في وسط سريّته، ثم سار نحـــو النتوء الذي يُشرف على مواقع الحامية الفارسية، بينما تبعه جنود المشاة بسرعة كبيرة، وذلك كي لا يفقدوا أثره. قاد الإسكندر الهجوم ما إن ظهرت أمامهم المواقع الفارسية، ثم أطلق صيحة الحرب.

انطلق نفير الأبواق في وقتٍ واحد، وانطلق كل جنود المشاة وقد جهّزوا أسلحتهم، بينما أسرع الفرسان بجيادهم كي يشتبكوا مع العدو الذي وجد نفسهم في هذا الوقت مضطراً إلى توزيع قواته على جبهتين. هاجم فرسان الإسكندر من فوق الخندق الذي يحمي الحامية، وما لبث المـــشاة أن ساروا خلفهم على الفور وشاغلوا المدافعين بمعركة شرسة وجهاً لوجه.

أدرك الفـــرس بـــسرعة حقيقة الورطة التي وقعوا فيها، فأطلقوا إنـــذارهم، لكنهم اضطروا في سياق ردّهم على الهجوم إلى ترك أجزاء من أعلى الأسوار من دون تغطية، وهكذا تمكّن الأغريانيون من تسلقها مـــستخدمين خناجرهم التي ثبتوها في الشقوق الظاهرة على الجدران،

وهـــي الشقوق التي كانوا يحشرون أنفسهم فيها عندما يرميهم الأعداء بالأحجـــار أو يصوّبون نحوهم سهامهم. لم يطُل الأمر قبل وصول أول الأغـــريانيين إلى الأعلى. وكان بعضهم قد شاغلوا الفرس، بينما ساعد بعـــضهم الآخـــر رفاقهم على تسلق الجدار بسهولةٍ أكبر عندما رموا الحـــبال نحوهم. تمكن المقدونيون وحلفاؤهم من النيلٍ من العدو بالرغم من قلة أعدادهم، وربما يعود ذلك إلى أنّ الفرس فوجئوا بهم. إذ كانوا نائمين وغير مسلحين.

وبالكـــاد تمكن آريوبارزانيس من الخروج من مقره حاملاً سيفه بـــيده، لكـــنه وجـــد نفـــسه على الفور محاطاً بمجموعةٍ من الفرسان المقدونيين الذين هدّدوه بأسنة رماحهم، فأُجبر الرجل علىً إعطاء الأمر بالاستسلام التام، ثم جلس يراقب بعجز جيش الإسكندر الذي زحف عـــبر المعـــبر الـــذي تحـــرّر الآن، والذي كان من المفترض أن يحمي بيرسيبوليس، وهكذا أصبحت المدينة تحت رحمة العدو.

21

انتظـــر الإســـكندر حتى انتهى بقية الجنود من الصعود، ثم أصدر إلـــيهم الأوامر كي يبدأوا بالنـــزول نحو بيرسيس. استدعى الإسكندر قـــبل بدايـــة التحرك ذلك الراعي من ليشيا الذي قاد جيشه نحو المعبر المحصّن.

قـــال له: "كانت مساعدتك لنا حاسمة، ولقد ساعدتَ الإسكندر علـــى قهر إمبراطورية الفرس، وربما ساعدتَه على تغيير مجرى التاريخ. ولا يمكـــن لأحدٍ أن يقرّر ما إذا كان ذلك أمراً حسناً أو سيئاً، لكنني ممـــتن لك على كُلِ حال". وكان على وشك أن يضيف: "قل لي ماذا تـــريد كمكافـــأة، وسيكون لك على الفور". لكنه تذكّر ذلك الوقت الذي قال فيه هذه الجملة لديوجينيس، ذلك الفيلسوف العجوز، عندما كان مستلقياً وهو عارٍ وسط ضوء الشمس الغاربة، ولذلك أنهى كلامه بالقول ببساطة: "شكراً لك يا صديقي".

فاضـــت عيـــنا الراعي بالدموع وهو يشاهد الملك يمتطي صهوة جواده ويتحرك نحو أسفل التلة، لكنه انتبه عندما سمع صوتاً آخر وراءه. كـــان ذلـــك صوت إيومينيس الذي قال له: "أبلغني الملك أنه يمكنك الحصول على أي شيء تريده، أي كما وعدك، وما عليك إلا أن تخبرني به".

أجـــاب ريداس: "كنتُ سأرغب في مرافقته لو كنت أصغر سناً، وذلـــك كي أرى ما سيحدث لاحقاً. ولكن، يتعيّن عليّ الآن أن أفكّر في حياتي كرجلٍ مسن. إنني أريد إعادة شراء الحقل الذي كان لوالدي،

والمنـــــزل الذي وُلدت فيه، وهو يقع على الشاطئ. لم أرَ البحر منذ وقتٍ طويل جداً...".

"ســتراه مجدداً أيها الراعي، وستسترجع بيتك وحقلك. وستقدر أيــضاً على تكوين أسرة إذا أردتَ ذلك. أما إذا أنجبتَ أطفالاً وأصبح لــديك أحفــاد، فستروي لهم كيف أنك ذات ليلة قُدتَ الإسكندر لتحقيق قدره. أما إذا لم يصدقوك، فباستطاعتك أن تريهم هذه".

"ما هذه؟".

وضــع إيومينـــيس قلادةً صغيرةً في يد رايداس قائلاً: "إنها نجمة الأرغـــاديين الذهبـــية. إن أصــدقاء الملك المقربين هم وحدهم الذين يمتلكون مثلها".

أعطـــاه إيومينيس كذلك حافظة وثائق جلدية وقال له: "هنا في هـــذه الحافظة رسالة من الملك إلى حاكم ليشيا يأمره فيها بأن يعطيك كـــل شـــيء تريده. إنّ هذه الرسالة قيّمة، وقيمتها تفوق أي مبلغٍ من الـــذهب أو الفـــضة. تأكّـــد من عدم ضياع هذه الرسالة. وداعاً أيها الراعي، وحظاً طيباً".

*

وفي الأمـــسية التالـــية، نـــــزلوا إلى سفوح الجبال، وسرعان ما اكتـــشفوا أن مرتفعات بيرسيس تمتد أمامهم، كما امتد النهر بمحاذاة خطـــوطٍ طويلة من أشجار الحور. وكانت هناك العديد من القرى التي تشتمل على منازل مشيدة بأحجارٍ طينية خشنة.

وصل الجيش إلى الطريق الملكية على ضفاف نهر آراكسيس. وأقام الإسكندر معسكراً كي ينتظر بارمينيون مع بقية الجيش. ولكن، لم يكد الخـــدم يفرغون من تقديم طعام العشاء حتى تقدم أحد جنود الهيتايروي مـــن الحـــرس الملكـــي كي يعلن عن قدوم أحد الزوار. قال الحارس:

"مولاي، هناك رجل يرغب في التحدث إليك، وقال إنه عبر النهر على متن أحد القوارب، ويبدو بأنه على عجلةٍ من أمره".

"إذاً، دعه يدخل".

قـــدّم الجندي رجلاً يرتدي ملابسه على الطريقة الفارسية، وكان سرواله مربوطاً فوق كاحليه، بينما وضع كوفيةً حول رأسه وعنقه.

سأله الإسكندر: "من أنت؟".

"جئت بالنيابة عن المرزبان أبيوليت، آمر الحصن في بيرسيبوليس. وهو يقول إنه مستعد لتسليم المدينة إليك، كما طلب إليّ أن أقول لك إنك تستطيع الانطلاق فوراً، هذا إذا كنت تريد العثور على خزنة الملك العظـــيم ســـليمة. أما إذا أضعت المزيد من الوقت، فإن الكفة قد تميل لصالح الذين يدعون إلى الدفاع عن المدينة حتى النهاية. ويطالب آخرون بتخبئة الخزنة من أجل تمويل عودة الملك داريوس. ماذا تريدني أن أقول لسيدي؟".

فكّـــر الإسكندر للحظاتٍ قليلة، ثم أجاب: "قل له إنني سأصل مع فرساني إلى مشارف بيرسيبوليس في غضون يومين، وعند مغيب الشمس".

ثم رافـــق بعض الجنود الرجل حتى وصل إلى قاربه. وعلى الفور، استدعى الملك دياديس من لاريسا؛ رئيس مهندسي الجيش.

وقال له قبل أن يتمكن الرجل من الجلوس: "أحتاج إلى جسرٍ يُبنى فوق آراكسيس حيث يكون جاهزاً مساء غد".

اعـــتاد دياديس أن يطلب منه الإسكندر طلباتٍ مستحيلة، تُلزمه بإنجـــاز بعض الأشياء في أوقات قياسية، ولذلك لم يرمش له جفن وهو يطرح السؤال: "وكم تريد أن يكون عرضه؟".

"أريـــد أن يكـــون بأقصى عرضٍ يمكنك صنعه... سيتعيّن علينا تسهيل عبور الفرسان النهر بأقصى ما نستطيع".

"أتكفي خمسة كيوبيت؟".

"بل عشرة".

"إذاً، سيكون بعرض عشرة كيوبيت".

"أتعتقد أنك ستنجح في صنعه؟".

"هل سبق لي أن خذلتك يا مولاي؟".

"كلا".

"لكن، سيتعين عليّ أن أبدأ العمل على الفور".

"كما تريد. يمكنك إصدار الأوامر إلى أي شخص، وحتى القادة. إنني أعطيك سلطة كاملة لتفعل ذلك".

غادر دياديس، وما لبث أن جمع عشر فرقٍ من الرجال، وأعطاهم فؤوساً، ومناشيرَ، وأسلاكاً، وسلالم، كما أعطاهم بغالاً وخيولاً، ثم أرسلهم كي يقطعوا أشجار التنّوب من غابة مجاورة. قام الرجال بتنظيف بعض جذوع الأشجار، وشحذوا أطرافها حتى أصبحت حادة، ثم تمت تقسيتها بالنيران، بينما قُطعت جذوع أخرى على شكل ألواح. عمل ثلاثمئة رجل طيلة الليل، وعند طلوع الفجر حيث جُمعت كل المواد اللازمة فوق ضفة النهر، وصارت جاهزة للجمع.

استعمل دياديس الجذوع ذات الأطراف الحادة، وبدأ في إدخالها في مجرى النهر بمساعدة مطارق كبيرة، وحرص على إدخال جذعين في كل مرة حيث يبعد الواحد عن الآخر مسافة عشرة كيوبيت. رُبطت هذه الجذوع بالطول وبالعرض بواسطة ألواحٍ سبق تثبيت المسامير فيها. وعند ذلك، تكوّن هيكل جانبي، ومنصة أفقية تصلح للعبور. تقدم بناء الجسر جزءاً تلو الآخر حتى وصل إلى وسط النهر حيث جرت تقوية الدعائم بأحجار كبيرة، وهو الأمر الذي ساعد على التخفيف من قوة تيار المياه.

وبحلــول المــساء، أمر الإسكندر جيشه بالاصطفاف بتشكيلاتٍ قتالــية، وانتظــر إلى أن انتهى تثبيت آخر لوحٍ على الدعائم، ثم انطلق بجــواده بوسيفالاس بسرعة كبيرة، وما لبث رفاقه أن تبعوه، مع أربع سرايا من *الهيتايروي*، وسار المشاة وراءهم بقيادة كراتيروس.

سار الجيش طيلة الليل ولم يتوقف للحصول على قسط من الراحة إلا بحلول نوبة الحراسة الثالثة؛ أي قبل شروق الشمس. شعر الإسكندر بإنهــاكٍ شــديد بعد أحداث الأيام القليلة الماضية، وبسبب الليالي التي أمضاها من دون أن ينام، لذلك سرعان ما استسلم لنومٍ عميق. تسبب هواء المرتفعات الخفيف، والنسيم الشرقي اللطيف، بالإضافة إلى غابات الجــبال الظلــيلة وأشجار القيقب، في جعل الجنود يشعرون بالطمأنينة والهــدوء التام. وراحت الجياد ترعى بكل حرية على ضفاف الجدول الــذي كانــت مــياهه العذبة والنظيفة تجري بين أشجار الصفصاف والشجيرات الأخرى. راح بوسيفالاس يتنقل بين هذه الأشجار، بينما تــبعه بيريــتاس الذي راح يداعب الجياد فيعضّ عراقيبها. ولم يبدُ في الأجواء ما يشير إلى ما سيحدث لاحقاً.

توجهت إحدى دوريات الكشافة نحو الغرب، أي في اتجاه الطريق الملكــية كي تتأكد من عدم تعرّض الجيش للمفاجآت في ذلك الاتجاه. ولم يــستطع أفراد الدورية تصديق أعينهم عندما رأوا صفاً طويلاً من الــرجال الــذين كانوا يتحركون قدماً باتجاههم، فيما راياتهم الحمراء ترفرف في الهواء. كان ذلك جيش بارمينيون!

هــرع أفراد الدورية نحوهم، وعرّفوا عن أنفسهم، وقال قائد الدوريــة للضابط المسؤول في صف الجيش المتقدم: "أنا يوثيديموس قائــد الفــرقة الثامنة من سرية فرسان الهيتايروي. خذني إلى القائد بارمينيون".

"إنّ القائـــد بارمينـــيون موجود في نهاية الصف مع حرس مؤخر الجيش، وذلك بسبب حدوث بعض المناوشات مع الفرسان الميديين في المرتفعات. سأستدعي القائد كلايتوس كي يتحدث إليك".

وصـــل الأســـود بعـــد وقت قصير. وكانت الغيوم قد حجبت الشمس بشكلٍ متزايد، حيث بدا الأسود وكأنه إثيوبـــي. سأل القائد: "ماذا وراءك أيها القائد؟ أين أنتم؟".

"تمكـــنا أيها القائد من اختراق البوابات الفارسية، ونحن على بعد أقـــل من عشرين ستاديا من هنا. لم ننم منذ ليلتين، ولكن ما إن ترتفع الـــشمس في الأفـــق حتى نكون جاهزين للانطلاق نحو بيرسيبوليس. يمكنكم متابعة مسيرتكم بسرعتكم هذه، بينما سنمضي نحن بأسرع ما يمكنـــنا. إنـــي متأكد من أن الملك سيشرح لك كل شيء عندما يحين الوقت المناسب".

أجـــاب الأسود: "حسناً. أوصِل تحياتي إلى الملك، وقل له إننا لم نواجه متاعب خطيرة. سأخبر القائد بارمينيون أنني التقيتك، لكن، هل ابنه فيلوتاس بخير؟".

"إنه في حالة جيدة، كما شارك في المعركة عند المعبر من دون أن يُـــصاب بأي أذىً". ثم استدار على صهوة جواده، وما لبث أن تراجع عائداً مع جنوده.

كانـــت الفرقة على استعداد للتحرك خلف الإسكندر الذي كان فوق صهوة بوسيفالاس، وكان على وشك إعطاء إشارة الانطلاق. في تلك اللحظة بالذات، أشرقت الشمس فأضفت صبغةً زهرية اللون على قمـــم جبال عيلام التي برزت واضحة من بين أشجار الغابات خضراء اللـــون في الأســـفل، وكذلك بين حشائش الحقول الصفراء التي تنتشر فوق تلك الهضبة على مدّ النظر. في ذلك الوقت، كانت قوافل الجمال

تمـــرّ بأحمالهـــا، فيما ظهر فلاحون على ظهور حميرهم في طريقهم إلى الـــسوق. وكانوا يجرون معهم عرباتٍ صغيرة محملة بكل أنواع السلع المتواضعة. كذلك ظهرت النساء اللواتي ارتدين ملابس زاهية الألوان، واللواتي كن في طريقهن إلى الجدول للحصول على المياه، بينما كانت الأخـــريات في طـــريق عودتهن منه وهن يحملن على رؤوسهن بشكل متوازن أوعيةً مليئة بالمياه. كان يوماً عادياً مثل أي يومٍ آخر، ولكنه في المقابل كان اليوم الذي ستتلقى فيه أقوى إمبراطورية في العالم ضربةً في الصّميم.

تـــردد صـــوت البوق في الأجواء، وما لبثت السرايا أن انطلقت مـــسرعة في الطـــريق، متسببة بتكوين ستارة كثيفة من الغبار. كانت المناظر حولهم تتغيّر كثيراً مع تقدّمهم، ليس فقط تلك المتعلقة بالمظاهر المحـــسوسة مثل الأحراش كثيفة الأشجار، والبساتين والحدائق، ولكن تلك المتعلقة بسلوك المواطنين كذلك. كانت أبواب المنازل تُغلق عندما كـــان الجنود يمرون وهم على صهوات جيادهم، أما الطرقات فكانت تفـــرغ مـــن الناس، وكذلك كانت الأسواق تفرغ من الناس بشكلٍ مفاجئ. فاستنتج الجنود أن أخبار ذلك الفاتح اليوناني، والتي امتزجت بالأساطير، لا بد من أنها قد وصلت إلى الناس هنا.

فجـــأة، رأى الملك منظراً مقلقاً عند الظهيرة تقريباً، وذلك بينما كـــان علـــى رأس جيشه المتقدم. كان كل من هيفاستيون وبطليموس يقـــف إلى أحـــد جانبيه. كانت مجموعة من الأشخاص العُرج تتقدم نحوهم عبر الطريق، وكان الجميع يلبسون ثياباً رثة ويلوحون بأيديهم، بينما لوّح بعضهم بما تبقى من يديه، وكأنهم أرادوا لفت انتباه الملك.

ســـأل الملك إيومينيس الذي كان خلفه: "لكن، من يكون هؤلاء الناس؟".

اقترب الأمين العام أكثر كي يتمكن من رؤية هؤلاء الناس بطريقة أفضل، ثم قال: "ليس لديّ أدنى فكرة عنهم، لكننا سنعرف عما قريب".

ترجل إيومينيس عن صهوة جواده، ثم تقدم ماشياً نحو هؤلاء المساكين. وأيقن لدى اقترابه منهم أن عددهم أكبر مما ظنّ سابقاً. وترجّل الإسكندر بدوره، وبدأ بالسير نحوهم، لكنه لاحظ أن إحساسه العميق بالكرب يزداد كلما اقترب منهم. سمعهم عندما اقترب يتكلمون مع إيومينيس باللغة الإغريقية.

تابع السير نحوهم فلاحظ أنهم يحملون أبشع التشوّهات. فبعضهم قُطعت يداه الاثنتان، وبعضهم الآخر قُطعت له ساق أو اثنتان، بينما لم يخسر آخرون أطرافهم فقط، بل كانت جلودهم تحمل ندوباً عميقة، وهي الندوب التي تماثل تلك التي يُصاب بها شخصٌ صبّ فوقه سائل في حالة غليان.

شرح أحد هؤلاء المساكين ما حصل له عندما لاحظ أن الإسكندر يحدّق إلى جسمه المشوه: "كان ذلك زيتاً".

سأله الملك: "من أنت؟".

"اسمي هيراتوستين من ميثون يا صاحبي. كنت جندياً في الوحدة الثالثة التابعة للكتيبة الثامنة. أنا من إسبارطة".

"إسبارطة؟ لكن... كم عمرك؟".

"عمري ثمانية وخمسون عاماً يا صاحبي. أسَرَني الفرس خلال الحملة الثانية التي شنها الملك آجيسيلاوس عندما كنت في السابعة والعشرين من عمري. قطعوا قدميّ لأنهم يعرفون أن المحارب الإسبارطي لن يقبل أبداً فكرة كونه أسيراً لأنه يفضّل أن يموت".

هزّ إيومينيس رأسه قائلاً له: "تغيّرت الأحوال يا صديقي".

"بالرغم من ذلك، حاولت الانتحار، فرمى عليّ سيدي زيتاً يغلي. وبعد ذلك، استسلمت لقدري وتقبلت فكرة الأسر، لكن عندما سمعت أن الإسكندر في طريقه إلى...".

قال شخص آخر ملوحاً بما تبقى من يديه المقطوعتين بعد أن قُطع ساعداه تحت المرفق مباشرة: "نشرنا الخبر حتى يستطيع الجميع الحضور للقائه".

سأله الملك بصوتٍ مرتعشٍ من فرط الغضب والانفعال: "لكن، لماذا فعلوا بك ذلك؟".

"كنت أخدم في الجيش الأثيني في أثناء حرب المرزبانات، وكنت مجذفاً في كريسي، وهي سفينة حربية ضخمة وجميلة، وكانت خارجة لتوها من حوض السفن. وقعنا في كمين، وأُخذت أسيراً. وقالوا لي إنني لن أتمكن من التجذيف في سفينة أثينية بعد الآن".

شاهد الإسكندر رجلاً آخر ذا محجرين فارغين وجافّين، وكأنهما موجودان في جمجمة، فسأله: "ماذا حدث معك؟".

"قطعوا جفوني، وغطوا عينيّ بالعسل، ثم ربطوني بالأرض قرب جحر نمل. خدمت في البحرية الأثينية أنا أيضاً. ولذلك أرادوا أن يعرفوا مخبأ بقية الأسطول، لكنني رفضت إخبارهم و...".

تقدم آخرون كذلك، وعرضوا التشوّهات التي تعرضوا لها، وتحدثوا عن مآسيهم. كانت شعور رؤوسهم قد اشتعلت شيباً، وبعضهم سُلخت فروات رؤوسهم، بينما أتى الجرب على أيديهم.

تكلّم الإسبارطي مجدداً: "قل لنا، يا صاحبي، أين يمكننا العثور على الإسكندر كي نعلن ولاءنا له، وكي نشكره على تحريرنا. إن الموجودين هنا يمثلون شهادةً حية على الأثمان التي دفعها الإغريق عبر السنين في المعركة ضد البرابرة".

أجاب الملك وقد شحُب وجهه غضباً: "أنا الإسكندر، وقد أتيت كي أنتقم من الفرس بسبب الجريمة التي ارتُكبت بحقكم".

22

استدار الإسكندر ونادى رفاقه بصوتٍ عالٍ: "بطليموس! هيفاستيون! بيرديكاس!".

"نحن جاهزون يا مولاي!".

"حاصروا القصر الملكي، والخزنة الملكية، ودار الحريم، وتأكدوا من أن أحداً لن يجرؤ على الدخول إلى تلك الأماكن".

فانطلق الرجال بسرعة نحو وحداهم بعد أن قالوا: "كما تريد".

"ليوناتوس، لايسيماخوس، فيلوتاس، سلوقس!".

"نحن جاهزون يا مولاي!".

أشار الإسكندر إلى المدينة العظيمة التي برزت أمامهم فوق التلة ملونة بالألوان الذهبية والبرونزية اللامعة تحت أشعة الشمس، ثم قال: "قودوا الجيش إلى داخل المدينة. بيرسيبوليس لكم. افعلوا بها ما شئتم!".

ثم التفت الملك نحو الهيتايروي الذين كانوا ينتظرون فوق صهوات جيادهم، وقال لهم: "هل فهمتم ما قلته للتو؟ بيرسيبوليس لكم! ماذا تنتظرون؟ خذوها!".

سُمعت صرخة عظيمة من سرايا الفرسان قبل أن ينطلقوا بسرعة نحو العاصمة التي كانت تستعد في تلك اللحظة لفتح أبوابها لهم. قتل الجنود في طريقهم مجموعة من الموفدين الذين أرسلهم أبيوليت لاستقبالهم، وما لبثوا أن اندفعوا بكل الغضب الذي يتميز به قطيعٌ من الثيران البرية إلى داخل أغنى وأعظم مدينة في العالم.

لم يأتِ إيومينيس بأي حركة، لكنه نظر إلى الإسكندر مندهشاً، وقال: "بحق **الأسياد**، لا يمكنك إعطاء أوامر كهذه! قل لهم أن يعودوا. قل لهم أن يعودوا قبل أن يفوت الأوان. لا يمكنك أن تفعل هذا".

اقترب كاليستين وقال: "بالطبع يستطيع ذلك. ومع الأسف، لقد أصدر أوامره وانتهى الأمر".

تراجعت مجموعة اليونانيين المشوّهين الذين كانوا قد جاءوا للقائهم، وفعلوا ذلك وهم يشعرون ببعض الارتباك، وكأنهم أدركوا أنهم تسببوا، من دون قصدٍ منهم، بحدوث كارثة إنسانيةٍ فظيعة. رأى الملك مدى اضطرابهم فأومأ إلى إيومينيس.

"قل لهم إن كل واحدٍ منهم سيحصل على ثلاثة آلاف قطعة فضية، وسيحظى كل شخصٍ يريد الرجوع إلى عائلته ووطنه بنقلٍ آمنٍ. أما إذا فضلوا أن يبقوا هنا، فسيحصلون على مسكن، وخدم، وأراضٍ واسعة وماشية. قم بهذه الترتيبات كلها".

مرّر الأمين العام الأوامر الخاصة بتنفيذ هذه الترتيبات. ولكن، صعُب عليه التفكير بينما كان يتكلم، إذ وصلت إلى أذنيه أصوات النهب والصرخات اليائسة التي أطلقها سكان المدينة الذين أصبحوا تحت رحمة الجنود.

في هذا الوقت، وصلت وحدات المشاة، فركض الجنود بدورهم نحو بوابات المدينة، وهم قلقون من أن يكونوا قد تأخروا عن أعمال النهب. وفي تلك الأثناء، وصل بعض المبعوثين إلى جيش بارمينيون الذي كان على بعد مسافة قليلة، وأخبروه أن الملك قد ترك العاصمة تحت رحمة الجنود الذين كانوا ينهبونها. وقالوا له كذلك إن الفوضى قد حلّت مكان الانضباط عندما ترك الجنود وحداتهم متوجهين نحو بيرسيبوليس التي كانت تتصاعد منها أعمدة الدخان وألسنة اللهب.

نخس بارمينيون جواده، وسار به بأقصى سرعة متبوعاً بالأسود ونيرخوس، وتوجه نحو الإسكندر الذي كان ممتطياً صهوة بوسيفالاس. وحين وصلوا، كان الملك مستغرقاً في تأمل المجزرة من فوق تلة، وهو ساكن مثل تمثالٍ من الحجر.

قفز القائد العجوز إلى الأرض، وبدا وجهه مليئاً بأمارات التوتر وقال: "لماذا يا مولاي؟ لماذا؟ لماذا تقوم بتدمير ما أصبح ملكك بالفعل؟".

لم يستدر الإسكندر كي ينظر إليه، لكن بارمينيون تمكن من رؤية سكون الموت والدمار في عينه اليسرى. فنظر كاليستين إلى بارمينيون وتمتم بعد أن تأكد من أن الإسكندر لا يسمعه: "لا تطرح المزيد من الأسئلة أيها القائد. أنا متأكد من أن والدته أوليمبيا منشغلة الآن بتقديم أضحية دامية في مكانٍ سري، وهي تُمسك بزمام روحه تماماً. آه، ليت أرسطو موجود هنا كي يعالج هذا الكابوس!".

هزّ بارمينيون رأسه، وحدّق إلى الأسود ونيرخوس بملامح تنمّ عن الدهشة، وما لبث أن امتطى صهوة جواده وسار به بعيداً.

لم يتحرك الملك إلا عند مغيب الشمس. وبدا وكأنه استيقظ من نومٍ عميق. فامتطى صهوة بوسيفالاس، ودخل المدينة من إحدى بواباها. كانت المدينة سابقاً واحدة من أجمل الأماكن في العالم وأكثرها فتنة، ومثال التناسق التام بحسب المُثُل الإخمينية. أمّا الآن، فقد صارت تحت رحمة قطيع من البرابرة الثملين، أي الأغريانيين الذين لم يتورعوا عن اغتصاب الفتيات والأولاد الذين انتزعوهم من بين أيدي أهاليهم. وشارك التراقيون في هذه الفوضى بعد أن ملأوا أجوافهم بالشراب وغطت الدماء وجوههم، فحملوا الرؤوس المقطوعة للمحاربين الفرس الذين حاولوا المقاومة. لم يكن المقدونيون، والتيساليون، وجنود

الاحتـــياط اليونانـــيون أقل وحشية. فلقد ركضوا مثل المجانين بعد أن حملـــوا الأغراض التي نهبوها؛ كما حملوا أوعيةً مليئة بالأحجار الكريمة الثميـــنة، والـــشمعدانات الـــرائعة، والملابس الفاخرة، ودروعاً موشاةً بالذهب والفضة. وبين الحين والآخر، كانوا يلتقون رفاقاً لهم لم يوفقوا مثلهم في النهب، ولذلك حدثت مواجهات وسط الشوارع التي سالت فيها الدماء وجُرحت فيها الأعناق. نسي الجميع إنسانيتهم، وسعوا إلى الحـــصول علـــى نساءٍ جميلات كان غيرهم قد حصلوا عليهن، كما عمـــدوا إلى أخذهن بالقوة، وكانوا يتناوبون على اغتصابهن فوق أرضٍ مشبعةٍ بدماء أقرباء الضحايا.

ســـار الملـــك علـــى صهوة بوسيفالاس وسط تلك الصرخات والـــدماء، ووسط كل تلك الأهوال، من دون أن تظهر أي علامة من علامات التأثر على وجهه. بدا وكأن ليسيبوس قد نحته من رخامٍ بارد. بـــدا أن أذنيه لا تسمعان صرخات الأطفال الرضّع التي تُدمي القلوب عند سحبهم من أحضان أمهاتهم، ولا صرخات النساء اللواتي يستغثن بأولادهن وبناتهن وهن يبكين فوق جثث أزواجهن المشوهة الذين ذُبحوا مـــن دون رحمـــة خارج منازلهم. بدا الأمر وكأن الإسكندر لا يسمع سوى وقع حوافر بوسيفالاس على حجارة الطريق.

حـــدّق الإسكندر إلى الأمام مباشرة، وركّز عينيه على الاتساع اللامتناهـــي للقصر الملكي؛ الأبادانا، الذي تحيط به حدائق رائعة تضم أشـــجار سروٍ عالية، وأشجار حَورٍ فضية الأوراق، وأشجاراً تميل إلى اللـــون الأحمر بسبب أشعة الشمس الغاربة. حدّق إلى الردهات الرائعة بأعمـــدتها العملاقة المزخرفة برسومات الثيران المجنحة، وطيور العنقاء، وصـــور الملك العظيم الذي بنى هذه التحفة وزخرفها. أما الإسكندر، ذلك اليوناني الصغير، وسيّد مملكةٍ صغيرةٍ من الفلاحين والرعاة، والذي

كـــان تابعاً ذات يوم لسيادة دولةٍ أخرى، فقد أتى الآن من مكانٍ بعيد كي يخرق قلب تلك المملكة العملاقة التي باتت محتضرةً عند قدميه.

صعد الإسكندر درج القصر الضخم على صهوة حصانه. وهناك، رأى على الجدران الحجرية رسوماتٍ تمثل مواكب الملوك ورؤساء وفود تابعـــيهم وهـــم يحملـــون الهدايا المناسبة لاحتفال رأس السنة. ورأى أشخاصـــاً من الميديين، والكايسانيين، والأيونيين، والهنود، والإثيوبيين، والأشوريين، والبابليين، والمصريين، والليبيين، والفينيقيين، والباكتريين، والجدروســانيين، والكــرمانيين، والداهـــيين وهم مجموعة من سكان شـــعوب عـــدة تتقدم بهدوء نحو الستارة الذهبية التي ترتفع فوق عرش داريـــوس: الملك، وملك الملوك، ونور الآريين، وسيّد جهات الأرض الأربع.

وصل الإسكندر إلى العرش الذي أصبح أمامه تماماً. صُنع العرش مـــن خـــشب الأرز العطِر، ومن العاج، وكان مزيناً بالأحجار الكريمة الثميـــنة، بينما جمّله طيران من طيور العنقاء اللذان كانت عيونهما من الياقوت. برز رسم الملك داريوس الأول على جدارٍ خلفي. وظهر الملك عملاقاً ومرتدياً إحدى العباءات التي كان يرتديها في المناسبات الرسمية، كمـــا كـــان منـــشغلاً في قتال وحشٍ مجنح، وهو أهريمان؛ سيّد الشر والظلمات.

كانت القاعة العظيمة فارغة وساكنة، لكنّ أصوات أمواج محيطٍ من الحزن كانت تتردد بقسوة خارج جدرانها. فلقد تحوّل جنود فيليب الشجعان والمخلصون إلى قطيعٍ من الوحوش التي راحت تتقاتل على ما بقـــي مـــن الطرائد المرمية في الشوارع، وهم يصرخون بشتائمهم من أفـــواههم الـــتي تفوح منها روائح نتنة، كما أشعلوا النيران في الحدائق والقصور، ودمروا هياكل أهورا مازدا.

ترجّل الإسكندر عن صهوة جواده، وتحرك نحو العرش، ثم صعد الــدرج، وجلس متكئاً على مسندي اليدين المصقولين. استرخى قليلاً، وأســند ظهره، ثم تنهد بعمق. وفجأةً، ظهرت خيالات أشخاص عند المدخل، وسمع وقع خطواتٍ مسرعةٍ وقلقة.

فسأل الإسكندر من دون أن يتحرك: "من هناك؟".

تردّد صوت يقول: "إنه نحن يا مولاي!". كان ذلك صوت أحد العبــيد اليونانــيين الــذين جاءوا كي يلتقوه بينما كان في طريقه إلى بيرسيبوليس.

"ماذا تريدون؟".

لم يجب الرجل، لكنه تنحى جانباً مفسحاً المجال لاثنين من مرافقيه بالدخول. وكانا يحملان رجلاً عجوزاً يبدو عليه الوهن الشديد.

قال العبد اليوناني: "اسمه ليوكاريس. إنه واحد من العشرة آلاف الــذين كتب عنهم زينوفون، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة منهم. أعــتقد أنــه يبلغ الآن التسعين من عمره تقريباً. أمضى الرجل اثنتين وسبعين سنة في الأسر والعبودية".

جهِــدَ الإســكندر كي يخفي تأثره، لكنه سأله: "ماذا تريد أيها الرجل العجوز. ماذا أستطيع أن أفعل لواحدٍ من أبطال العشرة آلاف".

همس الرجل شيئاً لم يستطع الملك سماعه.

"إنه لا يريد شيئاً. يقول إن كل أولئك اليونانيين الذين ماتوا قبل هذا اليوم قد فاتهم أعظم شعور على الإطلاق. فقد فاتتهم رؤيتك جالساً على هذا العرش. ويقول كذلك إنه الآن يستطيع أن يموت كرجلٍ سعيد".

كــان العجوز متأثراً جداً، وفاضت الدموع من عينيه على خدّيه الغائرين، ولم يتمكّن من قول المزيد، لكن تعابير وجهه رسمت أكثر من ألف كلمة.

أومأ الإسكندر، واستمر في التحديق إليه وكأنه غير مصدق، بينما ساعده مرافقوه على المغادرة. بعد ذلك، نـــزل الملك عن عرشه وسار نحو بوسيفالاس الذي كان ينتظره في الردهة. ولكن ما إن أمسك بعنانه حـــتى رأى محاربـــاً فارسياً. بدا الفارس وكأنه خارجٌ من حلم، وكان مـــرتدياً زيـــاً رائعاً مثل ذلك الذي يرتديه أفراد فرقة الخالدين، وكان ممتطـــياً صـــهوة حصان ذي سرجٍ ذهبـــي يميل لونه إلى الحمرة. وبدا وكأنه ينظر إلى الإسكندر.

أمـــسك الإســـكندر بمقـــبض سيفه، ولكنه لم يتحرك. في تلك اللحظة، اهتزّت السماء بصاعقة تُعمي العيون، تبعها على الفور صوت رعدٍ اهتزت له أرجاء القصر بأكمله.

تعرّف الإسكندر إلى هذا العضو من فرقة الخالدين في لحظة وعي نـــادرة. فقـــد كان هذا المحارب ذاته الذي أنقذه ذات يوم من مخالب الأســـد، وهو الفارسي ذاته الذي أنقذه الإسكندر من موتٍ محقق في ميدان المعركة في إيسوس.

نخس الرجل حصانه وتقدم خطواتٍ قليلة إلى الأمام، ثم بصق على الأرض أمـــام الإسكندر واستدار، ثم نخس حصانه بكعبَي قدميه مجدّداً قبل أن ينطلق بأقصى سرعة في باحة القصر الواسعة والخالية.

23

"أسّـــسها الملـــك داريـــوس الأول - داريوس الكبير - في قلب بيرسيس. وكان من المقدّر لها أن تكون أروع عاصمةٍ في كل العصور. عمـــل على بنائها خمسون ألف شخصٍ ينتمون إلى خمسٍ وثلاثين أمةً مختلفة، ولمدة خمس عشرة سنة. قُطعت غاباتٌ بأكملها في جبل لبنان، واســتُخدمت جذوع أشجارها في بناء السقوف والأبواب، أما الرخام والأحجـــار الأخرى فقد نُقلت من مختلف أنحاء الإمبراطورية، وجُلبت أحجـــار الفيروز الثمينة من مناجم باكتريانا، ونُقل الذهب على ظهور الجمـــال مـــن نوبـــيا والهـــند. فيما جُلبَت الأحجار الثمينة من جبال باروبامسيوس، ومن صحارى جيدروسيا، والفضة من إيبيريا، والنحاس من قبرص. عمل آلاف من النحّاتين السوريين، واليونانيين، والمصريين علـــى نحـــت الرسومات التي تشاهدونها هنا على هذه الجدران، وعلى أبـــواب القـــصر، أما صاغة الذهب فقد أضافوا زخارف بمعادن ثمينة وأحجـــار كـــريمة. واســـتُدعيَ أمهر الناسجين كي يصنعوا السّجّاد، والـــستائر والمطـــرزات التي ترونها على الأرض وعلى الجدران، وعمل الرسامون الفرس والهنود على لوحات الجص. كان الملك العظيم يرغب في أن تكـــون هـــذه المدينة تعبيراً متناسقاً عن الحضارة التي تؤلف هذه الإمبراطورية اللامتناهية".

توقـــف كاليستين عن الكلام، وجال بنظره بصمتٍ فرأى أجواء المـــوت المفجـــع الذي يخيّم على هذه العاصمة العظيمة. رأى النباتات النادرة التي أُحضرت إلى الحديقة من مقاطعاتٍ بعيدة وهي تحترق الآن

مثل المشاعل، كما شاهد الأروقة المعمّدة والأبنية وقد اسودّت جميعها بفعل دخان الحرائق. نظر كذلك إلى الطرقات المليئة بالجنود المشغولين بالـــنهب والاغتصاب وبكل أشكال التصرفات المنفرة، وشاهد النوافير والبرك التي استمرت مياهها بإصدار صوت خرير حتى بعد أن امتلأت بالجـــثث، وقـــد تحـــوّل لون مياهها إلى اللون الأحمر قبل أن تسيل في الـــشوارع. نظر المؤرخ إلى التماثيل المتكسرة، والأعمدة، والهياكل، ثم التفت إلى إيومينيس، فرأى في عينيه الرعب والاضطراب ذاتهما اللّذين يشعر بهما هو أيضاً.

تابـــع القراءة بنبرة الصوت ذاتها: "هذا القصر المهيب كان يُدعى قصر رأس السنة، لأن الملك العظيم كان يأتي إليه كي يحتفل بأول يومٍ من السنة، وفي صباح الانقلاب الصيفي كي تستقبل جبهته أول شعاعٍ مـــن الأشـــعة الصافية الآتية من الشرق، فيضيء ملامح وجهه قبل أن يعكسها، أي كأن الملك هو الشمس الجديدة.

كانت أعمال الكهنة تزداد طيلة مساء ذلك اليوم وحتى الصباح، نحو النجوم متوسلة النور للملك العظيم، لأنه كان الرمز الأرضي الحي لأهـــورا مازدا. إن كل شيء هنا رمزٌ إلى شيء ما، فالمدينة بكاملها رمـــز، وكذلك كل الرسومات والنقوش التي نراها من حولنا في هذا المبنى".

راح إيومينيس يتمتم: "إننا نحرق... رمزاً".

"إنـــه رمزٌ. حتى إنّه أكثر من مجرد رمز. صُمّمت هذه المدينة في اليوم الذي تلى كسوفاً كلياً للشمس، وهو الكسوف الذي حدث منذ سبعين سنة وستة أشهرٍ مضت، أي أن هذه المدينة كان القصد منها أن تكـــون تجـــسيداً لإيمان هذا الشعب، وهو الذي يفيد أن العالم لن يقع فريـــسة لقـــوى الظلام مرةً أخرى. انظروا إلى هذا الرسم وسترون أن

الأسد يمزق ثوراً، أي أن النور يهزم الظلمة. إنه نور أهورا مازدا الذي تفيد معتقداهم أن ملكهم تجسيد له.

عندما ينبلج الفجر، ينتظر مئات من أعضاء الوفود في صمتٍ ديني إلى أن تنتــشر الأنوار الأرجوانية والذهبية عبر التلال وتغمر الباحات الواسعة. وبعد ذلك، يبدأ الموكب الكبير الذي حظي لستسياس وكتّاب يونانــيون وبرابــرة آخــرون بفرصة مشاهدته والكتابة عنه. وتحاكي الرسومات الكثيرة التي تزين الشرفات هذا الموكب بدورها.

والآن... يــشهد هــذا الشعب أعمالاً فظيعة ووحشية ودموية وتدنيــساً للمقدســات، وهــا هــي النار المبجلة بالنسبة إليهم تلتهم عاصمتهم، وتحرق جثث مواطنيهم".

ردّ إيومينــيس: "اقتــرف هؤلاء بدورهم، وفي أوج قوهم، كل أنــواع الأفعال الدموية. سبق لك أن رأيتَ أولئك المساكين، وسمعتهم وهــم يُخبرون عن العذاب الوحشيّ الذي تعرّضوا له. إن أولئك الذين بنوا هذه المدينة الأعجوبة، أي الملوك العظام أمثال داريوس وزيركزيس، هــم الملوك أنفسهم الذين غزوا بلادنا وهدموا مدننا وأحرقوها. وهم الذين قطعوا رأس الملك ليونيداس بعد صلبه في معبر ثيرموبايلاي، كما أحرقوا هياكلنا بعد أن دنسوها بكل الطرائق التي يتصورها إنسان".

قال له وهو يشير إلى نقوشٍ على أحد الجدران: "بالتأكيد. لكن، أتعرف لماذا؟ انظر إلى هنا. أتعرف فحوى هذا النقش؟ *أحرقتُ هياكل الدايــوا*، وهي هياكل الشياطين. هذا هو السبب. إن أسيادنا بالنسبة إليهم تجسيدٌ للشياطين، أي لسيّد الشر عندهم؛ أهريمان الذي أُطلق في الأرض كــي يتــسبب بالمآسي في هذا العالم. لقد كانوا يعتقدون أهم يقومــون بواجــبهم. إن كل شعوب العالم ترى الشر في غيرها، وفي الأجانــب وفي أسيادها، لذلك أخشى ألاّ تكون هناك هاية لهذه الحلقة

مـــن العنف. فلقد سبق لهم أن دمروا أكثر مظاهر حضارتنا روعة، وها نحن الآن ندمر أجمل مظاهر حضارتهم".

ثمّ صمت عن الكلام لأنه لم يتبقَ عنده أيّ شيء ليقوله، وما لبثت الـــصرخات وأصوات النواح في المدينة التي يعتصرها الموت أن ملأت الفراغ الذي تركه صمتهما.

*

سمعـــت الملكة الأم عن الخراب الذي لحق بالعاصمة بيرسيبوليس بعد ثلاثة أيام، وذلك من أحد فرسان فرقة الخالدين الذي اجتاز المعابر المغطـــاة بالـــثلوج من دون أن يتوقف أبداً. وعندما روى لها الفارس تفاصـــيل قلـــيلة عـــن المجزرة التي تعرضت لها تلك المدينة الخالية من الـــسلاح، وعـــن الدمار الذي لحق بالأعمال الفنية العظيمة أجهشت بالبكاء.

وبكـــى المحارب وهو يجثو أمامها، وقال لها: "أيتها الأم العظيمة. اقتليني لأنني أستحق الموت. أعرف ذلك اليوناني الصغير، وأنا مسؤولٌ عـــن كل شيء. كنت أنا من أنقذ حياته قبل سنين قليلة. حدث ذلك في أثناء رحلة صيد الأسود في مقدونيا. لم أفهم طريقته في إخفاء طبيعته الحقيقـــية والشرسة عندما أنقذ حياتي، وحرّرني في ميدان المعركة التي جرت في إيسوس. حينها شكرته وأظهرت له كل امتناني، بدلاً من أن أغـــرز خنجري في رقبته. انظري، هذه هي النتيجة الآن. اقتليني أيتها الـــوالدة العظيمة، فلعل موتي يسترضي الأسياد ويجعلها تميل إلى جانبنا فتخرجنا من ظلمة الإذلال والهزيمة".

جلست الملكة على عرشها ساكنة، وسالت دموعها على خدّيها بغـــزارة. نظـــرَت نحـــوه بنظرات ملؤها التعاطف، وقالت: "انهض يا صـــديقي المخلص. قف، ولا تُلقِ اللوم على طيبتك وشجاعتك. إن ما

حـــدث كـــان أمـــراً حتمياً. أتذكر ماذا اعتقد الليديون عندما احتل ســـيروس مدينة ساردیس وأحرقها؟ أتعرف كذلك ماذا قال البابليون عـــندما غيّـــر مجرى نهر الفرات، وسيطر على العاصمة، وقيّد ملكهم بالسلاسل؟ ألم نقم نحن بإحراق المدن ونهبها؟ وكم مرة أخمدنا الثورات بحـــد السيف، وأحرقنا الهياكل والمعابد؟ ألم يُقدم الملك قمبيز على قتل العجل آبيس في مصر، ونفّذ أبشع المجازر أمام أعين ذلك الشعب؟ كما أحـــرق الملك زيركزيس هياكل الأكروبوليس في أثينا، وأحرق المدينة بعـــد أن سوّاها أرضاً. حينها، ترك جميع السكان مدينتهم، وفرّوا إلى جزيـــرةٍ صغيرة، راحوا يشاهدون منها لهيب ألسنة النيران التي التهمت مـــنازلهم، والتي ارتفعت في السماء المظلمة. لقد أخبرني الذين يدونون سجلات تاريخنا بكل هذا.

أصـــابنا الآن المـــصير ذاته، مثلما أصاب مدننا الجميلة وهياكلنا، لكـــن ذلـــك لم يحـــدث لأن الإسكندر شرير. إنني أعرفه، وأعرف مـــشاعره. أعرف مدى طيبته، ومدى اهتمامه بالآخرين. إنني متأكدة من مقدرتي على استرحامه لو كنت موجودة، ومن قدرتي على إضاءة قلبه بنور أهورا مازدا ضد ظلمة أهريمان. هل حدّقتَ إلى عينيه؟".

"أجل يا مولاتي، وشعرت بالخوف".

التزمت الملكة الأم بالصمت للحظاتٍ قليلة، وما لبثت أن رفعت رأسها وسألت: "إلى أين ستذهب الآن؟".

"أريـــد التوجه شمالاً إلى إيكباتانا؛ إلى الملك داريوس، لأحارب إلى جانـــبه، وأمـــوت من أجله إذا كان ذلك ضرورياً. لكن، أرجوكِ أعطيني بركتك أيتها الملكة الأم، لأن هذه البركة ستعطيني الدفء فوق الـــثلج ووسط البرد القارس، وستساعدني على تحمّل الجوع والعطش، والمحن والألم".

ثمّ أخفض رأسه. رفعت الملكة الأم يدها المرتعشة ووضعتها على رأســه قائلــة: "إنني أباركك يا ولدي. أخبِر ولدي المتعب بأنني أدعو لأجله".

فأجابهــا الجــندي الذي ينتمي إلى فرقة الخالدين: "سأخبره". ثم طلب منها الإذن للمغادرة، وغادر المكان.

24

لم يزر الإسكندر قصر داريوس قبل اليوم التالي. فلقد نهض باكراً في ذلك اليوم، وقصد القصر، وجال بنظره فيه وقد علت وجهه تعابير غريبة، وبدا كمن يستيقظ من كابوس. تحلّق رفاقه حوله بانتظام، وقد حملوا أسلحتهم، وكانوا جاهزين لتلقي أوامره.

سألهم: "أين بارمينيون؟".

أجاب سلوقس: "إنه خارج المدينة، ويجلس في معسكره مع ذلك القسم من رجاله الذين لم يشاركوا في أحداث الأمس".

"وأين الأسود؟".

"إنــه في المعسكر كذلك. ويقول إنه متوعك، ويطلب منك أن تعذره على غيابه".

تمــتم الملــك وكأنــه يفكّــر بيــنه وبين نفسه: "لقد تركاني بمفردي".

صــاح هيفاستيون: "لكننا معك أيها الإسكندر!". ثم التفت نحو رفاقــه قــائلاً: "إنــنا معك مهما فعلت، وبغض النظر عما يُمكن أن يحدث. أليس هذا صحيحاً؟".

أجابوا جميعاً: "بالضبط".

قــال الإســكندر: "هــذا يكفــي الآن. أريد أن تنظموا بعض الدوريات من جنود الهجوم، وأن تسيروا في أنحاء المدينة وتذيعوا فيها ما يلــي: يُطلــب مــن كل الجنود اليونانيين، والمقدونيين، والتيساليين، والتــراقيين، والأغريانيين، يُطلب منهم جميعاً ومن دون استثناء مغادرة

بيرسيبوليس، والعودة إلى المعسكرات الموجودة خارج أسوار المدينة التي لن يبقى فيها غير فرقة الطليعة، وحراسي من الجنود".

وعلى الفور، غادر رفاق الإسكندر كي ينفذوا الأوامر التي تلقوها لتوهم.

بدأ الإسكندر جولته في أنحاء القصر برفقة إيومينيس، وكاليستين، ومترجمٍ، ومجموعة من الخصيان الذين كانوا لا يزالون مرتعبين. خرجوا مـــن الأبادانا إلى قاعة العرش الرئيسة والأصلية، والتي كانت عبارة عن غـــرفة واســـعة الأرجاء يبلغ عرضها أكثر من مئتي قدم ومثل ذلك في الطـــول. وكانـــت مدعومة بمئة عمود من خشب الأرز، أما جدرانها فكانت مطليةً بألوان ذهبية وأرجوانية، وفيها نقوش ورسومات جميلة، وكانـــت السقوف مزخرفة بالنقوش والرسومات كذلك. أما العرش، فكـــان مصنوعاً من الخشب ومرصّعاً بالعاج، كما وضعت خلفه على الجـــدار مظلـــة ومراوح من ريش النعام يقوم بتحريكها خدم يرتدون أزياءهم الرسمية في الأيام التي يخصّصها الملك للقاءاته.

انـــتقلوا مـــن هـــناك مباشرة إلى غرفة الخزنة الملكية، وقام أربعة خـــصيانٍ بفـــتحها، وهم الذين يحملون مفاتيح هذه الغرفة. تحركت الأبواب البرونـــزية ببطء على مفصلاتها، فظهرت الغرفة الضخمة أمام ســـيّدها الجديـــد. لم تحـــتوِ الغرفة على نوافذ مطلقاً، ومع ذلك تمكن الإسكندر من رؤية داخل الغرفة الذي كان مضاءً بفعل الضوء الداخل مـــن الباب الذي فُتح للتو، لكن ما رآه كان كافياً لإدهاشه. إذ رأى آلاف الـــسبائك الذهبية والفضية التي تحمل ختم مملكة الإخمينيين الذي كـــان عبارة عن رسمٍ يمثل الملك داريوس الأول وهو يُطلق سهماً من قوسه. وكان ذلك الرسم نفسه يظهر على النقود المعدنية، وهي تحمل اســـم *دورق* لهـــذا السبب. كانت هناك دلاء عدة مليئة بأكملها بهذه

النقود، وكانت بعض هذه الدلاء موضوعة فوق الرفوف التي تستند إلى الجدران.

أحضر الخصيان المشاعل، وما لبثت الانعكاسات المنبعثة من آلاف وآلاف الأسطح المسقوفة أن لمعت خلال تحركهم في شبه الظلمة المخيمة على الغرفة.

سار الملك، وإيومينيس، وكاليستين في الغرفة فتزايدت دهشتهم مع كل خطوة يخطونها. إذ لم يقتصر الأمر على وجود النقود المعدنية والسبائك، بل وجدوا كذلك منطقة مخصصة لحفظ الأشياء الثمينة، وهي الموجودات التي تجمعت خلال ما يزيد على مئتي سنة من الفتوحات والسيطرة على منطقة تمتد ما بين نهرَي السند وإستر. وجدوا مجوهرات بكميات لا تصدّق، وصناديق مليئة بالأحجار الكريمة الثمينة من كل الأشكال والأنواع، ولآلئ بيضاء وسوداء، وقلائد كثيرة، وبرونزيات، وشمعدانات، وتماثيل صغيرة، وصور نذور من هياكل قديمة، وأسلحة من كل الأنواع بما فيها الأسلحة القتالية، وتلك التي تصلح للاستعراضات العسكرية: الرماح والسيوف، والخوذ المزينة بأروع التيجان، والخناجر ذات النصال المستقيمة والمقوسة وحتى تلك التي كانت على شكل أفعى والمزينة بالجواهر، والدروع البرونزية الموشاة بالفضة أو المطلية بالذهب، وحتى الدروع الخشبية المطعمة بالعاج والفضة، ودروع وقاية الساقين، وأغماد السيوف مع سلاسلها الذهبية بحلقاتها المتداخلة ومشابكها المزينة بأحجارٍ فيروزية ومرجانية، وبلاطات مطلية بالذهب والفضة، وأقنعة من خشبٍ الأبنوس ومن العاج، وقلائد من الذهب والفضة هندية وأشورية ومصرية، وبعضها مخصّصة لتزيين الصدر. وبعد ذلك، شاهدوا التيجان والأكاليل التي زينت رؤوس فراعنة مصر، وطغاة الإغريق، وزعماء اللسكاثيين،

وراجات الهند، والمسؤولين الحكوميين، وقادة الجيوش، وكلها مصنوعة من الأبنوس، والعاج، والذهب، والبرونز، والفضة، والكهرمان، ومزينة بشكلٍ مدهش.

شاهد الملك وصحبه منسوجات متعددة الأنواع، بدءاً من الكتان المصري، والحرير السوري، وصولاً إلى الصوف الأيوني، والقماش الأرجواني الفينيقي. حتى إنهم رأوا أقمشة أخرى رائعة الجمال بألوانها المتنوعة والنادرة. أُحضرت هذه المنسوجات جميعها من بلادٍ بعيدة، وقيل لهم إنها أتت من وراء الصحاري الوسطى، ومن وراء سلسلة جبال باروبامسيوس. كما شاهدوا قطعاً من أنواعٍ أخرى من القماش من إنتاج الهند، والذي يتميز ببرودة الكتان نفسه، وبإمكانية صبغه بسهولة، ولكنه أخف من الكتان بكثير. قال أحد الخصيان: "يشبه ارتداء هذا القماش عدم ارتداء أي شيء".

كرّر الخصيّ خلال تقدمهم الجردة ذاتها بصوتٍ رتيب: "يوجد اثنا عشر دلواً يحتوي كل واحد منها على تالنت واحد من النقود الذهبية التي سكّها جلالة الملك داريوس الأول، وعشرين تالنتاً من السبائك الذهبية التي تحمل ختم جلالة الملك زيركزيس، ودرعٍ للصدر مصنوعة من بيت سلحفاة موشى بالعاج والمرجان، وتعود ملكيتها للراجا تاكسيلا، وغمد سيف كان ذات يوم ملكاً للملك السكيثي قربان الثاني...".

أدرك الإسكندر أن الأمر سيستغرق شهراً كاملاً إذا أراد أن يستمر في الإصغاء إلى أوصاف كل هذه العجائب، لكنه لم يتمكن، بكل بساطة، من تحويل نظره عن كل هذه الأغراض اللامعة، وعن هذه الأشياء العظيمة المدهشة، وعن أشكال هذه الحليّ الرائعة.

سأل إيومينيس فجأة: "وكم يبلغ مجموع قيمة هذه السبائك والقطع النقدية المعدنية؟".

نظــر الخصيّ إلى الإسكندر أولاً، وكأنه ينتظر منه الإذن لتقديم الجواب. وحين حصل على إشارة تفيد أنه بإمكانه إعطاء الجواب، قال بصوتٍ منخفض: "تبلغ قيمتها مئة وعشرين ألف تالنت".

شَــحُب وجــه إيومينيس وقال: "هل قلتَ مئة وعشرين... مئة وعشرين ألف؟".

أجاب الخصيّ من دون اكتراث: "هذا ما قلته بالضبط".

غــادر المــوكب، وســط شعورٍ عارمٍ بالدهشة من أكبر تجمّعٍ للأغــراض الثميــنة على وجه الأرض، بينما تابع إيومينيس وهو يردّد بــصوت مــنخفض: "لا يمكنني أن أصدّق ذلك. لا أستطيع، ببساطة، تــصديق ذلك. وإذا فكّرنا في أننا قبل نحو ثلاثة أعوام فقط لم نمتلك ما يكفي من المال كي نشتري القش لجيادنا، والقمح لجنودنا...".

قــال الإسكندر آمراً: "أريدك أن توزع عشرة مينايات (الميناي جزء من ستين من التالنت) على كل واحد منهم".

"هل قلتَ عشرة مينايات لكل جندي من جنودنا؟".

"هذا ما قلته، إنهم يستحقون ذلك. سأعطي كذلك تالنتاً إضافياً للــضباط، وخمسة لآمِرِي أكبر وحدات المشاة والفرسان، وعشرة لكل قائد. دعني أعلم مجموع هذه المبالغ".

تمــتم إيومينــيس: "سيكون لدينا أغنى جيشٍ في العالم، لكنني لا أعــرف ما إذا كان سيظل أشجع جيش. هل أنت واثق من أنه الشيء الصائب؟".

"لم يسبق لي أن كنت أكثر ثقة في حياتي. وعلى كل حال، ليس أمامهم ما يكفي من الوقت لإنفاق كل ذلك المال".

"لماذا؟ هل سننطلق مجدداً؟".

"سننطلق بأسرع ما يُمكن".

لكن الجيش بقي في بيرسيبوليس لأشهر. حيث تواجد المسؤولون عن الأرشيفات ومستشارو الملك، كما أن إيومينيس شرح للإسكندر أنه قبل المضي قدماً سيكون من الضروري تعزيز ما كُسِب فعلاً، وتنظيم أنظمة الطرقات والاتصالات، وهي الأمور الحيوية للمؤن. سيتعيّن عليهم إعطاء التوجيهات إلى كل المرزبانات ومديري نواحي تلك المقاطعات التي أُخضعت، بالإضافة إلى تنظيم العلاقات مع مقدونيا، وكذلك مع الوصيّ أنتيباتر. بحث إيومينيس كذلك عن أيّ وثيقة قد تشكّل دليلاً على تورط البلاط الفارسي في اغتيال الملك فيليب، أو عن أي أثرٍ للاتصالات بين الفرس والأمير إمينتاس من لينسيستس، والذي بقي خاضعاً للمراقبة بناء على أوامر الملك، وذلك بسبب الاتهامات التي طالته بخصوص التواطؤ مع داريوس عندما كان الجيش لا يزال في الأناضول. كانت نصوص الأرشيف مكتوبةً بحروفٍ مسمارية، ونظراً إلى ندرة المترجمين الماهرين، فقد كان العمل المتعلق بدراسة الأرشيف بعناية سيستغرق سنين عديدة.

تغيّر سلوك الجنود بشكلٍ كبير، كما توقع إيومينيس، بسبب توافر المال بين أيديهم وبسبب الخمول. يُضاف إلى ذلك أن رفاق الإسكندر أنفسهم سكنوا في أجمل قصورٍ في المدينة وذلك بعد تنظيفها وترميمها، أي أنهم عاشوا مثل الملوك. واستمر الملك في دعوتهم إلى مشاركته النزهات على صهوات الأحصنة، كما نظم لهم مباريات رياضية كي يُبقيهم في حالة جسدية مقبولة. شارك أصدقاء الملك بهذه المباريات على مضض، ولأنهم يريدون أن يبقوه سعيداً. ولكن، ما إن يبدأون باللعب حتى يلاحظوا أنهم يستمتعون كما كان يحصل عندما كانوا أولاداً.

في تلك الأيام، ترددت الصرخات والضحكات في أرجاء الأروقة المعمدة كما كان الأمر في قصر بيلا قبل سنواتٍ عديدة.

وفي إحدى المرات، صاح الإسكندر: "مرّروا إليّ الكرة! مرروا إليّ الكرة!".

أجاب بطليموس صائحاً بصوتٍ أعلى: "لقد أضعتَها في آخر مرة قذفتها باتجاهك!".

صاح ليوناتوس: "اقذفها بدلاً من الثرثرة هكذا. هل أنت نائم أم ماذا؟".

كان إيومينيس أول من يطلب فترة استراحة على الدوام، لأنه لا يتمتّع بثقافة المقاتل ولا تدريبه. وفي ذلك اليوم، قال: "كفى أيها الشبان، يكاد قلبي ينفجر".

فقال له كراتيروس، وهو الأمهر بينهم والأسرع: "عن أي قلبٍ تتحدث؟ أنت تمتلك كتباً مكان القلب!".

وتدريجياً، بدأت لحظات الاسترخاء تقل وتتباعد. وكان جو من الشعور بالنفوذ والسلطة والثروة يعود مجدداً ليخيّم فوق الجميع ما إن تنتهي اللعبة.

ذات يوم، أراد إيومينيس أن يتحدث إلى الإسكندر بمفرده، فقصده في جناحه الخاص في القصر الإمبراطوري.

بدأ بالكلام: "تزداد الأحوال سوءاً مع مرور كل يوم".

"ماذا تعني؟".

"أعني أن الجنود قد تغيّروا جميعاً. إذ يمتلك بطليموس فتيات أُحضرن من أجله من بلاد بعيدة، أما ليوناتوس فهو لا يتمرّن على المصارعة إلا إذا أُحضرت له أفضل الرمال الليبية، وهو ينتظر وصولها على ظهور الجمال. وأوصى لايسيماخوس على مبولةٍ مصنوعة من الذهب وموشاة بالجواهر الثمينة. هل توافق على هذا الأمر؟ أما سلوقس فلديه امرأة تهتم بأحذيته، وأخرى تمشط له شعره، وأخرى

تعطـــره، وأخرى... حسناً، دعنا نتوقف عند هذا الحد. أما بالنسبة إلى بيرديكاس...".

فسأل الإسكندر بارتياب: "وبيرديكاس كذلك؟".

"أجـــل، وحـــتى بيرديكـــاس. لقد أمر بصنع شراشف أرجوانية لسريره. أما فيلوتاس، فقد كان مغروراً ومتعجرفاً على الدوام، وأصبح أسوأ الآن، وتفيد الشائعات بأنه...".

فقاطعـــه الملك عند هذا الحد، وصاح به: "كفى! استدعِ منادياً على الفور!".

"ماذا تنوي أن تفعل؟".

"هل سمعتَني؟ قلت لك استدعِ منادياً!".

فغـــادر إيومينيس وما لبث أن عاد بعد وقتٍ قصير مصطحباً معه أحد الجنود.

قـــال الملك للجندي: "ستنطلق من دون تأخير إلى منازل كلّ من بطلـــيموس، وبيرديكـــاس، وكراتيروس، وليوناتوس، ولايسيماخوس، وهيفاســـتيون، وسلوقس، وفيلوتاس. قل لكل منهم أن يأتي ليراني على الفور".

خرج الجندي راكضاً، وقفز على صهوة حصانه، وانطلق من أجل تبليغ رفاق الملك الرسالة. لم يكن بعضهم في منازلهم فترك لهم الرسالة مع الخدم. ولم يخبر الخدم بمضمون رسالة الملك فقط بل أعطاهم فكرة عن مزاجه كذلك، وهكذا انطلق الخدم يبحثون عن مخدوميهم.

قال ليوناتوس لبيرديكاس وهما يصعدان الدرج معاً: "لا بدّ من أنها لعبة أخرى".

"أشك في ذلك. هل سبق له أن استخدم جندياً من جنود الهجوم كي يدعو الناس إلى مباراة؟".

قـــال لايسيماخوس الذي ظهر في تلك اللحظة بالذات: "أفترض بأننا سننطلق لنحارب مجدداً".

قال سلوقس الذي وصل مسرعاً: "لنحارب؟ في أيّ حرب؟".

التقاهم إيومينيس جميعاً في غرفة الانتظار بوجهٍ خالٍ من التعابير، واكتفى بالقول: "إنه هناك".

سأله بطليموس: "ألن تدخل معنا؟".

فقال لهم حين فتح الباب وأدخلهم، وقبل أن يغلقه وراءهم: "أنا؟ كـــلا... إن هذا الاجتماع لا يتعلّق بـــي". وما إن أغلق الباب، حتى اتخـــذ إيومينيس مركزه قربه ليتمكن من استراق السمع. وعلى الفور، بدأ الإسكندر بالصراخ بصوتٍ عالٍ إلى درجة أن إيومينيس اضطر إلى إبعاد أذنه عن القفل.

صـــاح الإســـكندر: "أغطية سرير أرجوانية! ومباول من الذهب الخـــالص! ورمـــال للمـــصارعة من ليبيا! لا توجد رمال هنا بالطبع، صـــحيح؟ أو ربمـــا ليست ناعمةً بما يكفي لتناسب ظهرك الحسّاس؟". وكشّر الإسكندر عندما اقترب من ليوناتوس. "أنتم مجموعة من البلهاء الجبناء! أو هكذا أصبحتم على الأقل! أتظنون بأنني أحضرتكم إلى هنا كي أراكم تنتهون إلى هذه الحال؟".

حاول بطليموس تهدئته قليلاً فقال: "إسكندر اسمعني...".

"بـــأي حقٍّ تتكلم؟ سمعت أنك جلبت بنات هوى من شتى أنحاء العـــالم! أتيت بكم إلى هذه البلاد البعيدة كي تغيّروا العالم، وليس كي تفـــسدوا أنفـــسكم بحياة الترف. أم لعلنا بدأنا هذه الحرب فقط كي نعيش مثل أولئك الذين هزمناهم؟ هل هذا هو السبب الذي زحفنا من أجله كل هذه المسافات، وعانينا من الحرارة والبرد، ومن الجوع وكل أنـــواع المحن؟ ألسنا بهذه الطريقة ندنّي مستوانا ليصبح بمستوى أولئك

الذين هزمناهم؟ ألا تفهمون أن هذا هو بالضبط سبب خسارة الفُرس؟ ألا تعرفون أنهم عاشوا بالطريقة ذاتها التي تعيشون بها الآن؟".

بدأ بيرديكاس بالكلام: "إذاً، في هذه الحال لماذا..."، وكان سيُكمل لو لم يقاطعه الملك: "تركتَ كل الحكام الفُرس في مناصبهم السابقة؟".

"اصمتوا! ستمكثون بدءاً من الغد في المعسكر تحت الخيش كما كنتم تفعلون سابقاً. وسيعتني كل واحد منكم بنظافة حصانه، وسيلمع دروعه. ستأتون معي بعد يومين في رحلة لصيد الأسود في أعالي الجبال. أما إذا هوجمتم حتى الموت فسيكون ذلك بسبب زيادة أوزانكم التي منعتكم من الحركة، وعندها لن أحرك ساكناً لإنقاذكم. أتفهمون؟".

صاحوا جميعاً: "فهمنا يا مولاي!".

"إذاً، اخرجوا من هنا، جميعاً!".

أسرع كل واحد منهم نحو الباب، ثم نزل الدرج بسرعة واختفى. في تلك اللحظة، وصل المنادي وقال إنه عجز عن العثور على فيلوتاس، وإنه ترك له رسالة. فأومأ إيومينيس وكان على وشك المغادرة بعد الرفاق عندما ناداه الإسكندر.

فقال وهو يدخل إلى غرفة الإسكندر مجدداً: "أجل، يا مولاي؟".

قال الملك على الفور: "لم يكن فيلوتاس حاضراً هنا".

"لم يستطع الجندي العثور عليه. أترغب في أن يستمر في البحث عنه؟".

"كلا، لا يهم. إنني متأكد من أنه سيسمع بما جرى هنا على كل حال". وسأله بعد ذلك: "وأنت، ماذا فعلتَ بالذهب الذي تسلمته؟".

"إنني أعيش براحةٍ تامة. ولكن من دون إسراف. إنني أدخر ما تبقى لشيخوختي".

ردّ الإسكندر: "حسناً تفعل. لا يعرف أحدٌ منا ماذا سيحدث له. ولكـــن، إذا وجدت نفسي يوماً في حاجة إلى قرضٍ ما، فسأعرف إلى من ألتجئ".

"أيمكنني الانصراف الآن؟".

"أجـــل بالطبع". توجّه إيومينيس نحو الباب، لكن الإسكندر ما لبث أن ناداه مجدداً: "لحظةً واحدةً فقط".

"هل من مشكلة؟".

"ذلك الأمر الذي أصدرته. إنه ينطبق عليك كذلك".

"أي أمر؟".

"الأمر المتعلق بالنوم في المعسكر تحت خيم الخيش".

ردّ إيومينيس بحدة قبل أن يغادر: "بالطبع".

*

مرّت أيام عدة قبل أن يستدعي الإسكندر إيومينيس كي يقول له إنهـــم عندما يبدأون بالزحف شمالاً في آخر الأمر، فإنه ينوي تحويل كل خـــزنة بيرسيبوليس إلى إيكباتانا. دُهش إيومينيس من هذا القرار الذي بدا من دون فائدة، ومن دون معنى. ولكن، كان من الواضح أن الملك ليس على استعدادٍ لتغيير قراره بأي طريقة.

اســـتغرقت هذه العملية أسبوعين على الأقل، وتطلبت قافلة من خمسمئة زوجٍ من البغال، وعشرة آلاف جمل، وذلك بسبب كون النقل بالعربات عبر الطرقات الجبلية في ميديا أمراً مستحيلاً تقريباً.

لم يـــتمكن إيومينـــيس من فهم أسباب اتخاذ هذا القرار، واعتبره غـــريباً ومترافقاً مع مخاطر كثيرة. ولكن، في كل مرة كان يحاول فيها الحـــصول علـــى تفسيرٍ من الإسكندر كان يحصل على ردودٍ غامضة ومراوغة. وفي النهاية، توقف عن السؤال لكنه بقي يشعر بالانـــزعاج

وســيطرت عليه الهواجس، كما شعر بأن ما يجري نذير شؤم، وينذر باقتراب حدوث أمرٍ خطر.

25

خــضع الرفاق للأوامر لبعض الوقت وعاشوا في المعسكر، لكن هيفاســتيون طلب أن يُسمح له بالعودة إلى القصر لأنه يريد أن يكون قــرب الإســكندر. أمــا الملك فقد احتار في أمره، ولم يرفض طلب صــديقه. ولم يتمكن الإسكندر من رفض مطالب الآخرين؛ ولا سيما بعــد أن تــنازل أمام صديقه، وذلك بعد تقديم كل واحدٍ منهم عذراً مختلفاً للعودة إلى مكان إقامته في المدينة. وأقسم الجميع علىٰ أن يعيشوا حــياة بــسيطة تتسم بالاقتصاد. في هذا الوقت، كان فصل الربيع قد شــارف على الانتهاء، وبدأت جروح المدينة الخطيرة بالاندمال ببطء. ولكن، اتضح أن بيرسيبوليس لن تعود كما كانت في السابق. وأفادت الأخبار الآتية من المقاطعات الشمالية من الإمبراطورية، والتي كانت لا تــزال حرة، بأن داريوس يجمع جيشاً آخر وأنه أصبح مستعداً للصمود في جبال القوقاز، وفي بحر قزوين. ولذلك، قرّر الإسكندر أن الوقت قد حــان للتحــرك. فنظّم الملك حفلاً وأقام مأدبة كي يعلن انتهاء فترة الراحة. أما الاحتفالات فقد تبين أنها من النوع الذي لا يُنسى.

كانــت كل غرف ذلك القصر المهيب مضاءةً بمئة مشعل، أما الطهاة الملكيون فقد بدأوا بالعمل على تحضير أشهى الأطباق، كما تم اختيار أكثر الخصيان وسامة وأكثر الفتيات جمالاً كي يقدموا أصناف الطعــام على المائدة. ارتدى هؤلاء ملابسهم التي كانت على الطراز الــيوناني. ووُضــعت في وســط قاعة الطعام آنية كبيرة من الذهب الخــالص جُلبت من الخزنة الإمبراطورية، استُخدمت كإناء وضع فيه

الشراب والمشروبات المعطرة التي أُضيفت إليها التوابل حسب وصفات شرقية.

وكذلك وُضعت على المائدة أكواب من الذهب والفضة مأخوذة من المجموعة الملكية. كما وُضعت آنية مليئة بالزهور والزنابق التي قُطفت من حدائق القصر، وهي الحدائق الوحيدة التي نجت في المدينة بأكملها.

بدأ الحفل بعد مغيب الشمس مباشرة. لكن إيومينيس أدرك أن هيفاستيون قد سُمّيَ *زعيم الاحتفال*، وأنه استناداً إلى هذه الصفة أعلن بأنه يتعيّن تقديم الشراب على الطريقة التراقية، أي من دون تخفيف.

سأل كاليستين عندما ظهر فجأة وراء إيومينيس: "ألن تحتفل معنا؟".

أجاب إيومينيس: "لستُ جائعاً. كما أن واجبي يدعوني إلى الإشراف على كل شيء كي أتأكد من أن كل شيء يسير على ما يرام".

"أم أنك تفضل أن تبقى صاحياً حرصاً على استمتاعك بما سيحصل؟".

"وماذا سيحصل؟".

"حسناً... لا أعرف. ولكن لا بد من أن يحدث شيء ما. إن هذه المأدبة تخلو من أي معنى. لقد وصلتُ لتوي من البوابة الغربية وأنا أعتقد أن كون القصر مضاءً أمرٌ يناقض الخراب والظلمة السائدة في أنحاء المدينة. لقد مضت أشهر على وجودنا هنا، لكن الإسكندر لم يأمر بعد بإعادة بناء منزل واحد".

"لكنه لم يمنع أحداً من البناء".

"هذا صحيح، لكنه لم يفعل أي شيء لمنع النبلاء وأصحاب الأراضي من المغادرة. بقي الفقراء فقط، مما يعني أن المدينة قد حكم عليها بالموت. أما المدينة...".

رفع إيومينيس يده وكأنه يريد طرد رؤية أشبه بكابوس. "لا أريد أن أسمع أي شيء عنها".

سأل كاليستين في محاولةٍ منه لتغيير الموضوع: "أين بارمينيون؟".

"ليس هنا".

"أتصور أن ذلك لا يعني أي شيء بالنسبة إليك. وأين هو الأسود؟".

"لم أرَه هنا".

"هـــذا صحيح بالضبط. وعلى كل حال، لا أعتقد أنه كان على لائحة المدعوين. لكن، انظر من حضر للتو".

الـــتفت إيومينيس فرأى تايس تأتي عبر الممر. كانت المرأة الأثينية الجمـــيلة تمشي حافية القدمين، ومرتدية رداءً فاضحاً، يشبه ذلك الذي ارتدته عندما رقصت أمام الملك لأول مرة.

قـــال كاليستين: "أعتقد أنها كانت مع الملك، وأنا لا أعتقد بأن هذا أمر حسن".

أجـــاب إيومينيس: "إنني أوافقك الرأي. لكن، ليس من المحتم أن تسير الأمور نحو الأسوأ".

لم يعلّـــق كاليـــستين بشيء، وانطلق نحو الباب الذي يحمل اسم زيركزيس، والذي يؤدي إلى آخر الرواق المعمد. وهناك تمكّن من رؤية المقابـــر المحفـــورة في سفح الجبل الذي يرتفع قبالة القصر، ولاحظ أنها مـــضاءة بمـــشاعل نذور من أجل أشراف الإخمينيين. لاحظ كاليستين وجـــود قـــبرٍ لم ينتهِ بناؤه بعد، وهو المخصص لداريوس الثالث. ومن داخل القصر، تصاعدت أصوات الصرخات والضحكات الصادرة عن المحتفلين، والتي ازدادت صخباً مع استمرار الحفل.

وعلـــى نحوٍ مفاجئ، سُمعت الموسيقى التي طغت على الضجيج الـــصادر عـــن المحتفلين. وكانت موسيقى إيقاعية مصحوبة بأصوات

الطـــبول، والـــتي تلاءمـــت مـــع بعض أنواع الرقص الطقوسي. نظر كاليستين نحو السماء وتمتم لنفسه: "أين أنت يا أرسطو؟".

في هذا الوقت، نظر إيومينيس إلى قاعة الأبادانا الكبيرة، فاستنتج أن الحفـــل قد بدأ يميل نحو المجون. كانت تايس ترقص بوحشية، كما أن حـــركاتها تـــرافقت مـــع أصـــوات صنوجٍ معدنية صغيرة معلقة بأصابعها.

*

الـــتفّت الفـــتاة بعنف على نحوٍ مفاجئ وتوقفت، وما لبثت أن وقفـــت علـــى رؤوس أصابعها، ثمّ انحنت نحو الأرض ببطء، وكانت تتحـــرك برشـــاقة القطة المثيرة. واستمرّت الموسيقى في مرافقتها فبدت متناســـقة مع تطوّر حركاتها. وعندما وقفت على قدميها ثانية، كانت تحمل ما يشبه العصا التي تحملها الحوريات. كانت العصا مغطاة بغصن لبلاب عُلّق كوز صنوبر في طرفه، ثم راحت تصيح بصوتٍ عالٍ وكأنها امرأة ممسوسة: "كوموس! *(تعالوا)*".

راحـــت تتحرك بين أعمدة القاعة مثل امرأةٍ على أعلى درجة من الإثارة تهيم بين جذوع أشجار غابة عظيمة، ثم دعت الجميع لمشاركتها في رقصها الطقوسي هذا. كان الإسكندر أول من استجاب لها، فراح يصيح بدوره: "*كوموس!*".

أســـرع الجمـــيع للانضمام إليه. أمسكت تايس بيدها الأخرى مـــشعلاً انتـــزعته من حاملته على الجدار، وبدأت بقيادة ذلك الرقص الطقوســـي المسعور وسط غرفة المتفرجين، والممرات، وغرف النوم في أجـــنحة هذا القصر الملكية المدهشة، وتبعها المحتفلون من الرجال الذين شعروا بالإثارة، ومن النساء اللواتي جهدن جميعهنّ لإثارة الرجال أكثر بحركاتهن المثيرة.

صاحت تايس بعد أن اتقدت نظراتها بفعل الضوء الصادر عن المشعل الذي أمسكته بيديها: "إن ديونيسيوس معنا الآن!".

ردد الجميع: *"أيوا!"*.

"يريد ديونيسيوس أن ينتقم من هؤلاء البرابرة!".

راح كل الرجال والنساء يصرخون مجدداً وسط هذيانهم الناتج عن الشراب والإثارة: *"أيوا!"*.

صاحت الفتاة مجدداً: "سننتقم لجنودنا الذين ماتوا في المعركة، ولهياكلنا المدمرة، ولمدننا التي احترقت!". ثم رمت، أمام عينَي الإسكندر، المشعل الذي تمسكه بيدها على ستارة أرجوانية كانت معلقة بمحاذاة مدخل.

فصاح الإسكندر: "أجل! الانتقام!". وما لبث أن ألقى مشعلاً آخر تحت قطعة أثاث كبيرة مصنوعة من خشب الأرز. كان الملك يتصرف من دون وعي. راقب إيومينيس ما يجري، ورأى ما يدور حوله من دون أن يكون قادراً على فعل شيء. راح يجول ببصره بحثاً عن شخصٍ يُمكنه أن يضع حداً لهذا الجنون، لكنه لم يرَ أحداً وسط هؤلاء الرجال والنساء الغارقين في الإثارة، والذين لم تحمل نظراتهم أي علامة من علامات التفكير المنطقي.

استعرت ألسنة النيران، ودوّت أصوات الفرقعة، فبدت الغرفة بسبب لهيب النار القرمزي وكأنها مُنارة بضوء النهار. راح المحتفلون ينتشرون في الغرف المجاورة وكأنهم ممسوسون، وراحوا يصرخون لدى خروجهم، وهم يحرقون كل شيء يمرّون به.

لم يطل الأمر قبل أن تغلف ألسنة النيران ذلك القصر الرائع. فاحترقت مئات الأعمدة المصنوعة من أرز لبنان مثل المشاعل. مسّت النيران السقوف، وانتشرت لتصل إلى الدعائم والعوارض التي سرعان ما أصدرت صوت صرير ثم انشطرت بسبب قوة الحريق.

وصلت الحرارة إلى حدٍّ لا يُطاق، فبدأ الجميع بالركض إلى الخارج نحو باحة المدخل الكبير، لكنهم تابعوا الرقص هناك، وتابعوا أداء أغنياهم ومجونهم. خرج إيومينيس من بابٍ جانبي والصدمة بادية على وجهه، ورأى تايس لدى نزوله الدرج الخارجي.

خرج الناس الذين بقوا بين خرائب بيرسيبوليس من أحيائها الفقيرة كي يشاهدوا هذه الكارثة. كان قصر الملك العظيم يتفجر في هذا الوقت، وأصبح نهباً للنيران قبل أن ينهار وسط جحيم من الشرارات، كما تصاعدت في السماء سحابة من الدخان الأسود على شكل دوامة نحتت في حجب النجوم والقمر. نظر هؤلاء الفقراء بسكون ورعب إلى ما يجري بينما فاضت أعينهم بالدموع.

*

في صباح اليوم التالي، كان أروع قصرٍ في كل أنحاء العالم قد تحوّل إلى كومة من الركام الذي يتصاعد منه الدخان، وبلغ عمق هذا الركام أربعة أو خمسة كيوبيتات. برزت من خلال هذا الركام الأعمدة المزخرفة ذات الرؤوس المنحوتة على شكل ثيران مجنحة. أما البوابات فقد بقيت كما هي، بالإضافة إلى المنصة وأساسات القصر والأدراج، برسوماتها التي تمثل موكب رأس السنة الكبير، وفرقة الخالدين التابعة للحرس الإمبراطوري للألفية القادمة، وقد صارت كلها شاهدة صامتة على الكارثة.

وصل الإسكندر إلى جناحه في المعسكر عندما اقترب الصبح من الانبلاج، فتهالك على سريره، واستغرق في نومٍ عميقٍ ومضطرب.

*

وبعد وقتٍ قصيرٍ من انبلاج الفجر، جاء بارمينيون. حاول حراسٌ من جنود البيزيتاروي منعه من الدخول عندما وضعوا الرماح بشكلٍ

متصالب أمام المدخل. ولكن، من دون جدوى. إذ أطلق القائد العجوز صـــرخة قوية تماثل زئير الأسد وقال: "ابتعدوا عن طريقي! دعوني أمرّ. أريد أن أرى الملك!".

اقتـــربت ليبتين منه رافعةً يديها وكأنها تريد منعه من التقدم، لكنه دفعهـــا جانـــباً، كما أسكت بيريتاس الذي كان يدمدم، وذلك بنظرةٍ حازمة وبكلمات بسيطة: "اذهب ونم!".

قفـــز الإسكندر من سريره فجأة، وأمسك برأسه المتثاقل وصرخ: "من يجرؤ...".

عـــندها، صـــاح بارمينيون بصوت يماثل صوت الملك حدةً: "أنا أجرؤ...".

هدأ الإسكندر، وكأن فيليب ذاته قد عاد إلى الخيمة، وانحنى أمام حوض الماء كي يضع رأسه في الماء البارد. ثم تحرّك نحو زائره غير المتوقع قدومه وهو عارٍ تماماً، وقال له: "ما المشكلة أيها القائد؟".

"لماذا فعلتَ ذلك؟ لماذا دمرتَ هذا القصر الأعجوبة؟ هل هذا ما علمـــك إيـــاه أرسطو؟ هل هذا ما يسمى اعتدالاً؟ هل هذا ما يسمى احتـــرام كـــل ما هو جميل ونبيل؟ لقد أظهرتَ نفسك أمام العالم على أنك متوحش جاهل وبدائي ومغرور ومتعال! كرّست حياتي لعائلتك، وضـــحيت بابني في سبيل هذه الحملة، وقدتُ جيشكَ في كل معاركه. فلي كل الحق في توقع الحصول على جوابٍ منك!".

"لو تجرأ أي شخصٍ آخر على قول هذه الأشياء التي قلتَها لي أيها القائـــد، لكنتُ أعدمته. لكنني سأعطيك الجواب، وسأخبرك بالسبب الـــذي دفعـــني للقـــيام بكل ذلك. سمحت باستباحة بيرسيبوليس لأن اليونانيين سيعلمون بهذه الطريقة بأنني المنتقم الحقيقي لهم، وأنا الشخص الذي يستطيعون التوحد تحت رايته، والشخص الوحيد الذي تمكّن من

وضع حدٌّ لنزاعٍ استمر قروناً عدة. وقصدتُ كذلك أن تقوم شابة أثينية بإحراق قصرَي داريوس وزيركزيس. وبما أن المدينة قد دمرت تماماً، فما هو الهدف من بقاء القصر؟ أبقيتُه قائماً وقتاً كافياً كي أنقل محتويات الخزنة، ووثائق الأرشيف، إلى إيكباتانا وسوسا".

"لكن...".

"إننا على وشك التحرك مجدداً يا بارمينيون كي نلاحق داريوس إلى أبعد ولايات إمبراطوريته، لذلك لو تركتُ القصر سليماً مع كنوزه، فسيكون مصدر إغراء كبيراً لأي شخص، وحتى لواحدٍ من حكامي من المقدونيين. إذ إن بيئة القصر، بما فيه من قاعات يميّزها الترف، والمناظر المنحوتة في كل مكان، تعيد إلى الأذهان ذكريات العظمة الأخمينية. أما ذلك العرش... فإنه فارغ! كان الذهب مكدساً بكميات خيالية تحت تلك الأقبية، وهي كفيلة بجعل أي رجلٍ الأغنى في العالم. إن نبلاء الفرس لن يتورعوا عن محاولة السيطرة عليه بأي ثمن، كما أنهم لن يتأخروا عن سفك أي كمية من الدماء في سبيل الجلوس على ذلك العرش، ولحمل الصولجان في أيديهم. كان من شأن كل هذا إشعال نيران حروب دموية واستنزافية جديدة لا نهاية لها. هل هذا ما كان يجب عليّ السماح بحدوثه؟

ليس لديّ خيار أيها القائد. ليس لديّ خيار، ألا تفهم؟ إن كنتَ لا تريد لطائر اللقلق أن يعود، فسيتعيّن عليك تدمير عشّه.

صحيحٌ أنني دمّرت إحدى عجائب الدنيا، ولكن، من سيمنعني - عندما تحين اللحظة المناسبة - من بناء قصرٍ أكثر فخامةً وروعة؟ لقد دمرت، بفعلتي هذه، رمزاً من رموز بلاد فارس وملوكها، وهكذا برهنتُ لليونانيين، ولبرابرة العالم بأسره، من هو السيّد الجديد لهذا العالم. برهنتُ للجميع بأن الماضي قد مات، وأنه أصبح رماداً، وأن

حقبة جديدة قد أطلت الآن. كان ذلك القصر جميلاً أيها القائد، وجميلاً جداً، ولهذا السبب كان تركه قائماً أمراً يحمل خطورة كبيرة".

طأطأ بارمينيون رأسه، وتذكّر العربدة، والرقص، ونداء ديونيسيوس، وحالة الشعور بالامتلاك التي حدّثه عنها إيومينيس وكاليستين قبل وقت قصير. كان كل ذلك مخططاً له، ومعداً مسبقاً. كان العرض واقعياً جداً، لكنه كان مجرد تمثيلٍ متقن! كان الإسكندر قادراً، حتى على تمثيل هذا الدور، كان بارعاً ومقنعاً جداً حتى أكثر من تيسالوس، ممثله المفضل. أما السبب الذي اتخذه لتبرير أعماله فقد كان منطقيّاً جداً من وجهة نظر سياسية وعسكرية وعقائدية. إذ يفكّر ذلك الفتى الآن ويمثّل وكأنه ملك العالم بأكمله!

تناول الملك لفافةً من مكتبته، وناول بارمينيون إياها: "اقرأها، لقد وصلت البارحة. يقول لي أنتيباتر إنه ربح الحرب ضد الإسبارطيين، وإن الملك آجيس سقط في معركة ميغالوبوليس، وهكذا لم يعد في اليونان كلها مَن ينافسني بصفتي قائداً للتحالف الهيليني. إنني أعتبر أنني قمت بما يتوجب عمله، ووفيتُ بالوعد الذي قطعته بإلحاق الهزيمة بالعدو الذي ظلّ عدو اليونانيين لمدة قرون عديدة. إن تدمير القصر يمثّل هذه الحقيقة كذلك، ولذلك، فإن كل ما يشغل بالي هو تتبُّع ما قُدِّر لي".

قرأ بارمينيون رسالة أنتيباتر مع بعض الصعوبة، لأن نظره لم يعد كما كان في السابق، لكنه فهم ما كان الملك يقوله له.

وضع الإسكندر يده على كتفه، ونظر إليه بمزيجٍ من الإعجاب الممزوج بالمرارة والحزم العسكري، وقال له بلهجةٍ آمرة: "حضِّر نفسك أيها القائد، واجمع جيشك، وافرض أقصى قدرٍ من الانضباط. إننا على وشك الانطلاق مجدداً".

26

بدأ الجيش بالتحرك عند نهاية فصل الربيع تقريباً وتوجّه شمالاً، ثمّ صعد باتجاه وسط المرتفعات حيث كانت الصحراء إلى يمينهم، وجبال عيلام المغطاة بالثلوج إلى يسارهم. ساروا على أربع مراحل مسافة تبلغ عشرين فرسخاً، وعندما وصلوا إلى باسارجاداي، وهي العاصمة القديمة لسيروس الكبير مؤسس السلالة الأخمينية، كان المساء قد حل. كانت هذه المدينة صغيرة، ومعظم سكانها من الرعاة والفلاحين، وتبرز في وسطها أول حديقة رائعة تم تشييدها في الأراضي الجميلة التي تحيط بقصر سيروس القديم. تكفّل نظام معقدٌ للري بجلب المياه من سفوح التلال، وهو النظام الذي أبقى كل النباتات خضراء ويانعة، بما فيها الحشائش، والورود، وأشجار الشربين، والتمور الهندية، والقندول العطر، وأشجار السرو والعرعر.

ظهر في الجهة الغربية من المدينة قبر المؤسس. كان قبراً مفرطاً في بساطته، ويشبه خيمةً رباعية الزوايا من الجلود مع سطحَين منحدرين، وهو بناءٌ يشبه تلك الأبنية التي يشيّدها بدو السهول، وهم أجداد الفرس منذ أربعة قرون. كان هذا الشعب تابعاً في الماضي للميديين، وما لبث بعد ذلك أن سيطر على مناطق شاسعة بعد قهرها. وُضع هذا البناء البسيط فوق منصةٍ مدهشة ذات درجات سبع فبدا مثل أحد الأبراج التي بناها شعبٌ ما بين النهرين، وكانً محاطاً بأعمدة تحيط بحديقة من أشجار السرو التي بدت مقلّمة بعناية وكأنها تلقى العناية اللازمة.

أما القبر ذاته، فكانت مجموعة من المجوس تتولى مهمة الاهتمام به، بالإضافة إلى رجل دين كان يترأس كل يوم احتفالاتٍ تقام لتكريم الملك العظيم. أخاف اقتراب الإسكندر السكان، لأنهم سمعوا بما فعله في مدينة بيرسيبوليس، لكن الملك أسرع إلى تبديد مخاوفهم. وقال لهم: "ما جرى قد جرى، ولن يحدث مجدداً. دعوني أرى هذا النصب، أرجوكم. لا أريد سوى تقديم التكريم لذكرى سيروس".

فتح رجل الدين الباب الذي يؤدي إلى الغرفة الداخلية، وسمح للملك الشاب بالدخول. نظر الملك حوله صامتاً. كان شعاع الشمس يتسلّل من خلال الباب، ويضيء جوانب المدفن غير المنقوشة بعناية، والتي لم تحمل سوى نقش واحد:

أنا سيروس، ملك الفرس

لا تلحقوا الأذى بقبري هذا

تدلت على أحد المشابك في الأسفل دروع ذلك الفاتح العظيم، والتي شملت صفائح حديدية مثّلت دروع الصدر، وخوذة بشكل كوز، ودرعاً مستديرة، وسيفاً من الحديد الخالص ذا مقبضٍ من العاج، وهو الشيء الوحيد القيّم بين كل الموجودات.

خيّم صمت عميق على الهضبة بأكملها، وكان الصوت الوحيد المسموع هو صفير الرياح التي هبّت على ذلك القبر المنعزل والمهيب. وفي تلك اللحظة، خيّم على الإسكندر شعور حادّ بطبيعة قدر الإنسان العدمية. فلقد كبُرت إمبراطوريات وانهارت كي تفسح في المجال أمام إمبراطوريات غيرها لتصبح عظيمةً وقوية بدورها، ولتتلاشى في هاوية النسيان بعد ذلك. هل الخلود مجرد حلم؟ فجأةً، شعر الإسكندر بوجود والدته، وكان وجوداً قوياً حيث أحسّ بأنه قادرٌ على لمسها، وأن كل ما كان يتطلبه الأمر هو أن يمدّ يده نحو

الجدار المظلم لذلك المدفن. تخيل أنه سمع صوتها قائلةً له: "لن تموت، أيها الإسكندر...".

فاســـتدار، ثم خـــرج إلى الفسحة في أعلى الدرج، وتنفس الهواء الجـــاف والمنعش فوق تلك الهضبة العظيمة، وأحسّ بأنه مغمورٌ بأنوار هـــي أصـــفى ما يكون عليه النور. وعندما نظر إلى الأسفل كي يبدأ بالنـــزول، رأى أريستاندر بانتظاره.

سأله: "ماذا تفعل هنا يا أريستاندر؟".

"سمعتُ صوتاً".

"وأنا كذلك. كان صوت والدتي".

قال له أريستاندر محذراً: "انتبه أيها الإسكندر. تذكّر ماذا حدث مع آخيل". ثم تحرّك مبتعداً، والريح تتلاعب بردائه الذي رفرف مثل عَلَم.

في الـــيوم الـــتالي، عبر الجيش منطقة أخضعها، وهي المنطقة التي تسكنها قبيلة كانت تابعةً في الماضي لسلطة الملك العظيم. لكن، عندما وصل الجيش إلى مسافة أبعد، وبدأ يتوغل صعوداً نحو المرتفعات التابعة للميديين، وصلت الإسكندر رسالة من إيمولبوس من سولوي جاء فيها:

الملك داريوس موجود في إيكباتانا، وهو يحاول تجميع جيشٍ من اللـــسكاثيين والقادوشـــيين، وهو يدفع لهم من خزينة القصر الملكـــي. أرســـل داريوس الحريم شرقاً عبر بوابات بحر قزوين. يتحـــتم علـــيك الوصول إلى المدينة بأسرع وقت ممكن، وإلا ستـــضطر إلى خوض معركة قاسية نتائجها غير مضمونة أبداً. تذكّـــر أن اللسكاثيين والقادوشيين فرسانٌ لا يصيبهم التعب، وهـــم خصومٌ مرعبون حقاً. إنهم لا يهاجمون وجهاً لوجه أبداً، لكنهم يشنّون هجمات اختراقية، ويستخدمون تقنيات خادعة، ويـــشتتون أعداءهم، ويتعبونهم بهجماتهم وانسحاباتهمً المتتالية. تذكّر أن اللسكاثيين قد هزموا سيروس وداريوس العظيم.

وما إن قرأ الإسكندر الرسالة حتى قرر الانطلاق على الفور مع الفرسان والمشاة بعد أن تأكد من جهوزية الجنود للقتال. أوكل الملك إلى بارمينيون، الذي كان على رأس ثلاث كتائب من البيزيتاروي، وكتيبة واحدة من المشاة التراقيين والتريباليين المسلحين تسلحياً خفيفاً، مهمة العناية بقافلة المؤن ومحتويات الخزنة بكاملها. إذ لم تبقَ الآن سوى عاصمة واحدة تنتظر دخوله إليها.

بدأ الجنود بصعود الطريق الجبلية بخطى سريعة، وتحركوا بمحاذاة الوديان والأنهار عندما كان ذلك ممكناً، وهو الأمر الذي سهّل مرورهم. كان المنظر يزداد إثارةً بسبب الألوان القوية، أما النتوءات الجبلية الصخرية فكانت بلون الإسفلت الأسود، بينما التمعت القمم المكسوة بالثلج تحت الشمس وكأنها ياقوت. برزت الصحراء في الأسفل بلونها الذهبي، وهي التي بدأت بالظهور من البعيد، وبدت كذلك بقعٌ من الأشجار الخضراء تناثرت هنا وهناك وكأنها جزر. كانت هذه واحات تعمر بالقرى والفلاحين والرعاة. تناثرت قرى أخرى على جوانب الوديان، وهي القرى القريبة من الينابيع والجداول والسواقي التي تفيض بأعذب المياه. خرج الناس من بيوتهم عند مرور الجيش في قراهم كي يلقوا نظرة على هؤلاء الأجانب الذين يتهادون على صهوات جيادهم من دون أن يرتدوا سراويل، وقد اعتمروا قبعاتٍ عريضة الأطراف.

برزت هنا وهناك أبراج حجرية كبيرة فوق مساحاتٍ من سهول هذه الهضبة. كانت تلك أبراج الصمت التي يضع فوقها سكان تلك البلاد جثث أمواتهم كي تتحلّل عناصرها، وتعود إلى الطبيعة، وهكذا لا تلوّث التربة ولا النار. فكّر الإسكندر في بارسين الراقدة في رابيةٍ ترابية في صحراء غواجميلا. وفكّر كذلك في فرآت الشاب الذي عاد إلى

بامفيلـــيا مع جدّه الذي كان آخر من بقي من أسرته على قيد الحياة. تساءل عما يدور في خُلد ذلك الفتى المراهق في تلك اللحظة. هل يحلُم؟ هل يفكّر في الانتقام؟ أم أنه غارقٌ في لجة الحزن الذي يغلّف كل يتيم؟

استغرق الزحف عشرة أيام من المسير بمحاذاة الوديان التي كانت تــضيق شــيئاً فشيئاً، وذلك قبل أن تظهر روعة إيكباتانا، وهي المدينة المحاطة بتاجٍ من الجبال المكلّلة بالثلوج ووادٍ أخضر. أما الأطراف العليا للأســوار وأسيجتها فقد كانت مزخرفة بالبلاط الأزرق وبماء الذهـب، فلمعـــت مـــثل قـــلادة تحيط بجبهة ملكة، بينما كانت أبراج القصور وأســطحها مغلفةً بالذهب الخالص ولذلك كانت تلمع بشدة. تذكّر الإســكندر حديثه إلى ضيفه الفارسي في قصر بيلا، وكأن هذه المحادثة جـــرت قبل يوم واحد. بدا وصف هذه القصور بالنسبة إلى الفتى الذي بـــدأ يكـــبر وكأنـــه رواية خيالية. في ذلك اليوم نظر إلى عينَي الرجل السوداوين والعميقتين، وتفحّص لحيته الكثة السوداء، وكذلك تفحّص ســيفه المــصنوع مـــن الـــذهب الخالص، والذي كان يستخدمه في المناســبات، فبدا له الرجل وكأنه كائن غير حقيقي، أو أنه مبعوثٌ ما مـــن عـــالم الروايات. أما الآن فقد مثلت تلك المدينة الأسطورية أمام عينيه.

كـــان برفقته أوكسهاتري، وهو ابن مازايوس حاكم بابل، وابن خـــال الملك من جهة أمه، وهو شابٌ فتيٌّ وطموح يتحرق شوقاً كي يثـــبت جدارتـــه لسيّد البلاد الجديد. ونخس أوكسهاتري حصانه، ثم اقتـــرب مـــن الأسوار، وتبادل كلماتٍ قليلة مع الحراس. وبعد ذلك، التفت إلى الإسكندر كي يُبلغه بلغته اليونانية غير الواثقة، لكن المفهومة: "رحل داريوس. إنه لا يعتزم مقاتلتك، لذلك فرّ مع الخزنة والجيش".

"وأي اتجاه سلك؟".

أجاب الشاب وهو يشير إلى جهة الشمال: "سلك ذلك الاتجاه، كما أن المرزبان يرغب في تسليم المدينة".

أومـــأ الإسكندر، وأعطى إشارته للجيش كي يتبعه نحو بوابات المديـــنة التي كانت تفتح أبوابها في تلك اللحظة. تبعه الجنود بنظامٍ تام، لأن الانـــضباط الصارم فُرِض مجدّداً، وكانت أبسط الخروقات تواجه بالسوط أو حتى أسوأ من ذلك.

وصل بارمينيون مع جنوده وقافلته بعد يومين وعند حلول المساء، لكـــن عملـــية دخوله المدينة، وتفريغ حمولة القافلة والمغادرة من الجهة الأخـــرى، استغرقت خمسة أيامٍ بلياليها. حملت الحيوانات البالغ عددها عـــشرين ألفاً حمولة بلغت مئة وعشرين ألف تالنت من الخزنة الملكية، أي أن الـــواحد مـــنها حمل ما معدله سبعة تالنتات، وهو حملٌ رهيب تسبّب في إبطاء مسيرة الزحف كثيراً.

دعـــا الإسكندر القائد العجوز كي يتناول العشاء معه، وذلك مع انـــتهاء هـــذه المهمة، وانتهاء عملية نصب خيم معسكر الجنود خارج المدينة. كانت وجبةً خفيفة جداً، وحتى إنها كانت متقشفة. ولم يوضَع شرابٌ على الطاولة غير الماء. راح بارمينيون يفكّر في سرّه وهو يقضم قطعـــة خبـــزٍ فارسية كانت قد خُبزت فوق الجمار، في أنه يحتمل أن الإسكندر يعاقب نفسه على إفراطه في الشرب في بيرسيبوليس.

بدأ الإسكندر بالكلام: "ماذا لديك من أخبار عن ابن عمي الأمير امينـــتاس؟ إنـــني أتساءل إذا كان بإمكاني الوثوق به الآن، أم إنه يجدر بـــي أن أبقيه مراقباً".

"ألم تظهر أي وثيقة في الأرشيف الملكي؟".

"سيستغرق تفحّص الأرشيف الملكي أشهراً عدة، هذا إذا لم نقل أعواماً. لم يجد إيومينيس بحسب علمي أي شيء يتعلق باغتيال والدي،

أو أي شــــيء يتعلق بالتواطؤ المحتمل بين إمينتاس وداريوس. على كل حـــال، أعتقد أنه يجدر بنا التدقيق في هذه السجلات، وإبقاء المراقبة في الوقت ذاته".

ارتـــشف الإســـكندر جرعة ماء، ثم استأنف الكلام بعد أن غيّر الموضوع: "أنا آسف لأن وجهتَي نظرنا لم تلتقيا على الدوام...".

"لطالمـــا أبلغتك بما أفكر فيه يا مولاي، أي مثلما كنت أفعل مع والدك تماماً".

قـــال الإســـكندر بينما كان الطاهي يقدم الفاصولياء، والخضار، وأكواباً من الحليب المتخثّر الذي يتميز بمذاقه الحامض: "أعرف، لكنني أريـــدك أن تـــصغي إليّ الآن. أرغب في ملاحقة داريوس حتى أجده، وسأجبره على خوض المعركة الأخيرة الفاصلة، وستكون الإمبراطورية برمتها ملك أيدينا.

ولأحقّـــق هـــدفي هـــذا أحتاج إلى شخصٍ ما هنا في إيكباتانا، وسيقوم هذا الشخص بحماية ظهر الجيش، وضمان التواصل مع مقدونيا بما في ذلك وصول المؤن، والتعزيزات... إلى ما هنالك من أمور؛ ومن ضمنها حراسة الخزنة الملكية. أنت هو ذلك الشخص أيها القائد، لأنك الوحيد الذي يمكنني الوثوق به. أما بالنسبة إلى إدارة المدينة، فإنني أعتزم أن أوكل المهمة إلى هاربالوس. إنه شخص طيّب يقدّره إيومينيس كل التقدير. حسناً إذاً، ماذا تقول؟".

"إنني أفهم الوضع. لقد كبرت كثيراً، ولذلك لا تريدني أن أتواجد في ميدان المعركة، وها أنت تُخرجني من ميادين القتال لأنني كبرتُ في السن و...".

أجـــاب الإســـكندر مرفقاً كلامه بابتسامة غريبة: "لقد كبُرتَ بالطـــبع أيها القائد". لكنه كاد يصيح عندما أكمل كلامه: "وخاصة

بالنظر إلى أن هذا اليوم هو ذكرى ميلادك السبعين!".

وفي هذه اللحظة بالذات، ترددت من وراء الخيمة أصوات جوقةٍ صاخبة من الذكور:

انطلق الجندي العجوز إلى الحرب

لكنه وقع على الأرض، وقع على الأرض!

واندفع كل رفاق الإسكندر، بمن فيهم فيلوتاس، وإيومينيس، ومساعده هاربالوس، إلى الخيمة. حمل الرجال عجلاً مشوياً، بالإضافة إلى وعاءٍ كبير مليء بالشراب، وسيخ من الحِجلان وطيرين من الدرّاج، وبعض الدجاجات والبط، وكميات كبيرة من الأطعمة من كل الأنواع. ودُعي إلى هذا الحفل كذلك الابن الآخر لبارمينيون، نيكانور.

رمى ليوناتوس بالفاصولياء والحليب المخثّر على الأرض، وراح يصيح: "كفانا تفاهات! دعونا نأكل. ليأكل الجميع!".

تأثر بارمينيون كثيراً عندما رأى أنهم حضّروا له هذه المأدبة، واستدار بلباقة كي يجفّف الدموع التي فاضت من عينيه. فتقدّم منه الإسكندر حاملاً بيده لفافةً مختومة من أوراق البردى: "هذه هي هديتي إليك بمناسبة ذكرى ميلادك أيها القائد". وأعطاه اللفافة راسماً على شفتيه ابتسامة من القلب.

فتح بارمينيون اللفافة، وبدأ بقراءتها من دون صعوبة لأن محتوياتها كُتبت بأحرف كبيرة. أهداه الملك قصراً جميلاً في سوسا، وقصراً آخر في بابل، وقصراً ثالثاً في إيكباتانا. وأهداه كذلك، علاوةً على هذه القصور، الكثير من الأراضي الواسعة في مقدونيا، ولينسيستس، وإيورديا، بالإضافة إلى معاشٍ تقاعدي لمدى الحياة يبلغ خمسمئة تالنت. وحملت الورقة التالية ترشيح ابنه فيلوتاس لمنصب قائد الفرسان، ووُضع عليها الختم الملكي، وتوقيع ثانٍ باسم إيومينيس من كارديا، الأمين العام".

بــدأ بارمينيون الكلام بصوتٍ مرتعش: "مولاي، أنا..."، فأوقفه الملـــك بالقول: "لا تُضف أيّ كلمةً أخرى أيها القائد. يُعتبر كل هذا أقـــل مما تستحق بكثير، ونحن نأمل أن تحيا معنا كي تستمتع بها إلى أن تـــبلغ المـــئة مـــن عمرك. أما بالنسبة إلى منصبك، فإنه أهم المناصب وأكثـــرها حساسية في شرق المضائق، كما أنك الشخص الوحيد الذي أثق به تماماً".

أعطـــى بارمينيون الورقة التي تحمل الترشيح لمنصب قائد الفرسان إلى ابنه، وقال له: "انظر إلى هذه يا بني. انظر إليها. هيا تقدّم كي تريها إلى شقيقك".

عانـــق الملـــك القائد العجوز في حين راح كل الرفاق يصفقون، وهكذا استمر الحفل في تلك الليلة. كان موعد نوبة الحراسة الثانية قد حـــان عـــندما وصـــل الجميع إلى أسرّهم بعد أن ثملوا جميعاً بمن فيهم بارمينيون ذاته.

27

أراد الإسكندر أن تكون إقامة الجيش في إيكباتانا قصيرة إلى أكبر حـــدٍّ ممكن لأنه أراد الانطلاق على الفور كي يلاحق داريوس. ولكن، كانت هناك أشياء كثيرة ينبغي ترتيبها، ورسائل كثيرة يجب أن تُكتب: واحـــدة إلى والدته التي استمرت في التذمّر بشأن طريقة معاملة أنتيباتر لهـــا، وأخرى إلى أنتيباتر الذي ربح الحرب مع إسبارطة، لكنه كان لا يـــزال شـــديد الانـــتقاد لأوليمبيا، ورسائل أخرى إلى كل مرزباناته، وحكّام المناطق التي بات يسيطر عليها.

سأله إيومينيس عندما كان يختم رسالة ويلفّها: "كيف تنوي حلّ هذه المشكلة بين الوصي وبين والدتك؟ لا يمكنك الاستمرار في التظاهر بأن كل شيء على ما يرام".

"كـــلا، لا أستطيع الاستمرار في ذلك. لكن، يتعيّن على أنتيباتر أن يدرك أن دمعةً واحدة من دموع والدتي تساوي ألف رسالةٍ من رسائله".

ردّ إيومينـــيس: "إن هـــذا لـــيس عـــادلاً. يحملُ الوصي أكبر المسؤوليات، ولذلك، فهو يحتاج إلى راحة البال".

"إنه يمتلك زمام السلطة في يديه، أما والدتي فهي في النهاية ملكة مقدونيا، ولذلك يتعيّن عليه أن يعترف بمركزها".

هـــزّ إيومينيس رأسه عندما أدرك أنه لا يستطيع فعل شيء. فلقد مضت أربع سنوات، في واقع الأمر، منذ أن رأى الملك والدته، ولذلك كان من الواضح أنّه لا يذكر سوى حسناها. وكذلك اشتاق الملك إلى شقيقته كليوباترا كثيراً. ولذا، فهو كان يراسلها كثيراً.

قـــال الإسكندر ما إن فرغا من كتابة الرسائل: "قررت الاستغناء عن حلفائنا من الإغريق".

سأل إيومينيس: "لماذا؟".

"أصبح التحالف الهيليني تحت سيطرتنا مجدداً، كما أننا نمتلك الآن ما يكفي من المال لتجنيد أي جيشٍ قد نحتاج إليه. يُضاف إلى ذلك أن اليونانيين سيروون كل شيء شاهدوه وفعلوه حين يعودون إلى بلادهم، وهـــو مـــا سيؤثّر في الناس كثيراً، وأكثر بكثير من التاريخ الذي يكتبه كاليستين".

"لكنهم جنودٌ ممتازون و...".

"لقــد تعـــبوا يا إيومينيس، كما أن الزحف الذي ينتظرنا زحفٌ طويل. يُحتمل أن يحلّ الوقت الذي يشعرون فيه بأنهم بعيدون جداً عن وطـــنهم، وربما سيتخذون عندها قراراً متسرعاً في اللحظة غير المناسبة. إنني أفضّل أن أتجنب كل هذا. دعهم يخرجون من المعسكر عند حلول الفجر".

*

أدت عوامل عدة إلى أن يدرك اليونانيون بأن أمراً مهماً قد طرأ: الـــساعة المبكـــرة من اليوم، والأمر بتحضير حقائبهم، وعربات النقل، والأمر بارتداء دروعٍ لامعة.

ظهر الإسكندر على صهوة جواده بوسيفالاس، وكان مرتدياً كل دروعه ومحاطاً بحراسه. انتظر حتى انعكست أولى أشعات الشمس على درع هوبليت المصقول قبل أن يبدأ بالكلام:

"أيها الحلفاء! إن مساهمتكم في نصرنا كانت شديدة الأهمية، بل كانت حاسمة في بعض الحالات. إننا لن ننسى أبداً أن المشاة اليونانيين في غواجميلا هم الذين دافعوا عن ميمنة الجيش ضد الهجمات المستمرة

التي قام بها فرسان البيسوس والميديين. كنتم شجعاناً، وجريئين، ومخلصين لقسم ولائكم للتحالف الهيليني وقيادته العليا. حققتم شيئاً لم ينجح أي يوناني آخر في تحقيقه على الإطلاق، وحتى أولئك الذين شاركوا في حرب طروادة، وهو إخضاع بابل، وبيرسيبوليس، وإيكباتانا.

والآن، حانت لحظة تمتعكم بثمار جهودكم: إنني أحرّركم من قسمكم، وأصرفكم من الخدمة. سيستلم كل ضابطٍ من ضباطكم تالنتاً واحداً، وسيستلم كل جندي ثلاثين ميناي من الفضة، وستحصلون إضافة إلى كل ذلك على المال الذي يكفيكم لدفع أجور نقلكم من هنا إلى اليونان. إنني أشكركم. عودوا إلى عائلاتكم، وإلى أولادكم، وإلى مدنكم!".

توقع الإسكندر حدوث عاصفة من البهجة والتصفيق بين الجنود. ولكن، بدلاً من ذلك، سرت بينهم تمتمات سرعان ما تزايدت حتى أصبحت ضجيجاً ناتجاً عن مناقشات نشطة بين كل الجنود والضباط.

صرخ الإسكندر مندهشاً: "ما المشكلة أيها الرجال؟ ألم أدفع لكم ما يكفي؟ ألم تسرّوا بالعودة؟".

تقدم أحد الضباط الذي يبلغ نحو الأربعين من العمر ويدعى هيليودوروس من إيغيون، وقال: "أيها الملك. إننا نشكرك على كل شيء، ونحن سعداء بأن تكون مساعدتنا مهمة بالنسبة إليك، لكننا لا نرغب في تركك".

نظر الإسكندر نحوه وهو غير مصدّق، وما لبث هيليودوروس أن تابع كلامه: "تعلّمنا عندما حاربنا إلى جانبك أموراً لن يتمكن أحد من تعليمنا إياها، كما حققنا إنجازاتٍ لم يكن أي جندي منا يحلم بإنجازها قطّ. يتساءل كثيرون منا عما ستفعله الآن، وأي بلادٍ تريد أن تقهرها،

وأي أراضٍ بعيدة عنا سيتمكن أولئك الذين يخدمون تحت لوائك من العيش لرؤيتها؟ سيقبل عدد منا، بالطبع، عرضك بالعودة إلى منازلهم، وسيقبلون ذلك بفرحٍ من جهة، ولكنهم من جهة أخرى سيحزنون جداً، لأنه تعلموا طوال هذا الوقت أن يعجَبوا بك ويحبوك.

ولكن، هناك آخرون لم يؤسسوا أسراً بعد، وحتى لو أسّسوا أسراً، فإنهم سيعتبرون أنه من الأهم بالنسبة إليهم أن يتبعوك ويحاربوا بشرفٍ تحت لوائك، وأن يخاطروا بحياتهم إذا لزم الأمر. يفضّل هؤلاء الرجال البقاء معك إذا كنتَ تريدهم".

أنهى هيليودوروس كلامه، وما لبث أن قفل عائداً إلى صفوفه إلى جانب جنوده.

ردّ الإسكندر: "هناك القلائل من أمثالكم، لذلك أتشرّف كثيراً إذا اختار أي واحد منكم البقاء معنا. ولكن، إذا اختار أي شخصٍ منكم البقاء، فإن ذلك سيكون على أساسٍ شخصي، وليس على أنه حليف أرسلته مدينته. سيكون ذلك الشخص جندياً محترفاً. إنني أعتزم أن أدفع لهؤلاء الرجال مبلغ ستمئة دراخما مقابل المشاركة في الحملة بكاملها، وإذا مات أحدكم في المعركة، فسيذهب هذا المبلغ إلى أسرته. يتعيّن على الأشخاص الذين يريدون البقاء أن يقفوا وراء الخط الأمامي بثلاث خطوات، أما الآخرون فهم أحرار بالذهاب في أي وقتٍ يشاءون، وسيذهبون مع امتناني، وصداقتي، وإعجابي".

دقّ الرجال رماحهم على دروعهم، وهتفوا باسم الملك، أي مثلما يفعل الجنود المقدونيون تماماً. وتراجع الذين يريدون البقاء في خدمة الجيش ثلاث خطوات وراء الخط الأمامي، فلاحظ الإسكندر أنهم يشكلون نحو نصف عدد حلفائه اليونانيين.

*

انطلق اليونانيون الذين اختاروا العودة إلى منازلهم في ذلك اليوم بالذات، وساروا بانتظامٍ بين المشاة والفرسان في الجيش والذين اصطفوا لأداء آخر تحية، وراحت الأبواق تصدح إشارة تفريق الصفوف. أما عندما أصدر بارمينيون الأمر بنفسه: "*قدّم سلاحك!*"، فإن عدداً كبيراً من أولئك الجنود الذين تعودوا على كل أنواع الأخطار، وعلى كل تحديات الحياة، اغرورقت عيونهم بالدموع.

اختفى الجنود المغادرون وراء أول منعطف في الطريق، وتلاشت أصوات الطبول التي قرعت إشارةً إلى ابتعادهم. أمر الإسكندر بأن يعود نفير الأبواق مجدداً في إشارة إلى متابعة عملية ملاحقة الملك العظيم. كان أوكسهاتري يعرف كل الطرقات المختصرة، وتطوع كي يسبق الجيش مع اثنين من المرتزقة اللسكاثيين الذين يعملون معه، ثم انطلقوا بسرعة.

تقدّم الجيش عبر الهضبة الواسعة التي ترعى فيها قطعان الظباء والماعز البرية، وكان يُسمع بين الحين والآخر زئير أسود. كانت وتيرة زحفهم تكاد لا تُحتمل، واضطر عدد كبير من المشاة للتوقف بسبب القروح التي أصابت أقدامهم، كما أن عدداً قليلاً من حيوانات التحميل انهار تحت ثقل الأحمال. ومع ذلك، رفض الإسكندر كل اقتراحات إبطاء المسيرة، وبدلاً من ذلك طلب إليهم التحرك بسرعة أكبر، ولم يسمح لهم بالنوم إلا لساعاتٍ قليلة كل ليلة، وذلك من دون نصب خيَمهم. فعل كل ذلك كي يُبقي الضغط على داريوس.

ذكّر الإسكندر كل المحاربين القدماء كيف أنهم زحفوا ذات مرة إلى طيبة من ضفاف نهر إستر في غضون ثلاثة عشر يوماً فقط، كما أنه أقدم كذلك على النوم في العراء ليلاً، ومن دون غطاء سوى عباءته العسكرية. تمكّنوا في بعض الأحيان من العثور على أماكن للاستراحة

علـــى طول الطريق المؤدية إلى المقاطعات الشرقية، لكن هذه الأماكن كانـــت محـــدودة الحجم، لأنها مصممة للأشخاص الذين يمرضون، أو للذين يواجهون صعوبات كثيرة في طريقهم.

حـــلّ المساء، فأصبح الهواء أقل كثافة وأكثر حدة، فبدأ إيومينيس بارتـــداء الـــسروال مجدداً، وهو الأمر الذي جعله يشعر براحة أكبر. استمر الزحف شرقاً لمدة ستة أيام، وسار الجيش بمحاذاة سلسلة جبال رائعـــة اشتملت على أعلى قمة رآها أي جندي، وكانت قمةً مكسوةً بالـــثلج. وصلوا إلى معبرٍ ضيقٍ يحمل اسم بوابات قزوين. وكان عبارة عـــن وادٍ صخري عميق تجري في أسفله مياه سيول، وتحيط به جدران شـــديدة الانحـــدار حـــيث إن الأغريانيين وجدوا أنه يستحيل عليهم عبورها.

قال الأسود: "لو أنهم نصبوا لنا كميناً هنا، فإنهم سيقطعوننا إرباً إرباً". وبدا، بالفعل، أنه من غير المحتمل ألاّ يسعى داريوس إلى استغلال هذا الوضع لمصلحته.

نظر الإسكندر إلى تلك الجدران التي تكاد تكون عمودية، وراح يـــراقب الانـــسياب البطيء لأحد النسور، وقال: "أتعتقد أن هناك أي شخص في الأعلى؟".

"هناك طريقة واحدة كي نعرف".

"الأغريانيون".

"سأرسلهم إلى فوق على الفور".

لم يمـــضِ وقـــت طويل قبل أن يحوّل الجنود الواقفون في الأسفل وجوههم نحو الأعلى كي يراقبوا الحركات البهلوانية التي يقوم بها جنود الهجـــوم الأغـــريانيون وهـــم يتسلقون السطوح الصخرية، ويدكونها بمعـــاولهم في بعض الأحيان كي يكوّنوا ثغرات تمكّنهم من التحرك من

خــــلال شقوقها قبل متابعة تحركهم إلى الأعلى بخفة ورشاقة لا تعرف الكلل. أفلت أحدهم يده، وهو يحاول التمسك بنتوءٍ قبل مسافة قصيرة من وصوله إلى القمة، ففقد توازنه وهوى فتقطع إرباً إرباً فوق الصخور في الأســـفل. تابع رفاقه عملية التسلق، وتوجهت مجموعة أخرى منهم نحو النقطة التي علقت فيها جثة رفيقهم بين صخرتين. فحملوا الجثة إلى حــيث أعــدّوا حمالةً وألقوه فوقها، وغطّوه بعباءة، ثم انتظروا متابعة الزحف مجدداً.

في هــذا الــوقت، وصل آخرون إلى القمة، ونفخوا في بوق كي يُعطــوا إشـــارة التقدم. تقدّم الجيش إلى الأمام. ولكن، لم تكن هناك علامة تدل على وجود أي مقاومة من قِبَل جنود الملك العظيم. احتفل الأغـــريانيون عـــند أول استراحة بمراسم جنازة رفيقهم، ثم وضعوه في محـــرقةٍ من أغصان الصنوبر، وأحرقوه وهم ينشدون معاً أغنية حزينة. وبعـــد ذلك، وضعوا رماده في آنيةٍ مع أسلحته وحزام عباءته. وشربوا حتى ثملوا معاً في ما تبقى من الليلة.

28

انتـــبه الإسكندر وهو نصف نائم إلى دمدمة بيريتاس، وكان ذلك قبل وقتٍ قليل من نهاية نوبة الحراسة الرابعة.

"ماذا هناك؟ ماذا تسمع؟ حسناً، حسناً... لا بد من أنه ذئب، أو ربمـــا وشـــقٌ". نظر عالياً فرأى المشاعل التي أوقدها الأغريانيون على جانبَـــي الوادي السحيق إشارةً إلى خلو الساحل من أي مخاطر في هذا الوقت. وسمع بعد ذلك ضجيج وقع أقدامٍ ووشوشات مضطربة.

فقال بصوتٍ أعلى هذه المرة: "ماذا هناك؟".

اقتـــرب هيفاســـتيون منه قائلاً: "عاد أوكسهاتري مع رفاقه من اللسكاثيين، وهو يريد التحدث إليك".

"أوكسهاتري؟ دعه يدخل".

شـــاهد الإســـكندر ثلاثة فرسان يتقدمون في أسفل الوادي وقد تـــسلحوا بأقواســـهم المتدلية من فوق أكتافهم، لكن طبقة من الغبار غطّـــتهم جميعاً. انطرح أوكسهاتري على الأرض من فرط الإجهاد، ثم ســـار إلى الأمام وهو يترنح قليلاً. ويُحتمل أنه لم يعد يشعر بساقيه بعد بقائـــه فـــوق صـــهوة جواده فترة فاقت قدرته على الاحتمال. "أقدم بيسوس، وهو مرزبان باكتريانا، على خلع الملك داريوس وسجنه".

قـــال ليوناتوس: "ذلك اللعين الذي كاد يقضي علينا من الخلف، وعلى ميمنة الجيش في غواجميلا".

طلـــب أوكـــسهاتري مـــساعدة من مترجمٍ كي يتأكد من فهم الآخـــرين لكلماتـــه، ثم تابع: "غادر الملك إيكباتانا مع ستمئة فارس،

وعشرين ألف جندي من المشاة، وسبعة آلاف تالنت من الخزنة الملكية، وذلـــك بنـــية إحـــراق الأرض من ورائه، وكان يريد أن ينتظرك عند بوابات قزوين، لكن جنوده شعروا بالإحباط بفعل انسحاباقم المتتالية، كما شاعت أخبار تفيد أنّ اللسكاثيين والقادوشيين لا يعتزمون إرسال تعزيزاتٍ إليهم. فرّ جنود كثيرون من الخدمة، ولقد التقينا عدداً منهم، وهم الذين أعطونا هذه المعلومات. قالوا إهم تركوا المعسكر عند حلول الظـــلام كـــي ينتـــشروا في الجبال وعبر الصحراء، أي عندما انشغل الكـــشافون في الإبلاغ عن أخبار تقدم أوائل جنودكم. عند هذا الحد، أقـــدم بيـــسوس وبـــدعمٍ مـــن مرزباناتٍ آخرين، مثل ساتيبارزان، وبارزيانتي، ونبارزان، على إلقاء القبض على الملك، ثم قيّدوه بالسلاسل ووضعوه في عربة هي في طريقها الآن بأقصى سرعة نحو أبعد المقاطعات الشرقية".

سأل الإسكندر: "أين هم الآن؟". في هذا الوقت، كان رفاقه قد ارتـــدوا ملابـــسهم، وحملـــوا أسلحتهم. وضع أحدهم حطباً في النار المـــشتعلة ووقفوا جميعاً حولها، وشعروا بأنهم سرعان ما سينطلقون إلى العمل مجدداً.

"إنهـــم في مكـــانٍ مـــا بيننا وبين مدينة هيكاتومبيلوس، عاصمة المـــيديين. لكن، ليس هناك من مخاطر في الوادي. وهكذا، إذا أسرعتَ الآن مـــع فرسانك فستتمكن من الإمساك بهم. أعتقد أنه من المريع أن يـــتمكن ذلك الخائن الطموح من الاستمتاع بثمار خيانته. وإذا كنتَ تفكّر في تعقّبه، فسآتي معك وسأكون دليلك".

ردّ الإسكندر: "لا أعتقد أنك في حالة تسمح لك بامتطاء صهوة الجواد الآن. إنك متعبٌ جداً".

"أعطِني بعض الوقت كي آكل شيئاً وأريح ساقيّ قليلاً، وسترى".

في هذه اللحظة بالذات، ظهرت ليبتين حاملةً معها شيئاً للشرب، لكن الإسكندر أومأ إليها أن تقدم شيئاً منه إلى أوكسهاتري، وقال له: "جـرّب هـذا. إنه شراب قوي". والتفت بعد ذلك إلى رفاقه، وقال: "فلتتجهز وحدات الفرسان للتحرك على الفور".

وكـان هذا تحديداً الأمر الذي كانوا بانتظاره. صدحت الأبواق في إشارة للتحرك، وما لبث الإسكندر أن امتطى فوراً صهوة جواده، وانطلق بـه بـسرعةٍ كـبيرة بمحـاذاة أسفل الوادي الصخري. ورافقه كل من أوكـسهاتري، وهيفاستيون، وبطليموس، وبيرديكاس، وكراتيروس، وكل الآخرين. أما فرق الهيتايروي فقد انطلقت ما إن أصبحت جاهزة.

سـاروا لـساعات عديدة، ولم يتوقفوا إلا كي يسمحوا للجياد بالاسـتراحة قليلاً ولاستعادة أنفاسها. انفتح الممر الصخري الضيّق نحو الـوادي الذي يؤدي إلى المدينة بينما كانت الشمس تستعد للبزوغ من وراء قمـم جبال هيركانيا المكسوة بالثلوج. صاح أوكسهاتري فجأة وهو يشدّ عنان جواده: "توقفوا!". شخر الجواد بشدة، وحاول أن يرفع رأسـه الذي كان يلمع من العرق نحو الأعلى. أما الإسكندر وجنوده فقد توقفوا بدورهم ونظموا أنفسهم على شكل دائرةٍ واسعة، ثم جهّزوا أنفسهم. استلّ الملك سيفه من غمده، بينما فكّ ليوناتوس ساطوره من حزامه. التفت الجميع نحو الأمير الفارسي الذي كان يشير إلى شيء ما في البعيد على مسافة نحو ستاديين.

قال لهم: "إنها عربة من الإسطبلات الملكية. يُحتمل أنهم تركوها كي يتمكنوا من الإسراع في مسيرهم".

قـال الإسكندر آمراً: "دعونا نمضي قدماً، لكن كونوا شديدي الحـذر. يُحـتمل أن تكون هذه مجرد مصيدة. توجّه يا هيفاستيون إلى تلـك الجهـة، وأنـت يـا بطليموس إلى الجهة الأخرى. أما أنت يا

بيرديكـــاس، فتقدّم في الطريق كي تتأكد من سلامة الوضع وراء ذلك المنعطف. كن حذراً".

نخس أوكسهاتري جواده نحو العربة، وما لبث الإسكندر أن تبعه برفقة ليوناتوس وكراتيروس.

كانـــت العربة الملكية وسط الطريق مغلقة الأبواب وبحالة جيدة على ما يبدو.

قال ليوناتوس: "انتظروا. دعوني أتقدم أولاً". وترجّل عن صهوة جواده، ورفع فأسه عالياً عندما فتح الباب ونظر إلى داخلها: "آه...".

تقدّم الإسكندر نحو العربة. كان الملك داريوس ملقى على أرضها وهو مرتدٍ ثيابه الريفية، ولا يحمل أي علامة تدل على مركزه الملكي، في ما عدا رأسه المهيب ذا الشعر الطويل، ولحيته المزينة بالخواتم، وشاربه الأسود الكثيف الذي يتناقض كلياً مع بشرته الشاحبة شحوب الموت. غطّـــت صدره طبقة كبيرة حمراء اللون. وكانت ملابسه مبلّلة بالدماء حـــتى خـــصره، أما يداه فكانتا مقيدتين. فلقد استخدم قاتلوه سلسلة ذهبية لتقييد يديه من فرط حقدهم عليه.

شتم الإسكندر بغضب: "اللعنة عليهم!".

صاح بطليموس: "بسرعة، دعونا نخرجه من العربة، فربما لا يزال حياً. استدعوا فيليب، بسرعة!".

رفع جنديان جسد الملك العظيم بعناية، ووضعوه فوق بطانية على الأرض. وصل فيليب بسرعة وركع إلى جانب داريوس، ثم وضع أذنه فوق صدره كي يسمع دقات القلب.

سأل ليوناتوس: "هل مات؟".

أشـــار فيلـــيب إليه بأن يلزم الهدوء وتابع الإصغاء، ثم قال: "غير معقول... إنه لا يزال يتنفس".

نظر الحاضرون إلى وجوه بعضهم، فيما جثا الإسكندر إلى جانب فيليب وقال: "أيُمكن فعل أي شيء لأجله؟".

هــزّ فيلــيب رأســه وبدأ بفكّ سلسلة القيد من حول معصمَي داريــوس، وقال: "هذا كل ما أستطيع عمله. دعوه يموت كرجلٍ حر. إنها الآن مسألة لحظات قليلة".

صاح كراتيروس: "انظروا، إنه يحرّك شفتيه...".

جــثا أوكسهاتري بدوره، ووضع أذنيه قرب شفتَي الملك بضع لحظات، ثم وقف بعد أن فاضت الدموع من عينيه.

قال بصوتٍ مرتعش من فرط التأثر: "لقد مات الآن. مات الملك داريوس الثالث".

اقتــرب الإسكندر أكثر، وقال: "هل قال أي شيء؟ هل تمكنتَ من سماع كلماته؟".

ردّ أوكسهاتري: "قال انتقِم لي!".

نظــر الإســكندر إلى وجــه عدوّه، وحدّق إلى تينّك العينين الــزجاجيتين اللتين حدقتا إليه في ميدان المعركة في إيسوس. وشعر بالــتعاطف مع هذا الرجل الذي كان يجلس قبل شهورٍ قليلة فوق أعلــى عرشٍ في هذه الأرض، وكانت الملايين من رعاياه تنظر إليه، لكــنّ أصــدقاءه خانــوه الآن وقتلوه، ثم تركوه على قارعة طريق ترابية. وخطرت في ذهنه أسطر عدة مأخوذة من *سقوط إيليوم* التي تــصف جــسد بــريام الخــالي مــن الحياة، وهو الذي قُتل بيد نيوبطليموس:

هنا يرقد ملك آسيا، والقائد القوي للجيوش
مثل شجرة أسقطتها صاعقة
ومثل جذع متروك، وجسدٍ من دون اسم.

تمتم الإسكندر بالقول: "سأكون أنا من ينتقم لمقتلك. أقسم على ذلك". وأغمض الملك جفون داريوس بعد ذلك.

29

"من الإسكندر إلى سيسيغامبيس، الملكة العظيمة. تحياتي!
مات ابنك داريوس. لم يُقتل على يديّ، ولا على أيدي رجالي، ولكن قتله أصدقاؤه، وتركوا جثته إلى جانب الطريق المؤدية إلى هيكاتومبيلوس.
كان لا يزال يتنفس عندما عثرت عليه، لكننا عجزنا عن فعل أي شـــيء لمساعدته غير القسم بالانتقام لمقتله. توجهت آخر أفكاره نحوك بالتأكيد، وكذلك أفكاري التي هي معك في هذه اللحظات.
شكّلَ موته بهذه الطريقة إهانةً كبيرةً لي، كما هو الأمر بالنسبة إليه، لأنه حرمنا من فرصة مواجهة بعضنا بعضاً وجهاً لوجه، وهو الأمر الذي كان سيُسفر عن فوز أحدنا، بينما يترك للآخر بعض الشرف.
سأرسله إليك الآن بحيث ستتمكنين من احتضانه للمرة الأخيرة، ومـــن البكاء عليه عندما ترافقينه إلى مثواه الأخير. جهّزنا جثته حـــيث تتمكن من الصمود في هذه الرحلة الأخيرة، والطويلة، حتى خرائب بيرسيبوليس حيث حُفر قبره الذي يستعد لاستقباله إلى جانب الملوك الآخرين.
أريـــدك أن ترتّبـــي له جنازة مهيبة. أما بالنسبة إليّ، فإنني لن أرتـــاح قبل العثور على المجرمين. أعرف أنه ليس هناك خسارة تعادل خسارة أم لولدها، لكنني أتوسل إليك ألاّ تكرهيني. فعلى الأقل، منحتك الفرصة، كي تحزني عليه وتدفنيه حسب عادات أجدادك. أما والدتي التي تنتظرني منذ سنوات عديدة فلعلها لن تحظى بامتيازٍ كهذا".

طوت سيسيغامبيس الرسالة، وبكت بمفردها فترة طويلة من الزمن في غرفتها الخاصة. وبعد ذلك، استدعت الخصيان كي يعدّوا لها عربتها

الصغيرة مع جيادها، وطلبت إليهم كذلك تجهيز فستان حدادها، وأضحيات الجنازة. وفي اليوم التالي، انطلقت عبر بلاد الأوكسيانيين، وهم الشعب الذي توسطت لدى الإسكندر بالنيابة عنه من أجل حمله على التراجع عن قراره بإبعادهم عن أراضيهم.

انتشرت الأخبار بأن الملكة الأم تعبر بلادهم متجهة إلى بيرسيبوليس كي تدفن ابنها، فتجمّع الناس على جانبَي الطريق. تجمّع الرجال والنساء والعجائز والأولاد معاً من أجل إلقاء التحية على الملكة العجوز الحزينة بصمت، ورافقوها إلى حدود أراضيهم وإلى المرتفعات التي يُمكن منها رؤية خرائب العاصمة المحروقة، وعلى الأخص الأعمدة المضاءة في قصر الانقلاب الشمسي، وجذوع الأشجار في الغابة التي التهمتها النيران.

توقفت الملكة عند بوابات المدينة المدمرة، وأمرت بنصب خيمتها هناك. صامَت لمدة ثلاثة أيام حتى رأت في الطريق الآتية من إيكباتانا العربة التي تجرها أربعة جياد والتي تحمل جثة ابنها.

*

أمّا الإسكندر فقد انطلق على الفور لملاحقة بيسوس والمتواطئين معه. وفي اليوم التالي، وصل إلى مدينة تدعى هيكاتومبيلوس، والتي استسلم قائدها الفارسي من دون أي مقاومة. ومن هناك، انطلق الجيش نحو زادراكارتا، وهي مدينة الهيراكانيين. ورأى الجنود أمامهم الامتداد غير المحدود لبحر قزوين.

ترجّل الملك عن صهوة جواده، وبدأ بالمشي حافي القدمين فوق حصى الشاطئ المبلّلة بالماء، وما لبث مرافقوه، الذين فوجئوا واحتاروا، أن تبعوه إلى هذا الحد المائي الذي أشار إلى وصولهم إلى النقطة القصوى في زحفهم.

سأل ليوناتوس كاليستين عندما وقفوا أمام البحر: "أين نحن بالضبط في هذا العالم، بحسب رأيك؟".

ردّ المؤرخ: "أعطني رمحك".

ناوله ليوناتوس الرمح، ونظر إليه وعلامات الارتباك بادية على وجهه. غرز كاليستين الرمح في رمال الشاطئ، وحرص على إيصاله إلى أقصى عمقٍ ممكن وبشكلٍ عموديّ، ثم قاس ظلّه بعناية.

"إننا على مستوى مدينة صور تقريباً، لكن ليس لديّ أي فكرة عن مدى بعدنا عنها".

"وأين ينتهي هذا البحر؟".

حدّق كاليستين إلى ذلك الامتداد المائي الذي أخذ لونه يتحول إلى الأحمر بفعل الشمس الغاربة، ثم التفت نحو نيرخوس الذي كان يقترب في تلك اللحظة، والذي ربما كان لديه جواب عن هذا السؤال. انحنى القبطان، والتقط حصاةً، ثم رماها بكل قوّته إلى أقصى مسافةٍ يقدر عليها. سقط الحجر في البحر فتسبب بحدوث سلسلة من المويجات ذات المركز الواحد التي تحركت فوق سطح المياه قبل أن تتلاشى. وأعطى جوابه بعد ذلك على الشكل التالي:

"لا أحد يعلم. لكنني لو تمكنت من بناء أسطول فسأبحر به نحو ذلك الأفق، وأستمر في الإبحار شمالاً. وبهذه الطريقة سنكتشف ما إذا كان هذا خليج من خلجان المحيط الشمالي كما يقول كثيرون، أم إنه مجرد بحيرة".

سمعوا أصواتاً صادرة من المعسكر خلال تبادلهم الحديث. وتزايدت الأصوات حدةً إلى أن أصبحت صرخات فرح وأغانيَ.

التفت الإسكندر كي ينظر وراءه قائلاً: "ماذا يحدث في المعسكر؟".

ردّ ليوناتوس وهو يستعيد رمحه: "لا أعرف".

"إذاً، اذهب كي نعرف ماذا يجري".

امتطى ليوناتوس صهوة جواده، وانطلق بسرعة نحو المعسكر. ولدى اقترابه سمع أصوات صراخٍ وغناء بشكلٍ واضح. وأدرك عندها سبب هذا الاحتفال. فلقد سمع الجنود بموت داريوس، وظنوا أن الحرب قد انتهت، كما سرت شائعات تفيد بقرب عودهم إلى الوطن أخيراً. رقص الجنود وشربوا ثم صاحوا من شدّة الفرح، وغنّوا أغانيَ مقدونية قديمة، حتى إن بعض الجنود بدأوا بإعداد حقائبهم استعداداً لرحلة العودة الطويلة.

قفز ليوناتوس إلى الأرض، وأوقف أول جندي التقاه، وكان أحد جنود مشاة البيزيتاروي، وسأله: "ماذا يحدث هنا؟".

"إننا عائدون إلى الوطن! ألم تسمع بذلك؟ انتهت الحرب!".

"انتهت الحرب؟ مَن قال لك إنها انتهت؟".

"يقول الجميع إنها انتهت. مات داريوس، وانتهت الحرب. إننا عائدون إلى الوطن! إننا عائدون إلى الوطن!".

صاح ليوناتوس في وجه الجندي: "أيها الأحمق. اطلب إلى جميع هؤلاء البلهاء أن يهدأوا، ويُنهوا هذا الضجيج. هناك رجلٌ واحد، ورجلٌ واحد فقط، سيبلغنا بموعد انتهاء الحرب. إنه الإسكندر! أتفهم؟ الإسكندر! وهو لم يقل أي شيء. أؤكد لك ذلك". ثم ترك الجندي واقفاً كالأبله وسط المخيّم، ووسط ضجيج الاحتفال الذي يصم الآذان من دون مبرّر، وعاد مسرعاً إلى الملك.

سأل الإسكندر: "حسناً، ما سبب هذا الضجيج؟".

"يصعب على المرء أن...".

"تكلّم يا رجل! ماذا يدور داخل معسكري؟".

"لا يعلم أحد كيف انتشرت إشاعة تفيد بأن الحرب قد انتهت، وأننا جميعاً على وشك العودة إلى الوطن... فمنذ أن أبلغتَ اليونانيين

بأنهم يستطيعون الرجوع، تأكد رجالنا أن دورهم سيأتي قريباً. أما الآن، وقد مات داريوس... بدأوا بالاحتفال بجنون و...".

امتطى الإسكندر صهوة جواده، وانطلق به بسرعة نحو المعسكر. وما إن وصل إلى المعسكر حتى استدعى نافخي الأبواق، وأمرهم بنفخ إشارة تدعو إلى التجمع داخل المعسكر. خفّت حدة الضوضاء قليلاً، وسرعان ما تحوّلت إلى مجموعة من الأصوات المتناثرة هنا وهناك. وبعد ذلك، تجمّع الرجال وسط المخيّم على شكل مجموعات، ووحدات، بينما وقف بعضهم حول المنصة. وقف الإسكندر في الوسط تماماً منتصب القامة ومحاطاً برفاقه، وبانت علامات الغضب الشديد على وجهه. رفع يده في إشارة إلى طلب السكوت، وبدأ كلامه:

"أيها الرجال! ماذا تفعلون؟ هيا، أجيبوا! أرسلوا إليّ قادتكم، وأخبروني ماذا تفعلون!".

ارتفعت الضوضاء مجدداً، وبدا واضحاً أنهم صُدموا جميعاً بمنع احتفالهم. تقدم قادة الوحدات المختلفة الواحد تلو الآخر، وتشاوروا للحظة في ما بينهم عند قاعدة المنصة. قال المتحدث باسمهم: "يا مولاي. انتشرت الأخبار بعد أن صرفتَ حلفاءنا اليونانيين بأنك على وشك أن تصرف التيساليين كذلك، ولذلك بدأوا بتحضير أمتعتهم، وعندما وصلتنا الأخبار وسط هذه الأجواء بأن الملك داريوس قد مات، اعتقدنا جميعاً أن الحرب قد انتهت، وأنك ستعيدنا إلى الوطن. ولهذا السبب بدأ الرجال يحتفلون لأنهم يريدون العودة إلى زوجاتهم وأولادهم الذين لم يروهم منذ أربع سنوات".

ردّ الإسكندر: "هذا صحيح. إنني أنوي صرف التيساليين مثلما فعلت سابقاً مع اليونانيين. إنهم حلفاؤنا في التحالف الهيليني، وقد انتهت مهمتهم معنا الآن. سبق لنا أن وعدنا بتحرير المدن اليونانية

الموجودة في آسيا، وبإلحاق الهزيمة بأعداء اليونانيين القدامى، وقد وفينا بتلك الوعود، كما أخضعنا العواصم الأربع، ومات الملك العظيم، لكن مهمتنا لم تنتهِ بعد". تصاعد ضجيج الأحاديث عند هذه الكلمات الأخيرة. "كلا يا رجال! ويا قدامى المحاربين الذين خاضوا معارك كثيرة! يا أصدقائي! إن المرزبانات المتمردين يحضّرون الآن هجوماً مضاداً، كما انتهوا من تجميع جيشٍ جديد يتكوّن من آلاف وآلاف المحاربين، وها هم الآن ينتظرون أن ندير ظهورنا إليهم.

"وعندها، سيهاجموننا من كل الاتجاهات الممكنة بجيادهم السريعة. وهم لن يلينوا ولو للحظةٍ واحدة؛ لا في الليل ولا في النهار، وسيسمّمون الآبار الموجودةً على طول الطريق التي سنتبعها، وسيحرقون المحاصيل، كما يعتزمون تدمير القرى التي يُحتمل أن نسعى للّجوء إليها اتقاءً من برد الشتاء. وحينها، ستتحول رحلة عودتنا بعد أن أتممنا كل هذه الإنجازات الرائعة إلى كارثة. هل هذا ما تريدونه؟".

ردّ الجنود على سؤال الملك بصمتٍ مليءٍ باليأس والإحباط. فقد امتلأ هؤلاء الجنود، الذين حاربوا دائماً بشجاعةٍ مخيفة، والذين واجهوا كل الأخطار من دون أن يقلقوا على سلامتهم، بالشك وعدم اليقين. إن المساحات الشاسعة التي رأوها تمتد إلى ما وراء أعينهم كانت بلاداً وبحاراً غير معروفة لديهم، وحتى إن مواقع النجوم والأبراج في السماء بدت في غير أماكنها، كما أنهم لم يمتلكوا أدنى فكرة عن مكان وجودهم. شعروا فجأةً بأنهم بعيدون جداً عن منازلهم، كما شعروا للمرة الأولى أن الإسكندر نفسه لا يرغب أبداً في إرجاعهم إلى منازلهم، وأنه لا يريد سوى التحرك قُدُماً، وإلى الأمام. أما خوفهم الآن فتركّز على احتمال عدم عودتهم على الإطلاق.

تحدث الملك مجدداً: "يتعيّن علينا التحرّك إلى الأمام! يتعيّن علينا أن نلاحقهم، وأن نهزمهم، وأن نبسط سلطتنا في كل أنحاء الإمبراطورية التي كانت للفرس. أما إذا فشلنا في تحقيق هذا الهدف، فإن ذلك يعني أن كل ما فعلناه حتى الآن قد ذهب هباءً، وأن كل ما بنيناه سينهار، وعندها لن يضمن أي شخص من بيننا عودته سالماً إلى ربوع الوطن. أيها الرجال! هل خنت ثقتكم بي يوماً؟ وهل خدعتكم؟ وهل حدث أنني لم أدفع لكم بسخاء لقاء أتعابكم، ألا تعتقدون أنني سأقدّم إليكم المزيد عند انتهاء مهمتنا؟ أعرف أنكم متعبون، لكنني أعرف كذلك أنكم أفضل الجنود في العالم، وأنه لا مثيل لشجاعتكم وجرأتكم. لا رغبة عندي في إجباركم على أي شيء، لأنّه لا أحد يعرف أكثر مني كم تستحقون أخذ قسط من الراحة وتعويضكم عن تعبكم. ولأجل كل ذلك، قرّرت أن لا أؤخركم أكثر من ذلك. إن أولئك الذين يرغبون في المغادرة الآن يمكنهم أن يفعلوا ذلك مع كل الشرف الذي يستحقونه ومع كامل امتناني لهم. ولكن، أريدكم أن تعلموا أنكم إذا تخليتم عني جميعاً في هذا الوقت للعودة إلى مقدونيا، فإنني سأمضي قُدُماً على كل حال مع رفاقي إلى أن أفرغ من مهمتي التي رسمتها لنفسي، وإذا كان ذلك ضرورياً... فسأفعل ذلك بمفردي!". وسكت عند هذا الحدّ، ووضع ذراعيه فوق صدره بشكلٍ متصالب. وبعد ذلك، خيّمت فترة طويلة أخرى من الصمت.

تقدّم رفاق الإسكندر خطوة واحدة إلى الأمام، وهم الذين ارتحلوا معه قبل أعوام عبر ثلوج إيليريا كي يكونوا معه في منفاه، وهم الذين وقفوا وراءه حتى هذه اللحظة. فعلوا ذلك وكأنهم ينفذون أمراً ما، وتحلقوا حوله ممسكين بأيديهم مقابض سيوفهم. وتقدّم معهم كذلك فيلوتاس وكلايتوس والأسود.

رأى أحـــد أفراد جنود فرقة الطليعة، والذي كان يعد العدة للمغادرة هذا المشهد من حيث يقف في وسط الميدان، فأوقع الحزمة التي تحتوي على أمتعـــته الشخصية عند قدميه، وأسرع إلى استلال سيفه وقرعه على درعه، فتـــرددت أصداء الصوت مثل قصف الرعد وسط السكينة المخيّمة. التفت كـــل الجـــنود نحوه، وما لبث جندي آخر أن استجاب على الفور بقرعٍ مـــشابه. وانضمّ إليهما جندي ثالث، ثم تبعه جندي رابع، وما لبث فرسان الطلـــيعة أن انـــضموا جمـــيعاً إليهم بعد أن كانوا متفرقين قرب بوابات المعـــسكر، أو قـــرب ســـياجه، أو في منتصف الميدان، أو كانوا منشغلين بإعـــداد أمتعتهم. استل جميع هؤلاء سيوفهم، وبدأوا بقرعها على دروعهم الواحد تلو الآخر. فعلوا ذلك وهم يتقدمون نحو المنصة إلى أن وقفوا جميعاً أمـــام الملك، فتابعوا قرع السيوف على الدروع بطريقة إيقاعية ومستمرة وذلك كي يكوّنوا ذلك الضجيج الذي يصمّ الآذان والذي ينتج عن قرع البرونـــــز علـــى الحديد. وسرعان ما تبعهم جنود آخرون من الفرسان، وجنود المشاة، وجنود الهجوم، والكشافة، والتراقيين، والأغريانيين. تجمّعوا كلـــهم في صـــفوفٍ منتظمة مع فرسان فرقة الطليعة، واستمروا في قرع ســـيوفهم علـــى دروعهم. رفع حامل الراية الذي ينتمي إلى الكتيبة الأولى العلـــم الأحمـــر ذا الـــنجمة الأرغادية، فتوقف الجميع عن القرع ووقفوا جامدين أمامه. تقدّم حامل الراية خطوة أخرى إلى الأمام، وأخفض الراية قبل أن يصرخ: "أوامرك مولاي!".

تأثر الإسكندر كثيراً، فتقدّم قليلاً إلى الأمام قبل أن يرفع أسلحته نحـــو السماء كي يشكر جنوده على عدم تخليهم عنه. رأى بطليموس الـــذي كان يقف قرب الملك أن عيني هذا الأخير قد فاضتا بالدموع. وقـــف إلى جانـــبه وقتاً بدا له طويلاً، بينما راح الجيش بأكمله يهتف باسمه بصوتٍ يشبه قصف الرعد: الإسكندر! الإسكندر! الإسكندر!

ســـار الملـــك محاطاً برفاقه، وعبَرَ الميدان وسط صفّين من الرماح اللامعـــة، ثم تقـــدم نحو بوسيفالاس. وقف ذلك الجواد العظيم منتظراً صاحبه وهو يقرع الأرض بحوافره.

30

تحــرّك الجــيش نحــو زادراكارتا عاصمة الهيراكانيين، وهناك عثر الإســكندر على أفراد بلاط داريوس الثالث الذين تركهم بيسوس خلال انــسحابه إلى المقاطعات الأبعد في الإمبراطورية. في هذه المرحلة، صرف الملــك الفرسان التيساليين، لكنه أعطى الفرسان فرصة البقاء والعمل معهم بصفتهم مرتزقة، ثم أمر جيشه بالاستعداد لزحفٍ طويلٍ شرقاً. تعيّن عليهم أن يغــادروا ما إن تصل الفرق الجديدة الآتية من مقدونيا، وهي التعزيزات التي كان من المفترض أن يرسلها بارمينيون إليهم في أسرع وقتٍ ممكن.

مكــث كل أفراد بلاط داريوس في منطقة محددة من المدينة تحت مراقبة الخصيان. وأعطى الإسكندر أوامره بأن يكونوا جميعاً تحت حماية جيــشه. وطلب الإسكندر معلومات محددة تتعلق بأفراد الأسرة المالكة الذين كانوا لا يزالون جزءاً من البلاط الملكي.

تقــدّم المسؤول عن الاحتفالات من الملك كي يقدم تقريره، وهو رجــلٌ يبلغ نحو الستين من عمره. وجسمه خالٍ من الشعر تماماً، وهو حليق الرأس.

"تتواجد هنا كل محظيّات الملك مع أولادهن، وكذلك سمو الأميرة ستاتييرا".

"ستاتييرا؟".

"أجل سيدي".

تذكّــر الإسكندر الرسالة التي عرض عليه فيها داريوس السيطرة علــى مناطق آسيا الواقعة غرب الفرات، بالإضافة إلى عرضه يد ابنته

للـــزواج، كمـــا تذكّر كيف أنه رفض هذا العرض مخالفاً بذلك رغبة بارمينيون.

قـــال لـــه: "أريد ترتيب لقاءٍ بيني وبين الأميرة". استأذن الخصي بالمغـــادرة، ومـــا لبث أن أرسل مبعوثاً في وقتٍ مبكرٍ من الظهيرة كي يعلمـــه بأن الأميرة ستنتظره بعد مغيب الشمس في جناحها في القصر الذي كان ملكاً لمرزبان بارثيا.

ذهـــب الملك لمقابلة الأميرة مرتدياً عباءته اليونانية البسيطة جداً. وكانت بيضاء اللون وتصل إلى كاحليه. وارتدى فوقها عباءته الزرقاء المثبتة بمشبكٍ ذهبـــي.

وقـــف الخصيّ عند الباب وقال: "لا تزال الأميرة في فترة حدادها يـــا سيدي، وهي تتوسل إليك أن تعذرها على عدم قدرتها على تزيين نفـــسها بطـــريقة تليق بحضورك. لكنها مسرورة كثيراً بزيارتك لأنها سمعت أنك رجل ذو روح وعاطفة نبيلتين".

"هل تتكلم الأميرة اللغة اليونانية؟".

أومـــأ الخصي: "علّمها الملك داريوس لغتك عندما عرض عليك يدها للزواج، لكن في ذلك الوقت...".

"أتسمح بأن تعلن الآن عن قدومي؟".

ردّ الخـــصيّ: "يمكـــنك أن تدخل على الفور، لأن الأميرة تتوقع قدومك".

دخـــل الإســـكندر فوجد نفسه واقفاً وسط ردهة صغيرة مزيّنة برسوماتٍ نباتية، وبأكاليل من أنواع الفاكهة. ووجد أمامه باباً آخر ذا إطارٍ حجري منقوش مع عتبة يسندها نقشان لطائرَي عنقاء. فُتح الـــباب، فأدخلـــته إحدى الخادمات قبل أن تنصرف، وتُغلق الباب خلفها.

وقفـــت الأمـــيرة ستاتييرا أمامه إلى جانب طاولة صغيرة للقراءة وُضـــعت فـــوقها بعض لفافات من أوراق البردى، بالإضافة إلى تمثالٍ صغير يمثّل فارساً من فرسان السهول. ارتدت الأميرة عباءة بلون العاج مـــصنوعة من الصوف الخشن، كما لفّت حزاماً جلدياً حول خصرها، وانتعلت صندلاً جلدياً مطرّزاً بأناقة. لم تضع الأميرة أي مجوهرات غير قلادةٍ فضية صغيرة تمثّل أهورا مازدا. و لم تضع مستحضرات تجميل على وجههـــا، لكـــن ملامحها القوية والرقيقة عزّزت جمال طلعتها الفخورة والـــرقيقة في الـــوقت ذاته. ورثت الأميرة عن والدها عينيها العميقتين والداكنـــتين وحاجبـــيها الملحوظَين، بينما ورثت عن والدها شفتيها الناعمـــتين والرطبتين والممتلئتين، بالإضافة إلى عنقها الرشيق، وساقيها اللتين كانتا طويلتين وجميلتين بالتأكيد.

تقدّم منها الإسكندر حتى وقف أمامها وجهاً لوجه. وكان قريباً منها بما يكفي كي يشمّ عطر الآكاسيا والعنبر، ويشعر بأنه محاطٌ بفتنة تعلّم أن يميزها عند النساء الشرقيات.

قـــال وقـــد أحنى رأسه: "ستاتييرا. إنني آسفٌ جداً لموت أبيك الملك، وقد جئت كي أخبرك...".

قابلـــت الأميرة انحناءته بمثلها، وأرفقتها بابتسامةٍ حزينة، ثم مدّت يدها، فأمسكها الإسكندر بيده هنيهة قصيرة.

تكلّمـــت الفتاة بلغةٍ يونانية خرجت من بين شفتيها بنغمة غريبة، لكنها كانت ذات إيقاعٍ موسيقي ذكّره ببارسين: "هل تتفضّل بالجلوس يا سيدي؟".

شـــعر أن ضربات قلبه قد تزايدت على نحوٍ مفاجئ عندما جلس قبالتها، وعاد مجدداً إلى الكلام: "أردت أن أخبركَ أن داريوس سيتلقى أعلى درجات التكريم، وسيُدفن في قبره الحجري في بيرسيبوليس".

ردّت الشابة: "شكراً لك".

"أقسمت كذلك أن ألقي القبض على القاتل، وهو المرزبان بيسوس الذي فرّ نحو باكتريانا. كما أنني سأُنزل به العقوبة التي ينصّ عليها القانون الفارسي، والمتعلقة بالشخص الذي يخون ملكه ويقتله".

أحنت ستاتييرا رأسها بحركة خفيفة ورشيقة، وهي علامة تدل على الموافقة، ولكنها لم تقل أي شيء. في هذا الوقت، دخلت إحدى الخادمات حاملةً صينية عليها كوبان مليئان بالثلج وعصير الرمان الطازج ذي اللون الزهري. ناولت الأميرة أحد الكوبين إلى ضيفها. غير أنها لم تشرب من العصير، وذلك احتراماً لقوانين الحداد الصارمة، لكنها راقبته بصمت. بدا لها أنه يستحيل على هذا الشاب الذي يمتلك ملامح في غاية الكمال، وسلوكيات صريحة ونبيلة، أن يكون ذلك القاتل العنيد الذي سحق أقوى الجيوش في العالم، وأن يكون ذلك الشخص الذي أحرق قصر بيرسيبوليس، وترك المدينة مستباحة للنهب والسلب. بدا لها في تلك اللحظة ذلك الشاب اللطيف الذي عامل كل النساء الفارسيات اللواتي أسرهنّ بكل احترام، وذلك الفاتح الذي احترم خصومه إلى درجة أنه كسب إعجاب الملكة الأم.

سألته بطريقة طبيعية تماماً: "كيف حال جدّتي؟". لكنها سرعان ما استدركت على الفور: "أعني الملكة الأم ".

"إنها بخير. إنها امرأة نبيلة وقوية، تمكنت من تحمل ضربات القدر بكرامة. وأنتِ أيتها الأميرة، كيف حالك؟".

"أنا كذلك بخير يا سيدي؛ بقدر ما تسمح به الظروف".

داعب الإسكندر يدها مجدداً وقال: "أنتِ جميلة يا ستاتييرا، وفي غاية الجاذبية. لا بد من أن والدك كان فخوراً بكِ".

فاضت الدموع من عينيها، وقالت: "كان والدي المسكين فخوراً بـــي. كان سيبلغ الخمسين من عمره في هذا اليوم. لكن، شكراً لك على كلماتك اللطيفة هذه".

ردّ الإسكندر: "إنها كلمات نابعة من القلب".

أحنت ستاتيرا رأسها، وقالت: "أستغرب أن أسمع هذا الكلام من شابٍّ سبق له أن رفض الزواج بـــي".

" لم أكن أعرفك حينها".

"أكان ذلك الأمر سيغيّر شيئاً؟".

"يُحتمل ذلك. يُمكن لنظرة واحدة أن تغيّر قدر رجل".

ردّت الأمـــيرة وهي تحدّق إليه بعينيها اللامعتين والصافيتين: "أو قدر امرأة. لكن، لماذا أتيتَ إلى هنا؟ لماذا تركتَ بلادك؟ أليست بلاداً جميلة؟".

ردّ الإســـكندر: "آه، نعـــم. إنها كذلك حقاً. فيها جبالٌ مغطاة بالـــثلوج، وســـرعان ما تتحول إلى اللون الأحمر عند مغيب الشمس، واللـــون الفضي عند طلوع القمر. وفيها كذلك بحيرات ذات مياه نقية وصـــافية مثل أعين الفتيات الصغيرات، وفيها مروجٌ مغطاة بالأزهار، وغابات من شجر التنوب الأزرق".

"أليس لديك والدة وشقيقة؟ ألا تفكّر فيهما؟".

"أفكّـــر فيهما في كل ليلة. وكلما هبت الرياح الذاهبة إلى جهة الغرب، أحمّلها الكلمات التي تخرج من قلبـــي، وأتضرع أن تحمل هذه الكلمـــات إلى بيلا؛ إلى القصر الذي ولدت فيه، وإلى بوثروتوم حيث تعيش شقيقتي مثل طائرٍ غرّيد في عشٍّ حجري يشرف على البحر".

"إذاً، لماذا بدأتَ هذه المهمة؟".

تـــردّد الإســـكندر قليلاً، وكأنه خائف من الكشف عن جوهر روحه أمام هذه الشابة الغريبة، لكنه سمح لنظراته بأن تسرح بعيداً، أبعد

مـــن الجـــدران؛ بحيث تعبر تضاريس الجبال المغطاة بالغابات والمروج الخضراء. تناهت إلى أسماعه في تلك اللحظة أصوات آتية من الطريق في الأســـفل. كانت أصوات رجالٍ يبيعون سلعاً متنوعة، وأصوات نساء يثرثرن خلال غزلهن الصوف. وبعد ذلك، سمع صوتاً أجش صادراً عن الجمال الباكتريانية خلال سيرها في قوافلها.

وقـــال على نحوٍ مفاجئ، وكأنه أفاق لتوه: "يصعب عليّ الإجابة عـــن هـــذا السؤال، لأنني طالما حلمت بالذهاب إلى ما يتخطى الأفق الـــذي يُظهـــر نفسه أمام عيني، وبالذهاب إلى أقاصي الأرض ذاتها إلى حين وصولي إلى أمواج المحيط...".

"وماذا بعد؟ ماذا ستفعل بعد أن تقهر العالم بأكمله؟ أتعتقد أنك ســـتكون سعيداً عندها؟ هل ستكون قد أنجزتَ حينها كل شيء أردتَه بالفعـــل؟ أم أنك ستجد نفسك في قبضة قلقٍ أقوى وأعمق، لكنه قلقٌ مجهول هذه المرة؟".

"يُحتمل ذلك، لكنني لن أختبر هذه الأمور حتى أصل إلى الحدود التي حددت للبشر".

نظـــرت ستاتيرا إليه بصمت. وعندما حدّقت إلى عينيه، اعتراها شـــعور بأنها كانت تحدّق إلى عالمٍ غامض وغير معروف، وإلى صحراء مـــسكونة بالأشـــباح. فشعرت بالدوار الذي ترافق مع إحساسٍ عارم بالإعجـــاب، ومـــا لبـــثت أن أغمضت عينيها بصورة فطرية. قبّلها الإسكندر، وشعرت بملامسة شعره وجهها وعنقها.

وحين فتحت عينيها مجدداً، لم يكن هناك.

وفي اليوم التالي، حضر إلى القصر إيومينيس، الأمين العام، وطلب يدها للزواج بالنيابة عن الملك.

31

تمت مراسم الزفاف بحسب التقاليد المقدونية. قطع العريس بسيفه رغيفاً من الخبز، وقدّم قسماً منه إلى العروس التي شاركته أكل الرغيف. كـــان طقساً بسيطاً، لكنه مليء بالإيحاءات وقد استمتعت به ستاتييرا كثيراً. جرى الاحتفال الذي أعقب حفل الزفاف على الطريقة المقدونية كـــذلك، وترافق مع سكب الشراب على الأرض، ومع وليمة فخمة، ومـــع كثيرٍ من الغناء، والاستعراضات، والرقص. لم تشارك ستاتييرا في هـــذه الاحـــتفالات بسبب كونها لا تزال في فترة حداد على والدها، وانتظـــرت زوجها في غرفة نومها التي كانت في الطابق الأعلى، وهي الغـــرفة المـــصنوعة من خشب الأرز. وفيها ستائر عريضة مصنوعة من قماش الكتان المصري، وكانت الغرفة مضاءة بالمشاعل.

كانت أهازيج جنود الإسكندر التي تشتمل على كلماتٍ بذيئة لا تزال تُسمع عندما حضر إليها. ولكن، ما إن خبا الضجيج حتى حلّت مكانـــه أغنـــية حزينة ترددت أصداؤها في تلك الليلة، كما هبّ نسيم عليل مرّ فوق قمم الأشجار المكسوة بالأزهار مثل أغنية عندليبٍ.

سأل الملك: "ما هذا الصوت؟".

تقـــدمت ســـتاتييرا نحوه بعباءتها الهندية الخفيفة، ووضعت رأسها علـــى كـــتفه: "إنهـــا واحدة من أغاني الحب عندنا. هل تعرف قصة أبروكوم وأنثيا؟".

وضـــع الإســـكندر ذراعه حول خصرها، وجذبها نحوه: "أعرفها بالطبع، ولكن بالإغريقية. تحدّث عنها أحد كتّابنا في مؤلَّفٍ حمل عنوان

تعليم سيروس، لكن لا بد من أنها ستكون رائعة عند سماعها بالفارسية، حتى لو كنتُ لا أفهم لغتكم. إنها قصة رائعة".

قالت ستاتيرا بصوتٍ مرتعش: "إنها قصة حب تتخطى كل الحدود".

فكّ الإسكندر أربطة عباءتها ونظر إليها. وقفت أمامه، وما لبث أن رفعها بذراعيه وكأنه يرفع طفلاً صغيراً، ثم وضعها فوق السرير. أحبّها بلطفٍ شديد، وكأنه أراد أن يعوضها عن كل شيء سُلب منها: وطنها، ووالدها، وشبابها اللاهي. وهي بدورها استجابت بحماسة وشغف، كما استفادت من التعليمات التي استقتها من وصيفاتها عن أمور الحب المتوارثة عن أجيالٍ سابقة، وذلك كي لا تخيّب آمال زوجها في سرير زفافهما.

*

وعند فجر اليوم التالي، داعبت أولى أشعات شمس الصباح الإسكندر. فهمّ بالنهوض، وكان على وشك مناداة ليبتين كما اعتاد على الدوام، لكنه انتبه إلى ذلك الصف الطويل من الأشخاص الواقفين أمامه بنظام، وكان من الواضح أنهم كانوا ينتظرون استفاقته منذ بعض الوقت.

كاد الإسكندر يهمّ بتناول سيفه وهو لم يستيقظ جيداً بعد، لكنه توقف في الوقت المناسب. جلس على السرير، وأسند رأسه إلى لوحته، وذلك قبل أن يسأل بصوتٍ فيه من الدهشة أكثر مما فيه من الغضب: "من أنتم؟".

أجاب أحد الخصيان: "إننا خدمك الشخصيون، وأنا المسؤول عن حفل صباحيتك".

راح الإسكندر يهز ستاتيرا التي كانت لا تزال نائمة، فنهضت، وغطت نفسها برداء. همس في أذنها: "ماذا يُفترض بي أن أفعل الآن؟".

"لا شيء يا سيدي. إنهم سيهتمون بكل شيء، وقد جاءوا إلى هنا لهذا الغرض".

لم يضيّع الخصي وقتاً قبل أن يشير إليه بأن يتبعه إلى الحمام، حيث كانت خادمتان وخصيّ شبه عارٍ بانتظاره؛ وهم الذين غسلوه ومسّدوه، ووضعوا له العطور. بينما راحت خادمات ستاتييرا يعتنين بأميرتهن.

وبعد ذلك، اقترب الخصيّ الشاب والوسيم منه كي يجفف له بشرته. ثم ساعده الخدم على ارتداء ملابسه، فتقدموا منه الواحد تلو الآخر تحت إشراف الخصيّ. تقدمت الخادمات بعد أن حملت كل واحدة منهن قطعة من ملابسه وألبسنه إياها بحركات رشيقة. بدأت الخادمات بالملابس الداخلية، التي لم يسبق للإسكندر أن استخدم مثلها حتى تلك اللحظة، ثم جاء دور السروال المصنوع من الكتان المطرز، ولكنه رفض أن يرتديه بإشارةٍ من يده.

هزّ الإسكندر رأسه وتبادل نظراتٍ مليئة بالدهشة مع المشرف على الملابس.

قال الإسكندر شارحاً: "أنا لا أرتدي سروالاً أبداً. أعطِني عباءتي".

قال المشرف على الملابس الذي اعتبر أنه من غير اللائق أن يرتدي الإنسان ملابس داخلية من دون ارتداء السروال: "لكن يا سيدي...".

كرّر الإسكندر بإصرار: "أنا لا أرتدي السراويل". لم يفهم الرجل هذه الكلمات الإغريقية، لكنه فهم تماماً نبرة الملك وإشاراته. جهدت الخادمات لكتم ضحكاتهن. وتبادل الخصيّ والمشرف على الملابس النظرات، ثم أرسلا خادماً من أجل إحضار عباءة الملك اليونانية، وألبساه إياها. عند هذا الحد، احتار الخدم في طريقة إلباسه. فقرّر

الخصيّ الشاب والوسيم أن يأخذ المبادرة، فأمر إحدى الخادمات بإحضار العباءة الملكية الفاخرة ذات الكمّين العريضين والمثنيين، ثم ناول الإسكندر إياها كي يرتديها. نظر إليها الإسكندر، ثم نظر إلى المشرف على الملابس الذي استمر في التحديق إليه بدهشةٍ أكبر، لكنه ارتداها متردداً بعض الشيء. وبعد ذلك، أحضروا له الكوفيةً، وربطوها حول جبهته وعنقه، فانسدلت فوق كتفيه.

راح خدمٌ آخرون يرشّون العطور عليه، وما لبث الخصيّ الشاب أن أحضر مرآة حيث تمكن الملك من النظر إلى صورته، ثم قال له بالإغريقية: "تبدو رائعاً يا سيدي".

دُهش الإسكندر من قدرة الشاب على التكلم بالإغريقية فسأله: "ما اسمك؟".

"اسمي باجاوس، وكنت خادم الملك داريوس الشخصي والمفضّل لديه. لا يعرف أحد كيفية إرضائه أكثر مني. أما الآن، فلقد أصبحت ملكك إذا كنتَ تريدني". قال هذه الكلمات بصوتٍ رقيق ومثيرٍ جداً حيث إن الملك شعر بالذهول. لم يُجبه الإسكندر، بلً نظر إلى صورته المنعكسة على السطح الفضي المصقول. شعر الملك بنوعٍ من الرضا الواضح لأن تلك الملابس ناسبته بالفعل. وكان على وشك الذهاب إلى ستاتييرا كي يرى مدى إعجابها بملابسه. ولكن، ترددت فجأة أصوات وقع قدمي جندي مقدوني في أرجاء الممر، ولم يلبث الأسود أن ظهر مزوّداً بكامل أسلحته، والاضطراب بادٍ على وجهه. بدأ بالكلام حتى قبل دخوله الغرفة: "مولاي. وصلتنا أخبارٌ مهمة من..."، ولكنه ما إن رأى الإسكندر حتى توقف عن الكلام، وتغيرت ملامحه، وانفجر ضاحكاً: "من هم كل هؤلاء الأشخاص؟ وكل هؤلاء النساء؟ وكل هذه العجائب؟ وبعد ذلك... ماذا ترتدي؟".

لم يـــضحك الإســـكندر مطلقاً، لكنه بدا منـــزعجاً ومتضايقاً: "توقف على الفور! أيجب عليّ أن أذكّرك بأنني الملك!".

تابع الأسود حديثه: "الملك؟ أي ملك؟ بالكاد عرفتك لأنك تبدو مثل...".

"ســـأجرّدك من أسلحتك إذا زدتَ كلمة واحدة، وسألقيكَ في السجن. وسنرى عندها إذا كنتَ ستجد شيئاً تضحك عليه".

أحنى الأسود رأسه.

"ماذا تريد أن تقول لي؟".

وصـــلتنا أخبار تفيد بأن بيسوس موجود في باكتريانا حيث أعلن نفسه ملكاً عظيماً، واتخذ له اسم أرتحششتا الرابع (أرتازيركزيس)".

"هل من شيء آخر؟".

"شـــوهدت التعزيـــزات القادمة من مقدونيا على طريق إيكباتانا (همـــذان حالياً)، ويبلغ عددها نحو سبعة آلاف رجل ومعهم المرافقون. سيصلون إلى هنا عند حلول المساء".

"حـــسناً، سأســـتقبلهم بنفسي عند غروب الشمس. دع الجيش يستريح الآن".

غـــادر الأســـود وهو يعض شفته كي لا يقول أي شيء آخر. ولكـــن، لم تتأخر الإشاعة عن الانتشار داخل المعسكر، والتي تفيد بأن الإسكندر يرتدي ثياباً فارسية وقد أحاطت به النساء والخصيان.

صاح فيلوتاس عندما سمع الخبر: "لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، كما أن والدي لا يطيق النظر إلى هذا المنظر المخزي".

ردّ كـــراتيروس: "أما أنا، فلا أصدّق ذلك. ألم يحذّرنا الإسكندر ذاتـــه عندما كنا في بيرسيبوليس بأنه لم يأتِ بنا كل هذه المسافات كي يرانا نتصرّف مثل الشعب الذي هزمناه".

قـــال هيفاستيون: "لا أعتقد أنّ هناك أيّ شيء غريبٍ في الأمر. ســـبق لكم أن رأيتم الإسكندر في مصر وهو يرتدي ملابس الفراعنة، إذاً، مـــا الذي يمنعه من ارتداء ملابس الملك العظيم ونحن هنا في بلاد فارس؟ لقد تزوج ابنة الملك العظيم وورث مملكته".

ردّ فـــيلوتاس بحدة: "إن كل ما يفعله الإسكندر أو يقوله صائب بالنـــسبة إليك. لكن الملك فيليب كان سيشعر بالذعر لدى رؤيته هذا المنظر...".

قال هيفاستيون مقاطعاً: "كفّ عن هذا الحديث! إنه ملك. ويحقّ لـــه أن يفعل ما يشاء. أما أنتم، فالأجدر بكم أن تشعروا بالخجل من ســـلوككم، وأنـــت أيـــضاً أيها الأسود. أنسيتم عندما أغدق عليكم العطايا، وملأ خيَمكم بالذهب الفارسي، وعندما أخذتم كل ذلك بكل ســـرور؟ لقـــد نـــسيتم، أليس كذلك؟ أما أنت يا فيلوتاس، ألم تشعر بالـــسرور عندما عيّنك الإسكندر في مركز القائد الأعلى للفرسان؟ أما الآن، فـــإنني أراكـــم ساخطين بسبب بعض القماش الفارسي. إنكم تدفعونني للضحك!".

فـــصاح الأسود الذي كان في مزاجٍ سيّئ: "أنا أدفعكَ للضحك؟ إذاً، سأشفيك عما قريب!". ورفع قبضته، واستعد لتوجيه لكمة.

تقدّم بطليموس على الفور للفصل بين الرجلين، وما لبث سلوقس أن سانده: "توقف عندك! هل فقدتَ صوابك؟ هذا يكفي! توقفا!".

ابـــتعد الـــرجلان عـــن بعـــضهما. فتوجّه كراتيروس إلى ناحية كلايتوس، وكأنه يريد أن يقول له إنه يدعمه.

قال سلوقس: "اسمعوني جيداً. إنه من المعيب أن نتواجه حول هذه الأمـــور. يُحـــتمل أن يكون الإسكندر قد ارتدى ملابس فارسية كي يرضـــي ســـتاتيرا، أو أنه فعل ذلك بدافع الفضول فقط. كنا معاً على

الدوام، وسنظل معاً. إننا وسط منطقة معظمها معادٍ لنا، وإذا بدأنا بالجدال فسنضيع. ألا تفهمون ذلك؟".

سُمع صوتٌ مألوفٌ من الخلف: "لا تُعتبر هذه أموراً تافهة". التفت سلوقس وقال: "كاليستين...".

"أكرّر ما قلته. إن هذه الأمور ليست تافهة. غادر الإسكندر اليونان بصفته قائداً للتحالف الهيليني، وأخذ على عاتقه مهمة تدمير عدو اليونانيين القديم. هذه هي غايته الحقيقية، وهي الغاية التي أقسم في كورينث أن يسعى إلى تحقيقها حتى النهاية".

قال إيومينيس الذي بقي صامتاً حتى هذه اللحظة: "سوّى الإسكندر مباني بيرسيبوليس أرضاً. ألا يكفي ذلك؟ وضحّى بأجمل قصرٍ في العالم على مذبح فكرة العالم الهيليني".

ردّ كاليستين بحدة: "أنت مخطئ، لأنه فعل ذلك بسبب عدم إتاحة خياراتٍ أخرى أمامه. إنني أقول لك ذلك لأنني أعرفه من أوثق المصادر. إن اليونان وشعبه لم يعنيا له شيئاً في ذلك الوقت، كما أنني أخشى أنهما لا يعنيان له شيئاً الآن".

في تلك اللحظة، دوّت أصوات الأبواق، وما لبثت فرقتان من الهيتايروي يرتدي أفرادهما ملابس الاستعراض أن خرجتا بسرعة من البوابة الغربية للمعسكر، ثم توزع الجنود على صفّين متقابلَين بمحاذاة الطريق العامة. وبعد وقت قصير، سُمعت أصوات الطبول والتقدم المنتظم لجنود جيشٍ يتحرك مقترباً من المكان.

صاح بطليموس: "وصلت التعزيزات! سيصل الإسكندر في أيّ لحظة. دعونا نستعد لاستقبالهم بدلاً من الوقوف هنا كي نتبادل الأحاديث".

هزّ كاليستين رأسه وكأنه يريد أن يعبّر عن رغبته في عدم المشاركة، وتحرك مبتعداً. وتحرّك الآخرون، بعضهم على عجلةٍ من

أمرهم، وبعضهم الآخر بسرعة أقل، وذلك كي يرتدوا دروعهم قبل الاصطفاف مع بقية الجيش الذي كان يستعد للترحيب بالرفاق الذين وصلوا لتوهم من مقدونيا.

تقدّم الواصلون الجدد بنظامٍ تام عبر الميدان، فرحّب بهم الجنود بنفير الأبواق، وعن طريق فرقة الهيتايروي التي قدّمت سلاحها قبل أن تتوجه كي تصطف أمام المنصة القريبة من الخيمة الملكية. فيما اصطفّ باقي أفراد الجيش وراء هذه الفرقة. أما المرافقون، وهم أبناء نخبة نبلاء المقدونيين الشبان، فقد وقفوا أمام كل الباقين لأنهم ارتدوا ستراتهم البيضاء الفضفاضة وعباءاتهم الحمراء. جاء هؤلاء كي يخدموا الملك الإسكندر، أي مثل بيرديكاس، وبطليموس، ولايسيماخوس، وباقي الرفاق الذين كانوا في خدمة الملك فيليب في قصره في بيلا.

سُمِع نفير أبواقٍ أخرى، فالتفت الجميع هذه المرة نحو البوابة الشرقية لأنه قيل لهم إن الملك سيدخل منها.

قال بطليموس بصوتٍ منخفض بينما رفع إحدى يديه نحو جبهته: "بحق ***الأسياد***، لا يزال يرتدي الملابس الفارسية".

قال سلوقس من دون اكتراث: "بهذه الطريقة، سيعرف الجميع كيف يتصرفون. صدّقني، هكذا أفضل".

وصل الإسكندر بسرعة على صهوة جواده بوسيفالاس. وقد تطايرت ملابسه الفارسية، المصنوعة من أجود أنواع الحرير، بفعل النسائم فبدت مثل الستائر. أما الكوفية التي أحاطت برأسه نزولاً إلى صدره وكتفيه فقد أعطته مظهراً غريباً، لكنه مظهر جذاب مع ذلك.

قفز الإسكندر إلى الفسحة أمام المنصة، وصعد الدرج الذي يؤدي إلى سطح المنصة ببطء. والتفت بعد ذلك بملابسه الفارسية كي يواجه الجيش المقدوني، ومن ضمنهم قدامى المحاربين والمجندون الجدد. وقف

أمـــام أعـــين جمـــيع الحاضرين المندهشين، بدءاً من الرفاق وحتى آخر جـــندي، وحـــتى أولئك الشبان المصطفّين أمام المنصة مباشرة، والذين كانوا يحدّقون إليه وكأنهم عاجزون عن تصديق ما يرونه.

بدأ الملك كلامه: "أردت أن أحضر شخصياً كي أرحّب بمجندينا الجدد الذين أرسلهم إلينا أنتيباتر؛ الوصي على العرش. أردت كذلك أن أرحّـــب بالـــشبان الذين أرسلهم إلينا نبلاء مقدونيا كي يتدرجوا في خدمـــة ملكهـــم، ويتعلموا كيف يصبحون محاربين مخلصين. إنني أقرأ الدهـــشة المرتـــسمة في أعيـــنكم، وكأن شبحاً ظهر أمامكم. أعرف الـــسبب. إنه هذا الرداء الذي أرتديه، أي العباءة، وهذا القماش الذي أضعه فوق عباءتي العسكرية. أريدكم أن تعرفوا أنني فعلت ذلك عمداً لأنـــني لم أعـــد ملكاً لمقدونيا فقط. إنني فرعون مصر كذلك، وملك البابلـــيين، وملـــك الفـــرس العظيم. مات داريوس وتزوجت الأميرة ســـتاتييرا، ولذلك فقد أصبحت وريثه. إنني أعلن، بهذه الصفة، سلطتي على كامل الإمبراطورية التي كانت له، كما أرغب في أن أستغل هذه الـــسلطة لملاحقة بيسوس، الذي يدّعي أنه الملك الجديد، إلى أي مكان قد يختبئ فيه. سننال منه، وسنُنـــزل به العقاب الذي يستحقه.

وســـأقوم الآن بتوزيع الهدايا على الواصلين الجدد. لذلك سأقيم مأدبـــة عـــشاء خاصة هذا المساء، وسأقدّم كمية كبيرة من الشراب. أريـــدكم أن تستمتعوا، وأريد أن تكون روحكم المعنوية عالية لأنكم سرعان ما ستنطلقون مجدداً. ونحن لن نتوقف حتى نحقّق هدفنا!".

دوّت عاصـــفة تصفيق فاترة، لكن الإسكندر لم يفعل أي شيء كي يجعلها أكثر حرارةً، وأكثر حماسةً. أدرك الملك الأفكار التي تجول في رؤوس جـــنوده ورفاقـــه، كما أدرك مدى دهشة الشبان، ومرافقي الجـــيش الذين وصلوا لتوهم من مقدونيا، لأن الملك كان بالنسبة إليهم

أســـطورةً حـــية، لكنهم وقفوا الآن أمام رجلٍ يرتدي ملابس البرابرة الذين هزمهم حديثاً، وهي ملابس توحي بالأنوثة تحديداً. لم يكن ذلك كل شيء، لأن ما سيقوله كان أسوأ بكثير.

انتظر الملك حتى خيّم الصمت التام قبل أن يستأنف حديثه: "إن المهمـــة التي نوشك على تحقيقها ليست أقل صعوبة من تلك المهامّ التي أنجـــزناها حتى الآن. كما أن الجنود الجدد الذين وصلوا من مقدونيا لا يكفـــون لهذه المهمة. لذا، سيتعيّن علينا أن نبذل قصارى جهودنا كي نقـــارع أعـــداء لم يسبق لنا أن رأيناهم أو حاربناهم. وسيتعيّن علينا كذلك أن نقيم حامياتٍ في مدنٍ وقلاعٍ كثيرة، وأن نصطدم مع جيوشٍ أكثر عدداً بكثير من الجيوش التي قهرناها في إيسوس وغواجميلا". خيّم صـــمت تـــام علـــى المعـــسكر، فتركزت عيون المحاربين جميعاً على الإســـكندر، وأرهفـــوا السمع كي لا تفوقهم كلمة واحدة مما يقوله. "ولهذا السبب بالذات اتخذت قراراً قد لا توافقون عليه، ولكنه ضروري جداً. إننا لا نستطيع استنـــزاف شبان وطننا عن طريق الطلب إليهم أن يخدموا في الجيش بشكل متواصل، كما أننا لا نستطيع أن نترك مراكزنا الدفاعـــية مـــن دون جنود. ولذلك، أجريت الترتيبات من أجل تجنيد ثلاثـــين ألف فارسي، وتدريبهم بحسب الأساليب العسكرية المقدونية. سيبدأ التدريب على الفور، وسيستلم القادة العسكريون في المرزبانات تعليمات محددة في هذا الشأن".

لم يـــصفق أحد من الحضور، ولم يطلب أي شخص الإذن بالكلام، ولم يُصدر أي جندي أي صوت. بقي الملك وحيداً كما لم يكن من قبل، وســـط هذا الصمت الثقيل. وتحرّك هيفاستيون فقط، وأمسك بعنان جواد الإسكندر الذي قفز على صهوة بوسيفالاس، ثم اختفى فوراً وبسرعة.

32

لفّ إيومينيس الوثيقة وحدّق إلى عينَي كاليستين قائلاً: "إذاً، هذا هو الإسكندر بالنسبة إليك؟".

ردّ كاليستين والارتباك بادٍ في عينيه: "ربما يتعيّن عليّ أن أقول إنّ هذا هو ما يجب أن يكون عليه الإسكندر".

أجاب الأمين العام وكأنه يردّد صيغةً ما حفظها عن ظهر قلب: "إن دور المؤرخ يجب أن يقتصر على رواية الحقائق كما حدثت بالفعل، وذلك بعد أن يكون قد عاينها بنفسه، أو بعد استشارة شهود عيان موثوق بهم".

"أتعتقد أنني لا أعرف ما يجب أن يكون عليه دور المؤرخ؟ لكن يجب عليّ كذلك أن أحاول شرح نفسيّة الإسكندر وأفكاره ليفهمه الذين سيقرأون كتابي. سمحت لك أن تقرأ ما كتبتُه حتى الآن لأنني أحتاج إلى دعمك، ولأنك تدوّن يوميات الحملة كل يوم، ولكن على الأخص...".

"أتفعل ذلك لأنه يتحرك إلى ما يتعدى هوامش صفحتك، ويتخطى الحدود التي حدّدتها له في كتابك؟".

"يُحتمل ذلك؟".

"إذاً، يمكنك أن تريح بالك، لأن الإسكندر لم يعد ذلك الشخص الذي نعرفه، وربما لم يكن ذلك الشخص مطلقاً".

"لقد أقسمَ أمام كل الإغريق أن يقود حملة تحالفٍ هيليني ضد بلاد فارس، وهي البلاد المعادية لنا منذ أجيال".

"لقد فعل ذلك وانتصر. إنه زعيم كل اليونانيين".

ظهر الضيق على كاليستين، وما لبث أن هبّ واقفاً: "أجل، لكنه أصبح الآن واحداً منهم. إنه يرتدي أزياءهم، ويحيط نفسه بالخصيان والمحظيات، كما أنه يدرّب شباهم بحسب تقنياتنا القتالية، ولعله يتلقى دروساً باللغة الفارسية. يقولون إنه البارحة، وفي أثناء إحدى حفلات مجونه أقدم على... وأمام الجميع".

ردّ إيومينيس: "لقد قرّر أن يشهّر بكل الذين ينظرون إلى هذه الأمور بالطريقة التي تنظر أنت بها إليها. إنه يريد أن يُظهر لكم أننا قد وصلنا إلى نقطة اللاعودة. أما بالنسبة إلى الحفلات التي تتحدث عنها، فإنني لا أعتقد أن حفلاتنا أقل مجوناً. يتعيّن علينا أن نتعلّم تقبّل الواقع الحاضر مثلما نتقبل الماضي. صدّقني عندما أقول لك إنه ينبغي لنا أن ننسى الصورة التي كوّناها سابقاً، لأن ذلك يمنحنا راحة البال".

"راحة البال؟".

"أجل. إن الصورة التي ترسمها له في كتابك **التاريخ** صورة مطمئنة، ويسهل فهمها بالنسبة إلى الشخص اليوناني المتعلم، والذي يمتلك أفكاراً معتدلة، لكن الإسكندر أمرٌ مختلف تماماً".

"لا شك في ذلك. فهو لا يفوّت الفرصة مع مرور كل يوم كي يذكّرنا بهذه الحقيقة. يشعر جنودنا بالقلق، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المجندين الجدد ومرافقي الجيش من الشبان الذين وصلوا لتوّهم من مقدونيا، وهم يشعرون بالصدمة. ظن هؤلاء أنهم جاءوا إلى هنا كي يخدموا بطلاً، وفاتحاً، ووريثَ آخيل وهرقل، لكنهم وجدوا بدلاً منه رجلاً يرتدي ملابس تليق بالنساء، ويريد إدخال التقاليد البربرية، والعادات المخزية والمقيتة".

"إنها عادات أقل ما يُقال فيها إنها تختلف عن تلك التي اعتدنا عليها يا كاليستين. قادنا الإسكندر إلى بلادٍ لم يعبرها أي يوناني من

قبل، وتظلّلها سماء أخرى. قادنا عبر صحارٍ ومرتفعات، كما قادنا إلى مـــا وراء النيل ودجلة والفرات. وهو يحلم بالوصول إلى نهر السند. لا شيء يبقى على ما هو عليه، ألا تفهم ذلك؟".

"أنا أفهم ذلك، لكنني لن أتقبّل هذا الواقع أبداً".

"وهل أعلمتَه بذلك؟".

"بالتأكيد".

"وماذا قال لك؟".

"قال لي: *اكتب ما يحلو لك يا كاليستين*. إنه لا يعطي معنى لأي شيء، ولا يكترث بأيّ شيء".

لم يُـــضف إيومينيس شيئاً، لأنه كان يعلم أن كاليستين قد وصل إلى درجـــةٍ مـــن القناعة، بحيث إن شيئاً لن يتمكن من تغيير معتقداته وأفكـــاره التي كوّنها في ذهنه. وحين انتبه إلى تأخّر الوقت، وقف كي يغادر، ولكنه شعر قبل أن يعبر عتبة الباب بأنه لا يزال يمتلك شيئاً يريد أن يقوله لكاليستين، بالإضافة إلى رغبته في إعطائه بعض النصائح. قال له: "يتغيّر الإسكندر على الدوام، لأن فضوله من النوع النهم، أما قوته الحـــيوية فهي من النوع الذي لا ينضب. يشبه الإسكندر الهاليكيون، وهـــو الطائر الذي يقولون عنه إنه لا يحط أبداً على الأرض في حياته. حـــتى إنه ينام في أثناء طيرانه، لأن الريح تحمله. إذا لم يكن عندك رغبة في اللّحاق به يا كاليستين، فأنا أنصحك بأن تذهب الآن، وأن تعود إلى الوطن طالما أن هناك متسعاً من الوقت".

غادر إيومينيس، وترك المؤرخ وهو يفكر في هذه الكلمات. وبعد قليل، بدأ كاليستين بقراءة مقاطع من كتابه ***تاريخ حملة الإسكندر*** على ضـــوء المشعل، فقطع عليه، بعد وقت قصير، تركيزه هذا صوت خادمٍ يقول: "هناك رجل يا سيدي يقول إنه وصل مع التعزيزات العسكرية،

وإنـــه أمـــضى وقتاً طويلاً في البحث عنك. ويقول إنه يريد التحدث إليك".

"أدخِله، ثم اسكب لنا بعض الشراب".

دخـــل الرجل، وعرّف عن نفسه. قال إن اسمه إيفونيموس، وهو مواطن من بيزنطية، لكنه يعيش في مكان قريب من نيابوليس في تراقيا. قال إن أحد الحكماء الكبار في ستاجيرا أوكل إليه مهمة إيصال رسالةٍ إلى كاليـــستين، ودفـــع له لقاء أتعابه، كما أكّد له أن مستلم الرسالة سيدفع له مبلغاً إضافياً من المال.

قـــال وهو يتناول كيس نقوده: "أنا كاليستين، سأعطيك قطعتين نقديـــتين لامعـــتين لقاء تلطفك بإيصال هذه الرسالة إليّ. أيمكنني أخذ الرسالة الآن؟".

ناولـــه الـــرجل الرسالة ووضع المال في جيبه، ثم شرب كوباً من الشراب، وغادر المكان.

جاء في الرسالة:

من أرسطو إلى ابن اخته كاليستين. تحياتي!

آمل أن يصل إليك خطابـــي هذا وأنت بصحة جيدة. للأسف، إنني أعاني ألماً في كتفي يسبب لي العذاب، ويمنعني من أخذ قسط مـــن الراحة، وحتى في أثناء الليل. أتساءل عن مكان تواجدك عندما تستلم هذه الرسالة، وآمل أن تكون بمزاجٍ جيد. وصلني مـــنذ بعض الوقت مجموعة من النباتات والحيوانات النادرة من الإســـكندر كـــي أضيفها إلى مجموعتي. مما يعني أنكم تتوغلون بعيداً جداً نحو بلادٍ قصيّة وغير معروفة.

أما بالنسبة إليّ، فإننيَ عندما أفرغ من عملي في الأكاديمية، سأعود إلى مقدونـــيا وتراقيا كي أكمل تحرياتي. إن ذلك الرجل الذي ادعـــى أن اسمه نيكاندر، وزعم بأنه شريك بوزانياس في اغتيال

فيليب، إنما يدعى يوبيثوس في الواقع. وكما أخبرتك في رسالة سابقة، لديه ابنة يخبئها في هيكل آرتميس في تراقيا القريبة من ساليديسيوس. عثرت على هذه الفتاة بمساعدة أحد ضباط أنتيباتر، كما احتجزها في مكان يُمكن لوالدها أن يراها فيه، وهكذا سيضطر إلى الكلام إذا أرادَ استرجاعها.

أعتقد أنه أخبرني بكل ما يعرفه، وهو أن بوزانياس قد قُتل على يد أحد حراس إيبيروت، والذي كان يعمل في حقيقة الأمر مع القتلة، وأن يوبيثوس كان مكلفاً بمهمة العثور على مخبأ لذلك الحارس والتأكد من اختفائه من دون أن يترك أثراً. يبدو أن كل الدلائل تؤكد شكوكنا حول الملكة الأم، لكن المنطق يدعونا لمتابعة تحرياتنا بأقل قدرٍ ممكن من التحيّز إلى أن يتوضح كل شيء.

إن ذلك الرجل لا يزال حياً ومختبئاً في قرية في إقليم فوكيس غير البعيد عن هالياتروس. إنني أرغب في الذهاب إلى هناك ما إن يتحسّن قليلاً هذا الطقس السيئ المخيّم هذه الأيام، وعندما يخفّ الألم الذي أعانيه في كتفي.

اعتنِ بنفسك.

لفّ كاليستين الرسالة، وأطفأ المشعل، ثم استلقى على سريره، وحاول أن يفكّر في شيء يمكن أن يساعده على النوم.

وبعد مرور أيامٍ قليلة، بدأ الزحف مجدداً وتسلّم رفاق الإسكندر وقادة كل الوحدات الكبيرة في فرقة البيزيتاروي، وفرسان الهيتايروي عشية مغادرتهم، مسامير فضية لجيادهم، وذلك جرياً على العادات الفارسية، كما تسلموا عباءات من القماش الأرجواني. لم يتجرأ أحد على رفضها، ولا حتى كلايتوس الأسود، لكنّ أحداً لم يستخدمها قطّ، باستثناء فيلوتاس. أما ستاتييرا فقد أُرسلت إلى إيكباتانا مع وصيفاتها. كان من المفترض أن تمضي فترة هناك قبل أن تذهب لزيارة

قــبر والدها في بيرسيبوليس. فأسف الإسكندر كثيراً لأنه مضطر إلى الابتعاد عنها.

ســألته عروسه بينما كانت خادماتها يجهزنها لتلك الرحلة: "هل ستفكّر فيَّ؟".

"ســأفكر فــيك على الدوام، حتى وأنا في معمعة القتال، وحتى عــندما أصل إلى بلاد بعيدة حيث تبدو كواكبنا المألوفة لدينا قريبة من الأفق. أريدك أن تفكري فيَّ أنتِ أيضاً يا عروسي الحلوة".

ســألت ستاتييرا بقدرٍ صغيرٍ من الخبث: "وهل ستأخذ باجاوس معك؟".

ردّ الإسكندر: "أجل. أجده مسلياً، وهو ينجح دائماً في انتشالي مــن اللحظــات التي أشعر فيها بالإحباط والمتاعب. إنه يرقص ويغني بشكلٍ مذهل".

قالــت ستاتييرا: "كما أنه وسيم جداً، وذو جسد متناسق تحسده علــيه أجمــل الخادمــات، كما أن بشرته ناعمة مثل تويجات الورود. أفتــرض أنــه يمكــنك أن تعتبره هديتي إليك لأنني أنا التي قدّمته إلى والدي".

احتضنها الإسكندر في عناقٍ طويل، ثم ساعدها على الصعود إلى عــربتها، وقال لها: "إذا علمتِ بأنك حامل فدعيني أعلم على الفور، وحيثما أكون. أرسلي إليَّ أسرعَ المبعوثين في المدينة. كتبتُ رسالة إلى هاربالوس، أمين خزنتي، وأمرتُه بأن يعطيك ما تحتاجين إليه".

ردت ستاتييرا: "إن ما أحتاج إليه هو أنت. لكن، لا يسع المرء أن يمــتلك كل شيء. كن حذراً، ولا تكن دائماً أول من يخاطر بحياته. لا أســتطيع أن أتحمل خسارتك". قبّلته مجدداً بينما كانت الشمس تشرق بين قمم جبال هيركانيا العالية.

سُمعت في تلك اللحظة أصوات آلاف الحوافر، وصراخ سائسي البغال، وسُمع صرير دواليب العربات بشكلٍ يصم الآذان. وحين التفت الإسكندر رأى صفاً طويلاً من العربات المشابهة لعربة ستاتييرا التي أوشكت على المغادرة. كانت هذه القافلة تناور للتحرك بعد آخر فرقةٍ من فرق الجيش، وكان فرسان مسلحون من الفرس يرافقونها.

سأل الملك الضابط الفارسي الذي كان قائد رجال المرافقة: "لكن... من هؤلاء؟".

أجابت ستاتييرا قبل أن يتمكن الضابط من فتح فمه: "إنهن محظياتك يا زوجي العزيز. يبلغ عددهن ثلاثمئة وخمس وستين محظية. أي واحدة لكل يوم من أيام السنة، ولكلّ واحدة منهن رفيقات لها بالطبع".

"محظياتي؟ لكنني ذاهب إلى الحرب، و...".

"لا يمكنك الارتحال من دونهن. إن كل واحدة منهن هي ابنة ملك حليف لنا، أو ابنة زعيم قوي من زعماء القبائل المنتشرة عبر السهول. لا يمكنك أن تخاصم آباءهن، لأن ذلك سيدفعهم إلى التحالف مع بيسوس".

أجاب الإسكندر بصوتٍ يشوبه بعض القلق: "كلا. بالتأكيد لا يمكنني أن أخاصمهم".

33

بعد وقت قصير، انطلق الجيش شرقاً، وتقدم عبر منحدرات مغطاة بنباتات مختلفة الأنواع. وانتشرت بين وحدات الجيش أنباء تفيد بأن البلاط الفارسي بأكمله يتبع هذه الحملة، فيما عدا الأميرة ستاتييرا. وتراوحت ردود الفعل ما بين التهكّم والقلق، وحتى السخرية في بعض الحالات. واضطر هيفاستيون أكثر من مرة إلى استلال سيفه دفاعاً عن شرف الملك، لكن بطليموس وسلوقس تمركزا إلى جانبه، وراحا يهدئانه كي لا تتحول التحديات والمواجهات إلى منازعات أسوأ.

وبعد أن مضى عشرون يوماً على مسيرة الحملة، وبينما كان المرشدون على وشك التوجه شمالاً نحو باكتريانا حيث التجأ بيسوس، وصلت أخبار أفادت بأن ساتيبارزان مرزبان آريا، وبارزيانتي مرزبان آراكوسيا قد تمردا، وأنهما يجهّزان جيشاً لمهاجمة الغزاة من الخلف.

دعا الإسكندر إلى عقد مجلس حرب على الفور، وظهر فيه مرتدياً درعه اليونانية، لكن الحاضرين لاحظوا أنه قد وضع إلى جانب الخاتم الذي يحمل النجمة الأرغادية، خاتماً يحمل الختم الملكي الفارسي.

بدأ الإسكندر كلامه: "أيها الأصدقاء. لا بد من أنكم سمعتم أنه يتعين على حملتنا أن تغيّر اتجاهها. يتعيّن علينا الآن أن نتجه جنوباً من أجل إخماد التمرد الذي قام به ساتيبارزان وبارزيانتي. سأقول لكم ما سنفعله: سيتبعنا كراتيروس مع جنود المشاة، بينما أنطلق أنا مع الفرسان. أما فيلوتاس، وهيفاستيون، وبطليموس، ولايسيماخوس، وليوناتوس فسيتبعونني. فيما سيبقى بيرديكاس وسلوقس مع كراتيروس.

سنهاجم المتمردين بأسرع ما يمكننا، وقبل أن يعلموا أننا غيّرنا طريقنا، وسنسحقهم. سيقدم كراتيروس الدعم اللازم إلينا ما إن يصل بقواته؛ وذلك إذا احتجنا إليه. إذا كان لدى أحدكم فكرة أفضل من هذه، فإنني أريد أن أسمعها الآن من فضلكم".

لم يتكلم أحد، ولم يضحك أحد، ولم يلقِ أحدهم نكتة ما، أو يقدّم رداً لبقاً كما كانوا يفعلون في السابق، بل خيّم جو من التوتر، وعدم الارتياح والحرج. ويعود سبب ذلك إلى أن كل واحد منهم سمع كيف عامل الملك كلايتوس في زادراكارتا عندما انتقد ملابسه. كان كل واحدٍ منهم يفكر، وإن لم يقل أي شيء، في الجهد الذي يُبذل لجعل هذه المجموعة الهائلة من المحظيات والخدم والخصيان ترافق الحملة، وهو الأمر الذي تسبّب في إبطاء سيرها من دون طائل. كما أنهم سمعوا قصصاً كثيرة عن حوادث الاحتكاكات المستمرة، وعدم التحمّل المتبادل، بين الجنود المقدونيين والفرس.

تفحّص الإسكندر وجه كل واحد منهم على حدة، وبحث فيه عن تعابير الصداقة والتفهم، لكنهم غضّوا أبصارهم، ولعلهم شعروا بالخجل من إظهار أي من عواطفهم الإيجابية التي أغدقوها عليه مدة سنوات طويلة.

تعمّد أن يقول بلهجة متواضعة: "لا تبدون لي متحمسين أبداً. أيُحتمل بأنني عاملتكم بطريقةٍ سيئة؟ هل خيّبت آمالكم بطريقةٍ ما. إذاً، هيا، تكلموا الآن!".

سارع هيفاستيون للقول: "إنهم خائفون جداً من أن يخبروك أنهم قلقون. انظر إليهم! إنهم أغنياء الآن ويأملون بالاستمتاع بحياتهم، ولهذا تراهم خائفين. إنهم ينتقدونك لأنك ترتدي ملابس فاخرة جداً، ولأنك تمتلك هذا العدد الكبير من أتباعك من جنود الفرس، وكل هؤلاء

الفتيات، لكنهم يودّون لو أنهم يفعلون الأمر ذاته. إنهم يريدون أن يسكنوا برخاء في قصرٍ فخم يقع بين هذا المكان والساحل الفينيقي. أعتقد أنهم نسوا الوعود التي قطعوها بأن يتبعوك إلى أي مكان، وحتى إلى أطراف الأرض. أليس كذلك أيها الرجال؟ أليس هذا هو الواقع؟ هيّا، قولوا شيئاً... أم أن القطة الأسطورية قد أكلت ألسنتكم؟".

قال كراتيروس: "هذا يكفي يا هيفاستيون. إنني مستعد للتضحية بحياتي من أجل الملك، هنا، والآن، كما أن كل رفاقي مستعدون لفعل الأمر ذاته. لا يتعلق الأمر بالملابس أو المحظيات فقط، وذلك لأن الجنود يريدون أن يعرفوا متى ستنتهي هذه الحرب. إنهم يريدون أن يعرفوا كذلك أين ستنتهي، وكم من الوقت سيمرّ قبل الوصول إلى تلك المرحلة. لا يمكن للرجال أن يستمروا في اكتشاف أنه مع مرور الأيام، وحتى في هذه اللحظة بالذات، ستكون هناك مرحلة أخرى، وستأتي بعدها مرحلة غيرها. توجهوا شمالاً... لا، توجهوا جنوباً... أو ربما سنضطر إلى التوجه غرباً هذه المرة؟ إنهم ينتظرون أن يروا شيئاً مألوفاً فيك يا إسكندر، وأن يعرفوا بأنك لا تزال ملكهم. إنهم مستعدون لاتّباعك. ولكن، لم يعد في وسعهم العيش بعد الآن في ظل ظروفٍ غامضة كهذه، وأن يعيشوا يوماً بيوم من دون أمل، ومن دون وجود أي نوعٍ من الأمن".

أومأ الإسكندر، لكنه لم يقُل شيئاً، وكأنه يواجه موقفاً لم يتصوّر إمكانية حدوثه قبل شهرٍ واحد فقط. تكلم هيفاستيون مجدداً حول هذه النقطة: "لكن، هل أخبرتم كل جنودكم؟ وأنت يا فيلوتاس، يا من أصبح القائد الأعلى للفرسان، ماذا أخبرتَ رجالك من الهيتايروي؟ أما زلتَ تقول لهم إن الإسكندر لم يكن ليقدر على أي شيء لولا مساعدتك ومساعدة أبيك؟ وإنه أصبح ضعيفاً؟ وإن همّه الوحيد في كل

ليلة ينحصر في مشاهدة محظياته يسرن عاريات أمامه كي ينتقي واحدة منهن لتمضي الليل معه؟ هل قلتَ لهم إنه كفّ عن القراءة، وإنه لم يعد يشعر بالقلق على جنوده ومصائرهم؟".

صاح فيلوتاس بعد أن اجتاحته نوبة غضب: "إنها أكاذيب، كلها أكاذيب! لم أقل أي شيء من هذا النوع!".

ردّ هيفاستيون: "وعلى كل حال، هذه هي الإشاعات التي يسمعها المرء، وسبق لنا أن سمعناها في كيليكيا بعد معركة إيسوس، وفي مصر بعد عودتنا من واحة آمون".

"إنها أحاديث غير صحيحة! إنها أكاذيب! أحضِر إليّ الشخص الذي قال هذه الكلمات، فقط جِد شخصاً واحداً يمكنه أن يدعم علناً الاتهامات التي أُلصقت بي، هذا إذا كنتَ تتمتّع بالشجاعة. وصلتني أخبار بالأمس أفادت أن شقيقي نيكانور قد جُرح في زادراكارتا. أُصيب بسهمٍ خلال قيامه بدورية في جبال هيركانيا، ولم يستطع أي طبيب شفاءه بعد. إنني أسألك الآن: هل كلّف شخص ما نفسه بالسؤال عنه؟ هل خطر على بال أحد أن والدي، وبعد أن خسر ابنه الأصغر يخاطر بخسارة ابن آخر؟ هل سمعني أحدكم أطلب إجازة كي أبقى معه وأساعده؟".

ردّ هيفاستيون بسخرية: "أنت القائد الأعلى للفرسان، وهذا المنصب خطر حيث يجعلك تنسى كل شيء عن المسكين نيكانور".

وقف فيلوتاس، وتحرّك بشكلٍ يوحي بأنه على وشك الهجوم على صديق الإسكندر، لكن بطليموس منعه، ثم التفت صوب هيفاستيون، وحدّق إلى عينيه، وصاح به: "توقف عن هذا! ليس من اللائق التحدث عن فيلوتاس بهذه الطريقة. وصلتني أخبار من مبعوثٍ قبل وقت قليل، وقبل أن ينعقد هذا المجلس، تفيد بأن نيكانور يحتضر. ويُحتمل كثيراً بأنه...".

خيّم صمتٌ ثقيل فوق خيمة المجلس، ومرّت فترة بدت بلا نهاية حيث لم يُسمع خلالها غير صفير الريح التي كانت تهب فوق المرتفعات. وكان الصوت حزيناً يوحي بعزلة مطلقة، لكنه امتزج مع الأصوات الصادرة عن الراية الملكية التي ترفرف عالياً. غطى فيلوتاس وجهه بيديه، أما هيفاستيون فقد نظر إلى الأرض، ولم يعد يعرف ما يقوله في هذا الموقف. أما سلوقس وبطليموس فقد تبادلا نظرات تنم عن القلق، ونظر كل واحد منهما عبثاً إلى عيني الآخر بحثاً عن أي فكرة قد تساعد على إزالة هذا التوتر الذي لا يُحتمل. فيما رفع بيريتاس الذي تكوّر على نفسه أمام قدمي الإسكندر أنفه نحو الإسكندر، وأصدر أنيناً خافتاً. بدا الأمر وكأنه شعر بالثقل الذي يخيّم على روح الإسكندر.

داعبه الإسكندر، ثم وقف وقال: "أنا آسفٌ فعلاً بالنسبة إلى نيكانور. ولكن، يتعيّن عليّ أن أعرف ما إذا كان في وسعي الاعتماد عليكم جميعاً".

نظر كراتيروس إلى رفاقه، ثم وقف بدوره، وسار نحو الإسكندر: "كيف أمكنك أن تشكّ فينا؟ ألم نقف إلى جانبك على الدوام؟ ألم نحارب إلى جانبك حتى النهاية، ألم نتعرض لكل أنواع الجروح في معاركنا؟ إن كل ما نريد معرفته هو ما تريده منا. ولكن قبل أي شيء آخر، نريد أن نعرف ما الذي تريده من الرجال الذين تبعوك إلى هذا الحد".

ردّ الإسكندر: "أريدكم أن تفهموني، لأنني لم أتغيّر. إن ما أفعله شيء ينبغي لي القيام به".

سأل ليوناتوس عند هذه النقطة: "أيمكنني أن أتكلم؟".

"بالطبع".

"يخشى الرجال من أنك ترغب في أن تصبح ملكاً عظيماً بشكلٍ من الأشكال، وأن ترغمهم على التصرّف مثل الفرس، وأن تُجبر الفرس على التصرف مثلهم".

"أتعتقد أنني كنتُ سأقدم على إحراق القصر في بيرسيبوليس وغرفة العرش فيه، لو كنت أرغب في أن أكون مثل الملك العظيم؟ سننطلق غداً كي نستأنف زحفنا، لأن إيمولبوس من سولوي أبلغني أن ساتيبارزان موجود الآن في أرتاكوانا. سنغادر عند الفجر. يستطيع أي شخص لا يرغب في المتابعة أن يغادرنا الآن برفقة رجاله".

بدأ ليوناتوس بالقول: "لكن، أيها الإسكندر، إننا..."، لكن الملك وقف ببساطة وغادر المكان.

رفع فيلوتاس رأسه، ونظر إلى رفاقه حوله، وقال: "لا يحق له أن يعاملنا بهذه الطريقة. لا يحق له".

في هذا الوقت، وصل الإسكندر إلى خيمته ودخلها. وكان إيمولبوس من سولوي بانتظاره.

سأله وهو يجلس على كرسي: "هل من أخبارٍ جديدة عن ساتيبارزان؟".

"إنه يعد العدة للمعركة، لكن جنوده في حالة معنوية سيئة. لا أعتقد أنهم سيحاربون حتى النهاية المرة. كيف كان اجتماع مجلس الحرب؟".

هزّ الإسكندر كتفيه.

"لا تدعهم يؤثّرون فيك. يتعيّن عليهم، ببساطة، أن يعتادوا على هذا الوضع الجديد. إنهم متعلقون كثيراً بعاداتهم، لكنني أعتقد أنهم يشعرون بالغيرة. إنهم يخشون من ابتعادك عنهم، حيث لن يعودوا قريبين منك كما كانوا من قبل".

"يبدو أنك تعرفهم جيداً".

"أعرفهم بما يكفي".

"ماذا تعني بذلك؟".

"أعني أنه بعد معركة إيسوس، أي عندما استأنفتُ العمل معكم، ركّزت اهتمامي على أصدقائك كذلك. مَن تعتقد أنه أقدم على وضع الفتيات في أسرّهم؟".

"أنت؟ لكنني لم...".

"آه! هـــراء! إنها مهمة تستحق القيام بها... كما أن الكلام الذي يُقـــال فوق الوسادات من اختصاصي أنا. أتعرف أن الرجال يميلون إلى الثرثرة أكثر بعد تمضيتهم ليلة ممتعة؟ إنها نقطة مهمة. ألا تعتقد ذلك؟".

"توقف عن الكلام".

"أخبرتني الفتيات بكل شيء".

"لا يُقدم أصدقائي على خيانتي أبداً".

"يُحتمل ذلك، لكن بعضهم يُسهل الإيقاع بهم أكثر من الآخرين. خـــذ فيلوتاس مثلاً. إنه قائد فرسانك الأعلى، وهو رجلٌ يلعب دوراً مهماً".

ازداد انتـــباه الإســـكندر عـــند هـــذا الكلام: "ماذا سمعتَ عن فيلوتاس؟".

"في الواقع، لم أسمع الكثير لكنه أبلغ الجميع بأنك مجرد فتى صغير، وأنك ما كنتَ تقدر على كسب أي معركة لولاه، ولولا والده، لا في غـــرانيكوس، ولا في إيسوس. وقال كذلك إنك تعاملهما بشكلٍ غير عادل".

"لماذا لم تُخبرني عن ذلك فوراً؟".

"ما كنتَ لتصغي إليّ".

"ولماذا سأصغي إليك الآن؟".

"لأنــك في خطــر. أنت على وشك أن تعبر بلاداً غير معروفة بالكامــل، وســتواجه شــعوباً متوحــشة. سيتعيّن عليك أن تعرف الأشخاص الذين يمكنك الاعتماد عليهم، والأشخاص الذين لا يسعك الاعتماد عليهم. كن حذراً كذلك من ابن عمك إمينتاس".

"أبقيــتُه تحــت المراقبة المشددة منذ الحادثة الأولى عندما ألقيت القــبض عليه في الأناضول. تصرّف بشجاعة على الدوام، ولطالما كان مخلصاً لي".

"حقاً، إنه أميرٌ شجاع ومخلص. أتعرف إلى من سيلجأ رجالك إذا تخلوا عنك؟".

حــدّق إلــيه الإســكندر بصمت. حدّق إلى الرجل الذي عبّر بالكلمــات عمّا قرأه في عينيه: "سيلجأون إلى الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من سلالة الأرغاديين. لتمنحك الأسياد نوماً هانئاً".

وقف الرجل، وانحنى بلطف، ثم توجّه نحو خيمته بعد أن تأكد من أن بيريتاس لا يتبعه.

34

انفتحت آسيا بكاملها أمام جيش الإسكندر، لكن تضاريسها أصبحت أكثر وعورة وأكثر انعزالاً. وصل الجيش إلى أراضٍ صخرية، وهي البيئة المثالية للعقارب والأفاعي، وهي الأراضي التي جعلتها الشمس قاحلة بأشعتها غير المنقطعة. انتشرت هنا وهناك أجمات عدة نبتت فوق مجاري أنهارٍ أصبحت جافة، وفوق المستنقعات، وكانت كلها محاطة بترسباتٍ من الملح. زحف الجنود بصمتٍ لأيامٍ وأيام من دون الحصول على استراحة، ومن دون أن تهب عليهم نسمة واحدة تلطّف قليلاً من حدة الحر الخانق.

بدت السماء ذاتها خالية، عدا الأنوار التي شابهت درعاً برونزيّة مصقولة من شدة التماعها. كانت الطيور الوحيدة التي رأوها طيوراً مفترسة تحلّق بشكلٍ دائري بأجنحتها التي تخفق ببطء، باحثةً عن الحيوانات التي ضلّت طريقها، أو تلك التي استسلمت في معركتها ضد الموت، وتُركت للمخلوقات التي تتغذى على الجيَف، والتي تزحف بين الصخور الخالية من كل شيء يدل على الحياة.

لم يواجه الجنود صعوبات جمّة، حتى في رحلتهم نحو واحة آمون، وذلك لأن كثبان الصحراء تتميّز بجمال قممها الحادة، وتباينات الظلال والضوء فيها، وصفاء أشكالها الرشيقة والمتغيرة، وهي الأشكال التي نحتتها الرياح، فبدت الصحراء وكأنها محيط فضي تُرك ساكناً بإشارة من يد أحد ما، والكثبان تمتلك إمكانية ظهور تجلياتٍ جديدة وشيكة الحدوث.

في المقابـــل، لم تكن هذه الأراضي توحي بأفكارٍ كثيرة، إلاّ في ما يتعلّق بالموت، والوحدة القاتلة، والعزلة المستمرة. ولذلك تولّد في قلب كـــل رجلٍ من الرجال نوع من أنواع الحنين العميق، ورغبة عارمة في العـــودة إلى الوطن. لم يكن لديهم أي هدف، ولا أي معنى يبرّر هذا الـــتعب المتواصـــل، وكانوا يخطون كل خطوة بترددٍ متزايد، والخوف يغمـــرهم مـــن هذه الأراضي الممتدة، والخالية من التضاريس المتنوعة، والـــتي لا نهاية لها. وبدا لهم أنهم متأكدون من شيء واحد وهو معرفة مرشديهم المحليين بوجود مقصدٍ ما وراء الأفق البعيد، وكأنه السراب. بـــدت الأيام المجيدة التي مرّت عليهم في مهمتهم بعيدة جداً، وبدا أن عـــدداً كـــبيراً من الرجال قد ندموا على استجابتهم لنداء الملك. إذ لم يـــتمكّن أحد منهم من فهم الهدف الذي يسعى إليه داخل هذه البلاد البعـــيدة والمقفرة، والتي لا تنتشر فيها غير قرى قليلة متناثرة هنا وهناك بمنازلها المشيّدة من أحجارٍ طينية مغطاة بروث الجمال أو الخراف.

وشيئاً فشيئاً، بدأت طبيعة الأرض تتغيّر بشكلٍ تدريجي، كما أن الهواء ذاته أصبح منعشاً وأكثر برودة. وظهرت المرتفعات كذلك، كما تـــساقطت بعض الأمطار بين الحين والآخر، وتغطت الأرض بطبقة من النـــباتات. كما ظهرت أشجارٌ منعزلة هنا وهناك، بالإضافة إلى قطعان صغيرة من الجمال ذات الوبر الطويل، أو الجياد ذات الشعر المتشابك. وصـــلوا إلى وادي أحـــد الأنهار، وما لبثوا أن وصلوا إلى ضفاف بحيرة كـــبيرة تمكـــنوا مـــن رؤية انعكاسات أسوار أرتاكوانا، وهي عاصمة الآريـــين، والقلعة التي يتحصّن فيها ساتيبارزان، وأبراجها على صفحة مياهها.

ومـــا إن بـــدأ الجيش بالانتشار حتى فُتحت بوابات القلعة على مـــصاريعها، وشـــرعت سرية من الفرسان بالهجوم بسرعة بالغة، وهم

يــصيحون بأصــوات عالية، كما أثار الجنود سحابةً كبيرة من الغبار الأحمــر ســرعان ما انتشرت فوق السهل. وأمر فيلوتاس وكراتيروس بــإطلاق أبــواق الإنــذار. فنخس فرسان الهيتايروي جيادهم المتعبة والعطشى ودفعوها إلى المواجهة.

بــدا أن الجيش تعرّض لضربةٍ أليمة بعد الصدام الأول، فيما كان الأعــداء مــرتاحين في قلعتهم. لكن جنود الإسكندر حاربوا بشجاعة وهم يتحركون بتراجعٍ محسوب، كما سعوا إلى الحصول على دعمٍ من رفاقهم الذين هرعوا إلى الأمام في موجاتٍ متعاقبة للانضمام إليهم بعد سماعهم أصوات الأبواق.

بعد ذلك، أرسل الإسكندر الجنود الفرس للهجوم، وذلك بعد أن أبقاهم حتى تلك اللحظة في عداد الاحتياط، وأوكل إليهم مهمة حماية العــربات ومرافقــي الخدم والمحظيات. انطلقت الجياد البارثية بسرعة، وهــي المهيأة أكثر لتحمّل الحرارة والتعب، وفعلت ذلك باندفاعٍ يماثل اندفاع الجياد الأخرى. أسرع المحاربون الميديون والهيراكانيون، بالإضافة إلى من بقي من فرقة الخالدين إلى ترك انطباع جيّد أمام الملك. فاندفعوا إلى صــفوف الأعداء، وتمكنوا من فتح ثغراتٍ فيها، ومن نشر الفوضى لــدى انطلاقهم. كانوا يرتدون ثياباً مماثلة لتلك التي يرتديها أعداؤهم الذين لم يميّزوهم، وأعطاهم هذا الأمر أفضلية كبيرة فضربوا بقوةٍ كبيرة خلال الهجوم الأول.

خفّت حدة المعركة بشكل تدريجيّ، كما تجزأت جبهة المواجهة إلى بــؤر قتالٍ شرسةٍ ومتناثرة. فامتطى فرسان فرقة الطليعة صهوات جيادهم، وهم الذين بقوا ساكنين حتى هذه اللحظة، واندفعوا بقيادة الملك شخصياً نحــو أحد جناحَي العدو. تلقى رجال ساتيبارزان ضرباتٍ قاسية، وأُجبروا على التراجع إلى الوراء، وتلقوا بذلك صدمةً كانت كافيةً لإلقاء الرعب في

قلـــوبهم. عند هذه المرحلة، أطلق كراتيروس رجاله من مشاة الأغريانيين، وهـــم الذين تسلحوا بسكاكينهم وخطافاتهم الطويلة والحادة. تحرك هؤلاء مـــثل الأشـــباح، تحمـــيهم سحابة من الغبار الكثيف، وراحوا يستفردون بضحاياهم ويضربونهم بدقة حيث لم تذهب أيّ ضربة سدى.

لاحـــظ ساتيبارزان أن هجومه قد فشل فشلاً ذريعاً، فأمر بالنفخ في الأبـــواق إشـــارة انسحابهم. وهكذا تراجع جنوده وهم يتكبدون خسائر إضـــافية، ثم تسلّلوا من خلال الأسوار إلى داخل المدينة. بعد حين، هبّت ريـــاح قـــوية وحملـــت الغبار معها بعيداً، فانكشفت مئات الأجساد التي تناثـــرت في أرجاء ميدان المعركة، وكان عدد كبير من الرجال قد أصيبوا إصابات قاتلة، لكن بعضهم كانوا جرحى فراحوا يطلبون المساعدة.

تحرّك الأغريانيون من رجلٍ إلى آخر، وراحوا يقطعون رقاب كل جنود الأعداء ويجردونهم من أسلحتهم وحليّهم. حدث كل ذلك تحت أعـــين النساء اللواتي كن ينظرن من فوق الأسوار، ورحن يشدُدنَ شعر رؤوسهن، وهنّ يطلقن نواحاً يقطع نياط القلوب.

أصـــدر إيومينيس أوامره بإقامة مخيّم، وبوضع دفاعات حجرية، وحفـــر خنادق حول محيطه بالكامل. وتمكّن لدى إشرافه على أعمال إقامـــة المعسكر من سماع الجنود في أثناء تذمرهم من القرار الذي اتخذه الملك باستخدام الفرس لمهاجمة جيش ساتيبارزان.

تـــساءل الجـــنود: "لماذا اضطر إلى استخدام هؤلاء البرابرة. كان بإمكاننا تدبّر الأمر من دونهم. فلقد وصل الأمر إلى حدّ عدم استخدام جنودنا من المشاة".

قـــال أحـــدهم موافقاً: "هذا صحيح. أراد الملك إذلالنا بشكلٍ واضح، وهذا ليس بالأمر الصائب بعد كل التعب الذي قاسيناه، وكل الأخطار التي واجهناها".

علّق جندي آخر بالقول: "لكن، ماذا يمكننا أن نفعل؟ إنه الآن واحدٌ من الفرس، ويحيط به حراسٌ منهم، كما أنه يأخذ حمّامه مع ذلك الخصي الذي يدلّكه، ومن يعلم الأمور الأخرى التي يقوم بها. وبعد ذلك، يقوم باستعراض كل أولئك المحظيات، بينما نقوم نحن بالحراسة...".

أصغى إيومينيس بصمت، لأن ما سمعه كان جارحاً.

وكذلك سمع إيمولبوس من سولوي الحديث، بالرغم من وقوفه جانباً، وتمضيته معظم وقته جالساً داخل خيمته. ويعود السبب في ذلك إلى امتلاكه عيوناً وآذاناً عديدة، لذلك لم يفُته أي شيء، عدا القليل جداً. لكن إيمولبوس، وبالرغم من كل المعلومات التي حصل عليها لم يكن يعرف أن الأحداث كانت على وشك أن تفاجئه، وللمرة الأولى في حياته.

وحين انتهى تحضير المعسكر، وكان كل الجنود يستعدون للحصول على قسطٍ من الراحة بعد أن انحدرت الشمس وراء أسوار أرتاكوانا بألوانها البنية المائلة إلى اللون الأصفر، ارتفع نفير بوق طويل وحزين في الجو. اقترب أوكسهاتري، الذي كان دليل الملك في طريقه إلى إيكباتانا وزادراكارتا من الإسكندر وقال بلهجته اليونانية الآخذة بالتحسّن بسرعة: "إنه منادٍ. إنه واحد من المنادين التابعين لساتيبارزان".

"اذهب إليهم يا أوكسهاتري، فربما يريدون التفاوض على... الاستسلام".

امتطى أوكسهاتري صهوة جواده، وأسرع نحو أسوار المدينة، بينما تقدم نحوه أحد المبعوثين. التقى الرجلان، وتبادلا كلماتٍ قليلة قبل أن يعود كلاهما، كلٌّ إلى معسكره.

في هذا الوقت، تجمع كل رفاق الملك حوله كي يعطوه تقريراً عن خسائرهم في المعركة، وكي يقدموا اقتراحاهم بشأن تحركهم في اليوم التالي. فظهر أوكسهاتري في هذا الوقت بالذات وقدّم تقريره: "يتحدى ساتيبارزان أقوى رجلٍ بينكم للدخول في مبارزة معه. تغادرون إذا ربح، وتأخذون المدينة إذا خسر".

اندفعت دماء الحماسة في رأس الإسكندر، لأن ذهنه كان مليئاً بمشاهد المبارزات التي جرت بين أبطال ملاحم هوميروس، وهي المبارزات التي سيطرت على مخيّلته في فترة طفولته. فقال من دون تردد: "أنا سأواجهه في المبارزة".

ردّ بطليموس على الفور: "كلا، لن يُقدم ملك مقدونيا على مبارزة مرزبان. يمكنك أن تختار شخصاً من بيننا كي يمثّلك".

عند هذا الحد، تدخّل أوكسهاتري قائلاً: "إن ساتيبارزان ضخم وقويّ". رفع الرجل ذراعيه كي يوضح مدى ضخامة جثة خصمهم.

قال ليوناتوس: "سأذهب أنا. أنا ضخمٌ وقوي بما فيه الكفاية".

نظر الإسكندر إليه صعوداً ونزولاً وأومأ، وكأنه يطمئن نفسه ورفاقه. وربّت بعد ذلك على كتف صديقه قائلاً: "أنا موافق. قطّعه إرباً إرباً يا ليوناتوس".

*

عند فجر اليوم التالي، واجه البطلان بعضهما فوق فسحة واسعة من الأرض، واصطفّ الجيشان بكل جنودهما تقريباً في تشكيلٍ شبه دائري كي يشاهدوا المبارزة. انتشرت أخبار هذه المبارزة بسرعة بين الجنود المقدونيين، وسرت بينهم حماسة كبيرة. كان الجميع يعرفون مدى قوة ليوناتوس وقدرته الجسدية المدهشة، وذلك لأنهم اختبروا قوته هذه في المعارك العديدة والحاسمة التي خاضوها. لذا، ما إن ظهر أمامهم

حـــتى راحوا يهتفون له هتافات التشجيع. كان مسلحاً من رأسه وحتى أخمـــص قدمـــيه، وحمل درعه الكبيرة ذات النجمة الفضية فوق ذراعه اليسرى، بينما شهر سيفه الفولاذي اللامع بيده اليمنى، واعتمر خوذته ذات العرف الأحمر.

فرّق الفرس صفوفهم كي يسمحوا لخصم ليوناتوس بالمرور، فدُهش عـــددٌ كـــبير من المقدونيين لكنهم بقوا صامتين. كان ساتيبارزان عملاقاً بالفعـــل، وتقدّم بخطوات ثقيلةٍ وبطيئة. حمل بيمناه سيفاً طويلاً ومقوّساً، كـــان نصله حاداً إلى أقصى درجة. كما حمل درعاً مصنوعة من الخشب ومغطـــاة بصفائح حديدية لامعة، وكانت خوذته على الطراز الأشوري. أُلحِـــق بهـــذه الخوذة غطاءٌ جلديٌّ مرصّعٌ يصل إلى كتفيه، ومزوّدٌ بسلسلة تلـــتفّ حـــول عنقه. التقى طرفا شاربه الكثيف مع حاجبيه السوداوين، واجتمعت كل هذه الأمور معاً لتمنحه مظهراً شرساً ومرعباً.

لم يتأخر الرجلان عن الوقوف في مواجهة بعضهما، وعن تحديق أحدهما إلى عيني الآخر من دون أن يقولا كلمة واحدة. وقفا منتظرَين إشـــارةً من الرجلَين المكلّفين بإعطاء إشارة البدء. كان أحدهما مقدونياً والآخـــر فارسياً. بدأ المترجم بالترجمة: "يقترح النبيل ساتيبارزان قتالاً حـــتى الموت من دون وجود قواعد ثابتة. ستربح القوة والشجاعة هذا اليوم".

أحكـــم لـــيوناتوس قبضته على مقبض سيفه، واستعدّ للضربات الأولى، وقال: "قل له إنني موافق".

أعطى المشرفان إشارة بدء المبارزة، وهي المبارزة التي لا يُمكن أن تنتهي الآن إلا بموت أحد المحاربَين.

اقترب ليوناتوس قليلاً، وبحث عن ثغرةٍ في دفاعات خصمه، بينما تمكّن الفارسي من تغطية نفسه بشكلٍ شبه كامل بواسطة درعه، وشهر

سيفه بشكلٍ منخفض فبدا وكأنه غير قلقٍ على الإطلاق. ولكن، عندما بدأ ليوناتوس هجومه أطلق ساتيبارزان ضربته الخاطفة التي أصابت خوذة ليوناتوس بكامل زخمها، فاهتزّ مترنحاً باضطراب.

صاح الإسكندر الذي تأثر كثيراً: "عد! ليوناتوس، عد إلى مكانك! قم بحماية نفسك... انتبه!". دفعته فطرته للاندفاع لنجدة صديقه، لكنه كان قد أعطى كلمته كملك بأن أحداً لن يتدخل على الإطلاق في هذه المواجهة.

ضرب ساتيبارزان ليوناتوس مرةً تلو أخرى، بينما حاول ليوناتوس دفع تلك الضربات بدرعه التي حملها أمامه في أثناء تحرّكه إلى الخلف بساقين مرتجفتين. راح الجيش بأكمله يراقب سيل الضربات الرهيبة التي كانت تنزل على بطلهم. أما من الجانب الفارسي، فقد تصاعدت صرخات التشجيع للعملاق الذي كان يتقدم بعناد باحثاً عن فرصةٍ تتيح له إنزال الضربة القاضية. لم يتمكّن ليوناتوس من الرد، فجثا على ركبتيه، عندها تلقى ضربة أخرى من خصمه أصابت النجمة الفضية الموجودة على درعه، وكان ذلك نذير شؤم مخيفاً للجنود المقدونيين. اخترقت هذه الضربة اللحم في كتفه فسال منها الدم بغزارة.

في تلك اللحظة، أطلق جنود البيزيتاروي صرخة مرتعبة بسبب الإحباط، وانهمرت الدموع من أعينهم وهم ينتظرون الضربة القاضية التي سيُنزلها ذلك الفارسي. لكن الألم الذي كان حاداً مثل ضربة السوط أعطى ليوناتوس فرصةً أخرى. فلقد بدأ البطل المقدوني بالوقوف على قدميه مستفيداً من طاقة مذهلة، فأزاح خوذته عن رأسه بحركة رشيقة ورماها بعيداً. فلمحَ جرحه، ورأى الدم المتدفق منه، وأدرك على الفور أنه ليس أمامه وقتٌ طويلٌ قبل أن تتخلى عنه قوّته

تمامـــاً. لذا، اندفع إلى الأمام مطلقاً صرخة رهيبة، وضرب بدرعه درع خصمه.

فوجـــئ ساتيبارزان، وصُدم من هذا الهجوم الجديد الذي أفقده تـــوازنه. فاستغل ليوناتوس هذه الفرصة المؤقتة إلى أقصى حدّ، وهاجم مـــرة، ومرتين، وثلاث مرات بسيفه، بينما حاول الفارسي أن يتفادى هذه الضربات بسلاحه. تراجع ساتيبارزان، فاندفع ليوناتوس بقوة أكبر مـــن ذي قبل. ولكن، فجأة، انكسر نصل سيفه إلى قسمين لأنّ درع المرزبان كانت مصنوعة من معدن ذي نوعية أفضل من ذاك الذي صنع منه سيفه.

ردّ الفارســـي بـــسرعة على هذا الهجوم بعد أن استعاد توازنه، فتحرك قُدُماً نحو خصمه الذي أصبح مجرداً من السلاح في هذا الوقت، ورفع سيفه عالياً، فلمع تحت أشعة الشمس، بشكلٍ مخيف. ولكن، قبل أن يهـــوي به أطلق لايسيماخوس صيحته قائلاً: "امسِك يا ليوناتوس". ورمى له فأسه ذات النصل المزدوج. أمسكها ليوناتوس بسرعة خاطفة قـــبل أن يتمكّن ساتيبارزان من الضرب بسيفه، وقطع ذراع الفارسي تمامـــاً. وقف خصمه وهو يتلوى ألماً. لكن ليوناتوس هوى بفأسه مجدداً فقطـــع عنق الفارسي، فتدحرج رأسه على الأرض، بينما كانت عيناه السوداوان لا تزالان مفتوحتين من فرط الدهشة.

سرت موجة عظيمة من الاغتباط في صفوف المقدونيين، وأسرع المـــسعفون لتقديم المساعدة إلى بطلهم الذي بدا الشحوب عليه نتيجة الصراع الذي خاضه، ثم حملوه إلى خيمة الطبيب فيليب علّه يتمكن من إنقاذ حياته.

تجمّـــع الفرس حول جثة قائدهم المقطّعة، وشكّلوا حاجزاً بهدف إخفـــاء ذلك المنظر الرهيب عن أعين جنود أعدائهم. لم يتحرك الفرس

نحو المدينة إلا بعد أن جمعوا جسد ساتيبارزان، ووضعوه على نقالة، ثم ســـاروا وهم يحملونه ببطء في موكبٍ جنائزي مخلفين وراءهم خطوطاً من الدماء.

استسلمت أرتاكوانا قبل مغيب شمس ذلك اليوم.

35

أعــاد الإسكندر تسمية المدينة فأطلق عليها اسم إسكندرية آريا. ولم تتأخـر الأخـبار القادمـة مـن مصر بأن أولى المدن التي أسماها الإسـكندرية، وهـي المديـنة التي صمّمها له دينوقراط وبناها على الـشاطئ، قد بدأت تزدهر. نمت التجارة في هذه المدينة بسرعة، كما ازداد سكّانها يوماً بعد يوم، لأن السكان الجدد جاءوا من كل الأماكن كي يشتروا منازل، وأراضي، وحدائق، وهكذا عرفت المدينة نمواً كبيراً وصاخباً.

تـرك الإسـكندر حاكماً مقدونياً في إسكندرية آريا، وترك معه حامـية صـغيرة من المرتزقة، والتي أوكل إليها أمور ضبط المداخيل، والممـتلكات، والعبـيد، والنـساء. كانت الفكرة من وراء ذلك أن يـشجعهم على تأسيس أسر، وهكذا سيشعرون بأنهم مرتبطون بطريقة معيـنة بـذلك المكان البعيد والمنسي، وربما عندها ستخفّ قليلاً حدة حنينهم إلى أوطانهم.

انتظر الإسكندر حتى شفي ليوناتوس تماماً من الجروح التي أصيبَ بهـا خلال المبارزة مع ساتيبارزان، ثم أعطى أوامره للجيش كي ينطلق شمـالاً بمحـاذاة الوادي الأخضر لنهرٍ له روافد عدة تقطعه باستمرار مـشكّلةً بذلك آلاف الجزر الصغيرة الخضراء، والتي كانت تلمع مثل حبيبات الزمرد في شبكةٍ فضية. كان يتوجب على الجيش الزحف نحو سلـسلة مـن الجبال شديدة العلو، حيث إنها تجعل أي قمة أخرى في العـالم تبدو مثل تلةٍ صغيرة أمامها. وكان هذا الحاجز الطبيعي يدعى

باروباميسوس وهو يفصل باكتريانا عن سهول سكاثيا التي لا نهاية لها، فتبدو وكأنها محيط كبير.

أمر ليوناتوس الذي أحاطت الأربطة بكتفه خدمه بإعداد أمتعته، بينما راح كاليستين الذي كان مزاجه معكراً ينظر إليه. سأله البطل المقدوني: "أيمكن أن تكون هذه الجبال حقاً أعلى من جبل الأولمب؟".

ردّ كاليستين: "إننا نقترب من أماكن لم يرَها أحدٌ منا من قبل؟ وسنرى شعوباً لا يعرفها أحد منا. يُحتمل كثيراً أن تكون تلك الجبال موجودة في أبعد أطراف الأرض. ولهذا السبب هي أعلى من أي جبالٍ أخرى نعرفها. إننا الآن في بلاد يُحتمل وقوع كل شيء وأيّ شيء فيها، ويُحتمل أن يكون كل شيء فيها غريباً في الوقت نفسه".

"ماذا تعني؟".

أخفض المؤرخ رأسه من دون أن يجيب، بينما لم يقل ليوناتوس شيئاً. فسدَ جو البهجة العارمة للنصر العظيم الذي أحرزه نتيجة عدم الارتياح الذي شعر بأنه ينتشر بين صفوف الجيش، والذي امتزج مع الشكوك التي أحسّ بوجودها حتى بين القادة والضباط. أما الجنود الوحيدون الذين بدوا متحمسين فعلاً للإنجازات التي حققها الجيش فكانوا الشبان الصغار الذين جاءوا من مقدونيا ليخدموا في الجيش بصفتهم مرافقي الملك. فلقد جال هؤلاء بأعينهم بين المناظر المهيبة والرائعة ذات الألوان الساطعة التي كانوا يرونها في وقت المغيب، والزرقة الشديدة لسماء تلك البلاد المعلقة بين الثلوج الناصعة التي تكلّل قمم جبالها وعظمة النجوم التي لا تعد ولا تُحصى في الليالي الصافية، وهم يشعرون بالدهشة.

أدهشتهم الطبيعة ذاتها بتغيّراتها المستمرة، وبنباتاتها التي لم يروها من قبل، والحيوانات التي لم يسمعوا عنها إلا في القصص. لاحظ

أحدهم عند أسفل النهر جلد النمر المخطط الذي كان يعبر عند الفجر كي يصطاد الأيائل والغزلان، وشاهد آخر الجواميس الضخمة ذات القرون المعقوفة التي ترعى على الضفة الأخرى.

فرضت واجبات المرافقين الشبان عليهم أن يكونوا في الجناح الملكي قرب الإسكندر، وكذلك قرب مساكن رفاق الملك الآخرين، وكبار قادة الجيش. ومكّن هذا الوضع أحد هؤلاء الشبان، وكان فتى أشقر الشعر ذا بنية نحيلة ورشيقة ويبلغ الخامسة عشرة من عمره، ويُدعى سيبالينوس، من سماع سرٍّ رهيب كان عبارةً عن خطةٍ لقتل الملك!

أخبر الفتى صديقاً له أكبر منه سناً، ويُدعى أغيريوس بما سمعه. فلقد كانا يقيمان في الخيمة نفسها مما يتيح لأغيريوس فرصة حماية سيبالينوس من مضايقات الآخرين. ذات ليلة، أيقظ سيبالينوس صديقه بينما كان الآخرون يغطون في نومٍ عميق. فرك الشاب الأكبر سناً عينيه، وجلس على طرف السرير وأصغى بذهول.

جاءت نصيحة أغيريوس له على الشكل التالي: "لا تقل شيئاً لأي شخصٍ إذا لم تكن متأكداً من الأمور التي قلتَها لي".

ردّ سيبالينوس: "إنني متأكدٌ مما قلته لك، وليس لديّ شكّ فيه. سمعت ضابطين من الفالانج يناقشان كيفية تنفيذ الخطة، ومكانها، وزمانها".

هزّ أغيريوس رأسه: "مضى على وجودنا هنا بضعة أيامٍ فقط، وها نحن متورطان في أمرٍ كهذا. إنه أمرٌ مرعب".

"ماذا يتعيّن عليّ أن أفعل برأيك؟ أيجدر بي أن أتكلم مع الملك؟".

"كلا... لا بد من أنك فقدتَ صوابك، ليس مع الملك. إننا لن نتمكّن أبداً من التحدث إليه مباشرة، وخاصة الآن بعد أن أصبح

بـــروتوكول القـــصر معقداً جداً. يُمكنك أن تتحدث إلى أحد رفاقه، فيلوتاس على سبيل المثال، لأنه القائد الأعلى لفرسان الهيتايروي. كما أنـــنا ســـنعيَّن كمرافقين له بدءاً من الغد، وهو سيحرص على تحذير الملك".

أجاب سيبالينوس: "أعتقد أنك محقّ. إنها نصيحة جيّدة".

قال أغيريوس: "نم الآن، وغداً سيوقظنا قائدنا عند الفجر لنتدرّب على امتطاء الأحصنة".

حـــاول الفـــتى الاستسلام للنوم، لكن خطورة السر الذي يحمله كانـــت كبيرة جداً، فاستلقى على ظهره لمدةٍ طويلة، وعيناه مفتوحتان وسط الظلمة، وشعر أن هذا الكابوس الدمويّ المتمثل بخطة قتل الملك يعذّبه كثيراً. وشعر في الوقت ذاته بإحساسٍ عارم بأن مكافأة عظيمة قد تنتظره إذا أفشى سر الخطة. وفكّر في أن الإسكندر الثالث بذاته، وهو ملك مقدونيا، وقاهر ممفيس، وبابل، وسوسا، قد يدين له بحياته، وهو ســـيبالينوس، أصـــغر مرافق في الجيش، والذي تحمّل على الدوام وطأة تهكّم الآخرين ودعاباتهم السمجة.

ارتـــدى ثيابه قبل سماع نفير الصباح، وتناول فطوره بصمتٍ مع التابعين الآخرين بينما كان جالساً قرب أغيريوس.

قال أحد رفاقه: "هاي! أكلت القطة لسان سيبالينوس!".

هـــبّ أغيريوس لإسكاته: "اتركه وشأنه! إنكم لا تحسنون سوى مضايقة أولئك الذين يصغرونكم سناً".

"حسناً... لعلك تريدني أن أبدأ بك؟".

تجاهل أغيريوس هذا الاستفزاز، ومضى في تناول طعامه، وما لبثوا جمـــيعاً أن تبعوا الآمر الذي قادهم نحو اسطبلات الأحصنة كي يبدأوا تدريباتهم اليومية.

كـــان ســـيبالينوس مشغول البال إلى درجة أنه سقط مرات عدّة خلال التدريب، فأصيب بجروح عدّة من جرّاء هذه السقطات. ولكن، لم يهتم به أحد لأنهم عزوا الأمر إلى حماقته المعتادة.

في ذلـــك المساء، سُمِح له بالدخول مع رفيقه إلى جناح فيلوتاس مـــن أجل مساعدة القائد على نـــزع درعه، ولمساعدته على تنظيف أســـلحته، مثل قيامهما بتلميع دروع صدره وساقيه، ورمحه، وتفحّص أربطـــة درعـــه، وشـــحذ سيفه ورمحه. باشرا عملهما بحماسة، لكن ســـيبالينوس انتظـــر بفـــارغ الصبر اللحظة المناسبة كي يتحدث إلى فـــيلوتاس، لكـــنه لم يـــتمكن من أن يستجمع ما يكفي من الشجاعة اللازمة.

لم يقل شيئاً، لا في ذلك اليوم ولا في اليوم الذي تلاه.

شـــجّعه أغيريـــوس على الكلام، وقال له: "سيُثني عليك القائد بالتأكـــيد عـــندما تُبلغه عن المؤامرة. لا تخف، فالوقت يمر، وقد يقرّر المتآمرون في أي لحظة قتل الملك. هيا، ماذا تنتظر؟".

عـــندها، اتخذ الفتى قراره بإبلاغ فيلوتاس بما سمعه. وهكذا عندما همّ فيلوتاس بالخروج في مساء اليوم التالي تمكّن من استجماع شجاعته وتحدّث إليه: "أيها القائد...".

التفت فيلوتاس: "ما الأمر أيها فتى؟".

"أريد أن أتحدث إليك يا سيدي".

"لا وقت لديّ الآن. لكن، ما الأمر؟".

"يـــتعلّق الأمـــر بمـــسألة في غاية الأهمية. يتعلق، في الواقع، بحياة الملك".

فجـــأة، جمُد فيلوتاس عند المدخل وصُدم وكأنه أصيب بصاعقة، لكنه لم يلتفت كي يواجه سيبالينوس.

"ماذا تعني بذلك؟".

"أعني أن حياته في خطرٍ شديد. يريد شخصٌ ما أن يقتله و...".

أغلـــق فـــيلوتاس الباب وراءه فجأة واستدار، ثمّ قال وهو يصرّ بأسنانه: "مجانين! رفضوا الإصغاء إليّ...". تراجع الفتى إلى الوراء مرتعباً من ردّ الفعل هذا، لكن فيلوتاس نظر إليه مشجِّعاً وسأله: "ما اسمك يا فتى؟".

"اسمي سيبالينوس".

"حـــسناً. اجلس هنا وقل لي ماذا تعرف. وسنسوي الأمور معاً. سترى".

36

اقتـــرب الـــيوم المحدّد للرحيل، وأمر الإسكندر بإحضار الأميرة ستاتيرا من زادراكارتا، وذلك كي يتمكن من تمضية بعض الوقت معها قـــبل فـــراقهما الذي سيطول. التقاها على الطريق، وما إن رأته حتى تـــرجلت من العربة، وركضت نحوه مثل فتاةٍ صغيرة تُهرع إلى ذراعَي حبيـــبها الأول. تـــرجّل بدوره عن صهوة حصانه، وجذبها نحوه بينما أحاطـــت عـــنقه بذراعـــيها. غمرته عاطفتها العفوية الصادقة، ورقّتها وطبيعـــتها المـــرحبة، كمـــا تأثر لأنها لم تطلب منه شيئاً، ولا حتى في الرسائل التي أرسلتها إليه.

مضيا في طريقهما بعد ذلك سيراً على الأقدام، وتحدثا كصديقين قـــديمين في أثـــناء تـــوجههما إلى مقر إقامة الملك في إسكندرية آريا. لاحظـــت ستاتيرا المباني التي ستجعل من مدينة أرتاكوانا القديمة مدينة يونانية. وشاهدت الهياكل في المناطق العليا من المدينة، والمركز الرياضي في أحـــد جوانب الساحة المخصصة لتدريب المحاربين الجدد، وشاهدت المسرح الذي تُقام عليه المسرحيات.

قال الملك: "إن أكثر ما يؤثر فيّ هو فكرة أنه في هذا المكان البعيد جـــداً عن أثينا وكورينث وبيلا، ستُسمع أشعار يوربيديس وسوفوكل عما قريب. هل سبق لكِ أن شاهدتِ واحدة من مسرحيات التراجيديا التي كتبها المؤلفون عندنا؟".

ردّت ستاتيرا: "كلا، لكنني سمعت حكايات عنها. تُروى حكاية علـــى لسان ممثلين، بينما تأخذ الجوقة بالغناء والرقص. هل هي هكذا؟

أبلغني معلمي أنه شاهد إحداها ذات مرة في إحدى المدن اليونانية الساحلية".

قال الإسكندر: "هكذا تجري الأمور تقريباً. لكن مشاهدة هذه المسرحيات أمرٌ آخر بالفعل. إذ إنّ عواطف الأبطال القدماء وآلامهم تبدو وكأنها واقعية وحقيقية مرةً أخرى من خلال هذه المسرحيات".

قرصت ستاتييرا ذراعه كي تدعه يعلم مدى تأثرها بكلماته.

"أود أن أنتظر حتى ينتهي العمل في بناء المسرح، ولكن لا وقت لدي. يوشك ذلك المغتصب بيسوس على عبور باروباميسوس حتى يلتقي مع قبائل سكيثيا التي تسكن في السهول العظيمة. يتعيّن عليّ أن أصل إليه كي أنفذ فيه حكم العدالة، ولذلك رتبت أن تقام مسرحية يوم غدٍ فوق مسرحٍ خشبي وشرفات خشبية. وسأغادر في اليوم التالي".

سألته ستاتييرا: "أيمكنني أن أبقى معك هذه الليلة؟". وهمست له في أذنه: "صدّقني عندما أقول لك إنني ارتحلت مسافة سبعين فرسخاً في هذه العربة لهذا السبب، ولهذا السبب فقط".

ابتسم الإسكندر: "آمل أن الأمر يستحق مثل هذه التضحية. أما الآن، فإنني سأبحث لكِ عن سكنٍ يليق بك". وفي هذا الوقت، كانا قد وصلا إلى جناحه الذي كان موجوداً في القصر الذي كان ساتيبارزان يشغله في السابق. اهتمت النساء بالأميرة واصطحبنها إلى غرفتها.

زارها الملك في ذلك المساء، بعد أن أمضى فترة ما بعد الظهر في المعسكر وهو يشرف على تحضيرات المغادرة. كانت الشمس حينها قد توارت خلف الأفق، وأرسلت آخر أشعتها الذهبية عبر السُحُب التي طافت في السماء ببطء. نظر الإسكندر إلى الشرق حيث كانت السماء داكنة، ولاحظ في ذلك الاتجاه ناراً موقدة ومنعزلة.

سأل حراسه: "مَن هناك؟".

جـــاءه الجواب: "يُحتمل أنه راعٍ يحضّر وجبة طعامه قبل أن يخلد إلى الـــنوم". ولكـــن، ما إن اقتربوا حتى شاهدوا عباءةً بيضاء ترفرف وسط نسائم المساء.

حـــثّ الملـــك جـــواده على الإسراع في خطواته، وراح يتمتم: "أريستاندر". همّ الحراس باللحاق به، لكنه أومأ إليهم كي يبقوا حيث هم، و لم يكن لديهم خيار غير الانصياع إلى أوامره.

وقف الضالع أمام كومة من الأحجار التي كانت تتقد فوقها النار، وركّـــز نظره على ألسنة اللهب المتمايلة وهي تلتهم أغصان الأكاسيا وفروعها. بدا وكأنه لم يسمع وقع حوافر الجواد، لكنه تحرّك ما إن سمع صوت الإسكندر.

سأله بصوت متغيّر: "إذاً، لقد سمعت ندائي؟".

"رأيت نارك".

"أنت في خطر".

"إنني أعيش في خطرٍ دائم. إن جسمي المغطى بالندوب يُثبت هذه الحقيقة".

بـــدا أن عينَـــي الضالع قد لاحظتا في تلك اللحظة فقط حضور الإســـكندر، وقال بينما كان يحدّق إليه: "إنه أمرٌ غريب ألاّ ينجو من الـــندوب إلا وجهك. يُقال إن والدك، في المقابل، كان مشوهاً عندما مات".

"أيُحتمل أنك تلقيتَ توقعاً ما يتعلق بموتي يا أريستاندر؟ أريد أن أحقّق حلمي، كما أود كثيراً أن أرزق بولد... قبل...".

قاطعـــه الضالع: "ستنجو. لكن أصغِ جيداً إلى صوت فتى...". ثم تابـــع مكـــرراً كلامه: "صوت فتى". اغرورقت عيناه بالدموع عندما أكمل: "لا أستطيع قول المزيد. لا أستطيع...".

"وماذا بشأن كابوسك؟ أما زلتَ ترى ذلك الرجل العاري الذي أُحرق حياً في محرقة الأموات؟".

أشـــار إلى الـــنار المشتعلة أمامه: "أراه دائماً، لكن صمته يقلقني كثيراً. صمته، هل تفهم؟".

ابـــتعد الإسكندر سيراً على قدميه، وقد أمسك عنان جواده بيده، ثم انطلق في الطريق حيث كان حراسه في انتظاره. عادت إلى ذهـــنه صـــورة والـــده وهو يسقط أرضاً بعد أن أجهز عليه أحد رجالـــه، فصرف حراسه بعد أن قال لهم: "اذهبوا الآن. لا أحتاج إلى حـــراس. يحـــبني رجـــالي، وكذلك رفاقي. أقول لكم اذهبوا الآن".

*

غـــادر فـــيلوتاس جناحه بعد حلول الليل، وسار بسرعة نحو أعلـــى جزء في المدينة، وتوجّه نحو مبنى كبير مصنوعٍ من الأحجار الطينية كان قد خصّص لضباط فرسان الهيتايروي. كان القمر قد اختفى من صفحة السماء في تلك الليلة، لكن السماء كانت مليئة بأعداد لامتناهية من النجوم الكبيرة والساطعة، وكذلك بشريط من نجـــومٍ المجرة الساطعة التي تنتشر في قبة السماء، فبدا المنظر وكأن النور يتأوه.

كـــان فـــيلوتاس يرتدي عباءة داكنة، ويعتمر غطاء رأس، ويضع قـــناعاً حتى لا يميّزه أحد. كشف عن وجهه عند الحارس الواقف أمام المـــدخل، فأسرع الرجل إلى خفض رمحه تحيةً له. دخل فرأى سيمياس واقفاً أمامه، وهو أحد قادة سرية فرسان البيزيتاروي.

سأله: "أين الآخرون؟".

ردّ الضابط: "لا أعرف".

"أنـــت تعـــرف بالتأكيد. أنت تعرف مكانهم مثلي تماماً. لا أعتزم مغـــادرة هـــذا المكان قبل أن أراهم جميعاً. أريد أن أرى كل واحدٍ منهم، وإلا سأخبر الملك".

شـــحُب لون سيمياس وقال: "انتظر هنا. بعضهم في برج الحصن الـــشرقي، بيـــنما الآخرون في مقر الحرس في الباحة الوسطى". خرج سـيمياس عـــبر بابٍ جانبـــي، فيما استمر فيلوتاس في التجول جيئة وذهاباً، وفي عصر كفيه في أثناء انتظاره.

وصـــلوا واحداً تلو الآخر، وراح فيلوتاس يتفحصهم صعوداً ونـــــزولاً وكأنـــه يفتش فرقةً من الجنود، لكن وجهه كان مليئاً بملامـــح السخط الشديد: سيمياس من نيابوليس؛ آمر الكتيبة الثالثة مـــن البيزيتاروي، وآيجساندر من ليوكوبيديون؛ مساعد آمر سرية الهيتايروي الخامسة، وليمنوس من كاليسترا؛ آمر الوحدة الأولى من فـــرقة الطلـــيعة، وبولمـــون وأتالـــوس، وهما شقيقا إمينتاس وقائدا جـــنود الهجوم، وأريستارخوس من بولياكمون مساعد فرقة حاملي الدروع.

بدأ كلامه حتى من دون أن يعطيهم وقتاً ليفتحوا أفواههم.

"هـــل جننـــتم؟ ما الذي سمعته عن القرار الذي اتخذتموه والذي تعتزمون فيه قتل الملك؟".

حـــاول سـيمياس أن يردّ بالقول: "اسمع، لقد فهمت الموضوع بشكلٍ غير صحيح".

أسـكته فيلوتاس على الفور: "كفى! مع مَن تظن نفسك تتكلم؟ أريدكم الآن أن تخبروني من هو الذي اتخذ ذلك القرار، ومتى بالضبط تـــريدون تنفـــيذ الأمر، وأريد أن أعرف، قبل كل شيء السبب الذي دفعكم إلى اتخاذ ذلك القرار".

ردّ بولمـــون: "أنت تعرف السبب. لم يعد الإسكندر مَلِكَنا. إنه ملـــك البرابرة، وهو يرتدي أزياء البرابرة، ومحاطٌ بالبرابرة. ماذا بشأننا نحن؟ قهرنا إمبراطورية لأجله، ولكن يُطلب منا الانتظار المذل في غرف الانتظار عندما نريد التحدث إليه".

تـــدخل سيمياس بالقول: "وكأن ذلك لا يكفي، فأتتنا خططه المجنونة بقهر العالم. أتفهم؟ إنه يريد أن يقهر العالم... لكن أي عالم؟ أيعرف أحدنا أين ينتهي هذا العالم؟ وماذا لو لم تكن هناك نهاية لهذا العالم؟ أيعني ذلك أنه يتعيّن علينا أن نجرّ أنفسنا عبر الصحاري، وعبر الجـــبال، والقفـــار المنعـــزلة مـــن أجـــل إخضاع قرى صغيرة مثل أرتاكوانا؟".

قـــال ليمـــنوس مـــن كاليسترا: "لا ينتهي الأمر هنا. إنه يُنشئ المستعمرات الآن، لكن هل لاحظتم أين؟ إنه لا يؤسّسها على الشاطئ، وفي أمـــاكن مناسبة مثل المكان الذي اختاره كي يبني عليه الإسكندرية الأولى. إنـــه يُنشئ الآن مدناً في أماكن صحراوية وبين شعوب بربرية، في أماكن بعيدة جداً عن البحر. إنه يُجبر آلاف المساكين الفقراء على اتخـــاذ مـــساكن لهـــم في أماكن مرعبة، ويحثّهم على الزواج من نساء البرابرة وذلك من أجل توليد جيل من الأطفال ذوي الدم المختلط".

قال فيلوتاس: "تزوج كل اليونانيين الذين يعيشون في المستعمرات من نساء بربريات. ولا يعد هذا سبباً كافياً لقتله".

ردّ ســـيمياس: "لا تكـــن مـــنافقاً، فلطالما اتفقتَ معنا - وأنت الوحـــيد بينـــنا الذي يعدّ من أصدقائه - بأنه لا يمكننا الاستمرار على هذا المنوال. أنت الوحيد الذي يفهم رجالنا، ويفهم معاناتهم ومخاوفهم ورغبـــتهم في العودة إلى الوطن، وها أنت الآن تتظاهر بأنك فوجئت بشيء تعلمه مسبقاً".

ردّ فيلوتاس بحدة: "هذا ليس صحيحاً! كانت مفاهيمنا مختلفة كلياً. قرّرنا أن فرقنا ستتحرك عندما تُبرز اللحظة المناسبة نفسها، وأننا سنرغمه على تغيير خططه".

قدّم أريستارخوس بعض التفاصيل هنا: "بالقوة إذا لزم الأمر".

ردّ فيلوتاس بشكلٍ أكثر صرامة: "لكن، ليس عن طريق سفك الدماء. إذا نجحت خطتكم المجنونة الآن، فسيُترك جيشنا من دون قائد وسط بلاد غريبة، وسيبقى العرش من دون ملك".

قال بولمون: "الأمر ليس هكذا، لأن لدينا ملكاً".

قال سيمياس: "إمينتاس الرابع. الابن الشرعي للملك الشرعي إمينتاس الثالث".

هزّ فيلوتاس رأسه: "هذا مستحيل. إمينتاس مخلص للإسكندر".

قال سيمياس: "أنت تظن ذلك، لكن انتظر حتى يصبح تاج المقدونيين فوق رأسه".

جلس فيلوتاس بتثاقل على الكرسي والتزم الصمت. بدأ سيمياس الكلام مجدداً بعد لحظاتٍ قليلة: "أنت القائد الأعلى لفرسان الهيتايروي، لذلك سيضطر الملك الجديد إلى الاعتماد على دعمك. نريد أن نعرف مع أي جهةٍ ستقف".

تنهد فيلوتاس: "اسمعوني... إنني أعتقد، وبالحقيقة أنا متأكد، بأنه من غير الضروري تلويث أيدينا بدماء الإسكندر، إننا جميعاً ندين له بالكثير".

قال أريستارخوس مقاطعاً: "هو الذي يدين لنا بالكثير. كما أنه ما من سببٍ يمنعنا بعد موته من منحه أوسمة شرف عظيمة، ومن أن نبني له التماثيل، وأن نقيم له النُصُب، وأن نكرّمه في أنحاء العالم كافة بنقوشٍ على نُصُب حجرية... هذا أمرٌ محسوم. أما بالنسبة إلى إمينتاس، فإنه سيكون مديناً لنا عندما نعطيه التاج، لذلك، فهو سيُصغي إلينا".

استمر فيلوتاس بالكلام وكأن أريستارخوس لم يقل شيئاً: "لا أريد أن أقتله، ولن تقدموا أنتم أيضاً على اغتياله. سأقول لكم كيف سنتحرك ومتى". تكلّم بلهجة صارمة حيث لم يجرؤ أحدٌ على معارضته. ثم غطى وجهه مجدداً بغطاء رأسه وغادر المبنى.

انتظر سيمياس حتى اختفى وقع خطوات فيلوتاس قبل أن يلتفت إلى رفاقه من المتآمرين قائلاً: "مَن أخبره؟".

هزّ الجميع رؤوسهم منكرين.

"عرف فيلوتاس بقرارنا. وذلك يعني أن أحداً ما قد أخبره".

قال ليمنوس مطمئناً: "لم أقل شيئاً. أؤكد لك".

ردّد الآخرون: "ولا نحن كذلك".

قال سيمياس: "إن حياتنا على المحك في هذا المكان. لا أريد أن تُنقل أي كلمة إلى أي شخص، ولا حتى إلى عشيقاتكم أو أصدقائكم، أو أشقائكم. وبما أن فيلوتاس قد عرف بالأمر، فربما سيعرف الآخرون، وقد يعرف أي شخص بخططنا".

قال أريستارخوس: "هذا صحيح. ماذا يجدر بنا أن نفعل الآن برأيك؟".

"يتعيّن علينا أن نتحرك على الفور".

"أتعني... أن نقتل الملك... الآن؟".

"وبأسرع وقت ممكن، لأنه إذا عرف خطتنا، فإن كل شيء سيضيع. هل سبق لكم أن شاهدتم محاكمة مقدوني بتهمة الخيانة العظمى؟ شاهدت أنا محاكمة كهذه، وشاهدت كذلك عملية الإعدام. يمزّق الجيش الخونة إرباً إرباً... وببطء".

سأل بوليمون: "متى سنضرب ضربتنا؟".

أجـــاب سيمياس: "غداً، وقبل أن تتسلّل الهواجس والشكوك إلى ذهـــن فيلوتاس. وما إن يموت الإسكندر حتى لن يتمكن فيلوتاس من التـــراجع، وسيلتزم بكامل مسؤولياته في كل ما يجري. أما بالنسبة إلى بيرديكـــاس، وبطليموس، وسلوقس وكل الآخرين، فإنهم سينظرون إلى المسألة بعقلانية. كل هؤلاء تقريباً رجالٌ عقلانيون. أصغوا إليّ بتركيز الآن، لأن أصـــغر خطأ قد يُفشي سرّنا ويعرّضنا إلى مصيرٍ رهيب". ثم اســـتلّ سيفه، وراح يرسم بحدّه على التراب. "سيدشّن الملك نهار غدٍ المسرح الجديد، وهو يريد أن تشاهد ستاتييرا أداء تيسالوس في مسرحية *المبـــتهلين*. سينطلق من قصر ساتيبارزان، وسيسير في هذه الطريق من خلال سوق تجار التوابل. سيصل إلى هذه النقطة، وعندها سيتوجه في الطريق المؤدية إلى المسرح. سيصطف جنود البيزيتاروي من الفالانج من الجانـــبين، وسيقدّمون إليه التحية وسيوفرون له الحماية من الجمهور. ستكون هذه هي لحظتنا المؤاتية".

وغرز سيفه بقوة في الأرض، وحدّق إلى عيون رفاقه من المتآمرين واحداً واحداً.

37

تمكّن سيبالينوس من شقّ طريقه برفقة صديقه أغيريوس حتى وصلا إلى الصفّ الأول تقريباً. راقب الفتى بقلقٍ بالغ تقدّم الملك الذي كان محاطاً بأصدقائه من إحدى الجهات، بينما ظهر الضباط القادة آمرو الوحدات القتالية يرافقهم الأمير إمينتاس من الجهة الأخرى.

بحث الفتى عبثاً عن فيلوتاس بين الرجال المرافقين للإسكندر، ثم قال: "لا أرى القائد فيلوتاس".

سأله أغيريوس: "أتعتقد أنه أبلغ الملك بالخطة؟".

أجاب سيبالينوس: "أنا متأكد من أنه فعل ذلك، لأنه أصغى إليّ باهتمامٍ شديد، ونصحني بألاّ أقلق، وأن كل شيء سيكون على ما يرام".

"لكن متى سينفذون خطتهم برأيك؟".

"لا أعرف. كان هناك ضجيج كبير في الخارج عندما كنت أستمع إليهم، لذلك لم أنتبه إلى كل ما قالوه. أعتقد أنهم سينفذون ضربتهم قبل أن ينطلق الجيش في زحفه نحو باكتريانا".

أشار أغيريوس إلى قادة الموكب الذي يتقدم نحوهم، ثم قال: "انظر. ها هو الملك مع الأميرة ستاتييرا وباقي رفاقه. لكن أنا أيضاً لم أتمكن من رؤية فيلوتاس".

"يُحتمل أنه مشغول هذا اليوم. سمعت أن المرزبان الآخر، بارزيانتي، يجول في التلال مع عصابات الساكا المسلحة، ومحاربي الجدروسانيين. يُحتمل أنه قد تلقى الأوامر بالقضاء عليهم".

"يُحتمل ذلك...".

في هذا الوقت، أخذ الملك يقترب أكثر فأكثر، فأحسّ سيبالينوس بشعورٍ غريب يخيّم عليه بشكلٍ مفاجئ، وبدأت كل أطرافه ترتجف من دون سبب ظاهر.

سأله أغيريوس: "ما خطبك؟ تبدو لي في حالة مرضية".

لكن صديقه اليافع تذكّر في هذه اللحظة بالذات كلمةً سمعها من شفتي أحد القادة، وهي كلمة بدت له في ذلك الوقت بلا معنى، لكنها ترددت الآن في ذهنه مترافقةً مع أهمية خاصة: بوابة أرسيس. كانوا هناك! كان هناك ثلاثة رماة في البرج الذي يقع خلف المكان الذي يقف فيه، وبدا أنهم يصوّبون نحو الملك. فاندفع سيبالينوس إلى الأمام من خلال الحاجز الذي شكّله جنود البيزيتاروي وصاح: "إنهم على وشك اغتيال الملك! سيقتلون الملك! أنقذوه!".

انهمرت السهام في تلك اللحظة بالذات، لكن درعَي بطليموس وليوناتوس كانتا قد أصبحتا في مكانهما المناسب، وحمتا صدر الملك المكشوف. صاح بيرديكاس بكل ما في صوته من قوة: "اقبضوا على هؤلاء الرجال!". وأسرع بعد ذلك إلى إرسال مجموعة من جنود الصدم في اتجاه بوابة أرسيس.

تردّدت كل تلك الكلمات في ذهن الإسكندر، وهي التي تضخمت بفعل الذكرى التي أيقظت كابوساً متمثلاً بصورة والده فيليب عندما سقط في بركة من الدماء تسبّب بها خنجر سلتي انغرز بين ضلوعه. سمع كذلك صوت ستاتييرا وهي تُصدر أوامر مقتضبة بلغتها، وأتى بعد ذلك ضجيج الأسلحة المعدنية، وقرقعة حوافر الجياد، لكن كل ما تمكن من رؤيته كان الدماء، والمزيد من الدماء، وتراءى له الشحوب المميت لفيليب في أثناء احتضاره.

كان صوت بطليموس هو الذي أعاده إلى عالم الواقع: "هذا هو الفتى الذي أنقذ حياتك. إنه تابعٌ يافع وشجاع ومخلص. اسمه سيبالينوس".

نظر إليه الإسكندر باهتمامٍ شديد، ولاحظ ملامحه الوسيمة، وأطرافه الرشيقة، وعينيه الواسعتين والجميلتين. كان لا يزال يرتجف، وأبقى عينيه مركّزتين على الأرض كي يخفي مشاعره. سأله الملك: "من أين أنت أيها الفتى؟".

تمكّن الشاب من الردّ متمتماً: "إنني من يونوستوس، وهي قرية من قرى لينسيستس يا مولاي".

"لقد أنقذتَ حياتي. شكراً لك. سأعطي تعليمات كي تُكافأ لقاء ولائك. لكن، قل لي، كيف عرفتَ أن هناك من يريد قتلي؟".

"مولاي. أخبرتُ القائد فيلوتاس، ولا بد من أنه أخبرك..."، سكت فجأة ونظر حوله. وبدا مرتبكاً عندما لاحظ الدهشة واضحة على ملامح وجه الملك، ووجوه كل رفاقه.

كان الأمين العام، إيومينيس من كارديا، موجوداً هناك، وسرعان ما تقدّم منه وربّت على كتفيه وقال له: "تعالَ يا ولدي. هيا نذهب، لأنه يجب أن تسرد علينا كل شيء، ومنذ البداية".

بدأ سيبالينوس، وبالرغم من توتره والإثارة التي شعر بها نظراً إلى كونه الشخص الذي أنقذ الملك، برواية كل تفاصيل المؤامرة، وكيف أنه حذّر فيلوتاس الذي وعده بإبلاغ الملك على الفور.

ربّت إيومينيس على كتفيه مجدداً عندما أنهى كلامه وقال له: "يا لك من فتى وسيم خَدَمَنا بشكلٍ جيد. سيمنحك الإسكندر منصب قائد **التابعين الملكيين** بمفعولٍ فوري، وستحصل على كل المداخيل ومظاهر الشرف التي تترافق مع ذلك المنصب. يرغب الملك كذلك في

أن يهديك مبلغ تالنت من الفضة، والذي يمكنك أن تبقيه معك، أو أن ترسله إلى عائلتك جزئياً أو كلياً. اذهب الآن، ونل قسطاً من الراحة لأن هذا اليوم كان متعباً جداً لنا جميعاً".

غادر الفتى وهو يشعر بالتوتر والإثارة، وسرعان ما توجه راكضاً إلى صديقه أغيريوس كي يخبره بما حدث، لكنه بدأ يفكر في المتعة التي سيشعر بها عند إعطاء الأوامر وإنزال العقوبات بأولئك الفتيان من رفاقه الذين سخروا منه في السابق وأهانوه.

أصدر الإسكندر على الفور الأوامر بإلقاء القبض على كلٍّ من القادة سيمياس من نيابوليس، وليمنوس من كاليسترا، وبولمون وأتالوس من آندرومين، وأريستارخوس من بولياكمون، وآيجساندر من ليوكوبيديون، وكذلك فيلوتاس، القائد الأعلى للهيتايروي، بالإضافة إلى الأمير إميناتاس من لينسيستس. وتوجّه بعد ذلك إلى جناحه في القصر وأصدر أوامر تفيد بأنّه لا يريد أن يزعجه أحد.

قرّر سلوقس، وبطليموس، وإيومينيس التحدث إلى هيفاستيون، وهو الشخص الوحيد الذي قد يوافق الإسكندر على استقباله في هذه الفترة العصيبة. فذهب إليه هؤلاء عند المساء كي يقابلوه في مقره.

قال إيومينيس: "حاول أن تعرف ما هي نواياه".

أضاف سلوقس: "وعلى الأخص في ما يتعلق بفيلوتاس".

"سأحاول أن أتحدث إليه. لم يسبق لي أن رأيته في حالة كهذه من قبل، وحتى عندما كنا في المنفى، وعندما كنا نواجه خطر الموت نتيجة الجوع والحرارة كل يوم". وكان على وشك أن يغادر عندما قرع جندي الباب وناوله استدعاءات فورية من الإسكندر.

قال إيومينيس: "لا بأس. إنه متقدم عنا خطوة واحدة". غادر الأربعة جناح هيفاستيون معاً.

قال هيفاستيون: "ماذا سيسألنا برأيكم؟".

ردّ إيومينيس: "الأمر واضح؛ سيسألنا عن رأينا بالمؤامرة. لكنه سيسألنا، قبل كل شيء عن رأينا بما يجدر به عمله مع فيلوتاس".

سأل سلوقس بجدية وهدوء كمن يسأل نفسه: "وماذا عسانا نردّ على هذا الموضوع؟".

في تلك اللحظة، وصل بيرديكاس على صهوة جواده، وما لبث أن ترجّل عندما شاهد أصدقاءه، ثم انضمّ إليهم وهو يقود جواده. "أفضّل أن أحمل أسداً بيديّ العاريتين على أن أدلي برأيي في هذه المسألة. هل فكّرتم في الأمر جميعاً؟".

نظر أصدقاؤه إليه، فقرأ بيرديكاس في عيونهم القلق والمعاناة والشكّ، وهي الأمور التي ارتسمت في عينيه كذلك: "إذاً، فأنتم بدوركم لا تعرفون ما الذي ستقولونه له. هل أنا على صواب؟".

اقتربوا في هذا الوقت من قصر الحاكم، وهو القصر الذي تحرسه مجموعة من البيزيتاروي بمشاركة أربعة رجال من فرقة الخالدين التابعين للحرس الإمبراطوري. اقترب ليوناتوس برفقة كلايتوس الأسود ولايسيماخوس من الاتجاه المعاكس، وكانت الأربطة لا تزال تحيط بكتفه.

قال بطليموس: "إن كراتيروس هو الغائب الوحيد".

قال إيومينيس خافضاً بصره: "وفيلوتاس أيضاً".

قال بطليموس: "بالضبط". نظر كل واحد منهم إلى الآخر من دون أن يقولوا أي شيء. كانوا يعلمون أنه لن يمر وقت طويل قبل يُبلغوا الملك رأيهم في ما يتعلق بحياة أو موت أحد رفاقهم الذي شاركوه الطعام، والجوع، والنوم، والقلق في الليالي، والمسرات، والأخطار، والآمال، واليأس.

كسر ليوناتوس الصمت المخيّم: "لم أحب فيلوتاس قطّ. إنه مغرور وفخور بنفسه، لكن فكرة رؤيته مقطعاً إرباً إرباً بعد عملية إعدام عسكرية هي فكرة مريعة. دعونا نمضي الآن، لأنني لم أعد أطيق حالة الشك هذه".

دخل الجميع القصر، وتوجهوا إلى غرفة الاجتماعات حيث كان الإسكندر بانتظارهم جالساً على عرشه. بدا شاحباً، وبدت على وجهه أمارات ليلة أمضاها قلقاً. كان بيريتاس متكوراً على نفسه عند قدميه، وكان يرفع أنفه بين حينٍ وآخر آملاً أن يداعبه سيّده.

لم ينتظر جلوسهم، بل بدأ بالكلام على الفور: "كنتم جميعاً حاضرين عند اغتيال والدي".

قال إيومينيس الذي كان يذكر الحادثة، ويشعر وكأنها جرحٌ مفتوح في روحه: "هذا صحيح. لكن الحكم على ما حدث اليوم على ضوء تلك الحادثة الدموية سيكون خطأً مريعاً، لأن ما حدث عندها لا يماثل حادثة اليوم، كما أن الوضع ليس ذاته و...".

صاح الإسكندر فجأة: "ليس ذاته؟ كنت أنا من سحب الخنجر من جسده... وأنا مَن تلطخت ثيابه بدمائه... وكنت أنا من سمع أنفاسه الأخيرة. كنتُ أنا... أتفهمون؟ إنه أنا!".

أدرك إيومينيس أنه لا يقدر على قول أي شيء. كان من الواضح بالنسبة إليهم أن الإسكندر مهووس بفكرة اغتيال الملك، وأنه أمضى ساعات الليل معذباً بكابوس موت فيليب الدموي. في تلك اللحظة، دخل كراتيروس وبدا أنه هو الآخر في مزاجٍ سيئ للغاية.

قال بطليموس في تلك اللحظة: "إذا كنتَ قد اتخذتَ قرارك مسبقاً، فلماذا استدعيتنا إلى هنا؟".

بدا أن الإسكندر قد هدأ قليلاً: "لم أتخذ أي قرار بعد، ولن أتخذ هذا القرار. إن الجيش بأجمعه هو الذي سيحكم بحسب العادات القديمة".

قال سلوقس: "إذاً، أعتقد أنه لا فائدة من وجودنا...".

قاطعه الإسكندر: "يمكنكم المغادرة إذا أردتم، لأنني لا أرغب في تأخيركم أكثر من هذا. دعوتكم إلى هنا كي أستمع إلى نصيحتكم، ولأن وجودكم يريحني. تآمر لقتلي ستة من أشجع ضباطنا، ومعهم واحد من أخلص أصدقائي، والذي كاد أن يكون بمثابة شقيقي. كنتم هناك جميعاً، وقد سمعتم شهادة ذلك التابع".

تكلّم الأسود عند هذه النقطة وهو الذي بقي ساكتاً حتى هذه اللحظة: "كن حذراً أيها الإسكندر، لأنك لا تملك دليلاً ضد فيلوتاس غير شهادة ذلك الصبي".

"أنقذ ذلك الصبي حياتي، وهو الذي اعتاد أن يقول الصدق في كل الأمور الأخرى. اعترف الرماة الثلاثة تحت التعذيب بالحقيقة، وأيدوا رواية سيبالينوس، كما أن التحقيق معهم جرى بشكلٍ منفصلٍ، لكن كلامهم جاء متطابقاً".

سأل الأسود مجدداً: "وماذا نعرف عن فيلوتاس؟".

"كان يعرف بالتأكيد، ومع ذلك لم يقل أي شيء. أتفهم هذا يا أسود؟ ولو جرت الأمور كما يريد، لكنت ميتاً الآن بعد أن اخترقت السهام جسمي الذي كان سيسبح في بركة من الدماء". فاضت الدموع من عينيه عندما تلفظ بهذه الكلمات، لكنهم فهموا جميعاً أنه لم يبكِ بسبب التفكير في السهام التي كان من المقدر أن تخترق جسمه، بل بسبب فكرة أن يخونه صديق أوكل إليه أهم مركز في الجيش بعده، وهو ما يجعله المؤتمن على شخص الإسكندر ذاته، وفكرة أن صديقه هذا قد خطط وتآمر ضده، وأن صديقه كان قاسياً بما فيه الكفاية حيث تمكّن من تخيّل السهام التي تخترق جسمه وتركه بعد ذلك ليموت وسط نوبات الألم. عجز الجميع في تلك اللحظة عن عدم ملاحظة الألم في

نظـــرته، والرعشة في صوته، وكذلك يديه المتمسكتين بذراعَي العرش بتشنج.

سأل بصوتٍ يكاد يصل إلى حدّ البكاء: "ماذا فعلتُ كي أستحق كل هذا؟".

حاول بطليموس أن يردّ بالقول: "إسكندر، إننا لا...".

لكن الإسكندر صاح به: "إنكم تدافعون عنه!".

ردّ ســـلوقس بحدة: "كلا. إننا نعجز، ببساطة، عن تصديق ذلك حتى ولو كانت كل الأدلة ضده".

خـــيّم الصّمت على الجميع في أنحاء الغرفة مع حلول المساء، ولم يتمكن أحد من خرقه، ولا حتى بيريتاس الذي قبع جالساً وهو ينظر إلى ســيده بعينـــيه الواســعتين والرطبتين. شعر كل واحدٍ من الحاضرين بالوحدة، وبأنه بعيد جداً عن الأوقات السعيدة التي ميّزت صداقتهم في فتـــرة مراهقتهم. بدت، فجأة، أيام أحلامهم وبطولاتهم بعيدة عنهم، ولم يعـــد يرافقهم سوى الشك والقلق. انحصرت مهمتهم الآن بإيجاد طريقة ما للخروج من دوامات هذه المؤامرة، ومن الزيف والشكوك التي علقوا بها.

سأل الأسود: "ماذا نعرف عن الأمير إمينتاس؟".

ردّ الإســـكندر بأســـى: "كان سيصبح الملك الجديد بعد موتي".

ســـأل بعـــد مـــرور هنيهاتٍ قليلة: "ماذا تعتقدون أنه يجدر بـــي أن أفعل؟".

تكلّم الأسود بالنيابة عنهم جميعاً: "لا خيار لنا. إنهم ضباط جيش الملك، لذلك، فإنه يتعيّن على جيش الملك أن يحاكمهم".

لم يتـــبقَ أي شيء إضافي يُقال، لذلك غادروا الواحد تلو الآخر تـــاركين الإســـكندر بمفرده مع أشباحه وشكوكه. ولم يجد أي واحد منهم شجاعةً كافية كي يبقى، ولا حتى هيفاستيون".

38

تــــوجّه إيومينيس وكاليستين إلى الإسكندر قبل الفجر، فشاهداه جالساً على مقعدٍ بسيط، ومن دون أن يرتدي شيئاً غير عباءته المقدونية البسيطة. كان من الواضح جداً أنه لم ينم على الإطلاق.

سألَ من دون أن يرفع رأسه: "هل اعترفَ بخيانته؟".

أجـــاب إيومينيس: "تحمّل التعذيب بشجاعةٍ مذهلة. إنه جندي عظيم".

قال الإسكندر بحزن: "أعرف ذلك".

سأل كاليستين: "ألا ترغب في معرفة ما قاله؟". أومأ الملك برأسه ببطء.

"صـــاح في ذروة معاناته: *اسألوا الإسكندر ماذا يريدني أن أقول، ولننتهِ من هذا الأمر!*".

قـــال الملك: "هذا يكفي. إنه يتصرّف مثل نبيلٍ مقدوني حقيقي ومتغطرس كالعادة".

سأل كاليستين: "لماذا لم تساورك شكوك في شأن هذه المسألة؟".

ردّ الإسكندر: "ليس لديّ أي شك، لأن الدليل دامغ جداً، كما أن كلامه قد أكّده القتلة الآخرون أنفسهم".

سأل إيومينيس: "وماذا بشأن إمينتاس؟ يمكنك على الأقل أن تعفو عنه، لأنه لم توجّه ضدّه أي اتهامات".

"كـــان مـــدار شـــبهة من قبل، وكان سيصبح ملكاً بعد عملية اغتيالي. ألا يكفي هذا؟".

صاح كاليستين بجرأة واقتناع لم يُظهرهما مطلقاً من قبل: "كلا! كلا! ليس كافياً! أتريد أن تعرف لماذا؟ أتذكر تلك الرسالة التي بعثها داريوس إلى إميناتاس ووعده فيها بإعطائه مبلغ ألفي تالنت؟ كانت الرسالة مزورة! كانت كل الأمور مزورة: الرسالة، والمبعوث، والمؤامرة... ويمكنني أن أقول إنه بالتأكيد كانت هناك مؤامرة، لكن والدتك هي التي دبّرت هذه المؤامرة بالاشتراك مع سيسين المصري. كان هدف المؤامرة هو القضاء على إمينتاس".

صاح الإسكندر: "أنت تكذب! كان سيسين جاسوساً وظّفه داريوس، ولهذا السبب أُعدم بعد معركة إيسوس".

"أجل، لكنني كنت آخر شخصٍ تكلم معه. سعى إلى رشوتي ورشوة بطليموس. تظاهرت أنني قبلت عرضه الذي كان عبارة عن خمسة عشر تالنتاً لي، وعشرين لبطليموس، مقابل سكوتنا وتأكيدنا براءته. لم أخبرك أي شيء عن ذلك وأبقيت الأمر سراً حتى لا أسبّب لك أي إحراج، وكي لا أضعك في موقع المواجهة مع والدتك. كانت أوليمبيا مهووسة بمسألة وراثتك للعرش. كانت هي من رتّب مسألة خنق طفل يوريديس الصغير في مهده، أم أنك نسيتَ ذلك؟".

ارتعش الإسكندر عندما مثلت أمامه صورة يوريديس التي امتلأ جسمها بالجروح، ووجهها الذي كثرت فيه الخدوش، وشعرها القذر، وهي تضم جسد طفلها إلى صدرها.

تابع كاليستين كلامه بحزم: "وُلد طفل من لحمك ودمك نفسيهما، أم أنك تعتقد أنك فعلاً لست ابن فيليب؟".

هبّ الإسكندر واقفاً على قدميه، وكأن شخصاً ما قد لسعه بسوط، وأسرع نحو المؤرخ شاهراً سيفه، ثم صاح به: "لقد تجاوزت حدّك!".

شـــحُب لـــون كاليستين، وأدرك فجأةً أنه أثار غضباً شديداً قد تكون عواقبه وخيمة حيث لا يستطيع تحملها، لكن إيومينيس وقف بين الرجلين، فتوقف الملك في اللحظة الأخيرة. "عبّر كاليستين عن أفكاره. هـــل ترغب في أن تقتله لهذا السبب؟ إذا كنتَ تريد أن تجمع حولك مـــتملقين وخدماً لا يقولون لك إلا ما تريد سماعه، فإن ذلك يعني أنك لست بحاجةٍ إلينا". التفت الأمين العام بعد ذلك نحو المؤرخ الذي كان شـــاحباً شحوب الأموات، ومرتجفاً مثل ورقة شجرة في مهبّ الريح، وقال له: "هيّا يا كاليستين، هيا بنا. يبدو أن مزاج الملك متعكر اليوم".

غـــادر الـــرجلان معاً بينما جلس الإسكندر بتثاقل على مقعده، وأحـــاط وجهه بيديه، وكأنه يريد احتواء الآلام الشديدة التي يشعر بها في جبهته.

قال صوت من خلفه: "أوافق معك على أنه عمل قذر، لكن ليس لـــديك خيار آخر لسوء الحظ. يتعيّن عليك أن تضرب من دون تردد، حـــتى ولـــو كانـــت لديك شكوكك. يُحتمل أن فيلوتاس لم يُرد أن يقـــتلك، ولعلـــه أراد احتجازك، أو إرغامك على التصرف بحسب ما يـــريده هو معتمداً على مركزه ومركز والده. لكنه تورط بالتأكيد في مؤامـــرة، وهذا كافٍ بحدّ ذاته". عبر إيمولبوس من سولوي الغرفة شبه المظلمة، وجلس على مقعدٍ آخر مقابل الملك.

"هل أصغيتَ إلى الأمور الأخرى التي أراد كاليستين أن يقولها؟".

"أتعني قصة إمينتاس؟ أجل. لكن هل أنت متأكد فعلاً بالنسبة إلى هـــذه القـــضية كذلك؟ مَن كان خلال الاستجواب الذي سبق إعدام سيسين؟ لم يكن هناك أحد على حدّ علمي غير كاليستين ذاته، لذلك لا يمكـــن الـــتأكد من روايته. أما إمينتاس، فهو يمثّل تهديداً من الناحية الموضوعية، ولو كان في البلاط الفارسي لكانوا تخلصوا منه على الفور.

وتذكّر أنك الآن ملك الفرس، وملك الملوك. أعتقد على كل حال أنك لست مضطراً إلى إقحام نفسك في هذه المسألة، لأن المحكمة ستقرر، بالتأكيد، أنه مذنب. إن كل ما عليك فعله هو أن ترفض الرأفة به في حال طلب أي شخص العفو عنه".

دخل أحد المساعدين محاطاً بمرافقَين يحملان أسلحة الملك. قال المساعد: "حان الوقت يا مولاي".

*

كان انعقاد المحكمة العسكرية أمام الجنود المجتمعين عادةً قديمة ورهيبة. أراد الأسلاف من خلال هذه المحكمة إنزال أشد الآلام بالخونة وجعلهم يشعرون بالذّلّ. كان الملك يترأس هذه المحكمة المنعقدة بحضور كل الجنود، وقادة فرق الفرسان، والمشاة ومرافقي الجيش. كان عدد أعضاء هذه المحكمة عشرة أعضاء يُختارون عن طريق القرعة، ومن بين أرفع الضباط وقدامى الجنود.

اصطفّ الجيش في ذلك السهل الصحراوي قبل مطلع الفجر، وكان الجنود قد تجمّعوا بعد إطلاق نفير بوقٍ طويل وعالٍ بشكلٍ يخترق الأسماع بنغمته الوحيدة الحادة كالشفرة. تجمّع جنود البيزيتاروي في سبعة صفوف بعد أن حملوا كامل أسلحتهم، كما حملوا رماحهم بأيديهم بشدة، واصطف أمامهم فرسان الهيتايروي. تجمّع في أقصى الجانبين جنودٌ مشاة الهجوم المسلّحون تسليحاً خفيفاً وقد أحاطوا بالصفّين الطويلين على شكل مربع، وذلك بالإضافة إلى جنود الصدم، وحاملي الدروع تاركين مدخلاً صغيراً في الجهة الشرقية، ليسلكه الملك والقضاة والسجناء. لم يُسمَح للجنود المرتزقة من اليونانيين ولا من التراقيين أو الأغريانيين بالحضور، لأنه لا يُسمَح لغير المقدونيين بمحاكمة المقدونيين.

نُصبت منصة منخفضة العلو وسط صف الهيتايروي. ووُضع على تلك المنصة عرش الملك مع مقاعد لسائر أعضاء المحكمة.

بـــزغت الشمس من وراء الجبال، فأضاءت أشعتها أسنة الرماح أولاً، وجعلـــتها تلمـــع بسطوعٍ شديدٍ لا تحتمله الأبصار. وبعد ذلك، تسلّل ضوء الشمس كي يضيء وجوه الجنود الذين وقفوا ساكنين وهم يلبـــسون دروعهم المعدنية، وأضفى ظلالاً على وجوههم المتصلبة التي تركت عليها الشمس آثارها مع الريح والجليد.

سُـــمع نفير البوق ثلاث مرات معلناً عن وصول الملك، وما لبث أن وصـــل وراءه القضاة، وبعدهم السجناء المكبلون بالسلاسل. كان فـــيلوتاس بيـــنهم، وبانت آثار التعذيب الشديد على وجهه، ثم ظهر إمينتاس الذي سار إلى الأمام، وكأنه غير مكترثٍ بما يجري.

أخـــذ الملك وباقي أعضاء المحكمة أماكنهم فوق المنصة، فأسرع أكـــبر الأعضاء سناً لتلاوة الاتهامات بصوت عالٍ. بعد ذلك، اصطف الـــشهود، ومـــا لبث أحد المنادين أن كرّر كل جملة صرحوا بها حتّى يـــتمكن كل المجتمعين من سماعها. صوّت أعضاء المحكمة بعد ذلك، ثم صدر الحكم بالإجماع: المتهمون مذنبون.

صاح المنادي وهو يكرّر كلمات أكبر القضاة سناً: "يُمكن للهيئة العامة للمحكمة أن تصوّت الآن. ستدلون بأصواتكم في ما يتعلق بكلّ مـــتهم علـــى حـــدة. يُمكن للذين لا يوافقون على الحكم ألاّ يضعوا سيوفهم على الأرض. ستتراجعون جميعاً عشر خطوات إلى الوراء حتّى نتمكّن من إحصاء عدد أسلحتكم".

نـــادى أكـــبر القـــضاة سناً أسماء المتهمين واحداً واحداً، وكان المحاربـــون يضعون في كل مرة سيوفهم على الأرض ويتراجعون. نظر المتهمون في اتجاهٍ بعد آخر. نظروا أولاً إلى الفرسان وهم يعتمدون على

مـــا تبقى لديهم من أمل برفاقهم الجنود الذين قد ينقذونهم. ولكن، في كل مرةٍ كانوا يفعلون فيها ذلك، يكون عدد السيوف اللامعة المتروكة علـــى الأرض قليلاً جداً. أما عندما وصل الدور إلى فيلوتاس فقد تُرك عـــددٌ أكبر من السيوف، وخاصة تلك العائدة إلى الهيتايروي، لكنها لم تكن كافية لقلب نتيجة الحكم. كلّفته غطرسته وعجزه عن التآلف مع الجـــنود، وعلـــى الأخص مع جنود المشاة ثمناً غالياً. وعلى كل حال كانت شهادة التابع سيبالينوس، وهي الشهادة التي سمعها الجميع، دليلاً حاسماً ضدّه.

لم ينظر فيلوتاس إلى الأرض على غرار ما فعله السجناء الآخرون، بـــل تابـــع التحديق إلى الإسكندر، واستمر في الصرّ على أسنانه كي يكـــبت آلامـــه. كان لا يزال يحدّق إلى الملك عندما وضعوه أمام عود إعدامـــه. دفـــع فـــيلوتاس رجال الإعدام الذين أرادوا ربط معصميه وكاحليه، ووقف منتصباً ومحتفظاً بكل كبريائه، كما عرض صدره أمام مجمـــوعة مـــن الـــرماة المكلفين بتنفيذ حكم الإعدام. اقترب الضابط المسؤول من المنصة، كما تفرض التقاليد، وذلك كي يسمع ما إذا كان الملك يريد منحه عفواً خاصاً.

أصدر الإسكندر أوامره باقتضاب: "صوّبوا على القلب. أريده أن يمـــوت من المرة الأولى. لا أريده أن يتعذّب لحظةً واحدةً أطول مما هو ضروري".

أومـــأ الـــضابط وتـــوجّه إلى وحدته، ثم تبادل كلماتٍ قليلة مع رجاله. صاح بأمر التنفيذ، وما لبث الرماة أن شدّوا سهامهم وصوبوها نحـــو هـــدفهم. كان المعسكر يعجّ بالجنود، لكنّ الصمت التام خيّم في تلك اللحظة على المكان. صوّب الفرسان أنظارهم نحو جسد فيلوتاس لأنهم علموا أنه حتى في تلك اللحظة الحرجة، والتي صعُب عليه الوقوف

فيها بسبب التعذيب، كان سيعلمهم درساً في كيفية مواجهة قائد الهيتايروي للموت.

أعطى الضابط الأمر بإطلاق السهام، لكن فيلوتاس تمكّن قبل أن تخترق السهام قلبه، من أن يجد الوقت الكافي كي يفتح فمه ويصيح: "آلالالاي!".

ثم سقط على التراب، وما لبثت بركة من الدماء أن أحاطت به.

كان الأمير إمينتاس آخر من أُعدم في ذلك النهار، لكن عدداً كبيراً من الحاضرين وجدوا صعوبة في عدم البكاء عند رؤيتهم هذه النهاية المفجعة التي وصل إليها هذا النبيل الشاب والشجاع، والذي حرمه القدر أولاً من عرشه، وها هو الآن يسلبه حياته في أوج شبابه.

عاد الإسكندر إلى قصره، وكان متوتراً أكثر من أي وقتٍ آخر في حياته، وسيطر عليه القلق لأنه خسر رفيق طفولته. تألم أكثرَ لأنه لم يخسره في ميدان المعركة، بل أمام فرقة إعدام. عجز الإسكندر عن فهم كيف أن شاباً في مثل سنّه، وسبق له أن شاركه بسرور في مشروعاته كافة، والذي ائتمنه على أعظم المسؤوليات يمكن أن يصل، فجأة، إلى هذه الدرجة من الرفض والإنكار حيث يدير له ظهره تماماً، ويتآمر ضده.

لم ينتهِ موسم الخداع والدماء عند هذا الحد، بل جاء الآن دور اتخاذ قرارٍ أكثر خطورة.

دعا الإسكند إلى عقد مجلس الرفاق بعد مغيب الشمس، والذي كان سيُعقد تحت خيمة نُصبت منعزلة في مكانٍ ريفي. كان إيومينيس حاضراً. ولكن، غاب عن الاجتماع كلايتوس الأسود الذي أنيطت به مهمة دفن الرجال الذين أُعدموا. لم يقف حراسٌ على باب الخيمة، كما لم توضع فيها مقاعد، أو طاولات أو سجادات، بل كانت الأرض

خالـــية. وقفوا كي يناقشوا الأمور على ضوء مشعل واحد. لم يتناول أحـــد مـــن الحاضرين عشاءه، ولم تظهر على وجوههم سوى أمارات المرارة والإحباط.

بـــدأ الإسكندر الكلام: "لم تكن هذه عادتكم. لم يقل أي واحدٍ منكم أي شيء كي يُنقذ فيلوتاس من براثن الموت".

قال إيومينيس على الفور: "إنني يوناني، ولذلك لا يحق لي أن أقول شيئاً".

ردّ الإســـكندر: "أعرف ذلك، وإلا لكنت تكلّمت لصالحه علناً، كما فعلتَ في المجالس الخاصة. لكن الحكم صدر في هذا الوقت وأقرّته الهيـــئة العامـــة للمحكمة، كما تم تنفيذ حكم الإعدام. ما حصل قد حصل وانتهى".

سأل ليوناتوس: "إذاً، لماذا دعوتَنا إلى الاجتماع هنا؟".

قـــال إيومينيس: "فعلتَ ذلك لأن الأمر لم ينتهِ بعد. هل أنا محقّ؟ عندما يبدأ المرء أمراً ما ستتوجب عليه متابعته حتى النهاية المرة".

سأل بطليموس بقلق: "هل اكتشفتَ وجود متآمرين آخرين؟".

الـــتفت الملـــك نحوه هنيهة، لكنه بدا مرتبكاً، وكأنه يواجه الآن أصـــعب مهامّـــه وأبغضها، ثم بدأ الكلام بصوتٍ هادئ جداً: "اليوم، عندما عدت إلى جناحي بعد تنفيذ أحكام الإعدام، جلست إلى طاولتي وبدأت بالكتابة إلى القائد بارمينيون...".

كـــان ذكـــر ذلـــك الاسم كافياً بتذكيرهم بالمأساة التي بدأت تتكشف في أذهان الحاضرين، وأدركوا جميعاً طبيعة ذلك القرار الرهيب الذي يتعيّن عليهم أن يتّخذوه.

"بدأت بالكتابة إليه شخصياً كي أنقل إليه أخبار الحكم على ابنه فـــيلوتاس بالإعـــدام، وأن الحكـــم قد نفّذ بحسب رغبة الهيئة العامة

للمحكمــة العــسكرية. أردت أن أقول له إنني كملك قبلتُ تصويت المجلــس، لكــني كــرجل كنت أفضّل أن أموت على أن أوافق على إنــزال ذلك الألم الرهيب به". نظر إليه إيومينيس، فلاحظ الدموع التي انهمــرت فــوق خدّيــه وهو يتكلم. كانت معاناة الإسكندر في تلك اللحظــة تماثــل معاناة القائد العجوز. "وسرعان ما توقفت يدي عن الكــتابة. منعتني فكرة رهيبة من المتابعة، وهي التي دفعتني لاستدعائكم إلى هــذا المكــان، ولــن يغــادر أحد منا المكان قبل أن نتوصل إلى قرار".

قدّم إيومينيس مجدداً الجواب مرفقاً إياه بسؤال: "كيف سيستجيب بارمينيون؟ هذه هي الفكرة التي تعذّبك، أليس كذلك؟".

قال الإسكندر: "هذا صحيح".

قــال إيومينــيس: "أعطاك مسبقاً اثنين من أبنائه. هيكتور الذي ابتلعــته مياه النيل، ونيكانور الذي اخترق جسده سهمٌ قاتل. وها أنت تحــرمه الآن من الابن الثالث، وهو بكره، والابن الذي كان فخوراً به كثيراً، وذلك بعد أن عذّبتَه وأعدمتَه".

صــاح الإســكندر: "ليس أنا! منحتُه أعلى المراكز بعد مرتبتي. ولكــن حُكــم علــيه بسبب أفعاله". طأطأ رأسه برهة قبل أن يعاود الحديث مجدداً بصوت أكثر لطافة:

"إننا عالقون هنا بمفردنا وسط بلاد مجهولة لا حدود لها. وها نحن الآن علــى وشك الانطلاق مجدداً لتنفيذ مهمة أقسمنا على إتمامها. إن أصــغر خطــأ مــن جانبنا قد يخرّب كل شيء، وقد يمنح عدونا قوةً جديــدة، وهو عدو لم يستسلم بعد، والذي يحضّر - حتى وأنا أتكلم الآن - لقــتال حتى النهاية. إن خطأً كهذا قد يعني القضاء على مهمتنا بالكامــل. أتــريدون أن تروا رفاقنا مبعثرين، أو سجناء، أو يخضعون

للتعذيب، أو قتلى، أو يباعون كالعبيد في بلادٍ بعيدة بعد أن يُحرموا إلى الأبـــد من أمل العودة إلى ديارهم ذات يوم؟ أتريدون أن تتعرض بلادنا للغـــزو، وأُسَــرُنا للإبادة، وأن تتعرّض منازلنا للحرق على يد هؤلاء الأعـــداء؟ ألا تدركـــون أنه إذا سقط الإسكندر، فإن العالم المعروف بأكمله سيغرق في لجة اضطرابٍ رهيب؟ هل هذا ما تريده يا إيومينيس من كارديا؟ هل هذا ما تريدونه جميعاً؟ لا خيار لدي سوى الضرب من دون تردد، وأن أكبت كل مظاهر الحيرة، والأحاسيس، وكل... أنواع الرحمة".

فاضــــت عيناه بالدموع لدى كلامه، وكان صوته متهدجاً بفعل العواطـــف التي هبّت على روحه، وكان جميع رفاقه واعين لكل ذلك. شـــعروا الآن بالقـــوة العارمة التي كادوا أن ينسوها. بدا الأمر وكأن أنفـــاس الإسكندر قد اخترقت صدورهم، أو كأن دموعه تجري فوق خدودهم، أو كأن شكوكه وحزنه تعذّب أرواحهم بدورها.

نظـــر الملـــك مباشرةً إلى أعينهم واحداً تلو الآخر قبل أن يقول: "ومع ذلك، يتوجب علينا أن نفعل الأسوأ".

سأل إيومينيس بصوتٍ مرتعش: "أن نقتل بارمينيون؟".

أومـــأ الإسكندر: "ليس أمامنا طريقة أخرى كي نعرف ما يعتزم أن يفعله عند سماعه أخبار موت فيلوتاس، لكنه إذا قرّر أن ينتقم فسنقع جميعاً في ورطة. إنه يمتلك كل الأموال اللازمة لشراء المؤن، وهو يسيطر علـــى الطـــرقات، وعلى كل وسائل اتصالنا مع مقدونيا، وهي كلها ضـــرورية لإيصال التعزيزات التي نحتاج إليها بصورة مستمرة. إنه قادرٌ علـــى إغلاق البوابات من خلفنا ليتركنا وأقدارنا. حتى إنه يستطيع أن يتحالف مع بيسوس، أو مع أي شخصٍ آخر كي يبيدنا كلياً. أنستطيع أن نتحمل هذه المخاطرة؟".

قـــال كراتيروس: "بقي أمرٌ واحد. أتعتقد أن بارمينيون كان يعلم بأمـــر المؤامــرة، أو أنه متورطٌ فيها؟ كان فيلوتاس ابنه، لذلك يصبح افتراض أنه قد علم بها منطقياً".

"لا أعـــتقد ذلك. ولكن يتعيّن عليّ ألاّ أستبعد هذه الفرضية من ذهني. أنا الملك، ولا يمكن لأحد أن يساعدني في هذا الأمر. إنني أقف وحـــيداً عندما أتخذ مثل هذه القرارات الرهيبة. إن الراحة الوحيدة التي أجـــدها وســـط كل هذا الكرب تأتيني من الصداقة، فمن دونكم لن أكـــون مـــتأكداً من أنني سأستجمع القوة، والإرادة، والهدف اللازمة كلّهـــا لاتخـــاذ كلّ هذه القرارات. أصغوا إليّ الآن. إنني لا أرغب في تحمـــيلكم عبء الشعور بالذنب الذي أشعر به، وهو عبء يتعين عليّ أن أحملـــه بمفـــردي. ولكن، إذا كنتم تعتقدون أن ما أفعله ضرب من الجنون، وإذا كنتم تعتقدون أنني تخطيت كل الحدود المعقولة، وإذا كنتم تعتقدون أن ما أعتزم فعله عملٌ يصدر عن طاغية متوحش، فإنني أطلب إليكم أن تقتلوني الآن. يمكنكم بعد ذلك أن تنتخبوا الأفضل بينكم كي يحـــلّ مكـــاني لأنني لم أُرزَق بالأولاد. يمكنكم بعد ذلك أن تتفقوا مع بارمينـــيون كي تعودوا إلى الوطن". فكّ الملك درع صدره وتركه يقع أرضاً تاركاً صدره من دون حماية.

كان هيفاستيون أول من تكلّم: "أقسمتُ إنني سأتبعك إلى أقصى الحدود". والتفت بعد ذلك إلى رفاقه وقال: "إذا رغب أي واحد منكم في قتل الإسكندر، فسيتعيّن عليه أن يقتلني معه".

فكّ هيفاستيون درع صدره وتركه يسقط أرضاً لدى اقترابه من الإسكندر كي يقف إلى جانبه.

مـــلأت الدموع عيون الجميع، وخبّأ بعضهم وجوههم بأيديهم. تذكّـــر كراتيروس في تلك اللحظة ذلك اليوم البعيد عندما تنقلوا وسط

العواصـــف الثلجية في المعبر الذي يحيط به الجليد في إيليريا كي ينضموا إلى الإسكندر. لقد فعلوا ذلك حينها كي يُعلموا أميرهم المنفي أنهم لن يتـــركوه وحـــيداً أبداً لأي سببٍ من الأسباب. فصرخ بأعلى صوته الأجش: "يا جنود الإسكندر!".

ردوا جميعاً: "حاضرون يا مولاي!".

39

دخـــل إيمولبوس من سولوي مخزن الأسلحة القديمة التابع لقصر المــــرزبان. فالتفت نحوه الرجل الذي كان ينتظره فجأة ما إن سمع وقع قدميه. سأل الجاسوس: "مَن أنت؟ ومن أي فرقة؟".

ردّ الرجل: "اسمي ديمتريوس، من الفرقة الخامسة، الكتيبة الثالثة من جنود الهجوم".

قـــال إيمولـــبوس وهو يعرض عليه وثيقة تحمل النجمة الأرغادية عليها: "لدي أوامر لك من الملك. أتعرف ماذا تعني هذه؟".

"إنها الختم الملكي".

"بالفعل، وهي تعني أن الأوامر التي توشك على تلقيها بفعل هذه الـــسلطة تـــأتي مـــن الإسكندر مباشرة. إنها مهمة صعبة وتحمل معها مسؤوليات كثيرة، لكننا نعرف أنك لست غريباً عن مهامّ كهذه، كما أنك تصرفتَ دائماً بسرعة ودقة عظيمتين".

"ومن سيتعيّن عليّ أن أقتل؟".

حـــدّق إيمولبوس إلى عينيه مباشرة ثم قال: "القائد بارمينيون". لم يُظهـــر الـــرجل أيّ ردّ فعـــل واضح، عدا ارتجاف رموشه قليلاً. تابع إيمولبوس كلامه فيما كان يراقبه بعناية: "صدر هذا الأمر شفهياً فقط، ولا يعـــرف به أحد غيرك. ولا يعلم أحد، حتى الملك، بأن الاختيار قد وقع عليك كي تنفذ هذه المهمة. سنضع بتصرفك شخصين من الأدلاء، كما ستستخدم جِمالاً من إسطبلات ساتيبارزان. إن هذه الجِمال هي أقـــوى الحيوانات الموجودة في هذه المناطق وأسرعها. سيتعيّن عليك أن

تـــصل إلـــيه قبل أن تصله في إيكباتانا أخبار مقتل فيلوتاس". ثم ناول ديمتريوس لفافةً من ورق البردى وتابع كلامه: "هذه هي الوثيقة التي تثـــبت أنـــك مـــبعوث ملكيّ، لكنك تحتاج إلى معرفة كلمة السر المـــتعارف عليها بين الملك وبارمينيون كي تصل إليه، وتنقل رسالتك الشفهية".

"وما هي كلمة السر؟".

"إنها أغنية مقدونية قديمة كان الصغار يغنونها، لذلك يُحتمل أنك تعرفها: انطلق ذلك المحارب العجوز الأحمق إلى الحرب...".

بـــدا واضحاً أن ذلك القاتل استمتع بالمفارقة التي تحملها الأغنية. فأومأ وهو يُكمل كلمات الأغنية: "وسقط على الأرض!".

لم يُظهـــر إيمولبوس أي مشاعر من أي نوعٍ كان، وقال مؤكّداً: "بالضبط".

تابـــع كلامـــه قائلاً: "لن تنالَ مكافأة مقابل هذه المهمة، لكنك ستتلقى تالنتاً فضياً واحداً من جيبـــي الخاص".

أجاب الرجل: "لا حاجة إلى ذلك".

"بل ستستفيد منه. استخدِم خنجراً واغرِزه في صدره. إذ يجب ألاّ يموت أعظم جندي في مقدونيا من جرّاء جرحٍ يصيبه في ظهره".

أومأ ديمتريوس: "هل من شيء آخر".

"يتعـــيّن علـــيك أن تفاجـــئه، لأنه إذا أدرك ما يحدث فسيُقضى عليك. لا تغرنّك حقيقة أنه يبلغ السبعين من عمره. إذ لا يزال الأسد أسداً، حتى وإن كبُر في السن".

"سأكون متيقظاً".

"إذاً، انطلـــق الآن، فليس أمامنا وقت نضيّعه. سينتظرك الدليلان عـــند الإسطبلات مع الجمال. ستجد المال في إيكباتانا في معبد أشمون

الكالـــديين خـــارج البوابة الجنوبية مباشرة. يتعيّن عليك أن تغادر فور إتمامك المهمة، وألاّ تعود أبداً".

غادر الرجل من باب جانبـــي بحسب ما أُمر به، ونـــزل الدرج مـــتوجهاً إلى الإسطبلات، ثم انطلق على الفور باتجاه الشمس الغاربة. وقف الإسكندر شاحب اللون وساكناً وهو يراقب القاتل حتى اختفى عن ناظريه فوق سطح الصحراء المتماوج.

اســـتغرق ديمتريوس ستة أيام وخمس ليالٍ للوصول إلى زادراكارتا لم يـــنم خلالهـــا سوى ساعاتٍ معدودة كل ليلة، وكان يتناول طعامه وشـــرابه وهو مُعتلٍ جمله. كان يتبادل الجِمال مع الدليلين حينما يكون ذلك ممكناً وذلك كي يحافظ على سرعة ثابتة. كان من المدهش كيف أنهـــم تمكنوا من اجتياز كل هذه المسافة في فترة زمنية قصيرة وبحسب هـــذا النظام. وصلوا إلى إيكباتانا عند غروب شمس اليوم الثالث عشر، فتوجه ديمتريوس مباشرةً إلى مدخل قصر الحاكم.

سأله الحارس: "من أنت؟ وماذا تريد؟".

عرض عليه ديمتريوس الوثيقة التي تحمل الختم الملكي: "أنا مبعوث الملك بمهمة عاجلة. أريد أن أنقل رسالة شفوية إلى القائد بارمينيون".

"ألديكَ كلمة سر؟".

"بالطبع".

ردّ الحـــارس: "إذاً، انتظرني". دخل غرفة الحرس وتكلم مع آمِرِه الـــذي خـــرج علـــى الفور وتحدث إلى ديمتريوس مباشرة، ثم قال له: "اتبعني".

دخلا باحة تحتوي على أعمدة كثيرة، وبرزت في وسطها بئر كان الخـــدم يسحبون منها المياه للضيوف وللحيوانات، وكانوا يعبرونها من جانـــبٍ إلى جانـــب. صعدا درجاً في الجهة الغربية من الرواق المعمّد

يؤدي إلى الطابق العلوي. ثم انعطفا بعد ذلك إلى ممر يحرسه جنديان من البيــزيتاروي، ثم سارا إلى الأسفل قبل أن يصلا في آخر الممر إلى بابٍ مـــن دون حراسة. قرع الضابط الباب وانتظر. سُمع بعد وقتٍ قصير وَقعُ خطوات، وسأل أحدٌ: "من هناك؟".

أجاب الضابط: "الحرس. وصل مبعوثٌ من قِبَل الملك، وهو يحمل رسالةً عاجلة، وهي رسالة شفوية، كما يقول إنه يعرف كلمة السر".

فُتح الباب، فظهر رجلٌ في نحو الخمسين من عمره، ويكاد أن يكون أصـــلع. كان يحمل لوحاً تحت ذراعه اليسرى، وريشة بيده اليمنى. عرّف الـــرجل عن نفسه بالقول: "إنني مساعده في ما يتعلق بالمراسلات. اتبعني، لأن القائد سيراك على الفور. أنهى القائد الرد على جملةٍ من الرسائل وكان يستعد لغسل يديه قبل أن يتناول طعام العشاء. آمل أنكَ ستنقل إليه أخباراً حـــسنة. إنـــه يعاني كثيراً بسبب فقدانه نيكانور، كما أنه قلقٌ جداً بشأن الملك، وبشأن آخر ابن له على قيد الحياة. يا للرجل المسكين". وحدّق في أثناء كلامه إلى وجه القاتل محاولاً أن يخمّن طبيعة تلك الأخبار التي يوشك أن ينقلها إلى قائده، لكنه لم يستنتج قطّ أنها أخبار مطمئنة.

توقفا أمام باب آخر، فقال المساعد: "انتظر هنا. هناك أمر روتيني ينبغي لي معالجته قبل إدخالك إلى غرفة القائد".

كان ديمتريوس خائفاً من تعرّضه للتفتيش، ولذلك أمسك بخنجره مـــن تحت عباءته. مرّت بضع لحظاتٍ من الصمت إلى أن ظهر المساعد مجـــدداً في آخـــر الأمر حاملاً معه صينية عليها قطعة خبز، وإناء مليء بالملح، وكوب من الشراب.

"يـــرغب القائد بارمينيون في أن يتمتع كل الداخلين إلى جناحه بـــضيافته. يقـــول إن ذلـــك يجلب حظاً طيّباً". وأضاف بعد أن رسم ابتسامة صغيرة على شفتيه: "تفضّل وتناول الطعام بنفسك".

أرخى القاتل يده عن مقبض خنجره، ومدها نحو الصينية. تناول قطعة الخبز أولاً ثم غمسها بالملح وأكلها. ورشف بعدها بعض الشراب.

قال وهو يمسح فمه بظاهر يده: "اشكُر القائد بالنيابة عني".

أومأ المساعد ووضع الصينية على الطاولة، ثم قاد ديمتريوس إلى الباب الذي يؤدي إلى غرفة بارمينيون، وطلب إليه أن ينتظر لحظاتٍ قليلة. سمع الرجل صوتيهما من خلال الباب الذي كان منفرجاً بعض الشيء. وبعد ذلك، خرج المساعد، وأومأ في إشارةٍ منه إلى أن القائد مستعدٌ لاستقباله. عندها، دخل ديمتريوس وأقفل الباب وراءه.

كان بارمينيون جالساً إلى طاولته وظهر خلفه رفٌّ مليء بلفافات أوراق البردى، وكانت كل واحدة منها تحمل بطاقة صغيرة وعلامة معينة، بينما ظهرت على أحد جانبَي الرف لوحة عليها خريطة تمثّل مقاطعات الإمبراطورية الفارسية شرق نهر هاليس. وقف بارمينيون لتحية المبعوث ما إن رآه داخلاً الغرفة. لم يكن يرتدي غير عباءته العسكرية التي تغطي رجليه حتى الركبتين، بينما انتعل حذاءه المقدوني الذي يصل إلى منتصف ربلة ساقيه. كان القائد يتميز ببنيةٍ جسدية قوية بشكلٍ استثنائي، بينما كانت دروعه الحديدية والجلدية معلقةً على حاملةٍ خشبية أمام الجدار الموجود إلى يساره، وهي الحاملة التي يبدو أنها تزن مع درعه تالنتاً واحداً. كان القائد أعزل من السلاح، لكنّ سيفه ذا النصل الأثري القديم كان معلقاً من حزامه على الحاملة ذاتها.

أشار إلى أحد المقاعد وقال: "اجلس أيها الجندي".

ردّ القاتل: "لستُ متعباً".

قال بارمينيون: "لستَ متعباً؟ يبدو لي أنك ذهبتَ إلى آخر الدنيا وعدتَ منها. تبدو بحالةٍ فظيعة. تعالَ، اجلس".

أطاع ديمتريوس كي لا يثير الشبهات، وقرّر أنه سينتظر القائد كي يقتــرب مــنه، لكنه ما إن جلس حتى برز مقبض خنجره من عباءته بــشكلٍ يكفــي كي يكون ملحوظاً. فتراجع بارمينيون إلى الوراء نحو درعــه وأســلحته بشكلٍ غريزي، وسأل وهو يهم بتناول سيفه: "من أنت؟ قلتَ إنك تحمل كلمة السرّ".

وقــف ديمتــريوس على الفور وقال: "انطلق الجندي الأحمق إلى الحــرب..."، ووضــع القاتــل يده على مقبض الخنجر مجدداً. أرخى بارمينــيون ســيفه عــندما سمع هذه الكلمات، وتحرّك نحوه وقد ظهر الذّهــول والألم على وجهه، وراح يتمتم: "الملك... لكن كيف يُمكن لذلك أن يحصل؟".

غرز القاتل خنجره بسرعة في قلب بارمينيون، وراقبه وهو يسقط من دون إصدار أي صوت، بينما امتدت بركة من الدماء فوق الأرض حوله. راقبه يموت، ولكن من دون أن يلاحظ الحقد أو التمرد في عينيه بينما كانت الحياة تفرّ منهما، بل لاحظ الدموع فقط. بدا له أن شفتي القائــد كانــتا تهمسان بشيءٍ ما مع آخر أنفاسه... ربما كان... ربما كلمة السر تلك.

غــادر من خلال باب آخر إلى يمين الجدار، واختفى عبر ممرات ذلــك القصر العظيم، وما لبثت صرخة رعبٍ طويلة أن مزّقت هدوء الفترة التي تترافق عادةً مع مغيب الشمس.

*

وبعــد مــرور ثلاثة عشر يوماً، سمع الإسكندر أن بارمينيون قد اغتــيل، وبالرغم من أنه هو الذي أعطى الأمر شخصياً بذلك، إلا أن هذا الخبر كان بمثابة ضربة قاسية بالنسبة إليه، وكأنه أمِل أن يقوم أحد بتغــيير مــصيره المحتوم. عزل نفسه في خيمته بعد أن غرق في جوٍّ من

الكآبة لأيامٍ عديدة من دون أن يرى أحداً، ومن دون أن يتناول طعاماً أو شــراباً. قصدَته ليبتين أكثر من مرة، لكنها كانت تخرج في كل مرة والدمــوع تفيض من عينيها، وتجلس على الأرض خارج خيمته وهي تبكي تحت أشعة الشمس أحياناً، وتحت المطر في أحيان أخرى منتظرة إياه أن يسمح لها بدخول خيمته. أما أصدقاؤه فكانوا يأتون بين الحين والآخــر لعلــهم يلاحظــون أي علامة من علامات الحياة في الخيمة. ولكن، كل ما كانوا يسمعونه كان صوته الأجش والرتيب عندما كان يردّد أغنية الأطفال المقدونية القديمة، لذا، كانوا يغادرون بعد أن يهزّوا رؤوسهم.

ختم إيومينيس المجلد الرابع من اليوميات بهذه الفقرة:

في الــيوم السابع من شهر بيانوبيو قُتل القائد بارمينيون بناءً على أوامــر الملك، بالرغم من أنه لم يكن مذنباً بشيء. كان رجلاً شجاعاً خــاض كــل معاركه بشرف على الدوام، وكان يحارب مثل الشبان بالرغم من سنّه المتقدّمة. لم تكنْ تشوب سجلّه أيّ شائبة، ولن يتلطخ هذا السجل بأي شائبة، وهو سيعيش في قلوبنا إلى الأبد.

40

عـــاد الإسكندر أخيراً إلى القصر بمفرده سيراً على قدميه. لم يحلق ذقـــنه، وكانـــت خصلات شعره القذر متشابكة. فقَدَ الإسكندر قدراً كـــبيراً مـــن وزنه، بينما كان الغموض وعدم التركيز يكتنفان نظراته. ضـــمّته ستاتييرا بين ذراعيها مرحبةً به، وسعت إلى التخفيف من آلامه عندما كانت تجلس كل ليلة قرب قدميه لتغني له مع خلفية من الأنغام صادرة عن قيثارتها البابلية.

كـــان الـــصيف قـــد أوشك على الانتهاء عندما أمر الملك الجيش بالـــتجمع بعد أن حدّد له موعداً للمغادرة. تحدّث الضباط المسؤولون عن الـــزحف مـــع الأدلاء، كما حضّر الضباط المسؤولون عن المؤن العربات وحـــيوانات الحمـــولة. أمر قادة مختلف الكتائب فِرَقهم بالاصطفاف، وقادوهـــا في مسيراتٍ تدريبية تستغرق الواحدة منها أياماً عدة. كان القصد من هذه الدوراتً تعويد الجنود على تحمّل المصاعب والمشقّات التي تنتظـــرهم في الأوديـــة الضيقة لسلسلة جبال باروباميسوس. أثار استئناف هـــذه الأنشطة العسكرية حماسة كبيرة في أنحاء المعسكر لأن الجنود كانوا متلهفين كثيراً إلى مغادرة هذا المكان المريع الذي شهد أحداثاً مفزعةً، كما أرادوا قـــبل أي شيء آخر وضع حدٍّ لأيام الاسترخاء وسفك الدماء التي عاشـــوها على ضفاف هذه البحيرة التي تخلو من الحياة، والتي تربض تحت أسوار إيكباتانا، وهي المدينة التي باتت تحمل الآن اسم إسكندرية آريا.

اكتـــشفت الأمـــيرة ستاتييرا أنها حامل، فبدا أن هذه الأخبار قد حملـــت قـــدراً من العزاء للملك، حتى إنها أضفت عليه بعض الشعور

بالسعادة. سرّ أصدقاؤه بدورهم واعتقدوا أنهم سيحصلون بعد قليل على إسكندرٍ جديدٍ صغير يمشي بينهم. كان الزحف شمالاً شاقاً جداً بالنسبة إلى امرأةٍ في وضعٍ دقيقٍ كهذا، لذلك طلب إليها الإسكندر العودة والمكوث في أحد أجنحة قصوره. أطاعت ستاتيرا وتوجهت نحو زادراكارتا بنية الانضمام إلى والدتها في إيكباتانا أو سوسا.

وفي أحد صباحات أيام الخريف الصافية، تردّد نفير الأبواق كإشارة للمغادرة، واتخذ الملك مركزه على رأس جيشه بعد أن امتطى بوسيفالاس مرتدياً درعه الرائعة، أي كما كانت الأحوال أيام إنجازاته العسكرية المجيدة. سار إلى جانبه كلٌّ من هيفاستيون، وبيرديكاس، وبطليموس، وسلوقس، وليوناتوس، ولايسيماخوس، وكراتيروس، وكانوا على صهوات جيادهم وقد ارتدوا دروعهم المعدنية، واعتمروا خوذاتهم التي تماوجت تيجانها تحت أشعة الشمس.

ارتحلوا لأيامٍ وأيام في الوادي الذي يجري فيه نهر تصب فيه آلاف الروافد، والذي يمرّ قرب قرية تلو قرية، ولم يحدث أي شيء. تبادل النبلاء الفرس الذين كانوا يتبعون الجيش الحديث مع السكان الذين كانوا يعيشون في تلك الأماكن، وشرحوا لهم إن ذلك الشاب المتألق الذي يمتطي صهوة ذلك الجواد الأسود العملاق هو ملك الملوك الجديد. وكان يظهر بين الحين والآخر شخصٌ ما وهو يلوّح بغصنٍ من الصفصاف تحيةً له. كانت السماء في تلك الليلة صافية جداً، وبدا أن لمعان نجومها قد ازداد كثيراً، وكأن آلاف النجوم الجديدة قد وُلدت في هذه القبة السماوية المقوسة والعظيمة، وظهرت مثل أزهارٍ لا حصر لها في حقلٍ ربيعي. شرح لهم كاليستين أن الهواء في مثل هذا الارتفاع يكون أصفى بكثير بسبب عدم وجود الأدخنة والأبخرة التي تتكاثف في الأماكن الأقلّ ارتفاعاً، وهذا ما يسهّل رؤية النجوم كثيراً. لكنّ عدداً

من الجنود شعروا أن السماء تتغير مع التغيرات التي يلاحظونها في طبيعة الأرض المحيطة بهم، لكنهم ما عادوا يُدهشون لدى رؤيتهم أي شيء في هذه الأراضي البعيدة.

كانوا ينصبون الخيَم بمحاذاة ضفة النهر عند مغيب شمس كل يوم. كان منظر هذا الجمع الضخم من الجنود ومن يرافقهم من النساء، والتجار، والخدم، والعبيد، والحمالين، والرعاة، وأصحاب القطعان مع ماشيتهم، يشبه منظر مدينة تتنقل بأكملها.

وصلوا ذات يوم إلى مكان تحوّل فيه وادي النهر الذي تصب فيه آلاف الروافد إلى سهلٍ فسيحٍ جداً محاط بمعظمه بسلسلة كبيرة من الجبال شديدة العلو والشامخة نحو السماء، والتي كانت مكلّلة بالثلج، ولامعة تحت أشعة الشمس.

صاح إيومينيس متأثراً بهذا الجمال الطبيعي: "إنها الباروباميسوس!".

ومع ذلك كان كاليستين أقل تأثراً: "تبادلت مؤخراً سلسلة من الرسائل مع خالي أرسطو، وهو يعتقد أن الجبال في هذه المنطقة لا بد من أن تكون آخر امتدادٍ لسلسلة الجبال القوقازية، وهي أعلى سلسلة جبال في العالم".

أشار ليوناتوس إلى المعابر التي تتخلّل القمم المعلقة بين السماء والأرض، وسأل: "وهل يُفترض بنا أن نزحف إلى تلك المرتفعات العالية؟".

أجاب بطليموس: "بالضبط، لأن بيسوس موجود، من دون شك، في الجهة الأخرى من هذه الجبال مع جيشٍ من الباكتريين والسوغدانيين والسكاثيين. ولقد صمّم الإسكندر على القضاء عليه مهما كان الثمن".

رفع ليوناتوس يده إلى جبهته كي يحمي عينيه من وهج الشمس، ونظر مرة أخرى إلى سلسلة الجبال المهيبة التي يعجز المرء عن النظر إليها بسبب غطاء الجليد والثلج ناصع البياض، وما لبث أن هزّ رأسه، وتحرك قُدُماً.

أكّد الملك نظرية كاليستين الجغرافية، وتمكّن في غضون الأيام القليلة التالية من تحديد موقعٍ مثالي لتأسيس مدينة جديدة تقع وسط وادٍ عريضٍ وخصبٍ، حيث يتمكن قسم كبير من الناس الذين يرافقون الجيش في تحرّكه من الاستقرار فيها. أطلق الإسكندر اسم إسكندرية القوقاز على هذه المدينة، وأسكن فيها آلاف الناس مع حاميةٍ يبلغ عددها نحو مئتين من الجنود المرتزقة الذين فضلوا البقاء فيها على تحمّل عملية صعود الجبال الصعبة والتي تسبب الدوار.

هبّت نسائم الهواء الصافي، وبدت السماء زرقاء ساطعة فوق المروج الخضراء، التي يقطعها النهر وروافده الفضية، لكن أشباح أرتاكوانا التي بدا أنها تلاشت لبعض الوقت، وشبح بارمينيون الملطخ بالدم، عاودت الظهور مجدّداً. ففي أحد الأيام، قصد الإسكندر عند مغيب الشمس خيمة أريستاندر، وقال له: "أحضِر حصانك واتبعني".

أطاع الضالع أوامر الملك، وما لبث الرجلان أن تسلّلا خفية عن أنظار الحراس، وتحرّكا بسرعة وسط الظلمة التي بدأت تبسط جناحيها فوق الجبال، وما لبثا أن بدأا صعود منحدرات هذه الحواف العظيمة.

سأل أريستاندر: "لماذا جئنا إلى هنا؟".

ردّ الملك وهو يحدّق إليه بنظرةٍ محمومة من عينيه: "أريدك أن تستحضر لي شبح بارمينيون. أيمكنك أن تفعل ذلك يا أريستاندر؟".

أومـــأ الضالع، وقال: "سأجعله يحضر إليك إذا كان لا يزال يحوّم فـــوق هذه البلاد، لكنني غير متأكد من الوصول إليه من دون تعريض حياتي للخطر إذا كان قد ذهب إلى العالم السفلي".

"حلمتُ بأنني رأيته منذ ليالٍ قليلة. كان بمفرده سائراً على قدميه قـــرب ذلك المعبر. مشى وظهره مقوس وكأنه يحمل حملاً ثقيلاً، بينما امتـــزج شـــعره الأبيض مع بياض الثلج. رأيته وهو يلوّح لي بين الحين والآخر كي أتبعه... لوّح لي ذلك المحارب العظيم بيَده الخشنة. والتفت نحـــوي بغتةً، فرأيت الجرح الذي يحمله في صدره، لكنّ عينيه لم تحملا الحقد ولا الاستياء. لم يظهر في تينّك العينين سوى حزن لا حدود له. استدعه لأجلي يا أريستاندر، أرجوك!".

"أتتذكر المكان الذي رأيتَه فيه بالضبط في الجبل؟".

ردّ الملك، وهو يشير إلى ممرٍّ صخري مختفٍ تحت الثلج: "هناك في الأعلى".

"إذاً، خـــذني إلى هـــناك قبل أن يفاجئنا الليل وتدهمنا ظلمته فلا ندرك عندها الطريق التي يجب أن نسلكها".

انطلقـــا على صهوتي جواديهما في البداية، ثم ترجّلا عندما ضاق الممـــر وصعُبَ سلوكه. وصلا إلى خط بداية الثلج قبل انتصاف الليل، وتوقفا أمام حقلٍ أبيض يمتد أمامهما ليصل إلى القمم العالية.

سأل أريستاندر: "هل أنتَ مستعد؟".

ردّ الملك: "أنا جاهز".

"جاهزٌ لماذا؟".

"لكل شيء".

"وحتى للموت؟".

"أجل".

"إذاً، اخلع ثيابك".

فأطاع الإسكندر.

"استلقِ فوق الثلج".

استلقى الإسكندر على ظهره فوق الثلج، وراح يرتجف بينما كان يراقب أريستاندر وهو يركع قربه، ويهزّ كعبي قدميه صعوداً ونزولاً. راح يغني أهويدة غريبة أرفقها بين الحين والآخر بصرخات قصيرة بلغة بربرية غير مفهومة. تصاعدت أغنية أريستاندر نحو البعيد المتجمد. بدأ جسم الإسكندر يغرق أكثر في الثلج مع تصاعد النغمات إلى حدّ أنه أصبح مغموراً تقريباً.

شعر الإسكندر بأن آلاف الإبر الجليدية تخترق جلده، وأحسّ بأنها ستصل إلى قلبه، كما أن الألم ظلّ يتزايد مع مرور كل لحظة وسرعان ما أصبح لا يُطاق. وعند حدٍّ معيّن أدرك أنه يطلق سلسلةً من الصرخات الإيقاعية باللغة البربرية ذاتها التي يستخدمها أريستاندر، وما لبث أن لاحظ أن عينَي الضالع قد ابيضتا تماماً من دون أن تُظهرا أيّ تعابير، وكأنهما عينا تمثالٍ رخامي جردتهما مياه المطر من الألوان.

حاول أن يتكلم، لكنه عجز عن نطق أي كلمة. حاول النهوض، لكنه شعر بأنه لا يتمتّع بالقوة الكافية لذلك. حاول أن يصرخ مجدداً، لكن صوته اختفى بالكامل. كان يغرق في الثلج أكثر فأكثر، أو لعله كان يطوف في الهواء المتجمد والشفّاف فوق قمم الجبال... شاهد نفسه وكأنه في حلم. كان طفلاً يركض متنقلاً بين غرف القصر، بينما تحاول آرتميس العجوز اللحاق به لاهثةَ الأنفاس. وأخيراً شاهد نفسه في قاعة اجتماعاتٍ كبيرة، ووسط مستودع الأسلحة حيث اعتاد كبار قادة المملكة الجلوس إلى جانب والده. وقف هناك معقود اللسان أمام المحاربين العظماء وقد اختفوا داخل دروعهم اللامعة. رأى عند هذا الحدّ رجلاً بهيّ الطلة يتقدم

مـــن ممرٍّ جانبـــي، وكان شعره الأبيض الطويل يتماوج خلفه. كان هذا الرجل أهم جندي في المملكة، أي القائد بارمينيون!

حـــدّق إليه المحارب العجوز وقال مبتسماً: "ما هي تلك الأغنية أيهـــا الأمير الصغير؟ غنِّها أمامي مجدداً. ألا ترغب في أن تغنيها مجدداً أمام محاربك العجوز والأحمق الذي انطلق إلى الحرب؟".

حـــاول الإســـكندر أن يغنّي تلك الأغنية التي كانت تدفع جميع الحاضرين إلى الضحك، لكنه لم يستطع بسبب تلك الكتلة التي سدّت حنجـــرته سدّاً محكماً. تحرك كي يتراجع نحو غرفته، لكنه رأى أمامه الأرض المغطاة كلها بالثلج، وشاهد أريستاندر مجدداً راكعاً على ركبتيه وعيناه لا تزالان بيضاوين. حاول يائساً استجماع آخر قواه كي يصل إلى حـــيث كانـــت عـــباءته الـــتي خلعها فوق الثلج قبل وقتٍ قصيرٍ ويلمـــسها، لكـــنه ما إن بذل جهداً كبيراً كي يلتفت برأسه في ذلك الاتجـــاه حتى أحسّ بالشلل على نحوٍ مفاجئ بسبب الصدمة التي سبّبتها لـــه رؤيـــة بارمينـــيون أمامه. كان شاحباً تحت ضوء القمر، ومغلفاً بدروعه، ومعلقاً سيفه المهيب إلى جانبه.

فاضت عينا الإسكندر بالدموع عندما تمكّن من أن يتمتم: "أيها المحارب... العجوز... الشجاع... سامحني".

حـــرّك بارمينيون شفتيه قليلاً راسماً ابتسامة حزينة وأجاب: "إنني مع أولادي الآن، وهـــا قد عدنا لنجتمع معاً. وداعاً أيها **الإسكندر**. سأغفر لـــك ما فعلته بـــي عندما نشاهد بعضنا مجدداً، لكن تلك اللحظة لم تعد بعيدة". وتحرّك مبتعداً ببطء فوق الثلج النقي ثم اختفى بين الظلال.

انـــتفض الإسكندر فجأة مستعيداً وعيه. ورأى أريستاندر واقفاً أمامـــه حاملاً عباءته، ثم قال له: "بسرعة! تغطى! تغطى بالعباءة! لقد شارفتَ على الموت".

تمكّـــن الإســـكندر من الوقوف، ثم تدثّر بعباءته، وما لبث دفء الصوف أن أعاد الحياة ببطء إلى جسده.

سأل أريستاندر: "ماذا حدث؟ استخدمت كل القوى المتاحة لي، لكنني لا أتذكّر شيئاً".

"رأيـــت بارمينيون. كان مرتدياً دروعه، لكن لم تظهر عليه أيّ جروح. ابتسم لي". أحنى رأسه لدى كلامه. "لعل كل ذلك كان مجرد وهم".

قال الضالع: "مجرد وهم؟ ربما لا. انظر".

التفت الإسكندر، فرأى صفاً من آثار الأقدام على الثلج، والذي انتهى على بعد مسافة قريبة منهما. بدا المشهد وكأن أحداً قد سار في ذلـــك الاتجـــاه واختفى تماماً. ركع الملك ولمس آثار الأقدام بأطراف أصابعه، ثم التفت نحو أريستاندر بنظرة ملؤها الدهشة، وقال: "إنها آثار حذاء مقدوني ثقيل... ونعلين مليئين بالمسامير. آه! هل هذا ممكن؟".

حـــدّق الضالع إلى الأفق البعيد قبل أن يقول: "دعنا نعود الآن. تأخـــر الـــوقت. إن النجوم التي أمّنت لنا الحماية حتى الآن سرعان ما ستختفي متلاشيةً أمام ضوء الصباح".

41

احتفل الإسكندر بتدشين مدينته الجديدة بشعائر وأضحيات بسيطة أعلن بعدها عن إقامة مسابقات رياضية، وألعاب مختلفة، ومسابقة شعرية كانت ستُقام فوق منصة كبيرة. سعى الممثلون الذين يقدمون مسرحيات التراجيديا إلى تمثيل أدوار صعبة كي ينافسوا بها تيسالوس الأسطوري. وبدا أن هواء المرتفعات قد أضفى طابعاً أكثر مهابة وقوة على صوت ذلك الممثل العظيم.

كان أبرز عملٍ قُدِّم على خشبة المسرح من ضمن مسرحيات التراجيديا هو مسرحية **سبعة ضد طيبة** وهي المسرحية التي مثّل فيها فنان شاب من ميلاسا دور تيديوس بواقعية مذهلة عندما غرز أسنانه في جمجمة ميلانيبوس. لكن جائزة أفضل تمثيل ذهبت مرة أخرى إلى تيسالوس عن دور المدافع عن **أجاممنون**، والذي أدّاه بشكلٍ رائع.

استمرت الاحتفالات سبعة أيام. وفي اليوم الثامن، انطلق الجيش نحو المعبر في زحفه وراء مجموعةٍ من المرشدين المحليين. وصل الجيش بعد أن توقف مرتين فقط إلى منطقة تعلوها طبقة كثيفة من الثلج. بدت هذه المنطقة مهجورة كلياً. وكانت الممرات التي تؤدي إليها منحدرةً بشدة وصعبة التسلق، ولذلك اضطر الجيش إلى تحميل الحيوانات نصف حمولتها المعتادة، وهكذا أصبحت وحدة الحملة محدودة جداً.

قال المرشدون إن هناك قرى عدّة في الأعالي، وإنها تحتوي على مؤن، لكن الثلج أخفى كل شيء بشكلٍ تام حيث لم يظهر لها أثرٌ من أيّ نوعٍ كان. وتمثلت الطريقة الوحيدة لمعرفة أماكن هذه القرى في

الانتظار حتى حلول المساء. إذ عندها، يبدأ السكان في إشعال نيرانهم كي يطبخوا طعام عشائهم، وهكذا سيدل الدخان على مواقعهم. وبهذه الطريقة، تمكّن الجنود من ملء بطونهم، لكن سكان تلك القرى الفقيرة حُرموا من كل وسائل بقائهم على قيد الحياة واضطروا إلى مغادرة منازلهم الجبلية والانتقال نحو الأراضي الأكثر انخفاضاً حيث تنافسوا على الطعام مع مساكين آخرين.

استمر الزحف، لكنه كان منهكاً جداً حيث إن آثاره بدأت بالظهور على الجنود، وعانى كثيرون من تأثير العمى المؤقت الذي يسببه الثلج.

استدعى الإسكندر الطبيب فيليب إلى خيمته بعد غياب الشمس، وعرض عليه فقرة من كتاب **مسيرة العشرة آلاف**، وقال له: "يروي زينوفون أنه عانى مع رجاله من المشكلة ذاتها في ثلوج أرمينيا، وقال إن عدداً كبيراً منهم قد فقدوا أبصارهم".

ردّ فيليب: "أعطيت الجنود الأوامر بأن يعصبوا أعينهم، وأن لا يتركوا في العصبات سوى فتحات صغيرة كي يروا من خلالها ما هو ضروري فقط. يساعد هذا التدبيرٍ على إنقاذ أبصار الجنود. لا يمكنني أن أفعل أكثر من ذلك، لأننا لا نمتلك ما يكفي من الأدوية لكل الرجال، لكنني أتذكر أن نيقوماخوس، معلمي القديم، والرجل الذي أشرف على ولادتك، قد استخدم الثلج من أجل شفاء تمزق الأنسجة، بالإضافة إلى منع حدوث النزيف أو إيقافه. أجريت بعض التجارب على جنودنا، وكانت النتائج مشجعة. نستطيع أن نقول إنّ الدواء موجود في المادة التي سببت الداء".

لاحظ الطبيب بعد ذلك أن الإسكندر يبدو مجهداً: "وكيف حالك أنت يا مولاي؟".

"إن آلامــي مــن النوع الذي يستعصي على علاجاتك يا فيليب الطيّب، ولعل الشراب فقط ما يمكنه أن يخفّف منها... لم أفهم قطّ ما عناه والدي عندما قال إن المَلك يقف وحده حتى الآن".

"هل تتمكن من النوم؟".

"أجل... أحياناً".

"إذاً اذهب الآن، ونل قسطاً من الراحة، أتمنى لك ليلة هانئة".

"وأنتَ أيضاً أيها العطّار".

ابتــسم فيليب لأن الملك لا يستخدم لقبه الطبــي الكامل إلا إذا كان مسروراً بالتحديد من أحد جوانب عمله كطبيب. حيّا الإسكندر بإيماءةٍ صغيرة من رأسه، ثم اختفى في ظلمة تلك الليلة كثيرة النجوم.

وصــلوا في اليوم التالي إلى مشارف صخرةٍ كبيرة، كانت عالية وكثيرة الشقوق. تفحصها كاليستين لمدة طويلة من الزمن، ثم طلب من مجمــوعة من الأغريانيين مرافقته إلى أسفلها. لاحظ نتوءاً غامضاً شبه دائــري في أحــد جوانبها يشبه عشاً ضخماً، بينما ظهرت في الجهة الأخــرى، وفي منتصف سطح الصخرة بالضبط لطخات دائرية بلون الصدأ، ثم ظهر منخفض يجعل المرء يظن أنه شكل جسد إنسانٍ بأبعادٍ كبيرة. عندها، أرسل كاليستين بطلب أريستاندر على الفور.

قال له: "انظر. إنه شكلٌ رائع! لقد وجدنا الصخرة التي قُيّد إليها بــروميثيوس! انظــر إلى ذلك الشيء هناك". أشار إلى النتوء وأضاف: "يُحتمل أن يكون هذا عشّ النسر الذي أكل كبده، أما تلك". وأشار إلى اللطخات التي كانت بلون الصدأ: "فهي السلاسل التي أبقت تيتان سجيناً، وتلك هي الآثار التي تركها جسده... وإذا كان خالي أرسطو محقاً، وهذا ما أعتقده، فإن هذه البلاد هي القوقاز، لذا يحتمل أن تكون هذه هي صخرة بروميثيوس".

انتشرت هذه الأخبار بسرعة بين صفوف الجنود، لذا ترك عدد كبير منهم أماكنهم وتوجهوا لرؤية الصخرة، وكلما تطلعوا بتمعّنٍ أكبر كلما ازداد اقتناعهم بحقيقة ما قاله كاليستين. جاء تيسالوس بدوره، فألهمته الطبيعة الرائعة للموقع الذي يحيط به، وبدأ بتلاوة أبياتٍ من قصيدة بروميثيوس التي كتبها آيسخيلوس، وهي أبيات قيلت في رثاء تيتان الذي كان مقيداً إلى هذه الصخرة السكائية. ردّدت القمم العالية صوته الجهوري، وأرسلت كلمات الشاعر في أنحاء تلك البلاد البربرية البعيدة، والمأسورة أبداً بالجليد:

أيتها السماء الزرقاء الساطعة، ويا نسائم الرياح السريعة المجنحة، ويا مياه الأنهر، ويا ضحكات المحيط اللامتناهية. أيتها الأرض؛ أم الجميع، وأنت أيتها الشمس؛ ذلك الجرم السماوي الذي يرى كل شيء. أناديك! انظري إليّ....

وقف الملك جامداً بدوره، وأصغى إلى هذه الكلمات المهيبة، لكن كاليستين ردّ على تيسالوس بكلماتٍ كتبها هيفايستوس الذي أُجبر على تقييد تيتان بالسلاسل:

هكذا قف حارساً، فوق هذه الصخرة البائسة. قف منتصباً من دون نوم، ومن دون إحناء ركبتيك. ستصدر عنك تأوهات كثيرة، ونواح بلا جدوى، لأن قلب زيوس قاسٍ جداً، مثل قلب أي شخصٍ اكتسب قوة جديدة(*).

أثّرت هذه الكلمات في الإسكندر كثيراً، وكأنها موجهة إليه وإليه وحده.

في تلك اللحظة بالذات، طار نسر من إحدى القمم، وأطلق

(*) آيسخيلوس، ***بروميثيوس المقيّد*** (الأسطر 88 – 90، 31 – 35) ترجمة هيربرت واير سمايث.

صفيره الأجش عبر ذلك الفضاء الواسع الذي يخيّم فوقهم، وراح يحلّق ببطء فوق تلك الصحراء المغطاة بالجليد، فبدا الأمر وكأن زيوس ذاته هو من يردّ، بعد أن شعر بالإهانة نتيجة الكلمات غير المناسبة التي يُطلقها هؤلاء البشر الوقحون.

التفت كاليستين، ولاحظ نظرة الملك المذهولة، فسأله: "أليست هذه الأشعار رائعة؟".

ردّ الإسكندر: "إنها كذلك". وبعدها تابع المشي.

*

استغرق الجيش الزاحف سبعة عشر يوماً لعبور سلسلة الجبال العظيمة من جهةٍ إلى أخرى. واجه الجيش كل أنواع الصعوبات والمحن قبل وصوله إلى سهل سكاثيا. وتطلب الأمر التضحية ببعض الحيوانات من أجل عبور آخر قسمٍ من أقسام ذلك الحاجز الرهيب، لكن الإسكندر تمكّن في النهاية من التحديق إلى مقاطعة جديدة من مقاطعات مملكته الواسعة.

نظر الإسكندر من فوق آخر معبر جبلي إلى سهلٍ فسيحٍ، وشعر الجنود مجدداً بالدهشة لدى رؤيتهم هذا المنظر المتناسق واللامتناهي، لكنهم دُهشوا أكثر من منظر الجليد والثلج اللذين يجاوران هذه المناطق شبه الصحراوية الواقعة تحت أشعة الشمس الحارقة.

شعر الجنود مجدداً بأنهم جزءٌ من مشروع الإسكندر، وهذا ما دفعهم إلى الشعور بأنهم وسط تيار قوي، وأنهم مدفوعون بقوةٍ لا تُقهر، ولا يُمكن مقاومتها.

وشعر الجنود كذلك أنهم منهمكون مجدداً في مغامرة لا يُمكن مقارنتها مع أي شيء آخر، حيث إن أحداً في هذا العالم لا يستطيع الصمود فيها غيرهم، وأنهم وحدهم كانوا محظوظين بلقاء رجلٍ مثله،

هذا على افتراض أنه رجل. يُضاف إلى ذلك أن عدداً كبيراً من أولئك الــذين يتبعون الجيش تعودوا أن يروه من بعيد، ودرع صدره الفضيّة تلمع، فيما يخفق قربه العلم الأحمر ذو النجمة الفضية، وأصبحوا يميلون إلى لاعتقاد أنه رجل يفوقهم مقدرة.

مــا إن وصــل الجنود إلى السهل حتى انطلقوا نحو عاصمة ذلك الإقلــيم، وهي مدينة تُدعى باكترا، وتقع وسط واحةٍ خضراء مكّنتهم مــن الحصول على كل ما يُنعشهم. استسلمت المدينةً من دون قتال، لذلك ثبّت الإسكندر أرتاوزوس، مرزبانها الحالي، في منصبه. كان ذلك المــرزبان هو الذي رحّب بالملك في هذه المنطقة وأعلمه أن بيسوس قد انسحب بعد أن أحرق الأرض وراءه.

"لم يتــصوّر قــطّ أنك ستتمكن من الوصول إلينا بهذه السرعة، وأنــك ســتتمكن مــن عبور الجبال في غضون أيام متغلباً على الثلج والجــوع. ولم يتمكن كذلك من جمع جيشٍ كافٍ لمواجهة جيشك في مــيدانٍ مفتوح، لذلك عبَر نهر أوكسوس، وهو أحد أعظم الأنهر التي تنــبع من جبالنا. وهو موجود الآن وسط إحدى المدن المتحالفة معه، ولقد دمّر كل الجسور وراءه.

قرّر الملك عدم تضييع أيّ وقت بعد أن سمع هذه الأخبار، فانطلق بــزحفه مجدداً وهو ينوي عبور النهر حيث يكون ذلك ممكناً. وعندما وصــل إلى ضفة النهر استدعى دياديس رئيس المهندسين، وسأله: "كم من الوقت سيستغرق بناء جسر؟".

تــناول دياديس رمحاً من أحد الحراس، وغرزه في مجرى النهر إلى أبعــد عمــقٍ ممكن، لكن تيار المياه أماله حتى كاد يطفو مستوياً على سطح المياه. عندها، صاح ديايس: "إنها رمال! إنها مجرد وحول!".

سأله الملك: "ماذا يعني ذلك؟".

"يعـــني ذلك أن الدعائم لن تصمد، تماماً كما حصل مع مقبض ذلك الرمح". ونظر حوله قبل أن يتكلم مجدداً: "يُضاف إلى ذلك عدم وجود ما يكفي من الأشجار في الجوار".

"سأعيد عدداً من الجنود إلى الجبال كي يقطعوا أشجار التنوب".

هـــزّ دياديس رأسه: "مولاي. تعلم جيداً أن شيئاً لم يوقفني قطّ، وأنني لم أعتبر أي مشروع مستحيلاً، لكن هذا النهر يبلغ عرضه خمسة ســتاديات، وتـــيار مياهه قوي جداً، كما أن مجراه مكونٌ من الرمال فقـــط. لا يُمكـــن للـــدعائم أن تصمد، ومن دون الدعائم لا وجود للجسر. أنصحك أن تبحث عن معبر آخر".

تقـــدّم أوكسهاتري إلى الأمام، وقال بلغةٍ يونانية غير واثقة: "لا وجود للمعابر في هذه المنطقة".

بـــدأ الإسكندر في ذرع ضفة النهر جيئة وذهاباً تحت أنظار جميع جنود جيشه، بالإضافة إلى رفاقه المنذهلين. لفت نظره بعض المزارعين الذين كانوا منشغلين بالعمل في حقولهم المجاورة للنهر. كانوا يفصلون القـــش عـــن القصب مستفيدين من ذلك اليوم الذي نشط فيه الهواء، فـــيلقونه في الهـــواء بالرفوش والشُوَك. كان القصب يسقط في مكان قريب، أما التبن فكان يتماوج وسط الرياح إلى أن يستقر على أطرافٍ البـــيدر. كـــان منظراً جميلاً للمشاهدة، لأن دوامةً ذهبيةً كانت تُظهر القشّ الذهبيّ الملتمع في أثناء طيرانه في الهواء.

اقتـــرب ذلـــك الشاب الوسيم من المزارعين فتوقفوا عن عملهم، ونظروا إليه مندهشين عندما انحنى كي يلتقط حفنة من التبن.

ثم التفت نحو دياديس الذي كان قد انتهى في هذا الوقت من غرز بعض الأعمدة في قاع النهر في مكانٍ مجاور. فشاهد بعد قليل، الأعمدة وهي تطوف فوق سطح المياه.

قال الإسكندر: "عثرتُ على طريقة".

سأل المهندس وهو يفتح ذراعيه علامةً على عدم تصديقه ما سمعه: "وجدتَ طريقة للعبور؟ كيف؟".

رفع الملك يده وأفلت حفنة التبن على الأرض، وقال: "بواسطة هذه".

"أتعني بواسطة تبن القصب؟".

"بالضبط. رأيت ما يشبه ذلك في إستر. كانوا يملأون جلود الحيوانات بالتبن ثم يخيطونها ويضعونها في الماء. فيقوم الهواء المحبوس وسط التبن بجعل هذه الأكياس الجلدية تعوم لمدة تكفي عبورنا النهر".

قال المهندس: "لكننا لا نملك جلوداً تكفي كل جنودنا".

"كلا، لكننا نملك ما يكفي منها لتكوين ممر. يمكننا أن نستخدم جلود الخيَم... ما رأيك؟".

تطلع دياديس نحوه بذهول: "إنها فكرة عبقرية. يمكننا أن ندهنها بالشحم كي نزيد من مقاومتها لتسرب المياه".

دُعي مجلس الرفاق للانعقاد، وتم تحديد مهمة كل شخصٍ منهم: يقوم هيفاستيون بتجميع التبن، ويجمع ليوناتوس كل الجلود التي تُستخدم عادة لنصب الخيام، وسيطلب إلى السكان إعطاءه ما لديهم منها. أما ألواح آلات الحرب فستُستخدم كممر بعد أن يتم تثقيلها بالأحجار، وتربط بالحبال.

كانت كل هذه المواد جاهزةً بحلول المساء، وعندها عمد الإسكندر إلى تفقد جيشه، ولكنه عندما وصل إلى قدامى الجنود، ورآهم منهكين نتيجة عبورهم الطويل للجبال، نظر إليهم بتعاطفٍ شديد وكأنه يراهم للمرة الأولى. كانت أعمار كثيرين منهم تصل إلى الستين، بينما كان آخرون أكبر سناً، لكنهم حملوا جميعاً آثار المحَن التي

مرّوا بها من معارك، وندوب، وصعوباتٍ مختلفة. أدرك أنهم مستعدون كي يتبعوه مهما كانت الظروف، لكنه لاحظ خوفهم من ذلك النهر الكبير الذي سيحاولون عبوره بواسطة أكياسٍ من القش قبل أن يصلوا إلى سهلٍ صحراوي خالٍ ومترامي الأطراف.

نادى الإسكندر كراتيروس، وأمره بتجميع كل قدامى الجنود فوراً أمام خيمته بعد مغيب الشمس، لأنه يرغب في صرفهم من الخدمة. أطاع كراتيروس ونفّذ أوامره، وعندما تجمّع قدامى الجنود وسط المعسكر صعد الإسكندر إلى منصّةٍ وبدأ بالحديث.

"يا قدامى الجنود! لقد خدمتم ملككم وجيشكم بشرف، وتغلبتم على كل الصعوبات والمحن من دون أن توفروا أنفسكم. وتمكنتم من قهر أعظم إمبراطورية عرفها العالم حتى الآن. واليوم، ها أنتم قد بلغتم السّن التي يليق بالمرء أن يستمتع فيها بالراحة والامتيازات التي استحقها نتيجة خوضه المعارك بشرف. إنني أحرركم من كل التزاماتكم، وأريد أن أعيدكم إلى منازلكم. سينال كل واحد منكم مبلغ مئتي قطعة فضية لتكون هديتي الشخصية له، كما أنكم ستستمرون في قبض معاشاتكم إلى أن تصلوا إلى مقدونيا. أريدكم أن توصلوا تحياتي إلى بلدكم، وأن تعيشوا بسعادةٍ ما تبقى من أيامكم. إنكم تستحقون ذلك".

ختم الإسكندر كلامه، وتوقع سماع عاصفة من التهليل، لكن ما سمعه كان همهمة سرت بين صفوف الجنود، وهي من نوع الأحاديث المكتومة. تقدّم أحد قادة الفرق، وكان كبيراً في السن، وقال: "لماذا لم تعد تريدنا يا مولاي؟".

سأله الإسكندر: "ما اسمك أيها القائد؟".

"اسمي آنتينور".

"ألا تريد رؤية أفراد عائلتك؟".

"أريد أن أراهم... أجل، بالطبع".

"ألا تريد رؤية موطنك مجدداً، وأن تُمضي بعض الوقت هناك كي تأكل وتشرب، وكي تكون محطّ عناية".

"أريد ذلك حقاً".

"إذاً، يمكنكم أن ترحلوا جميعاً بكل سرور، وأن تدعوا الشبان الجدد الذين سيتجندون معنا يأخذون أماكنكم، لأنكم أتممتم مهمتكم".

لم يتحرك الرجل قيد أنملة.

"هل من شيء آخر أيها القائد؟".

"كنت أفكّر في أن اليوم الأول سيكون رائعاً بالطبع. سأتمكن من رؤية زوجتي وأولادي، وعدد قليل من أصدقائي، ومنزلي. سأشتري ملابس جديدة وطعاماً كثيراً، لكن الأيام التي ستليه تخيفني يا مولاي. هل أدركتَ ما أعنيه؟".

"أدرك ذلك تماماً أيها القائد. إن ذلك اليوم الذي تتحدث عنه يخيف كل الناس، بمن فيهم أنا، وهذا هو السبب الذي يدفعني إلى عدم التوقف... أبداً. يتعيّن عليّ أن أسرع كي أصل إليه وأتجاوزه".

أومأ الجندي المخضرم بالرغم من أنه لم يفهم كلام الإسكندر، وقال: "أنت على حق يا مولاي. إنك شاب ونحن مسنّون. حان وقت عودتنا إلى وطننا، لكن على الأقل...".

"على الأقل ماذا؟".

"على الأقل... أيمكنني أن أعانقك بالنيابة عن كل رفاقي؟".

عانقه الإسكندر بلهفة وكأنه يعانق صديقاً حميماً، ثم أنهيا العناق وسط ابتهاج الحاضرين، لأن قدامى الجنود شعروا جميعاً بأن الملك كان يعانقهم بعد أن تأثر كثيراً، كما شعروا بأن عيونهم تفيض بالدموع.

في تلك الليلة، كتب كاليستين رسالة مطوّلة إلى خاله أرسطو وسلّمها إلى أحد قدامى الجنود المغادرين الذي يسكن قرب ستاجيرا. تسلّم الرجل قطعة نقدية ذهبية، وهي من أولى القطع النقدية التي سكّها فيليب وتحمل صورة الإسكندر؛ الإسكندر الذي لم يعد موجوداً بعد الآن بنظر كاليستين، والذي لم يكن موجوداً منذ بعض الوقت. غادر قدامى الجنود عند الفجر، وقدّموا التحية بكل الأسلحة التي يحملونها، وبنفير الأبواق، وذلك في أثناء تحرّكهم نحو الغرب متّبعين طريق الجبال التي تقود نحو زادراكارتا.

كانت أصوات الطبول التي ترافق مسيرهم لا تزال تُسمع عندما بدأ ديادس بتجميع الجسر بأقصى سرعة ممكنة. وبدأ الجنود بعبور الجسر فور الانتهاء من تركيبه: عبر الهيتايروي أولاً مشياً على الأقدام، وقادوا جيادهم وهم يمسكون بأعنّتها، ثم تبعهم جنود المشاة.

عند حلول الظهيرة، عبر الجيش بأكمله إلى الجهة الأخرى لكن المهندسين تابعوا عملهم حتى حلول الظلام من أجل استعادة المواد المتواجدة على الضفة الشمالية من النهر. بدأ الجنود بنصب الخِيَم، وسرعان ما نفّذ أوكسهاتري وفرسانه جولة مراقبة بعيدة، ثم عادوا إلى الإسكندرية كي يُبلّغوا الملك أنهم عثروا على آثار قوائم جيادٍ كثيرة، وأنها لا بد من أن تكون عائدة للجيش الذي يرافق بيسوس الذي يدّعي أنه الملك الجديد.

دعا الملك رفاقه إلى عقد مجلس؛ بمن فيهم كلايتوس الأسود، وبعض قادة الكتائب الذين أبلوا بلاءً حسناً خلال العمليات التي جرت مؤخراً. سمح الملك لأوكسهاتري بالحضور، بالإضافة إلى بعض الضباط من فرسان الفرس، وهو الأمر الذي قابله كلايتوس وقادته بفتورٍ شديد.

بدأ الملك كلامه: "قدّم إلينا أصدقاؤنا الفرس مساعدةً ثمينة عندما وضعونا على الطريق التي يتبعها عدونا. إننا نعرف الآن إلى أين يتجه

بيسوس، ونعرف كذلك ما يجب علينا القيام به. يتعيّن علينا أن نمسك بــه الآن، وإلا لــن نــتمكّن من الإمساك به على الإطلاق. سيتولى بطلــيموس قيادة فرقة الطليعة بمعاونة سرية من الهيتايروي وفرقتين من جنود الهجوم، كما أن الملاحقة ستبدأ في أسرع وقتٍ ممكن. سيرافقك أوكــسهاتري مــع فرقته". أصدر بطليموس إشارة صغيرة تدل على الانــــزعاج، وهي إشارة تمكّن الإسكندر من ملاحظتها. "ألديك أي اعتراضٍ يا بطليموس؟".

جاء الرد على الفور: "ما من اعتراضٍ من أي نوعٍ كان".

"إذاً، اتفقــنا علــى أن تغــادر على الفور. يعرف الأدلاء الذين سيرافقونك الطريق؛ حتى وسط الظلام".

اعتمــر بطليموس خوذته، وغادر متبوعاً بكل الأعضاء الحاضرين في المجلس، لكن الأسود بقي جالساً بمفرده.

وســأله: "هــل كــان من الضروري إرسال هؤلاء البرابرة مع بطليموس. أما كنا نتحرك دائماً معتمدين على أنفسنا؟".

حــدّق الإســكندر إلى عينــيه بحزم ثم قال: "أجل. كان ذلك ضرورياً، ولسببين أيها الأسود. أولهما، إنهم يعرفون هذه المناطق معرفةً جــيدة أكثــر مــن غيرهم. وثانيهما، إنهم سيصبحون قريباً جزءاً من جيشنا، على المستوى ذاته مثل فرساننا ومشاتنا".

أحنى الأسود رأسه، وكأنه تلقى ضربةً قوية: "إنك ترتكب خطأً فظيعاً أيها الإسكندر".

"ولماذا؟".

"لأنــه سيتعين عليك، عاجلاً أم آجلاً، أن تختار... بيننا وبينهم". وغــادر بعد ذلك من دون أن يقول وداعاً. ولم تتأخر أبواق بطليموس عن عزف إشارة الانطلاق.

42

برهن أوكسهاتري، على الفور، أنّه لا غنى عنه. وكان قد ارتدى سروالاً جلدياً سكاثياً وصدرية من الجلد المقوى بصفائح معدنية، بينما علّق قوسه وحاملة سهامه على كتفه، كما علّق سيفه الهيركاني إلى جانبه. امتطى حصاناً مناسباً للسهول، أي أنه كان قصيراً ذا شعرٍ طويل، لكنه قوي جداً.

تأكد من أن كل جندي يحمل مشعلاً، ثم أضاء مشعله، وحدّق إلى عينَي بطليموس بنظرةٍ ذات مغزى، وكأنه يريد أن يقول له: "دعنا نرى الآن إذا كنتم أقوياء كما تُظهرون أنفسكم". وانطلق بعد ذلك بسرعة وهو يحمل مشعله عالياً كي يضيء الطريق خلفه، وليتمكّن الجنود الذين يتبعونه من رؤية طريقهم. كانت الطريق تبدو في أثناء تقدمهم واضحة المعالم، وكان اجتيازها سهلاً، مما يدلّ على أنهم يتقدمون بشكلٍ مرضٍ.

لاحظ بطليموس أن الفرسان الآسيويين لا يتوقفون أبداً، وحتى إنهم يتبولون وهم على صهوات جيادهم. فأعطى بطليموس أخيراً الأمر بالتوقف كي يمنح الحيوانات بعض الراحة، وكي يحصل الجنود على ساعاتٍ قليلة من النوم، لكن أوكسهاتري هزّ رأسه كي يؤكد على عدم موافقته، ثم انحنى إلى الأمام على رقبة جواده وغفا قليلاً، وهذا ما فعله الفرسان الهيراكانيون والباكتريون. أما الجنود الآخرون فقد جلسوا على الأرض، وغطوا أنفسهم بعباءاتهم. وبعد فترة، جلس البربري على صهوة جواده، وتناول عنانه ثم قال: "تأخرنا، لأن بيسوس لا ينتظرنا

الآن". أضـــاء مـــشعلاً آخر من بقايا مشعله الأول، ثم انطلق بسرعة متبوعاً برجاله. وتوقف الرجل قبل طلوع الفجر مباشرة. ترجّل وجمع بعـــض روث الجياد وعرضها على بطليموس. "إنها جديدة... سنتمكّن من القضاء عليهم في الغد".

ردّ أحـــد ضباط فرقة الطليعة: "هذا إذا لم نمت قبل ذلك بسبب الإجهاد".

صـــاح بطليموس الذي لم يرغب في أن يظهر أقل شجاعة: "إلى جيادكم أيها الرجال! دعونا نُظهر لهم معدننا!".

كان الكبرياء واحترام الذات كافيين لإيقاظ ما تبقى من طاقة في أطراف الفرسان المتعبين، لكن بطليموس لاحظ أن جروح بعض رجاله تنـــزف.

"يُحـــتمل أنـــك أدركـــتَ الآن السبب الذي يدفعنا إلى ارتداء السراويل. هيا بنا، دعونا نتحرك الآن!".

بـــزغت الـــشمس بعـــد ذلك بوقتٍ قصير، فاستطالت خيالات الـــرجال عـــبر الـــسهل المهجور بالكامل. ظهرت كل الألوان المنسية والمحببة التي خبأها الظلام في تلك اللحظة من الهدوء والطمأنينة الشاملة. كانـــت الأرض رائعـــةً بالفعـــل، وظهرت باقات من أزهار الأقحوان الـــصفراء الـــبرية، ومجموعات من أزهار الأشواك الصغيرة بنفسجية اللـــون، بالإضـــافة إلى أجمات فضية اللون تناثرت هنا وهناك، والتي لمعـــت تحت أشعة الشمس، فظهرت ألوانها المغرية واضحة وبدت مثل الجواهـــر المتناثـــرة على الأرض الرملية. وفي نقطة محددة، التقى الجنود قافلة طويلة من الجِمال العملاقة ذات الشعر الكثيف، وذات السنامَين، وهـــي الجمـــال التي تُدعى الباكترية والتي ملأت سكون ذلك الصباح بأصواتٍ غريبة وحزينة.

شـــرح أوكسهاتري ضاحكاً: "إنهم في طريقهم إلى سميرنا. أتريد الذهاب معهم؟".

هزّ بطليموس رأسه، وأومأ إلى البربري كي يُكمل طريقه. كانت عيناه متعبتين نتيجة الإجهاد فانتشرت حولهما البثور، لكنه كان يفضّل المـــوت على أن يطلب فترة استراحة. ومع ذلك، توقف بعض رجاله بيـــنما انهار آخرون على الأرض نتيجة الإجهاد، فتركهم حيث سقطوا بعدما قرر أنه سيستعيدهم في طريق عودته.

في هذا الوقت، كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في كبد السماء بينما أصبحت الحرارة لا تطاق. وصلت أسراب من الذباب من أماكن مجهـــولة، وراحت تطن حول عيونهم محاولة أن تمتص بعض السوائل، بيـــنما راحت مئات من ذباب الجياد تُزعج جيادهم التي راحت تدق الأرض بحوافرها، وتصهل من الألم. لاحظ بطليموس أن الجياد الفارسية لم تتأثر كثيراً بهذه الحشرات بفضل شعرها الكثيف والشائك، بالإضافة إلى ذيولها التي تكاد تصل إلى الأرض، فقد كانت هذه الذيول طويلة بما يكفـــي لإخافـــة أي طفيلـــيات تقتـــرب منها. فكّر بطليموس في أن الإســـكندر ربمـــا يكـــون محقًّا بشأن القدرات التي يتمتع بها البرابرة ومعارفهم بهذه البلاد والسكان الذين يعيشون فيها.

اختـــرق صـــوت أوكسهاتري شروده عندما قال له: "هذه هي المدينة". أشار إلى سور كبيرٍ مشيّد بالأحجار الطينية، ويحيط بمباني هذه المديـــنة منخفـــضة الارتفاعِ ورماديةً اللون، كما أشار إلى أحد المباني الـــذي كـــان عالـــياً وبارزاً بشكلٍ يوحي بأنه مسكن الحاكم. أومأ بطليموس، وسرعان ما اصطفّ الفرسان على شكل قوس حتى يحيطوا بالمديـــنة، وهكـــذا شكلوا ما يشبه الحلقة، فلم يعد باستطاعة أحد من الـــسكان دخـــولها أو مغادرتهـــا. تفاوض أوكسهاتري مع قائد جنود

العــدو، وعــاد بعد قليل وأبلغ بطليموس: "فوجئوا عندما رأونا هنا، وشــعروا بالخوف. سيقوم اثنان من المرزبانات بتسليمها إلينا شرط أن ندعهم وشأهم".

"ومن هما هذان؟".

"سبيتامين وداتافيرن".

"وأين هما الآن؟".

"إنهما في المدينة، وبيسوس معهما".

فكّر بطليموس في الأمر قليلاً بينما كانت قطعان الخراف تعود مع رعــياها الذين اكتشفوا أن الطريق إلى المدينة مقطوعة، فبدأوا بالتجمّع خارج صفوف الجنود الذين غطّاهم الغبار الذي أثارته الحيوانات. جاء قرار بطليموس على الشكل التالي: "إننا نوافق. اطلب إليهم أن يبلغوك عــن المكان الذي سيجري فيه التسليم. سنترك معظم الجيش هنا كي نتجنب أي مفاجآت، وسنتابع طريقنا".

عــاد أوكــسهاتري وتحــدث مجدداً إلى المفاوضين، ثم أشار إلى بطليموس إلى أهم قد توصلوا إلى اتفاق، وهكذا سُمح لقطعان الخراف بالمرور. اندفعت القطعان مع رعاها من خلال البوابات المفتوحة. وبعد ذلــك، عجّــت الأســوار بالــناس من الرجال والنساء، ومن الكبار والــصغار، وكلهم يريدون رؤية الدايوا الذين لبسوا دروعهم المعدنية، واعتمــروا خوذاهم ذات التيجان، وامتطوا جيادهم الضخمة بدروعها اللامعة. راحوا يشيرون إلى الجنود، كما أشاروا إلى الجبال المتوردة بنور الشمس الغاربة، وكأهم أرادوا القول إن هؤلاء الرجال قد نــزلوا من أعاليها مثل الطيور المفترسة.

أبلــغ أوكــسهاتري بطليموس شروط الترتيبات المتفق عليها. إذ كان سيتم تسليم بيسوس ليلاً في مكانٍ يبعد ثلاثة ستاديات عن المدينة.

وستعمد مجموعة من الفرسان إلى تسليم السجين عند حلول الظلام، بينما يقوم سبيتامين وداتافيرن بالانسحاب عبر البوابة الشرقية التي ستبقى مفتوحة لهذا السبب بالتحديد.

ردّ بطليموس: "قل لهم إننا موافقون". قال ذلك بعد أن ظن أن أوامره تقضي بالقبض على بيسوس بمفرده من دون أسر المرزبانَين الآخرَين، وهكذا سمح لرجاله بتناول الطعام والشراب، وهم جالسون على الأرض. وأعطى أوامره بعد ذلك بإبقاء البوابة الشرقية مفتوحة ما إن يحل الظلام.

وسأل بشيء من القلق عندما تحركوا نحو المكان المعيّن: "من يضمن أنهما سيحترمان الاتفاق؟".

ردّ أوكسهاتري: "تركتُ مجموعة من رجالي عند البوابة الشرقية. إنهم جميعاً يعرفون بيسوس، وسيتعرفون إليه إذا مرّ عبر تلك الطريق".

توقف عندما وصل إلى مكانٍ رأى فيه شجرة آكاسيا ذابلة بمحاذاة الطريق، ثم التفت إلى بطليموس، وقال: "سيجلبونه إلى هنا، وكل ما علينا فعله هو الانتظار".

خيّم السكون على السهل الفسيح عند قدوم الظلام. ومع تقدّم الوقت، تصاعدت أصوات الصراصير التي تمازجت مع أصوات بنات آوى التي بدت وكأنها تأتي من المجهول وتختفي فيه مثلما تجيء. مرّت ساعة أو نحو ذلك قبل أن يُسمع أولاً نباح كلب، ثم سُمع بعد ذلك وقع حوافر جياد. تحرك أوكسهاتري، وكان أولَ من تكلّم: "إنهم في طريقهم إلينا". توتّر فجأةً، وبدا مثل حيوانٍ مفترسٍ ينتظر لحظة الانقضاض. ظهرت مجموعة من خيالات أشخاصٍ فوق السهل، وكانت عبارةً عن عشرة من الفرسان الآسيويين، أو نحو ذلك، بقيادة ضابطٍ فارسي يُمسك بسجينٍ مقيدٍ بالسلاسل. نفخ أوكسهاتري في

قعـــر مشعله المتوهج الذي كان يحمله، فاشتعلت ألسنة نيرانه. قرّبه من وجه السجين، وتعرّف إليه فانفرجت أساريره عن ابتسامة شريرة تشابه ابتـــسامة الذئاب. تراجع الفرسان الذين رافقوا بيسوس وابتعدوا، وما لبثوا أن اختفوا فوراً عن الأنظار.

أومـــأ أوكسهاتري إلى أحد رجاله كي يحمل مشعله، وأومأ إلى آخر كي يُبقي قبضته على السجين.

صاح بطليموس: "ماذا تفعل؟ إنه سجين الإسكندر!".

أجـــاب الفارسي وقد بدت نظرة شرسة في عينيه حيث لم يجرؤ بطلـــيموس على مواجهتها: "إنه سجيني أنا قبله!". ثم تناول من حزامه خنجـــره ذا النصل الحاد مثل الشفرة، واقترب من السجين الذي أطبق فكّيه استعداداً لكل الألم الذي سينـــزل به بعد أن وقع بين يدي أسوأ عدوٍّ قد يتوقعه.

قطـــع أوكسهاتري كل أربطة ملابس الرجل وتركه عارياً تماماً، وهو أكثر أمرٍ يجلب العار بالنسبة إلى رجلٍ فارسي. وبعد ذلك، أمسكه مـــن شعره وقطع له أنفه، ثم قطع أذنيه. تحمل بيسوس هذه التشويهات المـــريعة بـــشجاعة بطولية حقاً، ومن دون أن يبكي أو يصرخ، وبقي وجهه المشوه والمليء بالدماء مرفوعاً فوق جسده المتناسق، وكأنه تمثال يحتفظ بكل الكبرياء المثير والمرعب في الوقت ذاته.

صـــاح به بطليموس بعد أن ارتعب مما شاهده: "كفى! لن أتحمل هذا!". وقفز إلى الأرض، ودفع أوكسهاتري جانباً، ثم استدعى جراحاً، وأمره بتضميد جروح السجين كي لا يفقد قدراً كبيراً من الدماء.

لم يجد الأطباء طريقة لوقف نـــزف الدماء غير لفّ ضمادة حول وجـــه الـــسجين. أُجبر السجين بعد ذلك على السير كما هو، عارياً وحـــافي القـــدمين، فوق الطريق المليئة بأحجار الصوّان الحادة. راقبه

بطليموس بينما كان أعداؤه يجرّونه بحبلٍ مربوط حول رقبته، فبدا له أن هــذا المشهد يحاكي - ولكن بقبحٍ أكبر - مقطّعاً من **أوديب ريكس،** وهي تراجيديا سبق له أن شاهدها في مدينته عندما كان شاباً، وكانت تقدمها فرقة متجولة. فلقد ظهر أوديب هكذا، أي بضمادة لفّت حول رأسه بعد أن قلع مقلتَي عينيه بيديه.

ساروا الليل بأكمله وطيلة اليوم التالي. التقوا الإسكندر وبقية الجيش في اليوم الثالث. تقدّم الملك محاطاً بأصدقائه وبمجموعة من الضباط الفرس، ثم حدّق إلى عدوّه أرتحششتا الرابع المزعوم. أما الفرس الموجودون والذين كانوا موالين للملك داريوس فقد بصقوا عليه وأوسعوه ضرباً على جروحه التي لا تزال تنــزف فتحوّل وجهه إلى قناعٍ دموي.

لم يقــل الإســكندر شيئاً لأنه كان في تلك اللحظة ينتقم لموت داريــوس، وشــعر الآن أنه حقاً الوريث الشرعي الوحيد لملك الملوك. انتظــر الملك حتى انتهى الجميع من تفريغ شحنات حقدهم، ثم نادى أوكــسهاتري. وقال له: "هذا يكفي. أعيدوه إلى باكترا، وأبلغوهم أن يعدوا له محاكمةً ريثما أعود. لا أريد أن ينــزل به المزيد من الأذى".

ثم الــتفت بعــد ذلــك إلى بطليموس قائلاً: "لقد أنجزتَ عملاً اســتثنائياً. قيل لي إنك تمكنت من قطع مسيرة تستغرق عشرة أيام في ثلاثة أيامٍ فقط. أيمكنك أن تتناول العشاء معي هذا المساء؟".

ردّ بطليموس: "سأفعل".

بــدأ الليل يرخي سدوله، فعاد الإسكندر إلى خيمته حيث كانت ليبــتين تعــد له حمّامه. كان يستعد للاستحمام عندما أُعلن عن قدوم طبيبه فيليب لزيارته.

قال له: "ادخل. كنت على وشك البدء بالاستحمام. هل حدث أن مرض أحد؟".

"كـــلا يـــا مولاي. إن الجميع بخير، لكنني أحمل لك أنباءً محزنة. تعرضت الأميرة ستاتييرا للإجهاض".

أحـــنى الإســـكندر رأسه، وسأل بصوتٍ مرتعش: "هل كان... صبياً؟".

ردّ فيلـــيب: "يبدو أنه كان هكذا حسب ما قيل لي". لم يطرح الملـــك أســـئلةً أخرى، حتى إن فيليب لم يتمكن من قول المزيد بسبب تلـــك الكـــتلة الكـــبيرة التي سدّت حنجرته، لكنه تمكّن أخيراً من أن يضيف: "أنا آسف... أنا فعلاً آسف". وغادر المكان بعد ذلك.

43

كانت أعداد الموكب الذي يرافق جيش الملك يتزايد على الدوام. وكان هذا الموكب يخيّم على بعد مسيرة أيامٍ قليلة من الجيش، فشكّل بالفعل مدينةً متنقلة مزوّدة بهيئة لتنفيذ العدالة، وبمسارح متنقلة كانت تعرض مسرحيات شعبية محلية، بالإضافة إلى مسرحيات الملهاة والتراجيديا المأخوذة من الأرشيف اليوناني، هذا بالإضافة إلى المخازن التجارية التي كانت تبيع وتشتري مختلف أنواع السلع.

وازدادت العلاقات التي أقيمت بين الجنود المقدونيين وفتيات القرى مع تزايد أعداد الموكب، فنتج عن ذلك ولادات أطفال من أعراقٍ مختلفة. كان الملك بالنسبة إلى كل هؤلاء الناس شيئاً لا يرقى إليه، وذلك بسبب مظهره، وبسبب جبروته ومنعته، وكذلك بسبب قدرته على التغلّب على كل المعوقات الطبيعية بدءاً من أعلى الجبال إلى أغزر الأنهار مياهاً، وأكثرها سرعة.

أدرك الإسكندر، مع كل ذلك، أن هذا الموكب سيشلّ جيشه في النهاية، وسيعيقه عن الحركة، وسيتسبب في إبطاء ردّ فعله في حال اضطر إلى الرّد على أي هجومٍ محتمل. لهذا السبب، قرر أن يعيد قسماً من جيشه مع كراتيروس إلى ضفاف نهر الأوكسوس من أجل تأسيس مدينة جديدة تحمل اسم **إسكندرية**. أسكن الإسكندر بضعة آلاف من الناس في هذه المدينة، بالإضافة إلى أربعمئة جندي وكانوا من بين الذين أنجبوا أولاداً من النساء اللواتي كنّ من ضمن الموكب. وأمر الإسكندر بتنظيم مجتمع هذه المدينة بحسب دساتير المدن اليونانية، ونظّم لها مجالسها وقضاتها.

بعد ذلك، انطلق الملك مجدداً في زحفه شمالاً، وعبرَ بلاداً كانت قاحلةً بمعظمها، وذلك إلى أن وصل إلى ضفة أحد روافد الأوكسوس، والذي يسميه المواطنون المحليون **الأكثر شرفاً**، وهكذا قرّر اليونانيون أن يطلقوا عليه الاسم ذاته: بوليتيميتوس. كانت المدينة الجميلة التي تطلّ على النهر تدعى **سمرقند**، وكان السوغديون، واللسكاثيون الآسيويون يرتادونها من مختلف المناطق التي لا نهاية لها وراء النهر، وهم الذين كانوا يجلبون معهم بضائعهم إلى سوق المدينة، والتي كانت تشتمل على الجلود، والماشية، والأحجار الثمينة، وتبر الذهب، وأحياناً بعض العبيد الذين كانوا يُسرقُون من بلادٍ بعيدة. وكانت القوافل التي تأتي من الهند عبر المعابر الجبلية تمرّ من خلال هذه المدينة كذلك.

تحرّك الإسكندر من تلك المدينة شرقاً نحو أبعد نقطة وصلها الفرس في ذلك الاتجاه، نحو مدينة أسسها سيروس العظيم بنفسه على ضفاف نهر جاكزارت، وحملت اسم **قورشكات**، التي تعني كريوبوليس. كانت المدينة في تلك الفترة معقلاً قوياً لمجموعةٍ من المتمردين من أصدقاء المرزبانَين سبيتامين وداتافيرن، وهما اللذان سلّما بيسوس إلى بطليموس، واللذان صمّما على قيادة مقاومة من أتباعهما ضد نظام الحكم الجديد.

كانت المدينة محمية بحصنٍ قديم مشيد بواسطة أحجار غير منتظمة، والتي نحتتها الرياح ومياه الأمطار وجعلتها تتآكل، كما شُيّدت فوقه بعض أبراج المراقبة الخشبية. أحاطت بهذه المدينة سبع مدن أصغر منها. استغرق إخضاع هذه المدن الواحدة تلو الأخرى مدةً تقلّ عن الشهر الواحد، وأُجبرت هذه المدن في النهاية على قبول تواجد حامياتٍ مقدونية فيها.

*

قــرّر الإسكندر الاحتفال بانتصاراته بإقامة مأدبةٍ كبيرة، وأرسل دعوةً شخصية إلى رفاقه وكبار الضباط لحضورها.

رحّب بهم الملك جميعاً عند المدخل وقبّلهم على خدودهم الواحد تلو الآخر، ثم أدخلهم بعد ذلك إلى حيث رُتّب مكان الاحتفال بباحته المــستديرة، وظهرت الأكواب والمغارف. جلس الجميع في أماكنهم، وبعــد ذلك، وصل الضيوف الآخرون، فالتفت الحاضرون لمشاهدتهم عــند دخــولهم. دخل أولاً أوكسهاتري والنبلاء التابعون له مرتدين أزيــاءهم الوطنــية الرائعة، وجلسوا في الأماكن المخصصة لهم. برهن هؤلاء عن إخلاصهم بصورةٍ تدعو للإعجاب من خلال الهجمات على المدن المتمردة، لذلك قرّر الملك أن يكرّمهم بأن دعاهم إلى طاولته.

راقبهم الضيوف الآخرون بدهشةٍ كبيرة ثم ما لبثوا أن نظروا إلى وجــوه بعضهم بعضاً لكنهم امتنعوا جميعاً عن الكلام. كان الإسكندر أول مــن تكلّــم وسط هذا الجو من الحرج العام. "أسَرنا بيسوس يا أصدقائي، وقمنا باحتلال المدن المتمردة بفضل السرعة الاستثنائية لفرقة بطليموس، وبفضل مساعدة أصدقائنا من الفرس. سأعلن الآن عن قرارٍ مهــم. إنــي أنــوي أن أصرف الآن فرقة حلفائنا من قدامى فرسان التيــساليين. وســأحتفظ فقط بالشبان الذين قدِموا مع التعزيزات التي جاءتنا مؤخراً".

ســأل كلايتوس بدهشة بالغة: "أتريد أن تصرف التيساليين؟! لكن التيساليين أنقذونا من براثن الهزيمة في غواجميلا... أم أنك نسيتَ ذلك؟".

لم يقــل قائد التيساليين أي شيء. وكان يبدو أن الملك قد أعلمه بهذا القرار مسبقاً.

"لا أريد إبعادهم، لكنّ عدداً كبيراً منهم قد أصيب بالتعب، كما أن بعضهم يريدون العودة إلى عائلاتهم بعد أن خاضوا كل تلك المعارك

في تلـــك الـــسنوات، وبعضهم الآخر لا يشعرون بأهم قادرون على المخاطرة بمواجهة ضد اللسكاثيين".

ســـأل كـــراتيروس: "مواجهة ضد اللسكاثيين؟! وهل سنلاحق اللـــسكاثيين؟ لكـــن لم يسبق لأحد أن هزمهم. فَقَدَ سيروس العظيم حياته، وأُبيدَ جيش داريوس... ولا أحد يعرف عددهم بالضبط، وأين هـــم، ولا أحـــد يعرف أين تنتهي أراضيهم. يبدو الأمر وكأنه تقدمٌ نحو... الفراغ".

ردّ الإسكندر بهدوء: "يُحتمل أن يكون الأمر كذلك. وعلى كل حال، إنّ هذا ما أريد اكتشافه بالضبط".

قال هيفاستيون: "أنا معك". ولم يُضف كراتيروس شيئاً، بل بدأ متـــردّداً في تناول شيءٍ من لحم الخراف المشوي الذي كان يقدّم على الطاولة.

مـــرّت لحظات من الصمت الذي لم تخرقه سوى أحاديث الفرس التي تبادلوها بهدوء في ما بينهم.

كان كلايتوس هو من تكلّم أولاً، وطرح سؤالاً: "وكيف تعتزم التعويض عن الكتائب الثلاث القوية من فرسان التيساليين؟".

ردّ الملك وهو يحدّق إلى عينيه مباشرة: "سيصل ألفان من الفرسان الفرس إلى هنا، وقد تدربوا جميعاً بحسب الطرائق المقدونية، وقد أطلقتُ عليهم اسم *اللاحقين*".

أصـــابت هذ الكلمات الأسود بالشلل، وبدا الغضب واضحاً في عينـــيه. فوقف وقال: "وهكذا يبدو أنك لم تعد بحاجةٍ إلينا". ثم التفّ بعباءته بعد ذلك، وأسرع بالتوجه نحو الباب.

صاح الملك: "قف أيها الأسود! توقف! لا تتحداني بهذه الطريقة أيها الأسود!".

لم يكلّـــف الأســـود نفسه حتى عناء الالتفات في أثناء مغادرته. ووقـــف آخرون تاركين الطعام على الطاولات، وكان من بينهم قائد التيـــساليين، ثم قائدا الكتائب ميليجر وبوليبيرشون، وما لبث أن تبعهم الضباط الآمرون في فرسان الهيتايروي.

ســـأل الإسكندر وهو يلتفت نحو أصدقائه: "أترغبون في المغادرة بدوركم؟".

قال سلوقس، وهو الأكثر هدوءاً من بين كل الرفاق، والذي كان يبدو أحياناً الأكثر تهكماً: "لا تقلق لهذا السبب، فالأمر لا يستحق كل هـــذا القلق. فنحن الذين بقينا هنا، أقسمنا على أن نتبعك نحو أطراف الأرض. أمـــا الآخـــرون فهم أحرار بأن يفعلوا ما يريدونه، أي أننا لا نحتاج إليهم".

صـــاح ليوناتوس، وهو الذي لم يكن متأكداً قبل وقتٍ قليل من مـــوقفه من كل ما يسمعه: "أنت على حق! إن هؤلاء اللسكّاثيين من لحـــمٍ ودم وعظامٍ فقط... سبق لي أن رأيتهم، أتعلمون ذلك؟ يدفعون لهـــم في أثيـــنا للمحافظة على النظام العام، وللقيام بدوريات في المدينة حاملين العصيّ الكبيرة وأقواسهم متدلية فوق صدورهم. إنهم لا يبدون لي وكأنهم من نوعٍ فريد".

اقترب بطليموس منه وداعب شعره: "أحسنتَ يا ليوناتوس، أنت محـــقٌ تماماً. ولكن تذكّر أن هؤلاء اللسكاثيين المتواجدين هنا من معدنٍ أكثـــر صـــلابة. إن ما قاله لك كراتيروس حقيقة بسيطة: انتهى الأمر بسيروس بأن عفّر وجهه بالأرض عندما واجههم. ولقد أجبروا داريوس علـــى الـــركوع على ركبتيه، كما أن جيوشاً بأكملها قد اختفت إلى الأبد في أراضي اللسكاثيين اللامتناهية".

44

أُغـــدقت مختلف أنواع الهدايا على التيساليين عندما غادروا، كما أنهـــم تسلّموا مبالغ سخية لتغطية نفقات رجوعهم إلى الوطن، أي مثل ما حدث مع قدامى المحاربين الآخرين. فساعدت هذه الهدايا كثيراً على تخفـــيف استيائهم من الإسكندر، لكن عدداً كبيراً منهم قد تأثر لدى مغادرته. فقال أحد قدامى المحاربين الذي شارك في كل المعارك بدءاً من غرانيكوس وحتى أرتاكوانا للإسكندر بكل صراحة: "سمعتُ أنك تريد ضمّ البرابرة ليقاتلوا إلى جانب جنودك، وستسمح لبعض ضباطهم بأن يكونوا جزءاً من القيادة العليا. لا أعتقد أن هذا قرار حكيم من قِبَلك. ومـــع ذلـــك، يتعين عليّ أن أعترف بأننا كنا نتذمر في كل مرة بشأن سياساتك التي بدت بمعظمها نوعاً من الجنون، ولكن كان يتبيّن لنا في النهاية أنك كنت محقًّا.

إننا نريد العودة إلى عائلاتنا مجدداً، ورؤية مدننا وقرانا مرةً أخرى. وأقول لك بصراحة إننا لسنا متحمسين لفكرة ملاحقة اللسكاثيين عبر أراضيهم التي لا نهاية لها، والتي لا تنمو فيها أشجار الزيتون أو الكروم، كمـــا قيل لنا إن المرء لا يتمكن من رؤية منازل، ولو سار مسافة مئة يـــوم. إنـــني أتكلم الآن بالنيابة عن معظم رفاقي، وأقول إننا آسفون لتـــركك يـــا مولاي. سنفكّر فيك، إلى حدٍّ يمنعنا من النوم في بعض اللـــيالي، وأنت هناك في تلك الأراضي المهجورة محاطاً بالبرابرة من كل الجهات، لكنني أخشى أن لا شيء سيغيّر وجهة قَدَرك. كان قتالنا إلى جانبك تجربةً عظيمةً بالنسبة إلينا. كن حذراً أيها الإسكندر، ووداعاً".

استعرضهم الإسكندر على صهوة جواده بوسيفالاس، وحيّا كل جندي بمفرده مع ابتسامة، كما صافح أيدي الذين يعرفهم، أو الذين رآهم يحاربون بشجاعة في ميادين المعارك. كانت الدموع التي فاضت من عينيه على وجهه صادقةً بينما كان يشاهدهم وهم يغادرون، وذلك بعد أن انتظموا في صفوف يضمّ الواحد منها ثمانية جنود، وساروا تحت أشعة الشمس الغاربة التي نشرت ألوانها الحمراء فوق الأفق الغربي.

شهد اليوم التالي وصول أوائل فرسان الفرس، وهم الذين تدربوا على القتال بحسب الطريقة المقدونية. أما الفرق الوحيد الذي يميزهم عن غيرهم، عدا عن مظهرهم الجسدي وشواربهم الكثيفة وشعر رؤوسهم الطويل، فكان ارتداءهم السراويل، هذا إلى جانب عادتهم الفريدة في تحية الملك بالطريقة التي اعتادوها مع الملك داريوس، أي أنهم كانوا ينحنون أمامه ويرسلون إليه قبلةً عن بعد. أطلق المقدونيون واليونانيون على هذه الظاهرة اسم **بروسكينيسيس** أي السجود، كما اعتبروها فوراً عادةً بربريةً مقيتة تليق بالعبيد أكثر منها بالجنود، لكن الإسكندر تقبلها، وهكذا برهن مرةً أخرى عن أنه بات يعتبر نفسه الآن الوريث الشرعي للأباطرة الأخمينيين.

يقع نهر جاكزارت وراء كريوبوليس مباشرة، وهو يشكّل الحدود الشمالية للإمبراطورية الفارسية. تمكّن الإسكندر من الوصول إلى هذا النهر بعد مسيرة يومٍ واحد، وما لبث أن أقام المعسكر على ضفافه. وبعد مرور وقتٍ قصير، ظهرت مجموعة من فرسان اللسكاثيين على الجهة الأخرى. وكانوا يرتدون ملابس رائعة، ويحملون أسلحتهم. صاح هؤلاء بتحدٍّ واضح مطلقين إشاراتٍ تهديدية، وحتى إنهم أطلقوا بعض السهام.

وقف أحد الرجال، وكان قائدهم على ما يبدو، ويتميّز عن رفاقه بحجمه وشعره الطويل الذي ثبّته بشريطٍ من القماش الأحمر. وكان يرتدي سترةً ذات كمين طويلين، وسروالاً من القماش واللون نفسيهما، ويصنع حزاماً ذهبيًّا. كان صدره محمياً بدرعٍ صدرٍ ذات طبقات متعددة. أما ساقاه فكانتا محميتين على الطريقة اليونانية بدرعَي ساقين معدنيَّتين. تدلى سيفٌ من حزامه، وعُلِّق قوسٌ على كتفيه بينما كانت حاملة سهامه معلقةً على عنان حصانه. كانت لكلِّ جياد هذه المجموعة أغطية رأس من معدن منقوش، بالإضافة إلى رزمٍ من القطع الجلدية التي تحمي أسفل رقابها المزينة بقطع مهيبة من أوراق الذهب.

سأل الإسكندر مترجمه: "ماذا يقولون؟".

قال أوكسهاتري الذي كان يفهم لغتهم: "يقولون إنك وغدٌ وجبان، وإنه يتعيّن عليك أن تغادر على الفور بعد أن تدفع لهم جزية. ويقترحون مبلغ مئة تالنت من الفضة".

أغضب هذا الكلام الإسكندر كثيراً فامتطى صهوة بوسيفالاس، وتوجّه نحو ضفة النهر من دون أن يكترث بوابل الأسهم التي أطلقها اللسكاثيون نحوه. سعى ليوناتوس وبطليموس إلى حمايته بدرعيهما. فيما صاح الإسكندر: "لست خائفاً منكم! سأعبر النهر، وسألاحقكم إلى كل مكان؛ حتى ولو وصلت إلى شاطئ الأقيانوس الشمالي!".

سأل سلوقس بسخريته المعهودة: "أتظن أنهم فهموا؟".

ردّ الإسكندر: "يُحتمل أنهم لم يفهموا، لكنهم سيفهمون بعد وقت قصير. أبلِغ لايسيماخوس أن ينقل كل المنجنيقات إلى ضفة النهر، وأن يُبقي القصف المستمر عليهم. سنعبر في الغد إلى الجهة الأخرى، وسنؤسّس مدينة جديدة وهي **الإسكندرية البعيدة**".

*

وزّع لايسيماخوس عشرين منجنيقاً على صفّين بمحاذاة مياه النهر تماماً، وبدأ بإطلاق مقذوفاته. وما إن يُفرِغَ الصف الأول من المنجنيقات حرابه، حتى تُملأ منجنيقات الصف الثاني، حيث إن سيل المقذوفات كان من دون انقطاع. تمكنت المقذوفات من تحقيق إصابات مميتة. أُصيب العديد من اللسكاثيين، وهرب أولئك الذين لم يُصابوا إصاباتٍ مباشرة بعد أن ارتعبوا من رؤية هذه الآلات التي لم يروا مثيلاً لها من قبل. عندها، أرسل الإسكندر الأغريانيين، وأمرهم بقطع النهر سباحة، وما لبث جنود الهجوم أن ثبّتوا رأس جسرٍ على الضفة الأخرى، وتمكنوا من تعزيزها بحلول الظهيرة. بعد ذلك، بدأ ديادیس من لاريسا بإطلاق سلسلة من الطوافات المثبتة على الأكياس الجلدية المليئة بالقش والتبن، أي كما سبق له أن فعل في أوكسوس.

انتقل أفراد فرقة الطليعة إلى الجهة الأخرى عند مغيب الشمس، وقرّر الإسكندر إقامة معسكرٍ على الضفة الشمالية، بالرغم من تلقي أريستاندر إشارات سلبية عدة عند تقديمه الأضحيات.

ظهر الضالع عند حلول الظلام، وكان في حالة مزاجيّة سيئة حيث إنه فضّل عدم تناول طعام عشائه في الخيمة الملكية. في هذه الأثناء، تابع سائر الجنود عملية عبورهم النهر، وتألف هؤلاء من الهيتايروي، وسرية من فرسان الفرس التي تضم بمعظمها الميديين والهيراكانيين والباكتريين. أما من بقي من السكان القلائل على الضفة الأخرى فقد شاهدوا منظراً مذهلاً، وكان عبارةً عن صفٍّ لا نهاية له من الجياد والفرسان الذين كانوا يمضون في طريقهم عبر السهل. وشاهدوا كيف أن هذا الصف أنار أولاً حقول القمح، وسطح النهر الملتمع بعد ذلك.

وفي اليوم التالي، انشغل المهندسون بتحديد حدود **الإسكندرية البعيدة**. وبينما كانوا منهمكين في عملهم، ظهر فجأة آلاف الفرسان

في الأفــق الــشمالي، واصطفّوا في أوسع خط جبهة يُمكن للمرء أن يتصوره.

صـــاح لـــيوناتوس: "اللسكاثيون. إنه هجوم مباغت! إنه هجومٌ مباغت!".

صـــدحت الأبـــواق بإشـــارة الإنذار، وبينما كان جنود المشاة المـــسلحون تسلحياً ثقيلاً يتخذون أماكنهم في تشكيلات مربعة حول الحدود التي رُسمت حديثاً، ترجّل الفرسان في العراء أمامهم مباشرة.

سأل كراتيروس: "ماذا يمكننا أن نفعل؟".

تقـــدم أحد القادة التراقيين، وهو رجلٌ ذو خبرة قتالية كبيرة منذ أيام الملك فيليب، وسأل الإسكندر: "أيمكنني أن أتكلم؟".

لم يحـــوّل الملـــك بـــصره عن الخطر المحدق بهم والمتمثل بالجنود اللسكاثيين الذين كانوا يتقدمون عبر السهل، لكنه أجاب: "بالطبع".

"ســـبق لي أن حاربـــت ضد اللسكاثيين مع والدك في إستر، ولا أزال أتذكـــر تلـــك المعـــركة جـــيداً. إن أي شخصٍ يدخل مناطق اللـــسكاثيين ويتحـــرك بعيداً عن قاعدته، سرعان ما سيقع في ورطةٍ كـــبيرة. انظر إلى ذلك السهل الذي يمتد حتى نهر إستر، هذا عدا الأنهر الكـــبيرة، أي أنه يصل إلى حدود مقدونيا. وهؤلاء الرجال يتحركون فـــوق السهل مثلما تتحرك الأسماك في المياه". وأشار إلى المحاربين الذين كانـــت دروع صدورهم ذات الطبقات المتعددة تلمع تحت الضوء، ثم تابـــع قـــائلاً: "إنهم يتمتّعون بحسٍّ ممتازٍ في ما يتعلق بالاتجاهات حيث يستطيعون التنقل آلاف السناديات من دون رؤية أي شجرة أو كوخ. إنهـــم يـــصطفّون الآن أفقياً، لكنهم لن يهاجمونا بهذه الطريقة. فما إن نتحـــرك حتى يهاجموا على شكل دائرة من حولنا، ولكن من دون أن يقتربوا أبداً من مجال سهامنا، لكنهم سيقذفون وابلاً من السهام علينا.

ســيُجرح المــئات مــن جنودنا. وبالرغم من أن الكثيرين لن تكون جروحهم خطرة لكنها ستكون كافية لتعطيلهم عن العمل.

سيتــسبب هجومهم برد فعلٍ من قبلنا بالطبع، لكنهم لن يقاتلونا على الفور، بل سيتظاهرون بأهم ينسحبون، وذلك من أجل دفعنا بعيداً إلى أن يعــاودوا الظهــور مجــدداً بشكلٍ مفاجئ، أي مثل الأشباح. وسيبدأون بالمطاردة مجدداً بعد أن يطلقوا وابلاً من السهام كي يضعفونا أكثر. وعند هذه النقطة فقط، سيهاجموننا بشكل أفقي، فيحصدون كل الناجين. وبعد أن يتأكدوا من موت أعدائهم، سيجرّدون الجثث من أي شــيء قــيّم، وسيقطعون رؤوس القتلى من أجل عرضها كغنائم، أو سيكتفون بسلخها كي يزينوا بها رماحهم، ومقابض فؤوسهم القتالية".

قــال ســلوقس، وهو يمرّر يديه من خلال شعره: "يا لهذه العادة المشوّقة".

نظــر الإســكندر حوله فرأى الأسود وهو يقف بعيداً ويراقب رجالــه وهم ينصبون خيَمهم. كان هذا القائد يبتعد دائماً عن طريق الملك منذ أن ترك طاولته في كريوبوليس، وكان يتحدث إليه باقتضاب شــديد، لكــنه في ظل هذا الظرف لم يستطع تجنّب الإسكندر عندما استدعاه بإيماءةٍ منه.

اســتخدم الأسود البروتوكول العسكري عندما وصل إلى حيث يجلس الإسكندر فردّ عليه قائلاً: "أوامرك يا مولاي".

ردّ الإســكندر: "ليس لديّ أوامر أصدرها إليك، لكن أريدك أن تــستمع إلى كلمــات هذا الصديق الذي حارب ضد اللسكاثيين في إستر".

قال كلايتوس: "أنا أيضاً حاربت هناك".

"إذاً، ماذا تقترح؟".

"أقترح أن ننسحب".

نظر الإسكندر مجدداً إلى خط الأعداء الضخم، وهو الذي وقف الآن جامـــداً وسط السهل: "أنت حرٌ كي تفعل ذلك، بالرغم من أنني أحـــتاج الآن إلى خبرتك وشجاعتك أكثر من أي وقتٍ مضى. ولكن، لم يسبق لي قطّ أن انسحبت أمام عدوٌ يصطفّ أمامي في ميدان معركةٍ مفتوح".

قال المحارب التراقي: "أعتقد أنّ لديّ اقتراحاً مفيداً".

لم يـــستطع الأســـود أن يبقى بعيداً عن هذه المناقشة المهمة: "ما هو؟".

"دعونا نرسل فرقة قوية إلى الأمام تكون مؤلفةً من ألف رجل أو نحـــو ذلـــك. يتعيّن علينا أن ندفعهم إلى جهة اليمين، وكأننا نريد أن ندفعهم إلى داخل الأراضي اللسكاثية، ونُبقي في الوقت ذاته أعيننا على تحرّك أعدائنا حيث نتواصل مستخدمين نظام التبديل. يُمكن أن يشتمل هذا النظام على تبديل فارسٍ واحد كل خمسة ستاديات. وإذا لم يتخذوا أي خطوة، فسنرسل فرقةً ثانيةً مزودة بخطٌ ثانٍ من الاتصالات...".

قـــال الإسكندر: "فهمت. عندها، سنعرف عندما يقررون البدء بالهجوم، وسنتمكّن من مهاجمتهم من الخلف بما بقي من قواتنا هنا".

أضاف التراقي: "سنفعل ذلك بأسرع ما يكون. يُضاف إلى ذلك أنـــه بالنظر إلى وضعنا، فإن هؤلاء الرجال سيكونون ذوي قيمة كبيرة بالنسبة إلينا". وأشار عند ذلك إلى فرقة الفرس.

كشّر الأسود، لكنه لم يقل شيئاً.

سأل بيرديكاس: "حسناً... هل أنت معنا أيها الأسود؟".

"أين سأذهب إذا لم أكن معكم؟".

سأله الإسكندر: "في هذه الحالة من سينطلق أولاً؟".

ردّ كلايـــتوس: "تعني من سيكون الطعم؟ هذه مهمتي أنا، لأنني الأصـــعب هنا". وأمر بإطلاق إشارة التجمّع لسريته، ثم أصدر أوامره بالـــتقدم ببطء. تجمّع الجنود في صفوف يضم الواحد منها أربعة جنود، وهكـــذا شـــكّل الهيتايروي كتلةً داكنةً ومتألقة ومنتظمة وسط ذلك الـــسهل الأخـــضر. سارت هذه الكتلة المتراصة وسط القرع الإيقاعي للطبول، وبدأوا بالاختفاء تدريجياً. ولكن، بقي فارس واحد على الأقل في مكـــانٍ مـــنظور. فوجئ فرسان اللسكاثيين بهذه المناورة، وبدا أنهم احتاروا في ما يجدر بهم القيام به.

قال بطليموس وهو يهز رأسه: "إنهم لا يتحركون... ولا يفعلون شيئاً".

قال الإسكندر آمراً: "دعونا نرسل سرية فرسان ثانية. اذهب أنت يا بيرديكاس، وتحرّك بأسرع ما يمكنك، لأنك كلما أسرعت بالانضمام إلى الأســـود كلمـــا كان ذلك أفضل، وخذهم معك..."، وأشار إلى الفرقة الفارســـية الـــتي كانـــت لا تـــزال تنتظر أوامرها في طرف الميدان. أومأ أوكسهاتري في إشارة منه إلى أنه فهم، وما إن صدحت الأبواق وتحركت فرقة بيرديكاس إلى الأمام، حتى تحرّك خلفهم بفرسانه المنتظرين في السهل.

لم يُظهر اللسكاثيون أي ردّ فعل هذه المرة كذلك. واستداروا بعد ذلك بشكلٍ مفاجئ، وكأنهم أطاعوا إشارةً مفاجئة، واختفوا وراء تلة في تلك المنطقة التي تكثر فيها المنحدرات.

عندها، أعطى الإسكندر باقي قواته أوامره بأن يصطفوا وينتظروا أيّ إشارة تدل على أي طارئ.

امـــتلأت الأجـــواء بـــضبابٍ غريب اعترض أشعة الشمس التي تـــسربت من خلاله، فنتج عن ذلك وهجٌ شفافٌ وحليبـــي، وهو ما قلّل الإحساس بالمسافة والعمق بشكل متزايد.

فجأة صاح ليوناتوس: "انظروا. إنها إشارات من المراقبين التابعين لنا! لقد بدأوا بالهجوم".

45

جمع الإسكندر كل الفرسان الباقين، ثم أوكل إلى بطليموس وإلى الآخـــرين قـــيادة فرق الاحتياط والسرايا، وانطلق بسرعة مع الفرقة الثانية التابعة لأوكسهاتري، وهي الفرقة التي تضم مئة من اللسكاثيين الـــذين كانـــوا يقاتلـــون مـــنذ بعـــض الوقت كمرتزقة مع الجيش الإمبراطوري.

فضّل الإسكندر ألاّ يتقدم ضمن مجال أنظار العدو، وحافظ على اتـــصالاته مـــع جيـــشه عـــبر المراقبين إلى أن تلقى تأكيداتٍ تفيد أن اللسكاثيين قد بدأوا القتال ضد بيرديكاس وكلايتوس.

سأل الملك: "ما هي طبيعة تشكيلاتهم القتالية؟".

"إنهـــا ليـــست تشكيلات بالمعنى الصحيح، لأنهم يدورون حول فرقنا، ويطلقون وابلاً كثيفاً من السهام. استخدم رجالنا دروعهم حتى الآن لحماية أنفسهم، لكنني لا أعلم إلى متى يمكنهم الصمود".

ردّ الإســـكندر: "حان الوقت بالفعل، لوضع حدٍّ لكل هذا". ثم نـــادى رفاقـــه، وقال لهم: "ستتحركون الآن قُدُماً بسرعة معتدلة حتى نحتكّ معهم، وما إن نصل إلى حيث يصبح بإمكانهم رؤيتنا حتى تصدر الأبـــواق الإشارة، وعندها سيفلت كلايتوس وبيرديكاس ورجالهما من الحلقة التي تحيط بهم، وسينتشر جنودهما خارجاً قبل أن يستديروا نحونا، بيـــنما نفاجئ نحن اللسكاثيين من الخلف بحركة الكماشة. وهكذا لن يجدوا لهم مخرجاً، وحتى في الجهات المفتوحة أمامهم. لا تأخذوا أسرى إلا إذا استسلموا، أما الآن، فإلى جيادكم!".

امتطى الإسكندر جواده السارماشي بني اللون، وسار إلى جانبه حامل العلم وكل الآخرين، وانتشروا على جبهةٍ واسعة فوق ذلك السهل الواسع وعلى أربعة صفوف.

ما إن ظهر اللسكاثيون بأزيائهم الساطعة ودروعهم ذات الطبقات المتعددة حتى أمر الملك أن تطلق الأبواق الإشارة المتفق عليها. وعلى الفور تقريباً، تمكن كلايتوس وبيرديكاس من جمع رجالهما على شكل وتد، وبدأا الهجوم إلى الأمام، فتمكن الرجال من الإفلات من الحلقة التي تحيط بهم، ثم انطلقوا بسرعة بخطٍّ مستقيم إلى أن خرج آخر رجلٍ منهم. انقسم الرجال بعد ذلك إلى قسمين حيث نفّذ رجال كل قسم استدارة واسعة قبل أن يلتقوا مجدداً في جبهةٍ واحدة، ثم استداروا وهاجموا بصفوفٍ متراصة برماحهم المخفوضة استعداداً لبدء القتال.

في تلك اللحظة بالذات، ظهر الإسكندر من الجهة الأخرى مع كل سرايا الفرسان التي كانت تنتشر استعداداً للهجوم. فوجئ اللسكاثيون في منطقة الوسط، فأجبروا على خوض معركة وجهاً لوجه ضمن حيزٍ ضيقٍ جداً لا يتيح لهم أبداً أي فرصةٍ للهرب. شعر المقاتلون بالحنق الشديد لأنهم حوصروا بهذه الطريقة وسط سهلهم مترامي الأطراف كالمحيط، أي كما تُحاصَر سمكة في شبكة، ولذلك سعوا إلى الخروج بكل الطرائق الممكنة، لكن الأرض كان منبسطة ومنتظمة جداً، حيث تمكّن المقدونيون من الحفاظ على سلامة جبهتهم بشكلٍ تام، واستطاعوا الاستفادة إلى الحد الأقصى من أسلحتهم الثقيلة.

حارب اللسكاثيون بعزيمة، وتكبدوا خسائر فادحة، لكنهم أدركوا عند الظهيرة أنهم يواجهون في حقيقة الأمر مجزرةً، ولذلك بذلوا

جهــداً أخيراً. تجمعوا معاً، وانطلقوا نحو ثغرةٍ صغيرة ظهرت في جبهة العــدو يتقدمهم قائدهم. وتمكّنوا بهذه الطريقة من الاندفاع من خلالها إلى السهل الواسع قبل أن يفروا.

صــاح الجنود المقدونيون صيحات النصر، ورفعوا أسنّة رماحهم نحــو السماء، لكن الملك ما لبث أن أوقفهم وقال لهم: "لم تنتهِ المعركة بعــد. يتعيّن علينا الآن أن نلاحقهم إلى قراهم حيث سنتأكد من أنهم سيتذكّرون الإسكندر وجنوده الهيتايروي إلى الأبد". وكان على وشك إعطاء الأوامر بالمغادرة عندما وصل مبعوثون من المعسكر حاملين معهم رسالة من قادة المشاة.

"مــولاي. أقــدم المــرزبان سبيتامين على تحريض السوغدانيين والباكتــريين، وهــو يقوم الآن بمهاجمة سمرقند. ويريد القادة معرفة ما يجدر بهم القيام به".

"اتــركوا حامية في المدينة الجديدة، ثم عودوا نحو سمرقند. سأصل إلى هناك ما إن أنتهي من المعركة هنا".

مــا إن غادر المبعوثون، حتّى بدأ الإسكندر بالزحف عبر السهل مجدّداً بقيادة أوكسهاتري. سار الجيش ببطء في هذا الوقت متتبعاً آثار أقــدام الفرســان اللسكاثيين الذين فرّوا من المعركة، وسرعان ما شعر الجــنود بالدهشة والرهبة إزاء الاتساع الكبير لهذا السهل الفسيح. لم يــروا شجرةً واحدة، ولا صخرة أو حجراً، ولم يشاهدوا تلةً أو مرتفعاً في هذه الأراضي، بينما كانت جبال باروباميسوس تعكس ألوان أشعة الشمس الغاربة الزهرية عند سقوطها على القمم المغطاة بالثلوج.

قــال بطلــيموس وكأنه يحدّث نفسه: "حاربت مدينتا خالقيس وارتــريا بشراسة مدة خمسين سنة للسيطرة على سهلٍ يبلغ طوله نحو ثلاثين ستاديا، ويقع في جزيرة يوبويا".

قال بيرديكاس موافقاً: "هذا صحيح تماماً. أما هنا فإن السهل يمتد علـــى مرمى البصر من دون أي عوائق، ومن دون وجود إشارات تدل على وجود سكان".

قـــال هيفاستيون: "ومع ذلك، لا يمكنهم الاختفاء هكذا، لأنهم ليسوا أشباحاً".

شرح أوكسهاتري الذي كان وراءهم على صهوة جواده: "إنهم مـــن الغجر، ويعيشون في عربات تجرّها الثيران. تعيش عائلاتهم في هذه العـــربات، أي زوجاتهم والعجائز والأولاد. ويعتمدون في غذائهم على الحلـــيب واللحـــم، كما يمكنهم الارتحال لأيامٍ وليالٍ من دون التوقف أبداً، لأن جيادهم تتمتّع بقدرات تحمّلٍ هائلة".

تذكّـــر الإســـكندر القـــصص التي رواها له والده عن معاركه ضـــد اللـــسكاثيين مـــا وراء نهـــر إستر، فسأل: "إلى أين تمتد هذه البلاد؟".

أجاب الفارسي: "لا أحد يعلم".

قال سلوقس: "بحسب ما يقوله بعض الناس، إنّ هذه البلاد تصل شمـــالاً إلى هيبربورنيو، وشرقاً حتى إسيدونيا التي لا يتناول سكانها إلا حليب الأفراس".

نظـــر ليوناتوس إلى تلك الأراضي السهلية المنبسطة، وقال: "ماذا يحدث لو أضعنا طريقنا".

قـــال لـــه سلوقس مطمئناً: "هذا مستحيل. إن الجبال خلفنا ونهر جاكزارت إلى يسارنا. أفضّل أن أعود على كل حال، وذلك بالنظر إلى الوضع في سمرقند".

تابـــع الإســـكندر ســـيره بصمت. وكانت هذه هي طريقته في اختـــبارهم، واختـــبار ولائهم، وصداقتهم، وتصميمهم على مواجهة

المجهول الذي ينتظرهم. اختفت آثار اللسكاثيين فجأة، وكأن الجياد قد نبتت لها أجنحة، وطارت نحو السماء.

صاح بيرديكاس: "بحق زيوس!".

ترجّل أوكسهاتري عن صهوة جواده وتفحّص الأرض. "لقد أقدموا على لفّ حوافر الجياد بحيث لا تترك، تقريباً، أي أثر على هذا العشب اليابس، لكن لا بد من أن اللسكاثيين التابعين لي سيقدرون على معرفة شيء ما".

قال الملك آمراً: "إذاً، دعونا نمضي".

تابع الإسكندر الزحف مجدداً إلى أن حلّ الظلام حيث عجز الكشافة اللسكاثيون التابعون لأوكسهاتري عن رؤية أي شيء. عندها، أمر الإسكندر نافخي الأبواق بإطلاق إشارة التوقف، وهكذا وضع كل جندي عباءته على الأرض، وتناول من كيسه قطعة خبزٍ صغيرة وبعض الحليب المخثر، بالإضافة إلى قوارير المياه، ثم جلسوا ليأكلوا أكثر الوجبات تقشفاً منذ وقتٍ طويل. ومع ذلك، ساد جوٌّ عميق من الطمأنينة في كل الأنحاء. كان القمر بدراً تقريباً، وبدأ بالبزوغ من خلف الجبال مضيئاً السهل الكبير، حيث انعكست أنواره على مياه الأنهر. ظهرت أكثر الكواكب التماعاً الواحد تلو الآخر في السماء الصافية لهذا الليل، والتي خلت من الغيوم. ولكن، شوهدت بعيداً، أي في اتجاه الشرق وفوق قمم الجبال، بعض ومضات البرق. وفي ما عدا ذلك كان السلام التام والسكينة يخيّمان على هذا العالم. تحلّق المحاربون الآسيويون في دائرتهم الخاصة بهم وتمكّنوا من إشعال النار.

بدأ هيفاستيون يشعر بالبرد، فسأل: "كيف تمكّنوا من ذلك؟ لم أرَ أي أثرٍ للنباتات أو أي شيء آخر لمسافة مئة ستاديا".

أجـــاب أوكسهاتري بلغته اليونانية الركيكة، وبملامح تدل على الاستياء: "لقد أشعلوا الروث".

رفع سلوقس حاجبيه قائلاً: "الروث؟".

"إنـــه روث الخراف، والأحصنة، والماعز. إنهم يجمعونه في كيس ويحرقونه عندما يجف".

"آه!".

"إننا نعتبر ذلك نوعاً من التدنيس، أي تدنيس النار. تصل عقوبة هـــذا العمل إلى الإعدام في بلاد فارس، لكن هؤلاء..."، تلفظ بكلمة تعني برابرة بالفارسية.

ســـأل الإسكندر كي يغيّر الموضوع: "ألا تعتقدون أن هذه وجبة شهية بالرغم من كل شيء؟".

قال هيفاستيون موافقاً: "عندما يضرب الجوع بنابه...".

"أما هذا المكان... فأنا لم أرَ شبيهاً له. لا توجد أماكن مسكونة في كـــل الاتجاهات ما بين هذا المكان والأفق". والتفت بعد ذلك إلى أوكسهاتري وقال: "ما رأيك؟ هل ستحظى الإسكندرية البعيدة بفرصة البقاء والنمو؟".

أجاب المحارب الفارسي: "إنها ستزدهر، وذلك عندما يغادر الجنود ويصل التجار. ستمتلئ المدينة بالسكان، وبالماشية، وبالحياة. ستزدهر".

ناموا تلك الليلة وسط حلقة مزدوجة من الحراس الذين بقوا على صـــهوات جيادهم، وراقبوا السهل الذي غمره القمر بأنواره. ونهضوا عند الفجر، وانطلقوا بمطاردتهم على الفور. وصلوا بعد مرور ثلاثة أيام إلى حيث رأوا آثار عجلات، وسرعان ما رأوا قرية متنقلة كانت تحت قـــيادة ذلـــك القائد اللسكاثي الذي هرب من ميدان المعركة. ظهرت أمامهم ثلاث مجموعاتٍ من العربات، وكلها مغطاة بالجلود المدبوغة.

عـــرف أوكسهاتري العلَم الذي يرفرف فوق العربة التي تسير في المقدمة. وكان عبارة عن سارية خشبيةٍ ورسمٍ يمثل وعلين منهمكين في مـــواجهة بقـــروهما. قال: "إنه الملك. يُحتمل أنه الرجل الذي يربط عصابة حمراء حول رأسه... لا مخرج له الآن، ولا بد من أنه يفكّر الآن علـــى الشكل الآتي: *كيف وجدتموني هنا في هذه الأراضي الواسعة التي تخلو من مظاهر تميّزها؟*".

أشـــار الإســـكندر إلى رفاقـــه، فأســـرع كل واحدٍ منهم إلى الاصـــطفاف أمام فرقته حيث أحاطوا بهذه القرية المتنقلة على عربات. جلـــس الفرســـان فـــوق صهوات جيادهم منتصبـــي القامات، بينما أحكمـــوا قبـــضات أيديهم على رماحهم الطويلة. بدَوا مثل مخلوقاتٍ جـــبارة في ذلـــك المكان المنعزل، وأظهروا نوعاً من القوة التي لا تُقهر والـــتي تجلّت في عضلات جيادهم اللامعة، وفي أسنة أسلحتهم الحادة، وفي خوذاهم المصقولة، وفي تيجاهم التي ترتعش وسط نسيمات الفجر الأولى.

سمعـــوا وســـط هـــذا الصمت الذي لا يصدّق والذي ترافق مع ســـاعات اليوم الأولى صوت بوقٍ راح يتلاشى تدريجيًّا عبر فضاء ذلك الـــسهل الواسع. وبعد ذلك، ظهر الملك اللسكاثي ممتطياً صهوة جواده المـــرقط، والـــذي يختلف كثيراً عن جياد جنوده الصغيرة ذات الشعر الكثيف. يُحتمل أنه تلقى هذا الحصان كهدية من أحد الملوك المجاورين، أو أنه غنمه خلال غارة قام بها على إحدى القرى. كان الملك لا يزال مـــرتدياً لـــباس القتال فظهرت العصابة الحمراء، ودرع الصدر متعدّدة الطـــبقات. تبعـــته زوجته سيراً على قدميها وقد غطّت رأسها بغطاء ذهبـــي مزخرف بشرائط متوازية، بالإضافة إلى حجاب أحمر وطويل، وارتـــدت ســـترة قرمزية مزينة بلويحاتٍ مذهبة على أطرافها، وفستاناً

طـــويلاً يصل إلى قدميها حيث يكاد يغطي نعلها المصنوع من الصوف المحبوك. كانت تمسك بيد فتاةٍ صغيرة تبلغ نحو الثانية عشرة من عمرها، ولا بد من أنها ابنتها بالنظر إلى أنهما تشبهان بعضهما.

نظر الملك حوله. وبدا وكأنه يتفحص هذا الصف العظيم للجنود المـــدرعين الذين ظهروا من اللامكان، ثم تقدم بكل ثقة نحو الإسكندر وبـــدأ بـــالكلام. قام أحد مرافقي أوكسهاتري من المرتزقة اللسكاثيين بترجمة كلامه بينما تبرع أوكسهاتري ذاته بالترجمة للإسكندر.

"لم يُذكـــر في تاريخنا أي شخصٍ تجرأ وتقدم هكذا في الأراضي اللـــسكاثية. ولم يتمكن أحد من قبل من قهر اللسكاثيين ومفاجأتهم في قلب أراضيهم. سمعت كذلك أنك هزمتَ ملك الفرس واستوليت على مملكته. خسرتُ أفضل المحاربين عندي في أثناء القتال معك، وجهدت كـــثيراً كـــي أنقذ حياتي. جئت كي أعرض عليك السلام، وكذلك أعرض عليك ابنتي لتكون عروساً لك، وذلك كجزءٍ من التزامي".

دفعت الملكة عند سماعها هذه الكلمات الفتاةً المترددة إلى الأمام، ولاحـــظ الإسكندر أن عينيها تفيضان بالدموع تحت رموشها السوداء والطويلة.

تـــرجّل الإســـكندر عن صهوة جواده ونظر إلى الفتاة ففاضت الدمـــوع من عينيه عندما فكّر في شقيقته كليوباترا، وفي منظرها عندما غـــادر مـــتوجهاً إلى مييـــزا، وتذكر فترة دراسته الطويلة تحت إرشاد أرسطو... كم سنة مضت على ذلك؟

ردّ الإســـكندر: "لا تـــزال ابنتك بحاجة إلى الحب والعناية من قِبَل والـــدها، ولـــذلك لا رغبة لي في أخذها من بين أيديكما. إن قَسَماً تحت السماء التي تظلّل الجميع، والأرض التي ستحتضننا ذات يوم في جوفها، هو كل ما يلزم لإبرام اتفاقٍ بين الملوك، هذا بالإضافة إلى مصافحة بالأيدي".

انتظر حتى انتهى المترجم من ترجمة كلماته، ثم مدّ يده نحو القائد اللسكاتي الذي صافحها بشدة، بينما رفع يده الأخرى نحو السماء أولاً، وما لبث أن مدّها واضعاً راحة يده نحو الأسفل.

قال الزعيم بعد أن حدّق إلى عينَي ذلك الغريب الشاب ذي الشعر الأشقر: "اسمي درافاس، وأنت، ما اسمك؟".

جاء الرد: "اسمي إسكندر، وسأتمكّن من العودة إلى هنا في أي لحظة وأينما تواجدت". قال ذلك بنبرة مميزة ونظر إليه نظرة جعلت القائد اللسكاتي يثق تماماً، ومن دون أدنى شك، ولو للحظةٍ واحدة، بأنه يقول حقيقة مؤكدة".

46

في صباح اليوم التالي، انطلق الجيش مجدداً، ولكن باتجاه الشرق هذه المرة أي نحو جاكزارت، إلا أن الأراضي في هذه المنطقة كانت قاحلة تماماً ويابسة بسبب أشعة الشمس الشديدة، ولذلك استهلك الجنود ما يحملونه من ماء. أما جنود المشاة المسلحون تسليحاً خفيفاً، والذين تحمّلوا أكبر قدرٍ من وطأة الجهد الشاق الذي تطلّبته مهامّ المراقبة البعيدة التي يقومون بها، فقد كانوا أول من نفد الماء منهم بالإضافة إلى الحرس. عند ذلك، أصدر الإسكندر أوامره بإعطائهم حصته الشخصية من الماء. وبهذه الطريقة، تمكّن الجيش من المضي بالزحف ليومٍ إضافي، لكن العطش أصبح لا يُحتمل عند هذا الحدّ. فشرب الملك بعض المياه المتجمّعة في بركةٍ صغيرة، لكنه شعر قبل حلول الليل بأنه وقع ضحية آلامٍ فظيعة في معدته، وسرعان ما ترافقت هذه الآلام مع الحمى والدوزنتاريا.

أمر هيفاستيون بصنع نقّالة، وهكذا نُقل الملك بواسطتها مدّة يومين إضافيين وهو في حالة من الهذيان. استلقى الملك فوق النقالة وهو يعاني الحمّى الشديدة والعطش، كما كانت نقّالته ملوّثة بسبب افتقادهم إلى المياه حيث لم يستطيعوا تنظيفها، كما أزعجته أسرابٌ من الذباب.

قال أوكسهاتري: "قد يموت إذا لم نصل إلى معبرٍ بسرعة. سأسبقكم كي أبحث عن معبرٍ مناسب. يمكنكم أن تتبعوا آثاري، وإذا تمكنتم من اصطياد طريدة برية يمكنكم أن تتناولوها نيئة. لا تشربوا أي

شـــيء يرفض المرتزقة اللسكاثيون شربه، لأنهم يعرفون الكثير عن هذه الأمور".

ثم اختفـــى في اتجـــاه الغرب، وكان برفقة مجموعةٍ من الفرسان السوغدانيين، وهم أكثر من يصمد تحت وطأة الحرارة والعطش، بينما تابـــع صف الجنود الطويل تقدمه البطيء تحت أشعة الشمس الحارقة. عـــاد أوكـــسهاتري بعد حلول الظلام، وسأل على الفور عن أحوال الملك: "كيف حاله؟".

هزّ هيفاستيون رأسه من دون أن يجيب، بينما استلقى الإسكندر على الأرض فوق نقّالته المتسخة. كانت شفتاه متشققتين وجافتين، أما أنفاسه فكانت متقطعة.

قـــال الفارســـي: "عثرتُ على المعبر، كما جلبت مياهاً صالحة للشرب، لكنني لا أريدها أن تُستخدم للاغتسال".

شـــرب الإســـكندر، كما شرب كل الذين كاد العطش يودي بحـــياتهم. وانطلـــق الجيش مجدداً في مسيرته نحو جاكزارت بعد حلول الظلام، وظهر النهر أمامهم مع خيوط الفجر الأولى. أسرع رفاق الملك إلى تغطيـــسه فوراً في المياه الباردة، وأبقوه فيها إلى أن انخفضت درجة حرارة جسمه. استعاد الملك وعيه ببطء، فسأل على الفور: "أين أنا؟".

قال أوكسهاتري شارحاً: "لقد وصلنا إلى المعبر، ومعنا مياه نظيفة ولدينا ما يكفي من الحطب للطبخ".

تمكّن الإسكندر من استجماع ما يكفي من القوة كي يقول: "إن لغتك اليونانية تتحسن باستمرار".

*

انـــضموا إلى بقية الجيش المرابط قرب سمرقند، لكن مفاجأة غير ســـارة كانـــت بانتظارهم. فلقد شنّ قادة البيزيتاروي هجوماً متسرعاً

علـــى جـــنود سبيتامين عند نهر بوليتيميتوس، لكن الهجوم فشل فشلاً ذريعـــاً، وقُتل ما يقارب ألف جندي في هذا الهجوم بينما جُرح آلاف غيرهـــم. بقـــيت محارق الجثث مشتعلة لأيامٍ وأيام بينما كانت السماء داكنةً وكئيبة.

بكت ليبتين يائسةً عندما رأت الملك في هذه الحالة المريعة. غسلته وألبـــسته ثـــياباً نظيفة، ثم أمرت بعض الرجال ممن يحملون مراوح من الـــريش بإبقائه بارداً في النهار والليل. حضر فيليب بسرعة إلى جانبه، فـــأدرك أن الحمى لا تزال شديدةً جداً، كما أن الإسكندر أخذ يهذي كـــل مساء عند مغيب الشمس. تذكّر الطبيب بعض تعليمات معلّمه نـــيقوماخوس، فأرسل بعض الفرسان الهيراكانيين لجمع بعض الثلج من الجـــبال. غطـــى فيليب جسد الإسكندر بهذا الثلج في كل مرة كانت حـــرارته تـــرتفع فيها، بينما ثابرت ليبتين على تغيير ضمادات القماش الـــباردة على جبهته خلال الليل. بدأ الطبيب بعد ذلك بإطعامه خبزاً يابساً وبعض التفاح المقطّع إلى أن توقفت عنده حالة الإسهال.

لاحظ الطبيب أن اللون قد بدأ بالعودة إلى جسم الإسكندر، وأن حـــرارته قد عادت إلى طبيعتها أخيراً، فقال له: "يُحتمل أنك ستنجو هذه المرة أيضاً. ولكن، إذا استمررت في التصرّف على هذا المنوال فإن أسكليبيوس ذاته لن يتمكّن من إنقاذك".

تمكّـــن ذلك المريض الملكي من الرد قبل أن يستسلم للنوم مجدداً: "أثق بأنك أفضل من أسكليبيوس أيها العطّار".

مـــا إن تمكّن الإسكندر من إصدار الأوامر، حتى منع كل الذين نجـــوا من معركة بوليتيميتوس من التحدث عنها إلى أي شخصٍ كان، وذلـــك من أجل عدم إحباط معنويات الجنود. أرسل الملك بيرديكاس وكـــراتيروس وهيفاســـتيون مـــن أجل شنّ هجومٍ مضاد على قوات

سـبيتامين، وإجبار المتمردين على التراجع نحو الجبال. اقترب حلول فصل الخريف في هذا الوقت، ولذلك كان من الجنون مطاردة المتمردين في مواقعهم هناك. لذا، قرّر الإسكندر الرجوع إلى باكترا حيث كان بيسوس مأسوراً، وزحف باتجاه الغرب بمحاذاة الحدود الشمالية للإمبراطورية، وذلك كي يثبّت سلطته في تلك المنطقة، وكي يعرف ما إذا كانت أراضي اللسكاثيين تمتد في ذلك الاتجاه كل هذه المسافة.

عبر الجيش نهر أوكسوس مجدداً على الجسر الذي صُنع من جلود الخِيَم، كما غامر بدخول منطقة مهجورةٍ بمعظمها. كانت منطقةً واسعةً ومنبسطة كلياً، وتختفي وراء أفقٍ ضبابي. كان الجنود يلتقون بين الحين والآخر قوافل طويلة من الجمال الباكترية المتوجهة غرباً، لكنهم كانوا عرضةً للملاحقة في بعض الأحيان من قِبَل مجموعات من الفرسان اللسكاثيين والذين تميزوا بملابسهم وسراويلهم المزخرفة، وبدروعهم المميزة التي تحتوي على طبقاتٍ عدة. كان الجنود يستعدون عند مغيب شمس أحد الأيام لنصب خيمهم عندما اقترب منهم أحد الحراس المتقدمين كي ينقل إليهم بعض الأخبار المروعة: "نساء الأمازون المحاربات".

ابتسم سلوقس: "لم أعرف أن أحد الحلول للتخلّص من الجفاف الذي نعاني منه كان إعطاء الشراب غير المخفّف للجنود".

ردّ الجندي بكل جدية: "لست ثملاً أيها القائد. هناك محاربات مصطفات فوق التلة المقابلة لنا".

قال ليوناتوس برزانة: "أنا لا أحارب النساء إلا إذا...".

قال الجندي: "لكنهن لا يردن القتال. ابتسمن لنا، أما تلك المرأة التي تبدو قائدتهن فهي جميلة و..."، والتفت حينها كي يُظهر للملك مكان اللقاء معهن، فلاحظ أنها تقف خلفه على بعد أقل من ستاديا واحد برفقة أربع من رفيقاتها.

مرّر الإسكندر يده من خلال شعره، وكأنه يريد أن يُصلح مظهره قليلاً، ثم قال آمراً: "اسمحوا لهنّ بالتقدم، فربما نكون بحاجة إلى أراضيهن".

تقدمت المحاربة الجميلة في هذا الوقت وترجلت عن حصانها، بينما فعلت رفيقاتها الأمر ذاته، وكان من الممكن رؤية المزيد منهن بعيداً وهنّ ينصبن خيمة. كانت خيمة واحدة وسط تلك الأراضي اللامتناهية.

تحرّك الملك إلى الأمام كي يلتقيها، وكان محاطاً بهيفاستيون وكراتيروس من الجانبين، بينما سُمعت خلفه عاصفة من الهمهمة التي تعبّر عن الدهشة عندما سرت هذه الأخبار بين الموكب الذي يتبع الملك. سمع كاليستين بالخبر، وسرعان ما شقّ طريقه نحوهم، كما أن ليبتين ذاتها اقتربت بعد أن ذُهلت من هذه الحادثة الغريبة.

وقفت قائدة المحاربات والملك وجهاً لوجه، وما لبثت أن نزعت قناع وجهها، الذي كان نوعاً من خوذة مخروطية الشكل مصنوعةٍ من الجلد، ومزودةٍ بأغطية حامية للخدّين، وهكذا كشفت عن شعرها الأسود اللامع والرائع، والذي جمعته في ضفيرة طويلة تكاد تصل إلى خصرها.

بدا أنها في نحو العشرين من عمرها، لكنها كانت مختلفة جداً عن صورة المرأة المحاربة التي يعرفها الجنود، والتي كان يُظهرها برياكسيس وسكوباس في مقابر هاليكارناسوس عارية بفخر، أو في لوحات زيوكزيس وباراسيوس في الرواق المعمّد في أثينا. لم يكن أي جزء من جسدها ظاهراً سوى وجهها بلونه الزيتوني الجميل. ارتدت هذه المحارِبة سروالاً من الصوف الأزرق، والمطرّز باللون الأحمر، وسترة جلدية غريبة ضيّقة عند خصرها وواسعة في منطقة ما تحت ركبتيها.

وحملت المحاربة سيفاً تدلى من خصرها مع قارورة مياه، كما حملت قوساً وأسهماً فوق كتفيها، وهي الأسلحة التي تُعتبر تقليدية بالنسبة إلى المرأة المحارِبة، لكنها لم تحمل الدرع التي يقال إنها على شكل نصف قمر.

نظرت إليه بعينيها الواسعتين والداكنتين، وقالت شيئاً لم يفهمه أحد من الحاضرين.

التفت الإسكندر نحو أوكسهاتري قائلاً: "هل فهمتَ شيئاً مما قالته؟".

هزّ الفارسي رأسه.

"وأنتم أيها اللسكاثيون؟".

تبادل أوكسهاتري بضع كلماتٍ معهم، لكنهم أوضحوا له أنهم لم يفهموا شيئاً.

أسف الإسكندر كثيراً لأنه يقف أمام إحدى الكائنات الأسطورية التي ملأت أحلام طفولته، لكن من دون أن يقدر على قول جملةٍ واحدة يمكن أن تفهمها، فقال مبتسماً: "أنا لا أفهمك".

تكلّمت الشابة مجدداً، وبادلته ابتسامته، وحاولت أن تستخدم بعض الإشارات، لكن من دون أن يُجدي ذلك نفعاً.

فجأة، تناهى إلى سمع الإسكندر صوتٌ صادرٌ من خلفه يُعلن: "أنا أفهمها".

التفت الملك مندهشاً لأنه كان صوت امرأة: "ليبتين!".

تقدمت الفتاة، وبدأت بالتحدث إلى المحاربة الشابة وسط دهشة الحاضرين.

سأل كاليستين مندهشاً بدوره: "كيف يمكن لذلك أن يحدث؟".

تذكّر الإسكندر ذلك المساء الشتائي الذي أمضاه مع ليبتين في آيجيا،

وداخل ذلك القصر القديم الذي يعود إلى أسلافه، وتذكّر كيف أنها تكلّمت بلغةٍ غريبة غير مفهومة، كما تذكر الوشم على كتفها، والذي يماثل الصورة المحفورة على القلادة الذهبية التي تضعها تلك القائدة، وهي القلادة التي تُظهر قرنين طويلين يشبهان غصنين طويلين.

قال فيليب الطبيب: "يُمكن لهذه الأمور أن تحدث. روى زينوفون حادثةً مماثلة حدثت معه في أرمينيا عندما تعرّف أحد العبيد فجأة لغة الكالبيين، وهم شعب لم يسبق له أن عرفه من قبل".

في هذا الوقت، كانت ليبتين تتحدث إليها. تكلمت بتردد في البداية، وما لبثت أن بدأت الكلام بثقةٍ أكبر بعد ذلك، حتى وإن بداً أن كلماتها تخرج بترددٍ من فمها، أي كلمةً بعد أخرى، وكأنها آتية من هاوية سحيقة من ذاكرتها. تحرّك الإسكندر نحوها، وكشف عن الوشم الموجود على كتفها عارضاً إياه على القائدة المحاربة. سألها: "هل تعرفين هذا الوشم؟".

أوحت تعابير المرأة المندهشة بوضوح ليس فقط أنها عرفته، بل أن صورة الوشم قد حملت أهمية كبيرة بالنسبة إليها.

تحدثت المرأتان مجدداً بلغتهما الغامضة، بينما أمسكت القائدة يدي ليبتين بينما كانت تحدّق إلى عينَي الملك الشاب عن بعد، وما لبثت أن تراجعت نحو خيمتها.

سألها الإسكندر ما إن تحركت مبتعدة: "ماذا قالت لكِ؟ أنتِ واحدة منهن، أليس كذلك؟".

ردّت ليبتين: "أجل. إنني واحدة منهن. أخذني بعض المحاربين السيميريين عندما كنت في التاسعة من عمري، ولا بد من أنهم باعوني إلى أحد تجار العبيد في أحد متاجر بونطوس. كانت والدتي رئيسة قبيلة من قبائل هؤلاء النسوة، وكان والدي أحد النبلاء اللسكاثيين الذين يعيشون بمحاذاة نهر جاكزارت".

أمسك الإسكندر يديها، وراح يتمتم: "أنتِ أميرة، هذا ما أنتِ عليه حقيقة".

قالت ليبتين مصححةً كلامه: "هذا ما كنتُ عليه. تلاشت تلك الأيام، وإلى الأبد".

"هذا غير صحيح. يمكنك أن تعودي الآن كي تعيشي بين شعبك، ويمكنك أن تسترجعي مركزاً كان حقًّا شرعياً لك. أنتِ حرة، وسأمنحك مهراً سخياً يشتمل على الذهب والماشية والأحصنة".

"إن المركز الذي تعتبره من حقّي هو إلى جانبك يا مولاي، وليس لي أحد غيرك في هذا العالم، أما هؤلاء النسوة فلسن إلا غريبات عني. سأذهب إليهن فقط في حال أبعدتَني عنك، وأجبرتَني على المغادرة".

"لا أعتزم إجبارك على أي شيء لا ترغبين فيه. سأبقيك معي إلى آخر أيام حياتي إذا كان هذا ما تريدينه. لكن، أخبريني، لماذا أتت تلك الشابة إلى هذا المكان؟ ولماذا نصبت خيمتها هناك في الأسفل؟".

نظرت ليبتين إلى الأسفل، وكأنها شعرت بالخجل أو بالإحراج، لكنها أجابت في النهاية: "قالت إنها قائدة المحاربات اللواتي يعشن ما بين الأوكسوس، وشواطئ بحر قزوين. وسمعت أنك أقوى رجل في العالم، وهي تعتقد أنك الوحيد الذي يستحقّها. إنها تنتظرك في تلك الخيمة، وتدعوك إلى تمضية الليل معها. إنها تأمل... أن تقبل دعوتها هذه، كما تريد أن تحمل طفلاً منك، سواء أكان المولود ولداً، أم بنتاً يمكن أن تسلّمها صولجان القيادة بيدها ذات يوم".

غطّت ليبتين وجهها بيديها، وما لبثت أن غادرت راكضة والدموع تفيض من عينيها.

47

نظر الإسكندر نحو الخيمة المنعزلة التي أصبحت بالكاد منظورة في العتمة التي تزداد شدة والتي تخيّم على ذلك المرج، وبالكاد وصلت إلى مسامعه أصوات النشيج الهادئ الذي كان يصدر عن ليبتين. تأثر كثيراً بالأمـــر الغريب المزدوج الذي حدث اليوم: ظهور مجموعة من النساء المحاربات في مكانٍ بعيدٍ جداً عن نهر ثيرمودون، والذي تفيد الأسطورة بأنه يجري بمحاذاةٍ حدودِ الأرض التي تسيطر عليها النساء المحاربات. أما الأمـــر الثاني فقد كان اكتشاف أصول ليبتين ومعرفتها لغتها الأصلية. فكّـــر الملـــك في هذا الكم من الأمور التي يمكنه أن يكتشفها في هذا العـــالم، وفي عدد الألغاز التي تنتظر إيجاد حلٍّ لها، وفي الأراضي المجهولة التي تنتظر أن تُكتشف في يومٍ واحد قصير من أيام الحياة الإنسانية.

كان يتمنى لو كان في مقدوره أن يساعد ليبتين التي كانت متوترة بـــسبب الـــصدمة العاطفية التي سببتها هاتين الحياتين المتناقضتين اللتين تـــصادمتا على حين غرة في كيانها. لكن قلق الإسكندر الأكبر في هذه اللحظـــة كان منصباً على تلك المرأة الغامضة التي تنتظره هناك، وسط ظلمـــة الـــسهل. امتطى جواده، وتوجه نحو تلك الخيمة المنعزلة، ولم يتـــسلح سوى بسيفه. رآه هيفاستيون، فأشار إلى بعض رجاله من فرقة الطليعة بأن يتحركوا قُدُماً. قال آمراً: "خذوا مواقعكم حول الخيمة من دون أن يلاحظكم أحد. وأسرِعوا راكضين لمساعدة الملك عند حدوث أي إشـــارة تدل على حدوث أي شيءٍ مشبوه. خذوا بيريتاس معكم، لأنه عند حدوث أي خطر سيكون أسرع من أيِّ شخصٍ آخر".

أطـــاع الرجال أوامر هيفاستيون وتحركوا في الظلام، ثم انتشروا علـــى شــــكل مروحة كي يحيطوا بالخيمة. اقترب أحدهم من الخيمة، وكان هو الذي يحمل بيريتاس، أكثر من الآخرين، وجلس متربعاً فوق العشب بمحاذاة الكلب، لكن الليلة مرّت بسلام نام خلالها بيريتاس من دون أن يرفع أذنيه إلا عندما كان يشم رائحة أحد الحيوانات البرية التي كانت تمر وسط السكون المخيّم على السهل.

لم يـــتمكن أحد من معرفة ما حدث في تلك الليلة، وما إذا كان الإسكندر قد زرع في رحم ملكة تلك العزلة اللامتناهية ابناً يكبر مثل حـــصان بري، ويركض حراً من كل قيد عبر هذه الأراضي اللامتناهية تحت أنظار الشمس محمولاً على أجنحة الرياح.

عـــاد الملـــك إلى خيمته قبل انبلاج الفجر مع نورٍ عميق ومحموم يشعّ في عينيه. وبدا وكأنه نازلٌ لتوّه من جبل الأولمب.

*

عـــاود الجـــيش الزحف غرباً حتى وصل إلى نهر. أراد الإسكندر متابعة السير نـــزولاً بمحاذاة النهر، وذلك كي يعرف ما إذا كان يؤدي نحو الأوقيانوس الشمالي. ولكن، بعد مسيرة ثلاثة أيام تحوّل السهل إلى صحراء، وجفّ النهر في رمالها الحارقة. تابعوا السير مجدداً ناحية الغرب علـــى أربـــع مـــراحل، وكانـــت كل مرحلة تستغرق خمسة فراسخ (بارســـانغ) إلى أن صادفوا مجرى مياه آخر، فبدأوا يسيرون بمحاذاته، ولكن سرعان ما اختفى بين شقوق الأرض العطشى.

تحـــرّك بطليموس إلى جانب الملك الذي كان يتفحص بقلق ذلك الأفـــق الـــذي حجبته ذرات الغبار والضباب، ووضع يده على كتفه. "دعنا نعود أيها الإسكندر، لا يوجد شيء هنا غير خيالات الظهر. وإذا كانـــت الأرض هــــنا تبتلع أنهارها قبل وصولها إلى البحر، فلا بد من

وجود سببٍ قوي لا نعرفه وراء هذه الظاهرة. أتقدر والدة على التهام ابنها بعد ولادته؟".

فكّر كاليستين كذلك في هذه الظاهرة المقلقة، فبدا القلق العميق في نظـرات عينـيه. وأوحت إليه معرفته بالفيزياء والفلسفة بإجابات منطقية، لكن المخاوف اللاعقلانية التي نشأت من أعماق روحه أخمدها على الفور.

قـال الملـك من دون أن يلتفت: "أود كثيراً لو أنني أعثر على إجابات عن هذه التساؤلات يا بطليموس. أود كذلك لو أتتبع عفاريت حرارة الظهيرة هذه التي تسكن الأفق، فقط لو أننا نمتلك ما يكفي من الإمكانـيات لتحقيق ذلك. كان عوليس (أو يوليسيس) رجلاً محظوظاً بالفعـل، لأنـه سمع أغنيات جنيات البحر مع أنه كان مقيداً بسارية سفينته، لكنه لم يكشف قطّ لأي شخص معانيَ الأغنية. مات السر معه في مكـانٍ بعيدٍ ومخفيّ، أي هناك حيث قاده توقع تيريسياس، وحيث المقصد الذي تاق إلى الوصول إليه بعد رحلته الأخيرة...".

سـار الجيش مجدداً عبر الطريق المؤدية إلى الجنوب، وراح يقترب يـوماً بعـد يوم من مزيد من مصادر المياه، وأماكن تواجد النباتات، والحـيوانات، وذلك مع وصوله إلى المرتفعات المرجانية. وعند وصوله إلى ضـفّة أحـد الأنهـار، أسس الملك مدينة أخرى أطلق عليها اسم إسـكندرية مارجـيانا، وأسكن فيها القبائل شبه البدوية التي تعيش في المـنطقة المجاورة، وبعض الرجال والنساء المرافقين له. وترك الإسكندر فيها حامية مؤلفة من خمسمئة رجلٍ من الجنود المقدونيين، واليونانيين، والتيـساليين الذين أسسوا عائلات مع النساء الآسيويات اللواتي تابعن اللحـاق بالجيش بعد أن أظهرن قدرة على التحمل والمثابرة. وأسكن الملـك في هـذه المدينة تحديداً أولئك الرجال الذين نسوا عائلاتهم التي

خلّفـــوها وراءهـــم في الوطن منذ فترة طويلة، أي بعد مرور وقت بدا مـــوغلاً جـــداً في القِـــدم حيث بدت عائلاقم الأصلية شيئاً بعيداً عن الواقع.

وصـــل الجـــيش إلى باكتـــرا بحلول نهاية فصل الخريف، وكان الإســـكندر يـــنوي في البداية تمضية فصل الشتاء هناك. وأعطى أوامره للـــبدء بمحاكمـــة بيسوس على الطريقة الفارسية. فجمع أوكسهاتري المجلس المؤلف من أكبر القضاة سناً، كما أمر بجرّ السجين أمامهم. بدا أن التـــشوهات الـــتي تعرّض لها في تلك الليلة المظلمة في الريف بجوار قورشكات قد شفيت في هذا الوقت، لكن منظر وجهه المعذّب أصبح أكثر بشاعة؛ فبدا وكأنه جمجمة حيّة.

انـــتهت المحاكمة بسرعةٍ كبيرة. لم يقل بيسوس شيئاً عندما سألته المحكمـــة ما إذا كان يرغب في الدفاع عن نفسه إزاء الاتهامات الموجهة إليه، بل وقف بصمتٍ أمام أعدائه محتفظاً بكل كبرياء الرجل الذي أراد إنقـــاذ شرف الإمبراطورية الفارسية، والذي شعر بالإهانة بسبب جبن داريـــوس، ذلك الملك الذي فرّ مرتين من ميدان المعركة، كما احتفظ بكبرياء الرجل الذي سعى إلى قيادة ثورة ضد غزاة بلاده.

أُعلـــن الحكـــم، وكان أسوأ حكم يُمكن أن يتصوره المرء لأنه الحكـــم الـــذي يُنـــزَل بأولئك الذين يغتالون الشخص المبجل لملك الملـــوك، والـــذين يغتصبون عرش الأخمينيين. فقد قضى الحكم بتقطيع أوصال المتهم.

جُـــرّد بيسوس من ثيابه، ثم اقتيد إلى باحةٍ مفتوحة جُهّزت لتنفيذ الحكـــم. وهناك، برزت شجرتا صفاف طويلتانٌ ورفيعتان وقريبتان من بعضهما، وقد جُمعتا معاً بحبلٍ رُبط في أعلاهما ووُصِل بعصا غُرزت في الأرض. شـــكّل جذعا الشجرتين بهذا الشكل نوعاً من القوس المدبب.

اقتـــيد السجين إلى ذلك القوس ورُبط عند كاحليه ومعصميه بالجذعين في أعلـــى مكـــانٍ يمكن الوصول إليه حيث إنه تُرك معلقاً فوق الأرض بعلـــو خمسة كيوبيتات. لم يكن الفرس والسكان المحليون هم الوحيدين الذين شهدوا هذا الحدث الفظيع، لأن المقدونيين واليونانيين كانوا من بـــين الحشود التي شهدته. ولقد جاءت الأميرة ستاتيرا من زادراكارتا خصيصاً كي تشاهد هذا الحدث بنفسها، وكانت متلهفةً لرؤية الانتقام لمقـــتل داريوس؛ والدها الذي دفنته وحزنت عليه لمدةٍ طويلة في المقبرة الملكـــية في بيرســـيبوليس، تلـــك المدينة التي أصبحت مهجورة الآن. فجلست إلى جانب الإسكندر شاحبة وساكنة.

تقـــدّم الجـــلادون بعد تلقيهم إشارة بسيطة من القاضي الأكبر، وتحـــركوا نحو الحبال شاهرين فؤوسهم. وجهوا ضرباقم المتناسقة بعد تلقـــيهم إيمـــاءة ثانـــية، وكانت ضرباقم مركزة وقاطعة بشكلٍ مثير. فانتـــصب جـــذعا الشجرة نحو الأعلى على الفور. توتر للحظة جسد بيسوس مفتول العضلات تحت وطأة هذه الضربات التي لا تُحتمل، وما لـــبث أن انقسم إلى نصفين. بقي النصف الأيسر من جسده، أي من كـــتفه وحتى أربيته، معلقاً بأحد الجذعين، بينما كان النصف الآخر، الذي ضمّ رأسه وأحشاءه، معلقاً بالجذع الآخر. كان هناك أثرٌ من آثار الحـــياة في عينَي بيسوس عندما حامت الطيور المفترسة التي تنشط على الـــدوام في ذلك المكان الذي تنفذ فيه الإعدامات حوله، وما لبثت أن نـــزلت كي تتغذى من جثته المعذبة.

بقـــي الإسكندر في باكترا مع ستاتيرا وبقية الحاشية طيلة فصل الـــشتاء، كما أمضى وقتاً طويلاً مع إيومينيس في الكتابة إلى مرزبانات مقاطعاتـــه. كـــتب إلى أنتيغونوس الذي يعرف بلقب **العين الواحدة** والـــذي كـــان حاكمـــاً على الأناضول، وإلى مازايوس حاكم بابل،

وكذلك إلى آرتابازوس في بامفيليا. وسأل في إحدى هذه الرسائل عن أحوال فرآت، وما إذا كان قد تغلب على شعوره بفقدان والدته وأخيه العزيزين على قلبه، وما إذا كان يعيش حياة هادئة في قصره المجاور للبحر. وأعطى الملك الحدادين المرافقين للجيش الأوامر بصنع عربة صغيرة، ثم أمر بإرسالها إلى فرآت كهدية بالإضافة إلى مهرتين لسكاثيتين.

تلقى الإسكندر كذلك رسالة من والدته أوليمبيا، وأخرى من كليوباترا التي حدّثته عن تفاصيل حياتها في قصر بوثروتوم، بالإضافة إلى الحنين الذي تشعر به إلى مسقط رأسها:

> **وصلتني أخبار إنجازاتك، لكن وهج هذه الإنجازات يخفّ كثيراً بفعل المسافات التي تفصل بيننا. يبدو لي أنه من المستحيل بالنسبة إليّ، أنا شقيقتك، أن أراك، وأن أعرف موعد عودتك، ومتى ستضع حدّاً لمهمتك التي طالت كثيراً.**
> **إنني أعاني كثيراً بسبب بعدك عني، وأعاني بسبب وحدتي. أرجوك أن تسمح لي بأن آتي إليك بأسرع وقت ممكن، وذلك كي أعاين إنجازاتك، وأشاهد عجائب المدن التي قهرتها.**
> **أشكرك كثيراً على الهدايا التي ترسلها إليّ على الدوام، والتي تجعلني أشعر بفخر كبير، لكن أعظم هدية تصلني منك هي قدرتي على معانقتك مجدداً، ولا يهمني المكان، سواء أكان ذلك في أراضي سكاثيا المتجمدة، أو في صحاري ليبيا. أتوسّل إليك أن تدعوني إليك يا إسكندر، وأنا سأسرع بالمجيء من دون تأخير، وسأبحر فوق البحار العاصفة، وسأجابه الرياح العاتية.**
> **انتبه إلى نفسك.**

نصّ الإسكندر ردّه، وكان رداً متعاطفاً لكنه يتسم بالتصلّب وختمه بهذه الكلمات:

> **لم أحكم السيطرة بعد على إمبراطوريتي بالكامل يا شقيقتي الأحب إلى قلبي. سأطلب إليك الانتظار فترة أخرى بعد،**

وعـــندما ينتهي كل شيء سأدعوكِ للمجيء إلى حيث أكون، وســـنقدر عـــندها أن نشارك الجميع البهجة التي يشعرون بها، وسنشهد ولادة عالم جديد.

والـــتفت بعـــد ذلـــك إلى إيومينيس، وقال له: "يتحسّن إنشاء كليوباترا مع كل رسالة ترسلها إليّ. لا بد من أنها تأخذ دروساً مكلفة من أحد أساتذة البلاغة".

قـــال إيومينيس: "هذا صحيح، لكنني أحسّ بالرغم من ذلك بأن تعاطفـــاً مخلـــصاً يتوارى وراء كلماتها، ووراء بلاغتها المنمقة. أحبتك كليوباتـــرا علـــى الدوام، ولطالما كانت الدرع التي تحميك من غضب والدك. ألا تفتقدها؟".

ردّ الإســـكندر: "أفتقدها كثيراً. إنني أفتقد تلك الأيام، لكنني لا أستطيع السماح لنفسي بأن أغرق في ذكرياتي، وذلك لأن الهدف الذي وضـــعته نصب عينيّ يعاودني على الدوام ويتطلب انتباهي، وكأنه أمر محـــتّم يستلزم التضحية بكل شيء آخر، وهو الالتزام الذي لا أستطيع التهرب منه".

ردّ إيومينيس: "إنه الالتزام الذي لا ترغب في التهرّب منه".

"أتظـــن أنـــني أستطيع فعل ذلك، حتى ولو أردت؟ تضع الأسياد الأحـــلام في قلوب الرجال. فهي تضع في قلوبهم الأحلام، والرغبات، والـــتطلعات التي تكون عادةً أكبر منهم. وتتوقف عظمة الإنسان على ذلـــك التناقض المؤلم القائم بين الهدف الذي يضعه لنفسه، وبين القوة التي وهبته إياها الطبيعة عندما قَدِم إلى هذا العالم".

"أي مثل بيسوس".

"وفيليب".

قال إيومينيس ناظراً إلى الأسفل: "وفيليب".

سكت الرجلان، وكأن روح ذلك الملك المقتول ماثلةٌ في المكان بطريقة ما، أو كأنها استُحضرت فجأةً بفعل الصمت والنسيان.

خصّص الإسكندر بعض الوقت من أجل الحفاظ على اتصالاته مع المدن التي أسّسها في مقاطعات الإمبراطورية البعيدة، أي المدن التي حملت اسمه. وكتب شخصياً إلى القادة العسكريين وإلى قضاة تلك المدن الصغيرة التي أسّسها في أراضٍ غير مأهولة، وغير معروفة. كتب كذلك رسائل إلى أرسطو، ووصف له فيها قوانين هذه المدن ودساتيرها، وهي الوثائق التي من شأنها إثراء مجموعة الفيلسوف.

وبين الحين والآخر، كانت تصله خطابات من تلك المراكز البعيدة، وكانت مكتوبة بلغةٍ إغريقية ركيكة جداً، أو باللهجة المقدونية. اشتملت تلك الخطاباتُ في معظم الأحيان على طلباتٍ للمساعدة على صدّ هجمات الأعداء، وللمساعدة على إنهاء مقاطعة السكان الآخرين الذين أرادوا المحافظة على هوياتهم الوطنية. كانت ثورة سبيتامين تنتشر في كل مكان، لأن تسليم بيسوس أسفر عن تمهيد الطريق للقائد الجديد الذي يتحصّن الآن في سفوح جبال باروباميسوس التي تغطيها الثلوج.

أرسل الإسكندر الجواب ذاته إلى الجميع:

"اصمدوا. إننا نجمع المزيد من الجنود، وننتظر وصول تعزيزات جديدة كي نساعدكم، ولنعيد الهدوء إلى الأراضي التي تربونً فيها أطفالكم".

مرّ فصل الشتاء بأكمله على هذا المنوال. ولكن، عندما حلّ فصل الربيع، وصلت تعزيزات جديدة من الجنود من مقدونيا والأناضول، فانطلق الجيش بزحفه مجدداً. أدرك الإسكندر عند دخوله إلى باكتريانا أن المتمردين قد توزعوا على عدد كبير من القلاع والحصون، ولذلك

قرّر تقسيم قواته كي يتمكّن من شن هجمات متعددة في الوقت ذاته، حيث يتركّز كل هجوم على مركزٍ محدد للمقاومة. واكتشف أن كبار قادته ورفاقه لم يوافقوا على هذه الاستراتيجية عندما عرضها عليهم.

صاح الأسود: "إياك أن تقسّم قواتك، لأنه على حدّ علمنا لقي إسكندر إبيروس، خالك وصهرك، الهزيمة على يد البرابرة في إيطاليا لأنه اضطر إلى تقسيم جيشه. يبدو لي أنه من الجنون... أن يُقدم المرء على القيام بالأمر ذاته من تلقاء نفسه".

قال بيرديكاس: "أعتقد أنه من الأفضل لنا البقاء متحدين، وسنهزمهم الواحد تلو الآخر، وسنسحقهم مثل البراغيث".

أومأ ليوناتوس موافقاً، وكأنه لم تعد هناك حاجة إلى المزيد من مناقشة الأمور.

بدأ إيومينيس الكلام: "إذا كنتم تريدون معرفة رأيي..."، لكن الإسكندر قاطعه بينما كانت الكلمات لا تزال في فمه:

"إذاً، اتفقنا. سيبقى كراتيروس في الجنوب قرب باكترا بينما نتحرك نحن شمالاً وشرقاً نحو سوغديانا كي نحاصر المتمردين في الجبال، وسنقوم في مرحلة معينة بالانتشار على شكل مروحة. ستكون هناك خمس وحداتٍ، أي وحدة لكلٍّ منكم تتكفل بالاستيلاء على أحد الحصون. صمّم دياديس منجنيقات طويلة المدى، كما أننا سنطلق حراباً أصغر لكنها تتمتع بالفعالية ذاتها".

توقف ليوناتوس عن الإيماء برأسه عندما أدرك أن الوضع قد تغيّر. فسأله الإسكندر الذي كان يراقبه: "لكن، ألا توافقون جميعاً؟".

"أنا، في واقع الأمر، كنت أوافقك الرأي..."، حاول أن يُكمل لكنه فوجئ بأن الحاضرين قد هبوا واقفين، لأنه لم تعد هناك حاجة إلى قول أي شيء آخر، خاصة وأن الإسكندر قد رافقهم حتى الباب.

وُضـــعت الخطة موضع التنفيذ في غضون أيامٍ قليلة. فانطلق الملك ورفاقه مع ما يزيد عن نصف الجيش نحو مداخل الوديان حيث يتواجد المتمردون المسلحون. حارب الجيش طوال فصل الصيف، وهدم بعض الحصون، لكن العمليات تباطأت بسبب استراتيجية الجيش الذي تجنّب المـــواجهة المباشـــرة، أي أنه كان يهجم ثم ينسحب مباشرة، وكذلك بـــسبب طبيعة الأرض الوعرة. قاد الإسكندر جيشه نحو سمرقند عندما ساء الطقس وقلّت المواد الغذائية.

*

سارت الأمور بشكلٍ مختلف مع كراتيروس لأنه تُرك في الخلف، وفـــشل في الوصـــول إلى عاصمة المقاطعة قبل وصول مبعوث من قائد حاميتها.

"اجـــتاح سبيتامين المنطقة المحيطة بباكترا ونهب الريف والقرى. شـــنّت حاميتنا هجوماً أولياً لكنها منيت بالهزيمة، ثم نظمنا هجوماً ثانياً لمطاردة سبيتامين، لكننا بحاجة ماسة إلى التعزيزات".

خـــيّم هـــاجسٌ مفاجئ علىً كراتيروس، لأنه كان يعرف جيداً مراوغة سبيتامين، وكان متأكداً تقريباً من أن شن غارةٍ في تلك المنطقة المحيطة بباكترا كان الاستفزاز الوحيد الذي يدفع بحامية العاصمة للقتال في ميدان مفتوحٍ تمهيداً لإبادتها.

سأل كراتيروس المبعوث: "أي طريق سلكوا؟".

أشار المبعوث إلى الطريق المؤدية إلى الصحراء قائلاً: "سلكوا ذلك الاتجاه".

قـــال القائد المقدوني بعد أن اتخذ قراره: "سنسير في ذلك الاتجاه بـــدورنا، وذلـــك بعـــد أن نرتاح قليلاً. فلا حاجة بنا إلى المرور عبر العاصمة".

انطلقـــوا بـــزحفهم قبل الفجر، وعبروا مجرى مياهٍ عند المعبر، ثم وصـــلوا إلى ممرٍّ ضيقٍ محاطٍ بأشجار الآكاسيا وأجمات الأزهار البيضاء المائلـــة إلى الحمـــرة. كانتْ هذه الطريق مكاناً مثالياً لنصب الكمائن. اقتـــرب مـــنهم كيونيوس، وهو قائد سرية الهيتايروي الثانية على نحوٍ مفاجئ. قال وهو يشير إلى السماء: "انظروا هناك".

سأل كراتيروس رافعاً يده كي يحمي عينيه من أشعة الشمس: "ما هذا؟".

أجاب الضابط بجدية: "العقبان".

48

كان المنظر مفزعاً بالفعل. فلقد تواجد مئات من الجنود المقدونيين القتلى أمامهم، وكانت جثثهم مشوهة تشويهاً مروعاً، وكانت رؤوس بعـــض الجـــثث مقطوعة أو مسلوخة، بينما وُضع بعضها على أعمدة مغـــروزةٍ في الأرض، ورُبـــط بعضها الآخر إلى أشجار، وكانت آثار الـــتعذيب الـــشديد تبدو واضحة عليها، كما صُلب قائدان من ضباط الحرس القديم، وصديقان من أصدقاء كلايتوس.

سأل كيونيوس بجدية: "ماذا سنفعل الآن؟".

"أريد تجميع الفرسان لأننا سنهاجم الآن. وسيتبعنا المشاة بخطوات سريعة".

أطلـــق كيونـــيوس إشارة التجمّع، ثم أمر الفرسان بعبور ميدان المجزرة وسط صمتٍ مطبق. فلقد أراد تحديداً أن يشاهد الجنود ما فعله العدو برفاقهم، وأرادَ أن يتزايد الغضب الذي يعتمل في نفوسهم حيث يتخطى كل الحدود، وأن يدفعهم تعطشهم إلى الانتقام لزيادة بأسهم في ملاحقة الأعداء.

ومـــا إن انفـــتح الممـــر الضيّق على سهلٍ متماوج حتى أمرهم كـــراتيروس بالاصـــطفاف في خمسة صفوف يشتمل الواحد منها على ستمئة فارس وصاح بهم: "لن أتوقف حتى نلقي القبض على هؤلاء البرابرة ونقطعهم إرباً. اتبعوني أيها الرجال وتذكروا ما فعلوه برفاقكم!".

كانـــت آثـــار جنود العدو لا تزال جديدة ومرئية بوضوح، كما تمكّنت سرايا الفرسان من المحافظة على تشكيلاتها. انطلق الجنود بسرعة

وســـط ســـحابة من الغبار، وساروا نـــزولاً نحو ثغرة تشبه السهل، ثم صـــعدوا منحدراً طويلاً أخفى وراءه ثغرةً أخرى. كان كيونيوس أحد أوائـــل الـــذين وصلوا إلى القمة مع كراتيروس. رأى الرجلان فرسان العدو على بعدٍ يقل عن ثلاثة ستاديات، وكانوا يتقدمون ببطء غافلين عن الخطر الذي أوشك أن يداهمهم.

صـــاح كراتيروس: "ها هم أمامنا! الأبواق! اهجموا! لا تتوقفوا أيها الرجال! أبيدوهم! قطّعوهم إرباً إرباً! إلى الأمام! إلى الأمام!".

سمـــع نفـــير الأبواق مراتٍ عدة، فانطلق الفرسان نـــزولاً على المـــنحدر مثل السيل. اهتزّت الأرض، وامتلأ الجو بأصداء نفير الأبواق البرونـــزية، وبالشراسة التي تميّز بها الهجوم. فوجئ سبيتامين الذي كان يقـــود جيـــشاً مؤلفاً من الباكتريين واللسكاثيين المساجتيين، فأعطى جـــنوده الأوامر بأن يستديروا لمواجهة العدو، لكن هذه المناورة نجحت جـــزئياً فقـــط لأن المقدونـــيين كانوا فوقهم في هذا الوقت خافضين رماحهم. تساقط الجنود بالمئات عند المواجهة الأولى، وانتشرت جثثهم ذات اليمين وذات اليسار، وسقطوا على الأرض حيث داستهم حوافر الجـــياد. لحقـــت الهزيمة التامة بمنطقة الوسط فتبعثر الجنود، بينما أبدى الجـــناحان بعـــض المقاومة، وسعوا إلى تنفيذ مناورات التشتيت. لكن كراتيروس لم يقع في هذه المصيدة، فاستدعى رجاله، وقادهم مجدداً إلى هجـــومٍ ثانٍ وجهاً لوجه. أبيدَ من تبقى من جنود سبيتامين في غضون أقل من ساعةٍ واحدة، لكن المرزبان تمكّن مع مئاتٍ قليلة من اللسكاثيين المساجتيين من النجاة بصعوبة بالغة وفرّوا إلى الصحراء.

عـــندها، أرجـــع كراتيروس رجاله من أجل دفن رفاقهم الذين سقطوا في القتال في مثواهم الأخير، لكنه استدعى كيونيوس جانباً قبل البدء بالمراسم وقال له: "أتعرف من خصومنا؟".

"إهم اللسكاثيون".

"إن المساجتيين هم أفراد القبيلة التي تمكّنت قبل مئتي عام من إلحاق الهزيمة بسيروس العظيم وقتله. أريدك أن تنشر الرعب الخالص في صفوفهم، وتأكد من أهم لن يتجرأوا على المهاجمة مجدداً... أبداً. أتفهم؟".

أجاب كيونيوس: "فهمت". وأضاف بعد ذلك: "أرسِل إليّ المنجنيقات. أريد كل ما تمتلكه منها، بالإضافة إلى فرقة من الأغريانيين".

أومأ كراتيروس وقاد جنوده من الهيتايروي إلى المعسكر حيث وقعت المجزرة، لكن جنود المشاة تمكنوا من الوصول قبلهم، فألقوا أسلحتهم، وبدأوا بتجميع الجثث، ثم راحوا يجمعون أجزاء الجثث المقطعة بأفضل طريقة ممكنة، ونقلوها إلى حافة الميدان، بينما كانت الدموع تفيض من أعينهم. وراح آخرون يقطعون الأشجار كي يجهزوا المحارق.

انتظر كيونيوس وصول المنجنيقات. وفي هذا الوقت، أمر الأغريانيين بقطع رؤوس كل جثث اللسكاثيين المساجتيين التي يجدونها أمامهم. وذهب بعد ذلك إلى حدود أراضيهم التي يحدّها نهر أرتاكيونيس، ورأى دوريات من الفرسان الذين كانوا يقومون بحماية الحدود على الضفة الأخرى. فاهمك في حشو المنجنيقات، ثم أطلق الرؤوس المقطوعة على شكل مجموعات إلى الجهة الأخرى، فراحت تتدحرج على الأرض حيث انتهت تحت حوافر الجياد. واستدار بعد ذلك كي ينضم مجدداً إلى بقية الجيش. وكان الجيش قد زحف نحو باكترا، وأشرف في طريق عودته على استسلام كل القرى التي شاركت في ثورة سبيتامين.

*

في هذا الوقت، تمركز قسمٌ من الجيش الذي حارب مع الإسكندر في سمـــرقند لبعض الوقت. وهناك عمد الضباط الفرس إلى تجنيد أكبر عـــدد مـــن الـــشبان في باكتـــريانا، وفي ســـوغديانا، لصالح الجيش الإمبراطوري، وهو الجيش الذي أصبح الآن مختلفاً جداً عن ذلك الجيش الـــذي انطلق من بيلا قبل سبعة أعوام. تسبّب هذا الأمر بإنقاص أعداد جـــنود العـــدو الـــذي أخذ بالانخفاض حيث قلّت كثيراً فرص تعزيز المقاومة ضد الإسكندر.

أشـــارت الوقائع إلى أن نجاحات الحملة كانت محدودة، وهذا ما أساء إلى هيبة الملك إلى درجة أن عدداً كبيراً من رفاقه سعى إلى إقناعه بالعـــدول عن استراتيجيته. من جهته، حاول الإسكندر دفع جنوده إلى نـــسيان الطبيعة المحددة للحملة التي يخوضونها، وذلك عن طريق إقامة الحفـــلات، ومآدب الطعام التي شارك فيها الضباط الفرس، وهو الأمر الـــذي أعـــاد جو التوتر بين المقدونيين وأصدقائه. وبدا أن عدداً كبيراً منهم شعر بالاستياء من هيفاستيون، لأنه أظهر قبوله للعادات الفارسية، أي مـــثل مـــا فعل الملك، حتى إنه كثيراً ما كان يرتدي ملابسه على الطريقة الشرقية.

حـــضرت وفود كثيرة للمفاوضة بمن في ذلك زعيم قبيلة لسكاثية كانـــت تعـــيش على الضفة الأخرى من الأوكسوس. عمد الملك إلى تطبـــيق البروتوكول الفارسي على الجميع، وشمل ذلك عادة السجود، كمـــا كـــان يستقبل الضيوف مرتدياً العباءة، أو حتى وهو يضع التاج العالي فوق رأسه. وأدّت هذه التصرفات إلى زيادة حالة عدم الرضا بين الجنود.

قَدِم فلاسفة، وضالعون، وشعراء، وممثلون من اليونان والأناضول بعد أن جذبتهم شهرة الملك، وأخبار انتصاراته وإنجازاته، هذا عدا عن

الشائعات التي انتشرت بخصوص ثروته التي لا حدود لها والتي صادرها جيشه. أمل كل هؤلاء بأن يغنموا جزءاً يسيراً من تلك الثروة الهائلة، أو حتى مجرد التّعرّف إلى ذلك الفاتح الشاب. استقبل الإسكندر جميع هؤلاء ودعاهم إلى حضور مآدبه. كان الملك يأمل أن يتمكن بهذه الطريقة من نقل قسم من الشعب اليوناني إلى هذه الأصقاع البعيدة، كما تمكّن من إشباع ميله الطبيعي إلى المناقشات الفلسفية والمواجهات البلاغية. لكن جميع هؤلاء كانوا يرغبون فقط في التزّلف إلى الملك، ولهذا تحلقوا حوله بكل الطرائق الممكنة، وبطريقة مراوغة في بعض الأحيان، حيث يتمكنون من إخفاء مقاصدهم الحقيقية. أزعج هذا الأمر المقدونيين الذين تعودوا على نوع من الرفقة التي تتميز بالخشونة مع ملكهم، في حين كانت السمة الرسمية في ما بينهم هي طبع قبلة على الخد، وهي القبلة التي تخصص عادة للأشخاص الذين تربطهم بهم علاقة حميمة.

في أحد الأيام، وصل رجلٌ يحمل الفاكهة المجففة والمكسرات إلى الملك. جاء الرجل من اليونان مباشرة محملاً بالتين، واللوز، والجوز. تذوق الإسكندر هذه الفاكهة، فبدت له شهية حيث فكّر في تقديم بعضها إلى كلايتوس الأسود في إشارة إلى الصداقة بينهما، وذلك بعد حدوث مواجهات عدة بينهما بخصوص البروتوكول، وكذلك بخصوص تصميم الملك على إدخال الفرس والآسيويين ليس فقط إلى البلاط، بل إلى الجيش كذلك. وكانت بعض هذه المواجهات حامية جداً في واقع الأمر.

كان الأسود، وبالرغم من مزاجه الغاضب والمتغطرس، متديناً جداً. وكان يقدّم أضحيات عندما وصل المبعوث الذي حمل استدعاء الملك له. فترك الأضحية في منتصفها، وتبع الجندي من دون أن ينتبه إلى أن عدداً من الخراف كان يتبعه.

وصل إلى باحة القصر مع الخراف التي كانت ترافقه، فبدأ الإسكندر بالضحك، وصاح به: "أيها الأسود! هل تحوّلتَ الآن إلى الرعي؟". لكنه شعر بالانزعاج عندما علم بأن هذه الخراف كانت مخصّصة لتقديم أضحية. أعطى الأسود هديةً من الفاكهة والمكسرات، وما لبث عند مغادرته أن استدعى أريستاندر وأخبره بما حدث. شعر الضالع بالانزعاج وأجاب: "إنها إشارة سيئة، ونذير شؤم".

في تلك الليلة بالذات، حلم الإسكندر بكلايتوس، وربما كان السّبب تأثره بكلمات الضالع. رآه متسربلاً بثياب سوداء من قمة رأسه وحتى أخمص قدميه، وكان جالساً إلى جانب أبناء بارمينيون الثلاثة، وقد أصبحوا جميعاً من الأموات. واستيقظ صباحاً وهو يشعر بالقلق الشديد وأخبر أريستاندر بحلمه. كما أقام مأدبة في ذلك المساء بالذات كي يطرد عنه شبح الكرب العميق الذي أحسّ به وكأنه يسحقه. كان متعلقاً جداً بكلايتوس بالرغم من صداماتهما المتكررة، وذلك لأنه شقيق المرأة التي أرضعته وهو طفل. ويكوّن هذا الأمر رابطة قوية بينهما تقترب من رابطة الدم، وذلك جرياً على عادة المقدونيين.

انتُخب بيرديكاس في تلك الليلة بالذات ليكون سيّد المأدبة، فأعلن على الفور بأنه توجد حلقتان، واحدة للمقدونيين بشرابٍ خالص، وأخرى لليونانيين حيث يحتوي شرابهم على جزء واحد من الشراب وأربعة أجزاء من الماء. كان هذا القرار بحدّ ذاته كافياً لإثارة بعض السخط، كما أن الإسكندر ذاته شعر بالسخط، لأن بيرديكاس لم يأتِ على ذكر الضيوف الفرس على الإطلاق.

كان بين اليونانيين عدا عن كاليستين، فيلسوف يدعى أناكزارخوس، وهو رجل وصل حديثاً، وكان إلى جانب صلفه وغطرسته قديراً جداً. اصطحب معه شاعرين بدأا بالشرب وتناول

الطعـــام علـــى الفور. مضى الاحتفال على ما يرام في البداية، واشتمل على إلقاء الفكاهات، والتعليقات، والقصص الفاسقة. وساهمت بعض النساء اللواتي لم يكنّ أقل جرأة من الرجال في رواية هذه القصص. بدأ الجمـــيع بالإفراط في الشرب، ولم يمضِ وقت طويل حتى شعر الجميع بالمرح، بمن فيهم الملك.

عـــند هذا الحد صاح أحد الشاعرَين اللذين جاءا مع الفيلسوف، وهـــو رجـــل يُدعى برانيكوس: "ألّفت ملحمة شعرية صغيرة! أيرغب أحدكم في سماعها؟".

قال الإسكندر ضاحكاً: "ولَم لا؟".

بـــدأ الشاعر، بعد أن شجعته موافقة الملك، بإلقاء تحفته الشعرية، وهـــو الأمـــر الذي أطلق ضحكاتٍ كثيرة من قِبَل رفاقه. ولكن ما إن أدرك المقدونـــيون موضوع هذه الملحمة حتى صمتوا فجأة، بالرغم من أنهـــم كانوا ثملين جميعاً، وذلك لأنهم لم يتمكنوا من تصديق ما تسمعه آذانهـــم. ألقـــى ذلك الشاعر المثير للشفقة قصيدة هجائية تتميّز بالغباء تتناول قادة حامية باكترا، وهم الذين وقعوا في المصيدة التي نصبها لهم سبيتامين خلال حملة الربيع، وسخر الشاعر فوق كل شيء من أعمارهم:

أطلق العجوزان صرخات الحرب،
وعجزا عن رفع عصويهما عن الأرض،
حرصا على الهجوم، ولكن كان عليهما البقاء في سريريهما،
سخر منهما الجميع واعتبروهما من واسعي الاطلاع.

عـــندها، استشاط الأسود غضباً، ورمى كوباً من الشراب على وجه الشاعر، وصاح به: "هذا يكفي أيها اليوناني السخيف!".

كـــان الإسكندر ثملاً ونصف عارٍ في أثناء جلوسه بين اثنتين من النـــساء اللـــواتي كن يفعلن ما في وسعهن من أجل تسليته، وهكذا لم

يفهم شيئاً مما كان يدور أمامه، باستثناء أن الأسود قد أهان ضيفه اليوناني، ولذلك صاح: "كيف تجرؤ؟ اعتذِر منه ودعه يُكمل! أنا أحب الشعر".

سمع كلايتوس، الذي كان تحت تأثير الشراب بدوره، تلك الكلمات ففقد صوابه، وردّ بالقول: "أيها الولد الصغير قصير الساقين، والصلِف، والمغرور! كيف تجرأتَ على السماح لهذا اليوناني التافه بالسخرية من ذكرى ضابطين شجاعين ضحّيا بحياتيهما في ميدان المعركة؟".

صاح الإسكندر بعد أن استوعب مدى الإهانة التي لحقت به: "ماذا قلت؟".

"سمعتَ ما قلتُه! من تظن نفسك؟ أتعتقد فعلاً أنك ابن زيوس آمون؟ وهل صدّقتَ تلك الأمور التافهة التي تنشرها تلك الشاذة والدتك عن ولادتك؟ انظر إلى نفسك! انظر إلى حالتك وأنت ترتدي أزياء النساء، وكل هذه الزخرفات والمخرمات!". وأشار الأسود عندها إلى الملابس الفارسية التي كان الملك يرتديها قبل أن تبدأ الفتاتان بنزع ملابسه.

وقف الإسكندر شاحباً من فرط الغضب، وأعطى مساعده الأوامر قائلاً: "أطلِق نداء استدعاء حاملي الدروع! أطلِقه الآن!".

كان هذا إجراءً متطرفاً يلجأ إليه الملوك المقدونيون فقط عندما تكون حياقم في خطر مباشر، وما إن يندفع حاملو الدروع إلى القاعة حتى يقتلوا الجهة المعتدية والمذنبة على الفور. ولهذا السبب، تردد المساعد قليلاً ووقف مدهوشاً من هذا الأمر الذي تلقاه، فوجّه الإسكندر لكمةً إلى وجه المساعد. وما إن سقط الرجل على الأرض، حتى صاح الإسكندر بكل قوته: "يا حاملي الدروع! تعالوا إلى هنا!".

صاح كلايتوس غاضباً: "أجل! استدعِ حاملي الدروع! استدعهِم الآن! أتـــريد أن تعلم الحقيقة؟ أنت لا شيء من دوننا... لا شيء! نحن الذين كسبنا لك كل معاركك، ونحن الذين حاربنا، ونحن الذين هزمنا الأعداء. أنت لا تساوي حتى جزءاً صغيراً مما كان عليه والدك فيليب!".

قلـــق بطلـــيموس مـــن الطريقة التي تطور بها هذا الجدال، فأمسك كلايـــتوس من كتفيه، وحاول أن يدفعه إلى الخارج. "توقف عن هذا أيها الأسود. إنك ثمل. توقف عن إهانة الملك! هيا الآن، اخرج من هنا!".

وساعد بيرديكاس بطليموس، وكادا ينجحان في جرّه إلى الخارج، لكـــن كلايـــتوس حرّر إحدى ذراعيه، وبدأ بالصياح ملوحاً بيده في الهـــواء. "اِسمـــع يـــا ابن زيوس! أترى هذه اليد؟ أتراها؟ هذه هي التي أنقذتك في غرانيكوس... أم أنك نسيت يا ترى؟". والتفّ بقوة مجدداً، فحرّر نفسه كلياً، وعاد يصيح موجهاً الإهانات إلى شخص الإسكندر.

عـــندها، تناول الإسكندر تفاحةً عن الطاولة، ورماها على وجهه كـــي يُجـــبره على التراجع، لكن كلايتوس تفاداها وتقدم إلى الأمام، واستمر في توجيه المزيد من الإهانات إلى الملك. سيطر الغضب الشديد علـــى الملك، وغضب كذلك بسبب عصيان مساعده، وشعر أنه أُهين أمـــام ضيوفه. وسرعان ما تحوّل الملك إلى رجلٍ شرسٍ فتناول رمحاً من أحد جنود البيزيتاروي ورماه نحو كلايتوس، ولكن من دون أن يتصور بأنـــه سيـــصيب هدفه، أي أنه قصد أن يخيفه قليلاً، ويلقنه درساً... وكانت لحظة طويلة، حيث بدت وكأنها تستغرق عمراً بأكمله. أرادت يـــده الـــتي رمت الرمح في تلك اللحظة، وكانت لا تزال ممدودة، أن تسترجعه مجدداً كي تمنعه من الوصول إلى هدفه، كما أرادت أن تحمي الأســـود نفـــسه. لكن لم يحدث أيّ من هذين الأمرين، لأنه في هذه اللحظة بالتحديد كان بطليموس قد أمسك به في محاولةٍ منه لحمايته من

غضب الملك وجرّه إلى الخارج، فانغرز الرمح الصغير بأكمله في جسده بشكلٍ مباشر.

صاح الإسكندر: "لا! أيها الأسود، لا! لا!". وركض نحو صديقه الذي ارتمى على الأرض وهو يتقيأ دماً. سحب الرمح من جسد رفيقه، وغـــرز مقبـــضه في الحـــائط، وحاول أن يدفع جسده إليه لينغرز فيه. فأمسكه سلوقس وبطليموس في الوقت المناسب، لكنه راح يتلوى مثل رجلٍ ممسوس. وصاح من بين دموعه: "دعوني! دعوني! أنا لا أستحق أن أعيش!".

أسرع ليوناتوس لمساعدة صديقيه، لكن الإسكندر تمكّن من تحرير إحـــدى يديـــه، وتناول سيفه ثم شرع في محاولة انتحارٍ ثانية. عندها، جرّده رفاقه من سلاحه ودفعوه إلى الخارج.

لم يتمكن إيومينيس من فعل أي شيء لأنه كان جالساً إلى جانب كاليـــستين في مكانٍ بعيد في الجهة المقابلة من الغرفة. جلس بسكون، وراح يراقب ما يجري في الغرفة التي كانت قبل لحظة مضت تتردد فيها أصـــوات ضجيج حفل العربدة المليء بالشراب، لكنها الآن غرقت في صمتٍ أخرق وغير واقعي. نظر المساعدون الذين كانوا يقفون منتصبين قـــربَ الجـــدار ومـــرتدين أزياءهم إلى بعضهم. وبان الشحوب على وجوههم نتيجة الدهشة التي أصيبوا بها. التفت كاليستين نحوهم، وقال لهـــم مستشهداً بكلامٍ لأرسطو: "إن الذي يقترف جريمة في حالة ثمالة يكون ذنبه مزدوجاً، وذلك لأنه ثملٌ، ولأنه اقترف جريمة".

فحدّق إليه إيومينيس، وهزّ رأسه غير مصدّق، وسأله: "أيّ رجلٍ أنـــت؟". فـــيما نظر إليه أحد المساعدين، وهو ولدٌ يُدعى هيرمولاوس بنظرة ملؤها الإعجاب.

*

بكـــى الإسكندر يائساً لمدة ثلاثة أيام وأربع ليالٍ، وهو يردّد اسم صديقه المقتول، كما رفض أن يتناول الطعام أو يشربَ الماء، فبدا مثل خيال للرجل الذي كان قويًّا قبل أيام قليلة.

قلـــق رفاقه أخيراً من إمكانية فقدانه صوابه وحياته في آخر الأمر، فطلـــبوا مـــن أريستاندر أن يتدخل. دخل الضالع وتحدث إليه لوقت طـــويل، وذكّـــره بالحلم الذي سبق أن رآه، وبنذير الشؤم الذي تمثّلَ بالخـــراف الـــتي أفلتت من مذبح الأضحيات، أي أن هذه الحادثة قد ســـطرها القـــدر مسبقاً، ويعني ذلك أنها حتمية. وتمكّن في النهاية من إعادة الإسكندر إلى حيويته مجدداً، لكن شبح كلايتوس الأسود استمر في تعذيبه وجعله يشعر بتأنيب الضمير في ما تبقى من أيامه ولياليه.

عاد الإسكندر مجدداً إلى احتساء الشراب بإفراط، أما المساعدون الـــصغار الذين اعتادوا نيل شرف تبادل حراسة الملك خلال نومه فقد بـــدأوا يستهينون به. رأوه في أحيان عدة يعود ثملاً، فكانوا يجرّونه إلى غرفته بسبب عجزه عن الوقوف على قدميه. وكان يغرق بعد ذلك في نومٍ عميق وهو يشخر.

وحـــدها ليبـــتين استمرّت في خدمته بالمستوى ذاته من التعاطف كمـــا كانـــت تفعـــل من قبل، ومن دون أن تطلب شيئاً في المقابل. وأخذت تدعو له بصمتٍ كي يستعيد بعض الهدوء في حياته.

وعند بداية فصل الخريف، اجتمع قسما الجيش في سمرقند. فوجئ كـــراتيروس كـــثيراً عندما سمع أخبار تلك الأحداث المرعبة. وأراد أن يتجـــنّب الإحـــراج الذي سيسبّبه اجتماعه مع الملك، ولذلك انطلق بـــزحف نحـــو الصحراء بهدف تلقين المساجتيين الدرس الأخير بسبب مساندهمٍ سبيتامين. أدركت القبيلة أخيراً أن المرزبان ليس لديه أي أمل بقـــيادة تمردٍ ناجح ضد الإسكندر في باكتريانا وسوغديانا، وهي التي

كانــت لا تــزال مــرتعبةً مـــن الأحداث التي جرت على ضفتي نهر أرتاكـــوانا. علمت القبيلة من درافاس أن الملك القادم من الغرب كان مـــن أنصاف الأسياد التي لا تقهر، وهو قادرٌ على الظهور فجأة حيثما يـــريد، وعلـــى الـــضرب بعنفٍ مدمر. ودعا زعماء القبيلة إلى عقد اجـــتماعٍ، واتفقـــوا على إقامة علاقات حسنة مع الفاتح الجديد، وألاّ يـــستفزوه أبـــداً. وأقدم هؤلاء على إلقاء القبض على سبيتامين عندما فاجـــأوه خلال نومه، وقطعوا رأسه ثم أرسلوه إلى كراتيروس كعلامةٍ على نيّاهم الطيبة.

وبعد ذلك، اجتمع قسما الجيش المقدوني مجدداً في سمرقند وسط طقـــسٍ بـــارد، وانطلق الجيش نحو باكترا من أجل تمضية فصل الشتاء هناك.

49

وفي الربيع التالي، انطلق الإسكندر في زحفه نحو سوغديانا مجدداً، وذلـــك من أجل إخماد آخر جيوب المقاومة، وعلى الأخص تلك التي كانت تتحصن في قلعة مشيّدة في أعالي الجبال، وتُعرف باسم الصخرة السوغدية. كانت تلكً القلعة مكاناً حصيناً يصعب الوصول إليه، كما كان حاكمها أحد كبار الملاكين الذي يُعرف باسم أوكسيارت، وهو رجـــلٌ شـــجاع لا يعـــرف الخوف، ولا يُمكن قهره. كانت الطريق الوحيدة المفتوحة للوصول إلى القلعة عبارة عن ممرٍّ ضيقٍ وصعب محفورٍ بين الصخور، ويؤدي إلى البوابة الوحيدة في أسوار القلعة العالية، والتي تقـــع مباشرةً فوق منحدرٍ عالٍ. أما الجزء الخلفي من الأسوار فقد شيّد على قمة صخرية يغطيها الثلج في معظم أيام السنة، وكانت ترتفع ما لا يقل عن ألف قدم فوق القلعة.

أرسل الإسكندر منادياً مع أحد المترجمين في تلك الطريق، وطلب مـــن الحـــراس الاستـــسلام، لكن أوكسيارت صاح بنفسه من فوق الأســـوار: "لـــن نستسلم أبداً! لدينا مؤونة تكفينا سنوات عدة، بينما ســـتهلكون أنـــتم جمـــيعاً من البرد والجوع. أبلِغوا ملككُم أن الجنود الوحيدين القادرين على احتلال قلعتي هذه هم الجنود المجنّحون".

ومـــا إن وصـــل ما قاله أوكسيارت إلى الإسكندر حتى: "جنود مجـــنّحون! جنود مجنّحون...". نظر ديادیس إلى الأعلى بعد أن غطى عينيه بيده لحمايتهما من وهج الثلج الساطع، وقال: "إذا كنتَ تفكّر في ديادالوس وآيكاروس، فإنني مضطر الآن إلى أن أذكّرك بقصتهما، وهي

للأسف أسطورة. أقول لك إن الإنسان لن يتمكن أبداً من الطيران، حتى ولو صنع أجنحة. صدّقني، إن ذلك مستحيل".

أجاب الملك: "أنا لا أعرف معنى تلك الكلمة، وكان هناك وقت لم تعرف فيه معناها أنت أيضاً. أخشى أنك تتقدم بالسن". صمت ديادیس نتيجة الإحراج الذي شعر به، وبقي صامتاً لأنه لن تخطر في ذهنه أي فكرة عن مهاجمة مكان كهذا مهما أطال التفكير.

وبالرغم من ذلك، تمكّنَ الإسكندر من وضع خطة. فاستدعى منادياً وأرسله كي يتفاوض، وأمره أن يبحث في المعسكر عن رجل يتبرع تحت جنح الظلام بتسلق تلك القمة التي تشرف على القلعة، مقابل عشرين تالنتاً أي أنه يتعيّن على ذلك الرجل أن يتسلّق ألفي قدمٍ على الأقل بدءاً من المكان الذي يعسكر فيه الجنود في تلك اللحظة.

سأل إيومينيس: "ستمنحه عشرين تالنتاً؟ لكن ذلك مبلغ كبير جداً".

ردّ الإسكندر: "يجب أن تكون المكافأة مناسبة لهذه المهمة المستحيلة. إنها تضمن غنى أسرة لمدة خمسة أجيال. إنني متأكد تماماً من أن المال يدفع الرجال إلى استنبات أجنحة لهم".

تقدم ثلاثمئة متطوع في غضون أقل من ساعة واحدة، وكان أكثر من نصفهم من الأغريانيين، ومن المقدونيين الآخرين الذين جاءوا من مناطق جبلية.

قال أحد الرجال الذي بدا وكأنه قائدهم: "لدينا فكرة. إن سكاكين الأغريانيين لا تصلح في مثل هذا الوضع، لذلك نعتزم استخدام المسامير الشائكة التي تُستخدم في نصب الخيَم، والمصنوعة من الحديد الصلب، وسنقوم بتثبيتها في الثلج، ثم سنربط الحبال حولها، وسنسحب أنفسنا إلى الأعلى واحداً تلو الآخر. إنني متأكد من نجاحنا في ذلك".

ردّ الملـــك: "وأنا متأكد من ذلك. دع إيومينيس يعطيك علماً، عـــندما تصلون إلى القمة اغرزه هناك. عندها ستصدر الأبواق نفيرها وكـــل ما عليكم أن تفعلوه عند هذه النقطة هو أن تنحنوا قليلاً حيث يرونكم من القلعة في الأسفل".

بـــدأ اللـــيل يرخي سدوله، فانطلق المتطوعون في مهمتهم المثيرة. تـــسلّق الـــرجال الـــتلة الـــصخرية سيراً على أقدامهم إلى أبعد نقطة يـــستطيعون بلوغها، وحملوا حقائبهم على أكتافهم مع الحبال والمسامير الـــشائكة. وبدأوا بعد ذلك بتثبيت المسامير في الجليد، ثم تابعوا سحب أنفسهم إلى الأعلى واحداً تلو الآخر.

في تلـــك اللـــيلة، لم ينم الملك ورفاقه، بل ظلوا مستيقظين وهم ينظرون إلى الأعلى، ويراقبون الرجال الذين كانوا يصعدون ببطء تلك الـــتلة الـــصخرية المغطاة بالثلج. بدأت الرياح تهبّ في منتصف الليل تقريباً، واخترقت هذه الرياح المتجمدة أطرافهم وعظامهم حتّى كادت تجمّدها، لكن المحاربين استمروا في تسلّقهم حيث كان بالإمكان رؤية ذلك الخط الداكن الذي يمثّل صفّ الجنود إزاء بياض الثلج الناصع.

ســـقط ثلاثـــون رجلاً، ولقوا حتفهم متحطمين على الصخور الموجـــودة في الأسفل. ولكن، تمكن مئتان وسبعون رجلاً من الوصول إلى القمة قبل انبلاج خيوط الفجر الأولى.

صاح بيرديكاس مشيراً إلى نقطةٍ صغيرة حمراء اللون وهي تتحرك في الأعلى: "العَلَم! لقد نجحوا".

صـــاح إيومينـــيس: "آه! بحق **الأسياد**، لو لم أرَ ذلك بأم عيني لما كنت صدقت هذا أبداً. أسرعوا، انفخوا في الأبواق!".

كُـــسر جدار الصمت المخيّم في الأسفل، وتردّد نفير الأبواق في المكـــان، بينما انحنى جميع المقاتلين، وبدأوا بالصياح حيث تمكّن ساكنو

القلعة من سماعهم ورؤيتهم. جهد حراس الأسوار في البداية كي يعرفوا مصدر تلك الأصوات، لكنهم عندما نظروا عالياً رأوا رجال الإسكندر يغطون القمة. عندها، ركض الحرّاس كي يوقظوا قائدهم الذي أسرع إلى المكـــان. بعد ذلك بقليل، تقدم المنادي المكلّف من الإسكندر من القلعـــة، وصـــاح: "إنـــنا نمتلك، كما ترون، جنوداً مجنّحين، ولدينا الكثيرون منهم. فما هو قراركم الآن؟".

نظـــر أوكسيارت إلى الأعلى، ثم نظر إلى الأسفل، ثم إلى الأعلى مجدداً. وردّ بالقول: "إنني أستسلم. أبلغ ملكك أنني مستعد لاستقباله".

توجّه الإسكندر مع رفاقه وجنود الهيتايروي من فرقة الطليعة، إلى القلعـــة في اليوم التالي، عند حلول الظلام. تبادل الطرفان الشكليات في الـــبداية، ومـــا لبث الضيف أن دخل مع أصدقائه قاعة المآدب، والتي كانـــت مجهـــزةً بحسب الطريقة السوغدانية. فقد صُفّت على الأرض مـــساند ناعمـــة بخطٍّ مزدوج ووُضعت الطاولات بينها. جلس الملك مقابـــل أوكسيارت، ولكن سرعان ما لفتت نظره فتاةٌ تجلس إلى يمين مضيفه. وكانت هذه الفتاة تدعى روكسانا؛ وهي ابنة أوكسيارت!

كانـــت شابة ذات جمالٍ أخّاذ وجسد متناسق، ولذلك أصبحت أسطورة بين شعبها الذي أطلقَ عليها اسم **النجمة الصغيرة**.

ابتسمت له فلمعت أسنانها كاللآلئ. أما وجهها الناعم بيضاوي الشكل فقد كان وجهاً رقيقاً غاية في الكمال. كانت رموشها طويلة، أمـــا بـــشرتها فكانـــت ناعمة مثل الرخام، وتتألق بوهجٍ خافت يماثل الكهرمان. كان شعرها داكناً جداً حيث عكس لمعاناً يميل إلى الزرقة، وهـــو الذي أحاط بوجهها المرسوم بشكل دقيق جداً. وعندما حرّكت رأســـها، ألقـــى شـــعرها ظلالاً على عينيها الواسعتين والمظلّلتين بلونٍ أرجواني داكنٍ ومحبّب.

التقت عيونهما فعلقا في دوامة هالة سحرية وأثيرية وناعمة. غابت عـــنهما كل الأشياء حولهما، وتلاشت أصوات الآخرين، وبدا لهما أن الغرفة خالية. لم يسمعا سوى أنغام قيثارةٍ هندية كانت تتماوج في هذا الفضاء الواسع والمتذبذب، وما لبثت هذه الأنغام أن دخلت روحيهما وجـــسديهما. كانت أصواتاً بلغاتٍ مختلفة، لكنها متساوية في موسيقى العاطفة العصية عن الوصف فحملتهما على أجنحة خيالاتٍ مهيبة.

أدرك الإسكندر بعد ذلك أنه لم يسبق له أن أحب شخصاً ما إلى هـــذا الحد، وأنه عاش حالات من الإثارة العميقة، ومن الرغبة التي لا ترحم، ومن التعاطف والإعجاب، لكنها كانت بعيدة عن الحب. كان الإحـــساس الذي شعر به في تلك اللحظة حباً. أحسّ بعطشٍ لا يرتوي تجاهها، كمـــا أحسّ بسكينة تطوّق روحه، لكنها سكينة ترافقت في الـــوقت ذاته مع قلقٍ يعصى عن محاولة السيطرة عليه، سكينة متمازجة مـــع سعادةٍ خالصة، وخوفٍ طاغٍ. كان ذلك هو الحب الذي يكتب عنه الشعراء، ذلك السيد الذي لا يُقهر ولا يرحم، وتلك القوة الحتمية، وهـــذيان العقل والحواس، والسعادة الوحيدة الممكنة. نسي الإسكندر كل خيالات الماضي، وكل الأحزان والأهوال، ونسي رغبته الملحة في الوصول إلى المجهول، وهي الرغبة التي سكنت الآن وذوت بتأثير تينّك العينين الأرجوانيتين الداكنتين، وبتأثير تلك الابتسامة.

وعـــندما استفاق الملك من أحلام يقظته أدرك أن جميع الحاضرين كانـــوا ينظرون إليهما، وأنهم فهموا ما يجري. نهض الملك ووقف أمام أوكسيارت، ثمّ قال بصوتٍ حازم، ولكن بعينين تفيضان بالعاطفة:

"أعلم أننا كنا عدوين قبل ساعاتٍ قليلة فقط، لكنني الآن أعرض علـــيك صداقة متينة وطويلة المدى، ومقابل هذه الصداقة وانطلاقاً من الحـــب العمـــيق الذي أشعر به في هذه اللحظة، فإنني أطلب يد ابنتك

للـــزواج". مــا إن انتهى المترجم من الترجمة حتى التفت إلى روكسانا وأضاف: "هذا إذا كانت ترغب في الزواج بـــي".

وقفـــت روكـــسانا، وردّت بلغتها التي كانت غريبةً جداً وذات جـــرسٍ إيقاعي في الوقت ذاته، لكنها نطقت اسمه بالطريقة نفسها التي سمعـــت أصـــدقاءه ينطقونه بها، وقالت: "أريدك أيها الاسكندر وإلى الأبد".

*

وبعد ثلاثة أيام، جرت مراسم الزفاف وسط مظاهر بذخ. طلب الإســـكندر تطبـــيق الشعائر الفارسية في تحضير الخبز، لكنه أصرّ على تقديمـــه بالطـــريقة المقدونية، فقطّعه بسيفه. أكل العريس والعروس من الخبز، ونظر أحدهما إلى عيني الآخر، وشعرا أنهما سيحبان بعضهما حتى النهاية. ارتدت روكسانا ملابسها الرسمية والتي كانت مؤلفة من سترة حمراء ارتدتها فوق فستان أزرق اللون، ووضعت حول خصرها حزاماً مزيّناً بحلقاتٍ من الذهب، بينما غطت رأسها بحجابٍ تدلت منه قلادة من الذهب الخالص، ومزينة بأحجار اللازورد.

لم يتـــناول الملك أي شراب تقريباً في أثناء العشاء الذي تلا حفل الـــزفاف، ولم يـــتجاوز حـــدود الإمساك بيد عروسه والتحدث إليها بـــنعومة. تحـــدّث بكلماتٍ لم تتمكن من فهمها، وردّد على مسامعها أبـــياتاً لكبار الشعراء، وصوراً عن أحلامه، وأدعية، وكلمات الحب. ســـعت روح الإســـكندر إلى الحصول على بعض العزاء في عيني هذه الـــشابة العـــذراء، وفي مشاعر الحب التي سرت إليه من يديها عندما داعبـــته، ومن عينيها عندما نظرت إليه برغبةٍ صريحة خاليةٍ من الخجل وناريـــة ولكنها مهذبة في الوقت ذاته. كان صدرها الجميل يرتفع مع كـــل نَفَسٍ من أنفاسها، بينما غطّت حمرة خجلٍ طفيفة خديها. بحث

الملــك في أنفاسها تلك عن معنى هذا الشعور المفاجئ والمجهول بالنسبة إليه، والذي تمنى أن يبقى في أعماقه بشكلٍ ثابتٍ وإلى الأبد.

غرق الإسكندر في لجة عاطفةٍ جارفة وقوية عندما أصبحا بمفردهما في الــنهاية، وعندما بدأت روكسانا بخلع ثيابها. أخفضت عينيها وهي تكــشف ببطء عن جسدها الجميل، وملأت سرير زواجهما الأرضي بعطــرٍ مبجل فاح من بشرتها وشعرها. وقع الإسكندر في قبضة أقوى المــشاعر وأعمقها. كان الأمر يشبه الغطس في حمامٍ دافئ بعد مسيرة دهــورٍ وسط العواصف الثلجية والجليد الذي يسبب الخدر. أو كأنه يــشرب مياهاً عذبةً من نبعٍ صافٍ بعد أن تاه في صحراءٍ ما. شعر بأنه رجل مجدداً بعد أن عاش الحرمان والعنف والقسوة.

وعــندما جذبها نحوه، كانت عيناه رطبتين من فرط العاطفة. لم يــشعر الإســكندر بــأي خوف لأن دفــء روكسانا غلّفه مثل غلالةٍ ناعمة، ومثل تلك السعادة الغامضة التي يحملها بين ذكريات طفولته.

*

استيقظ الملك فوجدها مستلقية إلى جانبه، وهي تبدو أكثر جمالاً بعد أن انعكس نور أحلامها في عينيها. داعبها بنعومةٍ لامتناهية، وقال لهــا: "يتعيّن علينا أن نغادر الآن يا حبيبتي، ولن نتوقف إلا عندما أرى أطــراف الأرض ومــدن الغــانج، وطيور مالك الحزين في البحيرات الذهبية، والطواويس في باليمبوثرا".

بعــد ذلــك، ركّز الإسكندر اهتمامه على تحضير الجيش وإعادة تنظــيمه، وجــنّد الآلاف مــن الآســيويين من مقاطعات باكتريانا وســوغديانا، وهــم الذين أصبح ولاؤهم مضموناً بشكلٍ مضاعف، ومحتوماً بفضل زواجه من الأميرة ابنة أوكسيارت. وصل كذلك عشرة آلاف جــندي فارســي، بعــد أن تدربوا وتسلحوا حسب الطريقة

المقدونـــية، وهـــم الذين تجندوا على يد الحكام في المقاطعات الوسطى للإمـــبراطورية. قرر الإسكندر أنه بسبب القيمة العالية التي تمثلها عادة الـــسجود أمـــام الملـــك، فإنها يجب أن تعمّم على رعاياه كافة. لكن المقدونيين تمردوا على هذا الأمر، وما لبث كاليستين أن واجهه مباشرة، وذكّـــره أنـــه من السخافة أن يتوقع هذا الأمر من شعبه. سأله: "ماذا ســتفعل عندما تعود إلى الوطن؟ هل ستطلب إلى اليونانيين، وهم أكثر الـــناس تمتعاً بالحرية من بين كل الشعوب، أن يُظهروا ولاءهم بالطريقة ذاتهـــا الـــتي يبجلون بها الأسياد؟ إنهم مختلفون، كما أن هرقل ذاته لم يحصل على مثل هذا القدر من التقدير في حياته، وحتى بعد أن مات في واقـــع الأمر، وذلك إلى أن طلب الضالع في دلفي إعطاءه هذا التكريم بالـــتحديد. أتـــرغب في أن تكـــون في صفٍّ واحد مع هؤلاء الملوك البرابـــرة؟ فكّر في ما حدث لهم. هُزم قمبيز على يد الإثيوبيين، وهُزم داريـــوس على يد اللسكاثيين، وهُزم آرسيس على يد اليونانيين، وهُزم أرتحششتا على يد جنود زينوفون العشرة آلاف، وهو الأمر الذي تعرفه جـــيداً. هُزم كل أولئك الملوك على أيدي رجالٍ أحرار. نحن الآن فوق أرضٍ غريبة، وإلى حدٍّ ما ينبغي لنا أن نفكّر مثل هؤلاء الأجانب، لكنني أتوسلُ إليك ألاّ تنسى اليونان! أريدك أن تتذكّر تعاليم أرسطو. وكيف يُمكـــن للمقدونـــيين أن يعاملوا ملكهم وكأنه أحد الأسياد، وكيف يُمكـــن لليونانيين أن يعاملوا زعيم تحالفهم وكأنه أحد الأسياد؟ يتلقى الإنـــسان مـــصافحة وقـــبلة، أمـــا الأسياد فتبنى لها الهياكل، وتقدّم الأضحيات وتغنى الترانيم. هناك فرق كبير بين تكريم رجلٍ وتكريم أحد الأســـياد. أقـــول لك إنك تستحق أعظم درجات التكريم من بين كل الرجال، لأنك كنت أكثرهم شجاعة، وأكثرهم كرماً، والأعظم بينهم، لكـــنني أتوسل إليك أن ترضى بهذا. أرجوك أن تقبل تقدير الناس لك

بـصفتهم رجـالاً أحراراً، وألاّ تطلب إليهم السجود بين يديك مثل العبيد!".

أحـنى الإسكندر رأسه، وهو الذي كان جالساً في تلك اللحظة وسط حشدٍ من الحاضرين. وسمعه الأشخاص القريبون منه وهو يتمتم: "أنت لا تفهمني... ببساطة، أنت لا تفهمني".

كـان مـن بـين الـذين سمعوه أحد المساعدين الشبان ويُدعى هيرمـولاوس، وهـو شاب كان يقدّر كاليستين كثيراً، ولكنه لم يكن يحـب الملـك. وكان هذا الشاب قد تولّى مهمّة قيادة المساعدين لأن سـيبالينوس، وهو الشاب الذي أنقذ حياة الإسكندر مرة، قد استسلم أمـام صـعوبات الحياة العسكرية وقساوة المناخ، فسقط مريضاً بحمى شـديدة أصـابته خلال الحملة ضد اللسكاثيين، ومات بعد مرور أيامٍ عـدة. اعـتاد هيرمولاوس تمضية ما أمكنه من وقت في الاستماع إلى نـصائح كاليستين وتعاليمه، وكثيراً ما كان يُهمل القيام بالمهامّ الموكلة إليه.

أعلـن الملك أن كل الذين يشعرون بعدم الرغبة في إبداء مظاهر التكـريم عـن طريق السجود سيكونون غير ملزمين بأن يفعلوا ذلك، وترك المسألة عند هذا الحدّ، لكن هذا الأمر لم يُقنع كل منتقديه. إذ لم يتقبّل عددٌ كبيرٌ منهم فكرة السجود مثل الآسيويين الذين اعتادوا هذا الأمر تماماً. ولهذا السبب، استمر المنتقدون في وصفه من وراء ظهره بأنه طاغية متجبر أعمته السلطة وأسكره الحظ الحسن.

ولسوء الحظ، لم تتوقف حالة السخط هذه، ولم يتوقف بعض الجنود عـن التشكي والتذمر، بل تمّ وضع خطّة جديدة تهدف إلى قتل الملك. وقـع الاختيار هذه المرة على الجنود الشبان المكلفين بالاهتمام به، أي على المساعدين الذين كانت مهمتهم مراقبة الإسكندر في أثناء نومه.

تعـــود بذور هذه المؤامرة الفظيعة والمؤلمة إلى ما بعد عودة الجيش إلى باكترا، في أثناء إحدى مناسبات الاسترخاء والسرور. حينها، كان هيرمولاوس يسير على صهوة حصانه إلى جانب الملك عندما ظهر فجأة حـــيوان بـــرّي مـــن تحت إحدى الأجمات هارباً من ملاحقة بيريتاس وكـــلاب أخـــرى خلال رحلة صيد الحيوانات البرية. عندها، تنحى الإسكندر جانباً وصوّب عليه رمحه، ولكنّ إثارة المطاردة سيطرت على هيرمـــولاوس الذي كان تواقاً إلى تسجيل نجاحٍ ما لنفسه، فرمى رمحه أولاً وقتل الحيوان، وهكذا تجاهل حقّ الملك في الأسبقية في هذا المجال.

كانت تلك إهانةً فظيعة، وعلامة على التغطرس والاستهانة التامة بتقالـــيد الـــبلاط وبروتوكوله. وامتلك الملك وحده صلاحية إنـــزال العقـــوبات البدنية بهذا المساعد، أو في تقرير من يمكنه إنـــزال العقوبة البدنـــية بـــه. واســـتخدم الإسكندر امتيازه هذا، فأمر أن يقيّد الولد ويُضرب بالعصيّ.

كانـــت تلك عقوبة قاسية بالفعل، ولكنها كانت عادية بالنسبة إلى البلاط المقدوني. ولقد سبق أن عانى كل رفاق الإسكندر في طفولتهم من العقـــاب بهذه الطريقة، ولا يزال ليوناتوس يحمل آثار العقاب على ظهره، كمـــا أن هيفاســـتيون ولايسيماخوس دفعا بدورهما ثمن عدم الانضباط، وذلـــك بـــناءً على أوامر من الملك فيليب، أو ليونيداس، أو أوامر مدرّب القـــتال بالأسلحة. اعتبر الأشخاص الذين دوّنوا هذه القوانين أنها نوع من أنـــواع الـــتدرب على تحمّل الألم، وأرادوها أن تكون طريقة تلزم الصغار بالاعتـــياد على الطاعة، وطريقةً تساعد على تقوية الجسد والروح في وجه الصعوبات. وكان الأولاد يُجلدون في إسبارطة من دون داعٍ لذلك أو من دون غايـــة محددة، ليكون ذلك نوعاً من أنواع التثقيف، ولتعليمهم أهمية الشجاعة والتضحية، وكتمرينٍ على قدرة تحمّل الألم.

وبالـــرغم مما تقدم، اعتبر هيرمولاوس نفسه ضحية لإذلالٍ علني، وقـــاس، وغـــير منصف. ومنذ ذلك اليوم، أخفى ذلك الشابُ حقداً عمـــيقاً تجـــاه الملك، حتى إنه أعد خطة لقتله. أراد أن يتحرك بمفرده، ولكنه احتاج إلى مساعدة من قِبَل أحدهم من أجل ترتيب طريق فراره. تحمّـــس الشاب عندما سمع أفكار كاليستين عن الحرية، لكنه عجز عن إدراك أنـــه لـــيس مواطناً أثينياً مولجاً بحماية ديمقراطية مدينته ضد أحد الطغاة، بل إنه في واقع الأمر مساعد مقدوني مكلّف بخدمة الملك الذي يتواجد في بلادٍ شديدة البعد عن الوطن، وتحيق به شتى أنواع المخاطر. كـــذلك عجـــز عـــن إدراك أن كاليستين هو الآخر كان يعتمد على الإســـكندر، وأن ذلـــك المؤرخ يتلقى الطعام والملابس والأغطية من الملك، وهي كلها تتكفل بمعيشته، وتُبقيه دافئاً في الليالي الباردة في هذه الهضبة.

تحدث هيرمولاوس عن الموضوع مثل أي شاب متهوّر إلى صديقٍ لـــه يُدعى إبيمينيديس، والذي تحدث بالأمر على الفور إلى صديق له يدعى شاريكليس، وهو شاب كان يثق به بشكلٍ أعمى. وتحدث هذا الأخـــير بـــدوره إلى شـــقيق إبيمينيديس، ويدعى يوريلوخوس. شعر يوريلوخوس برعب شديد، فسعى إلى ثنيهما عن عزمهما بكل الطرائق الممكنة.

فـــسألهم في أحـــد الأيـــام عندما كانوا مجتمعين في خيمة: "هل جننتما؟ لا يمكنكما أن تفعلا هذا".

أجاب هيرمولاوس: "بالطبع نستطيع، وسنسدي جميلاً إلى العالم عندما نحرّره من طاغية مقيت".

هزّ يوريلوخوس رأسه: "كانت غلطتك أنت، لأنك تعلم تماماً أن الرمية الأولى امتيازٌ للملك!".

"كاد يسقط عن حصانه، فكيف كان سيتمكن من الرمي؟".

"لم يسبق للإسكندر أن سقط عن حصانه أيها الغبي، وعلى كل حال كيف تتصور أن تنفذ خطتك؟ أنت تعرف أنه ليس من السهل أبداً قتل ملك".

"آه، بل إن ذلك أمر يسير. فكّر في كيفية موت الملك فيليب، وهو الذي كان أفضل بكثير من هذا الملك. إذ لم يكتشف أحد من كان القاتل".

"لكننا بمفردنا هنا، كما أننا محاطون بالبرابرة وبالصحراء. سيأتون للبحث عنا على الفور. يُضاف إلى ذلك - هذا إذا كنتَ تريد أن تعرف حقاً - أنني مضطر إلى أن أقول لك إن هناك شائعات تسري بين أوساط الجنود وتدور حول كاليستين، وهي شائعات تجعلكما المشتبه فيهما. فلقد سمعك أحدهم وأنت تسأله عمّا يستطيع المرء أن يفعله كي يصبح أشهر رجل في العالم، ويبدو أنه أجابك على النحو التالي: *من حسن حظك أن كلماتك هذه لم تصل إلى مسامع الملك*. ولكن لا يمكنك استفزاز القدر من دون عقوبة". ثم التفت إلى إبيمينيديس وأضاف: "وبالنسبة إليك، فهذا يكفي تماماً. أنا شقيقك الأكبر، ولهذا آمرك بأن تنسى أمر هذين البائسين. أما أنتما، فإنكما ستنسيان الأمر برمته لو كنتما تعرفان صالحكما. تصرفوا بشكل محترم، فلعل الشائعات تتلاشى من تلقاء نفسها".

هزّ هيرمولاوس كتفيه قائلاً: "سأتصرف كما أريد. وإذا لم تكن لديك النيّة لمساعدتي، فلا تهتم بذلك لأن لديّ أصدقاء آخرين. سيكون الأمر بسهولةٍ تماثل هذه". وبصق على الأرض قبل أن يدير ظهره ويسير مبتعداً.

انتظر المتآمرون الشبان أن يخرج الإسكندر ورجاله في عملية ضد مجموعةٍ من المتمردين ليبدو موته وكأنه من عمل عدوٌ تمكن من التسلّل

إلى المعسكر بطريقة ما. وشرعوا بعد ذلك في مناقشة تاريخ التنفيذ وتوقيته.

*

عانقت روكسانا الملك بشدة عندما غادر القصر في باكترا، وقالت له: "لا تذهب!".

فردّ الإسكندر: "إنك تحرزين تقدماً كبيراً بلغتك اليونانية. ولكن، عندما تتقنينها سأعلمك اللهجة المقدونية كذلك".

كرّرت روكسانا بصوت يوحي بالقلق: "لا تذهب!".

طبع الإسكندر قبلةً على خدّها: "لكن، ما الذي يمنعني من الذهاب؟".

حدّقت إلى عينيه، وقالت والدموع تفيض من عينيها: "منذ يومين وأنا أرى... الظلام".

هزّ الملك رأسه، وكأنه يريد أن يطرد فكرةً مقلقة من رأسه. وبعد ذلك، أسرع مساعدوه إلى تثبيت درعه، ورافقوه إلى باحة القصر حيث ينتظره فرسانه وهم على أهبة الاستعداد للانطلاق.

مضى يومان قبل أن يتكلم الملك مع أريستاندر بسبب قلقه ممّا أخبرته إياه روكسانا. سأله: "برأيك ماذا يعني ذلك؟".

"لدى نساء هذه البلاد القدرة على التوقع، وهن قادرات على الإحساس بالخطر عندما يكون بعيداً عنهن، يضاف إلى ذلك أن روكسانا تحبك".

"وما الذي يجدر بي القيام به؟".

"لا تنم هذه الليلة. اقرأ واشرب، ولكن كن منتبهاً. يتعيّن عليك أن تبقى مستيقظاً".

ردّ الإسكندر: "وهذا ما سيحصل". وانتظر الملك بعد ذلك حلول الظلام.

50

لاحظ بطليموس أن مشعلاً لا يزال مشتعلاً في خيمة الإسكندر، فتوجه نحوها ودخلها. ألقى التحية عليه مساعدان شابان كانا في الخدمة في تلك الليلة.

سأل بطليموس: "لماذا لا تزال مستيقظاً؟ إنها نوبة الحراسة الثانية".

"لا أشعر بالرغبة في النوم، لذلك كنت أقرأ".

ألقى بطليموس نظرة على الكتاب، وقال: "الهند للكاتب ستيسياس. لا تستطيع الانتظار، أليس كذلك؟".

"كلا. عندما نحتل الهند نستطيع أن نقول إن آسيا بأكملها قد أصبحت في قبضتنا. بعد ذلك، سنعود كي نبدأ في تغيير العالم يا بطليموس".

"أتعتقد فعلاً أن العالم قابل للتغيير؟ أتعتقد أننا نستطيع النجاح في مهمة كهذه؟".

أبعد الإسكندر نظره عن لفافة البردى التي كان يمسكها مفتوحة أمامه: "أجل، أظن ذلك. أنسيت تلك الأمسية في هيكل ديونيسيوس في مييزا؟".

"إنني أتذكرها. كنا صغاراً ومليئين بالحماسة، والآمال، والأحلام...".

"تمكّن هؤلاء الصغار من قهر أكبر إمبراطورية في العالم، وهي التي تشكل ثلثي مساحة الأرض، كما أسّسوا مدناً عدة ذات ثقافات إغريقية، ودساتير إغريقية، في قلب آسيا. أتظن أن كل ذلك قد حدث

بمحض الصدفة؟ أتعتقد أن كل ذلك يخلو من دلالة معيّنة أو من غاية معيّنة؟".

"أحب أن أعتقد أن ذلك صحيح. يمكنك الاعتماد على صداقتي في كل الأحوال، وعلى ولائي لك. يمكنك أن تثق بأنني لن أتخلى عنك. أما بالنسبة إلى الآخرين، فإن هناك لحظاتٍ تمر بي وأحتار فيها في ما أفكّر فيه...".

دخل هيرمولاوس في تلك اللحظة، فزمجر بيريتاس. عندها، التفت بطليموس نحوه وسأله: "هل دورك بالحراسة في هذه الليلة؟".

أجاب الفتى: "أجل يا سيدي".

"إذاً، لماذا كنتَ في الخارج؟".

"لم يكن الملك نائماً، و لم أرد إزعاجه".

قال الإسكندر: "أنت لا تزعجني. يمكنك أن تبقى إذا أردت".

جلس الفتى في إحدى زوايا الخيمة. نظر بطليموس إليه، ثم نظر إلى الإسكندر، لكنه أحس أن شيئاً ما لا يجري على ما يرام، وخيّم عليه شعور مبهم من التوتر، ومن طاقة ما مكتومة.

"إنه الفتى الذي عاقبته في ذلك اليوم بعد جولة الصيد".

سأل بطليموس المساعد بعد أن رأى ملامح شريرة على وجه الفتى: "أما زلتَ ممتعضاً أيها الفتى؟ أتعلم؟ لا يجدر بك أن تمتعض. أتعلم كم مرة تعرضتُ فيها للضرب عندما كنت في مثل سنك؟ ركلني الملك فيليب ذاته على ظهري، كما أنه أمر بجَلدي بالسياط ذات مرة عندما أعطبت أحد جياده، لكنني لم أسمح لنفسي بالحنق، لأنه كان رجلاً عظيماً، ولقد فعل ذلك لصالحي".

قال الإسكندر: "تغيّر الزمن. إن هؤلاء الفتيان ليسوا كما كنا. إنهم... مختلفون، أو ربما نحن الذين تغيّرنا، أو لعلنا كبرنا في السن.

إنني في الثلاثين من عمري... أتصدق ذلك؟".

"إذا كنت تريد التحدث عن العمر، فإنني تجاوزت هذا الحدّ منذ سنوات. حسناً، سأواصل جولاتي التفتيشية. أيمكنني أخذ الكلب معي؟ إنه رفيق جيد". لوّح بيريتاس بذيله في هذه اللحظة.

"خذه. إن وزنه يزداد، لذلك فإن بعض التمرين سيفيده كثيراً".

"إذاً، سأخرج. نادِني إذا احتجت إليّ في شيء".

أومأ الإسكندر، وعاد إلى قراءاته، وكان يتناول بين الحين والحين رشفةً من كوب شرابه الذي وضعه على طاولته. فيما جلس هيرمولاوس قبالته بصمت، مطبقاً فكيه بشدة، وخافضاً بصره. وبين الحين والآخر، كان الملك يبعد نظره عن لفافة البردى لينظر إلى ملامح وجه مندهشة. قال له: "أنت تكرهني، أليس كذلك؟ أنت تكرهني، لأنني أمرت بضربك".

"هذا ليس صحيحاً يا مولاي. أنا...". كان كذبه واضحاً، وهذا ما أقنع الملك بأنه ولد شرير، لأنه لم يمتلك الجرأة لإظهار كراهيته أو للتخلي عنها.

"انسَ الأمر. لا أهمية لذلك أبداً".

مرّت الليلة بأكملها تقريباً على هذا المنوال، ولذلك كانت ليلة باردة، وفارغة، وبلا فائدة. أوشكت فترة الحراسة على الانتهاء، واستعد الفجر لإطلاق خيوطه الأولى. كان هيرمولاوس معذباً بشكوكه، واستمر في النظر إلى الملك الذي أحنى رأسه، وبدا وكأنه على وشك الاستسلام للنوم.

بقي يوريلوخوس مستيقظاً طوال الليلة لأنه أدرك أن المساعدين الثلاثة المكلفين بالحراسة كانوا يتآمرون، ولذلك كان واثقاً من أنهم سيقررون تنفيذ الخطة، وازداد تأكده هذا لأن القائد بطليموس اعتاد

أخذ بيريتاس معه عندما يأتي دوره في تفتيش الحراس. لاحظ أن المشعل في الخيمة الملكية بقي مشتعلاً، وأن الملك لم يخلد إلى النوم، بالرغم من عدم وجود خطرٍ داهم بأن يشن الأعداء هجوماً مباغتاً، فاستنتج أن أمراً رهيباً علّى وشك الحدوث. أيُحتمل أن يكون الإسكندر قد اكتشف خطتهم. أو هل يُحتمل أن يكون هيرمولاوس والآخرون على وشك أن يضربوا ضربتهم. أيُمكن أن تكون الكلمات وحدها كافية لإنقاذ هؤلاء؟ رأى بطليموس آتياً بعد أن انتهى من جولته التفتيشية فقرّر أن يتكلم معه. "سيدي...".

"ما الأمر أيها الفتى؟".

"أنا... يتعيّن عليّ أن أتحدث إليك".

"إنني أصغي إليك".

"ليس هنا في هذا المكان".

"إذاً، سنتحدث في خيمتي". وقاده إلى خيمته ومشى قبله. "إذاً؟ لماذا كل هذه السرية؟".

بدأ يوريلوخوس كلامه: "اسمع يا سيدي. إن شقيقي إبيمينيديس، وهيرمولاوس، وشباناً آخرين... كيف أقولها؟... تسيطر عليهم أفكارٌ غريبة... تعرف أن هيرمولاوس وشقيقي وبعض أصدقائهما يرافقون كاليستين في بعض الأحيان، ولقد ملأ رؤوسهم بكل أنواع الكلام التافه حول الديمقراطية والطغيان، وهكذا...".

سأل بطليموس مقوساً حاجبيه: "إذاً؟".

تابع يوريلوخوس كلامه من دون أن يستطيع كبح جماح دموعه: "إنهم مجرد أولاد يا سيدي. يُحتمل أنهم عدلوا عن تفكيرهم هذه المرة، ويُحتمل أن الملك يشكّ في شيء ما... لا أعلم... قررت أن أتكلم معك علك تخيفهم قليلاً، حيث يقومون بنزع كل هذه الأفكار الغبية

من رؤوسهم. يقع الحق بكامله على كاليستين، ألا ترى ذلك؟ لأنهم ما كانوا ليفكروا في كل هذه الأمور لولاه، وحتى لو كان الملك قد ضرب هيرمولاوس بسبب قضية الحيوان البري، فأنا لست متأكداً بأنه سيقدم بالفعل... لكن من يعلم...".

صاح بطليموس: "بحق زيوس! بيريتاس! اركض! اركض إلى الإسكندر!". انطلق الكلب راكضاً بأسرع ما تقدر عليه قوائمه، واندفع إلى الخيمة في اللحظة ذاتها التي كان فيها سيده يضع رأسه على الطاولة من شدة النعاس. وكانت يد هيرمولاوس تتحرك بخفة نحو حزامه، ومن تحت سترته، فهاجمه بيريتاس، وأوقعه أرضاً وعضّه في يده التي حملت الخنجر.

دخل بطليموس بسرعة، فتمكن من الإمساك بالكلب قبل أن يُعمل أنيابه في يد الفتى. استيقظ الإسكندر من غفوته فجأة بسبب كل ذلك الضجيج ونهض على قدميه، ثم استلّ سيفه.

جهد بطليموس لالتقاط أنفاسه في أثناء تجريده هيرمولاوس من سلاحه، وقال: "شرعوا بقتلك".

تلوّى الفتى، وراح يركل بقدميه صارخاً: "أيها الطاغية الملعون! أيها الوحش المتعطش إلى الدماء! إن يديك ملطختان بالدماء! لقد قتلت بارمينيون وفيلوتاس. أنت قاتل!".

حاول الحارسان الموجودان خارج الخيمة الفرار، لكن بطليموس نادى حامل البوق وأمره باستدعاء حاملي الدروع، وهكذا أوقف الحارسان المساعدان فور شروعهما بالهرب. كان يوريلوخوس لا يزال يبكي عند وصوله راكضاً، وراح يتوسل إليهم قائلاً: "لا تؤذوهم يا سيدي! لا تؤذوهم لأنهم لن يفعلوا أي شيء آخر. أعدك بذلك. سلمهم إليّ وسأتولى إنزال العقوبة بهم. سأُشبعهم ضرباً، لكن لا تُنزلوا الأذى بهم. أتوسل إليك!".

نهض الإسكندر، وكان شاحب اللون من شدّة الغضب، بينما استمر هيرمولاوس في صراخه مطلِقاً كل أنواع الشتائم والإهانات وسط المعسكر الذي أصبح يعجّ بالجنود الراكضين من كل صوب.

سأل بطليموس مستخدماً الصيغة الرسمية: "ما هو العقاب العادل الذي يستحقه هؤلاء الرجال يا مولاي".

أجاب الإسكندر قبل أن يتوجه إلى خيمته للاستراحة: "دع الجيش يقرّر مصيرهم".

اجتمع القضاة العسكريون على الفور، وخضع المساعدون للمحاكمة التي استمرت طوال اليوم وخلال الليلة التالية، وطُلب إلى كل واحد منهم تأكيد قصة الآخرين، وهو الأمر الذي أدى إلى حصول تناقض بين القصص، فضُربوا وجُلدوا بالسياط إلى أن اعترفوا جميعاً. لم يذكر أحد اسم كاليستين، وحتى تحت التعذيب، لكن يوريلوخوس، وهو الذي لقي العفو لأنه أنقذ حياة الملك، استمر في القول إن هؤلاء الفتيان ما كانوا ليقدموا على التفكير في وضع خطة كهذه لو لم يملأ كاليستين رؤوسهم بهذه الأفكار. وتابع التوسل حتى النهاية كي يُعفى عنهم، لكن جهوده ضاعت سدى.

وعند طلوع الفجر، رُجم المتآمرون جميعاً حتى الموت، وترافق ذلك مع هطول مطرٍ خفيف.

شهد إيومينيس المحاكمة والإعدام، وتوجّه بعد ذلك إلى خيمة كاليستين فوجده فيها مرتعشاً وشاحباً مثل جثة، بينما كانت يداه ترتجفان بتوترٍ حزين.

قال له: "ذُكر اسمك في أثناء المحاكمة".

انهار كاليستين على كرسي وهو يصدر تنهيدة عميقة: "إذاً، إنها النهاية، أليس كذلك؟".

لم يُجب إيومينيس.

صاح كاليستين: "إنها نهايتي، أليس كذلك؟".

"اكتسبت أشباحك هيئة جسدية يا كاليستين، وسكنت جثث أولئك الفتيان الذين يرقدون الآن تحت كومةٍ من الأحجار. إن رجلاً مثلك... ألم تُدرك أن الكلمات، مثل السيف، تَقتل بالسهولة ذاتها؟".

صاح كاليستين وسط نشيجه: "هل سيعذبونني؟ أنا لا أحتمل ذلك. يمكنهم أن يحملوني على قول أي شيء يريدونه!".

أحنى إيومينيس رأسه حرجاً: "أنا آسف. أردت فقط أن أخبرك أنهم سيأتون ليأخذوك بعد وقت قصير، لذلك، ليس أمامك الكثير من الوقت". وغادر بعد ذلك تحت المطر المنهمر.

نظر كاليستين حوله بيأسٍ تام باحثاً عن سلاحٍ، أو نصلٍ ما. ولكن كان كل ما رآه لفافات ورق البردى المتراكمة في كل مكان. رأى الكتاب الذي دوّنه **تاريخ حملة الإسكندر**، وتذكّر فجأة شيئاً كان يتعيّن عليه أن يتخلص منه منذ زمنٍ طويل، لكنه احتفظ به لسببٍ ما. توجّه إلى صندوق، وراح يبحث في محتوياته بينما تقطعت أنفاسه نتيجة الخوف والقلق. أخيراً حمل ذلك الشيء بين يديه، وكان عبارةً عن علبةٍ معدنية. فتحها فوجد داخلها قارورةً زجاجية تحتوي على مسحوق أبيض وملفوفة بقطعة قماش، كما وجد ورقة صغيرة من أوراق البردى كتب عليها!

لا يستطيع أي شخص أن يتحكّم في سيطرة الأمراض عليه، لكن هذا الدواء يسبّب الأعراض ذاتها.
يسبب مقدار عُشرٍ واحد من جزيء حدوث حمى عالية، وقيء، وإسهال لمدة يومينٍ أو ثلاثة أيام. ويظهر تحسن بعد ذلك، حيث يبدو الأمر وكأن المريض يتعافى. ولكن، في اليوم الرابع ترتفع درجة الحرارة مرةً أخرى، ولا يلبث المريض أن يموت.

أحرق كاليستين ورقة البردى، ثم ابتلع كامل محتويات القارورة.

ووجـــده الحـــراس الذين أتوا لأخذه منهاراً بين لفافات أوراق **تاريخه**، وعيناه مفتوحتان ومليئتان بالرعب، وتحدقان إلى الفراغ.

51

ظهر شاطئ فوسيس بوضوح الآن من بين الضباب المسائي، ومن بين الغيوم التي تلبدت في كبد السماء، ومن بين أمواج البحر الملتهبة التي تلونت بألون أشعة الشمس الغاربة. تابع المركب إبحاره مستفيداً من الرياح التي تهب من خليج آيجنا. تحرّك أرسطو نحو مقدمة المركب كي يشاهد المناورات التي تسبق عمليّة الرسو، وما لبث بعد وقتٍ قصير أن نزل في مرفأ **سيرا** الصغير، حيث انشغل عمال المرفأ وبائعو الأشياء المبجلة في أعمالهم.

سأله أحدهم: "أتريد خروفاً للتضحية؟ يكلّفك هنا نصف الثمن الذي يطلبونه منك في دلفي. انظر إلى هذا الخروف الصغير. إنه لا يكلفك أكثر من أربعة أوبولات. إذاً! أترغب في ابتياع زوجٍ من الحمام؟".

ردّ الفيلسوف: "أحتاج إلى حمار".

قال التاجر بسرعة: "أتريد حماراً؟ أنت تمزح من دون شك... من هو الشخص الذي يُقدم على التضحية بحمار في...".

"لا أنوي التضحية به، لكن أريد أن أمتطيه".

"آه! هذا أمر مختلف. إذاً، تعالَ إلى هذه الناحية، فلديّ صديق قديم متخصص بالحمير، وهو يمتلك أفضل الحيوانات التي يُمكنك إيجادها". أدرك التاجر عند هذا الحدّ أن الرجل الواقف أمامه هو أحد المثقفين، ورجلٌ يُتقن كتابة الرسائل، وليس ذا خبرة كبيرة في أمور الفروسية.

تفاوض أرسطو مع البائع على ثمن استئجار الحمار لمدة ثلاثة أيام، هذا بالإضافة إلى دفع تأمينٍ يُسترجع بعد إعادة الحيوان. انطلق أرسطو في رحلته نحو هيكل أبولو من دون أي مرافقة. بدأ الوقت يتأخر في هذا الحين، كما أن الزائرين يفضلون عادة زيارة الهيكل بعد المرور بغابة الزيتون الفضية اللامعة في أوقات الصباح، أي في ضوء النهار، بدلاً من التنقل في الظلام الذي يحوّل هذه الجذوع الموغلة في القدم إلى أشكالٍ مخيفة تهدد الناظر إليها. أتاحت طريقة سير الحمار الهادئة للفيلسوف المجال كي يفكّر قليلاً، بينما كانت أشعة الشمس الغاربة تدفئ أطرافه الباردة بعض الشيء نتيجة هبوب رياح المساء، والتي لا بد من أنها حملت معها الثلوج الأولى التي غطت جبل سيثيرون.

فكّر في تلك السنوات العديدة التي خصّصها للتحقيق في مقتل الملك فيليب محاولاً الوصول إلى الحقيقة المستعصية عن الانكشاف.

لم تكن الأخبار الواردة من آسيا مشجعة منذ بعض الوقت. فلقد بدا أن الإسكندر قد نسي ما تعلّمه، على الأقل في ما يتعلق بالسياسة. وضع الملك البرابرة على قدم المساواة مع اليونانيين، وارتدى أزياء طاغية فارسي، وطلب من زائريه السجود بين يديه، كما أن والدته أوليمبيا عمدت إلى نشر أخبار أصله، وصلته بزيوس.

يا لفيليب المسكين! لكن قيل قديماً إن قَدَر كل العظماء أن يولدوا بطريقة غير شرعية لآباء من الأسياد: هرقل، كاستور، وبولوكس، وآخيل، وثيسيوس... والإسكندر لا يمكن أن يكون استثناءً لهذه القاعدة، والحق يُقال إنه لا يُمكن للمرء إلا أن يتوقع هذا. شعر بأنه مشتاق إلى الإسكندر، بالرغم من كل هذه الأفكار، وأنه مستعد لدفع أيّ مبلغٍ مقابل رؤيته مجدداً. وراح يتساءل كيف يبدو بعد كل هذه السنين، وما إذا كان لا يزال محتفظاً بطريقته الفريدة في إمالة رأسه نحو

كتفه اليمنى عندما يكون مصغياً إلى أحدهم، أو عندما يقول شيئاً يمسّ شغاف روحه.

ماذا بشأن كاليستين؟ إنه يتمتّع بقدرات كبيرة في الكتابة من دون شك، ويفتقد قليلاً إلى روح النقد، لكن مستوى حكمته منخفضٌ بالتأكيد. راح يتساءل كيف يتدبر كاليستين أموره في تلك الظروف الصعبة هناك في الأماكن الوعرة، وبين أناسٍ قساة القلوب، ووسط دسائس ذلك البلاط المتنقل، والذي أصبح غير ثابتٍ الآن، وأكثر خطورة. لم يتلقَ منه أخباراً منذ أشهر عدة. لكن، ربما يعود ذلك إلى صعوبة خطوط المواصلات عبر تلك المناطق الشاسعة والمؤلفة من صحارٍ ومرتفعات، وأنهارٍ سريعة الجريان، وسلاسل جبال، وكلها عوامل تصعّب التواصل بينهما.

أسرع الفيلسوف بحماره قليلاً بعدما نخسه بكعبَي قدميه على جانبيه، وذلك لأنه يريد الوصول إلى القمة قبل حلول الظلام. لا بد من أن قاتل فيليب، كائناً من كان، ذو عقل شيطانيّ حيث لم يستطع هو أو المحققون الآخرون، كشفه حتى تلك اللحظة. أشارت الدلائل الأولى إلى الملكة أوليمبيا، لكنها أثبتت أنها متهمة مستبعدة، لكن لماذا أقدمت زوجة فيليب على وضع التاج فوق رأس جثة القاتل؟ أدرك أنه بقي عدد كبير من أصدقاء الملك الذين لديهم القدرة على جعلها تدفع غالياً ثمن هذا الاغتيال، وخاصة لأنها أجنبية، أي أنها ضعيفة ومعرضة للاتهام بشكلٍ مضاعف في هذه الظروف. راح يستعرض فرضية أن الجريمة قد حدثت بدافع العاطفة، وهي قصة قذرة، وتوحي بأن بوزانياس القاتل قد انتقم من فيليب كي يثأر مما عاناه على يد آتالوس، والد يوريديس الشابة، وآخر أعمامه. لكن آتالوس مات الآن، والأموات لا يتكلمون.

رافقت أصوات حوافر الحمار على الطريق الحجرية تأملات الفيلسوف التي سارت على إيقاعٍ هادئ. وخطرت في ذهنه المقابلة التي أجراها مع خطيبة بوزانياس في منطقة المقابر في أحد مساءات الشتاء الباردة. وفكّر كذلك في الفرضية الثالثة: ما إن وضعت يوريديس، عروس فيليب الشابة مولودها الذكر حتى خطر في بال آتالوس، والد العروس وجدّ المولود، وضع خطة جريئة تقضي بقتل فيليب وإعلان نفسه وصياً على العرش باسم حفيده، وهو الحفيد الذي سيتولى العرش عندما يكبر. كانت إمكانية نجاح هذه الخطة كبيرة لأن والدة الطفل كانت مقدونية، بعكس أوليمبيا التي كانت غريبة عن البلاد. كانت هذه الخطة ستحظى بخاتمة مثالية مع قتل بوزانياس، الشاهد الوحيد على هذه المؤامرة. لم يتوافر أي برهان على هذه النظرية لأن آتالوس لم يبذل أي محاولة للاستيلاء على السلطة بعد مقتل فيليب، ولم يزحف على بيلا بالجيش الذي كان يقوده في آسيا في ذلك الوقت. أيُحتمل أنه كان خائفاً من بارمينيون؟ أم من الإسكندر؟

على كل حال، كيف يُمكن للمرء أن يفسّر كلمات خطيبة بوزانياس؟ كانت هذه الفتاة على علمٍ بأشياء كثيرة، وبدا أنها تعتقد أن فرضية الاعتداء على حبيبها من قِبل مساعدي رحلة صيد آتالوس فرضيةٌ تضعف كثيراً إذا لو كان هو القاتل. بحث أرسطو عن الفتاة مجدداً، لكن قيل له إنها اختفت في وقتٍ سابق، وإنه لم ترد منها أي أخبار.

بقي لديه احتمال أخير متمثّل في الدلائل التي تشير إلى معبد دلفي، حيث أصدر الضالع هناك توقعاً غامضاً في الظاهر، لكنه دقيق جداً ويرتبط بموت فيليب الوشيك. علم أرسطو أن هناك رجلاً يعيش في مكانٍ غير بعيد عن هذا المكان، لكنه يتخذ لنفسه اسماً مزيفاً. إنه

الرجل الذي قتل بوزانياس، وهو الشاهد الوحيد الذي قد يرشده إلى الشخص الذي أمر باغتيال فيليب.

نظر الفيلسوف خلفه، فلاحظ أن ضوء الشمس الآخذ في التلاشي قد صبغ مياه الخليج باللون الأرجواني، فبدا مثل مرآة محصورة بين رأسين بارزين. بدت إلى يساره في الأعلى الطريق التي تؤدي إلى معبد أبولو القديم والعظيم، وهو المعبد الذي ظهر مضاءً في هذا الوقت بفعل المشاعل. في هذه الأثناء، اخترقت جدار سكينة المساء أنغام الأغنية الإيقاعية التالية:

أيها السيد، يا من تحمل قوسك الفضي، يا فوبس المتألق،
الذي يجلب النور إلى بلاد إيليسيوم،
وإلى الجزر التي ضاعت
في مياه أقيانوس المتلاطمة،
عُد. عُد الآن. آه أيها السيد! اجلب لنا
الفجر في الغد،
وابتسامتك المشرقة بعد الليلة الحالكة،
والدة الكوابيس، وابنة الفوضى.

في هذا الوقت، وصل أرسطو إلى مقصده، فربط الحمار بحلقة معدنية قرب بركة المياه، ثم سار مشياً على قدميه فوق الأرض المبجلة، ومرّ من خلال المعابد الصغيرة المخصّصة لتقديم النذور، والمؤلفة من المعابد الأثينية والسفنيانية، ومعبدَي طيبة وإسبارطة. كانت كل هذه المعابد مليئة بنذور الانتصارات التي تم كسبها عن طريق سفك دماء الأخوة. فلقد سفك اليونانيون دماء اليونانيين. شعر الفيلسوف عندما نظر إلى هذه النذور بما كان الإسكندر سيقوله عنها لو تمكّنا من تبادل الأحاديث في ما بينهما في تلك اللحظة بالذات.

كـــان أواخـــر الزائرين يغادرون، وكان القيّم على وشك إغلاق أبواب المعبد الذي أصبح مهجوراً في هذا الوقت.

فطلب إليه أرسطو أن ينتظر، ثم أضاف: "جئت إلى هنا من مكانٍ بعيد، ويتعيّن عليّ أن أغادر في الغد. أرجوك، أعطني فترة قصيرة فقط، ودعـــني أتلو مطالبـــي، والتي تتضمن طلباً يائساً بسبب كوني ضحية تعـــويذة رهيـــبة، وهـــي لعـــنة لاحقتني منذ سنواتٍ عديدة". وضع الفيلسوف قطعة نقدية في يد القيّم.

وضـــع القيّم القطعة النقدية في محفظته وقال: "حسناً، لكن كن سريعاً". انطلق الفيلسوف فوق الدرج المؤدي إلى منصة المعبد.

دخـــل أرسطو المعبد، وتوجه إلى داخل المنطقة شبه المظلمة التي تشكّل الممر الأيسر، وتحرّك بخطواتٍ صغيرة في أثناء تقدمه، ولاحظ آلاف الـــنذور المعلقة على الجدار. أرشده إلهامه، وبقايا ذكرى تعود إلى سنواتٍ عديدة مضت عندما زار المعبد وهو صغير، وكان يمسك بـــيد والـــده نيقوماخوس. استرعى انتباهه أحد هذه النذور بالذات. وقادته هذه الذكرى، بالإضافة إلى شكوكه، ليقف تحت هذا السقف المبجل.

وصل إلى نهاية الممر، وعَبَره إلى الناحية الأخرى تحت أنظار أحد الأسياد الذي كان جالساً فوق عرشه. تابع تفتيشه حتى وصل إلى الجهة الأخرى، ونظر بتركيزٍ إلى الجدار، لكنه لم يجد شيئاً يؤكد ذكرياته التي تلاشـــت بسبب قدَمِها. كان الظلام حالكاً، لذلك تناول مشعلاً معلقاً علـــى أحـــد الأعمدَة، ورفعه عالياً نحو الجدار. وسرعان ما شعّ وجهه بأمارات الانتصار. كان على حق! تمكّن من تعرف ذلك الشيء أمامه، مـــع أنه بهت بفعل مرور الزمن. كان هذا الشيء هو تلك العلامة التي بدت كأثر لشيء عُلّق في ذلك المكان لسنواتٍ عديدة.

نظــر حوله كي يتأكد أنه ليس هناك أحد يراقبه. رفع بإحدى يديه المــشعل، بينما تناول باليد الأخرى ذلك السيف السلتي القصير الذي قتل الملـــك فيليب في ذلك اليوم في آيجيا. حرّكه نحو البقعة على الجدار وقرّبه ببطء، وكأنه خائف من فعل ذلك... لكنهما تطابقا بشكلٍ تام!

كـــان المسماران لا يزالان في مكانيهما على الجدار، وتناسبا مع شكل منحنيات المقبض الحلزوني. علّق أرسطو السيف في مكانه.

تناهى إلى مسمعه صوت القيّم من الخارج: "إذاً... هل أنهيتَ ما تقوم به؟".

ردّ الفيلـــسوف: "أنـــا آتٍ". وغادر بسرعة، وشكر القيّم عند مروره أمامه.

أمضى أرسطو الليل بكامله تحت الرواق المعمّد ملتفاً بعباءته مثل بقية الزائـــرين، لكـــنه لم ينم إلا قليلاً. راح يفكر في تحالف دلفي! أيُعقل هذا؟ أيُعقـــل أن تكون أكثر الهياكل مهابةً في العالم اليوناني هي التي أمرت بقتل الملك فيليب؟ ألا يُحتمل أن تكون العلامة على الجدار مجرد مصادفة غريبة، أم أن أرســـطو أراد الوصول بأي ثمن إلى حلٍّ لهذا اللغز الذي تحدّى ذكاءه لـــسنوات عديدة. لكن هذه هي النظرية الوحيدة التي استطاع أن يبرهنها، أي أن السلاح الذي قتل الملك قد جاء من المعبد! كان ذلك دليلاً معقولاً في نهايـــة الأمر. ولكن، هل سمحت أعلى سلطة في اليونان لنفسها بأن تقع تحـــت هيمنة إرادة رجلٍ واحد بمفرده؟ ألا يظهر ذلك الذكاء الذي يصدر عـــن مكان مبجل والذي أمر بقتل ملك عظيم في لحظة تسمح باتهام أي شـــخص كالأثينيين الذين رأوا فيه طاغيةً ومغتصباً لسيادتهم، وما تبقى من سكان طيبة الذين يكرهونه بشدّة بسبب المواجهات في شايرونايا، والفرس بـــسبب خـــوفهم من إقدامه على غزو آسيا، والملكة أوليمبيا لأنه اختار يـــوريديس الشابة عروساً له، والأمير إمينتاس الذي حرمه فيليب من حقه

الـــشرعي في الحكـــم؟ ألم يكن الإسكندر ذاته في دائرة الشكوك في نهاية الأمـــر. كان الجميع في دائرة الشك، وهذا يعني أن أصابع الاتهام لن توجّه إلى أحـــد. كـــان الدافع هو ذاته الذي يبرر أي جريمة: *سلطة العقل على الإنسان*، والتي هي أقوى وأهم بكثير من أي سلطةٍ أخرى في العالم، وهي أقرب ما تكون إلى سلطة الأسياد.

بقي هناك رابط أخير مع تلك الجريمة؛ الرجل الذي قتل بوزانياس والـــذي عاش، حسب ما تمكّن أرسطو من الاستنتاج، في مزرعةٍ تعود ملكيتها إلى الهيكل.

كـــان الظـــلام لا يزال مخيّماً عندما نهض، فامتطى حماره وانطلق مجـــدداً. سار نـــزولاً في الطريق التي تؤدي إلى البحر لمسافة نحو عشرة ستاديات، وما لبث أن سار عبر طريق بغالٍ تتجه يميناً قبل أن يصل إلى سهلٍ صغير مقسّمٍ إلى جلولٍ مزروعة بكرومٍ العنب.

كـــان المنـــزل ماثلاً بوضوح خلف العرائش، وإلى جانب شجرة سنديانة معمرة. ظهر مبنى صغير شُيِّد سطحه بالأحجار الطينية وأمامه رواقٌ صغير معمّد؛ أعمدته مصنوعة من خشب أشجار الزيتون.

دخـــل الـــباحة حيث كانت مجموعة صغيرة من الحيوانات البرية تجـــول في المكـــان وتلـــتقط ثمار البلوط المبعثرة تحت الشجرة. نادى أرســـطو: "أمِـــن أحـــدٍ هنا؟ أمِن أحدٍ هنا؟". لم يسمع جواباً. ترجّل الفيلسوف عن حماره، وطرق على البابَ الذي سرعان ما انفتح وسمح للضوء بدخول المنـــزل.

كان هو بذاته، وكان معلقاً بحبلٍ مربوط بدعائم السقف.

تـــراجع أرسطو إلى الوراء من فرط الدهشة، وأسرع إلى حماره، وانطلق به في محاولةٍ منه للابتعاد عن المكان بأسرع ما يمكن.

*

لم يضيّع وقتاً في الوصول إلى أثينا، ورفض أن يستقبل أحداً لأيامٍ عديدة. مزّق ملاحظاته، وكل نسخ الرسائل التي أرسلها إلى ابن أخته والتي تتعلق بهذه القضية. لم يترك في ملف اغتيال فيليب إلا الملاحظات الغامضة والعامة، ثم بدأ بكتابة خاتمة: "يُحتمل أن تكون الأسباب الحقيقية للاغتيال في تلك القصة الغريبة العلاقات الجنسية بين...".

في نهاية الشهر، طرق أحد المبعوثين بابه، وناوله رزمةً ضخمة. فتحها أرسطو ليجد أنها تحتوي على بعض أغراض كاليستين الشخصية وكلّ الرسائل التي كتبها له. ووجد لفافةً من ورق البردى تحمل ختم بطليموس ابن لاغوس، والحارس الشخصي للملك الإسكندر، وقائد الفرقة المدرعة للجيش المقدوني. ارتعشت يداه عندما فتح الرسالة وبدأ بالقراءة:

من بطليموس إلى أرسطو، تحياتي!

في اليوم الرابع من شهر إلافيبوليون، من السنة الثالثة بعد الأولمبياد، وُجد ابن شقيقتك كاليستين، المؤرخ الرسمي لحملة الإسكندر، ميتاً في خيمته. شهد فيليب، وهو طبيب الملك، بأن الوفاة كانت نتيجة تناول سمٍّ قوي. تآمرت مجموعةٌ من المساعدين الفتيان على قتل الملك، وبالرغم من أن أحداً من المتهمين في أثناء المحاكمة لم يذكر كاليستين بالاسم، إلا أن هناك أشخاصاً حمّلوا ابن شقيقتك نوعاً من أنواع المسؤولية المعنوية عن هذه الخطة الإجرامية. كان من المستغرب بالفعل أن يتخذ هؤلاء الفتيان قراراً بقتل ملكهم من دون أن يُقدمِ أحدهم على زرع تلك الفكرة في عقولهم. كما أن هناك سبباً للاعتقاد أن ابن شقيقتك كان يسعى من وراء انتحاره إلى تجنّب الشعور بالألم والإذلال لدى مواجهته إدانة الناس له.

يشعر الملك بأنه عاجز عن الكتابة إليك، لأن روحه معذبة بمشاعر كثيرة ومتناقضة، ولذلك قررت أن أكتب بالنيابة عنه.

أعرف أن هذه الأخبار سوف تصلك متأخرة كثيراً لأنه مع شروعي بالكتابة بدأ جيشنا بالتحرك عبر أراضٍ وعرة جداً تمهيداً لاجتياح الهند. ارتأيت كذلك أن أرسل إليكَ نسخةً عن *تاريخ حملة الإسكندر* وهي التي خطتها يد كاليستين نفسه. مع الأسف، تسبّب موت كاليستين في ترك هذا العمل غير تام.

وعلى كل حال، فكّرت في أنه من الأفضل أن أرسل إليك أخبار الأحداث التي جرت حتى هذه المرحلة، بالإضافة إلى أهم الأحداث التي جرت حتى الآن خلال حملة اجتياح الهند، وذلك في حال كنتَ تريد إتمام العمل الذي بدأه ابن شقيقتك، وبالطريقة التي تراها مناسبة.

أود كذلك أن أخبرك قصّة قد تعتبرها مهمة. عاش معنا رجلٌ في المعسكر لبعض الوقت يحمل اسم بايرو، وهو من إيليس. بدأ الرجل عمله عندما كان رساماً فقيراً ومغموراً، ولحقَ بحملتنا على أمل أن يكسب أموالاً، لكنه التقى خلال هذه السنين في بلاد فارس رجلاً مجوسيًّا، والتقى بعد ذلك رجالاً حكماء في الهند، وذلك بعد أن أمضى وقتاً طويلاً مع كاليستين. طوّر الرجل من خلال تجاربه هذه طريقة تفكير جديدة، والتي يُمكن، بحسب ما فهمت، أن تكتسب شهرة محترمة في أنحاء العالم كافة.

آمل أن تصلك رسالتي هذه وأنت بصحةٍ جيدة. انتبه إلى نفسك.

52

لم يبدأ أرسطو بقراءة تقرير بطليموس إلا في نهاية الشهر، أي مع حلول الطقس البارد. كان التقرير عبارة عن سرد رواية مختصرة لكنها مفيدة، يُمكن أن تشكّل أساساً لمتابعة عمل كاليستين:

انطلق الجيش عبر جبال باروبامسيوس، أو القوقاز الهندية، كما يفضّل بعض الناس تسميتها، لكن هذا التحرّك كلّف تضحيات كبيرة. كان البرد شديداً جداً في الطريق فتسبّب في إحدى الليالي بموت بعض الحراس الذين كانوا متكئين على جذوع الأشجار الموجودة في مراكزهم. كانت أعينهم لا تزال تنظر إلى الأمام، بينما تحولت شواربهم ولحاهم إلى قطعٍ من الجليد. أظهر الإسكندر مجدداً إنسانيته العظيمة حين رأى أحد قدامى الجنود وقد خارت قواه، وكان يرتجف من شدة البرد، فأمره بأخذ عرشه الذي كان مصنوعاً من الخشب، وبإحراقه كي يُدفئ نفسه. وصلنا بعد مسيرة تسعة أيام إلى مدينة نيسا حيث زعم سكانها أن ديونيسيوس قد مرّ فيها في أثناء رحلته إلى الهند. أما البرهان الذي قدّموه على هذا فكان وجود جبل ميرو، وهي الكلمة التي تعني "فخذ" باللغة اليونانية، لأن ديونيسيوس وُلد من إحدى فخذي زيوس. يُضاف إلى ذلك أنهم يؤكدون أن هذا هو المكان الوحيد في الهند بأكملها حيث تنبت أشجار اللبلاب، وهي الشجرة المبجلة عند ذلك السيد.
وضع الجميع أغصان اللبلاب على رؤوسهم، وأقاموا مآدب كبيرة، وحفلات مجون وشراب، ورقصوا الكوموس، وصرخوا "*ايووي*!".
قُسّم الجيش هناك إلى فرقتين. زحف هيفاستيون وبيرديكاس إلى أسفل الوادي الذي يحمل مياه السيول التي تفيض من

المـــرتفعات إلى أن تصبّ في مكان التقاء الوادي بنهر السند. شيّد الجيش جسراً هناك. أما الفرقة الثانية من الجيش، والتي كـــنتُ جـــزءاً منها مع الملك ورفاقه، فقد زحفت نحو المجرى الأعلى للسند من أجل احتلال المدن الواقعة في تلك الوديان، مثل مساجا، بازيرا، وأورروس. سقطت جميع هذه المدن بأيدينا بعـــد هجمات متكررة. أما أكبر هذه المدن فكانت آورنوس، وهي المدينة التّي يبلغ محيطها ما يزيد على عشرين ميلاً، وتقع على ارتفاع ثمانية آلاف قدم ويحميها وادٍ عميق يحيط بها من كل الجوانب.

أمر الملك ببناء خندق وتعلية، حيث تمركزتُ ذات ليلة في موقعٍ يمكنني من مهاجمة المدًينة في إحدى أضعف نقاطها. دافع الهنود عـــن مدينتهم بشجاعة، لكن المنجنيقات تمكنت في النهاية من فـــتح ثغرة، فاندفع الجيش من خلالها إلى داخل المدينة. اتحدت فرقتا الجيشٍ، وتمكنتا معاً من احتلال المدينة بعد هجومٍ منسق. عرض الإسكندر على الهنود فرصة الانضمام إلى جيشه بصفتهم مرتزقة، لكنهم فضّلوا الفرار على محاربة إخوانهم.

وجـــدنا في المـــدن الـــتي احتلها جيشنا عدداً معيّناً من الفيَلة والحـــيوانات الـــتي سرّ الإسكندر كثيراً بامتلاكها. فقد كان حجمهـــا كـــبيراً بالفعـــل، أمّا أنيابها الكبيرة فكانت تبرز من أفواهها. كان باستطاعة تلك الفيَلة أن تحمل المحاربين المسلحين على ظهورها، كما أن رجالاً يجلسون فوق رقابها كانوا يقودونها ويحـــثونها علـــى السير بنخسها بكعوب أقدامهم. تفقد الفيلة إحـــساسها بالاتجاهات إذا قُتل هؤلاء الرجال في المعركة، ولا تستطيع عندها معرفة الاتجاه الذي يجب أن تقصده.

إن الهـــنود أناسٌ طوال القامة، وبشرهم داكنة أكثر من الناس الآخـــرين باســـتثناء الإثيوبيين، وهم يُبدُون شجاعةً كبيرة في القتال. أمر الملك بإبقاء حامية في آورنوس بعد قهرها، ونصّب علـــيها أحد الأمراء الذي كان موالياً لبيسوس قبل أن يميل إلى جهتـــنا. يُدعـــى هذا الأمير ساشاجوبتا في لغته، لكن اليونانيين

يدعونه باسم سيسيكوتو. صادر الجيش في آورنوس مئتين وخمسين ألف ثور. تم اختيار أقوى هذه الثيران وأفضلها كي تُرسل إلى مقدونيا من أجل حراثة الحقول، وتحسين نسل القطعان في بلادنا. أمر الإسكندر بعد ذلك ببناء مراكب كثيرة، حتى إنه أمر ببناء سفينتين في كل واحدة منها خمسة وعشرين مجذافاً. بدأنا بعد ذلك بالتحرك أسفل نهر السند، والذي كان عريضاً جداً حيث يُمكن الإبحار فيه.

وهكذا، وصلنا إلى المكان الذي أنهى فيه بيرديكاس وهيفاستيون بناء جسرهما فوق النهر، وهو مكان يقع قرب مدينة تُدعى تاكسيلا حيث رحّب بنا سكانها بكل مودة. أما ملك تاكسيلا الهندي، ويُدعى تاكسيلي، فقد قدّم إلينا خمسة وعشرين فيلاً، وثلاثمئة تالنت من الفضة إلى الإسكندر، لكنني لم أرَ إلا القليل من الذهب. ورد في الأساطير أن نمالاً ضخمة في هذه البلاد هي التي تقوم بالحفر بحثاً عن الذهب في الجبال، كما تقوم طيور العنقاء المجنّحة بحراسة هذا الذهب. لم أعثر على دليل قيمٍ يؤكد هذا الزعم، ولهذا أعتقد أنه يجب اعتبار هذه الأخبار مجرّد قصصٍ لا أساس لها.

ومن هناك، توغلنا نحو ضفاف نهر هيداسب - أكبر روافد السند - وهو رافد عريض ومياهه سريعة الجريان بسبب مياه الأمطار التي تسقط على الجبال. وعلى الضفة الأخرى من هذا النهر، كان هناك ملك هندي يدعى بوروس، وهو يمتلك جيشاً كبيراً يضمّ ثلاثين ألف جندي من المشاة، وأربعة آلاف من الفرسان، وثلاثمئة مركبة حربية، ومئتي فيل. كان من المستحيل عبور النهر لأن بوروس كان يغيّر موقعه في كل مرة كنا نتحرّك فيها. بعد ذلك، أعطى الإسكندر جنوده أوامر تقضي بالتحرك المستمر، وحتى خلال الليل، وهم يصيحون ويحدثون أكبر قدر ممكنٍ من الضجيج، حيث يعجز أعداؤنا عن تكوين أي فكرةٍ عن خططنا، ويضطر بوروس إلى إقامة معسكره في إحدى النقاط كي ينتظرنا فيها.

تركنا فرقة كراتيروس قبالة معسكرهم مع عدد محدد من الجنود، ثم تبعنا الإسكندر نحو أعلى النهر مع فرسانه من جنود الهيتايروي، والرماة المحمولين، والأغريانيين، وجنود المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً. ضربت عاصفة المكان في هذا الوقت، وأرسلت رعدها القاصف الذي يصمّ الآذان، وبرقها الذي يُعمي الأبصار، وهو الأمر الذي أحبط مساعي الهنود في محاولة المخاطرة على ضفاف نهر هيداسب. كان المعبر صعباً جداً، لكن وجود جزيرة في وسط النهر جعل عبور المياه ممكناً. عبر الرجال النهر بالرغم من أن المياه غمرتهم حتى أكتافهم، بينما غمرت المياه الجياد حتى أرساغها. قرّر الإسكندر في هذه المناسبة امتطاء بوسيفالاس بالرغم من أنه سبق له أن قرر عدم امتطائه بهدف القتال بعد معركة غواجميلا، وذلك لأنه الجواد الوحيد الذي يمكّنه حجمه من سحق فرسان العدو الذين يمتطون جياداً أصغر، ولكن أكثر سرعة.

سمع بوروس عند الفجر أن الجنود المقدونيين عبروا النهر، فأرسل ابنه على رأس ألف فارس للقتال ضدنا. سحقناهم بعد هجومهم الأول، كما قُتل الأمير الشاب. وحين أدرك بوروس أن الإسكندر هو الذي عبر نهر هيداسب خلال تلك الليلة العاصفة، أرسل جيشه برمته وراءه. صفّ في البداية عرباته الحربية، وصفّ وراءها الفيلة، كما اصطف المشاة وراء الفيلة، بينما كان الفرسان على الجانبين. أما هو، الذي كان يمتاز ببنية عملاقة، فقد امتطى فيلاً ضخماً. ما إن بدأت المعركة حتى قادها بنفسه، وراح يصيح وهو يدفع مطيته إلى الأمام.

بدأت العربات بالهجوم، لكن الأرض كانت مبللة جداً بمياه الأمطار حيث اضطرت العربات إلى التباطؤ إلى درجة سهّلت على رماتنا المحمولين تعيين أهدافهم، وإصابة سائقي هذه العربات.

أرسل الإسكندر فرسانه كي يهاجموا جناحَي العدو عندما مرّ من أمام أول صفّ من العربات، فاشتبك الفرسان وجهاً لوجه مع

الفرسان الهنود الذين قاتلوا بشجاعة عظيمة. في هذا الوقت، أرسل بوروس الفيلة إلى الأمام، أي إلى منطقة الوسط. قتلت هذه الوحوش الضخمة جنودنا، واصطدمت بصفوف الفالانج المتراصة. عندها، أعطى بيرديكاس وهيفاستيون الأوامر لتفريق الصفوف، والسماح للفيلة بالمرور. فيما نجح لايسيماخوس في هذا الوقت بتجميع آلات الحرب بعد عبوره النهر، وبدأت المنجنيقات بالتصويب على الفيلة. دفعنا بعد ذلك الرماة المحمولين للهجوم ضد هذه الوحوش، كما ساعدهم رماة الرماح الذين أنزلوا بها خسائر كبيرة. أما الرماة من المشاة فقد شاركوا في المعركة، وصوّبوا على راكبي الفيلة وأنزلوهم عن ظهورها الواحد تلو الآخر. راحت الفيلة تتصرف بشراسة نتيجة شعورها بالألم والخوف فبدأت تترنح وتركض بتهور حتى بين الجنود الهنود، لكنها لم تعد قادرة على التمييز بين العدو والصديق.

في هذه المرحلة، خرجت الفيلة من المعركة، وأمر بيرديكاس الفالانج برصّ الصفوف مجدداً، وأرسلهم إلى الهجوم بعد أن أطلق صيحة الحرب التي اعتاد عليها، ثم دفعهم إلى التمركز في الصف الأمامي. أما في الجهة المقابلة فقد تابع بوروس التحرك إلى الأمام، وقاتل بطاقة تفوق الوصف. كان فيله هائجاً فراح يسحق كل شيء في طريقه، واتسخت قوائمه بالدماء، وامتلأت بالخدوش، فيما علقت بقايا أحشاء القتلى من الجنود على قوائمه ووصلت حتى ركبتيه. كان بوروس داخل درعه التي يستحيل اختراقها، وكان يلقي ما بدا وكأنه وابل لا يتوقف من الرماح التي قذفها بقوة تعادل قوّة المنجنيق.

استمرت المعركة ثماني ساعات، إلى أن تمكّن الإسكندر أخيراً، وهو الذي كان على رأس فرقة الطليعة التي كانت في الجناح الأيمن، وبمساعدة كيونوس الذي كان يقود الجناح الأيسر، من إجبار فرسان العدو على التراجع والتجمع في الوسط. استسلم جميع الهنود في هذا الوقت بعد أن حوصروا تماماً. وجُرح

بوروس في كتفه اليمنى، وهي النقطة الوحيدة في جسمه التي لا تحميها دروعه، فبدأ بالترنح.
كان منظر الفيل بعد أن أدرك أن سيّده يمر بوقت عصيب منظراً مؤثــراً. فلقـــد تباطأ الفيل عن السير، ثم ركعَ، وهكذا سمح لبوروس بالانـــزلاق ببطء إلى الأرض. حاول الفيل بعد أن رأى ســـيّده ملقى على الأرض أن ينـــزع الرمح من كتفه، فأبعده راكبو الفيلة حيث تمكن جراحونا من استلام الملك الهندي، وما لبثوا أن سارعوا إلى معالجته.
أراد الإسكندر لقاء بوروس ما إن سمع بأنه قادر على الوقوف، لكنه دُهش من بنيته الضخمة، وذلك لأن طوله كان يزيد على سبعة أقدام، بينما كانت درعه اللامعة لا تزال ملتصقة بجسمه وكأنها جلد ثان له. أرسل الإسكندر في البداية الملك تاكسيلي، وهو حليف بوروس، بصفته مترجماً، لكن الملك الضخم اعتبره خائناً وحاول أن يقتله. عندها، توجه الإسكندر لمقابلته شخصياً مـــع متـــرجمٍ آخـــر. ألقـــى عليه التحية باحترام، وأثنى على شـــجاعته، كما عبّر له عن أسفه لفقدانه اثنين من أبنائه خلال المعركة. سأله في نهاية اللقاء: "كيف تريد أن تُعامل؟".
ردّ بوروس: "أريد أن أُعامل مثل ملك".
لقـــي بـــوروس معاملة الملوك بالفعل. وسمح له الإسكندر بأن يـــستمر في حكم كل المقاطعات التي قهرها حتى تلك اللحظة، كما سمح له بالعودة إلى قصره مجدداً.
ابتهجـــنا بهـــذا النصر الذي حققناه بعد قتال مرير ضد تلك الوحـــوش الـــتي تتمتّع بقوة جسدية هائلة تفوق قدرة البشر، وتظهـــر بمظهر مخيف، وهي تلك الحيوانات التي لم يحتك بها أي مقدوني قبل الآن، لكن بهجتنا تلاشت بعد حادثة تركت الملك في حالة من الإحباط العميق.
فلقـــد جُرح بوسيفالاس، جواد الملك، خلال المعركة، وخارت قواه في أثناء المواجهة مع فيل، ولم يلبث أن مات بعد أربعة أيامٍ من المعاناة.

بكى الملك لفقدانه بوسيفالاس، وكأنه يأسف على صديقٍ حميم، وبقي معه إلى أن لفظ أنفاسه الأخيرة. كنت هناك، ورأيته يمسّد جسد ذلك الحيوان بلطف، هو يكلّمه بحنان، ويذكّره بكل المغامرات التي مرّا بها، لكن بوسيفالاس راح يصهل بصوت ضعيف وكأنه يحاول أن يردّ عليه. رأيت الدموع تنزل فوقَ خدَّي الملك، كما رأيت جسده يرتعش بفعل النشيج عندما أسلم الحيوان الروح.

أمر الملك بتشييد قبرٍ من الحجر، كما وضع الأساس لمدينة جديدة تكريماً له، وأطلق عليها اسم إسكندرية بوسيفالاس، وهو تكريم لم يسبق أن ناله أيّ حصان على الإطلاق، ولا حتى أشهر الجياد التي فازت في سباقات الأولمبياد. دفن الإسكندر في ذلك القبر قطعةً من قلبه، وأسعد فترة من أعوام شبابه الضائع.

أسّس الإسكندر قرب ميدان المعركة التي قهر فيها بوروس مدينةً أخرى، وأعطاها اسم إسكندرية نيقيا، وذلك تخليداً لذكرى انتصاره هناك. وأقام الملك مهرجانات ألعاب، وقدّم الأضاحي إلى الأسياد. ثم توجّه من هناك شرقاً بعدَ أن لقي التشجيع من بوروس الذي زوّده بخمسة آلاف جندي من جنوده، ثم وصلنا إلى آسيزينز؛ ثاني أكبر رافد للسند، وهو نهر آخر سريع الجريان، ويحتوي على شلالات وصخور كثيرة مع مياه فوارة يطفو على سطحها الزبد. اصطدمت مراكب كثيرة من مراكبنا بالصخور فغرقت مع بحارها. وبعد ذلك، وجدنا نقطة عبور كان النهر فيها أوسع وأهدأ، وتمكنا من العبور. أخضعنا سبعين مدينة، والتي كان أكثر من نصفها يضم ما يزيد على خمسة آلاف مواطن. توقفنا أخيراً تحت أسوار مدينة سنغالا الواقعة على ضفاف حيدروتس.

لا أعرف ما الذي سيحدث الآن، وما إذا كنا سننجح في إخضاع هذه المدينة أيضاً، وما إذا كنا سننجح في عبور هذا النهر بالذات. كانت هناك صحراء بعد النهر، وبعد الصحراء غابة لا يُمكن اختراقها، كما هناك ممالك تضم مئات الآلاف

مـــن المحاربين. وصلنا الآن إلى حالة من التعب الذي لا يُمكن احتماله. في تلك الغابات وحوش حقيقيّة وأفاعٍ بأعداد مخيفة. وقـــد قتل ليوناتوس إحداها بفأسه وكان يبلغ طولها ستّة عشر كيوبيتاً.

تـــنهّد أرسطو. ستة عشر كيوبيتاً! وقف كي يقيس ذلك الطول بخطواته، واضطر إلى الخروج من الغرفة لأنها ليست طويلة بما يكفي.

تمتاز الأراضي المزروعة بالخصب الشديد. ولكن، بدا أن الغابة تحـــيط بها من كل الجوانب، أي وكأنها تهاجمها بمعنى من المعاني. كمـــا أن هناك قروداً من كل الأحجام في كل الأماكن، ولديها عادة غريبة في تقليد كل شيء تراه. بعض هذه القرود مدهشة وذلك بسبب الملامح المرتسمة على وجوهها، والتي تشبه كثيراً وجوه الناس، وذلك كما ترى بنفسك.

وكـــان بطليموس قد كلّف أحد الرسامين الموهوبين برسم أحد تلـــك القرود بالفحم إلى جانب هذه الكلمات. أدهشت نظرة الحيوان الفيلـــسوف بالفعل إلى حدّ أنها أثارت لديه شعوراً بالقلق، وإحساساً مزعجاً.

وفي هذا المكان أيضاً أشجار عملاقة بشكلٍ مذهل، والتي يُطلق عليها الهنود اسم *بانيان*. تصل هذه الأشجار إلى ارتفاع سبعين كيوبيـــتاً، كما أن جذوعها ضخمة جدًّا حيث لا يكفي خمسون رجلاً للإحاطة بها. رأيت في إحدى المناسبات أكثر من خمسمئة رجل يجلسون في ظل إحدى هذه الأشجار العملاقة. هـــناك أيضاً أفاعٍ من مختلف الأنواع. تبدو بعضها مثل قضيب مـــن البرونـــز، فيما بعضها الآخر تبدو داكنة اللون، وتنتهي أعناقها بنوعٍ من أنواع التيجان التي تحمل علامتين على شكل دوائـــر. تجلب لدغات هذه الأفاعي الموت على الفور تقريباً، لكـــن ذلـــك يتـــرافق مع ألم لا يُحتمل، وتعرّقٍ شديد. بقينا

مـــستيقظين طـــوال الليلة التي لقينا فيها هذه الزواحف، وكنا مرتعبين من فكرة تعرضنا للدغاتها خلال نومنا، لكننا تعلمنا أن نـــوقد النيران حول المعسكر، كما أن السكان المحليين علّمونا كيفية استخدام أعشاب محددة كترياق لسم الأفاعي.

إن هذه الأفاعي أشد خطورة من النمورٍ التي ترتاد هذه الغابات الـــتي يصعب اختراقها، وذلك بسبب تواجد طريقة يدافع بها الـــناس عـــن أنفسهم ضد تلك القطة الكبيرة، كما يسمونها، وذلك عن طريق استخدام سيف قاطع، أو رمحٍ قوي. إن النمر أكبر من الأسد، كما أنّ جلده ملّون بألوان جميلة كألوان المغرة، وهو مخطط بخطوط سوداء. أما صوته فكان يصل إلى مسافات لا تصدّق. لم أرَ واحداً منها بنفسي، لكنني رأيت أحد جلودها، وقد وصفته لك بأفضل ما أستطيع.

يتعيّن عليّ أن أتوقف الآن عن الكتابة، لأن هذه الأمطار الغزيرة تجعل من المستحيل بالنسبة إليّ كتابة المزيد. إذ إنّ الرطوبة تجعل كـــل شيء عفناً، حتى إن الجنود يمرضون، وبعضهم انتهى بهم الأمـــر بين فكوك التماسيح التي تزحف في كل مكان هنا، لأن الأمطـــار جعلت مياه الأنهار تفيض نحو ضفافها، كما أن المياه غمـــرت الحقـــول، وغطّـــت مساحات تقدّر بآلاف وآلاف الـــستاديات. وأنا الآن أجهل ما إذا كان باستطاعتي مجدداً أن آمل بالعيش مثل إنسان وليس كحيوان.

وحده الإسكندر من يبدو بأنه لا يعرف التعب أو اليأس من أي نـــوعٍ كان. إنه يزحف قبل الجميع على الدوام، ويفتح الطريق بـــسيفه، ويساعد الذين يسقطون، ويشجّع أولئك الذين نال منهم التعب. لا نـــزال نرى في عينيه ذلك البريق المتوهج، وهو الـــبريق ذاته الذي رأيته منذ زمن بعيد عندما كان خارجاً من معبد آمون الذي يقع وسط الصحراء الليبية.

انـــتهت قصة بطليموس عند ذلك الحد، فأسرع أرسطو إلى لفّ الرسالة ووضعها على أحد الرفوف.

تحـــوّلت أفكـــاره نحو كاليستين فامتلأت عيناه بالدموع. انتهت مغامـــرته بشكلٍ محزن في مكان بعيدٍ جداً قرب أطراف الأرض، وربما كـــان الخوف هو الذي قتله أكثر من السمّ ذاته. شعر بالحزن لأجله في هـــذا الوقت لأنه يعرف أنّ أفكاره أقوى بالمقارنة مع روحه وجرأته. وتمنّـــى لو كان هناك وبقربه في لحظاته الأخيرة، إذ كان سيتمكن من قـــراءة كلمات سقراط الأخيرة على مسامعه: "لكن، حان الآن وقت الرحيل، وقتي أنا كي أموت، ووقتكم أنتم كي تستمروا في الحياة...". لكـــن، ربما لم يكن بإمكان كاليستين سماعه وهو واقع في لجة الرعب الخالص.

أطفـــأ أرسطو مشعله واستلقى، ثم تنهد في الغرفة الخالية، ووسط أشـــعة القمر الخريفي الباهتة. تساءل إذا كان الإسكندر قد شعر بأي قدرٍ من التعاطف مع كاليستين.

51

هرع هيفاستيون إلى خيمة الملك تحت الأمطار التي هطلت بشدة، وراح يـــركل الوحل في أثناء ركضه. سمح له الحراس بالدخول، ثم ما لبث أن اقترب من الموقد الذي كانت تستعر فيه النار التي كانت تُصدر دخانـــاً أكثـــر عما تصدره من حرارة. تقدّم الإسكندر كي يحيّيه، ثم ظهرت ليبتين وناولته عباءة جافة.

قـــال له: "استسلمت سنغالا، كما أن إيومينيس على وشك أن ينتهي من تعداد القتلى والجرحى".

"وهل هم كُثُر؟".

"إنهم سبعة عشر ألف قتيل".

"إنها مجزرة. لا بد من أنهم أبدوا مقاومة شديدة".

"أسرنا عدداً كبيراً منهم. وتمكنّا كذلك من مصادرة ثلاثمئة عربة حربية وسبعين فيلاً".

دخـــل إيومينيس وكان مبللاً بدوره، وقال: "حصلت على العدد النهائـــي: خمـــسمئة قتيل من جهتنا. منهم مئة وخمسون من المقدونيين واليونانـــيين، بالإضافة إلى ألف ومئتي جريح، كما جُرِح لايسيماخوس جرحاً بالغاً في كتفه. هل هناك أوامر أخرى لي؟".

ردّ الإسكندر: "أجل. يجب أن ننطلق غداً نحو المدينتين الأخريين اللـــتين تقعان بين هذا المكان وبين هيفاسيس. خذ بعض الأسرى معك مـــن الـــذين يستطيعون أن يُخبروا الآخرين بما حصل في سنغالا. إذا اعتـــرفت المدينـــتان بحكمـــي، فلن يحصل المزيد من القتل أو المجازر. وسنتبعك بعد قليل مع بقية الجيش".

أومأ إيومينيس وخرج من الخيمة بعد أن وضع عباءته فوق كتفيه، بينما أضاء برقٌ يُعمي العيون المعسكر بأكمله، وأضفى عليه لمعاناً أزرق اللون. وما لبث قصفُ رعد أن انفجر فوق منطقة خيمة الملك تقريباً.

قــال هيفاســتيون: "أنا ذاهب الآن من أجل الإشراف على نقل الأســرى، وإذا اســتطعت، فإنني سأمرّ بك قبل المساء كي أقدم إليك تقريري".

ثم رفـــع درعه فوق رأسه إلى أن وصل إلى الحاجز الذي يحيط بالمعسكر، فلاحظ أن الأسرى يتحركون بين صفين ساكنين من جنود البيـــزيتاروي تحـــت المطـــر الغزير، وكانوا يتبعون ضابطين محمولَين يقودانهم إلى باحة كبيرة مسيّجة تقع قرب البوابة الغربية، وهي الباحة الـــتي نُـــصبت فيها خِيَمٌ تكفي لعدد يزيد قليلاً على نصفهم. تأكد الجـــنود أولاً من حصول النساء والأطفال على الحماية من المطر، ثم انـــصرفوا إلى الاهتمام بالرجال الذين حُشروا معاً، وتغطّت أرجلهم بالوحول.

نظـــر هيفاستيون إلى الأعلى فرأى سحُباً سوداء تهدّد بالمزيد من المطـــر، ثم نظر إلى الأفق حيث كانت صواعق تُعمي العيون تتردد في فتراتٍ متقاربة. كانت السماء ملبدة بالغيوم التي تُنـــزل أمطاراً بشكلٍ مـــستمر. ما هي تلك البلاد التي تبدو هناك؟ وماذا سيجدون في الجهة الأخرى من النهر، والتي يصرّ الإسكندر على الوصول إليها؟

دوّت صاعقة في تلك اللحظة من بين الغيوم، وكانت قوية بما يكفي لإضـــاءة المـــنطقة والمدينة بأكملهما. فظهر أمامه هناك طيف شخصٍ وحيد ونحيفٍ جداً وشبه عارٍ مثل الشبح، وكان يتحرك إلى الأمام عبر البوابات المفتوحة للمعسكر. سار هيفاستيون نحوه وسط دهشة كبيرة، وصاح وسط قصف الرعد المدوي: "من أنت؟ وماذا تريد؟".

ردّ الـــرجل بتمـــتمةٍ غير مفهومة، لكنه لم يتوقف، وتابع السير بمحـــاذاة الخـــيَم إلى أن وصـــل إلى شجرة بانيان كبيرة. جلس قرب الشجرة، وشبك يديه فوق حضنه مبقياً راحتيه نحو الأعلى، كما قرّب ســـبابة يده اليمنى وإبهامه جاعلاً إياهما بشكل دائرة، وبقي ساكناً تحت المطر المنهمر مثل تمثال.

كان أريستاندر في مكانٍ قريب جداً من الهيكل الخشبـــي الصغير منـــشغلاً بتقديم أضحية خروفٍ إلى الأسياد، وطلب إليها إيقاف المطر. فجأة، شعر بألمٍ حاد خلف رقبته، وسمع صوتاً يناديه. التفت على الفور فرأى رجلاً يمشي ببطء، ولكن بثقة، داخل المعسكر. لم يكن هناك أي شخصٍ في الجوار كي يناديه، وهو الأمر الذي حيّره كثيراً. لذا، خرج وســـط المطر حاملاً عباءته فوق رأسه، ومشى نحو شجرة البانيان. رآه هيفاستيون وهو يحاول أن يتحدث إلى الهندي شبه العاري الذي يجلس بسكون، ثم رآه وهو يبحث بدوره عن ملاذٍ في تجويف الشجرة قبل أن يجلس على الأرض.

هزّ هيفاستيون رأسه، ثم توجه إلى خيمته مبقياً درعه فوق رأسه. جفّف نفسه بقدر ما يستطيع قبل أن يرتدي ملابس جافة.

اســـتمر هطـــول المطر طوال الليل مترافقاً مع رعدٍ مخيف وبرق يقصف فوق الرؤوس، وهو الأمر الذي أشعل حرائق في بعض الأشجار والأكواخ. وفي الصباح، أطلّت الشمس مشرقة بالرغم من كل ذلك. وعندما خرج الملك من خيمته رأى أريستاندر واقفاً أمامه.

"ما الأمر أيها الضالع؟".

أشـــار أريـــستاندر إلى الرجل النحيل العاري الذي يجلس تحت شجرة البانيان قائلاً: "انظر. إنه هو".

"ومن هو؟".

"إنه هو. الرجل العاري الذي أراه في كوابيسي".

"هل أنت متأكد؟".

"تعــــرفت إليه فوراً. لقد بقي جالساً بسكون منذ الليلة الماضية. بقــــي في الوضعيّة ذاتها طوال الليل مثل تمثالٍ وسط العاصفة، ومن دون أن يرتعش أو أن يغمض جفنيه".

"ومن هو؟".

"سألت عنه الهنود الآخرين. لا أحد يعرف. لا يعرفه أحد من الناس".

"أليس لديه اسمٌ؟".

"لا أعرف. أعتقد أنه من السامانا، أحد فلاسفتهم وحكمائهم".

"خذني إليه".

انطلقا يمشيان عبر الوحول الكثيفة التي غطت المعسكر بكامله في هــــذا الوقت إلى أن وصلا قبالة الزائر الغامض. فكّر الإسكندر فوراً في ديوجينيس، ذلك الفيلسوف العاري الذي التقاه ذات يومٍ خريفي دافئ مـــستلقياً أمام سردالته (إناء كبير من الفخّار)، وما لبث أن شعر بكتلةٍ تعترض حنجرته.

سأله: "من أنت؟".

فتح الرجل عينيه، وحدّق إليه بتركيزٍ شديد، لكنه لم يقل شيئاً.

"هل أنت جائع؟ أترغب في الذهاب إلى خيمتي؟". ثم التفت إلى أريستاندر وقال: "أريد مترجماً هنا في أسرع وقتٍ ممكن".

كـــرّر الإســـكندر سؤاله عندما وصل المترجم: "هل أنت جائع؟ أتريد الذهاب إلى خيمتي؟".

أشــــار الرجل إلى وعاء صغير كان أمامه. شرح المترجم أن هؤلاء الـــرجال المبجلين والزاهدين الذين يبحثون عن النعمة الأبدية، يعيشون على الصدقات، وأن حفنة من الحبوب المغلية فقط ستكون كافية لهم.

"فلتأتِ إلى خيمتي كي تجفّف نفسك، وتحصل على بعض الدفء، وتأكل شيئاً؟".

قال المترجم: "إن ذلك غير ممكن، لأنه سيعرقل رحلته نحو الاتحاد مع كل شيء، وهي الطريقة الوحيدة التي تمكنه من الحصول على الطمأنينة، والتحرّر من الألم".

راح الإسكندر يفكر بينه وبين نفسه: "إنها أفكار ديمقريطيس... يتحلل كل شيء، ويُعاد تشكّل كل شيء بأشكال مختلفة، حتى العقل... إن تحلله هو الأمل الوحيد...".

قال آمراً: "أعطوه شيئاً يأكله، وقولوا له إنني سأسرّ بالتحدث إليه في أي وقتٍ يشاء".

ردّ المترجم: "يقول إنه سيتحدث إليك ما إن يتعلّم لغتك".

انحنى الإسكندر وعاد إلى خيمته، بينما كانت الأبواق تصدح بإشارة التجمع للفرق كافةً. انطلق الجيش في اتجاه هيفاسيس، آخر الروافد، وآخر عائق قبل اختراق مساحات الهند الشاسعة، ونحو نهر الغانج، ونحو عجائب باليمبوثرا، وسواحل الأقيانوس الأبعد.

انطلق الجيش في منطقة من الغابات المتناثرة، والتي أخذت تصبح أكثر كثافة مع اقترابه من النهر. هطل المطر بغزارة في اليوم الثاني، واستمر على هذا المنوال في اليومين الثالث والرابع أيضاً، وترافق ذلك مع صوت الرعد المدوي الذي يصمّ الآذان، والصواعق التي تعمي العيون. شرح المرشدون الهنود أن هذا هو فصل الأمطار، وهو الفصل الذي يستمر عادة سبعين يوماً. وصل الجيش إلى ضفّة نهر هيفاسيس الفائض والموحل، وما لبث الإسكندر أن أمر بعقد مجلس حرب في خيمته. حضر الأميرال نيرخوس مع نائب الأميرال أونيسيقريط الذي أثبت جدارته تماماً في عمليات العبور التي حصلت منذ وقتٍ قريب،

وفي مسيرة الجيش بمحاذاة نهر السند من آورنوس وحتى تاكسيلا. حضر هذا المجلس كذلك هيفاستيون، وبيرديكاس، وكراتيروس، وليوناتوس، وسلوقس، وبطليموس، ولايسيماخوس. فيما غاب عن المجلس حراس الملك فيليب، ولم يبقَ سوى أولئك الشبان من مييزا الذين أصبحوا كبار قادة كل فرق الجيش.

حضر الاجتماع كذلك أحد الحلفاء من الهنود، وهو ملك يُدعى فايجايا؛ يعرف كل المناطق الواقعة على الجهة الأخرى من نهر هيفاسيس معرفة جيدة.

افتتح الإسكندر اجتماع مجلس الحرب بالقول: "أيها الأصدقاء. توغلنا حتى الآن إلى مسافات تفوق تلك التي وصل إليها أي يوناني آخر في أي وقتٍ من الأوقات. ووصلنا إلى أماكن تتعدى تلك التي زارها ديونيسيوس في تجواله، ونحن ندين بتحقيقنا هذه الإنجازات إلى شجاعتكم الهائلة، وإلى قواكم الاستثنائية، وإلى بطولات جنودنا وميزاهم. بقيت أمامنا الآن خطوة أخيرة؛ فإذا عبرنا آخر رافدٍ من روافد السند، فلن تبقى أمامنا أيّ عقبات تواجه زحفنا نحو الغانج وشواطئ الأقيانوس العظيم. وإذا وصلنا إلى تلك المرحلة، فسنكون قد أتممنا أعظم إنجازٍ تم تحقيقه في تاريخ الإنسانية. وإذا أنجزنا هذه الخطوة، فسنكون قد حققنا أعظم حلم يُمكن أن يتخيله إنسان. أعتقد أن أميرالنا يستطيع أن يرسم لنا الآن مشروعه لعبور النهر، وبعد ذلك يستطيع قادة كل فرقنا القتالية عرض آرائهم بالنسبة إلى الزحف".

في تلك اللحظة بالذات، سُمع قصف رعدٍ فوق الخيمة. وكان من القوة حيث أخذت كل الأغراض الموجودة فوق الطاولة بالاهتزاز. تبعت ذلك لحظات طويلة من الصمت، وما لبث صوت المطر أن تزايد إلى درجة غير معقولة حيث أصبح يصمّ الآذان.

تبادل بطليموس نظرةً سريعة مع سلوقس وكان أول المتكلمين: "اسمع أيها الإسكندر، لقد تبعناك إلى هذا الحد، ونحن مستعدون لأن نتبعك إلى مسافات أبعد، وأن نسير فوق الوحول، وعبر المستنقعات، وبين الأفاعي والتماسيح. إننا مستعدون لعبور المزيد من الصحاري والجبال، لكن جنودك غير مستعدّين لذلك". نظر الإسكندر إليه بدهشة، وكأنه عاجزٌ عن تصديق ما تسمعه أذناه. أكمل بطليموس كلامه: "أعطاك رجالك كل ما عندهم، ولم يتبقَ عندهم الآن أي شيء".

صاح الإسكندر: "هذا ليس صحيحاً! لقد هزموا بوروس، وقهروا مدناً كثيرة".

"وهذا هو سبب شعورهم بالإنهاك، فلقد وصلوا إلى أقصى درجات تحمّلهم. ألا تلاحظ ذلك؟ انظر إليهم. لو أنك فقط تتوقف قليلاً لتنظر إليهم وهم يزحفون تحت هذا المطر الذي لا يتوقف، وعبر الوحل الذي يصل إلى رُكبهم تاركين لحاهم من دون تشذيب. أما عيونهم فقد احمرّت من قلة النوم. هل تعرف عدد الذين قُتلوا من أجل مساعدتك على تحقيق حلمك؟ هل قمتَ بإحصائهم؟ قُتل هؤلاء بسبب الدماء التي نزفت منهم، وبسبب الجروح التي لم تلتئم قطّ، وبسبب الغرغرينا ولسعات الأفاعي، ولأن التماسيح مزّقتهم إرباً إرباً، ولأن الحمى أحرقت أجسادهم، ولأن الزحار جفّف أجسامهم. تحوّل جنودنا إلى هياكل عظمية وجلود، لكنهم جرّوا أنفسهم إلى هذا الحدّ، أي إلى أطراف الأرض، وهم خائفون. ولكنهم ليسوا خائفين من الأعداء بعرباهم الحربية وفيلهم، بل إنهم خائفون من هذه الطبيعة المعادية لهم والغريبة عنهم، وخائفون من هذه السماء المليئة بالبرق والرعد، وخائفون من الوحوش التي تسرح في الغابات وفي المستنقعات،

حـــتى إنهم خائفون من السماء في الليل عندما ينظرون إلى الأعلى كي يـــروا الأبراج التي اعتادوا رؤيتها منذ نعومة أظفارهم، وهي التي تكاد تختفـــي تحـــت الأفق. انظر إليهم. إنهم ليسوا الرجال أنفسهم بعد أن تمـــزقت ثيابهم، واضطروا إلى تغطية أنفسهم بالخِرَق، أو بثياب البرابرة الـــذين قهروهم. بليَت حوافر جيادهم بسبب الزحف المتواصل، كما أنهم يتركون آثاراً من الدماء فوق الأرض".

صـــاح الملك وهو يفتح رداءه كي يُظهر لكل الحاضرين الندوب في صدره: "ألم أتحمّل أنا المعاناة ذاتها؟ ألم أعانِ وإياهم الجوع والعطش، والمطر، والجراح!".

"أجـــل، لكـــنهم ليسوا أنت، لأنهم لا يتمتّعون بطاقتك وبقوّتك الحـــيوية. إنهم مجرد رجال، وهم منهكون ومستنـــزفون تماماً. إنهم لم يـــتلقوا أي أخـــبار عن عائلاتهم منذ سنوات، وكل ما يفعلونه هو أن يحلموا بزوجاتهم وأولادهم الذين تركوهم وراءهم منذ مدة طويلة.

فكّر في الجنود الذين أُجبروا على البقاء للخدمة في الحاميات، وفي الاتهامـــات بالفرار من الخدمة التي وجّهت إلى الذين لم يرغبوا في البقاء في المدن التي قهرناها. إن كل هذه العوامل أمور ترعبهم، وهم خائفون مـــن وصول المنادي ذات يوم حاملاً معه أوامر بأن يشكّلوا جزءاً من حامية أحد المواقع المعزولة، وأن يضطروا إلى نسيان عائلاتهم وأوطانهم إلى الأبد. أرجِعهم إلى الوطن، أرجِعهم إلى أوطانهم".

أحـــنى بطليموس رأسه عندما توقف عن الكلام، بينما بقي كل رفاقه الآخرين صامتين. ضربت صاعقة الأرض حولهم بقوةٍ كبيرة، وما لبث أن سُمع قصف الرعد وكأنه قرع طبلٍ آتٍ من بعيد.

انتظر الإسكندر تلاشي صوت الرعد قبل أن يبدأ بالكلام: "هيا، قـــل مـــا عندك يا بطليموس! هل هذا تمرد؟ هل جيشي يتمرد ضدّي؟

وأنـــتم يـــا ضـــباطي، ويا أعزّ أصدقائي، هل أنتم مشتركون في هذا التمرد؟".

قال هيفاستيون، وهو أخلص رفاق الإسكندر، مدمدماً بعد أن سمع هذه الكلمات: "كيف يمكنك أن تقول ذلك؟ كيف يمكنك أن تتهمنا وكلّ جنودك بجريمة كهذه؟ لا يريد أحد عصيانك، ولا يريد أحـــد أن يُجـــبرك على هذا. إن بطليموس على حق. إذا أردت أن تستمر في الزحف، فسنتبعك، ونحن الذين أقسمنا على عدم تركك لأي ســـببٍ كـــان، لكن جنودك لهم كل الحق بالعودة إلى ممارسة حـــياتهم الطبيعية. ضحّى الجنود بما فيه الكفاية، وقد أعطوك كل ما يقدرون عليه. إنهم مستنـــزَفون تماماً، وهذا ما دفعهم إلى مناشدتنا كي نحاول إقناعك، وهذا هو ما نحاول فعله لا أكثر. أرجوك فكّر في هذا الآن. أرسِل منادياً كي يبلغنا بأنك ترغب في أن تفعل ذلك، ونحن سننفذ".

غـــادروا واحداً تلو الآخر، وخرجوا إلى حيث استقبلهم غضب العاصفة.

بقـــي الملك داخل خيمته لمدة يومين من دون أن يستقبل أحداً، ومن دون أن يأكل. وراح يلعن القدر الذي يمنعه من الوصول إلى هدفه بعد أن أصبح في متناول يده. لم يتمكن أي شخصٍ من التخفيف عنه، حـــتى روكـــسانا، وهـــي زوجته الحبيبة التي اختارت أن تتبعه في كل الظـــروف، وأن تقاسمه كل المخاطر والمحن التي يتطلبها مشروعه. سألته بلغتها اليونانية التي لا تزال ركيكة: "لماذا لا تصغي إلى أصدقائك؟ لماذا لا تـــريد الإصـــغاء إلى الذين يحبونك، والذين لم يتركوك طوال تلك السنين؟ ولماذا لا تُشفق على جنودك؟".

لم يردّ الإسكندر عليها، بل حدّق إليها بعينين يائستين.

"هـــل من المهم جداً بالنسبة إليك أن تُخضع بلاداً غير تلك التي تمـــتلكها؟ أتظن أنك ستجد السعادة في السيطرة على مناطق جديدة، ومـــدنٍ جديـــدة، وفي الاستيلاء على ثروات جديدة؟ أخبرني بما تتوقع الحـــصول علـــيه في الجهة المقابلة من ذلك النهر. أتوسّل إليك. أخبِر روكسانا زوجتك التي تحبك كثيراً".

تـــنهد الملـــك بشدة وقال: "كنت في الخامسة من عمري عندما تـــركت منـــزل والديّ لأول مرة. أردت الذهاب إلى جبل الأولمب. وأردت مـــنذ ذلك الحين أن أعرف ماذا يوجد خلف الفجر وغروب الـــشمس، وخلف الجبال والسهول، وخلف النور والظلمة، وفي الجهة الأخرى من النور والظلمة، وخلف الخير والشر، وخلف كل شيء".

هـــزت روكـــسانا رأسها لأنها لم تتمكن من أن تفهم ما يقوله. كانت كل هذه الكلمات صعبة بالنسبة إليها، لكنها فهمت تلك النظرة في عينيه، وشعرت بالقلق الذي يعتمل في أعماقه.

قالـــت له: "إذاً، دعنا نذهب، أنت وأنا. دعنا نذهب كي نرى العالم الذي يقع خلف ذلك النهر".

ردّ الإســـكندر: "لا. إن قـــدري ليس كذلك، لأن الضالعين لم يـــتحدثوا إليّ لهذا السبب. لا يمكنني ترك جيشي، ولا يمكنني أن أتخلى عـــن المجد... روكسانا. أريد أن أكون قريباً من الأسياد إلى أقصى حدٍّ ممكن. أريد الذهاب إلى ما يتعدى حدود الزمن، وأن أتفوق على كل الذين أتوا من قبلي. لا أريد أن أغرق في عالم النسيان عندما أنـــزل إلى العالم الآخر".

ظهرت كل ملامح القلق والتوتر على وجه زوجته عندما نظرت إلـــيه، وصعُب عليها كثيراً أن تفهم حديثه، لكنها شعرت بوجود قوةٍ داخله لا يمكن لأحدٍ أن يقهرها، وبرغبةٍ جامحة لا يمكن لأحد أن يلبيها

أبـــداً. كان مثل ولدٍ صغير يلاحق قوس قزح، وبدا مثل نسرٍ يحلّق نحو الـــشمس. داعبـــته وقبّلته بحنان على جبهته، وعلى جفني عينيه، وعلى فمـــه، ثم قالت له بلغته: "أبقِني معك. لا تتركني أبداً. لا يمكنني العيش من دونك".

ولم تتركه قطّ منذ تلك اللحظة، ولا حتى للحظة واحدة. جلست بـــصمت تنتظـــر نظرةً منه، أو حتى كلمة، وركّزت عينيها على كل حـــركة من حركات رموشه، وعلى كل نفَسٍ أخذه، لكن الملك بدا الآن وكأنـــه قـــدَّ مـــن صخرٍ. عزل الإسكندر نفسه في عالمه الذي يستعصي على الاختراق، فكان سجين أحلامه وكوابيسه.

وفي مـــساء اليوم الثالث، وقبل غروب الشمس، كان جالساً في ظلمـــة خيمته، فشعر فجأة بوجود شخص ما فنظر إليه. وقف الحكيم الهندي أمامه محدقاً إليه بعينيه العميقتين والداكنتين. أدرك أن أحداً لم يرَ هذا الرجل، لأن الحراس لم يوقفوه، وكذلك بيريتاس لم يشعر بقدومه، وهو الذي كان يغطّ في نوم عميق متكوراً على نفسه.

لم يقـــل الرجل شيئاً، لكنه أشار ببساطة بإحدى يديه نحو المعسكر، فأحـــدثت هـــذه الحركة قوة هائلة لا تقاوم. خرج الملك من خيمته لكنه دُهش مما رآه أمامه. وقف آلاف الجنود حول خيمته ناظرين إليه، ولاحظ أن عيونهم حمراء، وأن شعرهم غير المسرح قد استرسل حتى أكتافهم، وأن ثيابهم بالية، وأن نظراتهم حزينة وقلقة ولكنها حازمة، وكانوا ينتظرون منه رداً مـــا. شعر بأن معاناتهم تُطبق عليه، فبدأ بالكلام. صاح عالياً: "أبلغوني بأنكم لم تعودوا ترغبون في المتابعة. هل هذا صحيح؟".

لم يردّ أحدٌ منهم، ولكن سُمعت همهمات خافتة بين صفوفهم.

"أعـــرف أن هذا ليس صحيحاً. أنا أعرف أنكم أفضل الجنود في العالم، وأنكم لن تتمردوا ضد ملككم أبداً! كان قراري هو الانطلاق

إلى الأمـــام، وأن أقـــودكم إلى مسافاتٍ أبعد، لكن تحتّم عليّ أولاً أن أعـــرف إرادة الأســـياد، لذلك قدّمت بعض الأضحيات. كانت كل الإشارات سلبيةً تكراراً مع الأسف، ولا يُمكن لأحد أن يتحدى إرادة الأســـياد. استعدوا أيها الرجال! جهّزوا أنفسكم لأن الوقت قد حان بالنسبة إليكم كي تتمتعوا بما تستحقونه، وبما كسبتموه. إننا عائدون. إننا عائدون إلى الوطن!".

لم تُـــسمع أصـــوات الهتافات، ولا صرخات الفرح، بل أصداء مـــشاعر وعواطـــف عمـــيقة وشديدة. بكى كثيرون منهم بصمت، ونــــــزلت دموعهم ببطء حتى وصلت إلى لحاهم الكثة، نـــزلت على تلك الوجوه التي أتعبتها أعوامٌ عديدة من المعارك والليالي التي مرّت من دون نـــوم، وأنهكتها الهجمات والجليد والحرارة، وأتعبها الثلج والمطر. بكـــوا لأن ملكهـــم لم يكن غاضباً منهم، ولأنه لا يزال يحبهم وكأنهم أبـــناؤه، وها هو الآن يريد أن يعيدهم إلى أوطانهم. خرج أحد قدامى المحـــاربين من بين صفوف الجنود وتقدّم من الإسكندر قائلاً له: "شكراً يا مولاي لأنك لم تسمح لأحد بأن يغلبك غير جنودك. شكراً... لكن نـــريدك أن تعلم بأنه مهما حدث، وبغضّ النظر عما تخبئه لنا الأقدار، فإننا لن ننساك أبداً".

عانقـــه الإســـكندر، ثم أمرهم بأن يعودوا جميعاً إلى خيَمهم كي يستعدوا للمغادرة. عاد الإسكندر بمفرده إلى ضفّة نهر هيفاسيس بعد أن ابتعد الجنود. كانت السحُب قد انقشعت قليلاً فانتشرت أنوار الشمس الغاربـــة، وأضاءت النهر العظيم، وصبغت سلسلة جبال باروباميسوس بقممهـــا العالية باللون الأحمر. اتجهت أنظار الملك إلى الضفة الأخرى وامتدت عبر ذلك السهل اللامتناهي الذي يمتد من الضفة وحتى الأفق. بكـــى الملك. بكى كما لم يبكِ من قبل قطّ، لأنه لن يتمكّن بعد الآن

مـــن رؤيـــة مجرى نهر الغانج العظيم، ولن يقدر أبداً على السير فوق ضـــفاف الـــبحيرات الذهبية، وبين طواويس باليمبوثرا. بكى من عينه الزرقاء زرقة السماء، وبكى من عينه السوداء سواد الليل الحالك.

54

تحسّن الطقس السيئ يوماً أو يومين وكأن السماء قد وافقت الإسكندر على قراره. قسّم الملك جيشه إلى اثنتي عشرة مجموعة، وكلّف كل مجموعة ببناء مذبحٍ حجري عملاق على ضفة نهر هيفاسيس. كانت هذه الأنصاب عاليةً جداً، وخُصّص كل واحدٍ منها لتكريم سيدٍ من أسياد الأولمب الاثني عشر. قدّم الإسكندر بعد ذلك أضحيةً أمام الجيش المتجمّع بأكمله، وتضرع إلى الأسياد كي لا تسمح لأي إنسان آخر بأن يتجاوز هذا الحد. انطلق الجيش في اليوم التالي في اتجاه السند، ومرّ في الطريق عبر سنغالا والمدينتين الأخريين اللتين أسّسهما الإسكندر حديثاً: إسكندرية بوسيفالاس وإسكندرية نيقيا.

مرض في ذلك المكان القائد كيونيوس الذي حارب ببطولة كبيرة في غواجميلا، وحارب بعد ذلك مع كراتيروس في الحملة التي شنها ضد سبيتامين في باكتريانا، وما لبث أن مات. أمر الإسكندر بإقامة جنازة له، كما أمر بتشييد مقبرة مهيبة له تخليداً لذكرى بطولاته وشجاعته.

سلّم الإسكندر زمام السلطة في جميع أنحاء الهند إلى بوروس، وهو الرجل الذي كسب منه البلاد التي كانت مؤلفة من سبع دولٍ وألفي مدينة، وألزمه بدفع جزية، وبتقديم جنودٍ إلى المرزبان المقدوني الذي نصّبه في إسكندرية نيقيا.

وانطلق مجدداً من هناك إلى أن وصل إلى هيداسب، وسار نزولاً مع مجراه حتى ملتقاه مع نهر آسيزينز. توافد الأمراء الهنود في هذه المناطق لإعلان ولائهم بشكلٍ تلقائي، ولإظهار دلائل خضوعهم. قيل

للإسكندر إن مجموعاتٍ كثيرة تسكن في الجنوب على ضفاف السند، وإن هـــذه المجموعات تتميّز بالشراسة والاستقلالية. انضمّت إلى جيش الإســـكندر بعـــد ذلـــك فرقة مؤلفة من عشرين ألف جندي تم تجنيد عناصـــرها في مقدونـــيا واليونان. جلب هؤلاء معهم أسلحة جديدة، وثياباً جديدة على الطراز اليوناني، بالإضافة إلى ثمانين تالنتاً من الأدوية، والـــضمادات، والأدوات الجـــراحية، والقـــضبان لتثبـــيت الأطراف المكسورة، وأغراض أخرى متنوعة، وهي التي كانت ستكون مفيدة لو أنها وصلت قبلاً.

تـــسلّم الإسكندر مع هذه التعزيزات والمؤن، رسالةً من ستاتييرا. بـــدأت ذكرياته معها تنساب إلى روحه مع بداية قراءته هذه الرسالة، فشعر بندمٍ شديد لأنه أهملها وكاد أن ينساها:

من ستاتييرا إلى الإسكندر، زوجي العزيز. تحياتي!

مررت بأوقات حزينة جداً بعد خسارة ابننا. ووصلتني بعد ذلك بوقتٍ قليل أخبار تفيد بأنك عثرتَ على حبٍّ جديد، وهي ابنة زعـــيمٍ جبلـــي في سوغديانا، وقيل لي إنها رائعة الجمال، وأنك أعلنـــتها ملكتك ووالدة ملك المستقبل. سأكذب لو قلت لك إنـــني لم أشعر بالأسف والإحباط، وإنني لم أقاسِ آلام الغيرة. لا تعـــود آلامي هذه إلى السلطة والمجد اللذين تتمتع بهما لكونها ملكـــة، ولكـــن، ببساطة، لأنها تستمتع بحبك، ولأنها تنام إلى جانـــبك، وتتمكّن من الإصغاء إلى أنفاسك طوال الليل، ومن شـــمّ رائحـــة عطر بشرتك. آه! كم أتمنى لو أنني تمكنت من منحك ابناً، لكنت أحمله الآن بين ذراعيّ كي أشاهد وجهك في وجهه. لكن الأقدار هي التي تعيّن لكلٍّ منا دوره عندما يأتي إلى هذا العالم. أرادت الأسياد أن أخسر والدي وابني ومحبةَ زوجي خـــلال فتـــرة زمنية قصيرة. لا أرغب في جعلك حزيناً بأخبار كآبتي، لكنني آمل فقط أن تكون سعيداً، وأن ترغب في رؤيتي

مجدداً عند عودتك، وذلك كي تمضي بعض الوقت معي، حتى لــو كان ذلك ليومٍ أو لليلة. تعلمت منذ أن التقيتك أن لحظةً واحدة يُمكن أن تساوي عمراً بأكمله.

أتوسّل إليك أن تتجنب إنــزال الأذى بنفسك، واحترِس.

ردّ الإسكندر على رسالتها في اليوم ذاته، بينما راحت روكسانا الــتي كانت لا تزال تتعلم كيف تكتب، تراقبه بحشرية متزايدة. سألته: "إلى من تكتب؟".

"أكتب إلى الأميرة ستاتييرا التي تزوجتها قبل أن ألتقيك".

اسودّ وجه روكسانا، ثم قالت بنبرةٍ لم يسبق للإسكندر أن سمعها مــن قبل: "لا أرغب في معرفة ما تكتبه إليها. ولكن، أبعِدها عني، هذا إذا كنتَ تريد أن تبقى حية".

*

حـــلّ فصل الخريف في هذا الوقت وتوقف هطول الأمطار. قرّر الملـــك الارتحال إلى أسفل نهر السند كي يعرف المدى الذي يُمكن أن يصل إليه. شعر بعض الجغرافيين الذين كانوا يرافقونه بأن هذا النهر لا يعـــدو عن كونه القسم الأول من نهر النيل، وذلك لأنه مثل ذلك النهر الـــذي تسرح فيه التماسيح، كما يعيش على ضفّتيه أشخاص من ذوي البـــشرة الداكـــنة مثل الإثيوبيين. وإذا كان هذا الكلام صحيحاً، فإن الأسطول الضخم سيتمكن من الإبحار منتصراً عبر النهر حتى إسكندرية مصر.

أُعجـــب الملك كثيراً بهذه الفكرة، لذلك استدعى نيرخوس كي يلتقيه عند ضفّة النهر، واختار لذلك الاجتماع نقطةً عالية يستطيعان أن يريا منها الجيش برمته في أثناء زحفه، وهو الجيش الذي بدا رائعاً كما كـــان عندما غادر مقدونيا، لكن عدد الجنود قد تضاعف أربع مرات.

قال الإسكندر: "سار عدد كبير من هؤلاء الرجال مسافة ألف ستاديا. أريدهم أن يتمكنوا من السفر براحةٍ من الآن فصاعداً. أريد بناء أسطول لنقل الرجال والجياد على حدٍّ سواءً. سنبحر نزولاً مع النهر حتى السند، وسنتوقف عند رؤيتنا أيّ مدينة، وذلك كي نعيد تثبيت سلطتنا على كل الأراضي التي كانت تحت سيطرة داريوس والتي أصبحت الآن تحت سيطرتنا".

سأل نيرخوس: "وماذا ستفعل بعد ذلك؟".

"أنوي إرسال كراتيروس عائداً مع نصف الجيش عبر أراخوزيا وكارمانيا، بينما أتابع الإبحار معك نزولاً مع النهر إلى أن نصل إلى الإسكندرية، هذا إذا كان هذا النهر يشكّل بالفعل الجزء الأعلى من نهر النيل، أو إلى أن نصل إلى الأقيانوس".

"ألديك فكرة عن عدد السفن التي سنحتاج إليها لنقل كل رجالنا؟".

هزّ الإسكندر رأسه.

"ليس أقل من ألف".

"أسنحتاج إلى ألف سفينة؟".

"سنحتاج إلى أكثر من هذا العدد، أو أقل بقليل".

قال الإسكندر مشجعاً: "إذاً، دعنا نبدأ العمل بأسرع وقتٍ ممكن".

صاح نيرخوس: "أخيراً! أعتقد أنني سأكون الأميرال الوحيد في العالم بقدمين متوجعتين".

انتبه الملك في أثناء حديثهما إلى روكسانا التي كانت على صهوة حصانها في المرج الذي يحاذي النهر العظيم. كانت تمتطي صهوة حصان كبير أبيض اللون، بينما كان شعرها يتطاير في الهواء.

سأل الإسكندر: "أليست جميلة؟".

ردّ الأميرال: "إنها كذلك، بل إنها أجمل امرأة يُمكن أن يتخيّلها أيّ رجل، وهي المرأة الوحيدة في هذا العالم التي تليق بك بالفعل".

رأته الفتاة فجذبت عنان الحصان نحو اليسار، وسارت به مسرعةً إلى قمة التلة حتى وصلت إليهما. سارت بحصانها نحوه، وانحنت كي تقبّله. لاحظ الجنود الذين كانوا يزحفون في الجوار هذه المناورة الغرامية فصاحوا: "آلالالاي!"، فيما رفع الملك يده كي يرد على تحيتهم له، ولكن من دون أن يُبعِد شفتيه عن شفتي عروسه.

*

أرسل نيرخوس منادياً إلى كل الفرق، وزوّده بأوامر إلى كل الجنود الآتين من المناطق الساحلية ليطلب إليهم التجمع. شمل هذا النداء اليونانيين الذين يعيشون على سواحل الجزيرة الرئيسة والجزر، والفينيقيين، والقبارصة، والبنط. بدأ نيرخوس بعد ذلك ببناء الأسطول، ولذلك أمر بقطع مئات الأشجار التي تحولت جذوعها إلى ألواح، ثم بدأ كبار النجارين بعملية إحناء الألواح، وتجميع الهياكل بمفصلات خشبية.

تبيّن أن حسابات نيرخوس كانت دقيقة، لأنه تجمّع فوق ضفّتي الهيداسب عند انتهاء العمل نحو ألف قارب إمداد جاهز للانطلاق، هذا بالإضافة إلى ثمانين سفينة من تلك التي يسيّرها ثلاثون مجذّفاً. دخل الأسطول المياه وسط تصفيق حارّ، وتهليلٍ من الجنود الحاضرين.

كان يوماً مشمساً، تجمّع فيه عدد كبير من سكان المنطقة على ضفتي النهر كي يشاهدوا هذا الحدث المهيب. شعر جميع الجنود بأنهم يتمتعون بروحٍ معنوية عالية جداً، واعتقدوا بأن الأسوأ قد انتهى، وأنهم قد تركوا وراءهم أصعب فترة في حياتهم وأكثرها إثارة. لكن، لم تكن لديهم، في واقع الأمر، أي فكرة عما ينتظرهم، لأن المعلومات

الوحـــيدة التي كانت لديهم هي التي استقوها من المرشدين المحليين. لكـــنّ أحداً منهم لم يكن يعلم أي شيء عمّا سيجده بعد إبحار ثلاثة أيام أو أربعة.

تـــسلّم نيرخـــوس قيادة كبرى السّفن، وهي التي كانت سفينة القـــيادة التي حملت على متنها الملك والملكة. أعطى إشارة الانطلاق، ومـــا لبـــثت المجاذيف أن أُنـــزلت إلى المياه، فانـــزلقت السفينة إلى مجـــرى النهـــر، وسرعان ما تبعتها السفن والقوارب الأخرى. ازداد المـــشهد روعة عندما نـــزل الأسطول بكامله إلى المياه المزبدة بمحاذاة مقـــدمات المـــراكب وتحـــت مجاذيفها، بالإضافة إلى آلاف الأعلام والـــرايات الأخـــرى التي رفرفت بفعل الرياح، والدروع والأسلحة اللامعة.

كان بايرو من إيليس من بين الفلاسفة المرموقين الذين سُمح لهم بالـــسفر على متن سفينة الملك، بالإضافة إلى أريستاندر، وذلك الحكيم الهندي الذي ظهر بصورةٍ غامضة في معسكر سنغالا. جلس في مقدمة السفينة، ووضع رجلاً فوقَ رجل بينما أراح ذراعيه فوق ركبتيه، ونظر إلى الأمام فبدا وكأنه تمثالٌ من التماثيل.

طرح الملك سؤالاً على أريستاندر: "ماذا عرفتَ عنه؟".

"اسمه كالان، أو كالانوس باليونانية، وهو حكيم عظيم بين أبناء شـــعبه، كمـــا أنه موهوب، وذو قدرات استثنائية اكتسبها بعد تمضيته عمره بأكمله في ممارسة التأمل".

"يذكرني بأفكار فيثاغورس، وبأشعار بيندار".

"هـــذا صـــحيح، لذلك يُحتمل كثيراً أن تكون هذه الأفكار قد وصلت إلى فيثاغورس من الهند".

"كيف اكتشفتَ كل هذا؟".

"أخبرني كالانوس الذي تعلّم كيفية التحدث بالإغريقية في فترة تقل عن شهرٍ واحد".

"أتقول في أقل من شهرٍ واحد؟ هل هذا ممكن؟".

تابع أريستاندر شرحه: "إنه أمرٌ ممكن لأنه تحقّق بالفعل، لكن، ليس لديّ تفسير لذلك. تمكّن الرجل من التواصل معي حتى قبل أن يتمكّن من الكلام. شعرت وكأن أفكاره تدخل عقلي".

تحولت نظرة الإسكندر إلى الموجة التي كانت تتكسر في تلك اللحظة بلطفٍ على جانبَي السفينة، ثم نظر إلى ذلك الاتساع العظيم للنهر، وإلى السفن المتجمعة في مجراه. ابتعد بايرو الآن كي يجلس قرب الدفة فوق بعض الحبال، وكان يكتب شيئاً ما على لوحٍ وضعه فوق ركبتيه. اقترب الملك من أريستاندر وسأله: "هل أخبرته عن كابوسك؟".

"كلا".

"أما زال يراودك".

"كلا لم يعد يراودني منذ قدومه إلى المعسكر".

"وهل تعرف لماذا أتى؟".

"أتى كي يلتقيك وكي يساعدك. عرف منذ بعض الوقت بأن رجلاً عظيماً سيظهر من الغرب، ولذلك قرّر أن يلتقيه".

أومأ الإسكندر، ثم ترك مكانه عند طرف السفينة وتقدّم من كالانوس.

سأله: "ما الذي تنظر إليه يا ***كالان***؟".

ردّ الحكيم بصوتٍ غريب يشبه صوت آلة نحاسية: "أنظر إلى عينيك. إنهما رمز ذلك الخطّ الداكن الذي يمرّ عبر روحك، وهو خطٌّ فاصلٌ رفيع ما بين النور والظلمة، أي مثل نصل شفرة تسير أنت فوقه راكضاً. إنه مشروع صعب، وعادة، يكون مؤلماً...".

ردّ الملك بدهشة: "كيف يمكنك أن تنظر إلى عينَيَّ إذا استمررت في التحديق إلى الأمواج؟ وكيف تمكنت من التحدث بلغتي بشكل مثالي من دون أن يعلّمك أحد؟".

"رأيت عينيك قبل أن ألتقيك، لكن هناك لغة واحدة يا مولاي. وإذا نجح الإنسان في التوصل إلى أعماق روحه وطبيعته هو، فسيتمكّن من أن يفهم كل البشر، وسيتمكنون بدورهم من فهمه أيضاً".

"لماذا أتيتَ إليّ؟".

"أتيت كي أتابع مطلبي".

"وإلى أين يقودك مطلبك؟".

"يقودني إلى السلام".

"لكن طريقي تأخذني إلى الحرب. هَيأت لهذا منذ أن كنت صبياً".

"هَيأت كذلك كي تتلقى المعرفة. إنني أرى ظلال حكمة كبيرة في أعماق عينيك. *إن السلام في العالم هو الخير الأسمى، ولا يُمكن تحقيق الخير الأسمى من دون المرور عبر النار والسيف*. حدث ذلك بالفعل. ولذلك أريد أن أساعد على تنمية حكمة الملك العظيم فيك، وهي الحكمة التي يجب أن تكون موجودة لدى من سيكون ذات يوم أب الشعوب كلها. هذا هو سبب قدومي إليك".

"على الرحب والسعة يا **كالان**، لكن طريقي تحددت يوم عبرت البحر لأول مرة. ولا أعرف إذا كنت سأنجح في تغيير اتجاه هذه الطريق".

أجاب كالانوس وهو يحدّق إلى مجرى المياه السريع: "سيحملنا هذا النهر بعد قليل إلى السند العظيم. إذا أبحرتَ نحو منبعه فستصادف مجرى صغيراً من المياه العذبة، لكن إذا أبحرتَ نزولاً فسترى المئات

مـــن مجـــاري السيول التي تمزج مياهها معه، وتغيّر لونه ومجراه. سترى الأشجار التي تحني أغصانها العالية كي تلامس سطحه، وسترى كذلك أسماكاً من كل الأنواع، وأفاعي، وتماسيح تظهر بشكلٍ مفاجئ سابحةً في مجـــراه، وسترى الطيور التي تبني أعشاشها بمحاذاة ضفّتيه. إن هذا النهـــر الـــذي تراه الآن هو كل هذا؛ وسيتحول إلى شيء آخر مجدداً عندما يتدفق نحو الأقيانوس. يتدفق هناك في المياه الأبدية، أي في الرحم الـــشامل الـــذي يحيط بكل اليابسة. لا يخرج السند العظيم عند تلك الـــنقطة، لكنه يصبح جزءاً من السائل الحيوي الوحيد الذي تولد منه ثانية كل السحب والطيور والأنهار والأشجار والأزهار...".

لم يقـــل شيئاً آخر، لكنه عاد إلى اتخاذ وضعية الصمت الذي لا يمكن لأحدٍ أن يخترقه.

اقتربَ نيرخوس من الملك، ولكن مع نظرةٍ من القلق مرتسمة على وجهه.

سأل الإسكندر: "ما الأمر؟".

فأجابه: "لقد وصلنا إلى مجرى الشلالات".

55

أشــــار نيرخوس إلى مكانٍ في النهر كان يغلي مزبداً، وربما يبعد عـــنهم عـــشرة ستاديات. قال: "يجب أن نتوقف على الفور كي نلقي نظرة على مجراه من الضفة قبل أن نحاول عبوره بأسطولنا".

أمر برفع علم الإنذار على الفور، وأمر قائد الدفة بالاستدارة نحو الـــضفة. صـــاح رئيس المجذفين: "ارفعوا مجاذيف الجهة اليمنى!". فرفع المجذفـــون في الجهـــة الـــيمنى مجاذيفهم، بينما تابع المجذفون من الجهة الأخـــرى تجذيفهم، وجعلوا السّفينة تتحرّك في دورةٍ واسعةٍ نحو ضفة النهر اليمنى. وحذت السفن الأخرى حذو سفينة القيادة بمناوراتها بعد أن رأت إشـــاراتها، وهكذا وصلت السفن إلى اليابسة وألقت مراسيها. انـــشغل الـــبحارة بربط سفنهم، لكنهم سمعوا سلسلة من الصرخات العالـــية، بينما ظهر آلاف المحاربين فوق التلال التي ترتفع شرقاً، وبدأوا بالهجوم على الفور.

أمـــر الإسكندر بعزف الأبواق، وما لبث حاملو الدروع وجنود الهجوم أن قفزوا إلى المياه، وركضوا إلى الأمام كي يتصدوا للعدو الذي اقترب كثيراً.

سأل الملك: "مَن هم؟".

أجاب نيرخوس: "إنهم الماليون. اقتربنا كثيراً من ملتقى هذا النهر مع نهر السند. إنهم جنود شرسون لا يُمكن التغلب عليهم".

قال الإسكندر آمراً: "أريد أسلحتي!". عندها، ركض مساعدوه نحوه حاملين درع صدره، ودروع ساقيه، وخوذته المتوّجة.

قالت له روكسانا متوسلة إياه وهي تطوقه بذراعيها: "لا تذهب أيها الإسكندر".

"أنا الملك! يتعيّن عليّ أن أكون في المقدمة!". ثم قبّلها على عجل وصاح: "هيا معي يا رجال!". أمسك درعه بسرعة، وقفز إلى المياه، ثم اندفع نحو الضفّة.

في هذا الوقت، بدأ المحاربون بالنزول من السفن الأخرى بالآلاف، وصدحت الأبواق، وصاح القادة بأوامرهم بكل اللغات التي يتكلمها جنود ذلك الجيش العظيم.

ما إن وصل الإسكندر إلى اليابسة حتى وصلت كتائب من المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، بينما كانت جياد أولى سرايا الفرسان تنزل بسرعة من السفن الأخرى المتجمعة في مكانٍ آخر على ضفّة النهر.

بدأ العدو بالتراجع بعد نجاح هجومه الأول، وذلك تحت ضغط فِرَق المقدونيين التي أخذت تستعيد زخمها، وراحت تهاجم بتشكيلاتٍ متراصّة. لاحظ المالينيون استحالة إجبار المقدونيين على التراجع، ولذلك بدأوا بتراجعٍ منظّم، لكنهم استمروا في قتالهم الشرس إلى أن وصلوا إلى حيث كانت التلة خلفهم، أي أنهم أصبحوا في موقعٍ أقوى، لذلك شنوا هجوماً مضاداً بحيوية متجددة. استمر خط المواجهة في التغيّر مع سيطرة المالينيين عليه حيناً والمقدونيين حيناً آخر. ولكن، مع تقدم فترة الصباح، نزل ما يكفي من الجياد من السفن لتشكيل سريتين كاملتين من الفرسان، واللتين تمكنتا من التقدم لمهاجمة جناحَي العدو. امتطى الإسكندر جواده، وقاد الهجوم بنفسه. في تلك اللحظة بالذات، ظهر خطٌّ طويل من فرسان الأعداء فوق التلال المقابلة، وما لبثوا أن بدأوا بهجومهم لمشاغلة سرايا الملك.

تــزايدت حدة المعركة حتى الظهيرة. عندها، مالت الكفة أخيراً لــصالح المقدونيين فتمكنوا من دفع الماليين إلى ما وراء سلسلة التلال. نظــر الإسكندر من هناك إلى خمس مدنٍ أخرى، ولاحظ أن إحداها تتميز عن غيرها من المدن بتحصيناتها الضخمة المشيدة بأحجار الطوب.

قــسّم الإسكندر جيشه إلى خمس مجموعات، وأرسل كلّ واحدة منها نحو إحدى تلك المدن. قاد بنفسه المجموعة الخامسة، وكانت أكبر المجموعات عدداً. ودعا الإسكندر بيرديكاس وبطليموس وليوناتوس إلى مهاجمة العاصمة، لكنه عندما أوشك على إطلاق الأمر بالهجوم صرخ بــه ليوناتوس: "انظر أيها الإسكندر! هرب بيريتاس من السفينة". كان ذلك الكلب المولوشي يركض بأقصى سرعة إلى أعلى التلة كي ينضمّ إلى سيده.

قــال الملــك مُقسِماً: "بحق زيوس سآمر بجلد من سمح له بترك الــسفينة إذا حــدث لــه أي شــيء! ارجع. عُد يا بيريتاس! عد إلى روكسانا!".

بدا للحظة أن الكلب يفكّر في إطاعة الأمر. ولكن، ما إن انطلق الإسكندر على رأس رجاله حتى لحقه مجدداً.

وصــلت المجمــوعة التي يقودها الملك إلى تحت الأسوار قبل أن ينتصف العصر. وكان المقدونيون يجدّون في أثر الماليين الذين سعوا إلى الاحــتماء داخــل مدينتهم. اندفع هؤلاء إلى الداخل من خلال ثلاث بوابات تُركت مفتوحة أمامهم.

علِق الإسكندر تماماً وسط الإثارة التي سببتها المطاردة، لكنه قفز عن صهوة جواده عندما رأى ذلك الجزء من الأسوار الذي كان منهاراً جــزئياً بسبب مياه الأمطار، أو بسبب عدم الصيانة، وبدأ بصعود الممر كــي يــدخل المدينة. وصل إلى القمة من دون أن ينتبه إلى أنه بمفرده.

لاحــظ لــيوناتوس مــدى ضعف موقفه فاندفع وراءه صائحاً: "أيها الإســكندر! توقف! انتظر!". لم يسمع الملك شيئاً من هذه الكلمات بــسبب ضــجيج القــتال، وفوضى الصيحات الآتية من كل حدبٍ وصوب، ولذلك توجّه إلى القمة ثم نــزل من الجهة الأخرى.

قاد ليوناتوس جنوده إلى ذلك الممر المنهار كي يساعد الإسكندر. لكن، في هذا الوقت، تقدّم عدد من جنود العدو الذين رأوا ماذا يجري بغية منعهم من التقدم، وذلك من أجل إتاحة الفرصة أمام رفاقهم لقتل الملك داخل الأسوار.

أدرك الإســكندر في هذا الوقت الخطر المحدق به، وأنه محاصر فتراجع حتى أصبح ظهره محمياً بشجرة تين كبيرة، وراح يقاتل يائساً ضــد مجموعةٍ من خصومه. حارب ليوناتوس بدوره كي يشقّ طريقه وســط الأعداء، ولوّح بفأسه فأجبرهم على التراجع إلى أسفل الممر وصــاح: "إســكندر، اصمد! اصمد، إننا قادمون!". لكنه أدرك في أعماقــه أن الملــك يواجه خطر الهزيمة في أي لحظة. في هذه اللحظة بالــذات، سمــع عواءً يأتي من خلفه، ثم تذكّر الكلب. فصاح بأعلى صــوته ومــن دون أن يلــتفت: "اركــض يا بيريتاس! اركض إلى الإسكندر!".

ركض الكلب المولوشي إلى أعلى الممر بسرعة عظيمة، ووصل إلى القمة في اللحظة ذاتها التي انهار فيها سيّده بعد أن أصيب بسهم. أمسك الإسكندر درعه بآخر ذرةٍ من القوة التي بقيت لديه. لم يستغرق الأمر أكثــر مــن لحظة واحدة حتى قفز بيريتاس من أعلى السور، وارتطم بــسرعة البرق بالأعداء دافعاً إياهم إلى الوراء. سحق بيريتاس يد أحد الجنود بعضة واحدة، ومزّق عنق جندي آخر، وفتح بطن ثالث ما لبثت أحــشاؤه أن انــسكبت على الأرض. حارب ذلك الحيوان الرائع مثل

أسد، وراح يزمجر مبرزاً أنيابه المتسخة بالدماء، وكانت عيناه تومضان، وكأنهما عينا حيوانٍ متوحش.

اغتـــنم الإســـكندر هذه الفرصة كي يزحف متراجعاً، بينما بدأ لـــيوناتوس، الذي وصل في هذا الوقت إلى القمة مع رجاله، بالركض نـــــزولاً وهـــو يصيح مثل رجلٍ مجنون، ملوّحاً بفأسه في الهواء على شكل دوائر ففتح بذلك ممراً للملك. وحين استدار واجه جنود الأعداء الـــذين استمروا في الهجوم. قطع أول جندي اعترض طريقه إلى نصفين بـــدءاً مـــن رأسه ونـــزولاً حتى أربيته، فتراجع الآخرون الذين ارتعبوا لـــدى رؤيـــتهم قوته المخيفة. وخلال لحظات، انتشر مئات من جنود الهجوم وحاملي الدروع من المقدونيين في أنحاء المدينة وملأوا أجواءها بـــصرخاتهم المرعبة، وصيحاتهم اليائسة، بينما تصاعد ضجيج الأسلحة وسط شراسة المعركة.

جـــثا ليوناتوس إلى جانب الملك، وفكّ أربطة درع صدره، لكن الإسكندر التفت في هذه اللحظة وقد فاضت عيناه بالدموع: "بيريتاس! لا! ماذا فعلوا بك!".

فقـــد كانت الدماء وقطرات العرق قد غطّت جسد ذلك الكلب المولوشـــي الـــذي كان يسير مترنحاً نحوه وهو يئنّ بسبب ذلك الرمح المنغرز بإحكام بين ضلوعه.

صاح ليوناتوس: "استدعوا فيليب لأن الملك جريح!".

تمكن بيريتاس من الوصول إلى يد سيّده كي يلعقها لآخر مرة قبل أن ينهار ميتاً أمامه.

راح الإســـكندر يـــئنّ وسط نشيجه: "بيريتاس! لا!". ثمّ قرّب الكلـــب مـــنه، وعانـــق صديقه الذي قدّم إليه أغلى تضحية كي ينقذ حياته.

وصـــل بيرديكاس والدماء تغطي وجهه، وكاد أن ينهار من شدّة الإعـــياء. "فيليب ليس هنا، لأن أحداً لم يفكر في إعطائه حصاناً وسط فوضى هذه المعركة".

قال ليوناتوس بصوت متقطع: "ماذا يمكننا أن نفعل الآن؟".

"لا يمكنـــنا أن نحرّكه وهو في هذه الحالة. يتعيّن علينا أن نسحب هذا السهم. أمسكوه لأنه سيشعر بألم لا يطاق".

أمسك ليوناتوس ذراعَي الإسكندر بإحكام وثبتهما تحت ظهره، بيـــنما مزّق بيرديكاس سترته فانكشف الجرح. وضع إحدى يديه على صـــدر الملـــك بينما استخدم يده الأخرى لسحب السهم، لكن رأس الـــسهم المعدني كان عالقاً بين عظمتي الترقوة والكتف، فلم يتزحزح السهم قيد أنملة.

قال بيرديكاس: "يتعيّن عليّ استخدام نصل سيفي كعتلة. اصرُخ أيهـــا الإســـكندر. اصـــرُخ بأعلى صوت ممكن، لأنني لا أملك شيئاً لتخفيف الألم الذي ستشعر به!".

ثم أخـــرج سيفه من غمده وأدخله في الجرح. صرخ الإسكندر، وراح جـــسده يـــتلوى بـــسبب وخزات الألم الذي لا يُحتمل. بحث بيرديكـــاس عـــن عظمة الكتف بطرف سيفه، ودفعها بقوة إلى الخلف بيـــنما استخدم اليد الأخرى كي يسحب مقبض السهم فتحرر فجأةً، لكـــن الدم تدفق من الجرح بغزارة كبيرة. وسرعان ما انهار الملك فاقداً الوعي بعد أن أطلق آخر صرخة له.

"اعثـــر على جمارٍ متوهجة يا ليوناتوس. بسرعة! يتعيّن علينا كيّ الجرح وإلا سينـــزف حتى الموت".

عـــندها، نهـــض ليوناتوس وركض، ثم عاد بسرعة حاملاً دعامة خـــشبية محترقة سحبها من منـــزلٍ محترق وما لبث أن دفعها في الجرح

فتـــصاعدت رائحـــة اللحم المتفحم التي تبعث على التقيؤ، ولكن الدم توقّف عن التدفق. في هذا الوقت، صنع جنود بيرديكاس نقالة ووضعوا الملك عليها، ثم حملوه إلى خارج بوابات المدينة.

أشار ليوناتوس بعينيه الحمراوين اللتين تفيضان بالدموع إلى جسد بيريـــتاس الذي غادرته الحياة، وقال: "خذوه معكم. إنه البطل الحقيقي في هذه المعركة".

56

نُقـــل الإســـكندر إلى ضفاف النهر حيث نصب نيرخوس خيَم المعسكر قرابة منتصف الليل، وهو يغلي من شدّة الحمى، وفاقداً وعيه. هـــرعت روكسانا إليه وهي تصرخ يائسة، ثم جثت إلى جانبه، وقبّلت يده وسط نشيجها. نظرت إلى ليبتين في أثناء إحضارها ضمّادات نظيفة وبعـــض المـــياه. بدا وجهها شاحباً بعد أن ارتسمت عليه كل أمارات الرعب والقلق، وذلك في أثناء انتظارهما وصول فيليب.

ظهر الطبيب على الفور تقريباً، وبدأ عمله من دون تأخير فانحنى علـــى الـــرجل الجريح. وقصّ في البداية الضمادات المؤقتة التي وضعها بيرديكـــاس وليوناتوس على الجرح، ثم بدأ بتنظيف الجرح بواسطة الماء الذي أحضرته ليبتين.

وضـــع الطبيب أذنه على صدر الإسكندر، وبدأ يفحصه بعناية، بيـــنما انتظـــر أصدقاء الملك سماع رأي الطبيب بعد أن دخلوا لرؤيته بصمت واحداً تلو الآخر.

قـــال فيليب بعد أن هبّ واقفاً: "ليس هذا، مع الأسف، جرحاً عاديـــاً، لأن رأس السهم قد ثقب رئته. لقد سمعت صوت الدماء وهي تقرقر مع كل نَفَسٍ يتنفّسه".

سأل هيفاستيون: "وماذا يعني ذلك؟".

اكتفى فيليب بأن هزّ رأسه بعد أن عجز عن الكلام.

توترت أنفاس الإسكندر في تلك اللحظة، وما لبث لعابه الممزوج بدمائه أن سال من فمه فوق وسادته.

اقتــرب بطلــيموس مــن صديقه، ووضع يده فوق كتفه. أما هيفاســتيون فقد قال بالرغم من تلك الكتلة التي تجمعت في حنجرته: "يعني ذلك أن الإسكندر قد يموت. هيّا دعونا نتركه كي يرتاح الآن".

في تلــك اللحظة، دخل سلوقس الذي قاد الهجمات على المدن الأخرى ومعه كراتيروس ولايسيماخوس، وسرعان ما أدركوا حقيقة ما يجري. اقترب سلوقس من فيليب وسأله هامساً: "أيوجد أي أمل؟".

رفع الطبيب عينيه، وسرعان ما لاحظ سلوقس في عينيه نوعاً من الحــزن، ونوعاً من الإحباط والعجز إلى حدٍّ عجز معه عن الكلام قبل مغادرته.

فــرغت الخيمة فجأة، ولم يعد يُسمع فيها سوى تفجّع روكسانا الهادئ وهي تبكي حزناً وتقبّل يد زوجها، ودموعها تنهمر بغزارة.

أمــا ليبــتين التي كانت تشعر عادةً بنوعٍ من الكراهية تجاه أي شــخصٍ يكــون علــى علاقةٍ حميمة مع الإسكندر، فقد اقتربت من روكسانا ببطء، ووضعت يدها فوق كتفها هامسة: "لا تبكي. أتوسّل إلــيك ألاّ تبكي. يمكنه أن يسمعك، لذلك يجب أن تكوني قوية. يتعيّن علــيك أن تفكري... عليكِ أن تفكّري أن الجميع يحبونه... إننا نحبه جميعاً، والحب أقوى من الموت".

نـــزع فيليب مئزره الملوّث بالدماء، وقال للمرأتين: "تذكّرا ألاّ تتركاه بمفرده، ولو للحظات قليلة قصيرة. أنا ذاهبٌ الآن لتحضير كل مــا يلــزم من أجل تصريف الجرح. أرسلا في طلبــي على الفور إذا حدث أي شيء".

أومــأت ليبتين، وما لبث الطبيب أن تناول مشعلاً وغادر الخيمة. وعــند عبوره المعسكر شاهد بطليموس وليوناتوس وهما يضعان جسد بيريــتاس فــوق كومة من الحطب، كما وضعا إلى جانبه عنان الكلب

المزيّن بأزرارٍ فضية، وهي الإجراءات المتبعة عند حرق الأبطال. اقترب الطبيب منهما.

قال بطليموس متمتماً: "يا لهذا اليوم الفظيع. ما إن بدا أننا وضعنا كل الآلام والتعب وراءنا..."، ومسّد بيده جسد الكلب الذي غادرته الحياة، والمسجّى على بطانية مصنوعة من الصوف الأحمر. قال والدموع تفيض من عينيه: "سأفتقده لأنه كان يرافقني على الدوام عندما أكون في نوبة حراسة". في تلك اللحظة، وصل كراتيروس مع ثلةٍ من جنود البيزيتاروي الذين توزعوا على جانبَي المحرقة.

قال ليوناتوس شارحاً الأمر: "شعرنا بأنه يستحق كل مظاهر التكريم، لأنه كان الحارس الأول للملك".

ثم تناول مشعلاً كي يُشعل المحرقة، وانتظر إلى أن بدأت ألسنة اللهب بالتصاعد مبددةً الظلمة، فصاح: "قدّموا سلاحكم أيها البيزيتاروي!".

رفع جنود المشاة رماحهم تحيةً. وفارق بيريتاس سيّدهُ للمرة الأولى منذ أن قدّم إسكندر إيبيروس هذا الكلب إلى الإسكندر.

*

راقب فيليب الطبيب الملك طيلة الليل، وكذلك فعلت روكسانا وليبتين، ولم تستسلم الملكة للنوم إلا عند الفجر، وذلك لأنها كانت متعبةً من قلة النوم لمدة طويلة. راحت الملكة تئنّ باستمرار بفعل الألم والحزن.

دخل هيفاستيون وبطليموس عند مطلع الفجر، وبدا عليهما أنهما لم ينالا قسطاً من الراحة بدورهما. سألا عند دخولهما: "كيف حاله؟".

أجاب فيليب: "تمكّن من الصمود في هذه الليلة. لا يمكنني إخباركما المزيد".

قـــال هيفاستيون بحزن: "إذا مات، فسنحرق هذه المدن مع كل سكانها تكريماً له".

ردّ فيليب: "دعونا ننتظر ونرى ماذا سيحصل، لأنه لا يزال حياً".

مـــرّ يومان آخران، وبدا أن حالة الملك الصحية تتدهور من دون أن تمـــنحهم الأمـــل بالتحسّن. أصاب الورم صدره بالرغم من أدوات التـــصريف التي أدخلها فيليب، كما بقيت حرارته مرتفعة جداً، وظلّ تنفّسه متقطّعاً، بالإضافة إلى تحوّل لون جلده إلى لونٍ يشبه لون الرماد، كما ظهرت هالتان سوداوان حول عينيه الغائرتين.

لازمـــه رفاقه، وبقوا متنبهين كي لا يزعجوه، كما تناوبوا على مراقبته، ولم يستسلموا لسلطان النوم إلا بعد أن نال منهم الإنهاك تماماً. وغـــرق المعسكر الذي كان يعج بالحياة والضجيج عادة بسكونٍ غير طبيعي. بدا الأمر وكأن الزمن قد توقف.

ارتفعت حرارة الإسكندر كثيراً في ذلك المساء، كما صعُبت عليه عملـــية التـــنفس كثيراً، فما كان من فيليب إلا أن هبّ واقفاً بشكلٍ مفاجئ، وغادر الخيمة.

سأل ليوناتوس: "إلى أين ذهب؟".

ردّ هيفاستيون: "لا أعرف. لم أعد أعرف شيئاً بعد الآن. لم يعد هناك شيء نعرفه الآن...".

سار فيليب في وسط المعسكر، وألقى نظرةً سريعة على أريستاندر الـــذي كان يتابع تقديم الأضحيات في مذبحه الذي تصاعد منه الدخان طـــوال الليل. وخرج بعد ذلك إلى مكانٍ تواجدت فيه شجرة بانيان، ووقف هناك أمام جسد كالانوس النحيل فوجده غارقاً في التأمل.

قال له فجأة: "استيقظ".

فتح كالانوس عينيه.

"برهنت أسيادنا عن عجزها التام، وكذلك علومنا. أنقذ الإسكندر إذا كنتَ تستطيع ذلك، أو غادِرنا ولا تعد".

وقف كالانوس بسرعة، فبدا وكأنه لا يزن شيئاً، ثم سأل: "أين هو؟".

أجاب فيليب وهو ينطلق مبتعداً: "إنه في خيمته. تعالَ معي".

تبعه كالانوس، ودخلا إلى الخيمة الملكية التي كانت مضاءةً بالمشاعل.

أمر بصوت حازم: "أطفئوها كلها، ودعونا بمفردنا".

أطاع الجميع أوامر كالانوس الذي جلس متربعاً وراء سرير الإسكندر، وراح يحدّق من خلال الظلمة إلى رأس الملك، وقد توتّر جسده إلى أن أصبح مثل كتلة حجرية.

وجدوه جالساً هناك بهذه الوضعية مدّة ثلاثة أيام متتالية. وفجر اليوم الرابع، دخل فيليب كي يغير أدوات تصريف الجرح، وسحب زاوية من الستارة التي تغطي مدخل الخيمة كي يسمح لقدرٍ قليل من الضوء بدخول الخيمة. كان يغسل يديه في حوض مياه قبل أن يبدأ بتغيير الضمادات عندما سمع صوتاً ضعيفاً ينادي من ورائه: "فيليب...".

فالتفت من دون تأخير قائلاً: "يا مليكي!".

كانت الحمى قد خفّت قليلاً، فيما انتظم تنفسه. أمّا دقّات قلبه فكانت ضعيفة ولكن منتظمة. أصغى إلى صدره، فلاحظ أن قرقرة الدماء قد اختفت. نادى ليبتين: "أبلِغي الملكة بأن الملك قد استعاد وعيه. أريدك أن تحضّري له بعض المرق على الفور. يجب علينا أن نغذّيه لأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة".

انصرفت ليبتين للقيام بواجباتها، بينما أخرج فيليب رأسه خارج الخيمة على الفور، ونظر إلى حيث كان لايسيماخوس وهيفاستيون ينتظران، وقال لهما: "أخبرا الآخرين بأن الملك قد استيقظ".

سأل هيفاستيون بقلق: "وكيف حاله؟".

ردّ الطبيب بخشونة: "وكيف ستكون برأيك؟ إنه مثل رجلٍ أصيب بسهم حديديّ استقرّ في كتفه".

عاد فيليب إلى العناية بالإسكندر، وعندها فقط رأى كالانوس مستلقياً بسكون على الأرض، وهو أشبه بالجثة الباردة.

صاح على الفور: "آه! بحق زيوس!".

وأمر مساعديه بنقل كالانوس إلى خيمته، وبتدفئته بكل الطرائق التي يمكنهم التفكير فيها، وبإعطائه شيئاً ليأكله، وحتى بالقوة إذا اضطروا إلى ذلك، ثم عاد للاهتمام بالإسكندر. في هذا الوقت، كانت روكسانا إلى جانبه وكانت تحدّق إليه غير مصدقة، بينما كانت ليبتين تحاول إقناعه بتناول بعض المرق بالطريقة الوحيدة الممكنة، أي بتغميس قطعة قماش في المرق ووضعها على شفتيه بحيث يستطيع امتصاصها.

سأل الإسكندر ما إن رأى فيليب: "ماذا حدث؟".

ردّ الطبيب: "حدث كل شيء يا مليكي، لكنك لا تزال حياً، ولديّ كل الأمل بأن تبقى كذلك. لا يمكنك أن تعرف مدى سروري". وأضاف بصوتٍ مرتعش: "لا يمكنك أن تصدّق... لكن، أرجوك أن تتوقف عن الكلام الآن. إنها معجزة أن تبقى على قيد الحياة، وأعتقد أن كالانوس هو الذي صنع هذه المعجزة".

قال الإسكندر متمتماً: "بيريتاس...".

"لم يتمكن بيريتاس من النجاة. قال لي ليوناتوس إنه مات كي يُنقذ حياتك. لذا، أريدك ألاّ تضيّع تضحيته سدى. حاول أن تأكل قبل أن تخلد إلى الراحة. استرح أرجوك".

شرب الإسكندر شيئاً من المرق الذي قدّمته إليه ليبتين، ثم ألقى رأسه على الوسادة مغمضاً عينيه، لكن دموعه انسابت من خلال جفنيه المغمضين ونزلت فوق خدّيه قبل أن تبلّل وسادته.

57

استلقى الملك في سريره متأرجحاً بين الموت والحياة لأيامٍ كثيرة. ولكن، تبيّن أن جميع الجهود التي بُذلت في سبيل إرجاعه إلى الحياة قد ذهبت سدى. فحالته العامة بقيت حرجةً للغاية، وبقي التحسّن طفيفاً إلى حــدّ أن فيلــيب لم يعــد متأكداً من إمكانية إنقاذه، أو إن كان **ثاناتــوس** قــد ابتعد عنه مؤقتاً بسبب بطولة كالانوس ولكنه سيعود للــضرب مجــدداً بهدف انتزاع روحٍ سبق له أن ادّعى ملكيتها. وحده الحكيم الهندي كان واثقاً من نجاته، حيث إنه استمر في القول: "عقدت اتفاقية، ولذلك سيتحسّن". لكنه امتنع عن إضافة أي شيء عندما كان أي شخصٍ يسأله عن تفاصيل أكثر.

مــرّ شــهر كامل قبل أن يتمكّن الإسكندر من الجلوس متكئاً على طرف سريره، كما مرّ عشرون يوماً آخر قبل أن يتمكن من شرب الحساء بمــساعدة ليبــتين التي كانت تطعمه بواسطة الملعقة بينما كانت روكسانا تنظــر إليهما. لم يتكلم كثيراً، وفعل ذلك بصعوبة بالغة. وكان إيومينيس يــأتي بين الحين والآخر كي يقرأ له أشعار هوميروس. تسلّم الأمين العام مهــامّ الملــك الــسياسية، وذلك بعد إجماع الرفاق على ذلك. واعتادت روكسانا في أوقات أخرى أن تغني له أغاني شائعة في منطقتها الجبلية. كان صوتها هادئاً ومترافقاً مع ألحانٍ بسيطة وموحية تعزفها على قيثارتها.

وبعد مرور شهرين، وافق فيليب على أن ينهض الإسكندر ويخطو خطــوات عــدة داخل الخيمة، وذلك بمساعدة كراتيروس وليوناتوس. ولكــن، كان من الواضح منذ البداية أنّ هذا المجهود البسيط سبب له

تعـــباً لا يوصف في ما بعد، وجعله يتصبّب عرقاً، وما لبث أن استسلم مجدداً لنومٍ عميق.

في إحـــدى المـــرات، دخل ليوناتوس مع كراتيروس وهيفاستيون الخـــيمة، بينما كانت ليبتين تحاول جاهدة أن تجعله يبتلع شراباً ساخناً. مرّر الرجل يده في شعره الأشعث، وقال مقتنعاً بفكرته: "وماذا لو كنا سنعطيه كوب نسطور؟".

نظر إليه فيليب بشفقة ظاهرةٍ في عينيه: "أنت لا تعرف ماذا تقول. ألا تعلم أن مزيج العسل والطحين، والشراب، والجبن، من شأنه أن يقتله؟".

قـــال ليوناتوس بعد أن شعر بالإهانة: "يُحتمل أنك محقّ. ولكن، هل سمعت الإشاعات التي سرت في الخارج؟ يقولون إن الملك قد مات، وإننا نخفيه كي نتجنب حدوث ذعرٍ بين الجنود".

صاح فيليب: "كيف يتجرأون على هذا التفكير. يعلم الجميع أن الملك حي".

قال هيفاستيون: "ليس هذا هو واقع الحال. إننا نعرف هذا، لكن الآخـــرين لا يعرفون. أعطيت أوامر بألاّ يراه أحد في وضعه هذا، حتى الحـــراس. إذ إن تـــأثير ذلـــك على معنويات الجنود سيكون مأساويًا لمعرفتهم بأنه مات".

قـــال إيومينيس موافقاً: "بالضبط. في الحقيقة، لم يره الجنود منذ أشـــهر، بيـــنما يروننا نأتي إلى خيمته ونخرج منها باستمرار، أو عندما نعقـــد اجتماعاتـــنا، كما أن عدداً من الجنود رأوني وأنا أستخدم ختم الملك على الوثائق التي أرسلناها إلى المقاطعات".

قـــال كراتيروس موافقاً: "هذا هو شعوري أنا أيضاً. تفكّر بعض فِرَق الجيش في إمكانية دعوة جمعية عامة للجيش المقدوني. أتعلمون ماذا يعني ذلك؟".

أومأ إيومينيس: "يعني أنه بإمكانهم إجبارنا على استقبال وفدٍ منهم في الخيمة الملكية كي نريهم الإسكندر وهو في هذا الوضع".

التفت فيليب عند هذا الحد: "لن يدخل أحد هذه الخيمة من دون إذني طالما أنا موجود هنا، لأنني طبيب الملك الخاص، وأنا أتحمل مسؤولية...".

فوضع كراتيروس يده على كتفه: "إذا غاب الملك، فإن الجمعية العامة للجيش ستتولى السلطة المطلقة. يمكنهم أن يفعلوا هذا الأمر، وسيفعلونه بالتأكيد قريباً".

دخل سلوقس ولايسيماخوس كي يستفسرا عن صحة الملك، فلاحظا جو التوتر السائد في الخيمة. سأل سلوقس: "ماذا يجري؟".

بدأ كراتيروس بالقول: "الواقع هو...".

لم يلاحظ أحد وجود الإسكندر منذ أن بدا بأنه استغرق في نوم عميق، لكن صوته أخذهم جميعاً على حين غرة: "أصغوا إليّ".

التفت الرفاق بدهشةٍ وحرج. أدرك إيومينيس أنه لا بد من أن يكون الملك قد سمع كل ما دار في الخيمة من أحاديث، لذلك حاول أن يشرح ما يجري: "أيها الإسكندر، هذا أمر يسهل حلّه في ما بيننا...".

رفع الملك رأسه ويده اليمنى بإشارة واضحة، فتوقف الجميع عن الكلام.

"يا سلوقس...".

أجاب صديقه بصورةٍ عفوية بعد أن تأثر لكونه تلقى أمراً من الإسكندر بعد كل هذا الوقت الطويل: "في خدمتك يا مولاي".

"أريدك أن تدعو الجيش إلى التجمع. أريد أن يتجمع كل الجنود بعد غياب الشمس".

"أجل يا مولاي".

"يا ليوناتوس...".

ردّ ليوناتوس الذي أظهر دهشةً تفوق دهشة سلوقس: "في خدمتك يا مولاي".

"جهّز لي جوادي. أريد الجواد البنّي...".

"الجواد السرماشي. أجل، أجل. بالطبع يا مولاي".

صاح فيليب: "بالطبع لن تفعلا أموراً كهذه. ماذا يحدث هنا... هل جننتم جميعاً؟ إن الملك ليس في حالة تسمح له...".

رفع الإسكندر يده مجدداً، ولم يقل فيليب أي شيء آخر بصوتٍ عالٍ، لكنه بقي يتمتم بينه وبين نفسه.

"يا هيفاستيون...".

"أنا أصغي".

"حضّر لي درعي. أريدها أن تكون لامعة إلى أقصى حدٍّ ممكن".

ردّ هيفاستيون بالرغم من تلك الكتلة التي تجمعت في حنجرته: "ستكون جاهزة. ستكون لامعة ومشرقة مثل النجمة الأرغادية".

اقتنع جميع الحاضرين في هذا الوقت بأن الملك لم يعد راغباً في ملازمة فراشه، وأنه فضّل أن يموت على صهوة حصانه. حتى إنّ فيليب كان متأكداً من ذلك أيضاً، فجلس في إحدى زوايا الخيمة وهو يتمتم لنفسه: "افعلوا ما يحلو لكم. نفّذوا ما تريدونه إذا كنتم ترغبون في قتله. لكن لا علاقة لي بكل هذا...". ولم يتمكّن من قول أي شيء آخر بسبب تأثره بفكرة فقدانه الإسكندر.

قال الملك: "ليوناتوس. أريد الجواد هنا في هذه الخيمة".

أجاب صديقه بعد أن عرف أن الملك لا يريد أن يراه الجنود وهو يمتطي الجواد بمساعدة آخرين: "سأحضره إلى هنا".

"يمكنكم الانصراف جميعاً الآن".

أطـــاع الحاضرون أمر الإسكندر الذي ألقى نفسه فوق الوسادة، واستـــسلم للـــنوم فور انصرافهم. وبعد فترة أيقظه صوتا هيفاستيون ولـــيوناتوس. لاحظ الملك عندما فتح عينيه أن أنوار الشمس الغاربة قد أضاءت الخيمة جزئياً.

قال هيفاستيون: "إننا جاهزان".

أومأ الإسكندر، وجهد كي يرفع نفسه، ثم جلس على حافة السرير، وطلب إلى صديقيه أن يساعداه على الذهاب إلى الحمّام. غسلته ليبتين، وعطّرت جسمه وشعره، ثم بدأت بمساعدته على ارتداء ثيابه.

قـــال الملـــك: "ضعي بعض اللون على خدّي". أطاعت الفتاة، واســـتخدمت بعـــض مساحيق التجميل كي تضيف بعض الحيوية إلى خدّيـــه، وكـــي تغطـــي الهالتين الداكنتين اللتين أحاطتا بعينيه. داعب الإســـكندر وجههـــا وقـــال: "سأرتّب لك زواجاً من رجلٍ عظيم في إمبراطوريتي، وسأعطيك مهراً يليق بملكة". تكلّم بصدقٍ، وبنبرة صوتٍ توحـــي بطمأنيـــنة عظيمة. وسأل أصدقاءه عندما أنهت ليبتين عملها: "كيف أبدو؟".

أجـــاب لـــيوناتوس مع ابتسامة خجولة: "لست سيئاً. تبدو مثل ممثّل".

"والآن أريد درعي".

ســـاعد هيفاستيون الملك على ارتداء درع صدره ودرعَي ساقيه، وعلّق له سيفه إلى جانبه، ثم وضع له الإكليل فوق رأسه.

"أحضرا لي جوادي. هل تجمّع الجنود؟".

قال له هيفاستيون مؤكّداً: "إنهم في تشكيلاتهم جميعاً".

خـــرج لـــيوناتوس، وعاد مصطحباً الجواد السرماشي ممسكاً إياه بعـــنانه، وقـــاده إلى داخـــل الخـــيمة عبر مدخلٍ خلفي. عندها، جثا

هيفاستيون، وشبك يديه كي يستعين هما الإسكندر. وضع الملك قدمه عليهما حتّى تمكّن من الصعود على صهوة الجواد.

اقتـــرب ليوناتوس منه حاملاً بعض الأربطة في يديه: "اعتقدنا أن ربطك إلى الجواد سيكون فكرةً جيدة، كما أن هذه الأربطة لن تكون ظاهرة لأنها ستكون مغطاةً بعباءتك".

لم يجب الإسكندر، لكن صمته فُسّر على أنه موافقة. وضعا له حزاماً كبيراً حول خصره، وثبّتا بقية الأربطة به، وكانت عبارة عن أربعة أربطة: ربــاطين مـــن المقدمة، ورباطين من الخلف، ورُبطت جميعها بصهوة الجواد. ثم ألبساه عباءته الأرجوانية حيث غطت الأربطة المؤقتة تماماً.

قال آمراً: "هيا بنا الآن".

نظر هيفاستيون إلى خارج الخيمة، وأومأ ليوناتوس وكأنه يقول: "هـــيّا، الآن!". رفـــع هيفاستيون يده، وكانت هذه إشارة متفق عليها مسبقاً، فدوّى من بعيد صوتٌ عميق كسر الصمت الثقيل المخيّم على المكـــان عند غياب شمس ذلك اليوم. دوّى صوت فرقعة وتبعه آخر، ثم صـــوتٌ آخر مجدداً! وضع الإسكندر يده على أذنه وكأنه صعب عليه تصديق ما يسمعه، ثم انتصب جالساً بصورة فطريّة، ونخس بطن الجواد بكعبَي حذائه، فتحرك الجواد خارجاً من الخَيمة، وسار حولها ثم انطلق بهدوء عبر الجنود.

استمر سماع الأصوات العميقة والبطيئة، والتي أضافت إيقاعاً إلى وقع الخطوات المهيبة لذلك الجواد القوي. جهد الإسكندر لكبح دموعه وهـــو يشعر باهتزاز الهواء نتيجة ذلك الصوت المُرعد الذي يصدر عن طبل شايرونايا!

وقـــف الجـــنود ساكنين في صفوفهم، وأمسكت أيديهم بمقابض رماحهم بإحكام. نظروا بدهشة، بينما كان مليكهم يتحرك إلى الأمام

وهـــو يستعرضهم بنظرة فخورة، وحازمة، وقاسية. وما إن كان يتقدم من فرقة حتى كان الضابط المسؤول عنها يخطو إلى الأمام، ويستل سيفه صـــارخاً: "تحياتي مولاي!". وكان الإسكندر يرد بانحناءة بسيطة من رأسه.

ســـكت طبل شايرونايا عندما وصل الإسكندر إلى نهاية الصف. فتقدّم أرفع ضابطٍ مسؤول عن الهيتايروي بجواده إلى الأمام وصاح: "في خدمتك يا مولاي!".

قال الإسكندر: "اعزفوا إشارة التفرّق". وجذب عنان جواده، بينما كانت الأبواق تصدح بإشارة التفرّق، فانطلق الملك بجواده نحو الخيمة.

تمـــتم فيلـــيب وهـــو ينظر إليه من بعيد: "إنه مجنون. يُحتمل أن تتسبب أي هزة من هذه الاهتزازات بوقوعه على الأرض و...".

ردّ ســـلوقس وهـــو يربّت على كتف الطبيب: "لن يسقط على الأرض. لن يسقط".

لم يـــتمكن بطليموس من تحويل أنظاره عنه: "إذاً، هذا ما أراده. رآه الجميع، وهم يعرفون الآن أنه حيّ، وأنه استعاد مركز القيادة".

دخل الإسكندر الخيمة على صهوة جواده، فأسرع أصدقاؤه إلى فـــكّ الأربطـــة، وساعدوه على النـــزول عن صهوة جواده، ثم بدأوا بنـــزع عباءته، ودرع صدره، ودرعَي ساقيه بالإضافة إلى سيفه.

قال فيليب آمراً: "خذوه إلى سريره على الفور".

هـــزّ الإسكندر رأسه، وسار مترنّحاً قليلاً نحو كرسيّه الميداني، ثمّ وضع يديه على الطاولة وقال: "إنني جائع. أيرغب أحدكم في أن يأكل شيئاً معي؟".

نظـــر الحاضرون إليه بدهشة، حتى إن ليوناتوس توقف عما كان يفعله، ووقف ممسكاً بعنان الجواد.

نـــادى الملـــك: "ليبتين. أزيلي كل هذه الأغراض عن الطاولة، وأحضري لي شيئاً من كوب نسطور".

ردّ فيليب: "كوب نسطور! إذاً، هل قرّرت بالفعل أن تموت؟ لن تـــستطيع أبـــداً هـــضم هذا الشراب، وستمرض، وستتقيأ وستتفتح جروحك مجدداً، و...".

كـــرّر الإسكندر أوامره: "أحضري كوب نسطور". حدّق إليه الحاضرون فاغري الأفواه. فلقد بدا أنه وُلِد من جديد وتغيّر كلياً.

همـــس كـــراتيروس في أذن الطبيب: "حدث ذلك بفعل صوت الطبل ومشاهدته جنوده. دعه يأكل. سيكون على ما يرام. سترى".

أحـــضرت ليبتين الكوب فبدأ الإسكندر بتناوله. كانت الإشارة الوحـــيدة التي تدل على إجهاده هي تلك الحلقة الصغيرة من حبيبات العـــرق التي توجت جبهته. راقب فيليب ما يجري بذهول، واستمر في تحريك فكّيه، وكأنه كان يسعى إلى مساعدة الملك على المضغ. وحذا الآخرون حذوه بعد أن تحلقوا حول الطاولة، لكنهم عجزوا عن تصديق ما يرونه.

نظّـــف الإسكندر فمه بعد أن فرغ من تناول طعامه، ثم نظر إلى أعين الحاضرين المندهشين.

ســـأل: "مـــا الأمـــر. ألم يـــسبق لكم أن شاهدتم رجلاً يتناول طعامه؟".

58

تمكّـــن الملك في غضون شهرٍ آخر من الوقوف على قدميه مجدداً، حـــتى إنه تمكّن من الركض، ومن الخروج بجولاتٍ على صهوة جواده، بالإضـــافة إلى التـــصارع مـــع لـــيوناتوس. وفي نهاية الصيف، أعطى الإسكندر أوامره بإزالة المخيم كي يصعد الجنود إلى المراكب مجدداً.

ســـاروا مع مجرى النهر لمدة يومين إلى أن وصلوا إلى المنطقة التي تسمى السند. وهناك، طلب الإسكندر إلى نيرخوس أن يأمر برسو كل مراكب الأسطول. شرح المرشدون بأن هذه نقطة الانطلاق التي تؤدي إلى ممرٍّ جبلي يوصل بدوره إلى إسكندرية أراخوزيا.

استدعى الملك رفاقه إلى خيمته لتناول العشاء معه، وعرض عليهم خـــريطةً رسمهـــا له الضباط المسؤولون عن الزحف بمساعدة المرشدين المحلـــيين، وكانـــوا خلـــيطاً مـــن الهنود والفرس. تكلّم بعد ذلك مع كـــراتيروس: "ســـتنطلق في الغد مع نصف الجيش، وستعبر أراخوزيا ودرانجـــيانا. أريـــد منك أن تعيد إرساء النظام حيث تجد ثورات، أو إخـــلالاً بالنظام العام. أخبرنا البحارة الهنود بأن السند ليس رافداً، لأنه يـــصب مباشرةً في المحيط عند باتالا. تقضي خطتي بأن يُبحر نيرخوس وأونيـــسيقريط مـــن باتـــالا بالأســـطول بمحاذاة الساحل الجنوبـــي للإمبراطورية، بينما آخذ أنا بقية الجيش براً كي أضمن وصول المؤن إلى الـــسفن عند كل نقطة من نقاط التوقف بعد كل يومٍ من أيام الإبحار. ســـنلتقي جمـــيعاً في سهل مدينة هرمز، وهي المدينة التي تسيطر على المضائق التي تصل ما بين الأقيانوس والخليج".

سأله كراتيروس: "لماذا ترغب في المرور عبر جيدروسيا؟ يقولون إنها منطقة مخيفة، وصحراء تحرقها أشعة الشمس كل يوم، كما أنها تخلو من كل أنواع النباتات، فلا حشائش فيها ولا أشجار".

"إن الحدود الجنوبية للإمبراطورية هي المناطق الوحيدة التي نجهلها. يتعيّن علينا أن نتحرك في ذلك الاتجاه".

أكل الحاضرون وشربوا باعتدال لأن الملك كان يشعر بين الحين والآخر بالتأثيرات اللاحقة للجروح التي أصيب بها، كما أنهم خلدوا إلى النوم في وقتٍ مبكرٍ نسبياً. كان الجيش بأكمله متجمعاً فجر اليوم التالي من أجل إلقاءٍ التحية على فرقة كراتيروس التي كانت على وشك المغادرة. عانقه الإسكندر بشدة وقال له: "إنك أحد أعزّ أصدقائي. سأفتقد إليك".

"سأشتاق إليك بدوري. أتوسّل إليك أن تعتني بنفسك. ألاحظ بأنك امتحنتَ الأقدار كثيراً حتى الآن، فلتحرسك الأسياد ولتبتسم لك".

"لتبتسم الأسياد لك أيضاً".

قفز كراتيروس إلى صهوة جواده، ورفع يده في إشارة إلى الجنود كي ينطلقوا وسط أصوات الأبواق المدوية، وصرخات التحية التي أصدرها الرفاق الذين بقوا مع الإسكندر. وما إن اختفت آخر مجموعة من الحراس المكلفين بحماية القسم الخلفي من الجيش وراء تلك الأراضي الواسعة التي تؤدي إلى الصحراء، حتى أمر الإسكندر جنوده بالصعود إلى السفن والانطلاق. أبحروا جنوباً، وكانوا في كل مرةٍ يتوقفون فيها يحظون بولاء الأمراء المحليين إلى أن وصلوا إلى باتالا، وهي مدينة عظيمة تربض عند نهاية السند. اكتظّت المدينة بالسكان، وامتازت بغناها، وكان سكانها يمارسون كل أنواع التجارة مع السفن التي تصل من كل

أصقاع العالم. كانت سفن كثيرة تصل إليها من جزيرة كبيرة تقع شرقاً وتدعى تابروباين، والتي يُقال إنها كبيرة مثل الهند بأجمعها.

ومـــن هـــناك، تحـــرّك الأسطول إلى آخر بقعة قبل الوصول إلى المـــصب. كان النهر عند تلك النقطة متسعاً جداً، وكان عريضاً حيث إنه يستحيل النظر من ضفة إلى الضفة الأخرى. قام أونيسيقريط بحساب عرضه فبلغ نحو خمسين ستاديا.

وصـــلوا في آخر مساءٍ من أيام إبحارهم إلى مصبّ النهر، فقرر نيرخوس ربط السفن عند نقطة يكون التيار فيها بطيئاً جداً حيث لا يعود ملحوظاً تقريباً. وفي الواقع، كان نيرخوس يخشى أنهم إذا غامروا بالإبحـــار في عـــرض البحر، فلن يتمكنوا من إيجاد ملاذ لهم إذا هبت عواصف مفاجئة. لكن ما حدث بعد ذلك كان كارثةً لا تقل فظاعة عـــن العاصـــفة. فلقد انخفض مستوى المياه في أثناء الليل إلى درجة علقـــت معهـــا الـــسفن في رمال البحر، وهو الأمر الذي تسبب في انقلاب بعضها. أمر نيرخوس الجميع بالبقاء في أماكنهم وبالانتظار إلى أن تـــبدأ المياه بالارتفاع مجدداً، ثم توجه إلى الإسكندر وهو في حالة قلق شديد.

"لم يكـــن باستطاعتي توقّع هذه الظاهرة، بالرغم من أنني سمعت قـــصةً من أحد بحارة ماساليا، ويُدعى باثياس. وصف الرجل مكاناً في الأقيانوس الشمالي يضمّ فجوة كبيرة تبتلع المياه ثم تتقيأها بعد ذلك، أي أنها تكشف أقساماً كبيرة من الشاطئ ثم تغطيها مجدداً. لم يصدّقه سوى عـــدد قليل من الناس. ونحن لسنا في الأقيانوس الشمالي. فكيف كان بإمكاني أن أتصور إمكانية حدوث شيء كهذا؟ إنها كارثة... كارثة!".

ردّ الإسكندر: "لقد أنجزتَ أعمالاً استثنائية للغاية في السابق. لا تعـــذّب نفـــسك. أعرف أننا سنخرج منتصرين من هذا الصراع مع

النهـــر والبحـــر. واجه سلفي آخيل السكاماندار وقهره. سأربح أنا بـــدوري. دعنا ننتظر مرور هذه الليلة، لأن نور النهار سيغيّر أشياء كثيرة".

في تلك الليلة، ظهر قمرٌ جديد وزادت الظلمة من الشعور بالهلع والاضـــطراب. أمر نيرخوس بإطلاق إشارة الإنذار بالأبواق، وأرسل منادين من سفينة إلى أخرى لتبليغها الأوامر بوجوب عدم التحرك لأي ســـبب. شـــعر عدد من البحارة بالهلع بسبب هذه الظاهرة، وبسبب الـــشائعات الـــتي سبق لهم أن سمعوها في مطاعم مدنهم، فقرروا الهرب تحـــت جـــنح الظلام سعياً وراء الأمان الذي تمثله اليابسة. مات هؤلاء جمـــيعاً بعـــد أن ابتلعتهم المياه والرمال المتحركة. أما الذين اندفعوا من أجل إنقاذ رفاقهم فقد ابتلعهم البحر بعد أن حمل هواء الليل صرخاقم ونـــداءاقم اليائـــسة لتلقي النجدة، لكن رفاقهم الذين بقوا على متون الـــسفن شعروا بالحزن والهلع بسبب عدم قدرقم على القيام بأي شيء لـــتقديم المساعدة. تلاشى الصراخ بعد ذلك، وسكتت أصوات الغرقى الـــواحد تلـــو الآخر، وكان كل ما يُسمع هو صرخات الطيور البرية، وزئير نمرٍ يجول بعيداً وسط الغابات بحثاً عن طريدته.

تعلقت روكسانا بالإسكندر في سفينة القيادة، وكانت ترتجف من الخـــوف، ومرتعبة من الطبيعة المعادية والمتوحشة المحيطة بهم، وهي التي تخـــتلف تماماً عن العالم الطبيعي الذي يحيط بها في جبال بلادها حيث الـــسماء صافية. وقف نيرخوس وبحارته ساكنين صامتين، لكنهم كانوا يهمسون بين الحين والآخر بقصصهم البحرية. تناهى إلى أسماعهم قبل الفجر بقليل ضجيج بعيد غير مألوفٍ لديهم فالتفت الملك وهو يصغي السمع جيداً.

سأل: "هل سمعت ذلك؟".

بدأ نيرخوس بالركض نحو مقدمة السفينة، وانحنى بعد وصوله إلى هناك في محاولةٍ منه لاكتشاف مصدر الضجيج الذي بدأ بالتزايد في هذا الوقت مع مرور كل لحظة. فجأةً، رأى نوعاً من الأمواج المزبدة البيضاء والمخيفة التي كانت تتحرك نحوهم وسط ضوء الصباح الشاحب. كان الضجيج الصادر عنها مثل صوت الأحصنة البيضاء وهي تسرع نحو الأسطول الساكن والضعيف الثابت في هذه الأرض الطينية.

صاح الأميرال: "الأبواق! أطلقوا إشارة الإنذار بالخطر! أطلقوا الإنذار! عادت المياه في طريقها إلينا! اذهبوا إلى مجاذيفكم أيها الرجال، بسرعة إلى المجاذيف! رجال الدفة توجّهوا للقيام بأعمالكم". ثم ألقى حبلاً إلى الملك وسط أصوات الأبواق التي ملأت سماء هذا الصباح الشاحبة، وذلك كي يربط نفسه بسارية السفينة مع روكسانا، وما لبث هو نفسه أن أسرع نحو الدفة كي يساعد بقدر ما يستطيع، واستعد لتلقي صدمة الموجة.

سمع البحارة الآخرون إشارة الإنذار فأطلقوا الإشارة ذاتها بأبواقهم، فترددت في أجواء هذه المنطقة المليئة بالمستنقعات أصوات الصرخات اليائسة والبكاء.

كان تأثير تلك الموجة العظيمة مرعباً. حتى إن الماء رفع بعض السفن قبل أن يرميها إلى الخلف وكأنها أغصان أشجار، بينما تحطمت السفن المنغرزة في الوحول، وتحولت إلى مجموعة من القطع المتناثرة. أما السفن التي كانت جوانبها معرّضة لتلك الموجة، فقد انقلبت وانسحقت بفعل كتلة المياه الضخمة.

تمسك أونيسيقريط، وهو قبطان السفينة الملكية التي تحوي خمسة صفوف من المجاذيف في كل جهة، بالدفة وراح يصيح برجاله آمراً

إياهم بالتجذيف بكل قواهم من أجل إبقاء السفينة في وضعها السليم. ألـــصق القبطان كتفه بعمود الدفة من أجل مواجهة قوة الدوامات التي شكّلها المدّ والفيضان على سطح المياه.

هـــدأت الموجة الكبيرة في نهاية الأمر، فتوازنت قوة دفعها مع مجرى نهـــر الـــسند، وهكـــذا تمكن نيرخوس من النظر حوله كي يقدّر حجم الكارثة. تحطمت مئات السفن وطفت أجزاؤها على سطح المياه، وتضرّر عدد كبير آخر، وامتلأ المكان بالجنود الذين كانوا يتحركون بيأسٍ في المياه بعد أن تمسكوا بدعائم وألواحٍ خشبية خلال طفوهم على سطح المياه.

مـــضى النهار بأكمله في تجميع الناجين من تحطّم السفن، كما أن الإســـكندر ذاتـــه بذل كل ما في وسعه من أجل إنقاذ رجاله، وغاص بالفعل في المياه في بعض الحالات من أجل مساعدة أولئك الذين كانوا على وشك الانهيار تحت وطأة الإجهاد الناتج عن محنتهم هذه.

في ذلك المساء، ألقت السفن مراسيها وراء المصب مباشرة، وعلى الشواطئ الرملية للأقيانوس، كما دقّق قادة الوحدات بأسماء الحاضرين مـــن الـــبحارة، فتبيّن لهم أن أكثر من ألف وخمسمئة رجل قد غرقوا. وُضـــعت كل الجثث التي أمكن التقاطها في محرقة أمام الجيش المتجمع، وراح الجـــنود يـــصرخون وسط الهواء والأمواج بأسماء رفاقهم الذين ماتوا، وذلك كي لا تضيع ذكراهم إلى الأبد.

أمـــا بالنسبة إلى تلك الجثث التي تعذّر التقاطها، فقد ترأس الملك طقـــساً جنائزياً، وأمر بإقامة نصبٍ تذكاري على الشاطئ، وذلك كي ترتاح أرواحهم في العالم الآخر، لكنه شكر الأسياد من أعماق قلبه لأن أحداً من رفاقه لم يهلك، ولأنه تمكّن من معانقتهم جميعاً. وأثنى كذلك على نيرخوس وأونيسيقريط لأنه بفضل شجاعتهما ومهارتهما لم تتحوّل هذه المأساة إلى كارثة.

بقـــي الجـــيش معسكراً على الشاطئ لمدة عشرين يوماً، وذلك لإتاحة الفرصة أمام جميع الجنود الناجين للانضمام إلى وحداتهم، وكي يتأكدوا من إصلاح كل السفن.

وجـــد الجيش منطقة محمية على مسافة قريبة، وكانت هذه البقعة محاطـــةً بحقول خصبة، وتقع على حدود الصحراء التي تسكنها القبائل الأوريتية. أسّس الإسكندر مدينة هناك، وأسكن فيها كل الجنود الذين لا تـــساعدهم صـــحتهم علـــى تحمّـــل الرحلة الطويلة عبر الصحراء الجيدروســـية. بنى الإسكندر رصيفاً وميناءً محمياً، كما خصّص منطقة مغلقـــة تـــضم هياكل. استعد الإسكندر بعد ذلك لاتخاذ قرار يتعلق بتحديد وقت المغادرة بالنسبة إلى الأسطول والجيش على حدٍّ سواء.

"سيكون الأمر رائعاً جداً لو كان هذا النهر بالفعل القسم الأعلى من النيل كما يؤكد بعض الناس. ففي هذه الحالة، سنتمكن جميعاً من الإبحار إلى مصر".

ردّ نيرخـــوس: "إن الأمـــر ليس كذلك مع الأسف، لأنه يتطلب أكثـــر من وجود رجال ذوي بشرةٍ داكنة وتماسيح من أجل تكوين نهر النيل".

ردّ الملـــك: "هذا صحيح. لكن، الزم جهة الشاطئ حيث يكون الجـــيش تحت أنظارك على الدوام، وذلك كي تتمكن من النـــزول إلى الشاطئ ما إن ترى نيراننا، لأن ذلك سيسهّل الأمور علينا في ما يتعلق بتزويدك بالأطعمة والماء".

"سأفعل ذلك إذا كان ممكناً، لكنني أريد الاستفادة إلى أقصى حدٍّ مـــن هـــذه الرياح التي تهب في اتجاه الغرب بشكل مستمر، وذلك من أجل توفير طاقات بحارتي، لذلك لا أعلم إذا كان الجيش سيتمكن من الـــسير بمـــوازاة سفننا. سنلتقي على كل حال في هرمز. يرغب نائب

الأمـــيرال أونيسيقريط في نيل شرف توديعك. إنه بحار ممتاز ويستحق منك كل تقدير".

ومـــا إن تقدّم أونيسيقريط وصافحه حتى قال الإسكندر: "لتكن الأسياد معكم، وليبتسم بوسيدون في وجوهكم. قدّمت مع أريستاندر أضـــحيةً إلى الأقـــيانوس هـــذا الصباح، وطلبنا الرحمة والرياح المؤاتية لسيرنا. أما الثمن الذي دفعناه في هذه المهمة فقد كان باهظاً جداً حتى الآن".

توجّه نيرخوس وأونيسيقريط إلى سفينتيهما، وأمرا بفك المراسي. تحـــرّك الأسطول بعيداً عن الرصيف بقوة المجذفين، وسرعان ما رفعت الـــسفن أشرعتها التي دفعتها الرياح النشطة. بدت هذه السفن الجبارة مـــثل ألعاب الأطفال بعد وقت قصير من ابتعادها، وما لبث الإسكندر أن نـــزل إلى الشاطئ وغرز رمحاً في رماله، وذلك دلالةً على أنه سيطر علـــى هـــذه المنطقة النائية. والتفت بعد ذلك إلى رفاقه وصاح: "حان الوقت الآن كي نغادر هذا المكان أيضاً. أعطوا الإشارة!".

امتطـــى الجمـــيع جيادهم: هيفاستيون، وليوناتوس، وبطليموس، وســـلوقس، ولايـــسيماخوس، وبيرديكاس، وساروا جميعاً على رأس وحـــداتهم. امتطى الملك جواده بدوره والعَلَم يرفرف أمامه، وما لبث ذلـــك الصف الطويل أن تحرك وسط نفير الأبواق وقرع الطبول، بينما تقدمته الأعلام التي رفرفت عالياً.

59

تحولت طبيعة الأرض المحاذية لضفّتي نهر السند، وبعد وقتٍ قصير من مسيرة الجيش إلى نوعٍ من مروج المستنقعات، والتي كانت مسرحاً للجواميس الكبيرة ذات القرون المعقوفة التي كانت ترعى إلى جانب الظباء والغزلان. رأى الجنود من بعيد مجموعات صغيرة من الأسود التي كانت تشبه تلك الأسود التي كانت متوافرة للصيد في مقدونيا. كانت الأشجار طويلة ومليئة بكل أنواع الطيور، بما فيها الببغاوات بألوانها الزاهية والمتنوعة. غابت المستنقعات بعد ذلك ليظهر سهل تتواجد فيه أجمات متناثرة، وقطعانٌ من الثيران والخراف يقوم برعايتها رعاة بدائيون وشرسون.

قال الدليل الهندي شارحاً: "إنهم الأوريتيون وهم قبيلة تسكن السواحل، لكننا سنلتقي بعد قليل أولئك الذين يسكنون السهول والصحراء، وهم متوحشون وشرسون بالفعل، أي أنهم قد يصبحون خطرين جداً، وهم يختفون في الرمال مثل العقارب، ويخرجون قافزين عندما يهاجمون بشكلٍ مفاجئ".

قال الإسكندر آمراً: "أبلِغ كل الجنود بهذه المعلومات". استمر الإسكندر في التقدّم إلى الأمام، وهو يحدّق إلى جهة الجنوب. لاحظ الملك أنهم ابتعدوا عن الشاطئ بالفعل، وذلك لأنهم اتبعوا الطريق، لذلك اختفى الأقيانوس عن أنظارهم تماماً.

وفي اليوم الرابع للزحف، وصل الجيش إلى أطراف الصحراء. نظر الجنود بدهشةٍ بالغة إلى ذلك المدى الواسع من الرمال الحارقة الممتدة

أمــامهم. فهـــم لم يـــروا حتى وريقة عشبٍ واحدة، أو مكاناً يصلح للاحتماء فيه من أي نوعٍ كان. كانت الصحراء تحترق في كل الفصول تحت أشعة الشمس التي لا ترحم.

تـــراجع المرشدون الهنود عائدين، فاضطر الإسكندر إلى الاعتماد على خبرة بعض الضباط الفرس الذين شاركوا سابقاً في حملات الملك داريوس في درانجيانا وآراكوسيا.

تحوّل الزحف بسرعةٍ إلى محنة رهيبة في ظل هذه الظروف المخيفة. فأســـرع الضباط إلى مصادرة كل كميات المياه، وأبقوها تحت المراقبة المستمرة حيث تخضع للتقنين. تبيّن أن هذا الإجراء محدود الفعالية، لأن المياه نفدت بسرعة على كل حال، فاضطر الجنود إلى البحث عن آبار المـــياه التي كانت قليلة ومتباعدة في تلك الطريق الرملية. صمدت مؤن الطعـــام لمدة أطول بسبب استحالة تنفيذ خطة تزويد أسطول نيرخوس بالمؤن، لأنه لم يعد بالإمكان رؤية السفن بسبب الرياح الشرقية القوية التي دفعت هذه السفن بعيداً في عرض البحر.

رأى المرشـــدون اللسكاثيون في مكانٍ معيّن آثار أقدام إلى جانب الطـــريق، فأبلغوا الضباط والملك عن وجودها. برز الآن خطر وجود كمـــائن في هـــذه المـــنطقة، لأن جيشاً غازياً كان يمثل هدفاً مشروعاً للمهـــاجمين بسبب المؤن التي ينقلها معه، هذا بالإضافة إلى العدد الكبير من حيوانات الحمولة والأحصنة.

قـــال الإســـكندر آمراً: "ضاعفوا عدد الحراس، وأبقوا نيرانكم مشتعلة ما أمكنكم ذلك". كان من الصعب إيجاد الأخشاب، باستثناء جذوع أشجار رفيعة قليلة خلّفها المد على الشاطئ.

حـــدث الهجوم بغتةً في ليلة غاب عنها ضوء القمر. بدأ المهاجمون هجـــومهم علـــى فرقة ليوناتوس، وهي التي كانت تقوم بحراسة القسم

الخلفي من الجيش، ولذلك كانت تسير خلف الآخرين بمسافة ستاديا واحد. كانت دقة الهجوم مميتة. ظهر المهاجمون مثل أشباحٍ من خلف الصخور، وقفزوا بقسوة على المحاربين الذين كانوا منهكين بفعل العطش والزحف الطويل. أسفر الهجوم عن حدوث مجزرة. حارب ليوناتوس بشجاعة، وعندما قطع أحد المهاجمين الأعداء - الذي ظهر فجأة من بين الرمال - رقبة حامل البوق الذي يسير إلى جانبه، سارع ليوناتوس إلى تناول البوق مطلقاً إشارات الإنذار بالخطر، وطالباً المساعدة من الإسكندر.

انطلق الملك بأقصى سرعته مع سريتين من الفرسان، فتمكّن من شقّ طريقه، وتمكّن من تحرير صديقه الذي كان منهكاً وجريحاً بعد أن قامت مجموعة من الأعداء بمحاصرته. استلقى خمسمئة جندي قتيل على الأرض عند شروق الشمس، وكان عدد كبير منهم متعلقاً برقبة عدوه في آخر نوبات آلامهم التي سبقت موهم.

دُفن جميع القتلى في الرمال مع أسلحتهم بسبب عدم توافر ما يكفي من الحطب لحرق الجثث. وامتلأت قلوب رفاقهم بالحزن والكآبة بعد استئنافهم تحركهم، وذلك لأهم كانوا يعلمون أن أولئك المتوحشين الطامعين سيعتدون على حرمة هذه القبور التي أقيمت على عجل.

وفي أحد الأيام، عادت مجموعة من الكشافة من مهمة مراقبة، وأبلغت عن اكتشاف مجموعة من القرى قرب الساحل، وعلى مقربة من مصبّ نهرٍ صغير تصب كمية ضئيلة من مياهه في البحر. عندها، قرّر الإسكندر شنّ الهجوم في الليلة ذاتها. كان القمر بدراً فأضاء رمال الصحراء البيضاء حتى بدت الصحراء وكأنها في وضح النهار.

علّق ليوناتوس فأسه في محملها، وتناول درعه البرونزية التي تزن نحو ستة عشر ميناي، وقفز على صهوة جواده، لكن الإسكندر مدّ

ذراعـــه كي يوقفه، وقال له: "لا يزال جرحك جديداً. ابقَ هنا ودعنا نتصرف".

دمدم صديقه: "لن أبقى حتى لو قمتَ بربطي. سأجعلهم يدفعون الـــثمن غالـــياً عن كل جندي قتلوه، وعن كل رجل ذبحوه تحت جنح الظلام من دون أن يمنحوه الفرصة كي يدافع عن نفسه".

قـــرر الملك ورفاقه وبقية الجنود الذين اختيروا للاشتراك في هذه العملـــية - وبلـــغ مجمـــوعهم نحو مئتي رجل - وبقية الرجال الذين رافقـــوهم، ركوب جيادٍ سوداء اللون، وارتدوا عباءات سوداء، وذلك كي تتلاءم الملابس والجياد مع ظلال الليل. أعطى الإسكندر الإشارة، فانطلقـــت الجـــياد عبر ذلك السهل المهجور بأقصى سرعتها كتفاً إلى جانب كتف، ورأساً إلى جانب رأس.

فات الأوان بالنسبة إلى الأوريتيين عندما اكتشفوا الهجوم، لكنهم فرّوا كي يدافعوا عن قراهم، وأولادهم، وزوجاهم. لم يصمدوا مطلقاً أمام الموجة الأولى من الجنود المهاجمين، فذُبحوا كالخراف، بينما انصرف المقدونـــيون إلى النهب والسلب في حين كان ليوناتوس يلوّح بسيفه. تـــساقط الأعداء الهاربون على الأرض كما تتساقط حبيبات القمح في الحقـــول. قـــتلَ لـــيوناتوس عـــدداً كبيراً منهم حيث شعر في إحدى اللحظـــات بـــأن قلبه كاد ينفجر في صدره، وما لبث أن سمع صوت الإسكندر صارخاً به: "يكفي هذا يا ليوناتوس!".

عندها فقط توقف والعرق يتصبّب منه، وكذلك الدماء تساقطت من جسده اللاهث.

وبعـــد وقـــت قلـــيل، وصلت سرية أخرى من الفرسان المسلحين تـــسليحاً خفيفاً حاملةً معها حيوانات الحمولة، وقوارير المياه، وعربات من أجـــل جمـــع المؤن، لكن كل ما وجدوه كان قطعاناً من الخراف والماعز

داخــــل حظائر حجرية. أظهرت الطبقة الكثيفة من الروث الجاف أنه نادراً ما كانت تؤخذ هذه القطعان إلى المراعي كي ترعى في الخارج.

قال إيومينيس الذي وصل مع قافلة المؤن: "إنني أتساءل عن المواد التي كانوا يطعموها لهذه القطعان".

أجـــاب سلوقس مشيراً إلى أكياس صُنعت من ألياف الأعشاب البحــــرية المجففة، وهي أكياس مليئة بنوعٍ من المسحوق الأبيض: "يبدو أهم كانوا يطعموها هذه".

قال لايسيماخوس: "تفوح منها رائحة السمك".

قال إيومينيس مؤكّداً بعد أن تناول حفنة من المسحوق وقرّبها من أنفه: "إنه سمك، ولكن بعد تجفيفه وطحنه".

عاد الجنود إلى المعسكر حاملين معهم المياه التي تمكنوا من جمعها، وقطعـــان الخراف التي صادروها، لكنهم عندما ذبحوا الخراف تبيّن أن طعمهـــا مقزّز، وكأها أسماك فاسدة. لم يكن هناك شيء آخر يأكلوه، ولذلك اضطروا إلى الاكتفاء بما وجدوه من طعام.

ســـار الجنود لأيامٍ عديدة تحت أشعة الشمس الحارقة التي ألهبتهم حرارها، كما عذّبهم العطش. وفجأة، تحوّل لون الصحراء إلى الأبيض الـــساطع الذي يُعمي العيون، واضطر الجيش إلى السير فوق طبقةٍ من الملح التي ترسبت من مياه البحيرات القديمة، وهو الأمر الذي أدى إلى اهتــــراء حدوات الجياد وأحذية الجنود، كما اخترق الملح جلود جنود المشاة فتشققت بعمق في البداية، وما لبثت أن تحولت إلى قروحٍ آلمتهم بـــشدة. مـــات عدد كبير من حيوانات الحمولة والجياد نتيجة العطش والجوع، وما لبث الرجال أن بدأوا بالتساقط بدورهم.

لم يمـــتلك الجنود القوة أو الوقت لدفن الموتى، أو لإجراء مراسم الجـــنازات اللائقـــة بهـــم. ومرّت أوقات على الجنود نادراً ما كانوا

يلاحظون فيها سقوط رفيقٍ لهم. وحتى عندما كانوا يلاحظون ذلك لم يكـــن بإمكانهم تقديم أي نوعٍ من المساعدة إليهم، لذلك كانت الجثث تُترك لبنات آوى والعقبان التي كانت تحلّق باستمرار بشكل مجموعات فـــوق صـــفّ الجنود الزاحف. اضطر الملك إلى تحمّل آلام أخرى غير الآلام الـــتي شـــعر بها لدى مشاهدته هذه المناظر الكارثية، فلقد عانى كـــذلك من مشاهدة عروسه الشابة وهي تعاني الحرمان والصعوبات. وترافق كل هذا مع الحزن الناتج عن عدم معرفته مصير أسطوله. إذ لم تصله أخبار من نيرخوس منذ ذلك اليوم الذي تركه فيه في باتالا.

كـــان كالانـــوس هو الشخص الوحيد، وسط هذه المحنة الرهيبة والمعانـــاة التي أحسّ بها الجميع، الذي بدا وكأنه لا يشعر بأي آلامٍ أو صـــعوبات. كان يمشي حافي القدمين فوق الرمال الحارقة من دون أن يغطي قدميه إلاّ بقطعة قماشٍ صغيرة. أما عندما يحل المساء ويجلب الليل معه هواءً بارداً، فقد كان يُشاهَد جالساً قرب الملك كي يعلّمه فلسفته وفـــن الـــتحكم بأحاسيس الجسد واحتياجاته. تصرفت روكسانا – بالـــرغم من كونها شابة – بطريقة نموذجية، ولقد فعلت ذلك بكبرياءٍ وقوة معنوية كبيرة. فقد شوهدت مراراً وهي على صهوة حصانها تسير إلى جانـــب زوجهـــا، وكانـــت تـــرتدي ســـترةً يرتديها الفرسان السوغدانيون، كما شوهدت أكثر من مرة وهي تصطاد الطيور العابرة بقوسها وسهمها.

في أحد الأيام، وصل الجنود إلى آخر درجة من درجات تحملهم، لكـــن أحد الجنود من الحرس الملكي وجد فجوةً بدا بأنها رطبةٌ بعض الـــشيء. بدأ الجندي بالحفر بطرف سيفه إلى أن بدأت المياه بالظهور بـــبطء، قطرةً قطرة في البداية. تمكّن الجندي من جمع ما يكفي من الماء لتعبئة خوذته، ثم رطّب شفتيه، وقدّمها إلى الإسكندر الذي كان يعاني

ظمـــأ وألماً شديدين نتيجة الجرح الذي أصابه، والذي كان يسبّب له قدراً كبيراً من الألم.

شكره الملك ثم تناول الخوذة ورفعها إلى فمه، لكنه أدرك في تلك اللحظـــة أن جمـــيع جنوده يراقبونه. كانت عيونهم حمراء بسبب الملح، وبـــشراهم جافة، وشفاههم متشققة، لذلك لم يتمكّن من حمل نفسه على الشرب. سكب المياه على الأرض، وقال: "لا يستطيع الإسكندر أن يشرب بينما رجاله يموتون من العطش". لاحظ أن بعضاً منهم على وشـــك الانهيار بعد أن خارت قواهم، فقال لهم بصوتٍ عالٍ: "اصبروا أيهـــا الـــرجال! أتعـــتقدون أن الأسياد سمحت لنا بتحقيقٍ كل هذه الإنجازات كي نموت هنا في هذه الصحراء؟ كلا، صدّقوني! إنني أؤكّد لكـــم أنـــنا سنخرج من هذا الفرن عند حلول مساء غد، وعند ذلك ستحـــصلون على الطعام والماء قدر ما تشاءون! أتريدون أن تستسلموا الآن؟ أتـــريدون أن تموتـــوا وأنـــتم على بعد خطواتٍ قليلةٍ فقط من الخلاص؟".

تـــشجّع الجنود لدى سماعهم هذه الكلمات، وبدأوا بالسير مجدداً حـــتى حلـــول الظـــلام. مضى وقت طويل منذ أن بدأوا بالابتعاد عن البحـــر، وهـــا هـــم الآن يزحفون صعوداً نحو سلسلة من المرتفعات الصخرية، والتي كانت تتميّز بالحد الأدنى من البرودة عند حلول الليل. وصـــلوا عـــند مغيب شمس اليوم التالي إلى ممرٍّ، وما لبثوا أن رأوا مدينة مسورة تبدو من بعيد.

قال أحد الضباط الفرس: "إنها بورا، وهذا يعني أننا أصبحنا الآن بأمانٍ".

صـــاح الإسكندر: "أسمعتم هذا أيها الرجال؟ أسمعتم؟ إننا بأمان! أترون؟ إن ملككم يفي بوعوده لكم على الدوام!".

وصـــل الجنود إلى القمة واحداً تلو الآخر فرأوا المدينة من بعيد، وراحوا يصرخون من شدة الفرح، وأخذوا يقذفون أسلحتهم في الهواء ويعانقون بعضهم بعضاً، كما فاضت أعينهم بالدموع.

اقتـــرب بطلـــيموس من الإسكندر وأمارات الدهشة ظاهرة على وجهه. وسأل بتشكّك: "كيف عرفت هذا؟".

"أتتذكـــر البارحة عندما وصلنا إلى ذلك التقاطع في الطريق؟ ألم يـــتّجه فرع منها غرباً بمحاذاة الشاطئ، بينما كان الفرع الآخر متّجهاً نحو التلال؟".

"أجل، أتذكّر ذلك".

"قال لي كالانوس حينها إنّ *الطريق الأصعب هي الأفضل*".

"إذاً، هكذا؟".

"وهذا ما حصل".

"ألأجل هذا خاطرتَ؟".

"أجل، لكن لم تكن هذه هي المرة الأولى".

"بالضبط. لم تكن تلك المرة الأولى بالتأكيد".

وصـــلوا عند مغيب الشمس، واستخدموا آخر قدرٍ من طاقاتهم. خرج قائد الحصن في بورا، متشككاً، كي يلتقيهم.

سأل: "من أنتم؟".

التفت الإسكندر إلى بطليموس: "أما زال أوكسهاتري حياً؟".

جاء الرد سريعاً: "أعتقد ذلك. أظن أنني رأيته منذ أيامٍ قليلة".

"أريدك أن تُحضره إليّ".

تحـــرّك بطليموس مبتعداً، وعاد بعد قليل مع أوكسهاتري الذي شرح للحاكم الفارسي كل ما يجب أن يعرفه بالنسبة إلى الضيف الذي وصل لتوّه.

سأل حاكم بورا بدهشة: "الإسكندر؟ لكن ألم يمت؟".

"إنـــه حيٌّ كما ترى وفي حالة جيدة، لكن، دعنا ندخل أرجوك. إننا متعبون كثيراً".

أعطى الحاكم جنوده الأوامر فوراً من أجل فتح بوابات بورا كي يـــدخل الجيش الذي ظنّ الجميع أنه ضاع، والملك الذي اعتقد الجميع أنه مات.

*

توقـــف الجيش في بورا لمدة أربعة أيام كي ينال الجنود قسطاً من الـــراحة، وكـــي يأكلـــوا بعـــد كل الصعوبات التي تحمّلوها. وسأل الإســـكندر الحـــاكم عمـــا إذا كـــان قد تلقى أيّ أخبار عن وصول الأســـطول إلى هرمز، لكن الحاكم الفارسي أجاب بأنه لم يسمع شيئاً عنه، ووعد بأن يتقصّى الأخبار ويعلمه بما سيعرفه.

قال سلوقس: "أنا لن أراهن على أهم تمكنوا من النجاة. سمعت أن تلـــك المـــياه خطـــرة جداً في بعض الأماكن بسبب الشواطئ الرملية الـــضحلة، وبـــسبب القراصـــنة الذين يتخصصون في مهاجمة السفن المتـــضررة. لكن لو كان الأسطول قد رسا هناك لكانت وصلتنا بعض الأخبار عنهم بالتأكيد".

ردّ الإســـكندر: "يُحـــتمل أنك محقّ، لكن الناس ظنوا أننا ميتون بدورنا وها نحن هنا الآن. يتعيّن علينا ألاّ نفقد الأمل".

عـــاود الجـــيش زحفـــه باتجاه برسيس، وتحرّك في أراضٍ قاحلة أحرقتها الشمس، لكن آمر حامية بورا كان قد زوّدهم ببعض المرشدين الماهرين الذين أرشدوهم إلى آبار المياه العذبة، كما أرشدوهم إلى قرى الرعاة، حيث وجدوا الحليب واللحم والبذور المجففة المحفوظة في جرارٍ طينية كبيرة.

كان منتصف فصل الشتاء قد حلّ عندما وصل الجيش إلى سالموس، وهي مدينة تقع على الحدود مع برسيس. أرسل الإسكندر مجموعةً من الكشافة جنوباً من أجل تقصي أخبار أسطوله. تألفت المجموعة من ضابطين مقدونيين، ودزينة من جنود الاحتياط، وكانوا برفقة دليلٍ فارسي، وبمرافقة نصف دزينة من الجمال المحملة بقِراب المياه.

تحرّك الجنود قُدُماً مسافة عشرة بارسانغ عبر أرضٍ مهجورة بالكامل، واستمروا في التحرك من دون أن يتوقفوا سوى مرة واحدة. رأوا شيئاً من بعيد عند منتصف النهار تقريباً، أي عندما كانت الشمس في أقصى ارتفاعٍ لها.

سأل الإسكندر أحد جنود الاحتياط، وهو أحد المرتزقة الفلسطينيين من آزوتوس: "هل تمكّنتَ من معرفة ما هو هذا الشيء؟".

ردّ المرافِق: "يبدو أنهم رجال".

سأل أحد الضباط: "رجال؟ أين؟".

أشار أحد الضباط الآخرين، وكان قد تمكّن من مشاهدهم بوضوح: "إنهم هناك. انظر، إنهم يطلقون إشارات، ويصيحون... أعتقد أنهم رأونا. بسرعة، هيا بنا!".

انطلقوا بسرعة، ولم يتأخر بهم الأمر حتى وقفوا أمام رجلين كانا بالكاد يشبهان البشر. كانت ثيابهما ممزقة، وعيونهما غائرة، وبشرتاهما مليئتين بالقروح الجلدية ومحترقتين بفعل أشعة الشمس، كما أن شفاههما كانت متشققة بسبب العطش.

سأل الرجلان باليونانية: "من أنتم؟".

ردّ الضابط بعصبية: "نحن من يجب أن يسأل هذا السؤال. ماذا تفعلان هنا؟".

"إننا بحّاران من الأسطول الملكي".

"أتريدان أن تقولا لنا إنّ أسطول نيرخوس..."، ولم يجرؤ الضابط على إنهاء كلامه لأن الرجلين الواقفين أمامه ظهرا وكأنهما ناجيان من بين حطام سفينة.

قال الرجل وكأنه يلتقط آخر أنفاسه: "إنه بأمان. لكن، بحق الأسياد أعطونا بعض الماء إذا كنتم تريدون أن نخبركم بقية القصة".

60

تحمّس الملك كثيراً عند سماعه الأخبار، فصاح بالجنود: "امتطوا جيادكم. نيرخوس موجود على الشاطئ وهو لم يفقد سفينة واحدة! حضّر العربات يا إيومينيس واملأها بالمياه، والمؤن، واللحوم، والعسل، والفاكهة، والشراب! خذ كل الشراب الذي تجده واتبعني إلى الأسفل بأسرع ما يمكنك!".

قال الأمين العام محاولاً إعادته إلى هدوئه: "لكن ذلك يستغرق وقتاً".

"إذا تمكنتَ من تجهيز العربات عند حلول الليل، فلا بأس في ذلك. أريد أن يستمتع هؤلاء الرجال. سنقيم مأدبةً كبيرة على الشاطئ! ينبغي لنا أن نحتفل، يتعيّن علينا أن نحتفل!".

لمعت عيناه، وبانت فيهما مشاعره، وبدا نافد الصبر وكأنه فتى متحمس. "اعتنِ كذلك بهذين البحّارين، وعاملهما كأميرين، وكأنهما ضيفان مكرّمان. لا تنسَ الملكة. أريد أن تكون الملكة معي كذلك".

وانطلق بسرعة كبيرة مع كل رفاقه، وتبعتهم سريتان من فرسان الهيتايروي. تمكّنوا من مشاهدة معسكر نيرخوس البحري عند غياب شمس اليوم الثالث. وحين وصل الجميع، كانت طبقة من الغبار والعرق تغطيهم، لكن النور كان لا يزال يشع في عينَي الإسكندر. لمعت أنوار الشمس بروعةٍ على سطح المياه، كما ظهرت سفن نيرخوس بظلالها الداكنة فوقٍ صفحة الأقيانوس اللامعة كالمرآة، وكانت كلها مزينة بالرايات المثلثة والأعلام.

جـــاء نيرخوس ليكون في استقبالهم عند مدخل المعسكر. ترجّل الإســـكندر عن صهوة جواده ما إن رآه، وهكذا سار الرجلان المسافة الـــتي تفـــصل بين صفوف البحارة المبتهجين، والفرسان الذين لم يكن ابـــتهاجهم يقل عن ابتهاج البحّارة. بدأ الرجلان بالركض ما إن اقتربا مـــن بعضهما، وكانا متشوّقَين لمعانقة بعضهما. وفي النهاية، كان اللقاء أقرب إلى الاصطدام منه إلى معانقة أخوية. انعكست أمارات الارتياب علـــى وجهـــيهما بعد أن ابتعدا كي ينظر كل واحدٍ في وجه صاحبه. تغلـــبت العواطـــف علـــى الموقف فعجز الرجلان عن الكلام. انفجر الإســـكندر في النهاية بضحكةٍ مدوية، وصاح: "تفوح رائحة السمك الفاسد منك يا نيرخوس!".

ردّ الأميرال بحماسة: "لكن رائحة عرق الجياد تفوح منك!".

نظر الملك إلى وجه الأميرال الهزيل، وقال له: "لا أصدّق أنك لا تزال حياً".

ردّ نيرخـــوس: "لم يكن الأمر سهلاً. اعتقدت في إحدى المراحل أننا لن نتمكن من النجاة. أبحرنا وسط عاصفتين، لكن العطش والجوع كانا أكبر مشاكلنا".

بدأ الرجلان بالسير نحو المعسكر. ولم يلاحظا في غمرة حماستهما لـــسرد مغامـــرة كـــل واحـــد منهما أن بطليموس قد أمر الفرسان بالاصطفاف لتقديم التحية إليهما.

انتبها أخيراً إلى صوت قائد سلاح الفرسان وهو يقول: "تحية إلى الملك الإسكندر، والأميرال نيرخوس، آلالالاي!".

"آلالالاي!". صاح الفرسان بدورهم رافعين رماحهم، ومتوجهين بـــصرختهم نحو اللانهاية، بينما كانت أشعة الشمس الغاربة تنطفئ في أمواج الأقيانوس المتوهجة بضوئها.

قال الأميرال وهو يومئ إلى مساعده كي يتقدم: "اسمح لي أن أنوّه بأونيسيقريط كذلك، لأنه برهن عن كونه بحاراً عظيماً".

حيّاه الإسكندر: "تحياتي يا أونيسيقريط. إنني مسرور جداً لرؤيتك".

ردّ قائد الدفة: "تحياتي يا مولاي. أنا مسرور جداً لرؤيتك أيضاً".

تابع نيرخوس حديثه: "أنا آسف لأننا لا نمتلك الكثير كي نقدّمه إلـــيك. رمينا شباكنا طوال اليوم، ولكن لم نصطد إلا كمية صغيرة من الأسمـــاك. إن الأسماك التي اصطدناها هي من نوع الطون، وهي تُشوى الآن بينما نحن نتكلم".

ردّ الملك: "لا تقلق بهذا الشأن لأنني حضّرت مفاجأة لكم جميعاً. لكنني أخشى أنها لن تصل قبل يوم غد".

صاح نيرخوس: "لا أستطيع الانتظار، هذا إذا كانت المفاجأة هي مـــا أفكر فيه! أتعرف أننا جرّبنا ذات يوم شنّ غارةٍ على بعض القرى الساحلية؟ أتعلم ماذا غنمنا؟".

"كلا، لكنني أعتقد أنني أستطيع أن أخمّن".

"غنمـــنا أسماكـــاً، وكانت موضوعة في أكياسٍ كثيرة. لم يمتلك أولئك البائسون أيَّ شيء آخر".

"إننا نعرف كل شيء عن هذا".

تـــوجّها إلى خيمة نيرخوس، وما لبث بطليموس، وهيفاستيون، وسلوقس، والآخرون أن وصلوا بعد وقتٍ قصير.

عـــرض نيرخوس أمام الملك لفافةً من ورق البردى، وفتحها على طاولـــة مؤقتة، ثم قال: "انظر. رسم أونيسيقريط هذه الخريطة للطريق التي سلكناها من باتالا وحتى هنا".

مـــرّر الإســـكندر إصبعه فوق موقع الساحل الصحراوي الطويل حيث كتب نائب الأميرال اسم **إخذايوفاجس.**

كرّر هيفاستيون: "آكلو الأسماك. يمكنك أن تقولها ثانية، لأن كل شـــيء هناك تفوح منه رائحة الأسماك حتى الماعز. إنني أتقزز قرفاً من مجرّد التفكير فيها".

قـــال الإسكندر: "لا يمكنك أن تتصور مدى قلقنا بعد أن فقدنا الاتصال مع الأسطول".

ردّ نيرخـــوس: "وكذلك الحال بالنسبة إلينا. في الحقيقة، لم يكن من السهل علينا الإبطاء كي ننتظركم، وعندما توقفنا بالفعل لم نجد أي شـــيء يدل على وجودكم. تساءلنا عما إذا كنتم قد سبقتمونا، أو إن كنتم خلفنا. لم تكن لدينا أي وسيلة للتأكد من ذلك".

أعلن أحد البحّارة: "الأسماك جاهزة".

قال سلوقس: "لكن رائحتها ليست سيئة جداً".

قال الأميرال: "أظن أنه ينبغي لنا الجلوس على الشاطئ كي نأكل. ليس هناك عددٌ كبير من أسرّة الطعام والطاولات على متن سفني".

قـــال بيرديكاس: "سنتدبر الأمر، فالجوع هو الجوع، حيثما حلّ، وفي أي وقتٍ كان".

انطلقت أبواق الإنذار في اللحظة ذاتها التي كان الجميع يتحركون فيها للجلوس من أجل تناول العشاء.

صـــاح الإسكندر: "بحق *زيوس*! من ذا الذي يجرؤ على مهاجمتنا الآن؟ يـــا فرســـان الهيتايـــروي، اتـــبعوني! امتطوا جيادكم! امتطوا جيادكم!".

ترددت أصوات الأبواق بسرعة في أنحاء المعسكر، وكذلك صهيل الجياد. فُتحت الحواجز الدفاعية، وتجهزت السرايا للهجوم من أجل ردّ غارة الأعداء. ظهرت سحابة من الغبار وتقدمت نحوهم بشكلٍ مخيف. وتمكن الفرسان من رؤية أسلحة ودروعٍ معدنية وسط هذه السحابة.

صاح أحد الحراس: "لكنهم مقدونيون!".

سأل الإسكندر وهو مندهش: "إنهم مقدونيون؟". ثم أعطى الهيتايروي إشارة التوقف.

مرّت لحظات لم يُسمع فيها سوى ضجيج الجياد المسرعة في أثناء اقترابها من المعسكر. تردّد صوت الحارس مجدداً وسط هذا الصمت المليء بالتوتر، وقال صائحاً: "إنه الشراب! أرسل إيومينيس الشراب مع سرية من جنود الهجوم!".

تحوّل التوتر إلى عاصفةٍ من الضحك المدوي، بينما راح جنود الهجوم يجولون في المعسكر وسط عاصفة من التصفيق من رفاقهم، وكان كل جندي منهم يحمل قربتين من الشراب على ظهر جواده.

قال ليوناتوس وهو يترجل عن صهوة جواده ويفك درع صدره: "إذاً، هل هناك شيء للأكل هنا؟".

ردّ نيرخوس: "هناك الكثير من الطعام".

قال الإسكندر ضاحكاً: "والشراب كذلك! وكل ذلك بفضل أميننا العام!".

جلسوا فوق الرمال الدافئة بينما بدأ البحارة بتقديم الأسماك.

أعلن بحار من بافوس بكل فخر: "شرائح الأسماك هذه محضّرة على الطريقة القبرصية. إنه طبق مميّز في هذا المكان".

بدأ الجميع بتناول الطعام، وراحوا يتبادلون الحديث الذي نشط سريعاً لأن كلّ واحد منهم كانت لديه قصة أراد أن يرويها. وكانت قصصهم تدور حول الصعوبات، والمخاطر، والعواصف التي واجهوها، وحول أوقات السكون التام، والهجمات الليلية والوحوش البحرية. بالإضافة إلى قصص عن أصدقاء طال غيابهم عنهم كثيراً، وقلقوا كثيراً بسبب احتمال عدم رؤيتهم مجدّداً.

سأل الإسكندر في لحظةٍ ما: "أين كراتيروس الآن برأيكم؟". فنظر كل واحد من الرفاق إلى وجه رفيقه لفترةٍ طويلة، وبصمت.

61

بعـــد أسبوعين، وصل كراتيروس مع جيشه إلى سالموس. ولدى رؤيتهم، شعر الإسكندر ورفاقه بفرح لا يوصف. تتابعت الاحتفالات المطــولة، حتى بعد أن انطلق الجيش مجدداً في مسيرته، وذلك لأن الملك أراد اســتمرارها. أمــر الإسكندر بصنع عربات خاصة، ووضع أسرّة طعـام وطـاولات فيها، حيث يستطيع الرفاق الاستلقاء لمتابعة الأكل والشرب والضحك فيها. وسُمح للجنود كذلك باحتساء الشراب بقدر ما يريدون مستفيدين من كميات الشراب التي كانوا مزودين بها.

ركـب كالانـوس في إحدى هذه العربات التي رافقه فيها الملك ورفاقه، وذلك من أجل الاستماع إلى تعاليمه.

تـردّدت أصوات الغناء والهتافات في أنحاء المنطقة حولهم. وحمل هذا الجيش شبهاً ضئيلاً بالجيش الذي زحف سابقاً نحو قلب برسيس، لأنه تحول الآن إلى ما يشبه موكب ديونيسيوس، أي كما لو أنه موكب لتكـريم الـسيّد الذي حرّر القلب الإنساني من كل الصراعات بفضل الشعور بالسرور الذي يرافق الشرب واللهو.

في هـذا الوقت، كان نيرخوس قد غادر مع أسطوله بعد إجراء الإصلاحات الضرورية للسفن، وبعد أن ملأوا مستودعات الشحن فيها بكـل مـا يلـزمهم لرحلة طويلة. عبَرَ الأسطول مضيق هرمز ودخل الخلـيج، ثم أبحـرَ في اتجاه مصب نهر دجلة. تقرر أن يكون اللقاء في سوسـا، وهـي المدينة التي يُمكن الوصول إليها عن طريق قناة صالحة للملاحة. أخيراً، وبعد وقت طويل أصبحت الصعوبات خلفهم، وراح

الملاحون يجذّفون بحماسة متجددة، وراحوا يناورون بأشرعتهم بمهارة، وكانوا متحمسين جداً لإنهاء مغامرتهم كي يتمكنوا من رواية أخبارها على مسمع من يحبونهم.

مرّت فترة وجيزة شعر فيها البحارة بالتوتر. وذلك عندما ظهرت نوافير عظيمة من الرذاذ في مكانٍ لا يبعد كثيراً عن سفينة القيادة، وما لبث البحارة أن شاهدوا ظهورٍ كائنات عملاقة رطبة ولامعة، لكنها سرعان ما غطست في المياه مجدداً، وهي تلوّح بذيولها الكبيرة خارج المياه.

سأل البحار القبرصي الذي حضّر طعام العشاء للملك ورفاقه على الشاطئ، وبقلقٍ ظاهر: "لكن... ما هذه المخلوقات؟".

ردّ البحّار الفينيقي الذي يُصلح تجهيزات السفينة، والذي كان قد سبق له أن أبحر خلف أعمدة هرقل: "إنها حيتان. وهي لا تشكّل أي خطرٍ بالنسبة إلينا على الإطلاق طالما أننا لا نصدمها. إذ إن ضربة واحدة من ذيلها، و... وداعاً يا سفينة القيادة. يمكن لهذه الحيتان أن تبتلعها مرة واحدة!".

تمتم البحار القبرصي: "إنني أفضّل سمك الطون". ثم عاد ليسأل مجدداً بقلقٍ بالغ: "لكن، هل أنت متأكد من أنها لن تهاجمنا؟".

ردّ نيرخوس: "لا يُمكن للمرء أن يتأكد من أي شيء في البحر. كان ينبغي لك أن تدرك هذه الحقيقة مسبقاً. عُد الآن إلى مكانك".

*

تابع جيش الإسكندر زحفه عبر الطريق التي تؤدي إلى باسارجاداي. واكتشف الملك هناك أن قبر سايروس قد تعرض للنهب. فقد فُتح التابوت، وأُخرجت جثة الملك العظيم منه. حقّق الملك مع المجوسي الذي كان قيّماً على القبر، كما أخضعه للمحاكمة من أجل

محاولة الكشف عن المذنبين الذين عندما قبض عليهم لم يقدموا أي معلومات، حتى تحت وطأة التعذيب. عندها، أطلق الملك سراحهم جميعاً، وأمر أن يعاد ترميم القبر حتى يعود إلى حالته الأصلية، وما لبث أن انطلق نحو بيرسيبوليس. سرت الشائعات في هذا الوقت بأن الملك قد عاد، لكن هذه الأخبار أحدثت اضطرابات لدى عدد من المرزبانات، وكذلك لدى بعض الحكام المقدونيين، وذلك لأنهم كانوا متأكدين من موت الملك، فاغتنموا كل الفرص السانحة للانغماس في كل أنواع السرقات والنهب.

لاحظ الإسكندر الحالة التي آلَ إليها القصر الإمبراطوري نتيجة ذلك الحريق المرعب الذي دمّره. وحدها الأعمدة الحجرية، وبوابات المدخل الضخمة هي التي بقيت صامدة فوق تلك المساحة الهائلة من الأرض المغطاة بالوحول، وكانت قد اسودّت بفعل الدخان. أما الأحجار الكريمة الثمينة، فقد انتُزعت من النقوش البارزة، وكذلك كتل المعادن الثمينة التي انصهرت خلال الحريق. أما الشيء الوحيد الذي بقي ليذكر المرء بعظمة الأخمينيين، فقد كان اللهب أمام النصب التذكاري لقبر داريوس الثالث.

فكّر الملك في ستاتيرا التي لم يرها منذ مدة طويلة، وراح يتساءل ما إذا كانت قد استلمت الرسالة التي بعثها إليها من ضفاف السند. كتب إليها مجدداً، وأبلغها بأنه يحبها، ويود أن يلقاها في سوسا.

ذات مساء، كان يرتاح مع روكسانا على شرفة في قصر المرزبان عندما أُعلن عن قدوم زائر. كان رجلاً أصلع وممتلئ الجسم، وما لبث أن حيّاه بابتسامة عريضة.

قال الرجل وهو ينظر حوله بقلق: "يا مليكي، ويا ولدي. إنك لا تعرف مدى سروري لرؤيتك مجدداً. لكن... أين الكلب؟".

"يـــا إيمولبوس من سولوي... لا حاجة إلى القلق بعد الآن، لأن بيريتاس لم يعد معنا. مات في الهند عندما أنقذ حياتي".

ردّ المخبر: "أنا آسف، بالرغم من أنه لم يحبني قطّ. ولكن، أعرف أنك أحبَبته كثيراً".

أحـــنى الإسكندر رأسه: "مات بوسيفالاس كذلك، بالإضافة إلى مقـــاتلين كثيرين، وعدد كبير من أصدقائي. كانت رحلة شاقة. لكن، من أين أتيت؟ ظننت أنك متّ، لأنك اختفيتَ من دون كلمة وداع، كما أنني لم أستلم أي أخبارٍ منك".

"إذا كان الأمر كذلك، فقد ظننتك ميتاً بدوري، ولستُ وحدي مـــن ظنّ ذلك. أما بالنسبة إلى اختفائي، فقد كان الأمر طبيعياً. ما إن أدركت ما تريده مني حتى انطلقتُ في أول فرصة سانحة، ومن دون أي تردد، لأن المخبر الناجح لا يسرّب أي شيء يتعلق بتحركاته، حتى إنه لا يخبر الشخص الذي كلّفه بالعمل".

قـــال الإسكندر: "إذا كنتُ أعرفك جيداً، فأنت لست هنا لتعبر عن سرورك برؤيتي مجدداً".

ناوله إيمولبوس لفافةً من ورق البردى: "هذا صحيح بالفعل، لأنني في أثـــناء غـــيابك، وإذا كنت أتذكر جيداً، وبحسب رغباتك، كنتُ عينيك وأذنيك. إنني لا أنسى أولئك الذين عاملوني جيداً، وأنت وثقتَ بـــــي، وأنقذت حياتي في حين أراد الجميع إعدامي. ستجد هنا أشياء مكـــتوبة من النوع الذي لن يعجبك. إنها لائحةٌ كاملة بكل الأعمال الـــشاذة، والسرقات، والفساد، وأعمال العنف التي ارتكبها المرزبانات والحكـــام بمن فيهم المقدونيون، وذلك في أثناء غيابك. ولائحةٌ أخرى كـــذلك بكـــل الشهود الذين قد ترغب في استجوابهم في حال كنت تـــرغب في البدء بمحاكمة هؤلاء الأشخاص. إن ذلك الرجل المسؤول

عـــن الخـــزنة الملكـــية، علـــى ســـبيل المثال، وهو اللص... صديق إيومينيس...".

"أتعني هاربالوس؟".

"نعـــم، هو بالذات. أخذ الرجل خمسمئة تالنت من الخزنات، ثم جنّد ستة آلافٍ من المرتزقة، وها هو الآن يزحف نحو كيليكيا، هذا إذا كانـــت آخـــرُ معلوماتي صحيحة. أعتقد أنه يتعامل في هذا الوقت مع بعـــض أصـــدقائه مـــن الأثينـــيين، وهم رجالٌ لا يشعرون بالود تجاه حضرتك".

"أتعني ديموستين؟".

أومأ إيمولبوس.

"وإلى أين يتجه برأيك؟".

"يُحتمل بأنه يتجه إلى أثينا".

دخـــل إيومينيس في تلك اللحظة، وأمارات الحرج الشديد مرتسمة على وجهه. قال: "أيها الإسكندر، جلبت معي أخباراً رهيبة مع الأسف! لا أعرف من أين أبدأ، وذلك بسبب... كان خطئي أنا بطريقة ما".

"إنـــه هاربالـــوس؟ علمتُ ذلك منذ قليل". وأومأ نحو إيمولبوس الذي كان جالساً بهدوء في إحدى الزوايا، وهو الذي لم يفعل أي شيء كي ينبّه إيومينيس إلى وجوده. "أعلم كذلك أموراً أخرى، وكلها غير ســـارة أبـــداً. أريـــدك أن تقوم بهذه المهمة، وهي أن تتحقق من كل الاتهامـــات الـــواردة في هذه الوثيقة ضد الأشخاص المذكورين، سواء أكانوا من العِرق المقدوني، أو الفارسي، أو الميدي. أريدك بعد ذلك أن تباشـــر في كـــل المحاكمـــات الضرورية. أريد أن تحكم الجمعية العامة للجـــيش علـــى المقدونـــيين إذا تبيّن أنهم مذنبون، كما أريد أن تنفذ الأحكام بحسب طقوسنا التقليدية".

"وماذا بشأن هاربالوس؟".

قال الإسكندر آمراً بعد أن شحُب لونه نتيجة الاستياء الذي شعر بـــه: "أريـــدك أن تعثـــر علـــى ذلك اللعين المعتوه أينما كان، واقتله كالكلاب".

وقف إيمولبوس من سولوي: "يبدو لي أننا قلنا ما لدينا".

"هذا صحيح. سيدفع لك إيومينيس بسخاء".

أومأ إيومينيس بعد أن شعر بإحراجٍ أكبر الآن.

قال له الإسكندر بعد أن هبّ واقفاً: "إنها ليست غلطتك، وأنت لم تخن ثقتي بك مطلقاً، وأعرف أنك لن تفعل ذلك أبداً".

"أشكرك، لكن ذلك لا يمحو أبداً خيبة الأمل التي أشعر بها".

غادر الغرفة، والتقى أريستاندر بينما كان يسير مبتعداً عبر ممرات القصر. شعّت عينا الضالع بنورٍ غريب هو أقرب إلى الجنون، حيث لم يلقِ عليه التحية. ويُحتمل ألاّ يكون قد رآه.

دخل الضالع غرفة الإسكندر الذي تأثر كثيراً بملامح وجهه المليئة بالحزن والدهشة.

ســـأله الإسكندر بنبرة شخصٍ يسأل وهو خائف من الإجابة التي سيسمعها: "ما الذي حدث؟".

"إنه كابوسي. لقد عاودني".

"متى؟".

"الليلة الماضية، بالإضافة إلى أمرٍ آخر".

"أخبرني عنه".

"كالانوس ليس بصحّةٍ جيدة".

صاح الإسكندر: "يستحيل هذا! تحمّل الرجل أقسى الصعوبات، وأشدّ المحن، والمطر، والشمس، والجوع، والعطش...".

"ومع ذلك فهو مريضٌ جداً".

"منذ متى وهو مريض؟".

"مرض منذ أن وصلنا إلى بيرسيبوليس".

"وأين هو الآن؟".

"إنه في المنـــزل الذي خصّصته له".

"خذني إليه على الفور".

"كما تريد. اتبعني".

سألت روكسانا بقلق: "إلى أين أنت ذاهب؟".

"أريد زيارة صديق مريض يا حبيبتي".

عـــبرا شـــوارع المدينـــة التي كانت خيالات المساء على وشك الـــسيطرة عليها. ووصلا إلى منـــزلٍ جميل محاطٍ برواقٍ معمّد، وكان ســـابقاً منـــزلاً لأحد النبلاء الفرس الذي سقطَ في معركة غواجميلا. أســـكن الإسكندر كالانوس في هذا المنـــزل كي يتمتع ببعض الراحة بعد صعوبات المهمة التي مرّ بها.

دخـــل الملك مع أريستاندر، وسار الرجلان عبر الممرات الطويلة والهادئـــة حـــتى وصـــلا إلى غرفة شبه مضاءة بآخر أنوار النهار. كان كالانـــوس مستلقياً فوق حصيرةٍ على الأرض، وكانت عيناه مغمضتين وجسده نحيلاً جداً.

قال الملك هامساً: *"كالان..."*.

فـــتح الرجل عينيه السوداوين والعميقتين اللتين استولت عليهما الحمى: "أنا لست بخير".

"لا يمكـــنني أن أصـــدّق هذه الكلمات أيها المعلّم. رأيتك وأنت تتحمل كل أنواع الصعوبات يومياً ومن دون أن تشعر بالألم أو المعاناة من أي نوعٍ كان".

"إنني أعاني الآن، ومعاناتي هي من النوع الذي لا يُحتمل".

التفت الإسكندر، فالتقت نظرته مع نظرة الضالع العابسة.

"ممّ يعاني؟ أخبِرني حتى نتمكن من التخفيف عنه".

"إنها معاناة الروح، وهي من أشد أنواع المعاناة، ولا علاج لها".

"لكــن، ما الذي جعلك مريضاً هكذا؟ ألم تسِر عبر الطريق التي تؤدي إلى السكينة الأبدية؟".

نظــر كالانوس إلى عينَي أريستاندر مباشرة، وخيّمت معرفة قاتمة علــى الحكــيمين. جَهِد كثيراً لتحريك شفتيه، لكنه تمكّن من الكلام مجدداً: "أجل، سرتُ على تلك الطريق إلى أن التقيتك، وإلى أن رأيت فيك قوة الأقيانوس في أوج غضبه، وقوة النمر، والمرتفعات العالية لقمم الجبال المكلّلة بالثلج التي تتطلع نحو السماء. أردتُ أن أعرفك وأعرف عالمك، كما أردت أن أنقذك عندما يأخذك غضبك الأعمى إلى شفير الـــدمار. عرفت عند ذلك ما يتعيّن عليّ عمله إذا ما فشلت. عقدتُ ميــثاقاً مــع ذاتي. أحببتك يا إسكندر، مثلما فعل كل الذين عرفوك، لذلك أردت أن أتبعك كي أحميك من غريزتك الطبيعية، وكي أعلّمك الحكمـــة الـــتي تختلف عن حكمة الحكماء الذين ثقّفوك، وعن حكمة المحاربين الذين جعلوك أداةً لا تُقهر للدمار. لكن معتقداتك (التانترا) لا يُمكـــن تعديلها بأي طريقة من الطرائق. علمتُ ذلك الآن، ويمكنني أن أرى مـــا هو قادم، وما هو على وشك الحدوث". ونظر إلى أريستاندر الـــذي كـــان ينظر إليه نظرة مترددة مجدداً. "هذا هو ما يجعل معاناتي كـــبيرة جـــداً. وإذا كـــنتُ سأعيش حتى أرى ما سيحدث، فإن ألمي ســـيمنعني مـــن التوصل إلى السكينة في يومٍ من الأيام، وسيمنعني من تـــذويب روحي في اللامتناهي. أنت لا ترغب في ذلك. قل لي إنك لا تريد ذلك".

أمسك الإسكندر بيده، وقال له بصوتٍ مرتعش: "كلا. أنا لا أريد هذا يا كالان. لكن، قل لي، أرجوك، قلْ لي ما هو ذلك الأمر الرهيب الذي لا بد من أنه سيحدث".

"لا أعرفه، لكن يمكنني فقط أن أشعر به، ومن دون أن أتحمّله. دعني أموت بالطريقة التي أقسمت على أن أموت فيها".

قبّل الملك اليد النحيلة لذلك الحكيم العظيم، ثم نظر إلى أريستاندر، وقال: "أصغِ جيداً إلى آخر رغباته وانقلها إلى بطليموس كي ينفذّها. إنني... إنني... لا أستطيع".

وغادر الإسكندر مكان إقامة كالانوس، والدموع تفيض من عينيه.

*

نفّذ بطليموس في الوقت المناسب كل ما طُلب منه، وهكذا بدأت آخر مرحلة من رحلة كالانوس نحو السكينة الأبدية.

أمر بإقامة محرقة ترتفع عشرة كيوبيتات، ويبلغ عرضها ثلاثة عشر كيوبيتاً. اصطفّ خمسة آلاف من البيزيتاروي مرتدين دروع الاستعراض على طول الطريق، فيما نظمت مسيرة للشبان الذين نثروا الورود في كل مكان. جاء بعد ذلك كالانوس الذي بدا ضعيفاً ومنهكاً جداً حيث لم يعد يتمكن من المشي، ولذلك حمله أربعة رجالٍ على نقالة، كما وُضعت أكاليل الزهور حول عنقه بحسب العادات الهندية. وُضع فوق المحرقة، وكان عارياً كما كان في اليوم الذي أطلّ فيه على هذا العالم، بينما راحت جوقة من الفتيان والفتيات تنشد ترانيم هي من أحلى ما سُمع على سطح هذه الأرض.

قرّر الإسكندر منذ البداية ألاّ يشاهد هذه المراسم، وهذا هو السبب الذي دفعه كي يطلب من بطليموس تنفيذ الرغبات الأخيرة

لـــذلك الحكيم الهندي. تذكّر، مع ذلك، في اللحظة الأخيرة كيف أن كالانـــوس قد بقي معه عندما كان قريباً جداً من الموت، ولذلك قرّر تقـــديم آخـــر آيـــات التقدير إلى الرجل. مشى في الطريق المخصصة للاحتفال إلى أن وصل إلى المحرقة، وهناك نظر إلى كالانوس الضعيف، والعاري، وما لبث أن تذكّر ديوجينيس الذي استلقى أمام مخضّته بعينيه نـــصف المغمضتين تحت أشعة الشمس الغاربة. تذكّر في تلك اللحظة بالذات ما قاله له ديوجينيس عندما كانا بمفردهما. كان الأمر ذاته الذي أخبره إياه كالانوس، ومن دون أن يفتح فمه في عتمة الخيمة بينما كان يـــصارع المـــوت: "ليست هناك غزوة تحمل أي معنى، وما من حربٍ تستحق خوضها، لأنه في النهاية لا نحصل على أرضٍ لنا سوى تلك التي نُدفن فيها".

وحـــين رفـــع رأسه، رأى جسد كالانوس مغلفاً بألسنة اللهب، وصعُب عليه أن يصدق أنه يبتسم وسط تلك النيران التي لا ترحم. بدا للإسكندر أنه يحرّك شفتيه، وأنه يتمتم شيئاً. كان حسيس ألسنة اللهب عالـــياً جداً حيث لم يسمح له بسماع أي شيء، لكن صوت الحكيم تمكّن من النفاذ على كل حال:

"سنلتقي مجدداً في بابل".

62

غـــادر الإسكندر برسيس على الفور تاركاً كل ذكرياها الحزينة، وسار بجيشه نحو سوسا التي وصلها في منتصف فصل الشتاء.

مـــا إن وصل حتى توجّه لزيارة سيسيغامبيس، والتي تأثرت كثيراً لـــرؤيته، وألقـــت تحياها على الطريقة اليونانية، وبطريقة مألوفةٍ جداً "Chair, pai!".

قـــال الإســـكندر مجاملاً إياها: "لغتك اليونانية ممتازة يا أماه. أنا مسرورٌ جداً لأنك بصحة جيدة".

"أنا مسرورة جداً لأنك بخير وبصحة جيدة. بكيتُ عندما وصلتني أخـــبار تفـــيد بأنك متّ. أتصور كم كان عذاب أمك كبيراً، وهي بمفردها هناك في مقدونيا".

"بعثتُ إليها رسالة عندما وصلت إلى سالموس. أعتقد أها ستكون قد استلمتها في هذا الوقت، ولا بد من أها خفّفت حزها".

"هل أستطيع أن آمل بأن تمكث عندي وتأكل معي؟".

"أجل، بكل تأكيد. سأكون مسروراً جداً لذلك".

"لم تعد لدي مسرّات في عمري هذا تفوق متعة استقبال الزوار، وزيارتـــك أنـــت بالذات هي الأكثر أهمية. اجلِس يا ولدي ولا تقف هكذا".

جلـــس الإســـكندر وقال: "أماه. لم آتِ فقط كي ألقي عليك التحية".

"وما السبب الآخر من وراء مجيئك؟ تكلّم بحرية".

"سمعت أن الملك داريوس لديه ابنة أخرى".

قالت سيسيغامبيس: "هذا صحيح".

"إذاً، أريد أن أتزوجها".

"لماذا؟".

"لأنني أرغب في وراثة داريوس، لذلك يجب أن تكون عائلته هي عائلتي".

"إنني أفهمك".

"أيمكنني أن أفهم ما إذا كنت توافقين على منحي يدها للزواج؟".

"حتى لو بقي والدها حياً لكانت زُوّجت بشخصٍ يعزّز التحالف، أو لضمان ولاء أحد المرزبانات. إنها ليست جميلة جداً، ومع ذلك، فإن اسمها سيذكرك بحبٍّ كبيرٍ سبق أن فقدته... أتعرف اسمها؟ إنه بارسين".

طأطأ الإسكندر رأسه، وقد غمرته ذكراها. وقفزت إلى مخيلته فجأة صوراً مدهشة ومليئة بالحياة محاها الزمن.

تابعت الملكة الأم حديثها: "لن أنسى ذلك اليوم الفظيع في غواجميلا... ستسر ستاتيرا بالذهاب للعيش مع أختها الكبرى. لكن روكسانا؟".

"روكسانا تحبني، وهي تعرف أنها ملكة، لكنها تدرك بالضبط ما تتضمنه واجبات الملك. سبق لي أن تحدثت إليها".

"وماذا قالت؟". "لقد بكت، كما كانت أمي تفعل عندما كان والدي فيليب يُحضر عروساً جديدة إلى القصر. لكنني أحب روكسانا أكثر من أي شيء أو أي شخصٍ آخر، وهي تعلم ذلك".

"إنني أمنحك بارسين بكل سرور. ستوحّد الآن سلالتي الأرغاديين والآخمينيين، ولن يعود هناك من منتصر ولا مهزوم. لكن، ما هو موقف رجالك من هذا؟".

"سأعمل على إقناعهم".

"أتعتقد أنك ستقدر على ذلك؟".

"إنـــني متأكد من هذا، ولديّ أمرٌ آخر أريد أن أطلبه إليك. أريد منك يد بارسين وكذلك يد أخت ستاتييرا الصغرى".

"أتـــريد الـــزواج من درايبيتيس كذلك؟ أعتقد أن ذلك طبيعي جداً".

"لا أريـــدها لي، بل لصديقي هيفاستيون. كنا نقول في شبابنا إنه ســـيكون من الرائع لو نتزوج شقيقتين، فبهذه الطريقة سيصبح أولادنا أقرباء".

"ســـأكون مسرورة لمنحها إلى صديقك. آمل فقط أن يكون هذا الزواج مقبولاً لدى نبلائكم وجنودكم".

ردّ الإســـكندر: "ســـيكون مقـــبولاً بالطبع. إن عدداً كبيراً من جنودي يعيشون الآن مع فتيات فارسيات أو ميديات، وحتى إنهم رُزقوا منهنّ أطفالاً. إن الوقت مناسب الآن لزواجهم، كما أنني أختار عرائس فارسيات للآخرين. أجريت حساباً لعدد احتفالات الزواج فبلغت نحو عشرة آلاف زيجة".

فـــتحت الملكة العجوز عينيها الواسعتين وقالت: "عشرة آلاف؟" آه، عظـــيم هـــو أهورا مازدا. إن ذلك شيء لم يشهده العالم من قبل قـــطّ!". وابتـــسمت بـــبراءة ساحرة، وأضافت: "بعد كل الذي قيل وحدث، أعتقد أنك على حق. يبقى السرير أفضل مكان لإقامة سلامٍ دائم".

*

بدأ الإسكندر خلال إعداد مراسم الزواجين بالتخطيط لحملات جديدة إلى أراضٍ مجهولة. كان ذلك هو سبب انتظاره وصول أسطولٍ

نيرخوس بفارغ الصبر. ظهر الأسطول عند مصب نهر دجلة عند انتهاء فصل الشتاء وحلول فصل الربيع.

رست سفينة القيادة التي تحمل العلم الأرغادي ذا النجمة الذهبية في القـــنال الذي كان يصل تقريباً إلى تحت أسوار المدينة مباشرة. فيما تابعت بقية سفن الأسطول رسوها وسط موجة من الهتاف والتصفيق، ووسط نفير الأبواق وقرع الطبول.

تلقـــى نيرخوس الذي كان مرتدياً دروعه كلّ مظاهر التكريم من سريتين من فرسان البيزيتاروي، وذلك قبل أن يستقبله الإسكندر الذي كان جالساً فوق عرشه وإلى جانبه روكسانا، التي بدت مذهلة بعباءتها الملكية المحبوكة كلها بالذهب، والمزيّنة بالأحجار الكريمة.

مـــا إن رأى الملك الأميرال حتى توجّه نحوه وقبّله على خدّيه، ثم استقبل أونيسيقريط، نائب الأميرال وقادة كل السفن، وذلك لتهنئتهم، ولتقديم هدية إلى كل واحدٍ منهم.

وفي ذلك المساء بالذات، استدعى الإسكندر كل أصدقائه لتناول طعـــام العشاء معه، وكان من بينهم نيرخوس وإيومينيس، وذلك كي يبلغهم بقراره. أقيمت المأدبة في غرفة العرش ذاتها، ورتّبت أسرّة الطعام على جهاتٍ ثلاث، وذلك كي يتمكن جميع الحاضرين من سماع الملك ورؤيته. غابت النساء عن الحفل وكذلك غاب الموسيقيون، وهو الأمر الذي جعل المأدبة تبدو أقرب إلى مجلس حرب منها إلى مأدبة عشاء.

بـــدأ الإسكندر كلامه: "قرّرتُ أن الوقت قد حان بالنسبة إليكم جمـــيعاً كي تتزوجوا". نظر الحاضرون إلى وجوه بعضهم بعضاً بدهشة فيما تابع الملك كلامه: "إنكم تتقدمون في السن، لذلك يجب عليكم أن تـــبدأوا بالـــتفكير في تأسيس أسرٍ لكم. اخترت لكم عرائس جميلات يتحدّرن من أرقى المجتمعات... وكلّهن فارسيات".

مرتّ فترة من الصمت.

تابـــع الملك: "وليس هذا فقط. فلقد قررت أن أحتفل بالزيجات التي سبق أن تمت بين الأزواج المقدونيين والفرس، وبعض هؤلاء، كما تعلمون، رُزقوا أولاداً. وسأقدّم كذلك أموالاً لمهور العرائس بالنسبة إلى الـــذين يختارون الزواج الآن، ولكن بشرط أن تكون العروس فارسية. إنها الطريقة الوحيدة التي سنتمكن بواسطتها من صنع مستقبل لحملتنا، ومن استئصال الحقد والبغضاء، والرغبة في الانتقام. يتلخص كل ذلك في وجـــود وطنٍ واحد، وملكٍ واحد، وشعبٍ واحد. هذه هي خطتي، وهـــذه هـــي إرادتي كذلك. وإذا كان بينكم أي شخصٍ يعارض هذه الخطة، فليتكلم الآن".

لم يـــتفوّه أي شـــخص ولو بكلمة واحدة. وحده إيومينيس رفع يـــده: "إنـــي لست مقدونياً، ولست بطلاً مثلكم أنتم، وليست لديّ الرغبة في المشاركة في تأسيس أي إمبراطورية، لذلك أود أن أُعفى من المـــشاركة في احـــتفال الزيجات الربيعي هذا، وسأكون مسروراً جداً لذلك. إن مجرد التفكير في الحصول على زوجة تحيط بـــي على الدوام هو أمر يصيبني بالقشعريرة و...".

قاطعه الإسكندر بابتسامة: "تدعى عروسك آرتونيس، وهي ابنة مرزبان آرتوازوس. إنها جميلة جداً وفي غاية الإخلاص. إنني متأكد من أنكما ستكونان سعيدين جداً معاً".

أقيم الاحتفال الكبير في فصل الربيع تحت خيمة كبيرة، وبحسب الطقوس الفارسية. صُفّت مقاعد ذات مساند ظهرٍ عالية بكل ترتيب، ثم وصل العرسان لشرب نخب الجميع، وتبادلوا الأمنيات بالسعادة في ما بينهم. وصلت العرائس بعد ذلك على الفور بفساتين العرس، وجلست كـــل واحـــدةٍ منهن إلى جانب زوجها. وحذا كل رجلٍ حذو الملك

فتناول يد امرأته وقبّلها. وتسلّم كل ضيفٍ من الضيوف كأساً ذهبيّة، ومـــا لبثت المأدبة أن بدأت، وأكل الجميع من أصناف الطعام الفاخرة الـــتي كانت معدّة لنحو عشرين ألف شخص. كان الشراب يسيل من نافـــورة ليستطيع الجميع الشرب منها قدر ما يريدون. وانطلقت جوقة مـــؤلفة مـــن فتـــياتٍ وفتيان بإنشاد تراتيل خاصةٍ باحتفالات الزفاف وبمرافقة من القيثارات والنايات والطبول البابلية والهندية.

وصـــلت ســـتاتيرا مـــن إيكباتانا قبل يومين من الاحتفالات، وشـــاركت في الاحـــتفال بصفتها وصيفةً لأختها بارسين التي ولدت لداريوس من زواجه الأول. رافقت ستاتيرا شقيقتها عند نهاية الاحتفال إلى عتـــبة غرفة نومها حيث كان يُفترض أن ينضم إليها زوجها. وصل الإسكندر قبل مغادرة ستاتيرا، فبادرت إلى تحيّته بقبلة.

"أنـــا مسرور لأنك جئت يا ستاتيرا. مضى وقت طويل منذ أن رأينا بعضنا لآخر مرة".

"هذا صحيح يا سيدي. مضى وقت طويل".

"آمل أن تكوني بخير".

ردّت ســـتاتيرا بابتـــسامةٍ غامضة: "أنا بخير، لكنني أتساءل عن حالتك أنت".

ردّ الإســـكندر: "يُحتمل أنني تناولت الكثير من الشراب. ولكن، في ليلة كهذه يفيدني الشراب كثيراً".

"هذا صحيح تماماً. أعتقد أن عذراء في الثلاثين من عمرها تقريباً، وزوجة لم ترها منذ ما يقارب الأربعة أعوام، ترغبان في الحصول على خدماتك".

بـــدا أن الإسكندر يتأمل في هذه الكلمات هنيهة، ثم راح يتمتم: "كم يمضي الزمن بسرعة".

اقتــرب مــنها، وحدّق إلى عينيها مباشرة، ثم سألها: "هل أتيتِ لتعرضي عليّ حبّك، أم كي تتحدّيني؟".

أجابت ستاتيرا ببسمة فيها قدرٌ كبير من الإغراء: "أتحداك؟ ولِمَ أفعل ذلك؟ سأنتظر في الغرفة المجاورة بينما تنصرف أنت إلى جعل أختي سعيدة. فلقد تزوجَت لتوها، ولذلك، فهي تستحق أن تكون قويّاً". ثم قبّلته وانسحبت إلى غرفتها، وأغلقت الباب وراءها.

أمضى الملك تلك الليلة مع عروسَيه الفارسيتين، وبدأ مع بارسين أولاً ثم انــتقل إلى ستاتيرا. استسلمت ستاتيرا للنوم فغطّاها بعباءتها، وخرج عبر الممر. نظر حوله فلاحظ أن الهدوء يسيطر على كل شيء، وما لبث أن نــزل الدرج، وسار عبر الباحة متوجهاً نحو الجناح الملكي الــذي تقــيم فيه روكسانا. حاول ألاّ يُصدر أي ضجيج كان، لكنها استدارت فجأة عندما استلقى إلى جانبها وقد استولت عليها موجة من الغــضب، وراحت تلكمه وتخدشه بأظفارها، وهي تصيح: "ما زلتَ تعبق برائحة تلك المرأة، ومع ذلك تجرأتَ على الاقتراب مني!".

أمــسك الإسكندر معصميها، وثبّتها فوق السرير. راحت تتلوى وتــتمايل لاهثة تحته، لكن الإسكندر لم يقل شيئاً. وسمح لها أن تصرخ وتبكــي بحرقة كما تريد. وتركها في النهاية واستلقى إلى جانبها مجدداً منتظراً أن يتلاشى غضبها وألمها.

قال لها: "سأذهب إذا كان ذلك هو ما تريدينه مني".

لم تجب روكسانا.

"شرحت لك أنني سأتزوج بارسين، وأن ستاتيرا ستعود. للملك واجباتٌ محددة...".

صاحت روكسانا: "لا أهمية لذلك! أتعتقد أن واجباتك ستحسّن مزاجي؟".

ردّ الإسكندر: "كلا، لا أعتقد ذلك، ولهذا أسألك إذا كنتِ تريدين أن أنصرف".

سألته: "وهل ستنصرف بالفعل؟".

أجاب الملك: "سأنصرف فقط إذا كنتِ تريدين ذلك، لكنني آمل ألاّ تطلبي مني هذا، لأنك المرأة الوحيدة التي سأظل أحبها إلى نهاية عمري".

جلست روكسانا صامتة لوقتٍ طويل، ثم قالت: *"إسكندر..."*.

"نعم".

"سأقتل نفسي إذا فعلت ذلك مرةً أخرى، وسيموت طفلك معي. إنني حامل".

أمسك الإسكندر يدها بحزم وسط الصمت والظلمة المخيّمين على المكان.

*

وفي اليوم التالي، أعلن الملك أنه سيسدّد شخصياً كل الديون التي يدين بها الجنود المقدونيون الذين اقترضوا مالاً. لم يجرؤ عدد كبير منهم في البداية على الإعلان عن ديونهم لأنهم اعتقدوا أن الإسكندر قد وضع خطة تمكّنه من معرفة الذين بدّدوا مواردهم المالية، أو أولئك الذين لم يحسنوا التماشي مع المرتبات السخية التي حصلوا عليها جميعاً.

لاحظ الإسكندر قلة عدد الطلبات المقدمة، ولذلك نشر خبر عدم رغبته في معرفة هوية المدينين، وأنه يكتفي بمعرفة قيمة الدَّين. تشجّع الجميع لهذا السبب، وقدّموا إلى إيومينيس الطلبات والوثائق التي تثبت وجود الديون. وتسلّم هؤلاء في المقابل الأموال الضرورية لسداد ديونهم بالكامل.

حسب الأمين العام الكلفة الإجمالية لهذه العملية فوصلت إلى عشرة آلاف تالنت.

وفي نهاية فصل الربيع، أمر الملك بإجراء مناورات في أوبيس الواقعة على إحدى ضفّتي نهر دجلة حيث وصلت فرقة جديدة من الشبان الفرس الذين التحقوا بالجيش. بلغ عديد هذه الفرق ثلاثين ألفاً، وتدربوا كلهم بحسب الطريقة المقدونية. أجرى المحاربون الآسيويون، والذين حملوا لقب *القادمين الجدد* استعراضاً كبيراً برهنوا فيه عن شجاعة ومهارة استثنائيتين. أقلق هذا الأمر الجنود المقدونيين مجدداً، فلقد خشوا من وضعهم على قدم المساواة مع أولئك الذين هزموهم وقهروهم في ميادين المعارك. وازداد إحباطهم أكثر عندما سمعوا أن الإسكندر يرغب في صرف المعوّقين والجرحى، وإعادتهم إلى الوطن مع كراتيروس الذي سيحل محل أنتيباتر العجوز بصفته الوصي على عرش مقدونيا.

قال له كراتيروس: "إنهم غاضبون جميعاً، كما طلبوا أن تقوم باستقبال وفدٍ منهم".

وحين انتهت المناورات، وعاد *القادمون الجدد* إلى خيَمهم، أمر الإسكندر بنقل عرشه إلى الخارج، ثم قال لصديقه: "دعهم يأتون إليّ". كان من الواضح أنه غاضبٌ جداً، وفي مزاج سيّئ.

تحرّك كراتيروس نحو معسكر المقدونيين، والذي كان منفصلاً بالكامل عن المعسكر الفارسي، ولم يطل به الأمر حتى ظهرت مجموعة صغيرة من الجنود الذين يمثلون فرق الجيش كافة: الفرسان، والمشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً، وجنود الهجوم، وحاملي الدروع، والرماة من راكبي الجياد.

سأل الإسكندر ببرودٍ ظاهر: "ماذا تريدون؟".

فأجابـــه قائد إحدى فرق المشاة، وهو الأكبر سناً في المجموعة: "هل صـــحيح أنـــك تنوي إرسال قدامى المحاربين، والمعوّقين، والمشوّهين إلى الوطن؟".

ردّ الملك: "أجل".

"وهل تشعر أن ما تقوم به أمر صائب؟".

"إنـــه أمـــر ضروري. فهؤلاء الرجال لن يشاركوا في الحملات المقبلة، لأنهم لم يعودوا مؤهلين للقتال".

صاح جندي آخر: "أي نوعٍ من الرجال أنت؟ الآن لم تعد بحاجة إلى جـــنودك، وهم الجنود الذين قهروا نصف العالم من أجلك بعرقهم ودمائهم، وذلك بعد أن ألبستَ هؤلاء البرابرة الصغار ثياباً مثل الفتيات الصغيرات؛ بعد أن أنهوا تدريباتهم ورقصهم".

صـــاح جندي ثالث: "هذا صحيح! إنك تخطط لإعادتهم إلى الوطن الآن. هل هم الرجال أنفسهم الذين فصلتهم عن عائلاتهم منذ عشر سنين؟ كـــلا! كانوا شباناً وأقوياء في ذلك الوقت، وفي أفضل هيئة! أما الآن فهم متعـــبون، ومحـــبطون، ومـــشوّهون، ومعوّقون، وجرحى. كيف ستكون حـــياتهم؟ وماذا بشأن الذين لن يعودوا إلى الوطن الآن؟ أولئك الذين ماتوا في الكمـــائن، والذين تجمدوا حتى الموت في الشتاءات، والذين تمزّقوا إرباً إربـــاً فوق الصخور، والذين غرقوا في مياه السند الموحلة، والذين ابتلعتهم التماســـيح أو عـــضتهم الأفاعـــي، والذين ماتوا من العطش والجوع في الـــصحراء. هـــل فكرت فيهم؟ وهل فكّرت في الأرامل واليتامى؟ كلا يا مـــولاي، لأنـــه من الواضح أنك لم تفعل ذلك، وإلا ما كنت لتقدم على عملٍ من هذا النوع. أصغينا إليك على الدوام، وأطعناك على الدوام، لكن يجـــب عليك الآن أن تصغي إلينا! لقد اجتمعنا معاً، نحن جنودك، واتخذنا قرارنا. إما أن نبقى جميعاً، أو أن أحداً منا لن يبقى!".

سأل الإسكندر بوجهٍ يوحي بالكدر: "ماذا تحاول أن تقول لي؟".

رد قائد فرقة المشاة: "إن ما أعنيه هو أنك إذا أرجعت قدامى المحاربين المعوّقين إلى الوطن، فسيتعيّن عليك أن تعيدنا جميعاً. أجل، إننا عائدون إلى الـوطن، ويمكنك الاحتفاظ بهؤلاء البرابرة المزودين بدروع صدور جميلة مطلية بالذهب، وسنرى ما إذا كانوا قادرين على القيام بالأعمال التي قمنا بها، وما إذا كانوا سيبذلون دماءهم من أجلك مثلنا. وداعاً يا مولاي".

أحنى القادة في تلك المجموعة الصغيرة رؤوسهم قليلاً، ثم استداروا وساروا ببطء عائدين إلى معسكرهم.

هـبّ الإسـكندر واقفـاً وقد شحب وجهه من فرط الغضب والشعور بالإهانة، ثم التفت إلى الفرسان من حرسه الخاص، وقال لهم: "هل ترون الأمور بهذه الطريقة أيضاً؟".

بقي القائد صامتاً.

صاح الملك مجدداً: "ألديكم الشعور ذاته؟".

جاء الرد: "إننا نوافق على ما قاله رفاقنا يا مولاي".

"إذاً، يمكـنكم الانـصراف، وأنا أعفيكم من واجباتكم. لم أعد بحاجة إليكم".

أومأ القائد إشارةً إلى فهمه، ثم جمع رجاله وأخذهم إلى المعسكر على عجل.

وبعـد فترة قصيرة، حلّت مجموعة من فرقة *القادمين الجدد* الفرس مكـان الحـرس الملكي. وقف الفُرس خارج الخيمة الملكية منذ ذلك الـوقت متألقين بدروعهم الجديدة وعباءاتهم المطرزة، وأعلامهم ذات الألوان الأرجوانية والذهبية.

وفي الـيومين التاليين، رفض الإسكندر مقابلة جنوده، كما أنه لم ينقل إليهم الأمور التي عزم عليها. وأثار موقفه هذا قلقاً كبيراً لدى كل

الجنود في المعسكر. عندها، شعر الجنود بأنهم قطيع من الخراف من دون راعٍ، أو مثل أولادٍ من دون والد، وشعروا أنهم وحيدون وسط هذه البلاد مترامية الأطراف التي قهروها، ولكنها الآن باتت تكرههم وتسخر منهم. وبرز شعور أقوى من كل تلك المشاعر، وتمثّل بالألم الناتج عن إبعادهم عن ملكهم، ومن فكرة أنه يعدّ الآن خططاً أخرى، ويحلم أحلاماً أخرى، وأنه يتخيّل مغامرات استثنائية من دونهم، ومن فكرة عدم رؤيته ثانية، وعدم تواصلهم معه، أو عدم وجود أي علاقة بينهم وبينه من أي نوعٍ كان.

مرّ يومان من دون أن يظهر الملك. وقال بعض الجنود في اليوم الثالث: "لقد ارتكبنا خطأ. إن ما فعلناه كان خطأ. ألم يحبنا جميعاً على الدوام؟ ألم يعرّض نفسه للصعوبات ذاتها التي مررنا نحن بها؟ ألم يأكل ما أكلناه؟ ألم يُجرح أكثر من أي واحدٍ منا؟ ألم يمنحنا الهدايا والعطايا. دعونا نذهب إلى خيمته، ونطلب منه السماح".

بدأ آخرون بالضحك: "أجل! هكذا! اذهبوا كي تُركل مؤخراتكم جزاء مسعاكم!".

أجاب الرجل الذي كان أول من تكلّم: "يُحتمل أن يحصل ذلك، لكنني سأذهب على كل حال، أما أنتم، فيمكنكم أن تفعلوا ما شئتم". نزع الرجل كل أسلحته، ثم خرج من المعسكر حافي القدمين. وحذا آخرون حذوه، وراح عدد هؤلاء يزداد حتى خرج أكثر من نصف عدد الجنود، ووقفوا هناك أمام الخيمة الملكية، بينما وقف الحراس الفرس ينظرون إليهم.

مرّ كراتيروس في تلك اللحظة، ورأى الجنود واقفين هناك. أما بطليموس الذي كان قد رجع من مهمة بمحاذاة نهر دجلة فسأل: "ماذا يحدث هنا؟".

دخلا الخيمة، فقال كراتيروس: "الجنود يقفون في الخارج".

وسمعا صوتاً يصرخ: "سامِحنا يا مولاي!".

ردّ الإسكندر بلا مبالاة ظاهرة: "لقد سمعتهم".

صرخ صوت آخر: "أيها الإسكندر! أصغِ إلينا!".

لم يتمكن بطليموس من تخبئة عواطفه: "لماذا لا تخرج إليهم؟ إنهم جنودك".

"لـن أخرج بعد الآن. لم أكن أنا الذي رفضتهم، بل هم الذين استبعدوني، وهم الذين خذلوني".

لم يُضف بطليموس كلمةً أخرى، لأنه كان يعرف صديقه جيداً إلى درجة ألاّ يصرّ على موقفه في تلك اللحظة.

مرّ يوم وليلة، ثم مرّ يوم آخر، وترافق ذلك مع تصاعد تفجّع الجنود، كما أصبحت الأصوات أكثر إلحاحاً.

صاح بطليموس في النهاية: "هذا يكفي الآن! يكفي! لم ينَم هؤلاء الرجال، ولم يأكلوا شيئاً، منذ يومين وليلتين؟ اذهب إليهم الآن إذا كنتَ رجلاً! هل يصعب عليك أن تفهمهم؟ أنت ملك وتعرف كل شيء عن عمل الإدارات والسياسات، لكنهم يعرفون شيئاً واحداً فقط، وهو أنهم تبعوك حتى أطراف الأرض. أعطوك دماً، وها أنتَ الآن تُبعدهم عنك كي تحيط نفسك بأشخاصٍ سبق لك أن طلبتَ من جنودك القتال ضدّهم بالأمس فقط. ألا تستطيع، حقيقةً، أن تتفهم مشاعرهم؟ أتعتقد فعلاً أن الأموال التي أعطيتهم إياها تشكّل تعويضاً عادلاً بالنسبة إليهم؟".

بدا أن شيئاً ما قد تحرّك في داخل الإسكندر، فنظر إلى وجه بطليموس، وكأنه يسمع هذه الكلمات للمرة الأولى، ثم وقف بعد ذلك، وخرجَ بينما كان ضوء النهار يتلاشى تدريجياً.

كان الجيش بأكمله في الخارج، وكان الجنود غير المسلحين بالآلاف ويجلسون على الأرض الترابية، وبدا أن عيون كثيرين منهم تفيض بالدموع.

قال صائحاً: "سمعتكم أيها الرجال! أتعتقدون أنني أصمّ؟ لم أنم لليلتين بسببكم".

ردّ أحد الجنود مجهولي الاسم من بين مجموعةٍ من الجنود المجتمعين: "ونحن أيضاً لم ننم لليلتين متواصلتين يا مولاي!".

بدأ الإسكندر بالصياح: "هذا لأنكم ناكرو الجميل، ولأنكم عجزتم عن فهمي، ولأنكم...".

تقدّم أحد قدامى الجنود المعوّقين، وكان ذا شعرٍ أشعث ولحيةٍ أصابها الشيب وفاقداً إحدى يديه، وحدّق إلى عيني الإسكندر مباشرة وقال: "لأننا نحبك يا ولدي".

عضّ الإسكندر شفته لأنه أدرك بأنه قد يبدأ بالبكاء في أي لحظة مثل طفل. إنه ملك مقدونيا، وملك الملوك، وفرعون مصر، وملك بابل، لكنه يوشك على البكاء مثل ولدٍ صغير وساذج أمام جنوده. فعل ذلك، فانسكبت دموعه الحارة من دون حتى أن يغطي وجهه. وحين هدأ أخيراً أجابه: "وأنا أحبكم أيضاً أيها البلهاء!".

63

نظـــر الإسكندر الذي كان جالساً على عرشه إلى جنوده الذين استدعتهم الأبواق للحضور إليه. وأومأ إلى إيومينيس في إشارةٍ إليه كي يبدأ القراءة:

أنـــا الإسكندر، ملك مقدونيا، وقائد التحالف الهيليني، أقرر ما يلي:
سيرجع قدامى الجنود الذين يثبت بعد إجراء الفحوصات الطبية أنهم غير مؤهلين للقتال إلى الوطن مع القائد كراتيروس.
سيتلقى كل واحد منهم هدية شخصية من الملك كي يتذكروه مـــا دامـــوا أحـــياء. سيتـــسلم كل واحد منهم تاجاً ذهبياً، وسيُسمَح لهم بوضع التيجان على رؤوسهم في كل المناسبات العامـــة، وخـــلال حضورهم المسابقات الرياضية والعروض المـــسرحية. وسيُمنحون في هذه المناسبات مقاعد في منصات الشرف.
يأمـــر الملـــك كـــذلك بأن يستمروا في استلام معاشاتهم لبقية حـــياتهم. كما أن الأولاد اليتامى سيستمرون في قبض معاشات آبائهم الذين ماتوا في سبيل شرف وطنهم، وذلك إلى أن يبلغوا العشرين من أعمارهم.
ســـيُعود الحـــرس الملكـــي المقدوني إلى لعب دوره. أما أولئك المرضـــى، أو الجرحى بجروحٍ طفيفة، فسيعالجون ويُعادون إلى الخدمة. ولقد طلب الملك من فيليب، طبيبه الشخصي، العناية بهم.
يعبّـــر الملك لكم جميعاً عن تعاطفه العميق معكم، وعن امتنانه لكم، إلى الأبد!

دوّت عاصفة من التصفيق الحاد والهتافات بين الجنود الذين قرعوا السيوف على دروعهم، وراحوا يغنّون ويصرخون صرخات الفرح.

وبعد أربعة أيام، انطلقت القافلة التي يقودها كراتيروس في زحفها نحو الفرات والبحر. وقف الإسكندر وهو يراقب المشهد حتى اختفى آخر رجلٍ عن نظره، ثم قال: "إنهم يأخذون معهم جزءاً مني".

ردّ إيومينيس: "إنك على حق، لكن المرسوم الذي أصدرته كان ممتازاً. سيتمكن قدامى الجنود من الدخول إلى المسرح، وحتى أولئك الذين لم يسبق لهم أن دخلوه من قبل، وذلك كي لا تفوتهم فرصة الجلوس على المقاعد المخصّصة لهم، مرتدين علناً التيجان الذهبية التي منحتهم إياها".

"كيف سيكون ردّ فعل أنتيباتر برأيك؟".

"أتعني عند استبداله بكراتيروس؟ لا أعرف، لكنه أظهر ولاءه على الدوام، وهو الذي خدمك بإخلاص. يُحتمل أنه سيشعر بالمرارة. هذا صحيح، لكن ذلك سيكون لفترة مؤقتة. إنه آخر رجل بقي من حرس والدك القدماء. ماذا تنوي أن تفعل الآن؟".

"هل تتذكّر الأوكسيانيين؟".

"ومَن ينسى أولئك المتوحشين؟".

"تتواجد إلى الشمال من مناطقهم قبيلة أكثر توحشاً. سبق لهذه القبيلة أن ساندت محاولات استرجاع الإمبراطورية الفارسية، وهي قبيلة الكوسانيين. يتعيّن عليّ الانتهاء من هذه المهمة قبل التوجه إلى إيكباتانا، آخر عاصمة للإمبراطورية، وذلك كي أعيد تثبيت سيطرتنا هناك، وكي نتحقق من الخزنة الملكية قبل أن نُخضِع الحكام الفاسدين إلى المحاكمة. وبعد ذلك، سنسير بالجيش إلى بابل؛ التي ستكون العاصمة المستقبلية للإمبراطورية".

"وكم ستطول هذه المهمة برأيك؟".

"ستستغرق شهرين، وربما ثلاثة أشهر".

*

أخطأ الإسكندر في تقديره. فلقد استغرق إخضاع الأوكسيانيين فصل الربيع بكامله، ولذلك بقي في إيكباتانا معظم فترة فصل الصيف. وتّمت محاكمة ثلاثة من كبار الضباط المقدونيين، وهم هيراقل، وميليجر، وأرستونيقوس بتهم الفساد والسرقة وتدنيس الهياكل الفارسية، ولذلك أُعدموا على الفور. فأظهر الملك بهذه الطريقة أنه لا يميّز بين المقدونيين والفرس، والواقع هو أن عدداً ضئيلاً من الفرس قد أُدينوا بسبب كونهم إداريين فاسدين. وتبيّن كذلك أن المعلومات التي قدّمها إيمولبوس من سولوي كانت صحيحة في كل هذه القضايا.

وما إن انتهت هذه المحاكمات حتى قرّر الملك تنظيم احتفالات تتضمن ألعاباً وعروضاً مسرحية، وذلك لأن نحو ثلاثة آلاف رياضي، وممثل، ومتعهد حفلات قد وصلوا من اليونان. استقر الملك بعد ذلك مع روكسانا في القصر الملكي. أما ستاتيرا فقد سكنت هي وشقيقتها التي تزوجها الإسكندر في قصر سوسا. وتمكنت الشقيقتان بهذه الطريقة من تجنب غيرة روكسانا التي ازداد نفوذها بعد أن تأكدت من أهميتها بالنسبة إلى زوجها، لأن الإسكندر لم يردّ لها طلباً على الإطلاق. استلقت إلى جانبه ذات مساء بعد علاقتهما الحميمة، وأسندت رأسها إلى صدره، وقالت له: "أنا سعيدة الآن بالفعل".

عانقها الملك بحرارة: "إنها لحظة من السعادة العظيمة بالنسبة إليّ كذلك. عاد أسطولي سالماً وبأمان، وأنجزت كل عملياتي العسكرية، كما تصالحت مع جنودي، وتمكنت من توحيد شعبين عن طريق الزواج، وعما قريب سيكون لديّ ابن".

قالت روكسانا ضاحكة: "انتظر لحظة. يُحتمل أن تكون ابنة".

ردّ الإسكندر: "آه! كلا. إنني متأكد من أنّ المولود سيكون صبيّاً، وسأعطيه لقب الإسكندر الرابع! ستكونين أماً لولي عهدي يا روكسانا. أريد أن أحتفل بهذه المناسبة، ولذلك سأنظّم احتفالات كبيرة، وسباقات، وعروضاً مسرحية على الطريقة اليونانية. هذه أمور لم تشاهديها من قبل، لكنني متأكد من أنك ستعتادين عليها على الفور. أتتخيّلين مئات العربات التي تجرّها أربعة جياد، وهي تتسابق حول طريق بسرعات كبيرة؟ أتتخيلين كذلك قصصاً تمثّل على مسارح صناعية، يمثّلها رجال حقيقيون يتظاهرون بأنهم شخصيات القصة؟ أتتخيلين كذلك رياضيين يتنافسون في سباقات ركضٍ، ومصارعة، وقفز، ورمي الرمح؟ يمكنك كذلك أن تتخيّلي الرقص، والموسيقى، والغناء...".

نظرت إليه روكسانا مغمورة بالإعجاب والدهشة لأنها رأت، منذ أن تركت موطنها الجبلي الذي يسكنه الرعاة، كل أنواع العجائب. ولذلك كانت حياتها مع الإسكندر التي بدت بالنسبة إليها عظيمةً جداً، أشبه بحلمٍ لا ينتهي.

بدأت بعد ذلك الاحتفالات والمآدب، لكن هيفاستيون مرض في تلك الفترة، فهرع الملك لرؤية صديقه ما إن أبلغه إيومينيس بهذه الأخبار المقلقة.

سأل الملك على الفور: "ما خطبه؟".

ردّ إيومينيس: "أصيب بحمى وغثيان".

"أحضِر فيليب إلى هنا".

"هلَ نسيتَ أننا تركناه في سوسا؟ لكنني أرسلت في طلب غلوكوس، وهو طبيب ممتاز".

تمكّن هيفاستيون من المزاح بالرغم من الحمى التي أصابته: "لا أريد أطباء. أحضِروا إليّ قارورة من الشراب القبرصي، وأنا سأعالج نفسي".

ردّ الإسكندر: "لا تكن سخيفاً. ستفعل ما يأمرك به الطبيب بالضبط".

وصل غلوكوس بسرعة. كشف عن صدر المريض وأصغى. صاح هيفاستيون: "لماذا تكون آذان الأطباء باردةً ومتجمدة على الدوام؟".

قال إيومينيس ممازحاً: "إذا كنتَ تريد طبيباً ذا أذنين دافئتين، فعليك أن تطلب ذلك، فصديقك ملك هذا العالم، ولذلك يُمكنه أن يُحضر إليك مَن تريده وما تريده".

بدأ غلوكوس بفحص بطن هيفاستيون فوجده متورماً ومنقبضاً. "أعتقد أنه أكل شيئاً أضره كثيراً. سأصف له مسهّلاً، ويجب عليه أن يصوم مدّة ثلاثة أيامٍ على الأقل، وألاّ يشرب سوى الماء".

"هل أنت متأكد من أن هذا هو العلاج الصحيح؟".

"أعتقد أن فيليب كان سيقول لك الأمر ذاته. كنت سأرسل إليه مبعوثاً كي أطلب استشارته لو لم يكن بعيداً جداً، لكنني لا أعتقد أن هذا ضروري بالفعل. يتعيّن أن يشفى مرضٌ من هذا النوع في وقت أقل مما يستغرقه المبعوث كي يصل إلى سوسا".

"هذا جيد، لكن تأكد بأن تبقى ساهراً عليه، لأن هيفاستيون هو صديقي العزيز. بقينا على صداقتنا هذه منذ أن كنا صغيرين". حدّق الإسكندر خلال حديثه إلى القلادة الذهبية التي يعلّقها هيفاستيون حول عنقه، والتي تحمل سناً صغيرة؛ وهي سنّ الملك. وكانت سنّ هيفاستيون معلقة حول عنقه هو، كرمز إلى الصداقة الأبدية التي جمعتهما.

قال الطبيب: "لا تخف يا مولاي. سنعيد إلى هيفاستيون عافيته التامة في وقتٍ قصير".

غادر الإسكندر، وما لبث الطبيب أن أعطى هيفاستيون مسهّلاً، وترك تعليماته بشأن الوجبات الغذائية التي يتعيّن عليه تناولها.

"سيكون كل شيء على ما يرام في غضون ثلاثة أيام، وستتمكن من تناول القليل من مرق الدجاج".

تحسّن هيفاستيون بالفعل بعد مرور ثلاثة أيام، فتقلّص الورم في بطنه كثيراً، كما خفّت الحمى، بالرغم من أن حرارته قد ارتفعت قليلاً عند المساء. تضمّن برنامج الألعاب في ذلك اليوم سباقاً للعربات ذات العجلات الأربع، وكان غلوكوس هاوياً لسباقات الأحصنة، لكنه مرّ بمنزل هيفاستيون كي يفحص مريضه، وعندما لاحظ أن حالته قد تحسنت كثيراً سأله إذا كان يستطيع أن يغيب عنه لساعات عدة. وقال له: "أيها القائد، سيُقام سباق عربات مثير هذا اليوم. أودّ رؤيته إذا لم يكن عندك مانع".

ردّ هيفاستيون: "لا مانع عندي بالطبع. اذهب واستمتع".

"هل أستطيع الذهاب من دون أن أقلق؟ هل ستنتبه إلى نفسك".

"بالطبع يا طبيبي. إنني لا أخشى الحمى بعد خدمة عشر سنين في الجيش وخوضي الكثير من الحملات العسكرية".

"سأعود قبل حلول الليل على كل حال".

ترك غلوكوس هيفاستيون الذي كان يشعر بالتعب نتيجة الصيام عن الطعام، وبسبب تناول المسهلات. عندها، نادى هيفاستيون أحد الخدم، وأمره بأن يشوي له دجاجاتٍ عدة وأن يقدمها إليه مع بعض الشراب المثلّج.

"بدأ الخادم بالاعتراض: "لكن، سيدي...".

قال له هيفاستيون مؤنّباً: "هل ستطيعني، أم تريدني أن آمر بجَلدِك؟".

لاحـــظ الخـــادم أنه ليس أمامه أي خيار، ففعل ما أُمِرَ به. شوى الـــدجاجات، وانـــصرف كي يحضر الشراب المحفوظ في إناءٍ من الثلج المضغوط والمحفوظ في أحد الأقبية.

*

وحين أوشكت الشمس على المغيب، حضر غلوكوس الذي كان في حالـــة ســـرورٍ بالغ، ودخل غرفة نوم مريضه. سأله: "كيف حال محاربنا الشجاع؟". ولفتت انتباهه على الفور بقايا الدجاجتين، وقارورة الـــشراب الفارغـــة المرمية في إحدى الزوايا. شحُب لون وجهه على الفـــور، والـــتفت بـــبطء نحو السرير الذي لم يتمكن هيفاستيون من الوصـــول إليه. كان صديق الإسكندر مستلقياً على الأرض منهاراً؛ لا بل ميتاً.

64

أُعلم الإسكندر بالخبر على الفور، فهرع إلى منــزل صديقه على أمــل أن يكــون الأمــر مجــرد سوء فهم. وعند وصوله وجد هناك إيومينــيس، وبطليموس، وسلوقس، وبيرديكاس الذين كانوا قد سبقوه إلى المنــزل، فأدرك من النظرات التي ارتسمت على وجوههم أنه ليس هناك أملٌ على الإطلاق.

في هذا الوقت، كان صديقه قد وُضِع على السرير بعد أن مشّطوا له شعره، وحلقوا له لحيته، وألبسوه ثياباً نظيفة. ألقى الإسكندر بنفسه فوق الجثة، وراح يصرخ ويبكي يائساً. ثم جلس بعد أن نفّس عن أكثر أحــزانه حــدةً في إحدى الزوايا مسنداً وجهه إلى كفّيه، وراح يبكي بــصمت. بقــيَ على هذا الوضع كل الليل، وطيلة اليوم التالي. وسمع الأصــدقاء الذين كانوا ينتظرون في الخارج أنينه بين حينٍ وآخر، كما سمعــوا أنفاسه المتقطعة والخافتة، وسمعوه كذلك عندما كان ينفجر في نوبات نشيجٍ لا عزاء لها.

وعند مغيب شمس اليوم التالي، قرّر الأصدقاء دخول الغرفة.

قــال بطلــيموس: "تعالَ، وغادِر هذا المكان. إن كل ما نستطيع فعله له الآن هو تحضير جنازته".

صــاح الملــك يائــساً: "لا. اتركوني وشأني، لا يمكنني أن أترك صــديقي البائس!". لكن أصدقاءه أجبروه على الوقوف، ثم جرّوه إلى الخـــارج كـــي يسمحوا لرجال التحنيط بالدخول، وهم الذين كانوا ينتظرون في الخارج من أجل تحنيط الجثة.

راح الإسكندر يئنّ ويقول: "إنها غلطتي. إنها غلطتي، فلو لم أترك فيليب في سوسا لكان أنقذه، ولكان الآن لا يزال على قيد الحياة".

قـــال سلوقس: "انشغلنا عنه مؤقتاً للأسف. ولقد تركه الطبيب بمفرده، وذهب كي يشاهد السباقات و...".

ســـأل الإســـكندر وملامح وجهه توحي بالرعب الشديد: "ماذا قلتَ؟".

"هذا ما حدث مع الأسف. يُحتمل أنه اعتقد أن الخطر قد زال. ويـــبدو أنـــه مـــا إن أصـــبح هيفاستيون بمفرده حتى أفرط في الطعام والشراب، وتناول اللحم والشراب المثلّج و...".

صـــاح الإسكندر: "اعثروا عليه! اعثروا على ذلك الجرذ. أريده أمامي على الفور!".

عثر الحراس على الطبيب البائس مختبئاً في القبو. أحضروه إلى الملـــك وقد هرب اللون من وجهه، وكان جسده يرتعش بالكامل. حاول متمتماً إيجاد عذرٍ له، لكن الإسكندر صاح به: "اسكت أيها الـــبائس!". ولكـــمَ الملـــك غلوكـــوس لكمةً شديدة على وجهه. وكانـــت اللكمـــة قوية حيث أرسلته متدحرجاً فوق التراب، كما شُقّت شفته.

قـــال الملك: "أعدموه في الحال". أخذه الحراس إلى الخارج بينما أخـــذ في البكاء متوسلاً الرأفة. أنـــزلوه إلى الباحة، وأسندوه إلى أحد الجـــدران حـــيث تابع البكاء والتوسل. صاح الضابط: "الآن!".فأطلق الرماة أسهمهم في اللحظة ذاتها.

أصابت كل الأسهم هدفها، فانهار غلوكوس متخبطاً في بركةٍ من الدماء والبول من دون أن يصدر عنه أي صوت.

*

بقي الإسكندر غارقاً في لجةٍ من اليأس لأيامٍ عدة. وسيطرت عليه بعد ذلك، وبشكلٍ مفاجئ، نوبة غريبة وشديدة تدفعه لتكريم صديقه الأعز على قلبه. أراد تكريمه من خلال إقامة جنازة له تكون أكثر الجنازات مهابة شهدها العالم على الإطلاق. بعث الملك وفداً إلى ضالع آمون في سيوة كي يسأل ما إذا كان آمون يسمح له بتقديم أضحيات إلى هيفاستيون مثل تلك التي تليق ببطل. وأعطى الملك بعد ذلك جيشه الأوامر بالانطلاق إلى بابل، وأخذ جثة صديقه المحنطة معه من أجل إقامة طقوس الجنازة هناك.

لم يتفهم كل رفاقه هذا التعبير المفرط عن الحزن، بالرغم من أنهم يحبون هيفاستيون جميعاً. وعجز ليوناتوس عن فهم الغاية من إرسال الإسكندر طلباً للضالع في سيوة.

شرح بطليموس بالقول: "يؤسّس الإسكندر دين عالمه الجديد بأسياده وأبطاله. مات هيفاستيون، لكنه يريده أن يكون أحد أوائل أبطال ذلك العالم، وذلك كي يعيش كأسطورة. بدأ الإسكندر منذ زمن بأخذنا إلى عالم الأسطورة. أتفهمون ذلك؟".

هزّ ليوناتوس رأسه: "مات من سوء الهضم، وأنا لا أرى أي شيء بطولي في ذلك".

"ولهذا السبب يعدّ له مراسم جنائزية متقنة. وفي النهاية لن يظل في أذهان الناس إلا هذا المغزى: يشبه حزن الإسكندر على هيفاستيون حزن آخيل على باتروكلوس. لا يهم كيف مات هيفاستيون، لأن ما يهم هو كيف عاش حياته. عاش مثل محاربٍ عظيم، وصديقٍ عظيم، وهو الشاب الذي أوقعته الأقدار قبل أوانه".

أومأ ليوناتوس، بالرغم من عدم تأكده من فهمه ما كان بطليموس يحاول أن يقوله، لكنه أدرك بالغريزة أن ثاناتوس قد تسلّل إلى

أحد جنود الإسكندر، وحمل معه أول الأصدقاء السبعة، وراح يتساءل عن هوية الضحية التالية.

حضر بعض الضالعين الكلدانيين خلال الزحف نحو بابل كي يحذّروا الإسكندر من دخول المدينة. وقالوا له إنه إذا عَبَر بواباها فهو لن يغادرها أبداً. فاستشار الإسكندر أريستاندر وسأله: "ما رأيك؟".

"هل يمنعك أي شيء من القيام بالأمور التي تقرّر القيام بها؟".

ردّ الملك: "لا".

"إذاً، اذهب، لأن أقدارنا هي، على كل حال، بأيدي الأسياد".

دخل الجيش المدينة في بداية فصل الربيع. وأقام الإسكندر في القصر الملكي، وبدأ بإعطاء الأوامر بإقامة المحرقة التي كانت عبارة عن برجٍ يبلغ ارتفاعه مئة وأربعين كيوبيتاً، ويستند إلى منصة صناعية يبلغ كل ضلعٍ من أضلاعها نصف ستاديوم.

أشرف ديايديس من لاريسا، وهو كبير مهندسي الإسكندر، على التصميم وأعمال البناء التي نفذها جيشٌ من النجارين والرسّامين والنحاتين. ارتفع ذلك الهيكل الضخم بعلو خمسة طوابق، كما زُيِّن بالتماثيل التي تمثّل الفيلة، والأسود، وكل أنواع الكائنات الأسطورية، بالإضافة إلى لوحاتٍ كبيرة منقوشة تمثّل مشاهد من الصراع بين جبارَين، والصراع بين مخلوقات نصفها رجال ونصفها جياد. برزت كذلك مشاعل ضخمة مغلفةٌ بصفائح من الذهب الخالص من الزوايا، كما وُضعت في أقصى البرج تماثيل بالأحجام الحقيقية لجنيات البحر محمولة على نعوش. نُقلت جثة هيفاستيون المحنّطة على أكتاف جنود الهيتايروي من سريّته، وذلك بعد انتهاء أعمال تشييد تلك المحرقة الضخمة. سار الإسكندر ورفاقه وراءه إلى أن وصلوا إلى قاعدة البرج. وهناك، رُفعت الجثة المحنّطة باستخدام الآلات التي صُمّمت خصيصاً

لهذا الغرض، ثم وُضِعت فوق النعش. ما إن توارت الشمس خلف الأفق حتى أشعل الكهّان النار في البرج. هبّت ألسنة اللهب على الفور، وغلّفت كل شيء في أثناء التهامها التماثيل، واللوحات المنقوشة، وبقية الزخارف، والنذور الكثيرة.

شاهد الإسكندر هذا المنظر الرهيب والبربري من دون أن يذرف أي دمعة، لكنه لاحظ الذهول الذي تركه المشهد في نفوس كل الحاضرين، الذين دُهشوا من عرض القوة هذا الذي لم يروا له مثيلاً من قبل، ومن هذه الأمور المبالغ فيها. نظر الإسكندر إلى أعلى البرج الذي كان على وشك الانهيار مصدراً صريراً مخيفاً قبل أن يصبح طعماً للنار. تصوّر نفسه فجأة طفلاً من جديد، يحبو في باحة القصر في بيلا، وذلك كي يتبادل تذكارات الصداقة الأبدية مع صديقٍ صغير كان قد التقاه لتوه. سأله هيفاستيون في ذلك الوقت: "حتى الموت؟". فردّ عليه حينها: "حتى الموت".

تحرّكت يده نحو عنقه بصورةٍ غريزية، وبحث عن التذكار الموجود في حاملته الذهبية، والذي كان عبارة عن سن الحليب الخاصّة بصديقه. نزع السلسلة من عنقه ورماها وسط اللهب. غمرته موجة لا متناهية من الكآبة عندما فعل ذلك، وغرق في لجةٍ لا قعر لها من الحزن. غاب إلى الأبد أول أصدقائه السبعة، وأعزّهم على قلبه، وهم الذين وحّدهم الوعد ذاته والحلم ذاته. لقد أبعده الموت وها هي الريح تحمل الآن رماده.

*

انتهى فصل الربيع فبدأ الإسكندر برسم خططه من جديد، وبالتفكير في أحلامه بالسيطرة على العالم، بينما بدأ بطن روكسانا يكبر مع تقدّم حَملها. أمر الملك بحفر ميناءٍ ضخم على ضفتي نهر الفرات

حيث يستطيع استيعاب أكثر من خمسمئة سفينة، كما خطّط بالاشتراك مــع نيرخــوس لبــناء أســطولٍ جديد يستطيع نقلهم بعيداً من أجل استكشاف بلاد العرب، وسواحل الخليج. نقل الفينيقيون أربعين سفينة مفكّكــة إلى بعــد يــصل حتى ثابساكوس الواقعة في سوريا العليا، ثم جمّعوها وأطلقوها في مياه النهر. سارت السفن نــزولاً مع مجرى النهر إلى أن وصلت إلى العاصمة، وكانت مجهزةً بأفراد طاقمها الذين جاءوا من صيدون (صيدا)، وأرواد، وبيبلوس (جبيل). كان كل واحدٍ منهم مــستعداً للاشتراك في هذه المغامرة التي ستأخذهم إلى مناطق بعيدة من بــلاد العرب المجهولة بالنسبة إليهم. تشكل أسطولٌ بكامله من السفن التي تحوي خمسة صفوفٍ من المجاذيف، أو أربعة، أو ثلاثة، وكذلك من ثلاثــين ســفينة أخرى penteconters، والتي نُقلت كلها في غضون شــهرين من ساحل البحر المتوسط إلى الأقيانوس الجنوبــي. لم يقبل الملك الشاب الذي لا يُقهر أن يستبعد أي شيء يقف في طريقه.

أتــت إليه وفود من كل أنحاء العالم: من ليبيا، وإيطاليا، وإيبيريا، والــبونطوس، وأرمينيا، والهند، وذلك للإعراب عن ولائهم له، وكي يقدموا إليه الهدايا، وليطلبوا منه الإذن للدخول في تحالفات. رحّب بهم جمــيعاً في قــصره الفخم، وبين عجائب بابل التي كانت تتحضّر كي تكون عاصمة العالم المعروف.

وفي أحــد أيــام أوائل فصل الصيف، قرّر الإسكندر أن يُبحر في الــبالاكوباس، وهــي قناة مخصصة لتصريف المياه كي لا تفيض على المزروعات، وذلك بينما كان نهر الفرات في أوج مدّه.

تسلّم الملك شخصياً قيادة الدفة إلى جانب نيرخوس، وراح ينظر مندهشاً إلى البرك الكبيرة التي تناثرت هنا وهناك على جانبــي القناة، والتي ظهرت تحت سطوحها قبور قدامى ملوك الكلدانيين وهي نصف

مغمـــورة بالمياه. هبّت نسمة مفاجئة فأوقعت قبعته العريضة التي اعتاد اســـتخدامها كـــي يحمي نفسه من الشمس، وكان شريطٌ من الذهب يلتف حولها؛ وهو الإكليل الذي يمثل عظمة الملك.

غرقت القبعة، لكن الشريط الذهبـــي علق بين حزمة قصب.

غطـــس أحـــد البحارة في الماء على الفور، وتمكّن من الإمساك بالإكلـــيل، لكنه خاف من إفساده إذا أمسكه بيده في أثناء سباحته نحو الـــسفينة، ولـــذلك وضـــعه على رأسه. ذُهل الجميع من هذه الحادثة المـــشؤومة، وذلـــك بعد أن رُفع الرجل إلى السفينة. اقترح الضالعون الكلدانيون الذين كانوا برفقة الملك أن يُكافأ الرجل لأنه أنقذ الإكليل الملكـــي، وأن يُقـــتل بعد ذلك مباشرةً بهدف إبعاد أي حظٍّ سيئٍ عن الملك.

ردّ الملك بأن الجَلد القاسي سيكون كافياً لمعاقبته على هذه البادرة المدنسة، وما لبث الملك بعد ذلك أن وضع الإكليل حول رأسه مجدداً.

ســـعى نيرخوس إلى تسلية الملك، فحدّثه عن تلك الحملة العظيمة علـــى بـــلاد العـــرب، لكـــنه لاحظ وجود ظلالٍ قاتمة تغشى نظرة الإسكندر، وكانت شبيهة بتلك الظلال التي ظهرت على وجهه في أثناء حرق جثمان كالانوس.

وبعـــد مرور أيامٍ عدة، كان الإسكندر جالساً على عرشه، وكان يراقب مناورات فرسانه خارج أسوار المدينة. وقف الإسكندر في لحظةٍ معينة كي يتحدّث إلى القادة، فاغتنم رجلٌ غريب فرصة انشغال الجميع بالفرسان وأنشطتهم، وتسلّل من بين أمناء الخزانة، وجلس على عرش المـــلك، وراح يضحك بجنون. قتل الحراس الفرس الرجل على الفور، لكـــنّ الضالعين الكلدانيين قرعوا صدورهم، وخدشوا وجوههم عندما رأوا أسوأ نذير شؤمٍ يُمكن أن يحدث.

طرد الإسكندر عنه أكثر الأفكار إثارةً للكآبة التي نتجت عن كل هذه الإشارات السيئة، وذلك بسبب حبّه لروكسانا، وبسبب رغبته في رؤية ولده.

قال الملك: "أتساءل ما إذا سيشبهكِ أنت، أم سيشبهني أنا. يقول معلّمي أرسطو إن المرأة هي مجرد وعاء لبذرة الذَكَر، لكنني أعتقد أنه حتى هو نفسه لا يصدّق هذه النظرية، لأنه من الواضح أن بعض الأفراد يشبهون أمهاتهم أكثر من آبائهم. خذيني أنا على سبيل المثال".

"لماذا؟ وكيف تشبه والدتك؟".

"ستعرفين عما قريب. سأستدعيها إلى هنا عندما يولد ابني. إنها جميلة، ولكن مرّت عشر سنين... وكانت عشر سنين صعبة بالنسبة إليها".

انتشرت الشائعات عن كل نذور الشؤم تلك بين أصدقائه، فتنافسوا جميعاً على دعوته إلى ولائمهم كي يرفعوا معنوياته. قَبِل الإسكندر دعواتهم كلها، ولم يرفض دعوة واحد منهم، وأمضى فترات النهار والليالي وهو يأكل ويشرب من دون قيد. وعاد ذات مساء من إحدى هذه الدعوات وهو يشعر أنه ليس على ما يُرام. وقال إنه يشعر بالدوار، وإن أذنيه تطنّان، لكنه لم يعطِ الأمر أهميةً. أخذ حماماً، ثم توجّه للنوم إلى جانب روكسانا التي كانت قد استسلمت للنوم قبله، بينما كان أحد المشاعل يشتعل في الغرفة.

انتابته حمى في اليوم التالي، لكنه نهض بالرغم من ذلك، وبالرغم من إصرار الملكة على ضرورة بقائه في السرير. وتوجّه عند الظهر كي يتناول الطعام مع أحد أصدقائه من اليونانيين، والذي انضمّ إليه قبل وقت قصير في بابل، وكان يُدعى ميديوس. وعندما حلّ المساء، شعر الإسكندر بألم حادٍّ ومفاجئ في جهته اليمنى وكان لا يزال يتناول

طعامه. كان الألم شديداً إلى درجة أنه بدأ يصرخ. رفعه الخدم وجعلوه يستلقي على سرير، فبدأ الألم يخفّ تدريجياً.

استُدعيَ أحد الأطباء بسرعة كي يفحصه، لكنه لم يجرؤ على لمس المنطقة التي كان الملك يحسّ فيها بالألم. ارتفعت حرارته كثيراً في هذا الوقت، وشعر بأنه متعب حتى الموت.

"أريد نقلك إلى القصر يا مولاي".

ردّ الإسكندر: "لا. سأبقى هنا هذه الليلة. أنا متأكد من أنني سأكون في حالٍ أفضل في الغد".

مكث الملك في منزل ميديوس تلك الليلة، لكن حرارته لم تنخفض عند الصباح بل ارتفعت أكثر.

استمرت حالته في التدهور عند حلول اليوم الثالث، ولكنه لم يظهر أنه قلقٌ بشكلٍ خاص. دعا رؤساء أركان جيشه إلى الاجتماع، وبالرغم من أن نيرخوس ورفاقه أدركوا أنه مريض، إلا أنهم استمروا في مناقشة تفاصيل الحملة وموعد مغادرتهم.

اقترح بطليموس: "لماذا لا نؤجل كل شيء إلى وقتٍ لاحق. يتعيّن عليك أن تستريح قليلاً، وأن تنال قسطاً من العناية كي تستعيد نشاطك مجدداً. يُحتمل أنه يتعيّن عليك أن تبتعد عن هذا المكان، فالحرارة هنا لا تطاق لذلك يصعب عليك النوم. ألم تتساءل عن السبب الذي كان يدفع الملك داريوس إلى تمضية فصول الصيف في إيكباتانا، أي في المناطق الجبلية العالية؟".

ردّ الإسكندر: "ليس أمامي ما يكفي من الوقت للصعود إلى الجبال، وليس أمامي وقتٌ كي أنتظر انخفاض حرارتي، فهي ستنخفض عندما تقرر ذلك. أريد، ببساطة، المضي قُدُماً في هذا الوقت. ماذا تعرف يا نيرخوس عن بلاد العرب وعن مدى اتساعها؟".

"يقـــول بعضهم إنها كبيرة مثل الهند، لكن يصعب عليّ تصديق هذا".

ردّ الإسكندر: "سنعرف ذلك عما قريب على كل حال. فكّروا في الأمر يا أصدقائي. إنها بلاد التوابل والبخور والصبّار، وصمغ نبات المرّ".

تظاهـــر الرفاق بالحماسة، لكنهم أدركوا في أعماقهم أن كلماته هذه نذير شؤم، لأن الملك قد سمّى من دون أن ينتبه مجموعة من العطور التي تُستخدم في تحنيط الموتى.

أرســلت روكـــسانا في طلب فيليب الذي كان في ذلك الوقت يرافق فرقة من الجيش أُرسلت إلى شمال المدينة، وذلك كي يعالج المرضى الـــذين أصيبوا بوباء الزحار. ولكن حينما وصل الجندي الذي أرسلته الملكـــة إلى المعـــسكر كـــان فيليب قد انطلق شمالاً من دون أن يترك إشاراتٍ محددة عن كيفية إيجاده.

اســتمر الإســكندر في الأيـــام الثلاثة التالية في القيام بواجباته وحـــضور اجتماعاته، كما ترأس مراسم تقديم الأضحيات إلى الأسياد، واجـــتمع بـــرفاقه، وذلك لتنظيم الحملة في بلاد العرب. ولكن، اتضّح للجميع أن حالته ما زالت تتدهور.

ظهر بعض التحسّن في حالة الملك عندما عُثر على فيليب أخيراً. فلقد انخفضت الحرارة، وتبادل الإسكندر كلماتٍ قليلة مع طبيبه وقال له: "عرفت أنك ستأتي يا طبيبـــي. أعرف الآن أنني سأتحسّن".

ردّ فيلـــيب: "ستتحسّن بالطبع. أتتذكر ذلك الوقت عندما كنت شبه ميت بعد أن سبحتَ في ذلك النهر المتجمد؟".

"يبدو وكأن ذلك قد حدث بالأمس".

"أتذكر المذكرة التي بعثها إليك ذلك البائس بارمينيون؟".

"أجل. أذكر رسالته التي قال فيها إنك تقوم بتسميمي".

راح فيليب يضحك وهو يقول: "كانت المعلومات صحيحة. كنت أدسّ لك السمّ الذي كان من شأنه أن يقتل فيلاً، لكنه لم يؤثّر فيك قطّ! اكتسبتَ لياقةً بدنية أفضل مما كنتَ عليه في السابق. إذاً، هل سيتمكن ارتفاع بسيط في درجة الحرارة من التأثير فيك برأيك؟".

ابتسم الإسكندر: "أنا لا أصدّقك. ولكن، لطفٌ منك أن تقول ذلك".

وفي اليوم التالي، ساءت حال الإسكندر كثيراً.

ناشدت روكسانا فيليب قائلة: "أنقِذه أيها الطبيب. أنقِذه أرجوك". هزّ فيليب رأسه دلالةً على عجزه عن إنقاذه، بينما راحت ليبتين تبكي وهي تغسل جبهة الإسكندر في محاولة يائسة منها كي تريحه قليلاً.

عجز الإسكندر في اليوم التالي عن الوقوف بينما ازدادت الحمى كثيراً. ونُقل الملك بواسطة نقّالة إلى القصر الصيفي حيث يكون الهواء عليلاً عند المساء، وأمر فيليب باستخدام الحمامات الباردة من أجل تخفيض الحرارة، لكن كل جهود الطبيب باءت بالفشل. في هذه الأثناء، غرقت روكسانا في يأسٍ كامل، ورفضت أن تتركه ولو للحظة، وأمطرته بقبلاتها ومداعباتها. ولازمَه رفاقه ليلاً ونهاراً من دون أن يستريحوا، أو حتى من دون أن يتناولوا طعاماً.

وهرع سلوقس إلى هيكل السيّد مردوك، وهو حامي المدينة، وسيّد الشفاء. وطلب من الضالعين نقل الإسكندر إلى الهيكل كي يشفى، لكنهم أجابوه: "لا يريد السيّد أن يُنقل الإسكندر إلى هنا".

فعاد إلى القصر وهو يشعر بالغمّ، واجتمع مع الرفاق ومع فيليب كي يُبلغهم بنتيجة مهمته.

صاح لايسيماخوس: "كان يجب عليك أن تقتل أولئك الضالعين. وإذا كانوا عاجزين عن شفاء الملك فما نفع وجودهم؟".

قال بيرديكاس: "أعتقد أنه سينجو هذه المرة. لا تقلقوا لأنه مرّ بحالاتٍ أسوأ من هذه".

حدّق إليه فيليب بعينين تحملان حزناً كبيراً، ثم دخل إلى غرفة الملك. طلب الإسكندر أن يشرب ماءً بصوتٍ كاد أن يكون غير مفهوم.

عجز الملك في اليوم التالي عن الكلام نهائياً.

انتشرت الأخبار بين الجنود عن مرض الملك الشديد، وقال بعضهم إنه مات فعلاً، فتوافدت مجموعات عديدة منهم إلى القصر ووقفت قبالة المدخل، وهددت بخلع الأبواب إذا لم يسمح لها بالدخول.

قال بطليموس وهو ينزل إلى غرفة الحرس: "سأذهب وأستطلع الأمر".

صاح أحد قدامى الجنود: "نريد أن نعرف حالة الملك!".

طأطأ بطليموس رأسه، وقال: "الملك يحتضر. تعالوا الآن وشاهدوه واحداً تلو الآخر ولكن بصمت. دعوه ينعم ببعض الهدوء في ساعاته الأخيرة".

صعد الجنود الدرج بصفٍّ واحد؛ الواحد تلو الآخر، وساروا عبر الممرات إلى سرير الملك المحتضر. مرّوا أمامه والدموع تفيض من أعينهم، وودّعوه بإشارة صغيرة بأيديهم. نظر الإسكندر إلى كلّ واحدٍ منهم وأومأ إليهم بحركة تكاد تكون غير ملحوظة.

تواجد جميع رجاله قربه، وهم الجنود الذين رافقوه عبر ألف مغامرة، وهم الرجال الفولاذيون الذين أخضعوا أنهر النيل، ودجلة،

والفرات، والسند. رأى الإسكندر وجوههم التي ترك الجليد والشمس آثارهما عليها، كما رأى وجناقم الخشنة وقد ترطبت بالدموع. وفجأةً، عجز عن رؤية أي شيء، لكنه سمع بكاء روكسانا اليائس، ونشيج ليبتين، وأخيراً سمع صوت بطليموس وهو يقول: "لقد انتهى الأمر... مات الإسكندر".

*

فكّر في والدته، وفكّر كيف أن انتظارها له كان عبثًا. فكّر في أنه قد يتمكّن من رؤيتها في أعلى برجٍ في القصر وهي تصرخ وتبكي وتناديه يائسةً: "أيها الإسكندر، لا تذهب... عُد إليّ أتوسّل إليك!". بدا له أن تلك الصرخة قد أعادته للحظة فقط. وشيئًا فشيئًا بدأت تلك الكلمات، وتلك الصرخات، وذلك الوجه بالتلاشي بعيداً، إلى أن ضاعت كلها وسط الرياح... فرأى نفسه أمام سهلٍ لا حدود له، وأمام مرجٍ مليء بالأزهار، ثم سمع نباح كلب، لكنه لم يكن ذلك النباح المحزن لسربيروس الحارس، بل كان صوت بيريتاس! كان يعدو نحوه مبتهجاً إلى حدّ الجنون، أي تماماً كما كان في ذلك اليوم الذي عاد فيه من فترة النفي. سمع في ذلك السهل مترامي الأطراف عَدواً مدوياً، وما لبث أن سمع بعد ذلك صوت صهيل ترددت أصداؤه في الأرجاء. كان ذلك بوسيفالاس وهو يعدو نحوه بعرفه الذي يتماوج مع الريح، وسرعان ما امتطى الإسكندر صهوة جواده مثل ما فعل أول مرةٍ في ذلك اليوم في ميزا، وصاح به: "انطلق يا بوسيفالاس!". فانطلق الجواد مثل بيغاسوس (الحصان المجنّح) متوجّهًا نحو الأفق الأخير، نحو النور.

خاتمة

"كـــان جـــسدك لا يـــزال دافئاً عندما بدأنا بالجدال حول مَن سيخلفك، كما تحاربنا من أجل هذا الأمر لسنوات عديدة. لم تعد أنت بينـــنا بعد الآن، واختفى ذلك الحلم الذي جمعنا في ما مضى. اختارت ليبـــتين اللحـــاق بك، فوجدناها محتضرةً قرب سريرك بعد أن قطعت شـــرايين معصميها. أما الملكة سيسيغامبيس فقد غطّت وجهها بنقاب أســـود، وامتنعت عن تناول الطعام حتى ماتت جوعاً. لكن روكسانا اختارت أن تعيش كي يتمكّن ابنك من العيش.

حقق بيرديكاس حلمه في النهاية فتزوج كليوباترا، لكنه كان أول من سقط في محاولة الحفاظ على وحدة إمبراطوريتك. سقط في معركةٍ ضد جيوشي. يا لبيرديكاس المسكين!

أمـــا الأمـــر المستغرب هنا فهو أنه بالرغم من أننا تحاربنا بمرارة، وعقـــدنا التحالفات في ما بيننا ونقضناها، إلا أننا لم نكره بعضنا بعضاً في الحقيقة، بل حافظنا جميعاً على صداقتنا بمعنى من المعاني. اجتمعنا في بابل ذات مرة بعد مرور سنواتٍ عدة على موتك، وذلك في سعي منّا إلى التوصـــل إلى نوعٍ من أنواعِ الاتفاق. ولكن، سرعان ما تحوّل ذاك الاجـــتماع إلى مـــواجهة. عندها، ظهر إيومينيس فجأة من وراء أحد الأبـــواب، وألقـــى عباءتك وصولجانك فوق عرشك الفارغ، فتوقف الجـــدال علـــى الفور، وكأن ذلك حدث بقدرة قادر. حينها هدأت أصـــواتنا، وكذلك هدأت فجأةً نظراتنا وملامح وجوهنا. تمكّنتَ من الـــرجوع كي تجلس بيننا ولو للحظةٍ واحدة. وقفنا أمام تلك العباءة، وأمام ذلك العرش الخالي وكأنك عاودتَ الظهور أمامنا فجأة وبمعجزة.

لم نكن أهلاً لك، ولكننا حاولنا مع ذلك أن نقلدك في كل شيء: أمرنا أن نُرسم بالأوضاع التي كنتَ تُرسم بها ورؤوسنا مائلة قليلاً نحو أكتافنا اليمنى، وشعر رؤوسنا ممشط حيث يرتفع أمام جبهاتنا؛ حتى من كانوا ذوي شعرٍ خفيف. كان كل ما نحاول فعله، ببساطة، هو استغلال صورتك. لم نمتلك الجرأة حتى لإنقاذ عائلتك التي دُمّرت وأُبيدت من دون رحمة عن طريق ملاحظة هامشية كتبت في أسفل اتفاقية: "إذا تعرّض الطفل للسّوء، فإن مقدونيا ستستمرّ...". كان الأمر يشبه الحكم عليه بالموت. يا لهول ما حصل، لأن زوجتك، ووالدتك، وابنك، ماتوا جميعاً. إن تعطشنا إلى السلطة ترك أرواحنا عطشى هي الأخرى، فتحولنا إلى وحوش.

وسرعان ما تخلّينا عن زوجاتنا الفارسيات اللواتي اخترهن لنا في ما عدا سلوقس، الذي أحبّ زوجته آباما، وأطلق اسمها على مدن جميلة عدة.

أما سلوقس... فقد كان الإسكندر الجديد لبعض الوقت، وكاد أن ينجح في إعادة الحياة إلى إمبراطوريتك. ولقد تقدّم الآن في السنّ مثلي تماماً، كما تلازمه الأوجاع والآلام. سبق لنا أن أعلنّا الحرب أكثر من مرة، أو بالأحرى اشتبك جيشانا عند الحدود في سيليسيريا، وهي منطقة حدودية بقيت من دون تحديد بشكلٍ واضح حتى بعد عقد إحدى المعاهدات العديدة، لكنّنا بقينا على علاقة جيدة على الدوام وكأننا صديقان حميمان.

لا أعرف كيف أصبحت أحواله في هذا الوقت، لكنني أفترض أنه يقترب من نهايته هو الآخر. أما بالنسبة إليّ، فقد مرّ عامان على تركي صولجان الملك لصالح ابني، بطليموس الثاني. فعلت ذلك كي أتفرغ لكتابة هذه القصة. أما الشيء الوحيد الذي يمكنني أن أفتخر به، عدا

عـــن قـــراري ترك السلطة قبل أن يجبرني الموت على ذلك، فهو أنني أحـــضرتك إلى هـــنا، إلى إسكندريتك وهي المكان الوحيد الذي يليق بـــك. آه! كم أود لو تراها الآن! إنها جميلة بالفعل، بل إنها مدينة رائعة ومزدهرة، أي مثل ما حلُمتَ تماماً. أتذكر؟

كنا شباناً في ذلك الوقت، وكانت أرواحنا تلتهب بأحلامٍ رسمَتها لـــنا. كـــنا مـــثل أسياد عندما كنا نسير حولك فوق صهوات جيادنا متألقين بدروعنا.

أســـتعيد كـــل هذه الأشياء في ذهني الآن، بعد أن انتهيت من كـــتابة الفـــصل الأخـــير من تاريخي، وكأنها تحدث مجدداً. سمعت أحاديثـــنا، ودعاباتـــنا، وجدالاتـــنا، ورأيت ليوناتوس يسير بجواده حولـــنا. أتتذكـــر كل ذلك؟ سيُنسخ كل ذلك بطريقة صحيحة، وســـيكوّن الـــنصّ جيداً، وسيحرّر بحسب القواعد التي علّمنا إياها أســـاتذتنا في بيلا وميبزا. لكنني أفضّل أن أتذكر كل ذلك بالطريقة التي كتبت بها، أي بهذه الطريقة؛ أي قصتنا كما عشتها مجدداً يوماً بيوم، ولحظةً بلحظة.

أنهـــيت هـــذا اليوم كل ما يتعيّن عليّ القيام به. فعندما شعرت بأنفـــاس ثاناتوس الباردة حول عنقي، قررت أن آتي إلى هنا كي أتمكن مـــن نـــسيان كل ما حدث بعد أن غادرتنا، وكي أموت بسلام إلى جانبك يا صديقي العزيز.

حـــان الوقت الآن ليجتمع جنود الإسكندر مجدداً، مثل ما فعلوا عـــندما أتينا كي نلتقيك في إيليريا فوق تلك البحيرة المتجمدة، وفوق الـــثلج الذي كان يتساقط بغزارة. حان الوقت الآن كي نغمض أعيننا، وأعين أولئك الذين عاشوا فترة طويلة جداً. سنكون معاً عندما نستيقظ مجدداً، وسنكون شباناً ووسماء كما كنا ذات يوم، وسنكون مستعدين

للسير معك، وإلى جانبك كي نقوم بمغامرتنا الأخيرة. لكنها، هذه المرة، ستكون مغامرةً إلى الأبد".

ملاحظة المؤلف

كان قصدي من وراء كتابة قصة الإسكندر بأسلوبٍ معاصر هو رواية إحدى أعظم المغامرات التي حدثت في كل الأزمان، وبأكثر الطرائق واقعية والتزاماً. ومع ذلك، سعيت دوماً إلى أن أبقى مخلصاً للمصادر قدر الإمكان؛ الأدبية أو المادية على حدٍّ سواء.

عمدت في عملي هذا إلى استخدام لغة هي - بالإجمال - عصرية نسبياً، وذلك لأن العالم الهيليني كان *عصرياً* بطرائق متعددة: في الفنّ، وفي الإبداع الهندسي، وفي التقدم التقني والعلمي، وترافق كل ذلك مع تذوّق كلّ جديد ومدهش. وحاولت بالرغم من كل ذلك أن أتجنّب الإكثار من استخدام العبارات غير المناسبة للسياق التاريخي. فلقد استخدمت، على سبيل المثال، في الحقل العسكري تعابير عسكرية مثل سرية أو قائد وذلك بدلاً من لوجوس وستراتيجوس، وهما كلمتان يصعب فهمهما - ربما - بالنسبة إلى معظم القراء. أما في الحقل الطبي فقد أبقيت على استخدام كلمة مبضع للإشارة إلى الأداة الجراحية الموثقة جيداً في الدراسات الأثرية. أما بالنسبة إلى العبارات القديمة التي بقيت مفهومة بالنسبة إلى قارئ هذه الأيام فقد فضّلت الإبقاء عليها.

سعيت كذلك إلى الإبقاء على اللغة المستخدمة عند شخصيات متنوعة في دوائر محددة (رجال، نساء، جنود، ساقطات، أطباء، فنانون، ضالعون). ورجعت في هذا المجال إلى الشعراء الهزليين (وعلى الأخص أريستوفان وميناندر)، وإلى كتّاب الأمثال قبل الآخرين، لأن فن هؤلاء كان يتطلب منهم استخدام لغة واقعية، حتى في المجالات الشعبية

والسوقية. كان هؤلاء الشعراء أنفسهم مصدراً ثميناً في ما يتعلق بمظاهر عديدة في الحياة اليومية، مثل الموضة، والمأكولات، والأمثال، والمأثورات.

*

أما بالنسبة إلى الأحداث التاريخية، فقد استفدت على الأخص من بلوتارك، وديودوروس سيكيلوس، وآريان، وكورتيوس روفوس، مع إشاراتٍ قليلة إلى تروغوس **وقصة الإسكندر**. ورجعت في ما يتعلق بالخلفيات العرقية والسلوكية إلى أكثر الدلائل حيوية الموجودة في مقاطع من مؤلفات بليني، وفاليريوس ماكسيموس، وثيوفراستوس، وبوزانياس، وديوجينيس لايرتيوس، لكنني استفدت كذلك من مصادر متعددة مثل زينوفون، وهيليان، وأبولودوروس، وسترابو، وبالطبع ديموستين وأرسطو، بالإضافة إلى مقاطع متفرقة من أعمال المؤرخين اليونانيين الضائعة. استفدت كذلك من المراجع الأثرية بشكل عام لتدعيم إعادة تصوير الأمكنة، وداخل الأبنية، والتجهيزات، والأسلحة، وأدوات الزينة، والأثاث، والآلات، والأدوات الأخرى، بالإضافة إلى القبر الملكي المكتشف حديثاً في فرجينا، وهي كلها أمور سمحت لي بإعادة رسم جنازة فيليب الثاني بصورة واقعية.

أما عندما تقدّمت قصة القائد المقدوني لتأخذ سياقها التاريخي الحقيقي، فقد واجهت خيارات قصصية محددة، والتي تبيّن في ما بعد أنها خيارات تاريخية، امتدت أحياناً إلى ما يتعدى التفسيرات التقليدية. وهنا، تصلح معركة غرانيكوس لتكون مثالاً في هذا السياق، وهي المعركة التي فضّلت فيها وضع ما أعتقد أنه إعادة تكوين أكثر واقعية مما أورده كاليستين في نصوصه التي كتبها.

وأقدمت كذلك على دمج شخصيتين مختلفتين، وهما إسكندر لينزيستيس وإمينتاس في شخصية واحدة هي إمينتاس، وذلك كي

أتجنب الارتباك الذي كان سيشعر به القارئ، والذي كان سيضيع بين هذه الشخصية وشخصيتين أخريين تحملان اسم الإسكندر. وحافظت بالرغم من ذلك على المشاكل المتعلقة بالظروف (السلالية، والسياسية، والنفسية) التي أحاطت بهذين الشخصين.

وبالرغم من كل ذلك، بذلت جهوداً في إعادة رسم طبيعة الحصارات الطبوغرافية، والتكتيكية، والاستراتيجية التي فُرضَت على ميليتوس، وهاليكارناسوس، وصور، وكذلك الأمر بالنسبة إلى معركة إيسوس، واشتمل الأمر على زيارةٍ ميدانية قمت بها إلى ميدان المعركة. أما المصادر الأدبية التي استندت إليها في الجزء الثاني فكانت بالإضافة إلى تلك التي سبق الإشارة إليها، وبالإضافة إلى مصادر هيرودتس (مثل الإشارة إلى الأفاعي الطائرة) مقتطفات من أشعار هوميروس وهزيود، بالإضافة إلى بعض المقتطفات من الصفحات التقنية من كتاب **استراتيجيماتا** لآيناس تاكتيكوس وفرونتينوس. استخدمت كذلك مصادر مادية عدة، ولا شك في أن القارئ النبيه سيتعرّف إلى بعضها في الأعمال الفنية، والنقود، والفسيفساء. يُضاف إلى ذلك صُوَر الوجه التي كانت مصدر إلهام مستمر، بالإضافة إلى المعلومات الحديثة المستقاة من الحفريات في مواقع مسماة عدة. وأجريت كذلك دراسات ميدانية شاملة في كل هذه الأماكن وفي مناسبات عدة.

*

يُحتمل أن يكون الجزء الأخير من قصة الإسكندر هو الأكثر تعقيداً، والأكثر تطلباً، من زاوية تفسير الوقائع. إذ إن بعض الأحداث الواردة في مصادر كثيرة تتسم بالغموض الكامل، مثل الحريق الذي شنّ في بيرسيبوليس، وكذلك موت كلايتوس الأسود، والمؤامرتين اللتين خطط فيهما لاغتيال الإسكندر، والتي اشتملت إحداهما على فيلوتاس،

فيما اشتملت الأخرى على التابعين. لا تتضمن مهمة هذه القصة كشف الغموض عن المشاكل التي كانت موضع جدالٍ واسع في عالم الأدب التاريخي، وبالتحديد لأنه يجب على القصة أن تحافظ على نظرة أكثر شمولية، تفتقد إليها البحوث المتخصصة. ويمكننا إعطاء مثال على ذلك المشهد الذي يسأل فيه بارمينيون الإسكندر عن الهدف من وراء تدمير بيرسيبوليس.

صوّرت القصة، على كل حال، بصدق حياة ذلك الفاتح المقدوني، حتى في لحظاته الأقل جاذبية، والأقل تشريفاً. وأجريت مع ذلك تحسيناً طفيفاً على بعض الحوادث التي أبرزتها المصادر بصورة سلبية، وذلك كي أقدّم ما يُمكن أن يكون السيناريو الأكثر واقعية وأصالة.

يُحتمل أن يكون لدى القراء - الذكور والإناث - ولكن الإناث منهم تحديداً، الانطباع بأن بعض الشخصيات النسائية كان يُمكن أن تكون ذات مكانة أكثر أهمية عند الشخصية الرئيسة في هذه الرواية، لكنني أركز في هذا المجال أيضاً على رغبتي في تقديم الأمور بأكثر ما يُمكن من الصدقية بالنسبة إلى الظروف الحقيقية للمجتمع في ذلك الوقت، وذلك في ما يتعلق بشخصية الإسكندر. إذ تُغفل المصادر القديمة الشخصيات الأنثوية إغفالاً يكاد يكون تاماً، لكنني حاولت أن أعطي هذه الشخصيات وزناً أكبر، وأن أعيد تصوير حضورها وتأثيرها في الحوادث التي ترويها القصة، وذلك عن طريق اعتماد بعض العمليات المنطقية.

يُمكن اعتبار إعادة رسم التضاريس التي وقعت فيها الأحداث أمراً تقريبياً، ويعود ذلك، مع الأسف، إلى ضياع **إيفيميريديس**، وهو الكتاب الذي يُحتمل أن يكون إيومينيس من كارديا قد كتبه، وكذلك

تقارير ضباط الزحف الوارد ذكرهم في هذا الكتاب، والتي كانت ستقدم وصفاً أكثر دقةً لمخطط سير الحملة، وهو الأمر الذي منعنا من تكوين صورة أكثر واقعية.

فاليريو ماسيمو مانفريدي

«الآن لا يمنعني من الوصول إلى الحدّ الأخير سوى القدر،
وأمواج الأقيانوس الساكن.
كان من الأجدى السعي وراء
الحلم الذي يجعل الروح تتوهج
بينما الشمس تضيء الغابات عند مغيبها.
الحلم، ذلك الظل الأزلي للحقيقة».



تستمر رحلة الإسكندر الملحمية في قلب آسيا
حتى تصل به إلى متاهات الهند.

ويستمر الجيش المقدوني في زحفه، ساحقاً المقاومة التي يلقاها عند كل منعطف. وها هي عجائب بابل تُنهب بسرعة، ويتحول قصر بيرسيبوليس إلى رماد بفعل الحرائق، وتدمّر الإمبراطورية كي تبدأ حقبة جديدة دامية.

كانت هناك أمور أخرى تشغل بال الإسكندر، فبدأ يتملّكه مشروعه الطموح الهادف إلى توحيد شعوب الإمبراطورية في أمّة واحدة يحكمها، إلى حين يلتقي الملكة روكسانا ويغرم بها، منحه حبّه لها القوة من أجل تحقيق قدره المحتوم...

هذا هو الجزء الأخير من قصة رائعة ومثيرة ورومنسية، وخاتمة مدهشة لثلاثية الإسكندر التي لاقت رواجاً عالمياً.

ISBN 978-614-01-0135-7
9 786140 101357

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف